

الدولة والمجتمع في العصر الموحدي

518-668هـ/1125-1270م

ⴰⵡⴰⵏⴽ ⴷ ⵡⴰⵎⵓⵏ ⴳ ⵜⴰⵙⵓⵜ ⵏ ⵉⵎⵓⵃⵃⴷⵉ

ذ. الحسين أسكان

2010

الدولة والمجتمع في العصر الموحدي

518 - 668هـ / 1125 - 1270م

ⴰⵡⴰⵍⵃ ⴷ ⵡⴰⵎⵓⵜ ⵣ ⵜⴰⵙⵓⵜ ⵏ ⵉⵎⵓⵍⵍⴷⵏ

المملكة المغربية
المعهد الملكي
للثقافة الأمازيغية

مركز الدراسات التاريخية والبيئية



ⵜⴰⴳⵍⴷⵉⵜ ⵏ ⵍⵎⵖⵔⵉⴱ
ⴰⵙⵉⵏⴰⴳ ⴰⴳⵍⴷⴰⵏ
ⵏ ⵜⵓⵙⵙⵏⴰ ⵜⴰⵎⴰⵣⵉⵖⵜ

ⵜⴰⵎⵙⵙⵓⵔⵜ ⵏ ⵓⵎⵣⵔⵓⵢ ⴷ ⵜⵡⵏⴰⴹⵉⵏ

سلسلة الدراسات والأطروحات رقم : 4

الدولة والمجتمع في العصر الموحدي

518 - 668هـ / 1125 - 1270م

ⵉⵍⵎⵓⵃⵃⴷⵉⵏ ⴳ ⵜⵙⵔⵜ ⴷ ⵜⵎⵓⵜⵓ ⴷ ⵓⵣⵎⵣ

ذ. الحسين اسكان

منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

مركز الدراسات التاريخية والبيئية

سلسلة الدراسات والأطروحات - رقم 4 -

العنوان : الدولة والمجتمع المغربي في العصر الموحدي

المؤلف : الحسين أسكان

التنسيق : الوافي النوحي

الناشر : المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية

الإخراج والمتابعة : مركز الترجمة والتوثيق والنشر والتواصل

تصميم الغلاف : وحدة النشر

صورة الغلاف : مدرسة تينمل

المطبعة : مطبعة المعارف الجديدة - الرباط

الإيداع القانوني : 2009 MO 3137

ردمك : 6 - 041 - 28 - 9954

أصل هذا الكتاب أطروحة تقدم بها المؤلف، لنيل دكتوراه الدولة بجامعة سيدي محمد بن عبدالله - كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز - فاس، تحت إشراف ذ. الهاشم العلوي القاسمي، بعنوان: الدولة والمجتمع على العهد الموحدي518-668 هـ/ 1125-1270م ونوقشت بتاريخ 2001/06/21 وحصل بها المؤلف على دكتوراه الدولة في التاريخ بميزة حسن جدا.

شكر وامتنان

أهدي هذا العمل إلى كافة أفراد أسرتي الصغيرة، وفي مقدمتهم رفيقتي على درب الحياة مغوس رقية التي تحملت عني متاعب الحياة المشتركة أثناء إعداد هذا البحث، وأشكر كل من قدم لي يد العون، من قريب أو بعيد، لإنجاز هذا العمل، من زملائي الأساتذة في العمل، وأخص بالذكر لجنة مناقشة هذه الأطروحة، ومستخدمي الخزانات، فأنا ممنون لهم جميعا ولهم مني جزيل التقدير. الشكر موصول كذلك لزملائي على تفضلهم بمراجعة وتصحيح هذا العمل قبل طبعه.

مقدمة

خلال العقود الأخيرة، حصل تراكم معرفي في الدراسات الخاصة بالتاريخ الاجتماعي المغربي، خلال العصر الوسيط[1] ؛ ومع هذا التراكم، ما تزال بعض الفترات في حاجة إلى المزيد من الدراسة، مثل الفترة الموحدية التي ما تزال عدد من قضاياها التاريخية قائمة ومعلقة، بالرغم من عدد الدراسات التي كرست لتاريخ الموحدين منذ الستينيات من القرن20 م إلى الآن، منها نظام طبقات الموحدين الذي وضعه ابن تومرت وما أدخل عليها من تعديلات[2]. وقد تنبه روجي لوتورنو، منذ 40 سنة، إلى ضرورة وأهمية البحث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، في العصر الموحدي، لفهم بعض الظواهر التاريخية المتعلقة بهذه الفترة. ومما يضفي أهمية إضافية على دراسة هذه المرحلة، أن العصر الموحدي، يمثل عهدا متميزا في المغرب الوسيط، على أكثر من مستوى، إذ أحدث الانقلاب الموحدي تغييرات طالت مجالات عديدة، مما حمل بعض الباحثين على نعت الحركة الموحدية، بأنها حركة ثورية[3].

حدد الإطار الزمني للموضوع في فترة قرن ونصف من الزمن، أي بين سنتي518هـ/1125م، أي سنة انطلاق الإصلاح الموحدي وقيام دولة العصبية المصمودية وسنة 668هـ/1270م التي استولى فيها المرينيون على كرسي مملكة الموحدين بمراكش. ورغم أن هذين الحدين الزمانيين لا يعنيان أكثر من حدثين عسكريين وسياسيين، ولا

---

(1) - هاشم العلوي القاسمي، **مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن 4 هـ10/ م**، ط وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة - المحمدية 1996: إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين، المجتمع، الذهنيات، الأولياء** ط، دار الطليعة - بيروت 1993 : **محمد فتحة :النوازل الفقهية والمجمع، أبحاث في تاريخ الغرب الإسلامي(من القرن6-9 هـ 12-15/م)**، منشورات كلية الآداب والعلوم إنسانية عين الشق، الدار البيضاء سنة1999؛ Kably Mohamed, Société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du Moyen-Age. Maisonneuve et Larosse.Paris1986؛ الهلالي محمد ياسر، **مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنين 8 و9هـ،14/15 م**، مساهمة في دراسة بعض مصطلحات التراتب الاجتماعي «العامة» و«الخاصة»، «الطبقة» «المرتبة»، أطروحة نوقشت بكلية الآداب بالرباط 2000-02-24.

(2) - لوتورنو، روجي، **حركة الموحدين في المغرب في القرنين12 و13م**، تعريب أمين الطيبي، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء ط 2 سنة 1998 ص 112.

(3) - من ضمنهم على سبيل المثال، لا الحصر، الأستاذ عباس الجراري، «الموحدون، ثورة سياسية ومذهبية»، مقال منشور في مجلة المناهل عدد1 سنة 1974، ومحمد العسري، «مدخل لدراسة كتاب أعز ما يطلب...» في مجلة كلية الآداب تطوان عدد 1سنة 1986 ص95- 69.

يختلفان عما شهده المغرب، قبل القرن السادس وبعده، ولا ينتظر منها تغيير شيء كثير من البنيات الاجتماعية القائمة آنذاك، كما أنها لا تشكل تمفصلا لمنعطف تاريخي هام .غير أن القصد من اختيار هذا الإطار الزمني هو دراسة كيفية حلول عصبية قبلية، كالعصبية المصمودية محل العصبيات والأرستقراطيات الحاكمة، قبلها بالغرب الإسلامي، وتتبع أثر الإصلاح الديني الموحدي على المجتمع وتبيان حدوده، خلال تلك الفترة .وتتبع مصير المذهب الرسمي الموحدي وانهياره تحت ضربات معول البيت الحاكم، وليس من طرف المعارضة، كما هو متداول بين بعض الباحثين، مثل لوتورنو ومن أخذ عنه[1].

إن دراسة المجتمع المغربي في هذا العصر، غير ممكنة بمعزل عن دراسة المجتمع في الغرب الإسلامي ككل، لأن الدراسة الاجتماعية لا تتطلب فقط، تبني الحقبة الطويلة، كما فعل الباحثون قبلنا في مثل هذه الدراسات [2]، بل تتطلب كذلك رقعة جغرافية شاسعة في حجم الغرب الإسلامي، كما فعل فرناند بروديل في دراسته القيمة عن البحر الأبيض المتوسط، كما لا يمكن فهم طبيعة الدولة الموحدية، إلا في مجال نفوذها الشاسع هذا. ولا يتنافى هذا المسعى مع الحرص على إبراز الخصوصيات المحلية لمجتمع لمغرب الأقصى.

الإشكالية المركزية للموضوع، هي: ما هو تأثير الإصلاح الديني الموحدي على البنيات الاجتماعية السائدة، وعلى علاقات الحكام بالمحكومين؟[3] واعتمدت معالجة هذه الإشكالية على تصور الموضوع، كالتالي : دراسة الإصلاح الديني الموحدي كبنية ثقافية، ودراسة البنى الاقتصادية ثم التشكيلات السياسية-الاجتماعية، ثم رصد طبيعة العلاقات بين الحكام والمحكومين، باعتبارها ثمرة لتفاعل تلك البنيات. وبناء على هذا التصور، وضع تصميم، يقسم الموضوع إلى قسمين وثمانية فصول، فضلا عن المقدمة والخاتمة.

القسم الأول : الأسس والبنيات الأساسية للدولة والمجتمع، ويشمل أربعة فصول :

الفصل الأول : خصص لإبراز الخصوصية التاريخية للقاعدة البشرية للدولة الموحدية المتكونة من العصبية المصمودية، وذكر ما تتميز به أوضاعها الاجتماعية والثقافية، قبيل مطلع القرن12 م .

---

(1) - R.Le tourneau, "Sur la disparition de la doctrine Almohade". *Studia Islamica*, XXXII, p193- 201.

(2) - انظر عن الحقبة الطويلة مقدمة، **مجتمع المغرب الأقصى** ..لهاشم العلوي م. س.ص31 ، وكذلك مقدمة محمد القبلي **Société**, ...op. cit. p. 1X

(3) - وإن كنا لا نجازف بإطلاق الثورة عليه، كما فعل غيرنا، إلا إذا قصدنا بالثورة الانقلاب السياسي.

عنون الفصل الثاني ب : من صلاح الرباطات المصمودية إلى صلاح الدولة، وخصص للحديث عن الإصلاح الموحدي وجذوره في المجتمع المصمودي، والمبادئ الدينية التي يقوم عليها، بوضع المذهب التومرتي في سياق الحركة الدينية التي نمت وتبلورت بالرباطات المصمودية، منذ القرن 9 حتى نهاية القرن11 م.

وخصص الفصل الثالث لمعالجة الأسس السوسيو -سياسية للدولة والمجتمع، من خلال دراسة الطبقات الموحدية، ومحاولة توضيح ما كان غامضا من مصطلحات تلك الطبقات أو الأحداث المرتبطة بها، وإبراز آثارها الاقتصادية والاجتماعية على الحكام والمحكومين.

وخصص الفصل الرابع لدراسة المرتكزات الاقتصادية للمجتمع والدولة، من خلال دراسة مالية الدولة ورصد مواردها ونوعيتها وطبيعة وأوجه صرفها، لفهم طبيعة العلاقات المالية القائمة بين الدولة والمجتمع.

وخصص القسم الثاني لتأثير الإصلاح الموحدي على البنيات الاجتماعية، ويشمل بدوره أربعة فصول:

الفصل الخامس : تأثير الإصلاح الموحدي على الأسرة والبيت وحدوده، ويتمثل هذا التأثير في تسريع وتيرة التحول من البيت ذي النسب الأمُومِي (matrilinéaire) إلى البيت الأبيسي، خلال القرن6 هـ 12/م.

الفصل السادس : تأثير الإصلاح الديني وحدوده على البنية القبلية، خصص لإبراز جوانب الاختلاف والتشابه بين "تقبيلت" الأمازيغية [1] والنظام القبلي المقتبس من المشرق، وكيفية مساهمة الإصلاح الموحدي في الدفع نحو تبني نموذج القبيلة المشرقية.

الفصل السابع : خصص لبحث تأثير الإصلاح على التراتبية الاجتماعية، في كتلة الحكام (البيت الحاكم، الأشياخ، عامة الموحدين، الحشم أو الأتباع)، وفي كتلة الرعية أو المحكومين، مع تبيان الفوارق الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والقضائية بين الكتلتين.

---

(1) - انظر بعض أوجه التشابه والاختلاف بين النسقين الاجتماعيين. ص من هذا العمل. فتصور المجموعة البشرية وتقسيماتها مختلف كذلك، فإذا جاء مفهوم القبيلة العربية من تقابل شعاب الرأس، فإن "تقبيلت" عند التوارك مقتبسة من تاوسيت أي راحة اليد(ويقابلها في المصمدوية "تديكلت" ربما لهذا الاسم علاقة باسم دكالة)، ومنها تتفرع خمسة أصابع، ويبدو أن التقسيم الخماسي لتقبليت جاء من هذا التصور.انظر. **Encyclopédie Berbère**, T.I. p.225

الفصل الثامن : تناول تأثير الإصلاح الديني على علاقات الحكام بالمحكومين، من خلال إبراز التوترات الاجتماعية التي طبعت العصر الموحدي، والمتمثلة في الثورات المزمنة التي شهدها العصر المذكور وتحليل أسبابها بكيفية إجمالية، وإبراز جهود الدولة لإصلاح هذا الوضع المتوتر، من خلال التركيز على نموذج الإصلاح الاجتماعي، في عهد يعقوب المنصور.

وخلال معالجة هذه القضايا تطرقت هذه الدراسة للتحولات الثقافية الكبرى التي شهدها المغرب خلال العصر الوسيط، في عدة مجالات، كالمجال الاجتماعي والمجال السياسي والديني واللغوي وغير ذلك من المجالات التي تأثرت بعملية المثاقفة التي دشنها تبني المغاربة للإسلام.

لابد، في الأخير، أن أشير إلى أن المقصود بمفهوم الدولة هو المفهوم الذي كان لهذه الكلمة في العصر الوسيط، والذي يختلف كثيرا عن المفهوم المتداول اليوم. كما استعملت مصطلح "تقبيلت" للحديث عن المجموعات البشرية الأمازيغية عوض مفهوم القبيلة المشرقي، نظرا لاختلاف المدلول الاجتماعي لكل منهما، كما سيأتي ذكره.

الباب الأول
الأسس العامة للدولة والمجتمع

الفصل الأول
المجتمع المصمودي قبل القرن 6 هـ 12/م

يتطلب فهم جذور الإصلاح الديني الموحدي ودراسة تأثيره على المجتمع والدولة، خلال القرن 6هـ 12/م، رصد الأوضاع العامة ببلاد المصامدة، وخاصة الوضعية الاجتماعية السائدة لدى المجموعة المصمودية التي سيشكل جزء هام من قبائلها عصبية الدولة الجديدة، أي الأرستقراطية الحاكمة التي ستحل، ابتداء من القرن 6 هـ 12/م، محل الأرستقراطيات الحاكمة بالغرب الإسلامي: بني حماد، وبني زيري، والمرابطين. فمن هم المصامدة؟ وما هي الأسباب الاجتماعية والدينية التي دفعتهم للثورة على المرابطين؟ وما هي القوة التي مكنتهم من تأسيس أقوى دولة عرفها الغرب الإسلامي، خلال العصر الوسيط؟ قبل الإجابة عن هذه الأسئلة، نتعرف أولا على مجال المصامدة، قبل القرن 12م.

أولا، السوس موطن المصامدة :

يبدو، أن هناك علاقة بين مجال جغرافي، كان يسمى بالسوس، خلال القرون الأربعة الهجرية الأولى، وبين القبائل المصمودية، إذ ربط أغلب المؤرخين بين السوس وبلاد المصامدة، فأعطوا لهذا المجال بعدا بشريا[1]. فما هي خصائصه؟

I - بلاد سوس ودلالته التاريخية:

لا نعثر في المصادر أو المعاجم على المعنى اللغوي لكلمة سوس، في الأمازيغية[2]. وترد، في المصادر، إما مفردة، مثل مدينة سوسة بإفريقية، أو مركبة تركيبا مزجيا إما من

(1) - ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق كولان، ليفي بروفنصال. دار الثقافة، بيروت لبنان. د.ت ج1ص26.

(2) - وهي كلمة نجدها كذلك في العربية والفارسية، انظر مادة سوس في **لسان العرب** لابن منظور، ط دار صادر للطباعة والنشر، بيروت – لبنان1990.، ومن معانيها، حشيشة تشبه القت، الحميري عبد المنعم، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس. مكتبة لبنان، ط 2 سنة 1984 ص329؛ ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، نشر محمد أمين، ط. دار صادر للطباعة والنشر، ودار بيروت للطباعة والنشر لبنان.

كلمتين، مثل وارسوس التي تسمى بها أحد بطون قبيلة گومية وار(أي بدون) سوس[1]، أو وانسوس كاسم علم، مثل وانسوس بن ورغ من قبيلة مكناسة استقر جدهم في ماردة، أثناء الفتح الإسلامي للأندلس، وثار بها أحد أبنائه سنة 190 هـ/806م، وكانت له حفيدة عالمة مشهورة [2] ، أو ترد مركبة من ثلاث كلمات، مثل إذا وكنسوس قبيلة المؤرخ صاحب **الجيش العرمرم** الموجودة حاليا بالأطلس الصغير. وكيفما كان المعنى اللغوي للكلمة، فقد كان مدلولها الجغرافي مرتبطا بالمجموعة المصمودية التي كانت تقطنه[3].

1 - تحديد الرقعة الجغرافية للسوس :

تعود أقدم إشارة للسوس، في المصادر العربية، إلى سنة 62 هـ/682م، وكان يقصد به المغرب الأقصى الذي يقطن معظمه المصامدة [4] غير أن النزر اليسير من المعلومات الواردة بشأنه، في تلك المصادر، خلال القرون الهجرية الأولى حتى القرن 4 هـ/10م، يكتنفها الغموض والاضطراب والتناقض، لذلك يصعب توطين السوس على خريطة المغرب، إذ يرد أحيانا، كاسم لجبل أو لنهر أو لبلاد أو حتى لمدينة[5] ، بل أطلق أحيانا على بطن من البربر[6]. وما يمكن الخروج به من ركام المعلومات المتاحة، بعد تمحيصها ونقدها، هو أن كلمة السوس، كانت تطلق على منطقة تشمل رقعة جغرافية شاسعة جدا، تختلف المصادر حول حدودها[7].

فعند مجموعة من المؤرخين والجغرافيين، يمتد السوس، من حدود بلاد إفريقية إلى تخوم الصحراء، جنوب جبال جزولة، مثل الإصطخري (ت346 هـ/958م) الذي يجعل الحد

---

(1) - البيدق أبي بكر الصنهاجي، **المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب**. تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة الرباط1971 ص50

(2) - ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تحقيق محمد بنشريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية 1984س8 ص481 ، ابن عذاري، **البيان**... ج 2 ص72

(3) - راجع عن السوس، الفاسي محمد، «سوس عند الجغرافيين والمؤرخين قديما وحديثا»، المناهل عدد23، ماي 1982، وراجع مادة السوس الأقصى في ...Encyclopédic de l'islam, nouvelle éd. t IX, p935

(4) - حسب ما يفهم من قول يليان صاحب طنجة لعقبة بن نافع، ابن عذاري، **البيان المغرب**...م.س .ج 1ص26

(5) - الإصطخري المعروف بالكرخي، **كتاب مسالك الممالك**. طبعة ليدن. مطبعة بريل، سنة1967 ، ص39: القلقشندي أحمد بن علي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**. تحقيق نبيل خالد الخطيب، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان 1978 ج 5ص164

(6) - ابن عبد الحكم عبد الرحمان، **فتوح إفريقية والأندلس**. تحقيق عبد الله أنيس الطباع، مكتبة المدرسة بيروت 1964ص 54

(7) - عن إطلاق مفهوم المغرب الأقصى ودلالته التاريخية راجع هاشم العلوي، **مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن 4هـ/10م**، أطروحة دكتوراه الدولة، مرقونة بكلية الآداب بظهر المهراز فاس1994 ، ص 183، وانظر تعريف ابن خلدون للمغرب الأقصى، **كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، مؤسسة جمال للطباعة والنشر. بيروت لبنان1979 ج 6 ص274.

بينهما مدينة تاهرت[1]، ويوافقه على ذلك على الجزنائي من القرن14م[2] ، أو صاحب **الحلل السندسية** الذي يقسم شمال إفريقيا إلى ثلاث أقسام: بلاد إفريقية، والمغرب الأقصى، وهو عنده المغرب الأوسط، ثم بلاد السوس وهو ما يعادل المغرب الحالي[3]. بل إن بعض المصادر المتأخرة مثل كتاب الأنساب لابن عبد الحليم، في القرن 8 هـ، تجعل السوس الأقصى، هو المغرب الحالي تقريبا :"ما حد طنجة إلى أغمات، إلى جبل خشكو (درن الشرقي)إلى نول"[4] ، ويكون المغرب الأوسط هو السوس الأدنى عنده مثل سابقه. هل كان مجال السوس، يطابق إقليم موريطانيا الطنجية والقيصرية، خلال العهد الروماني؟[5] .

الفئة الثانية، تتكون من أغلب الجغرافيين المشارقة وبعض المغاربة، مثل اليعقوبي وابن الفقيه والمقدسي وغيرهم، توطن بلاد السوس، فيما بين سواحل البحر الرومي شمالا إلى حدود الصحراء. يقول ابن خردادبة، في القرن3هـ/9م، "إن السوس الأدنى خلف طنجة... وخلف السوس الأدنى السوس الأقصى"[6]. وجاء عند أبي حيان في **كتاب الأنساب** والسوس عندهم ما ردت طنجة إلى تلمسان ثم إلى سجلماسة إلى الصحراء... وهو قسمان السوس الأدنى والسوس الأقصى[7]. وعند ابن أبي زرع الفاسي يمتد "من نهر ملوية إلى أم الربيع هو السوس الأدنى، والأقصى من جبال درن إلى نول لمطة"[8]. والمقدسي هو الجغرافي الوحيد الذي يعطي معلومات مفصلة ودقيقة نسبيا، عن حدود ومدن كلا القسمين، مما يعطي لمعلوماته بالتالي، قيمة تاريخية.

الفئة الثالثة، وهي متأخرة عن العصر الوسيط، منها التاسافتي صاحب رحلة الوافد، في القرن18 م، تحدد السوس، بقسميه، في مجال أصغر، يبتدئ من نهر أم الربيع إلى الصحراء[9] .

---

(8) - الإصطخري، **مسالك الممالك**... م.س .ص39.
(9) - الجزنائي علي، **جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس**. تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ط 2، سنة1991 ص 6.
(3) - محمد الأندلسي الوزير، **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، تحقيق محمد الهيلة، الدار التونسية للنشر 1970 ص225
(4) - ابن عبد الحليم، **كتاب الأنساب منشور ضمن ثلاث نصوص عربية عن تاريخ البربر في الغرب الإسلامي**، تحقيق محمد يعلى، طبعة المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، مدريد 1996 ص17 ، ويوافقه في هذا صاحب **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**. محمد الأندلسي الوزير...م.س .ص. 225
(5) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور. ط. دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط 1972 ص19
(6) - ابن خردادبة أبو القاسم، **المسالك، والممالك**، طبعة بريل، ليدن ط1967 II.، ص 89
(7) - أبو حيان، **كتاب الأنساب** مخطوط الخزانة العامة بالرباط، ك 1275، ص 2
(8) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس**... م.س .ص 16.
(9) - التاسافتي عبد الله ابن إبراهيم، **رحلة الوافد**، تحقيق صدقي علي ءازايكو، منشورات كلية الآداب -القنيطرة، سنة1992 ص195.

يستنتج مما تقدم، أولا، أن السوس كان يقسم، طيلة الفترة الممتدة من القرن1 هـ/7م إلى القرن4 هـ10/م، إلى قسمين كبيرين : السوس الأقصى والسوس الأدنى، وهذا التقسيم إلى أدنى وأقصى هو تقسيم مبني على النظر إليه من جهة معينة، لأن الأدنى، هو إلى الشمال أو إلى الشرق والأبعد إلى الجنوب الغربي .هل هذه الجهة، هي الهيئة الحاكمة كالولاة الأمويون بالقيروان، أو الوالي في طنجة، أو هي هيئة التجار الواردين من المشرق أو من الأندلس؟ أم هو تقسيم إداري من تقسيمات حسان بن النعمان المستمرة إلى ولاية عبد الله بن الحبحاب (116 - 123 هـ/735-741م)، عندما عين ابنه إسماعيل، إلى جانب عامله على عمر بن عبد الله المرادي، على السوس الأدنى؟[1] .

وكما تختلف المصادر، في حدود السوس، تختلف أيضا في الأقاليم التي يشملها؛ فابن عذاري يعد بلاد تامسنا وبلاد درعة من السوس الأدنى، خلال القرن1 هـ/7م [2]، ولكنها تتفق على أن عاصمة السوس الأدنى هي طنجة التي يمتد عملها شهرا في شهر، أي حوالي (30x30 كلم= 900 كلم مربع). وعاصمة السوس الأقصى «طرقلة»، والمسافة الفاصلة بين القسمين من 20 إلى 30 مرحلة أي ما بين 600 و 900 كلم مربع[3] ، وإذا اعتمدنا هذه المسافات، فإن المنطقة الصحراوية لا تدخل ضمن بلاد السوس. كما أن بعض المدن المذكورة، في تلك المصادر، غير واضحة، بسبب تحريف النساخ ولا شك، مثل "طرفانة" و"طرقلة"(هل هي وركلة؟).

ثانيا، إذا لم نكن نعرف متى ظهر تقسيم السوس إلى قسمين، ولا سببه، ولا مساحة كل منهما وحدودهما، فإننا نعرف بالتأكيد، أن اسم السوس الأدنى اختفى، قبل القرن5هـ/11م، ليحل محله مصطلح "أزغار" أو الغرب أو البلاد الغربية، وبلاد الحوز، في القرنين الخامس والسادس الهجريين[4] . وقد تنبه ياقوت الحموي لهذا الاختفاء، في عهده، بقوله «والسوس الأدنى ولا يقال له السوس»[5]، بينما احتفظت المصادر، بمصطلح السوس الأقصى، طيلة العصر الوسيط وما بعده، كما لدى البكري، والتادلي في **التشوف**، وغيرهما

---

(1) - ابن عبد الحكم، **فتوح**...م.س. ص293 ، هاشم العلوي، **مجتمع المغرب الأقصى**... م.س. ص 183

(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب**.م.س. ج1 ص26 ،43.

(3) - الإصطخري الكرخي، **مسالك الممالك**...م.س. ص36 ، ابن الفقيه أبو بكر أحمد الهمداني، **كتاب البلدان**، طبعة ليدن، مطبعة بريل سنة1967 ص81.,84 الزهري، **كتاب الجعرافية**، تحقيق حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد دون تاريخ ص113،117 ، البلاذري، **فتوح البلدان**، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية -بيروت 1983 ص232

(4) - انظر استعمال هذا المصطلح عند الشريف الإدريسي أبي عبد الله محمد، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، طبعة عالم الكتاب بيروت، لبنان.ط ١سنة 1989 ص222، **الموسوعة الإسلامية** بالفرنسية ج 9ص.935.

(5) - ياقوت، **معجم البلدان**...ج 3ص281 .

من مصادر القرون التالية. وتقلص مدلوله الجغرافي شيئا فشيئا حتى أصبح اسما لمنطقة جنوب نهر أم الربيع وما وراء جبال درن حتى نول لمطة في القرن6 هـ/12م [1]، وقد تضاف إليه بلاد درعة عند البعض، حسب التقسيم الإداري في كل فترة[2].

2. المعطيات الطبيعية لبلاد المصامدة:

تضم بلاد المصامدة ثلاث مناطق طبيعية متباينة ولكنها متكاملة منها : السهول الرطبة شمال درن والجبال بمواردها وبمراعيها الصيفية المعروفة بتيشكا [3]، ومناطق السهوب والصحراء بواحاتها، وتقع في منطقة انتقالية بين الصحراء الجافة التي يجوبها الرحل في الجنوب، ومنطقة المغرب الرطب الخصبة التي يحتل أغلبها مزارعون مستقرون خاصة في مناطق الدير والجبال، أي في محيط جغرافي تغلب عليه **"أراضي الموات"** لا بالمعنى الفقهي فقط، بل أيضا بمعنى أن النشاط الزراعي مرتبط بالسقي، وما يتطلبه من تهيئة ومجهود بشري دائم لإحيائها، سواء من طرف الأفراد أو الدولة، وحيث تحدد نقاط الماء أنماط عيش السكان: حياة الترحال والانتجاع ونصف الترحال أو الاستقرار، والتي لا تخلو من التناقض والصراع بين المستقرين والرحل، وتتحكم في توزيع التجمعات البشرية بضفاف أحواض بعض الأنهار الدائمة، وتحدد كذلك نوعية الملكية.

توفر جبال درن (الأطلس الكبير) وجزولة بفضل علو تضاريسها ثلاثة أمور:

الأمر الأول، هو الماء، فالجبال تشكل خزانا للمياه، وقد لاحظ الجغرافيون والمؤرخون القدماء بأنها تتفجر عيونا وأنهارا، مشكلة واحات خضراء داخل هذا المجال الجاف، لا في الصحراء وحدها، بل حتى في بعض المناطق بقلب أودية جبال درن نفسها [4].

ثانيا، توفر أماكن ومواقع منيعة يسهل تشييد الحصون والمعاقل بها والتصدي منها لهجمات الغزاة، مثل حصن تينمل المنيع الذي يمكن لعدد قليل من الرجال أن يحموه ويمنعوا الصعود إليه لوعورة الطريق إليه والممتدة على عدة مراحل، ويصفها صاحب

---

(1) - المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق محمد سعيد العريان، محمد العربي العلمي، دار الكتاب الدار البيضاء ط1 سنة 1978 ص483-482، الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط1980 ص 31 .

(2) - مارمول، **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي وآخرون مكتبة المعارف للنشر والتوزيع .الرباط1984 مج 3ص137، ياقوت الحموي، **معجم البلدان**... م.س.ج 3 ص281 ، الإدريسي، **نزهة المشتاق**... م.س ص241 ، انظر فهرس الأماكن عند التادلي، **التشوف** وغيره.

(3) - الزرهوني محمد، **العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقة طرفي الأطلس الكبير الغربي في أعوام الستين من القرن19 م** منشورات كلية الآداب عين الشق الدار البيضاء 1998 ص 35

(4) - الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق**...م.س .ج 3 ص227 -228 ، ابن خلدون، **كتاب العبر**...م.س .ج 6 ص223.

الحلل بقوله "ولا يعلم مدينة أحصن من تينمل، لا يدخلها الفارس إلا من شرقها، أو من غربها، وهو الطريق إليها من مراكش، فطريق أوسع ما فيه أن يمشي عليه الفارس وحده موسعا، وأضيقه أن ينزل عن فرسه خوفا من سقوطه، وكذلك شرقها لأن الطريق مصنوعة في نفس الجبل، تحت راكبها حافات، وفوقه حافات، وفيها مواضع مصنوعة بالخشب، إذا أزيلت منها خشبة لم يمر عليها أحد، ومسافتها، على هذه الصفة، مسيرة يوم"[1] . ويبلغ عدد الحصون المنيعة والمشهورة، خلال القرن6 هـ/12م، بجبال درن وحدها، أزيد من 70 حصنا [2]. وتتوفر كذلك جبال جزولة على عدد هام من الحصون بمثل تلك المناعة، اتخذها الثوار ملجأ لهم في العديد من المرات مثل حصن جبل إيگليز الذي حصنته هرغة عندما أجارت ابن تومرت من المرابطين سنة 516 هـ/1223م[3]، ومثل حصن تيونوين الشهير بالسوس قريبا من تارودانت الذي كان مأوى للعديد من الثوار على عهد الموحدين[4]. ويمكن التحكم في المسالك الضيقة لهذه الجبال وسد طرقها الرئيسية، كما حدث حين سد الموحدون طريق أمسكروظ (الطريق الجديد الحالي بين مراكش وأگادير) بالعود والحجر أمام الابرتير قائد الفرقة المسيحية في الجيش المرابطي[5]، أو عندما نصب الموحدون كمينا لقبيلة جزولة، سنة 533هـ/1139م، في مضايق تلك الأوعار والجبال[6]. هذه المعطيات جعلت تحكم الدول المركزية، كالمرابطين، في جبال درن وجزولة، تحكما محدودا عكس تحكمها في سهل الحوز ودكالة وغيرها من السهول الأطلسية.

ثالثا، إذا كانت تلك التضاريس تشكل حاجزا طبيعيا، بين شمال وجنوب المغرب الأقصى، وساهمت في العزلة النسبية لبعض من بلاد المصامدة وحمتها من اجتياح الغزاة، فقد منحتها كذلك، موقعا هاما يتحكم في الطرق التجارية المؤدية إلى الصحراء، فاستفاد المصامدة من ذلك، واتصلوا بواسطتها بغيرهم. وأشهر طرق المواصلات التي تخترق جبال درن طريقان: طريق عبر الساحل، وطريق عبر منخفض أركانة الحالي. وكان

---

(1) - مجهول. **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، حققه سهيل زكار وعبد القادر زمامة.ط دار الرشاد الحديثة -الدار البيضاء 1979 ص112 -113 ، الإدريسي، **نزهة المشتاق**... م س.ج 3ص229 -230 ، ابن القطان، **نظم الجمان**..ص 95وما بعدها .

(2) - الإدريسي، **نزهة المشتاق**... م س.ج 3 ص229 ، كما يشير لذلك ابن خلدون، **كتاب العبر**... ج 6 ص 223 .

(3) - انظر عن هذا الحصن، الفصل الثاني من هذا العمل ص 76.

(4) - انظر عن مناعة حصن تيونيوين ببلاد جزولة، الحساني إبراهيم بن علي، ديوان **قبائل سوس**، تحقيق عمر أفا كلية الآداب والعلوم الإنسانية .الرباط ص .13. وعن الثوار للذين تحصنوا فيه خلال عصر الموحدين، ابن عذاري، **البيان المغرب**..(قسم. الموحدين)، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الثقافة الدار البيضاء، ص454,410 ,460 .

(5) - البيدق، **أخبار المهدي**...م. س. ص91.

(6) - ابن عذاري، **البيان المغرب**..(قسم الموحدين) ص15 ، تفاصيل أهم عند ابن القطان، **نظم الجمان**... ص 242 -243.

الطريق الساحلي الذي يربط ماسة بالقرب من وادي ولغاس وبين ميناء كوز شمالا على مصب نهر تانسيفت، تتحكم فيه قبيلة حاحة. أما الطريق الثاني فقد ورد ذكره عند البكري[1]، ويبدأ بتامرورت وكانت تراقبه اتحادية گنفيسة[2] ، وهناك طريقان تتحكم فيهما اتحادية هسكورة : تزي ن تلوات، وتيزي ن فغات الرابطة بين سجلماسة وأغمات التي تفصلهما مسافة أربعة أيام عبر تلوات، حسب البكري [3]، كما تراقب الطريق بين داي وأغمات ثم فاس وربما حتى تدغة لمرور هذا الطريق ببلد تيفت التي يعمرها بنو وارث، حسب البكري[4].

أبرزت ظروف تاريخية محلية وجهوية هذه المعطيات الطبيعية لمجال المصامدة، خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين، إذ تأثرت المنطقة بالأهمية التي أخذتها طرقها التجارية على حساب الطرق الشرقية بعد أن كانت في القرون الأولى - حسب المقدسي -لا يسافر التجار إليها كثيرا ولا يرغب فيها أحد، أي لما كان اتجاه الطرق التجارية نحو المشرق[5]. وتحدث ابن حوقل عن انتقال الطريق التجاري بين دبرته وبين بلاد السودان، أي الطريق القديم بين مصر وغانة، بسبب صعوبته والرياح ولأسباب بشرية فانتقل التجار عن ذلك الطريق إلى طريق سجلماسة [6]. ومنذ القرن4 هـ/10م تزايدت أهمية الطرق التجارية للمنطقة، مما جعل تجار أغمات من أكثر أهل المغرب أموالا، خلال النصف الأول من القرن6 هـ/ 12م، ويليهم أهل فاس ثم أهل تلمسان حسب الإدريسي [7]. ومما ضاعف من أهمية طرق المنطقة أن أوروبا بدأت تعرف بوادر النهضة، مع القرن الحادي عشر الميلادي، وما رافق ذلك من طلب متزايد للذهب[8]؛ إضافة إلى تورط الجهات المجاورة، وضمنها بلاد المصامدة، في الصراع الديني المتزايد بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط وتكافؤ القوتين الإسلامية والمسيحية.

---

(1) – البكري عبيد الله، كتاب **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، نشرة وترجمة دوسلان 1965 Librairie d'Amérique et d'or Adrien-Maisonneuve.Paris ص 160-163

(2) - Berque (J). "Antiquité Sksawa", in Hespéris. 1953. 4 trimestre, p.383.

(3) – البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**...م س، ص152-153 . التوفيق أحمد، **المجتمع المغربي في القرن19**. منشورات كلية الآداب بالرباط. ط 2 سنة 1983 ص52.

(4) – **نفسه**، ص. 154

(5) - المقدسي شمس الدين، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ليدن، بمطبعة بريل، طII.، 1967. ص.212.

(6) - ابن حوقل، **صورة الأرض**، ليدن، بمطبعة بريل، طII.. 1967. ص 56 وما بعدها

(7) - الإدريسي، **نزهة المشتاق**..م س.ج 3 ص232 - 248.

(8) - عن هذا الطريق الغربي إلى بلاد السودان راجع هاشم العلوي، **مجتمع المغرب الأقصى**...م س401 -402.

3 - إنتاج اقتصادي متنوع ومزدهر:

تكيف المصامدة مع هذه المعطيات الطبيعية القاسية واستغلوها استغلالا جيدا، مما جعل أغلب الجغرافيين العرب ينبهرون بغنى بلاد سوس وخصوبة تربتها وكثرة منتجاتها الفلاحية وتنوعها حتى القرن12 م، ويرجع هذا الازدهار إلى:

- كثرة السكان واتصال العمران ببلاد المصامدة خاصة في جبال درن .
- حيوية المصامدة وقوة روح المبادرة الاقتصادية لديهم إلى درجة إشراك الأطفال والنساء في مختلف الأنشطة الاقتصادية. ذكر البكري في منتصف القرن5 هـ / 11م أن "أهل السوس وأغمات **أكثر الناس تكسبا وأطلبهم لرزق** يكلفون نساءهم وصبيانهم **التحرف والتكسب**"[1]. رسم البكري في القرن5 هـ/11م لوحة لاقتصاد المنطقة، ووصف كل من الإدريسي والزهري في منتصف القرن6 هـ12/م نشاط المصامدة الاقتصادي، وهي نفس الصورة التي أكدها ولاحظها ابن خلدون بعد قرنين خلال القرن8 هـ14/م.

كان للمنطقة صيت كبير في الميدان الفلاحي، إذ تشير المصادر إلى غزارة الإنتاج الفلاحي حول بعض المراكز الحضرية، كمدينة أغمات ونفيس مثلا، وحول بعض الأنهار كنهر سوس وغيره، وإلى رخص أسعار بعض المنتجات الفلاحية كأنواع الفواكه العديدة[2]. ومن بين المنتوجات الأساسية والقديمة: قصب السكر بقاعدة بلاد السوس، قبل القرن5هـ/11م، وهي مدينة إيگلي التي تصدره إلى جميع بلاد الغرب الإسلامي[3] ، وزبيب جبال درن الذي "ينتقل عليه ملوك المغرب لرقة قشرته وعذوبة طعمه واعتدال غذائه"[4]. ويستغل السكان الغطاء النباتي كاستغلال شجرة الأرگان التي كرر البكري وصفها وعدد منافعها الطبية والغذائية والاقتصادية[5] وتحدث عنها أغلب من اهتم بالمنطقة من الجغرافيين[6] ، كما استغلوا شجر التاكوت للدباغة[7].

---

(1) - البكري، **كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**... م. س. ص 163.
(2) - نفسه، ص153 ، الإدريسي، **نزهة المشتاق**... م. س. ص. 12.
(3) - البكري، **كتاب المغرب**..م.س. ص.161.
(4) - الإدريسي، **نزهة المشتاق**..م.س.ج 3ص.230 .
(5) - البكري، **كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**... م. س . ص.162 .
(6) - نفسه، ص162 . الإدريسي، **نزهة المشتاق**... م. س ج 3 ص. 230- 231.
(7) - البكري، **كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**... م. س. ص.152.

كما تستخرج المعادن التي تزخر بها المنطقة منها الفضة بتازرت ذات الإنتاج الغزير[1]، واشتهرت مدينة إيگلي بالصناعات النحاسية وكانت تصدر منها إلى بلاد السودان[2]. وأشار الإدريسي إلى إتقان نساء السوس الأقصى لصناعة النسيج ومهارتهن فيها .

وتزدهر كذلك بالمنطقة، الأنشطة التجارية، إذ توجد بها أسواق عديدة وكبيرة، منها سوق أغمات وريكة الذي "يقوم يوم الأحد بضروب السلع وأصناف المتاجر، يذبح فيها أكثر من **مائة ثور، وألف شاة** وينفد في ذلك اليوم جميع ذلك"[3]. كما تقصد السفن، من مختلف الآفاق، ميناء كوز على الساحل الأطلسي، مما يدل على الرواج التجاري بالمنطقة والتبادل مع أقاليم بعيدة[4]. وهذا التبادل التجاري أدى إلى انتشار العملة، وتعرف العملة الذهبية بمدينة إيكلي بالقزديرية نسبة إلى الشخص الذي تولى سكتها وهو أبو الحسن القزديري، في وقت سابق عن القرن5 هـ / 11م[5].

4 - انتشار ظاهرة بيع الربا :

وأهم ظاهرة سيطرت على المعاملات بين المصامدة، طيلة العصر الوسيط إلى بداية القرن العشرين، هي انتشار بيع الربا. وقد اضطرت بعض المذاهب المنتشرة بالمنطقة إلى إباحته والحكم بجوازه، كما في المذهب البجلي الذي أحل لهم صاحبه "المحرمات، وزعم أن الربا بيع من البيوع المباحة"[6]. وقد لاحظ الصوفي أبو محمد عبد العزيز التونسي(ت486 هـ 1094/م)، خلال إحدى سياحاته ببلاد المصامدة، انتشار هذا النوع من البيوع الفاسدة شرعا حتى بين تلاميذه الذين درسوا عليه التصوف بمدينة أغمات. وكان قد سبق أن قطع تدريس الفقه، مدة، لأن طلابه نالوا به المناصب الدينية والإدارية، فاضطر إلى العودة لتدريس الفقه، مرة أخرى، لأن بعض تلامذته قد وقعوا في الربا بسبب جهلهم للفقه في نظره[7] ، في حين أن للمسألة جذورا ثقافية. وهذا البيع هو بيع الثنيا أوالإقالة، أو بيع الرهن، والبيع المشروط[8]، وهو بيع موثق محدد بأجل يمكن البائع من

---

(1) - نفسه، ص.161 .
(2) - نفسه، ص.162 .
(3) - نفسه، ص.153 .
(4) - نفسه، ونفس الصفحة .
(5) - نفسه، ص162. .
(6) - نفسه، ص.161 .، وابن عبد الحليم، **كتاب الأنساب**...م.س. ص.ص.17-18.
(7) - ابن الزيات التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف**، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1984 ص.93-94 .
(8) - أفا عمر، «نوازل **الگرسيفي** مصدرا للكتابة التاريخية»، ضمن **التاريخ وأدب النوازل**، دارسات مهداة للفقيد **محمد زنيبر**، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، نشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية -الرباط سلسلة ندوات ومناظرات رقم 46 ص.216-221 .

استرداد ملكه إذا عوض المشتري في ماله، في الآجال المتفق عليها، كما جاء في المعيار. وقد لوحظ كذلك، في جزناية، منتصف القرن8 هـ/14م[1]، وظل مستمرا ببلاد السوس في القرن18 م[2]. أما في الأندلس فلم ترد الفتاوي بشأنه عند ابن رشد ولكنه غير مجهول في الرسوم العدلية[3].

يمكن أن يستنتج من انتشار بيع الريا ببلاد المصامدة ثلاثة أمور على الأقل :

أولا، وجود ملكية عقارية عائلية صغيرة والتي شكلت الوسيلة الأساسية للإنتاج.

ثانيا، يعتبر مؤشرا على الإقلال الاقتصادي، بالرغم مما تشير إليه المصادر، من الغنى الاقتصادي للمنطقة، لأن ذلك الغنى منحصر في ضواحي المدن التجارية وعلى طرق المواصلات في بعض أحواض الأنهار.

ثالثا، إنه مؤشر على الأزمات الاقتصادية الناتجة عن التقلبات المناخية أو ظروف اجتماعية كانت تدفع المصامدة إلى بيع الأرض مؤقتا، إذ يضطر من كان في ضائقة مالية إلى بيع ورهن أملاكه العقارية لمدة محدودة، ويستعيدها بعد تحسن الأحوال، لكن لا يتخلى عنها، مهما كانت الظروف، نظرا للقيمة الرمزية التي كانت للأرض .

ساهم وجود الدولة المرابطية ببلاد المصامدة أواخر القرن 5 على إبراز واستغلال الإمكانيات الطبيعية للمنطقة وازدهارها الاقتصادي، لأن الدولة هي السوق الأعظم نظرا لما تنتجه أو تستهلكه، ولأنها ضاعفت منشآت السقي، بمنطقة الحوز، وبلغت الأراضي المسقية حول مراكش أكثر من خمسة آلاف هكتار[4].

ثانيا . التحالف المصمودي في مطلع القرن 6 هـ/ 12م:

تتميز المنطقة بكثرة سكانها، إذ توجد بها أكبر مجموعة بشرية في المغرب الأقصى وهي المجموعة المصمودية[5]المتميزة ببعض الخصائص الثقافية والاجتماعية أبرزتها

---

(1) - عن بيع الثنيا. انظر : الونشريسي أحمد، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، دار الغرب الإسلامي سنة 1981ج 6/ 16,111ج10/ 260. البرزلي663، **الدر النثير**، ص79-81. لم ترد الفتاوي بشأنه في الأندلس التي استفتي فيها ابن رشد ولكنه غير مجهول في رسومهم العدلية،ابن رشد **فتاوي ابن رشد**، تحقيق المختار التليلي، دار الغرب الإسلامي بيروت ، لبنان، 1980 ص.1071 -1073

(2) - كان موجودا في القرن السادس عشر حسب سعيد الهوزالي. **حسب طبقات الحضيكي** ص121 ...231 .

(3) - ابن رشد. **فتاوي ابن رشد**...م.س .ص .1071 -1073.

(4) - Pascon P. Le Haouz de Marrakech; Rabat 1977, p. 152

(5) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ...م.س .ج 1ص26 ، ابن خلدون، **كتاب العبر**... م.س .ج 6 ص101 . التقي العلوي، «أصول المغاربة، القسم البربري»، في **مجلة البحث العلمي**، عدد 28 ص.248-209 .

الظروف التاريخية التي شهدتها المنطقة، حتى نهاية القرن5 هـ/11م، وجعلت منها قوة اجتماعية ودينية مكنتها من تكوين دولة .

كانت مواطن بلاد المصامدة، قبل القرن12م، تمتد إلى أبعد من شمال نهر أم الربيع، إذ كان المصامدة، في القرن الثاني للهجرة، يتوزعون على ثلاث مناطق : فرقة منهم في أحواز مراكش، وفرقة ثالثة في بلاد الأندلس[1] والتي ينتمي لها الفقيه الشهير وسلاسن المصمودي[2] ، وفرقة منهم في غمارة إلى قصر مصمودة[3]، ساندت فرق منها دولة الأدارسة، فنزلت بعدوة الأندلس من فاس، على وادي المعروف بوادي مصمودة . وكانت القبائل المصمودية التي استوطنت جبال الريف، حسب البكري، في القرن11م، تتفرع إلى أربعة قبائل: دغداغ واصادة، وبني سغمرة وكتامة، وذكر بعض فروعها بني كترات على نهر اسمير، وبنوسكين حول مدينة تطوان التي لها 100 فارس، ثم مرزوق بن عون في قرية صدينة، وعدة قبائل منهم في فج الفرس ولها 100 فارس[4].

غير أن أهم مجال للمصامدة هو بلاد بلاد السوس التي عرفت الاستقرار البشري منذ عهود سحيقة، خاصة جبال درن المتميزة بارتفاع نسبة كثافة سكانها مقارنة مع السهول المجاورة[5] . ويعد النسابة المجموعة المصمودية، في إطار تقسيماتهم للأمازيغ، من البرانس[6].

I. المجتمع المصمودي وخصوصيته الثقافية :

1- التعريف بالمصامدة (إمصمودن) :

كلمة المصامدة، مشتقة من كلمة إِمْصْمُودنْ ومفردها أَمْصْمُودْ. وهو اسم علم شائع، حتى القرن8 هـ/14م[7]. ويختلف الباحثون حول المعنى اللغوي للكلمة، فهي تعني عند التوارگ: الرعاة والقادة الذين يسيرون شؤون الناس والموالي والسادات[8]. أما الباحث

---

(1) - ابن عبد الحليم، **كتاب الأنساب**... م.س. ص.54-55 .

(2) - أحمد بابا السوداني، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، دار الكتب العلمية بيروت لبنان د.ت.ص351 ، ابن خلدون، **كتاب العبر**... م.س. ج 6 ص.224 .

(3) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**... م.س. ص46، 47، 77 . البكري، **كتاب المغرب**...م.س. ص.116 .

(4) - البكري، **كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**...م. س. ص 104 - 108، 114.

(5) - ابن خلدون، **كتاب العبر**...م.س. ج 6 ص226، الكانوني، **أسفي وما إليه قديما وحديثا** . دون تاريخ ومكان الطبع ص14، مجهول. **الاستبصار**...م.س. ص211 ، أبي عبيد الله الزهري، **كتاب الجعرافية**... م.س. ص.117.

(6) - يضيف ابن عبد الحليم بعض التفصيلات الجزئية لما هو معروف، **كتاب الأنساب**...م.س. ص44 -84.

(7) - ابن الحاج النميري، **فيض العباب**...م.س. ص 270. ذكر فيه، عمر بن ميمون بن آمصمود، وذكر الوزان قبيلة بني أمود بجبال الريف، **وصف إفريقيا**...ج1 ص.274 .

(8) - التقي العلوي، «أصول المغاربة»، **مجلة البحث العلمي** عدد 28 السنة 14 يوليوز دجنبر1978 ص 208 -248 .

صدقي علي ءازيكو فقد قدم ثلاث فرضيات ممكنة عن الاشتقاق اللغوي لكلمة مصمودة واستنتج منها أن لفظة إيمصمودن المركبة من كلمتين تركيبا مزجيا : من فعل أمز أي مسك، وأمود أي البذور أو الثمار تعني الذين يملكون الحبوب أو يزرعونها[1]، وهو ما يتوافق مع المعلومات التي تقدمها المصادر، عن سكان شمال إفريقيا الغربية، حين تصفهم بوجه عام بأنهم مزارعون مرتبطون بالأرض، ولهم تقاليد فلاحية تعود لقرون طويلة. يشير هيرودت في القرن5 ق. م أن "ليبيا الشرقية حيث يسكن الرحل، وهي منخفضة رملية إلى نهر(Triton) ، والتي تقع غرب هذا النهر، ويسكنها المزارعون جبلية جدا وكثيرة الأشجار..." [2]. وقد تعني الذين يعيشون على الالتقاط، لأن أمود تعني كذلك الثمار المقطوفة، حسب لغة التوارگ (La cueillette). ومهما كان المعنى اللغوي للكلمة، فإنه يحيلنا على نشاط السكان لا على أنسابهم، لانعدام الأنساب لدى المصامدة، إذ لم يهتموا بها إلا بعد اهتمام القبائل الزناتية بها بزمن طويل[3].

لا نعرف الاسم القديم للمصامدة قبل الإسلام، هل هم جزولة؟ أم الموريون؟ أم الماسينت؟ [4]. وأقدم إشارة لهم، في المصادر العربية، تعود إلى حملة عقبة بن نافع سنة62 هـ/682م، لكن المعلومات عن قبائلها قليلة، بالمقارنة مع قبائل زناتة وصنهاجة، إذ لا نعرف من قبائل مصامدة الجنوب، سوى خمس قبائل، ذكرها البكري في القرن11م[5]. أما الإدريسي المعاصر لقيام حركة الموحدين فلم يذكر أكثر من 10 قبائل. غير أن البيدق، في أوائل القرن 6 هـ/12م، قدم لائحة مفصلة لأشهر القبائل المصمودية، وهي التي انضمت للحركة الموحدية، والتي ظل أغلبها، في مكانها، منذ ذلك الوقت إلى يومنا هذا، وسنعرض لها في الفصل الثاني.

رغم أن المجموعة المصمودية تشترك، في كثير من السمات الاجتماعية العامة، مع باقي سكان شمال إفريقيا والمغرب الأقصى، إلا أنها تتميز عن غيرها من المجموعات الأخرى ببعض المظاهر الاجتماعية التي سيكون لها تأثير على الدولة الموحدية وعلى المجتمع، كلهجتها الخاصة واللباس وبعض الظواهر الدينية:

---

(1) - انظر مقال صدقي علي ءازيكو: «التأويل النسبي (الجنيالوجي) تاريخ شمال لإفريقية. هل يمكن تجاوزه»؟ **بمجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية** الرباط عدد 15 ص.9-34 .

(2) - G. Camps, **Berbères, aux marges de l'histoire**, éd. des Hespéris, 1980 p 21.

(3) - ابن عبد الحليم. **كتاب الأنساب**...م. س. ص .44 .

(4) - يذهب صدقي علي إلى أن الماسينت هم المصامدة، «التأويل النسبي هل يمكن تجاوزه»... م.س. ص 21 .

(5) - البكري. **كتاب المغرب**...م.س ص152,.153, 154, 161 وهي، بني ماغوس. هسكورة، هزرجة، وريكة، شفشاوة.

2 - اللسان الغربي أو اللهجة المصمودية :

أشارت المصادر إلى أن الأمازيغية كانت لها عدة لهجات، فصالح بن طريف زعيم برغواطة " كان يفهم غير لسان من ألسنة البربر"[1] ، ومنها تفرد لهجة زناتة عن غيرها، حسب شهادة ابن خلدون "فشعارهم بين البربر[2] اللغة التي يتراطنون بها، وهي مشتهرة بنوعها عن سائر رطانة البربر" . ومنها "اللسان الغربي" هو اللهجة الأمازيغية التي يتخاطب بها المصامدة في تعاملاتهم اليومية، خلال القرن12 م. ووردت كلمات وجمل عديدة منها، في المصادر، خاصة في مؤلفي البيدق[3]. وكانت لغة قبيلة گنفيسة الموحدية، حسب المراكشي، "أجود اللغات وأفصحها في ذلك اللسان"[4]. وتزعم بعض المصادر أن ابن تومرت كان أفصح أهل زمانه في ذلك اللسان الذي استعمله في التعليم .

لا نعرف إن كان سكان بعض المدن المصمودية يتكلمون باللاتينية، كما هو الحال في قفصة، في منتصف القرن6 هـ/ 12م، حسب إفادة الإدريسي، إذ لا يعقل أن تكون قفصة المدينة الوحيدة التي يتخاطب سكانها بها من بين مدن الشمال الإفريقي، خصوصا إذا علمنا أنها مدينة داخلية وواحة صحراوية بجنوب إفريقية [5]. لكن يبدو أن كتابة بعض اللغات كانت مستعملة، في مدن المصامدة، إلى أوائل القرن6 هـ 12/م، الشيء الذي فرض على المهدي بن تومرت أن يتخذ، حوالي سنة 518 هـ/1125م، كتابا يتقنون كتابة تلك اللغات آنذاك، كالسريانية وكتابة أخرى سميت بالرموزيات وغيرهما، ومنهم ملول بن إبراهيم لأنه "**كان فصيحا بديها بالألسن يكتب بالسريانية والرموزيات وغير ذلك** وينفذ في ذلك وأعطيت له سهوم بهانية عرفت باسمه"[6]. ويطرح وجود هذه اللغة ببلاد المصامدة إشكالا تاريخيا[7]. ويمكن أن تشمل اللغات المكتوبة الأخرى التي أشار لها

---

(1) - ابن حوقل، **صورة الأرض**...م.س. ص.82.

(2) - ابن خلدون، **كتاب العبر**..م.س.ج 7 ص.2.

(3) - البيدق، **أخبار المهدي**... ص26 ،، 61 **المقتبس**... ص21.،41، 39 ، ابن القطان، **نظم الجمان**...م.س. ص88.،
G.Marçais. "Les Phrases berbères des" Documents inédits d'histoire almohade in *Hespéris*, T.XIV, Fas.I année1932. p 61-77

(4) المراكشي، **المعجب**..م.س. ص.482 .

(5) - الإدريسي، **نزهة المشتاق**... م.س. ج 3ص75 ، وفي نهاية القرن2 هـ كان سكان تاهرت الرستمية يتخاطبون باللاتينية .

(6) - البيدق، **أخبار المهدي**... م.س. ص42 . ويشير الإدريسي إلى أن أهل أزقار بالصحراء هم أعلم الناس بخط دنيال النبي، **نزهة المشتاق**... م.س.ص.113.

(7) - الكتابات المنتشرة في عهد ابن خلدون هي، «الخط الحميري المسمى بالمسند والخط السرياني، وهو كتابة النبط والكلدانيين، ويزعم البعض أنه الخط الطبيعي لقدمه. ومنها الخط العبراني...ومنها الخط اللطيني للروم وهذه الخطوط الأكثر انتشارا». **المقدمة**..م.س. ص .1025 -1024كما أن طلبة البربر كانوا "يتقربون إلى أهل الدنيا بالأوراق المتخرمة، إما بخطوط عجمية، أو بما ترجم بزعمهم منها من خطوط أهل الدفائن» نفسه. ص686 -687 . وربما تعني كتابة الرموزيات نوع من الشفرة الخاصة بكتاب الديوان. نفسه ص 754. أما السريانية فهي من اللغات الشرقية القديمة بسوريا وبلاد الشام والمعروفة كذلك بالأرامية حتى الفتح الإسلامي، موسى يونان مراد، **حركة الترجمة والنقل في العصر العباسي**. ط. 1973 هل هي الفنيقية؟ أم لغة المسيحيين اللاثينية بالمنطقة؟ خاصة وأن الكلمة يقصد بها أحيانا المسيحيين رشيد حسن الجميلي. **حركة الترجمة في المشرق الإسلامي**، ط. الكتاب والتوزيع. طرابلس-ليبيا 1982 ص33.

البيدق العبرية بسبب وجود اليهود في بلاد المصامدة، ولغة أخرى سميت في المصادر بالأعجمية وكذلك اللغة العربية بطبيعة الحال، التي بدأت في الانتشار، منذ إسلام المصامدة، كما يدل عليه وجود فقهاء ينتسبون إلى مجالهم، منذ القرن4 هـ/10م، وهي نفس اللغات المذكورة عند برغواطة، عند قيام حركتهم أوائل القرن2 هـ/8م[1]. واشتهرت المجموعة المصمودية بشمال إفريقيا باستخدام لهجتها في التعليم الديني، مثل برغواطة في القرن2 هـ/8م، وحميم المتنبئ بغمارة في بداية القرن10 م، والمهدي بن تومرت، أوائل القرن12 م. لماذا؟

3 - لباس المصامدة وزيهم :

يتميز لباس المصامدة عن لباس بعض المجموعات القبلية الأمازيغية الأخرى، ببلاد المغرب، مثل المجموعة الصنهاجية، في الصحراء، التي تستعمل اللثام والقوادير واللون الأزرق، وهو الزي الذي احتفظ سكان الصحراء بمكوناته وألوانه، منذ العصر الوسيط إلى القرن العشرين[2]. أما المصامدة فيبدو أنه كان لهم زي متميز يتكون من البرنس[3] والكساء، فقد نعتهم ابن حوقل بأصحاب البرانس ، وكان القرويون منهم، حسب الإدريسي، خلال القرن12 م، " يلبسون أكسية صوفية التفافا، ويحزمونها بمآزر الصوف في وسطهم تعرف بأسفاقس."[4] وقد ظل هذا اللباس دون تغيير حتى عهد الوزان في القرن10هـ/16م، كما يظهر من لباس قبيلة حاحة المصمودية[5]، وكانوا يطلقون شعورهم المصبوغة بالحناء فوق رؤوسهم ويهتمون بها، كما هو شأن غمارة، وهو تقليد قديم أشارت إليه المصادر اللاتنية[6]. ولم يكن يحلق الرأس إلا أهل الدين ببلاد المغرب. وقد سار أبو محمد صالح على منوالهم وأدخل الحلاق في طريقته[7]، وكانوا يغطون رؤوسهم بالكرزية المصنوعة من الصوف وليس بالعمامة كما لدى زناتة[8]، أو بقلنسوة مصنوعة من العزف، كما هو شأن النحوي أبي موسى الجزولي(ت601 هـ)[9]، أو شأن أبي يعزى الذي كان يلبس

---

(1) - البكري. **كتاب المغرب**... م س. ص136 ، ابن خلدون. **كتاب العبر**...م س.ج 6ص207 . وعن الكتابة المستعملة لدى الأمازيغ، انظر الوزان. **وصف إفريقيا**... م س.ج1 ص. 56-57 .

(2) - الإدريسي. **نزهة المشتاق**... م س. ص 18 ابن بطوطة. **تحفة النظار**... م س. ص 800. عن لباس المرابطين انظر بوتشيش، **المغرب والأندلس**...ص. 75-80 .

(3) - ابن حوقل. **صورة الأرض**... م. س. ص99,101-103 .

(4) - الإدريسي. **نزهة المشتاق**...م س. ج 3ص.228.

(5) - الوزان. **وصف إفريقيا**...م س .ص76,87 .

(6) - المصطفى مولاي رشيد، **المغرب الأقصى عند الإغريق واللاتين**. شركة النشر والتوزيع المدارس. الدار البيضاء، 1993 ص.32

(7) - الماجري أبو أحمد بن إبراهيم. **المنهج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح** ط 1بمصر1933 م ص .181 -186 .

(8) - الإدريسي، **نزهة المشتاق**...م س .ج 3ص228, 246 مجهول، **الاستبصار**... م. س. ص. 193 .

(9) - ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**...م س. س 8 ص. 249 .

برنوسا مرقعا وشاشية من عزف[1]، وهو نفس اللباس والزي الذي وصفه المجهول البرتغالي في القرن16م وغيره[2]، بينما كان جيرانهم برغواطة لا يتعممون[3] مثلهم مثل الأندلسيين.

4 - بعض العادات الغذائية:

تتميز تغذية المصامدة باستعمال زيت أركان في عدد من مأكولاتهم، واستعمالهم لمشروب الرُّب الذائع الصيت، حتى القرن السادس الهجري على الأقل[4]، ويعرف في بلاد السوس الأقصى بأنزير وهو رُب حلو يسكر سكرا عظيما، لأنه يهيأ بطريقة خاصة وصفها الإدريسي. وكان أهل السوس، مثل غيرهم من المصامدة، يجيزون شربه ما لم يتعد به حد السكر[5]. وأكثر مستعملي الرب هم مصامدة جبل درن، «وهم لا يستغنون عن شربه لشدة برد الجبل وثلجه»[6]، وظل مستعملا في العهد الموحدي. كما يأكل المصامدة الجراد مقليا ومملوحا، في أوقات الشدائد، إذ كان يباع منه بمراكش، كل يوم، كميات كبيرة تصل إلى 30 حملا في المعدل(أي30x150 = 4500 كلغ[7]). والتغذية الأساسية للمصامدة هي الشعير والذرة، حسب ابن خلدون[8].

من حيث السكن، مجال المصامدة هو مجال تكمي الصغيرة وأكادير حسب لاوست[9] وسيتم تكريسها في تنظيمات الموحدين، ويحتل أهل الدار الطبقة السادسة ضمن الطبقات التي وضعها ابن تومرت[10].

5 - السلاح:

أهل السوس "لا يمشي الرجل منهم أبدا، إلا وفي يده رمحان قصار العصي طوال الأسنان رقاقه وينتخبونها من أطيب الحديد"[11] وهم شبيهون، في هذا، ببني زوندي

---

(1) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**... م.س. ص.267.

(2) - مجهول برتغالي، **وصف المغرب أيام مولاي أحمد المنصور**، ترجمة محمد مزين وعبد الرحيم بنحادة، ط.دار تنمل للطباعة والنشر. مراكش1995 ص36، الوزان، **وصف إفريقيا**.... م.س ج1 ص76 ، 97 مارمول. إفريقيا... ج 2 ص.70.

(3) - ابن عذاري، **البيان المغرب**...م.س.ج 1 ص.225 .

(4) - محمد عمراني، «مسألة الخمور في تاريخ المغرب الوسيط»، مجلة أمل عدد 16سنة 1999 ص.59-75 .

(5) - الإدريسي، **نزهة المشتاق**...م.س.ج 3. ص.228.

(6) - مجهول، **الاستبصار**...م.س. ص.211 .

(7) - الإدريسي، **نزهة المشتاق**...م.س .ج 3.ص228...235

(8) - ابن خلدون، **المقدمة**...م.س .ص.153 .

(9) - التوفيق، **المجتمع المغربي**...م.س .ص .181 .

(10) - راجع التنظيمات الموحدية في الفصل الثالث من هذا العمل.

(11) - الإدريسي، **نزهة المشتاق**...م. س. ص 228.

بالمغرب الأوسط الذين اعتاد الرجل منهم أن لا يمشي إلا شاكي السلاح بالسيف والرمح والدرقة اللمطية[1]. وقد احتفظ المصامدة، بجبل درن بهذه العادة، حتى القرن16م، كما جاء عند الحسن الوزان[2]. والمصامدة مقاتلون أغلبهم مشاة بارعون.

6 - أسماس من طرق التحالف والتعاهد:

من العادات الاجتماعية المتميزة عند المصامدة طريقتهم الخاصة في التعاقد والتعاهد والتي كانت تتم بطريقة مخالفة لطريقة التحالف لدى الزناتيين والتي تعرف بتاضا، أي الحلف بالرضاع الذي يخلق أخوة مصطنعة بين المتحالفين في حفل له طقوس خاصة[3]. أو تلك التي تتم بطعام البسيس، أي الزميطة المكونة من الدقيق المعجون بالزيت أومخلوطا بغيره. يتم لدى هذه المجموعة بواسطة عرف يسمى أسماس وهي وليمة عامة يشارك فيها الجميع بنصيبه، ومعدة بلحم الخروف أو غيره، حملت اسم قدر كبير من النحاس الذي تطبخ فيه[4]. وأهم عنصر في الأكلة الجماعية هو الملح الذي يعتبر أكله رمزا لرباط مقدس يربط بين المشاركين في الأكلة. ورد ذكرها في المصادر عدة مرات: قام بها ابن تومرت، بمناسبة بيعته الأولى، في هرغة سنة 515 هـ/1122م، و"عمل أسماس، وعمل الملح بيده، وقال: **هنا عهد الله وعهد الرسول بيننا وبينكم**"[5] . وتكررت في عدة مناسبات مماثلة، كالمناسبة التي عزم فيها الهنتاتيون على الانضمام لحركة ابن تومرت، سنة 516 هـ/1123م، إذ «صنعوا طعاما واجتمعوا عليه، و**تعاهدوا** وتوجهوا بأجمعهم» إلى ابن تومرت ببلاد هرغة[6]. وبعد وفاة المهدي صنع أعيان قبيلة هرغة طعاما من هذا النوع، للتعاهد على أمر ما لم تفصح عنه المصادر، لكن لاشك أن له علاقة بموضوع خلافة المهدي، ولم يخبروا بذلك عبد المومن ليساهم معهم فيه بنصيبه، رغم أنه ينتمي إليهم بالجوار إذ آخى المهدي بينه وبين قبيلة هرغة، وقد وبخهم بالأمازيغية عن فعلهم هذا قائلا ما ترجمته : لماذا فسختم ما يربطني بكم؟ وهجرهم عدة أيام ونهاهم عن العودة لمثل ذلك، وأمر بعمل أسماس آخر ساهم فيه بنصيبه معهم[7]. وصنع أسماس

---

(1) - نفسه، ص.267 .

(2) - الوزان، وصف **إفريقيا**..م. س. ص 87-88 مثلا، مجهول برتغالي، **وصف المغرب أيام أحمد المنصور**..م. س. ص. 36 .

(3) - هاشم العلوي، **مجتمع المغرب الأقصى**..م. س 270 .. التوفيق أحمد، **المجتمع المغربي**..م س. ص.383.

(4) - أسماس قدر كبير من النحاس حسب **المعجم العربي الأمازيغي**، محمد شفيق، راجع فيه مادة قدر وتصغيره تسماست اسم لقدر يعجن فيه الخبز بالأطلس الصغير. وتعرف اليوم أكلة أسماس الجماعية بالأطلس الصغير والكبير ب «المعروف».

(5) - البيدق، **أخبار المهدي**...م. س. ص. 33.

(6) - ابن القطان. **نظم الجمان**... م . س ص.88.

(7) - البيدق، **كتاب المقتبس**..م س. ص. 39.

كذلك، في المهدية متاع ابن المليح قرب بني يزناسن[1]؛ كما صنع بمناسبة عفو عبد المومن على قبيلة بني بيغز الثائرة، والعفو عن الثائر أبي بكر الصحراوي، سنة 550هـ/1156م، فعمل أسماس للتصالح والتعاهد بين هؤلاء الثوار والموحدين . وتم عمله كذلك بمناسبة أخذ البيعة ليوسف بن عبد المومن، سنة 558 هـ/1163م، بمدينة الرباط[2]. وفي سنة 632 هـ/1235م، أعد معاوية عم ابن وقاريظ الهسكوري، في دار ابن تلا أيتماس بالصالحة بمراكش، طعاما كثيرا لمسعود الخلطي زعيم قبيلة الخلط وأصحابه «برسم **المحالفة والمصافحة**»[3].

ومن بقايا هذا التقليد ما يقال في المغرب اليوم بالأمازيغية أو العامية «مشاركين الطعام أو الملحة» كناية عن تمتين العلاقة بين شخصين، والتعاهد على أمر ما. وعموما لا يتوقع بعض المغاربة حاليا الغدر والخيانة من الأشخاص الذين شاركوهم الطعام، حسب الذهنية السائدة والمترسبة عن تلك الفترة، وهذا شبيه بما لدى المصريين حين يكررون «عيش وملح»، مما يؤكد أطروحة وحدة أصول الحضارة المغربية والمصرية[4]. أما طرق التحالف لدى المجموعات الأخرى، غير المصمودية، فمنها التحالف بواسطة تاضا كما حدث في عهد الكاهنة [5]، أو التحالف بواسطة أمور، كما لدى هسكورة، في القرن1 هـ/7م إلى القرن8 هـ/14م، إذ «يقولون في لسانهم: **أمورن الحرمان** إذا تحالفوا وتعاهدوا فيما بينهم"[6] وتعني أمور الحربة التي سميت، في القرن19م، بالمزراگ (من المزراق.)

7 - بعض مظاهر التفاوت الاجتماعي:

يتجلى التفاوت الاجتماعي في وجود بعض مظاهر العنصرية لدى بعض المصامدة، تجاه ذوي البشرة السوداء، حتى القرن12م. إذ ورد في التشوف أن تزوج الزنجية عار لديهم[7] كما أن أحط الناس قدرا في الهرم الاجتماعي المصمودي من كان أميا وعاميا وأسوداً، مثل أبي جعفر محمد ابن يوسف الصنهاجي الأسود(ت608 هـ/1212م) ببلاد

---

(1) - البيدق، **أخبار المهدي**..م.س. ص 56 . ابن عذاري، **البيان المغرب**...م.س، ج 4. ص.100 .
(2) - **نفسه**، ص 79. وسماه هنا السليف.
(3) - ابن عذاري، **البيان المغرب**..قسم الموحدين م.س. ص312 .
(4) - انظر مادة قدر في **المعجم العربي الأمازيغي** .
(5) - هاشم العلوي القاسمي، **مجتمع المغرب الأقصى**..ص152-158 ، الحميري، **الروض المعطار**..م. س. ص65، انظر عن استمرار هذا العرف إلى بداية القرن 20 لدى بعض القبائل، التوفيق، **المجتمع المغربي**..ص.383-384 .
(6) - ابن عبد الحليم، **كتاب الأنساب**..ص57 .، انظر عن استمرار هذا النوع من التحالف إلى بداية القرن20 م علال الخديمي، "عرف الرفود بنواحي الرباط وسلا خلال القرن19".، في التاريخ وأدب النوازل ص252 ، وثريا برادة، الجيش المغربي وتطوره في القرن19. منشورات كلية الآداب بالرباط1997 ص 137 وما بعدها.
(7)- ابن الزيات التادلي، **التشوف**... م. س. ص.328 .

تادلا[1]. لذا تلح المصادر على ذكر الأشخاص ذوي البشرة السوداء أو السمراء من الحكام أو من المتصوفة أو من غيرهما. ومن الحكام الموحدين الذين ذكرت أن بشرتهم كانت سوداء يعقوب المنصور ويوسف المستنصر والسعيد[2]، بل وصل الأمر بأحد الأشياخ، وهو والي سجلماسة عبد الله بن زكرياء الهزرجي، أن قال بمناسبة بيعة السعيد، سنة 640هـ/1243م :"كيف أبايع **أسود حبشيا**"[3]. وكان يقال للخليفة السعيد ولكانون شيخ قبيلة سفيان "**الأحمران**، لكونهما كانا في لونيهما أسمرين"[4] ؛ كما حرص التادلي والرواة الذين اعتمد عليهم في كتابه على التنبيه والتنصيص على السود من المتصوفة الذين ترجم لهم وذكر منهم 28 صوفيا نعتهم بالأسود ضمنهم أبي يعزى[5]، لأن البشرة السوداء تحيل بدون شك، في مجتمع إمازيغن(الأحرار) على فئة الرقيق التي يتكون أغلبها من السود الأفارقة والمهمشين اجتماعيا.

8 - بعض الرموز الثقافية ودلالتها:

كان المصامدة يعطون لبعض الألوان رمزية خاصة، فاللون الأبيض رمز الخير، واللون الأسود رمز الشر. فمن ذلك أن أحد أتباع ابن تومرت فرش لشيخه برنوسا (يكون عادة أسوداً)، فلما رآه إسماعيل إيگيگ اعترض عليه وقال له :"كيف تفرش البرنوس لنور العلم، النور لا يكون إلا على النور، فأزال من عليه كساءه وفرشها له"[6]. ومنها أن هنتاتة أرسلت شخصا يستطلع أخبار ابن تومرت، برباط هرغة، فلما رجع قال لهم باللسان الغربي (اللهجة المصمودية): "النور النور في بلاد هرغة، وأنتم في الظلمة يا هنتاتة"[7]. وينعت العديد من متصوفة المصامدة بالنور كناية عن نور العلم والولاية، منهم سيدي بوالنور بدكالة، ومنهم أبي يعزى إيلاالنور[8] ، ومن هنا-ربما-جاء لقب ابن تومرت بأسافو أي الشهاب الواري في الدين، كما نعته به ابن خلدون. كما ينعت الشخص الصافي السريرة بالأبيض، مثل كاتب المهدي ملول(أبيض) الذي كان يتقن عدة لغات، إذ نسب للمهدي أنه

---

(1) - نفسه، ص.404 .

(2) - انظر عنهم بالتتابع، المراكشي، **المعجب** ...م.س. ص460،378 ، ابن أبي زرع ، **الأنيس المطرب** م.س.216, 241, 256 .

(3) - ابن عذاري، **البيان المغرب**...ص359.360.

(4) - نفسه، ص.385 .

(5) - ابن الزيات، **التشوف**...م.س. ص.113, 158, 193, 269, 313, 232, 237, 278, 282, 305, 343, 347, 359 363 397 ,403, 414, 425, 444 ...

(6) - البيدق، **أخبار المهدي**...م.س. ص33

(7) - ابن القطان، **نظم الجمان**...م.س . ص78-88.

(8) - ابن الزيات، **التشوف**...م.س. ص213,130.

قال في حقه، ما ترجمته "أبيض مثل اللبن"[1]. وللون الأخضر رمزية دينية، مثله مثل رمزية الجمل في الثقافة الإسلامية، كما يبدو من موكب الحركة الموحدية التي يتقدمها المصحف العثماني، في ثياب خضراء، محمولا على جمل أبيض .

وللشمال واليمين رمزيتهما، ظهرت، في تمييز سنة519 هـ/ 1126م، بأونايِن، إذ جعل البشير المعارضين للحركة الموحدية على يساره والمؤيدين لها على يمينه . وعند تفرق فلول الجيش الموحدي، بعد هزيمة البحيرة، أخذ عبد المومن جهة اليمين، وأخذ عبد الله بن يعلى بن ملوية جهة اليسار، فاختار "لنفسه أنه من أصحاب الشمال"، يعني بذلك قيامه بالثورة في عهد عبد المومن، سنة527 هـ، فقتل بتينمل[2].

بلد المصامدة هو بلد أحواش وأمارگ، ذكر ابن القطان أهازيج هنتاتة[3]. واقيمت رقصات أحواش، أثناء زيارة المنصور لتينمل، إذ تغنت النساء بوصول الجند من الغز[4]. وكان المنصور يحذر الأمراء وأشياخ الموحدين من الطبل، مما يدل على تعاطيهم لأحواش بكثرة[5]. وآخر مجال لأحواش اليوم في الأطلس الكبير نحو الشرق هو قبيلة فطواكة، وهو مجال القوالين أي الشعراء الذين يعرفون اليوم بإماريرن، ذكرت المصادر عددا منهم. ويعتبر القوال كذلك كاهنا [6] ، وورد في التشوف ذكر لكثير من الأشخاص المصامدة كانوا قوالين، قبل أن يتوبوا ويصبحوا صوفيين.

II- تزايد الدعوة إلى استبدال دولة إمغارن بدولة الخلافة:

تتميز الحياة السياسية للمصامدة، قبل القرن12م، بظاهرتين : بسيادة دولة إمغارن وبظاهرة الشتات السياسي.

1- دولة إمغارن ووضعية الشتات السياسي :

يتسم الوضع السياسي للمصامدة، منذ أواخر القرن1 هـ/7م إلى منتصف القرن5هـ/11م، بالتجزئة في شكل "تقبلين" أو اتحادات "تقبلين" أو إمارات ببعض المدن

---

(1) - البيدق، **المقتبس**...م.س. ص41

(2) - ابن القطان، **نظم الجمان**...م.س.ص 121 البيدق، أخبار المهدي...م.س. ص37, 46 ,82 ، انظر عن دلالة رموز هذه الألوان والضياء واليمين واليسار، Chabel Malek, **Dictionnaire des symboles Musulmans**, Albin Michel، 1995 وعن دلالتها في الثقافات الأخرى كمثيولوجيات آسيا الوسطى.. Jean Chevalier, **Dictionnaire des symboles**, Paris، 1982.

(3) - نفسه ص 88 -89.

(4) - المراكشي، **المعجب**...م.س. ص415-416.

(5)- ابن عذاري، **البيان المغرب**...ق. الموحدين ص231.

(6) - البيدق، **أخبار المهدي**...م.س. ص.77 .

الرئيسية. ذكر ابن عذاري، أن موسى بن نصير لما عاد إلى الشام، أواخر القرن1 هـ7/م، صحب معه مائة من وجوه الأمازيغ، ومائة من وجوه الروم الأندلسيين، وعشرين ملكا من ملوك المدائن التي افتتحها بشمال إفريقيا. وكان ضمن هذه الحاشية الضخمة التي كانت تمسك بزمام السلطة في تلك المدن والأقاليم، قبل الفتح الإسلامي، "**مزدانة ملك السوس**"، وهو ملك أوربة أقوى قبائل المغرب الأقصى، في بداية الفتوحات الإسلامية(1) وبعد أن خضع جزء من بلاد المصامدة للمسلمين، حوالي 40 سنة، عاد المصامدة إلى وضعهم السياسي السابق غداة ثورة122 هـ/740م وانفصال المغرب عن المشرق. ولم يعرف المصامدة إلا دولتين :"لبرغواطة دولة، ولأهل درن دولة أخرى "حسب ابن خلدون (2) وهي دولة الموحدين. وظلت بلاد المصامدة محتفظة بهذه التشكيلات السياسية المستقلة والمتميزة بنظام شبه ديمقراطي وهو ما سماه ابن خلدون **بدولة إمغارن**، في حديثه عن أغمات، قبل احتلال المرابطين لها، إذ كان فيها "**دولة إمغارن** في بلاد المصامدة وهم الشيوخ"(3). وهو نظام يختلف في كثير من المظاهر عن النظام السياسي والقانوني والحربي الوافد مع الإسلام(4). جعلت هذه الإمارات الصغرى المصامدة بالمدن والبوادي، قبل انطلاق الحركة المرابطية، يعيشون حالة الشتات، ولم يعرفوا إلا بعض الاتحاديات القبلية الكبرى، كاتحادية هنتاتة، واتحادية هسكورة، واتحادية صنهاجة (5). كما شكلوا أحلافا، مثل الحلفين الشهيرين تحگات وتگوزولت اللذين يعودان، إلى ما قبل قيام الحركة الموحدية، في القرن السادس، بدليل تسميتهما باسم امرأتين، بسبب سيادة الأسرة ذات النسب الأُمومِي لدى المصامدة(6). أدت تلك الأحلاف إلى حروب مثل التي وقعت بين هيلانة وهسكورة وبين صنهاجة وهسكورة، قبل الإسلام(7).

2 - استنكار قسط من النخبة الدينية لدولة إمغارن:

أثارت كثرة الحروب بين "تقبلين" المصمودية وما نتج عنها من سهولة سفك الدماء الناتجة عنها، انتباه الجغرافيين والمؤرخين القدماء، منذ القرن 4 هـ/10م، واعتبر بعضهم

---

(1) - ابن عذاري، **البيان المغرب**..م.س.ج 1ص44-45 . ابن عبد الحليم، **كتاب الأنساب**..م.س. ص.53 .
(2) - ابن خلدون، **كتاب العبر**... م.س.ج 6.ص.206 .
(3) - ابن خلدون عبد الرحمان، **كتاب العبر**... م.س. ج 6. ص.183.
(4) - انظر عن مظاهر الاختلاف بين النظام القانوني والسياسي والاقتصادي والاجتماعي الأمازيغي المحلي والمشرقي الوافد مع الإسلام وتعايشها إلى عهد الحماية، مقالنا : «العلاقة بين إزرف (العرف) والشرع خلال العصر الوسيط»، ضمن القانون والمجتمع بالمغرب، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط 2005. وانظر دولة إمغارن في التنظيمات السياسية لتقبيلت من هذا العمل ص
(5) - ابن عبد الحليم، **كتاب الأنساب**... م. س.ص57، التوفيق، المجتمع المغربي... م. س. ص. 56 .
(6) - انظر عن الحلفين المختار السوسي، **الإلغيات**، مطبعة النجاح الدار البيضاء، 1963 ص163 ، ومادة تكزولت في **المعلمة** ج7 ص2184 ، وما كتبه، Justinard. **Un petit royaume Berbére, le tazeroualt**, Paris 1954
(7) - ابن عبد الحليم، كتاب الأنساب... م.س . ص.57.

"بلادهم بلاد شر وقسوة"[1]. وصف الإدريسي سكان سوس بقلة التحضر وغلظ الطبع [2]. ويعلل القدماء هذه الظاهرة بطبيعة الإقليم الثالث الذي يوجد به المغرب، وهو إقليم يغلب على أهله سفك الدماء والحسد والحقد والغل وما يتبع ذلك، وكل ذلك نتيجة للأحكام المريخية على زعمهم، غير أن رسالة أبي زيد القيرواني إلى المصامدة ترجعها إلى العصبية القبلية" وكتب قوم من أهل المغرب الأقصى إلى الشيخ أبي محمد بما يقع في بلادهم من سفك الدماء وتعصب القبائل بعضهم على بعض، فجاوبهم بهذه الرسالة" [3]. وتكثر بجهة السوس وجبال درن، أي ببلاد المصامدة، إذ يقول ابن سعيد المغربي :"إن قتل الإنسان عندهم كذبح عصفور، قال: وكم قتيل عندهم على كلمة، وهم بالقتل يفتخرون"[4]. ولم تتقلص هذه الظاهرة حتى في أوج قوة الدولة الموحدية، وقد قضى عبد الواحد المراكشي العجب مما شاهده من ذلك، في تجواله بالسوس، في نهاية القرن السادس وبداية السابع الهجري، بل تبرز في صفوف العصبية المصمودية الحاكمة نفسها، ومن مظاهرها قتل أخ عبد المومن على إثر وضعه مكان أحد أهل الخمسين المتوفين[5]، ومنها تهديد ابن وانودين بالقتل من طرف عميه عبد الحق وتميم، نظرا لموقفه المتعاطف مع عبد السلام الكومي، خلال محاكمته سنة 555 هـ/1160م[6] . وظهر كذلك في سلوك ابن تومرت المتسم بالتسرع في سفك الدماء وروت المصادر عدة أحداث عن مبالغته في ذلك[7]، منها التمييز والاعتراف الذي قام به البشير، سنة 519 هـ/1126م، بهناية[8]. غير أن هذه الظاهرة لم تكن خاصة بالمصامدة، إذ قد قام المرابطون كذلك بتمييزهم، قتل فيه ما ينيف على ألفي رجل من المعارضين في عهد أبي بكر[9]. ولاتقل الدولة الفاطمية عن الموحدين من حيث العنف وطابعها الدموي. ولاحظ صاحب الاستبصار "أن نفوس أهل المغرب مجبولة على الاستنصار، وقيل الحقد مغربي"[10]. وأشار الحسن الوزان إلى أن

---

(1) - المراكشي، **المعجب**...م.س.ص281، ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، 1979 ص.44.
(2) - الإدريسي، **نزهة المشتاق**... م.س.ج 3. ص. 227- 228 .
(3) - ابن العربي أبو بكر، **كتاب شواهد الجلة**. تحقيق يعلى محمد نشره ضمن، ثلاثة نصوص عربية عن البربر في الغرب الإسلامي.ط المجلس الأعلى للأبحاث العلمية الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، مدريد .1996 ص.324 .
(4) - القلقشندي، **صبح الأعشى**..ص173 ،، عبد الواحد المراكشي، المعجب..ص.281 .
(5) - البيدق، **أخبار المهدي**...م.س .ص.55.
(6) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**. تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي ط 3 سنة.1987 ص.118.
(7) - وقد ناقش النجار ما ورد في المصادر حول هذه النقطة وانتقد مبالغة بعضها، **المهدي ابن تومرت**..ص. 143-138.
(8) - ابن القطان، **نظم الجمان**...م.س . ص102, 114 ، البيدق، **أخبار المهدي**...م. س. ص.39.
(9) - النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**. تحقيق مصطفى أبو ضيف، ونشره تحت عنوان تاريخ الغرب الإسلامي في العصر الوسيط، دار النشر المغربية -الدار البيضاء، 1984 ص.379.
(10) - مجهول، **الاستبصار**... م.س. ص.183 .

المغاربة " ينقشون على الرخام أقل إهانة (تلحقهم)، ولا يسمحون لها بالخروج من قلوبهم أبدا"[1].

كانت النخبة الدينية المصمودية واعية بمخالفة دولة إمغارن للنظام السياسي الإسلامي ، كما حدده الشرع، من عدة أوجه. وكانت واعية بمضار التشتت السياسي وأبدت رغبة أكيدة في تجاوزه بالدخول في ظل حكم مركزي إسلامي .ومن مظاهر هذا الوعي استفتاؤهم لأبي زيد، في القرن4 هـ/10م، إذ "كتب قوم من أهل المغرب الأقصى إلى الشيخ أبي محمد بن أبي زيد القيرواني رضي الله عنه يعلمونه بما يقع في بلادهم من سفك الدماء، وتعصب القبائل بعضها على بعض، فجاوبهم بهذه الرسالة"[2]. تبرز هذه الفتوى سلبيات الأحلاف والعصبية القبلية على الحياة العامة لدى المصامدة، ومخالفتها للدين الإسلامي وتعدها من أفعال الجاهلية. وظهر هذا الوعي، مرة أخرى، في مطلع القرن الخامس الهجري، من خلال كلام نسب لعبد الله بن ياسين الذي لاحظ، بعد رجوعه من رحلته العلمية بالأندلس، التجزئة السياسية في المغرب ككل، وخصوصا لدى المصامدة، إذ "وجدهم يغيرون بعضهم على بعض، يغنمون الأموال ويقتلون الرجال ويسبون الحريم ولا يرجعون إلى طاعة إمام. فكان من عبد الله بن ياسين بعض الإلهام أن قال لبعضهم:... **هلا قدمتم عليكم إماما يحكم بينكم بشريعة الإسلام وسنة النبي عليه السلام؟** فقال له بعض من أشياخ المصامدة : لا يرضى أحد منا أن ينقاد إلى حكم أحد من غير قبيله"[3]. قد تكون هذه الرواية غير صحيحة من حيث الوقائع، لكن اختلاقها يدل على تصور بعض النخب الدينية للوضع السياسي المتشرذم ورغبتها في تجاوزه، وهذه الرغبة المتزايدة في الوحدة هي ما يفسر، جزئيا، ثورة ابن تومرت ونجاحها .

في منتصف القرن5 هـ11 /م ستنتهي مرحلة التجزئة السياسية لبلاد المصامدة عندما خضعت جل قبائلها للدولة المرابطية، بعضها صلحا، وبعضها عنوة، إذ أن الأمير أبا بكر"فتح جبل درن وبلاد زودة ومدينة شيشاوة **بالسيف**، ثم فتح مدينة نفيس وسائر بلاد كدميوة، وأتاه قبائل ركراكة وحاحة فبايعوه"[4]، أي صلحا. وسيخلق استيلاء المرابطين على بعض بلاد المصامدة عنوة توترا اجتماعيا وسياسيا بين الغالب الجديد

---

(1) - الوزان، **وصف إفريقيا**..م س.ج 1 ص.70 .
(2) - بن العربي أبو بكر، **شواهد الجلة**..م.ص 365 وما بعدها .
(3) - ابن عذاري، **البيان المغرب**..م س.ج 4.ص15.10.
(4) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**...م. س. ص129 ، الناصري، **الاستقصا**...ج 2 ص14 ، البكري، **كتاب المغرب**... م س. ص.168

والمغلوبين؛ وما اتخاذ المرابطين لموقع مراكش، في وسط بلاد المصامدة، دارا لملكهم إلا مظهراً من مظاهر هذا التوتر والحذر بين الطرفين، إذ تصرح المصادر أن القصد من اختيار موقعها هو التحكم منها في معاقل جبال درن "إنما بناها واضعها ليملك منها جبل درن لكثرة من يعمره"[1]، ويخبرنا ابن خلدون عن هذا التوتر الاجتماعي والسياسي، بالمنطقة، بأنه كان للمصامدة: "مع لمتونة، ملوك المغرب، **حروب وفتن سائر أيامهم**"[2]. وكان مما أوصى به يوسف بن تاشفين ابنه عليا : "أن لا يهيج أهل جبل درن، ومن ورائه من المصامدة وأهل القبلة" [3]، كما حذر مالك بن وهيب علي بن يوسف من خطر وصول ابن تومرت لبلاد المصامدة، لأنه في نظره" إن وقع هذا في بلاد المصامدة ثار علينا منه شر كثير"[4]. هذان القولان الأخيران قد يكونان موضوعان، لكن وضعهما واختلاقهما يؤكد ذلك الحذر الموجود بين المصامدة والمرابطين. كما لم يتمكن المرابطون من التحكم الكامل بجبل درن، حسب ما يستنتج فتوى القاضي عياض، في بداية القرن12 م[5]. وبالفعل، ما أن وصل ابن تومرت إلى جبال درن، سنة514 هـ/1121م، حتى أصبح في حماية قبائل المصامدة، منها حماية 200 فرد من قبيلة هزرجة أتى بهم أحد تلاميذه من هذه القبيلة[6]. ويمكن القول إن المصامدة قد وجدوا ضالتهم في ابن تومرت لمناهضة المرابطين الذين يسيطرون في الحوز وحدها على 5 آلاف هكتار من الأراضي المسقية التي كانت من قبل في ملكية المصامدة . وعندما ظهرت الحركة الموحدية أقام المرابطون سلسلة من الحصون المنيعة لمحاصرة المصامدة، بجبال درن، أحصى البيدق عددا منها. انعكست هذه المجابهة بين المرابطين والمصامدة[7] على تطور الأحداث السياسية والعسكرية، إذ لم يمض أكثر من نصف قرن حتى اندلعت بالمنطقة ثورة دينية وسياسية عصفت بالدولة المرابطية[8] .

---

(1) - مجهول، **الاستبصار**...م. س. ص209 ، نفس المعنى ورد في «**الحلل الموشية** "ليكون زمام جبل درن بيد اميرها" ص 16 كان من أهداف اتخاذ مكان مراكش مخيما للجيش المرابطي حسب ابن خلدون» التمرس بقبائل المصامدة المقيمة بمواطنهم منها في جبل درن، إذ لم يكن في قبائل المغرب أشد منهم قوة، ولا أكثر جمعا»، **العبر** 6 ...ج 183 الناصري، **الاستقصا**. م.س.ج 2. ص 23.

(2) - ابن خلدون، **كتاب العبر**..م.س.ج 6.ص.224 .

(3) - مجهول، **الحلل الموشية**...م.س . ص.82-83 .

(4) - المراكشي، **المعجب**...م.س .ص.272.

(5) - بن شريفة، «أصداء من الحياة اليومية من سبتة المرابطية» في مجلة المناهل عدد 22 السنة 9 ص. 262-264 .

(6) - البيدق، **أخبار المهدي**...م.س .ص.31 .

(7) - زنيبر محمد، **المغرب في العصر الوسيط**..ص171، وانظر أيضا، Pascon .P. **Le Haouz**...opt. Cité, p 152

(8) - زنيبر محمد، **المغرب في العصر الوسيط**... م.س .ص.151-174 .

III - هيمنة الرباطات على الحياة الدينية ببلاد المصامدة:

كانت الحياة الدينية للمصامدة، إلى أواخر القرن5 هـ/11م، تتشابك فيها عناصر متعددة ومتفاعلة، منها ما له علاقة بديانتهم قبل إسلامهم، ومنها عناصر تعود للدين الإسلامي الآخذ في التوطد والرسوخ، منذ الفتوحات الإسلامية، والفصل فيها بين الجديد الوافد وبين المحلي الموروث من الأمور المعقدة والصعبة. وكان التاريخ الديني المصامدة قبل الإسلام تاريخا متميزا[1]، إذ لم يجد الإسلام أغلبيتهم على الوثنية بل عرفوا الديانات التوحيدية خاصة المسيحية[2] ، وسمعوا بالإسلام مع حملة عقبة، سنة 62 هـ[3] ، كما كان للأدارسة دور، خلال القرن3 هـ/9م، في ترسيخ الإسلام بينهم[4] . وتعرفوا عند إسلامهم على عدة مذاهب منها المذهب البجلي[5] ، أما الرواية الفريدة عن اتهام قبيلة صغيرة بعبادة الكبش، في القرن5 هـ/11م، فأمر قدحي في الغالب، ولا يوجد ما يؤكده في النصوص أو الأحداث التاريخية، ومبني على تسمية تلك القبيلة باسم إزيمر (هزميرة) أي الكبش[6]، وكان بعض سكان المدن، إلى منتصف القرن العشرين يصفون الناطقين بالأمازيغية بعباد الكبش.

وأهم ما كان يميز الحياة الدينية للمصامدة، خلال القرون الهجرية الأولى إلى مطلع القرن12 م، ظاهرتان: ظاهرة انتشار أصناف من المدركين للغيب وتبجيلهم، واستمرار هيمنة الرباطات على توجيه الحياة الدينية.

1-الكهان وبعض أشكال الرجم بالغيب:

اشتهر من ممارسي العرافة ثلاثة أصناف من العرافين: الركّاد، المسيح، القوال.

يعرف البكري الركّادة بأنهم أناس متخصصون بالتنبؤ والتكهن بالغيب بطريقة خاصة، إذ يعتريهم النوم، مدة ثلاثة أيام، ومن هنا جاء اسمهم الركّادة بالعربية ومقابلها

---

(1) - انظر عن ديانة المغرب القديمة. هاشم العلوي، **مجتمع المغرب الأقصى**...م.س. ص99، وعن حواريي السيد المسيح وعن اليهودية، نفسه، ص.101-106.

(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب**...م.س .ج 1ص26 ,42 ,44 . ابن عبد الحليم، **كتاب الأنساب**... ص.95 .

(3) - البزاوي عبد الكبير. دور الدعوة في نشأة الدولة المغربية، رسالة دبلوم الدراسات العليا مرقونة بكلية الآداب بالرباط، 1987 ص.104.

(4) - مناطق وجود الأدارسة في الجنوب حسب البكري. **كتاب المغرب** ..هي، لمطة ص124 ، نفيس ص160 ، درعة155 ، ماغوسة ص.161 .

(5) - **نفسه**.ص161 ، وداد القاضي، «الشيعة البجلية». أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب وحضارته ج 1سلسة الدراسات التاريخية. المطبعة العصرية، تونس 1979 ج 1 . ص 190 . وما بعدها.

(6) - البكري، **كتاب المغرب**...م.س.161. التوفيق، «التاريخ وأدب المناقب من خلال مناقب أبي يعزى»، ضمن التاريخ وأدب المناقب، منشورات جمعية المغربية للبحث التاريخي1988 ص87 ، ابن الزيات. التشوف ...ص213 هامش476 ، وقد تنبه جاك بيرك إلى بدوره إلى هذه المسألة في كتابه "... Structure sociales" م. س. ص7، وقد سبق ان اتهم بعض سكان القيروان، في القرن3 هـ. بعبادة الكبش.أبو ضيف، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية، ج 1.ص487.، نقلا عن كتاب بن سلام الاباضي .

إمڭون بالأمازيغية (من فعل إڭن أي نام أو رقد)؛ ولا يستيقظ الواحد منهم، خلال تلك المدة، مهما تعرض له ومهما كانت الظروف، إلا في اليوم الرابع .وعندما يستيقظ لا يفعل أي شيء، في ذلك اليوم، لأنه يكون كالسكران، لكنه في اليوم الخامس يصح ويكون في كامل قواه العقلية فيخبر بما يكون، في تلك السنة، من الأحداث الجسام، كالخصب والجدب والحرب والسلم. وتوجد فرقة منهم لدى العديد من القبائل الغمارية الموجودة على وادي لاو، خلال منتصف القرن5 هـ/11م، مثل بني سعيد، وبني فطيطن، بني يروتن، "يغشى على الرجل منهم، يومين وثلاثة أيام، فلا يتحرك ولا يستيقظ، ولو بلغ به أقصى مبلغ من الأذى ولو قطع قطعا، فإذا كان بعد ثلاثة (أيام) من غشيته استيقظ كالسكران ويكون يومه كالواله لا يتجه لشيء، فإذا صح في اليوم الثاني أتى بعجائب ما يكون في ذلك العام من خصب أو جدب أو حرب أو غير ذلك، **وهذا أمر مستفيض لا يخفى**"[1]. وبما أن النساء كن متخصصات أكثر من الرجال، في مثل هذه الأمور، فقد شاع اسم تمڭونت، ومنه تمڭونت بنت سير بن وربيل المرابطي التي وقعت في أسر الموحدين[2] ، ومذكرها (أمڭون) مصطلح منتشر كاسم مكان أطلق على جبل مڭون وقلعة مڭونة، وعلى عدة دواوير بالأطلس الصغير، ومرادفها في العامية الركادة، وهو اسم أطلق على بعض الجماعات البشرية، مثل أحد بطون قبيلة رڭراڭة خلال العصر الوسيط[3] وعلى جماعات بشرية، منها ركادة بالقرب من تزنيت وبالقرب من تارودانت[4] وغيرهما. وأطلق على عاصمة العبيديين، رقادة قبل ذلك[5].

كان الركادة معروفين لدى المصامدة، أوائل القرن12م، ومنهم من عرفوا بالمُبَشّرِين (كسر الشين)، كأبي محمد من أهل العشرة الذي حمل اسم البشير واشتهر به، ففي إحدى المناسبات أخذته "**تلك السنة التي كانت تأخذه عند عظائم الأمور، فلما قام من سنته أعلمهم** (الموحدين) بالفتح"[6]. وكان يعرف كذلك بالمحدث الذي كان يعرف به عمر بن الخطاب، وهو الشخص الملهم الذي يلقى في روعه الشيء قبل الإعلام به، أو يجري الصواب على لسانه من غير قصد[7]. وكانت عملية التمييز لسنة 519 هـ بأونا ين

---

(1) - البكري، **كتاب المغرب**... م س. 101 -102.
(2) - البيدق، **أخبار المهدي**... م س. ص49...91.
(3) - ابن عبد الحليم، **كتاب الأنساب**... م س. ص.58.
(4) - محمد شفيق، «حفريات في اللغة قد تفيد المؤرخ»، ضمن، **جوانب من تاريخ المجال والسكان بالغرب**، منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء1998 ، ص.60 .
(5) - ذكر البكري أن سبب تسميتها بذلك «أن أحد بني الأغلب أرق وشرد عنه النوم فخرج ولما وصل إلى مكانها نام، والثاني أنها سميت بذلك لرقاد جثث قبيلة ورفجومة الاباضية بها بعد انهزامهم أمام سكان القيروان» **كتاب المغرب**... م س. ص.27-28 .
(6) - ابن القطان، **نظم الجمان**...م س. ص.115 .
(7) - **نفسه**،103 . انظر الحديث الوارد بشأنه. **نفس المصدر والصفحة**.

التي قام بها البشير وتمت فيها تصفية المعارضين للحركة الموحدية من قبائل المصامدة، من إيحاء مُبَشِّرٍ آخر هو الشيخ عبد الله الهسكوري، من أهل الخمسين، الذي رأى في نومه الشيطان وحاوره بالأمازيغية بشأن المهدي[1] . ومن الركادة أيضا الشيخ أبو زكرياء، من أهل الخمسين، وكان ممن يخدم البشير[2]. وكان هؤلاء المُبشِّرُون، في الواقع، مكلفين بالاستعلامات وبعملية التمييز العسكري في تنظيمات المهدي، ونظر إليهم المصامدة كالركادة المنتشرين بينهم. وإذا اشتهر المصامدة بظاهرة الركادة فإن الزناتيين اشتهروا أكثر بأنهم بارعون في علم الكتف[3] .

ومن العرافين أيضا المسيح. والمسيح شخص لا يستقر بمكان، يأتي أفعالا وأقوالا غير معقولة، كالشخص "المجذوب" في الثقافة الشعبية الذي يعتقد الناس أن له قدرات خاصة، ويشتهر بالدعوة المستجابة أو النبوة المحققة[4]، بشر واحد منهم بانهزام المرابطين أمام الموحدين، في إمْجْدَارْ قبلة أغمات، سنة524 هـ/1130م[5] .

وهناك من يتنبأ من خلال شعره، وهم المسمون بالقوالين، كالقوال الذي قتله عبد المومن[6] . وقد ذكر التادلي مجموعة من القوالين تحولوا إلى التصوف بعد توبتهم[7]. ونظرا لانتشار هذا النوع من الفكر، فقد نسب للمهدي أنه كان أوحد عصره في خط الرمل، كما ينسب له أنه حصل على كتاب الجفر في المشرق الذي اطلع فيه على مكان قيام ثورته وغير ذلك من أموره[8].

لم يكن انتشار الفكر الخرافي والسحري مقتصرا على المصامدة وحدهم، بل نجده في كل أقطار الغرب الإسلامي، بما في ذلك الأندلس. ويكفي الرجوع إلى مقدمة ابن خلدون وإلى ما أورده الحسن الوزان بشأن جمهور سكان مدينة فاس في عهده[9]، للتأكد من ذلك[10]، وإنما المقصود هنا إبراز النوع الذي يشتهر لدى المصامدة أكثر من غيره، خلال القرن12 م.

---

(1) – البيدق، **المقتبس**... م س .ص. 36-37 .

(2) – نفسه، ص40–41 ، وانظر التادلي عن المحدثين من المتصوفة، **التشوف**..م. س. ص.291.

(3) – الإدريسي، **نزهة المشتاق**... م س.ج 3.ص.256.

(4) – ابن خلدون، **المقدمة**...م. س ص 193. وما بعدها، انظر التوفيق، **المجتمع المغربي**... ص.425 .

(5) – ابن القطان، **نظم الجمان**... م. س.ص.116 .

(6) – البيدق، **أخبار المهدي** ...م. س. ص 77 وذكر صاحب التشوف عددا من القوالين تحولوا إلى متصوفة .

(7) – ابن الزيات التادلي، **التشوف**..ص311, 365, 401, 419.

(8) – المراكشي، **المعجب**... م. س. ص265-266، وانظر عن تاريخ الجفر، ابن خلدون، **المقدمة** ..م، س.ص594، الناصري، **الاستقصاء**... م س.ج 2 ص 95-96. ومعناه اللغوي جلد المعز الصغير المعد للكتابة.

(9) – الوزان، **وصف إفريقيا**... م س.ج1. ص. 204-214.

(10) – ابن خلدون، **المقدمة**..م س ص159–209، 882- 888 . بوتشيش، **المغرب والأندلس**... م س ص 110- 120 .

2 - إشعاع الرباطات المصمودية:

بالرغم من أن بلاد المصامدة عرفت مذاهب عديدة، قبل القرن5 هـ/11م، إلا أنها تميزت عن باقي الأقاليم المغربية بهيمنة الرباطات على توجيه الحياة الدينية، وبتغلب التيار الصوفي الذي نما بتلك الرباطات على جل المذاهب والتيارات الدينية السابقة التي عرفتها المنطقة قبل ذلك. ولم ينحصر تأثير الرباطات على الحياة الدينية وحدها، بل تعداه إلى مختلف الميادين الثقافية والاجتماعية والسياسية، إذ ساهمت الدينامية الدينية والاجتماعية التي خلقتها تلك الرباطات في ظهور عدة حركات سياسية، اعتمدت بعض مبادئ الرباط، كأساس للإصلاح الديني والسياسي، كمبدأ الجهاد عند الدولة المرابطية ومبدأ التوحيد الذي قامت علية الدولة الموحدية، أو مبدأ الأخوة الصوفية الذي اعتمده السعديون المنطلقون من مكان سمي تكًمادرت (ربما تعني دار الأخوة أحد مصطلحات الصوفية؟). كيف ومتى ظهرت الرباطات السوسية؟ ولماذا أخذت مثل هذه الأهمية التاريخية، مقارنة مع نظيراتها الشمالية المعاصرة لها، والتي تضاءل إشعاعها، قبل القرن5 هـ/11م، ولم يعد لها تأثير في حجم إشعاع الرباطات الجنوبية؟

للجواب على مثل هذه التساؤلات وغيرها يتعين استعراض تاريخ هذه الرباطات بالاعتماد على المعلومات القليلة التي تقدمها المصادر، وقراءتها على ضوء الظرفية التاريخية العامة لبلاد الغرب الإسلامي، ولبلاد المغرب الأقصى ومنطقة سوس. فما هو الرباط؟

أ- ظهور الرباطات بسوس ووظائفها :

يصعب تحديد مفهوم الرباط بدقة، إذ تختلف وظائفه، حسب الأمكنة والعصور وحسب الظرفية التاريخية لكل جهة من العالم الإسلامي، خلال العصر الوسيط[1]. والرباط، حسب القواميس هو العلقة والوصلة أو اسم لجماعة الخيل المرابطة على بلد العدو. وله ثلاث معان، منها الرباط المبني أي القلعة أو الحصن للدفاع، ومنها ملازمة ثغر العدو أي الدفاع على حدود دار الإسلام، ومنها المحافظة على أوقات الصلاة ومنها الحديث "فذلكم الرباط"[2]. ويكاد يجمع الباحثون على أن الرباط، في التاريخ الإسلامي المشرقي

(1) - راجع مادة الرباط في Encyclopédic de l'islam .2e Ed ,tVIII; p 510 في الطبعة القديمة منها. الفرد بل. **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي**، ترجمة عبد الرحمان بدوي، دار الغرب الإسلامي1981 ، ص.99-103 .

(2) - انظر مادة الرباط عند ابن منظور في قاموسه **لسان العرب** ..

والمغربي، هو مكان للمواجهة المسلحة مع العدو، وذو طبيعة دفاعية بالأساس. وقد يكون مبنيا على شكل قلعة أوحصن يلتجئ إليه سكان المناطق المجاورة للتحصن به من غارات الروم البحرية عليهم، كما هو الحال بالنسبة لبعض رباطات بنزرت التي كانت كذلك قلاعا دفاعية يتحصن بها السكان كلما داهمهم الخطر[1]. وقبل أن يفقد وظيفته العسكرية، يصبح مكانا يجتمع فيه أهل الصلاح للعبادة والتبتل والزهد والدعوة إلى كلمة الله من خلال الوعظ والإرشاد، ولهذا يحصر المؤرخون دور الرباط في هاتين الوظيفتين .يقول ابن زيدان مثلا، إن "الرباط إما حصن أهل العسة وهو الأظهر، وإما متعبد أهلها كصوامع الرهبان التي تكون دائما خارج مدنهم"[2]، أما الرابطة فهي المسجد الصغير الذي يأوي إليه الصلحاء للاعتكاف بها والتحنث داخل المدن أو خارجها، أو على ساحل البحر، أو عند مدفن ولي من أولياء الله[3].

قد يكون الرباط بناية محصنة كالقلعة أو في شكل قصر صحراوي، أو مجرد مسجد عادي، مثل مسجد الشعاب الذي يعتبر أعمر وأشهر رباطات مدينة طرابلس[4]، ويتوفر على بيوتات مخصصة لسكنى نزلائه ومسجد للصلاة والتعليم، وعلى بعض المرافق الأساسية، كالحمامات والطواحين الحجرية وغيرها، حسب أهمية الرباط وشهرته وعدد نزلائه. فهو مأوى دائم لعدد من الصالحين وأهل الخير يسمون بالمرابطين، حبسوا أنفسهم منفردين دون الأهل والعشائر، ومجردين عن متاع الدنيا. وقد يكون ضمن نزلائه عدد من النساء المرابطات اللائي يخصص لهن جناح منفرد ببعض الرباطات، كما هو الحال في رباط المناستير .ويمكن أن يصل، أحيانا، عدد المرابطين، ببعض الرباطات، إلى 100 ألف مرابط، كما هو شأن رباط شالة، خلال القرن4 هـ/10م[5]. ويكون جميع النزلاء تحت سلطة شيخ فاضل يكون عليه مدار القوم كرباط سوسة[6].

وتتكون موارد الرباط المالية من صدقات سكان المدن والقرى المجاورة ومن الأملاك الموقوفة عليها في عدة أقاليم، مثل رباط شقانص بين المهدية والمناستير والمتكون من قصرين "على حافة البحر للرباط والعبادة عليهما أوقاف كثيرة بإفريقية والصدقات

---

(1) - نفسه، ص.57 .
(2) - ابن زيدان عبد الرحمان، **إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس**. مطابع «إديال» ط قق سنة 1990 ص .39 .
(3) - انظر عن هذه المعاني، التادلي، **التشوف**...م س .ص 166.110، 207 ، 305 .312، 330، 343، 368، 412.
(4) - البكري، **كتاب المغرب**... ، م س، ص.7 .
(5) - ابن حوقل، **صورة الأرض**...م. س ص.81 -82.
(6) - نفسه، ص.36 .

تأتيهما من كل أرض"[1] أو رباط المناستير الذي تأتيه الصدقات من القيروان وغيرها من المدن .

والرباط عبارة عن مزارة لها قدسية دينية تشد إليها الرحال التماسا للبركة والدعاء عندها لطلب قضاء الحاجات، مثل الرباط الموجود على وادي ماسين، بقبيلة كَومية، فهو رباط "حسن مقصود **يتبرك به**، وإذا سرق أحد فيه أو أتى بفاحشة لم تتأخر عقوبته، قد تعارفوا ذلك من **بركته**، وحسن صنع الله فيه"[2]. كما كان المصامدة، أوائل القرن5 هـ/11م، يقصدون وجاج بن زلو في رباطه "يزورونه، **ويتبركون بدعائه**، وإذا أصابهم قحط استسقوا به"[3]، نفس الشيء يقال عن رباط إمي ن تمدا عند هسكورة الذي "جعلوه رباطا إلى الآن(ق14م)، ويطلبون فيه حوائجهم، وظهرت لهم بركة ذلك الموضع"[4].

ومن الوظائف الأساسية للرباط الوظيفة الاقتصادية، إذ كان لأغلب الرباطات موسم سنوي، خاصة تلك التي تقع في موقع تقاطع الطرق التجارية البرية والبحرية، كرباط أصيلا، وماسة، وكوز. ويعقد في أحد الأعياد الدينية الإسلامية الثلاث: عيد عاشوراء، كموسم رباط سوسة، أو في عيد الأضحى في العاشر من ذي الحجة، أوفي 27 رمضان، كموسم شاكر، أو موسم قرب تلمسان حسب النويري[5]. ونادرا ما يكون للرباط الواحد أكثر من موسم واحد، إلا في حالة استثنائية، مثل موسم رباط أصيلا الذي كانت تنعقد فيه، سنويا، ثلاثة مواسم في الأعياد المذكورة، خلال القرن3 هـ/9م، نظرا لموقعه الاستراتيجي عند التقاء طرق القوافل التجارية والبحرية بالشمال المغربي[6]. ويكون هذا الموسم الذي يدوم أياما معلومة، حوالي أسبوعين، تظاهرة ثقافية واجتماعية يلتقي فيها السكان والتجار من مناطق متباعدة.

هكذا يتضح أن وظائف الرباطات متعددة: عسكرية، ودينية، واقتصادية واجتماعية وثقافية. فمتى ظهرت هذه المؤسسة الهامة بالشمال الإفريقي؟ وما هي أصولها؟

أقدم رباط اكتسب شهرة واسعة هو رباط المناستير الذي بني، سنة 180 هـ 776/ م، ثم رباط سوسة الذي بني، سنة 208 هـ/821 م. وقد بلغ عددها، في القرن5 هـ/11م، أكثر

---

(1) - نفسه. ص.37.
(2) - البكري. **كتاب المغرب**... م.س .ص.80.
(3) - ابن الزيات التادلي. **التشوف**... م.س، ص.89.
(4) -ابن عبد الحليم، **كتاب الأنساب**... م.س، ص.57 .
(5) - النوير، **نهاية الأرب**... م.س، ص.407.
(6) - ابن عذاري، **البيان المغرب**...م.س ج I .ص232. البكري، **كتاب المغرب**... م.س، ص.112 .

من 22 رباطا، حسب شهادة البكري، لا نعرف تاريخ تأسيس أغلبها، وهي موزعة على سواحل الشمال الإفريقي. منها 11رباطا في بلاد إفريقية و9 على سواحل المغرب الأقصى. ويظهر من خريطة توزيعها أنها تتركز في المناطق الأقرب لأوروبا والأكثر تعرضا للهجمات المسيحية، كسواحل إفريقية التي لا يبعد عنها بعضها إلا بمرحلة بحرية. وتكاد تنعدم، بالمغرب الأوسط، حيث تكبر المسافة الفاصلة بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط، وتكثر من جديد على سواحل شمال المغرب الأقصى الأكثر قربا من سواحل أوروبا. ونجد إلى جانب الرباطات البحرية رباطات داخلية بعيدة عن السواحل، مثل رباط إيكلي ورباط شاكر، التي ظهر جلها في القرن3 هـ/9م .

تعددت عوامل تأسيس الربط، خلال القرن الثالث وما بعده، منها :

الصراع بين الإسلام والمسيحية على ضفتي البحر الأبيض المتوسط، وهو ما يفسر، جزئيا، ظاهرة تركز أغلب الربط على سواحل البحر الرومي (البحر الأبيض المتوسط)، وتوجد عوامل ثقافية وافدة ومحلية أعطت الربط صبغتها وحددت وظائفها التي استعرضنا بعضا منها، في مقدمتها مبدأ الرباط في الإسلام الذي وردت بشأنه عدة أحاديث وآيات قرآنية كلها تشيد بفضل الجهاد وأجر المرابط[1]. بل أوردت المصادر عدة أحاديث عن فضل وعظم أجر الجهاد، بإفريقية بالذات وبالمغرب عموما، وأن الجهاد إذا انقطع، في جهات أخرى، فإنه لن ينقطع في إفريقية والمغرب، وشددت على فضل الجهاد ببعض المناطق خاصة، كمنطقة رادس بالقرب من مدينة تونس. ونسب لعلماء المشرق أنهم كتبوا، في عهد حسان بن النعمان والي إفريقية (74- 85 هـ)، إلى أهل إفريقية "من رابط عنا يوما برادس حججنا عنه حجة"[2].

أما العوامل الثقافية المحلية فتختلط فيها الممارسات المسيحية السابقة بشمال إفريقيا والمتمثلة في رسوخ تقاليد بناء الصوامع والأديرة للرهبان خارج المدن يتزهدون ويتحنثون بها. وقد أشارت المصادر إلى وجود مثل هذه المعابد، قبل الإسلام، في الأمكنة التي أسست فيها جل الرباطات الهامة، مثل مكان رباط شاكر أو مكان رباط ماسة بالمغرب، أو مثل الجبل القريب من مدينة بونة الذي أصبح، منذ الفتح الإسلامي، مأوى

(1) - "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل" الآية 62 من سورة الأنفال، أو الآية الكريمة199 من سورة آل عمران. «يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون». وعدة أحاديث في باب الجهاد.

(2) - عن هذه الأحاديث، راجع البكري، **كتاب المغرب**.. م س. ص21-38,22 . التجاني، **رحلة التجاني**، الرقيق القيرواني، **تاريخ إفريقيا والمغرب**... م. س. ص.65.

للصالحين وخيار المسلمين الذين زهدوا في الدنيا، وقد اشتهر الجبل بانقطاع العباد الورعين وبكون دعوة أكثرهم مستجابة[1]. وهكذا تحولت كثير من المعابد وخاصة الأديرة إلى رباطات، وليس من قبيل الصدفة أن يطلق على أقدم رباط بالشمال الإفريقي اسم المناستير من الكلمة اللاتية Monasterium أي الدير، أو أن يتخذ الكثيرون من رواد الرباطات أو من المتصوفة، بعد ذلك، بعض الشعارات مما كان يميز الزهاد المسيحيين، كالزنار والطاقية وحلق الرأس، كما هو الشأن عند طائفة أبي محمد صالح، برباط أسفي، في القرن13 م[2] . وليس صدفة أن يعرف ابن زيدان الرباط بقوله :"إما حصن أهل العسة وهو الأظهر، وإما متعبد أهلها كصوامع الرهبان التي تكون دائما خارج مدنهم"[3].

أما تأثير الممارسات الوثنية المحلية السابقة للإسلام فنلاحظها في حمل بعض الرباطات لمرادفها الأمازيغي، مثل كوز، الرباط[4] المشهور على مصب تانسيفت .ومثل إيميطر الذي يعني حرفيا المحرس وهو من مرادفات الرباط ، وفي تسمية المرابطين بالشمال الإفريقي بإكرامن، منذ القرن الثالث، كما يدل عليه إطلاق هذا الاسم على منطقة قرب أشير[5] وعلى بعض الحصون كحصن ابن أكرام قرب متيجة[6] ، وهو مصطلح يعني لغويا الأشخاص المتبرك بهم أكثر مما يعني المجاهدين والمحاربين[7]، ومن هنا جاءت ظاهرة البركة المرتبطة بالرباطات وتقديس مكانها .

ب - الربط المصمودية:

تتميز الربط الموجودة، بمجال المصامدة، جنوب نهر وانسيفن (أم الربيع) إلى جبال جزولة (الأطلس الصغير)، بكون أغلبها ربط داخلية وتقل بها الربط الساحلية، وحتى إذا وجدت، على الساحل، فإنها توجد في أماكن غير معرضة لهجمات المسيحيين، نظرا لبعدها النسبي عن الشواطئ الأوروبية، كرباط تطيط نفطر بدكالة، وكوز على مصب نهر تانسيفت، وماسة بساحل سهل سوس، أو رباط وجاج بن زلو بأكلو على ساحل مدينة

---

(1) - البكري. **كتاب المغرب**...م.س. ص.84 .
(2) - الماجري. **المنهاج الواضح**...م.س. ص181 .. نفسية الذهبي. «التنظيم الصوفي الجماعي وتجربة الشيخ أبي محمد صالح»، ضمن تاريخ إقليم أسفي. منشورات مؤسسة دكالة-عبدة للثقافة والتنمية 2000 ص195-196.
(3) - ابن زيدان عبد الرحمان. **إتحاف أعلام الناس**...م. س. ص.39 .
(4) - التوفيق أحمد. "من رباط شاكر إلى رباط آسفي. مقال منشور ضمن أعمال أبي محمد صالح. المناقب والتاريخ. منشورات كلية الآداب بالرباط ص50 . ابن الزيات. **التشوف** ...م.س .ص.113 .
(5) - البكري. **كتاب المغرب** ... م.س. ص.61.
(6) - اليعقوبي أحمد بن وضاح. **كتاب البلدان**...م. س.ص.352 .
(7) انظر مادة أكرام في **المعلمة** بقلم صدقي علي. وتنعت بعض الطيور المقدسة في الثقافة الأمازيغية بنعت أكرام.

تزنيت الحالية. هذه الخاصية تطرح إشكالية تاريخية تتلخص في التساؤل عن الدوافع لإنشاء هذه الرباطات بهذه المناطق.

الخاصية الثانية، هي أن جذوة ربط المنطقة ظلت متوهجة واستمر إشعاعها الديني والفكري طيلة، العصر الوسيط، في حين خبت جذوة ربط الشمال المغربي، مع مطلع القرن5 هـ/11م، ولم يعد لها إلا إشعاع محدود، كرباط تشمس قرب قصر عبد الكريم[1]، هذا إذا لم تختف تماما، كاختفاء رباط أصيلا ورباط شالة. فما هو السبب في هذه استمرارية الرباطات الجنوبية لمدة أطول؟

قد نجد الجواب في الظرفية التاريخية لبلاد المصامدة، خلال الفترة الممتدة من القرن 3 إلى القرن 5 الهجري. فإذا انعدم العدو الخارجي المسيحي، لبعد المنطقة عن السواحل الأوروبية، فإن هناك عدوا داخليا متمثلا في انتشار بعض المذاهب المنحرفة عن المذهب السني بالمنطقة[2]، وأشهرها المذهب البرغواطي الشديد الخصوصية شمال المنطقة ، وكالمذهب البجلي المنتشر بمدينة تيوت ومدينة تارودانت، وبجبل درن (الأطلس الكبير)[3]. وقد ورد، في بعض المصادر، حديث يدين الانحراف المذهبي لأهل جبل درن : "إن بالمغرب جبلا يقال له درن يزف يوم القيامة بأهله إلى النار كما تزف العروس إلى بعلها"[4]، أو حديث "درن ومن حوله في النار"[5]. ولا ننس كذلك أن القبائل الصنهاجية، جنوب الأطلس الصغير، لم تعتنق الإسلام إلا في مطلع القرن3 هـ/9م، حسب رواية ابن خلدون[6]. ولم يترسخ فيها الإسلام حتى القرن5 هـ/11م، لأن التقاليد الأمازيغية كانت ما تزال راسخة تؤطر عدة جوانب هامة من حياتهم الاجتماعية، مثل سيادة أعراف الأسرة ذات النسب الأمُومِي في مجال الأحوال الشخصية، ومثل استمرار أسماء الأشخاص الأمازيغية التي لم يستبدل أغلبها بالأسماء العربية الإسلامية إلا في بداية القرن السادس[7] ، زيادة على الاحتفاظ بالنظام السياسي لدولة إمغارن. وبعبارة أخرى،

---

(1) - مجهول، **الاستبصار**... م س.ص.140.

(2) - راجع البكري، **كتاب المغرب**...م س .ص134-141.. وراجع.

Talbi, Mohamed, "Hérésie, acculturation et nationalisme des Berbères Bargawata", in actes du premier congrés d'études des cultures Méditerranéennes d'influence Arabe-Berbère.Mata, 1972, Alger 1.

(3) - وداد قاضي، **الشيعة البجلية**... م.س ج 1 ص 190. ما بعدها.

(4) - البكري، **كتاب المغرب** ... م.س .ص.160.

(5) - ابن عبد الحليم، **كتاب الأنساب**...م.س، ص.17- 18 .

(6) - ابن خلدون، **كتاب العبر**...م.س.، ج 6.ص.182 .

(7) - انظر أمثلة عن تغيير الأسماء البيدق، **أخبار المهدي**...ص14 ، المراكشي، **المعجب**...ص.478 .

كانت عملية المثاقفة الدينية بطيئة، بهذه الربوع، قبل القرن الخامس، بالمقارنة مع بلاد إفريقية والأندلس. وهو ما جعل جذوة الربط تتوقد هنا فترة أطول، وما يفسر حماس رجال أمثال وجاج بن زلو اللمطي ليبني "دارا سماها دار المرابطين لطلبة العلم وقراء القرآن"[1]، أو تلميذه عبد الله بن ياسين الذي أسس قبل انطلاق دعوته الإصلاحية رباطا وسمى أتباعه بالمرابطين لملازمتهم واعتكافهم بهذا الرباط، أو كما سيفعل ابن تومرت حين سيبنى رابطة للعبادة بهرغة قبل إعلان دعوته[2].

انتشرت الربط بين المصامدة انتشارا كبيرا، حتى أصبح لكل قبيلة رباطها الكبير يعقد فيه موسم سنوي وربط ثانوية كما لدى قبيلة هسكورة مثلا[3] . وأهم الرباطات، خلال القرن5 هـ/11م، رباط إمي ن تمدا عند هسكورة الذي قيل أنه يعود إلى غزوة عقبة للمغرب، سنة62 هـ، وهو أمر مستبعد تاريخيا[4]، ومنها مجموعة من الرباطات بقبيلة ركراكة منها رباطات الرجال السبعة كرباط شاكر[5]، ورباط كوز على مصب نهر تانسيفت (الكلمة تعني الرباط)[6]، وايمظير التي لها نفس المدلول، وكلها بالمجال الجغرافي لبلاد ركراكة[7] ، ثم رباط إيجلي الذي نسب بدوره إلى بداية الفتوحات الإسلامية[8].

*رباط ماسة :

هو أشهر الرباطات جنوب جبل درن، خلال العصر الوسيط. استمر تألقه وإشعاعه، من القرن الثالث إلى ما بعد القرن التاسع الهجري، ووردت أقدم إشارة له عند اليعقوبي (ت 278هـ)، تقول: "وماسة قرية على البحر تحمل إليها التجارات، وفيها المسجد المعروف بمسجد بهلول، وفيه الرباط على ساحل البحر"[9]. ويظهر من هذا الكلام أن هناك مؤسستين دينيتين لهما شهرة خاصة، في القرن3 هـ/9م، مسجد بهلول داخل المدينة

---

(1) - ابن الزيات التادلي، **التشوف**... م. س. ص.89.
(2) - بن خلدون، **كتاب العبر**..م س.ج 6 ص. 227 .
(3) - منها رباط حكم، ابن الزيات. **التشوف**..م س ص152 ، ابن عذاري، **البيان المغرب**..م س ق. الموحدين ص.137 .
(4) - ابن عبد الحليم، كتاب الأنساب..م. س. ص.57 .
(5) - الكانوني، **أسفي وما إليه**..م. س. ص23. العباس بن إبراهيم، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات** ...ج 9.ص. 309 -317.
(6) - Notes sur Kouz, in Hespéris Tamuda,1962, V.Rosenberger.
(7) - عن إيمظير، انظر ابن الزيات، **التشوف**...م س، ص113.. وعن كوز التوفيق أحمد. "من رباط شاكر إلى رباط أسفي"..م س ص. 47 - 53 .
(8) - السوسي المختار، من **خلال جزولة**... ج 3 ص163 ، البيدق. **أخبار**... ص94 ، **المقتبس** ص29 ، البكري. **كتاب المغرب**..م س ص161 -162.
(9) - اليعقوبي. **تقويم البلدان**..م. س. ص. 359.

والرباط خارجها على الساحل. وكان للمدينة دور اقتصادي، ليس فقط كميناء للمنطقة الجنوبية، بل كميناء كبير، إذ ذكر أنه يصل إليه نوع خاص من السفن مثل الموجودة بالآبلة في العراق .كان إشعاع الرباط قويا، في القرن4 هـ/10م، ولم يفت ابن حوقل أن يذكره، سنة 340 هـ [1]. وخلال القرن الخامس، تزايدت أهميته الدينية والاقتصادية، إذ وصفه البكري بعبارة موجزة بليغة تلخص أهم وظائفه الدينية والاقتصادية بأنه :"رباط **مقصود** وله **موسم عظيم** ومجمع جليل، وهو **مأوى الصالحين**"[2]. والغريب أن التادلي لم يشر إليه، رغم استمرار تألقه، في القرن السادس، في حين أن معاصريه أشاروا إليه كصاحب الاستبصار الذي كرر كلام البكري عنه[3]، وقال عنه معاصره الزهري في نفس القرن : "وعليه **الرابطة العظيمة الشأن المعروفة** برابطة ماسة، نسبة إلى تماست التي استفتحها المسلمون وهدموها"[4]. ويكفي للبرهنة على مكانة هذا الرباط الدينية وقيمته الرمزية، في منتصف القرن6 هـ/ 12م، ذكر أن أخطر الثورات العارمة التي واجهها الموحدون، سنة 541 هـ/1147م، كان يتزعمها ابن هود الماسي السلاوي قد اتخذت مدينة ماسة قاعدة لها، وليس ذلك، من قبيل الصدف المحضة، وإنما اختارها لقداسة رباطها وشهرته، ولاعتقاد العامة بأن المهدي المنتظر(ليس بالمعنى الشيعي المذهبي الضيق ولكن بمعنى المنقذ من الظلم الاجتماعي الذي سيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا) سيظهر بها. وقد أشار ابن خلدون إلى استمرار هذا المعتقد إلى عهده، في القرن8 هـ/ 14م، وكذلك الحسن الوزان، في بداية القرن10 هـ/ 16م. وحاول أيضا كثير من الثوار غير الهادي الماسي هذا استغلال هذا المعتقد الشعبي ليثوروا بماسة ذكر ابن خلدون بعضا منهم[5].

لا يعرف بالتحديد متى ظهر هذا الرباط، ولا لماذا ظهر بهذه الجهة، لكن المصادر تحاول أن توهمنا أن مكانه كان مقدسا، قبل الإسلام وكان به معبد قديم، وازدادت قداسة المكان منذ اللحظة الأولى للفتح الإسلامي، كما يفهم من رواية ابن عذاري، حين ذكر أن

---

(1) – ابن حوقل. **صورة الأرض**. منشورات دار. مكتبة الحياة 1979 ص.68.

(2) – البكري، **كتاب المغرب**...م. س. ص.161.

(3) – مجهول. **الاستبصار**...م.س، ص.212 .

(4) – الزهري، **كتاب الجغرافيا**... م. س. ص117. الحميري، **الروض المعطار**... م.س. ص.522.

(5) – بن خلدون. **المقدمة**...م.س. ص583 . الوزان. **وصف إفريقيا**...م.س ج 1.ص. 90 .

عقبة عندما وصلها سلم على "أولياء الله" وهم قوم النبي يونس. ومما زاد من درجة قدسيته أن عقبة الذي تحيطه المصادر المتأخرة بهالة من القدسية وتعده أقدم مرابط ومجاهد لإعلاء كلمة الله بشمال إفريقيا، ومؤسس القيروان أول رباط بها، دخل البحر عند مكان الرباط بفرسه كرمز لمرابط مجاهد متحمس باع نفسه من الله، وأدى مهمته أحسن أداء، مثل مرابط آخر أقدم منه وهو ذو القرنين المسلم- حسب هذه الرواية -والذي جاهد بدوره في سبيل نصرة نفس القضية(1) .

لا يعود ازدهار هذا الرباط فقط، إلى القدسية الدينية التي كانت له قبل الإسلام، وإنما كذلك لتضافر عوامل طبيعية واقتصادية وتاريخية، أهمها: موقعه على الطريق الغربي للقوافل التجارية الرابطة بين المغرب والسودان، وتوفره على أكبر وأهم ميناء بحري جنوب جبال درن تتوقف فيه القوافل التجارية الصحراوية، بالإضافة إلى كونه منفذا للمنتوجات الفلاحية المتعددة والمشهورة لسهل سوس، كالسكر وغيره. وكان للظروف التاريخية لمنطقة سوس، خلال القرون الخمسة الهجرية الأولى، دور في إبراز الخصائص الجغرافية لمدينة ماسة وموقعها، منها التاريخ الديني المشار إليه أعلاه، والمتمثل في انتشار مذاهب منحرفة بالمنطقة.

*رباط شاكر :

أشار ابن عبد الحليم، في القرن8 هـ/ 14م، إلى الروايات المتداولة في عصره حول تأسيس هذا الرباط، منها :

رواية تدعي أن مكانه كان مكان عبادة قديمة، قبل الإسلام، فتحول إلى رباط بعد ذلك.

الرواية الثانية، أن واسمين الرجراجي أحد الرجال السبعة بقبيلة رݣراݣة التقى الرسول(ص) بالحجاز وآمن به وحمل منه رسالة إلى المصامدة ودعاهم للإسلام في هذا المكان.

الرواية الثالثة، أن الكتاب الذي يدعو فيه الرسول (ص) للإسلام، وصل أول ما وصل إلى بلاد رݣراݣة، فاجتمع عليه أهل المغرب في الموضع الذي بني به رباط شاكر، على وادي تانسيفت. وعند الفراغ، من قراءته، دفنوا الكتاب، في ذلك المكان، تجنبا لكل نزاع

---

(1) - ابن عذاري، **البيان المغرب**...م. س. ج 1 ص26 ، الوزان، **وصف إفريقيا**... م. س. ص90 .. ابن خلدون، **كتاب العبر**...م.س، ج 6 ص274 .

محتمل بين قبائل المغرب حوله، إذا حملته إحداها إلى بلدها، وأصبح مكان دفن الكتاب مقدسا منذ ذلك الحين[1] .

الرواية الرابعة، أنه بني على يد شاكر صاحب عقبة بن نافع الذي تركه بعد غزوته لبلاد المصامدة ليعلمهم دينهم، فأصبح مكان نزوله منذ ذلك الوقت موضعا لتعليم الدين، ومجمعا لأهل العلم والصلاح. إذا كانت هذه الروايات الأربع متأخرة ويصعب تصديق مضمون بعضها دون تمحيص ونقد تاريخي، فإن الشيء المؤكد هو أن رباط شاكر أصبح، أوائل القرن13 م، من المواسم الجليلة ومن أعظم المزارات بالمنطقة التي اعتاد صلحاء المغرب زيارتها، أثناء الموسم الذي ينعقد به في 27 رمضان من كل سنة، فكان بذلك أقدم المزارات الإسلامية التي شدت إليها الرحال بالمغرب. ولهذا السبب نعتها عبد الحي الكتاني بأطهر وأقدس بقعة في المغرب في إحدى مقالاته[2]. ونجد بالفعل، أن عددا من الصوفية الكبار كانوا يحرصون كل الحرص على زيارته، خلال الموسم السنوي الذي يقام فيه، مثل أبي محمد بن ينصارن صاحب رباط أسفي[3] وغيره. بل وكانت الوفود والجماعات، رجالا ونساء، تقصده من جهات مختلفة، كمراكش وبقية بلاد المصامدة. وكانوا وهم في طريقهم إليه، يرفعون أصواتهم بالدعاء وينشدون الأمداح[4] ، مما يدل على قدم ورسوخ تقاليد زيارته، وعلى قدم تاريخ هذا الرباط.

وقد تفرع عن هذا الرباط رباط وجاج بن زلو جنوب مدينة ماسة، إذ كان وجاج من تلامذة أبي محمد بن تيسييت بأغمات قبل قيام المرابطين، وكان من بين طلبة هذا الشيخ الذين جاهدوا برغواطة[5]. وتفرع عن رباط وجاج رباط عبد الله بن ياسين الزعيم الروحي لدولة المرابطين، ويمكن استخلاص بعض المميزات التربوية والتعليمية للرباطات من خلال المنهج التربوي والتعليمي الذي تبناه عبد الله بن ياسين .

ج - المنهج التربوي والتعليمي للرباطات : نموذج رباط عبد الله بن ياسين:

من المعلوم أن هذه الرباطات عملت على نشر الإسلام بطريقتين: طريقة الجهاد المسلح ضد عدو الإسلام، وطريقة التربية الروحية للأتباع، أي جهاد النفس وتطهيرها.

---

(1) - ابن عبد الحليم، **كتاب الأنساب** ...ص 71. ومقال لنا، " ركراكة رائدة الرباطات بالمغرب الوسيط، تاريخ إقليم أسفي من الحقبة إلى الفترة المعاصرة. منشورات مؤسسة دكالة-عبدة للثقافة والتنمية. دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 2000 ص.209-220.

(2) - عبد الحي الكتاني. "أشرف بقعة وأقدسها بناحية مراكش"، مجلة المغرب، يونيه يوليو 1936 م.

(3) - ابن الزيات، **التشوف**...م.س، ص.52.

(4) - نفسه، ص 316. 385. 394.

(5) - انظر تعليق الأستاذ أحمد التوفيق في هامش 24 من 89 من المصدر اعلاه وكذا المصادر التي اعتمدها.

كان من بين المبادئ والأدوار الأساسية للرباطات، منذ ظهورها، مبدأ الجهاد المسلح للدفاع عن دار الإسلام، شأن الرباطات المبنية على سواحل شمال إفريقيا، ومحاربة أصحاب المذاهب المنحرفة عن المذهب السني، مثل الرباطات المحيطة ببرغواطة شمالا وجنوبا، كرباط شاكر على نهر تانسيفت الذي كان يحتفظ فيه، إلى سنة 627هـ/1132م، بطبل بانيه يعلى بن يمصلين الرجراجي والذي حارب برغواطة ، أو رباطات شالة شمال برغواطة[1]، وأما المحاربون لها فسموا ركراكة، ومنها اسم نهر بوركراگ المشتق من البركة[2]. المهم أن عددا من ربط المصامدة تبنت هذا المبدأ، منها رباط عبد الله بن ياسين، لذا أولت حركتهم عناية كبرى للجهاد، سواء الداخلي أو الخارجي.

كان لها، إلى جانب ذلك، دور تعليمي تربوي، إذ شكلت الرباطات مركزا لنشر الإسلام والتعليم الديني، يجتمع فيها العاملون على ترسيخ مبادئ الإسلام سواء بتعليم العلوم النظرية كالفقه، أو التربية الصوفية عن طريق القدوة الحسنة التي يعطيها الشيخ، أو بواسطة وعظ المريدين والعامة. ومعلوم أن الطريقة البيداغوجية في الرباط، مخالفة لطريقة تدريس العلوم في المساجد والمدارس التي ظهرت، بعد القرن12م، لأنها بيداغوجية تطبيقية عملية، تستهدف تغير السلوك والأخلاق أكثر من الاعتماد على نشر المعرفة النظرية فقط. ولكي نتعرف أكثر على الخصائص التربوية والتعليمية للرباطات نأخذ مثال رباط عبد الله بن ياسين المنظم على طريقة رباط أستاذه وجاج بن زلو على ساحل البحر بالقرب من مدينة تزنيت الحالية والذي بناه لطلبة العلم ولكن كذلك "**للدعاء إلى الخير**". فقد اتخذ ابن ياسين رباطا في جزيرة غير آهلة ببلاد گدالة وتتفرغ فيه للعبادة مع يحيى بن عمر وسبعة رجال من گدالة[3]، بعد ثورة القبائل الصنهاجية عليه، بسبب ثقل شرائع الإسلام عليهم. وقد حذا في تنظيم حياة نزلائه -وأغلبهم من الراشدين-حذو ربط المغرب وإفريقية في هذا المجال، فوضع شروطا للانخراط في الرباط، تطبق على كل من انخرط فيه طوعا أو كرها، كما وضع قوانين وقواعد يخضع لها جميع النزلاء لضمان التسيير الجيد للرباط قصد تربية المريدين وتغيير سلوكهم .

---

(1) - ابن الزيات، **التشوف**...م.س، ص.52 .
(2) - التوفيق، "من رباط شاكر إلى رباط أبي محمد صالح..."م.س. ص.50.
(3) - اختلفت القدماء والمحدثون حول مكان هذا الرباط، انظر حول هذه الأماكن المقترحة عصمت دندش، «حول رباط عبد الله بن ياسين»، مجلة المناهل عدد 11 السنة الخامسة مارس1978 م ص.354 - 365.

فمن شروط الانخراط، إعلان التوبة. والتوبة، كما هو معلوم، من المفاهيم الأساسية لدى الصوفية وهي أول مراتب التصوف ومقاماته، ولا يكفي الإعلان الشفوي عنها بل على المنخرط أن يطهر نفسه وذاته من الذنوب التي اقترفها في الماضي، بأن تقام عليه حدودها، فيجلد 100 سوط على الزنا، وما يجب على شرب الخمر، وعلى الافتراء وغير ذلك من الحدود الشرعية. وعليه كذلك أن يطهر ماله المختلط من المال الحرام بإخراج ثلثه ليحل له الباقي. وهذه كذلك قاعدة متعارف عليها لدى بعض الصوفية المغاربة طيلة العصر الوسيط[1] ، وقد انتقد الفقهاء عبد الله بن ياسين في هذه المسألة لأن حكمه فيها مخالف للمذهب المالكي واتهموه بالجهل[2].

ومن الشروط أيضا فرض أداء صلاتين إذا دخل وقت كل صلاة من الصلوات الخمس والهدف من ذلك أن يتمكن المنخرطون من أداء الصلوات التي تكون قد فاتتهم قبل توبتهم.

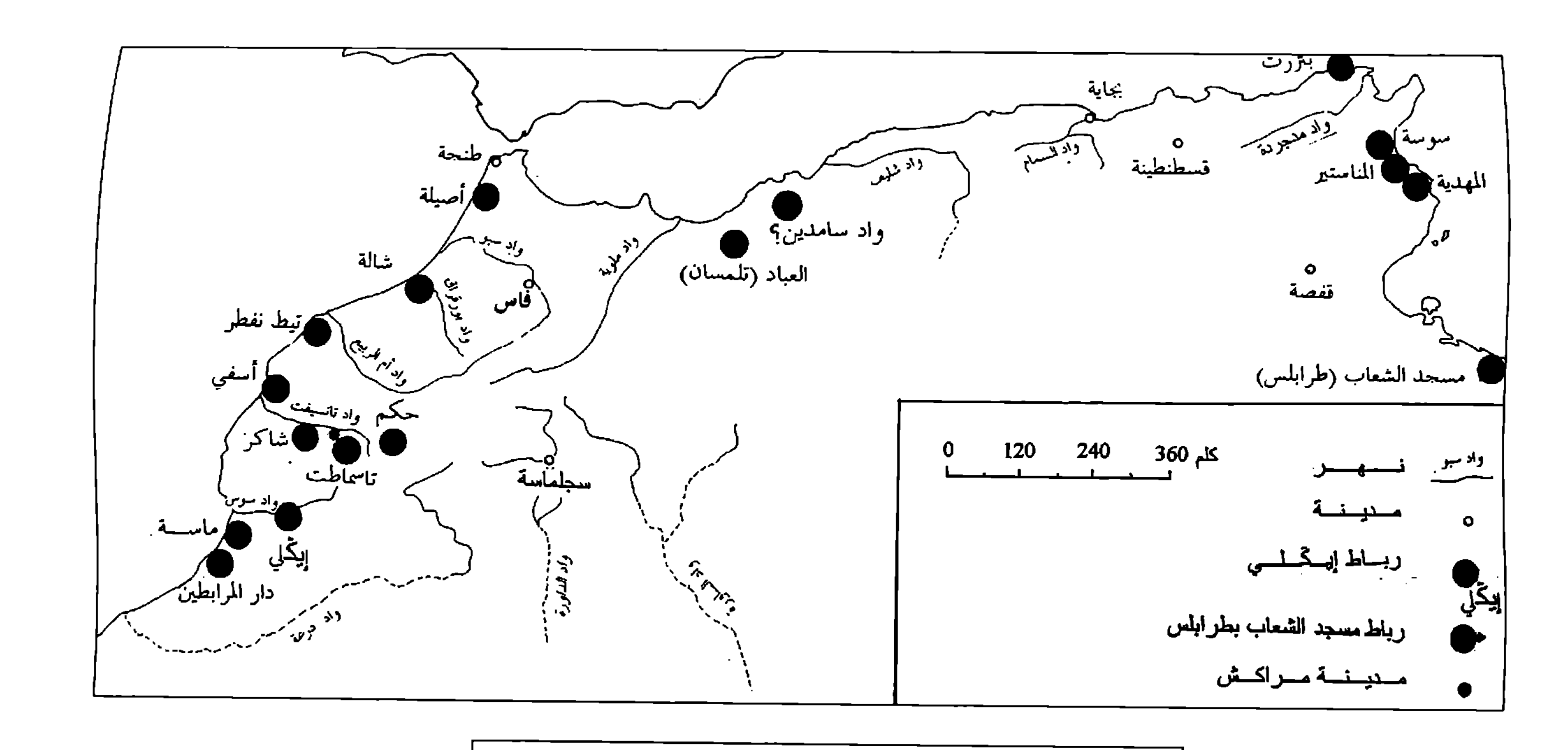
ويتضمن القانون الداخلي للرباط فرض عقوبات مختلفة، أغلبها عقوبات جسدية عن المخالفات التي يرتكبها النزلاء. منها ما يتعلق بالتأخر عن أداء الصلاة في وقتها مع الجماعة، وتتمثل العقوبة في 5 سياط عن كل ركعة مما يعني 20 سوطا لمن تأخر عن صلاة بكاملها، مما جعل الكثير منهم يصلي بغير وضوء إذا حان الوقت وأعجلهم الأمر خوفا من الضرب، وعدد معين من السياط لمن رفع صوته في مسجد الرباط، وغير ذلك من المخالفات. أما من ارتكب جريمة القتل فعقوبته القتل، وذلك لخلق الانضباط داخل الرباط.

ويشترط، على النزلاء، التزام الزهد والتقشف والورع قدوة بشيخهم عبد الله بن ياسين الذي كان يتجنب أكل طعام قبائل صنهاجة "فكان طول إقامته فيهم لا يأكل شيئا من لحمانهم ولا يشرب من ألبانهم، فإن أموالهم كانت غير **طيبة** لشدة جهلهم"، واكتفى بالصيد[3].

أما التعليم، فهو مقتصر في أغلبه على تعليم الأساسي من أركان الإسلام، كالصلاة والزكاة ومعرفة الحلال والحرام، وحفظ ما تصح به الصلاة كالوضوء والفاتحة وبعض

---

(1) - عن حكم الأموال المختلطة لدى المتصوفة، انظر، التادلي، التشوف..م. س. ص229 .، الماجري، **المنهاج الواضح**... ص258.
(2) - البكري، **كتاب المغرب**..م س. ص168 -169. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**..م س. ص125. ابن عذاري. **البيان المغرب** ... ص ج 4ص16.
(3) - الناصري، **الاستقصا**..م س.ج 2 ص18 . ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**...م س. ص 132 ، لاحظ مصطلح الدراهم الطيبة لدى المتصوفة في عدد من المصادر ومنها **التشوف** مثلا.



خريطة رقم 1: - أهم الرباطات ببلاد المغرب
من القرن 3هـ / 9م إلى القرن 5هـ/ 11م،

الآيات القرآنية، والاستماع إلى التذكير والوعظ باللغة الأمازيغية، لأنه نعلم أن "يوسف بن تاشفين لا يعرف اللسان العربي"[1] رغم أنه كان من المريدين الأوائل الملازمين لهذا الرباط.

ويمكن أن يستخلص من هذه النظم ومن نوعية التعليم أنه كان تعليما صوفيا، كما هو معروف، في القرن5 هـ/11م وما بعده. فعبد الله بن ياسين يعد شيخ تربية أكثر منه فقيها مالكيا، وليس من قبيل الصدفة أن يتهمه الفقهاء المالكيون بالذات بجهل أحكام الفقه في عدة أمور، منها تطييب المال المختلط بالكسب الحرام عن طريق إخراج ثلثه السابق الذكر[2]. والدليل الآخر على تصوفه وولايته هو طاعة أتباعه المطلقة والعمياء، لا فرق في ذلك بين أمير وغيره. فقد أدب الأمير يحي بن عمر، يوما، بجلده عشرين سوطا لأنه باشر الحرب بنفسه، وبلغت طاعتهم له إلى درجة أنه لو أمرهم بقتل آبائهم لفعلوا. وهذه الطاعة المطلقة للشيخ من العادات الراسخة لدى المتصوفة. والدليل الثالث على صلاح وولاية عبد الله بن ياسين أنه كانت له مجاهداته مثل كثرة الصوم؛ لكن أذكاره وأوراده وأدعيته لم تصلنا. وكانت له كرامات شبيهة بكرامات أغلب الأولياء قبله وبعده، ذكرت منها اثنتان. الأولى، استخراج الماء لشرب أصحابه بدعائه، وإسكات نقيق الضفادع ببحيرات المناطق التي يمر بها[3]. وقد أطلق اسم المرابطين على أتباعه للزومهم الرباط الذي بناه[4].

يصف المؤرخون المتعلمين بالجنوب حيث تسود تربية الرباطات، بالفضائل والكرامات، أكثر من وصفهم بالعلم وكثرة الاطلاع، مثل علماء الشمال المغربي الذين تعلموا في مساجد مدن الشمال، كفاس وغيرها[5]. وقد أدى إختلاف طرق التعليم بين المنطقتين إلى اختلاف بين التيارات الصوفية في شمال المغرب وجنوبه، فقد لاحظ أحد الباحثين انقسام تيار التصوف المغربي، خلال القرن 13 م، إلى اتجاهين: اتجاه شمالي غربي مسالم شاذلي النزعة، وجنوبي منظم في إطار طوائف مناوئ للسلطة القائمة[6].

هكذا دشنت الرباطات، ببلاد المصامدة، دينامية دينية وسياسية استطاعت أن تحارب

---

(1) - ابن خلكان، **وفيات الأعيات**...ج 6ص111، ومنشور كذلك مع **البيان المغرب**... ج 4ص 113 لابن عذاري.

(2) - البكري، **كتاب المغرب**...م س ص169 ، ابن عذاري، **البيان المغرب**...م س ج 1. ص16 ، ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**...م س ص132.

(3) - البكري، **كتاب المغرب**... م س ص 168-169 .

(4) - الناصري، **الاستقصا**... م س، ج 2. ص 8 .

(5) - أهم خلاصة انتهى إليها البزاوي، هي تمييز مدرسة الجنوب عن مدرسة الشمال. دور **الدعوة في نشأة الدولة المغربية**...م س 1987. ص316.

(6) - Kably Mohamed. **Société**...op cité , p. 310-312.

المنحرفين : كبرغواطة. وأثمرت بعد ذلك قيام الدولة المرابطية المعتمدة على أهم وأول مبادئ الرباط وهو جهاد عدو الإسلام، والدعوة إلى السنة أو إلى ما يسمى في المعجم اللغوي للرباطات بالحق والقيام به أو الدعاء إلى الخير[1]. ونلاحظ هذه الدينامية في سلسلة شيوخ هذه الرباطات، أولهم عبد الله بن تيسييت متزعم الحرب ضد برغواطة الذي كان شيخا لوجاج بن زلو، وكان هذا الأخير شيخا لابن ياسين. وقد انتقد ابن خلدون ما كانت تدعيه قبيلة ݣدالة، في عصره، من أنهم ينحدرون من رباط ماسة أو قائمون بدعوته، وأكد أن ذلك زعم لا مستند له[2]، لكن الأحداث ومصادر أخرى تؤكد ذلك[3]. وتأثرت الأندلس بدورها، نسبيا، بهذه الدينامية التي خلقتها الرباطات، وظهر ذلك في حركة ابن قسي شيخ الصوفية وصاحب كتاب خلع النعلين في غرب الأندلس التي اعتمدت نفس المبادئ، بل وسمى كذلك أتباعه "بالمرابطين" حسب ابن خلدون[4]، أو بالمريدين، حسب مصادر أخرى، مثل ابن صاحب الصلاة [5]. فهل للرباطات الجنوبية تأثير ما على الدعوة الإصلاحية لابن تومرت أم لا؟ خصوصا إذا علمنا أن مهد حركة ابن تومرت هو هرغة المشهورة برباطها بإيݣلي، والقريبة جدا من رباط ماسة، ومن رباط وجاج؟

---

(1) - انظر مدلول هذا المفهوم عند ابن تومرت، ضريف محمد ، **تاريخ الفكر السياسي بالمغرب**.... م. س.ص.150.

(2) - ابن خلدون، المقدمة... م.س.ص583 .. وعن عبد الله بن تيسييت، الشوف..م.س ص.52 .

(3) - مجهول، **كتاب مفاخر البربر**، نشره محمد يعلى ضمن ثلاثة نصوص عربية عن البربر في الغرب الإسلامي. المجلس الأعلى للأبحاث العلمية الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، مدريد 1996 ص.213.

(4) - ابن خلدون، **المقدمة**... م. س. ص.280 .

(5) - عن هذه الحركة ومراجعها، راجع بوتشيش إبراهيم، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين**..ص.163 - 172 .

الفصل الثاني

من صلاح الرباطات المصمودية إلى صلاح الدولة الموحدية

لم يعرف الغرب الإسلامي، خلال العصر الوسيط، دولة طبعت سياستها بشكل كبير بالطابع الديني، مثل الدولة الموحدية، إذ تفردت عن دولة المرابطين وغيرها لها بالقيام بما تقوم به مؤسسة الرباط من تعليم سكان إمبراطوريتها وتربيتهم مستعملة اللغة الأمازيغية التي يتواصل بها أغلبيتهم بجانب اللغة العربية، وحملهم على أداء الفروض الدينية، كالصلاة في أوقاتها والعمل على ترسيخ قواعد الإسلام .كما كانت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ليس بواسطة المحتسب فقط، كما كان سائدا لدى الدول السابقة، بل بواسطة الجهاز المخزني وعلى رأسه الخليفة، بالإضافة إلى سياستها الجهادية الداخلية ضد من اعتبرتهم كفارا، والخارجية ضد المسيحيين بإفريقية والأندلس. ويقارن ابن جبير الطابع الديني للدولة الموحدية بدول المشرق الإسلامي: «وليتحقق المتحقق، ويعتقد الصحيح الاعتقاد، أنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب، لأنهم على جادة واضحة لا بنيات فيها، وما سوى ذلك بهذه الجهات المشرقية فأهواء وبدع، وفرقة ضالة وشيع، كما أنه لا عدل ولاحق ولا دين، على وجهه، إلا عند الموحدين أعزهم الله، فهم أئمة العدل في هذا الزمان وكل من سواهم من الملوك في هذا الأوان فعلى غير الطريقة، يعشرون تجار المسلمين كأنهم أهل ذمة لديهم ويستحلون أموالهم بكل حيلة وسبب، ويركبون طرائق من المظالم لم يسمع بمثلها»[1]. وعرف عبد المومن بالصرامة في الالتزام بالشعائر الدينية وبالورع والزهد، وبالتشدد تجاه اليهود والنصارى[2]. فكيف يمكن تفسير هذا التفرد الموحدي؟

يلزم لفهم هذه السياسة الدينية وخلفياتها المذهبية، واكتشاف مدى تأثيرها على المجتمع المغربي، خلال العهد الموحدي، العودة إلى أصول المذهب التومرتي وجذوره المحتملة في البيئة المغربية. العناصر الفكرية الأساسية التي يتكون منها هذا المذهب،

---

(1) - ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، تحقيق حسين نصار، ط دار مصر للطباعة،1992 ص87.

(2) - النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**...م. س. ص427..403 . لوتورنو روجي، **حركة الموحدين في المغرب**...م.س. ص59-60. محمد عبد الله عنان، **عصر المرابطين والموحدين**، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1964 القسم الأول 1ص.404 .

مدروسة ومعروفة بما فيه الكفاية، وذلك بفضل تراكم الأبحاث والدراسات التاريخية حوله، منذ بداية القرن العشرين إلى الآن، والتي دشنتها دارسة كولدتسيهر القيمة في مقدمته لكتاب المهدي بن تومرت "أعز ما يطلب" المنشور بالجزائر سنة1903 م[1]. وقارنت أغلب تلك الدراسات المذهب التومرتي بالمذاهب الإسلامية الأخرى، سواء المذاهب الكلامية منها أو الفقهية وحتى مع مذاهب كبار بعض المتصوفة، كتصوف الإمام الغزالي، وأصبحنا نعرف أوجه الاختلاف والتشابه بينه وبين تلك المذاهب وفي أدق تفاصيلها أحيانا[2]. إلا أن أغلب تلك الدراسات قام بها مؤرخو الأفكار، كالفلاسفة وغيرهم، فدرسوا المذهب التومرتي كأفكار مجردة عن سياقها التاريخي والاجتماعي ومفصولة عن بيئتها الثقافية المغربية التي أفرزتها وتفاعلت معها، إذ قارنت عناصره بأفكار أخرى مشابهة أفرزتها بيئات مشرقية أو أندلسية، وخلال فترات متباينة، أفكار ظهرت بالمشرق ما بين القرن الثاني ونهاية القرن5 هـ/11م، وتقدم عناصر المذهب التومرتي كأنها مجرد ترديد وصدى لتلك لأفكار والمذاهب. ولم يحاول أغلب الدراسين أن يضعوا عناصر المذهب المذكور في سياقها التاريخي المحلي أو الإقليمي، أو أن يربطوها بالواقع الفكري والاجتماعي المغربي السابق لذلك المذهب أو اللاحق له، كما أنهم يربطوا بين مذهب ابن تومرت وبين تاريخه الشخصي والعائلي وسلوكه وتصرفاته، قبل وبعد قيام حركته الإصلاحية. ولهذا تركت هذه الدراسات اللاتاريخية الغارقة، في التجريدية، بعض جوانب المذهب التومرتي غير مفهومة فهما سليما وعلميا، مثل لماذا توسل ابن تومرت بالأمازيغية لنشر مذهبه، وهي مسألة فريدة في تاريخ المذاهب بالغرب الإسلامي، خلال العصر الوسيط، أو لماذا يعلم العوام علم الكلام الشيء الذي كان أغلب المتعلمين يرفضونه ويتحاشونه، بل ويفتون بعدم جواز ذلك[3]. لماذا يبدو هذا المذهب كخليط غير متجانس من الأفكار اقتبست من مذاهب عديدة ومتباعدة، بل تبدو أحيانا متعارضة، وبشكل تلفيقي وتعسفي؟ إذا افترضنا أن ابن تومرت اقتبس من الشيعة مفهومي الإمامة والعصمة مثلا، فإن فهمه لهما مخالف للمدلول الذي تعطيه فرق الشيعة لهما[4]. وإذا سلمنا بأنه استلهم بعض أفكار الأشاعرة، في التوحيد، فإن ما يختلف معهم فيه من الأفكار أكثر مما

---

(1) - ابن تومرت، **أعز ما يطلب** ... نشر لوسياني، الجزائر سنة 1903 .

(2) - من أحسن ما كتب في الموضوع، لحد الآن، ما كتبه النجار عبد المجيد، **المهدي ابن تومرت**، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان1983 ص356-363، وانظر أيضا عبد الواحد العسري، «مدخل لدراسة كتاب أعز ما يطلب»، مجلة تطوان سنة 1 عدد 1نوفبر1986 ، مادة ابن تومرت في معلمة المغرب تحت إشراف محمد حجي ص.2639 .

(3) - رضوان مبارك، «حول القضايا المذهبية والعقيدية في العصر المرابطي من خلال فتاوي ابن رشد»، ضمن التاريخ وأدب النوازل، دراسات مهداة للفقيد محمد. منشورات كلية الآداب الرباط 1995 ص. 71.

(4) - ضريف محمد. **تاريخ الفكر السياسي بالمغرب**...م.س ص.151 -155.

يتفق معهم فيها[1]. وإذا كان يلتقي مع الغزالي في بعض القضايا، كمسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأهمية التي ينبغي إيلاؤها له باعتباره قطبا للدين وفرض كفاية، فإنه يختلف معه في من له حق القيام بهذا الفرض، هل أولو الأمر أم كل من يأنس في نفسه من المسلمين القدرة على ذلك[2] ؟ ويمكن أن يقال نفس الشيء على نقاط الالتقاء والتباين بين المذهب التومرتي وكل من المذهب الفقهي الظاهري والمالكي والشافعي[3] ، وبينه وبين كل من المذهب السني والشيعي والخارجي[4]، لأن هناك من يرى أنه تأثر بالمذهب الخارجي . هذا الشتات الغريب من الأفكار والاقتباسات هل هو مجرد تركيب ميكانيكي لعناصر انتقاها ابن تومرت من هنا وهناك وكيف ما اتفق؟ وبالتالي يكون المذهب انتقائيا وهجينا، أم أن هناك خيطا رابطا بين تلك العناصر يمكننا أن نلمس فيه الطابع الشخصي لصاحبه وبصمات محيطه الثقافي والاجتماعي؟ ومتى تكون هذا المذهب واكتمل؟ هل سار تكوينه في خط تصاعدي أم تكون دفعة واحدة؟ ما دور أساتذته المشارقة في ذلك، على افتراض أنه كان لهم دور؟ لماذا انتشر التصوف بالضبط بشكل كبير في المجتمع المغربي في عصر الموحدين، إذ ظهر أقطاب التصوف المغربي الكبار في ذلك العهد بالذات[5].

هذه النقط وغيرها تحتاج إلى المزيد من البحث والتقصي، وتتطلب دراستها عدم الإكتفاء بدراسة واستعراض الأفكار المجردة التي يتضمنها كتاب "أعز ما يطلب" وحدها رغم أهميتها وضرورتها، والتي لن نعود لها هنا إذ كفانا الباحثون قبلنا مؤونتها، وخاصة الكتاب الأخير للنجار عن المهدي بن تومرت، بل تقرأ على ضوء المعطيات التاريخية والمتعلقة بالتاريخ الشخصي والعائلي لابن تومرت، وعلى ضوء السياق التاريخي الديني والثقافي للغرب الإسلامي عامة، والظرفية العامة لبلاد المصامدة على الخصوص. وبداية

---

(1) - النجار عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت...م. س. ص.357 .

(2)- العروي عبد الله، **مجمل تاريخ المغرب**، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994 القسم 2 ص146 ، النجار، **المهدي بن تومرت**... م. س ص 272-281 .

Urvoy, Dominique. "Les divergences théologiques entre Ibn Tumart et Gazali", in Mélanges offerts à Mohamed Talbi à l'occasion de son 70° anniversaire, Publication de la faculté des lettres de Manouba, 1993 ; p. 11-23

(3) - Brunschvig Robert," La doctrine du Mahdi Ibn Tumart". Arabica, 1955-2. "Encore sur La doctrine du Mahdi Ibn Tumart", Folia Oriontalia, T.II, 1970.paru de nouveau in Etudes d'Islamologie, Paris, T.I,1976 .p_ 281-293 et 295-303

(4) - Amor hamadi, "Y a-t-il une influence Khàrigite dans la pensée d'Ibn Tumart ? " In Mélanges offerts à Mohamed Talbi à l'occasion de son 70° anniversaire, Publication de la faculté des lettres de Manouba, 1993, p. 203-214.

(5) - شارل أندري جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي والبشير سلامة، الدار التونسية للنشر - تونس 1979 ج. 2ص.170، أبو العزم عبد الغني، " هل كان ابن تومرت مالكيا؟** في التراث المالكي في الغرب الإسلامي. كلية الآداب عين الشق - الدار البيضاء 1988.

البحث عن الجذور المحتملة لهذا المذهب، في هذه الرقعة الجغرافية، قبل البحث عنها في حصيلة الرحلة الدراسية لابن تومرت بالمشرق، والتي لا يمكن نكران تأثيرها بالطبع على شخصيته جملة وتفصيلا. وبمثل هذه النظرة التاريخية والشمولية فقط، يمكننا فهم جل جوانب المذهب التومرتي، والنظر إليه كوحدة منسجمة متماسكة، لا كمجموعة من الأفكار الانتقائية والملفقة بكيفية اعتباطية، كما قد يبدو لأول وهلة[1]. والأهم من ذلك، أن هذه النظرة تمكننا من فهم كثير من تصرفات صاحب المذهب وسلوكه وسياسته وجل أفكاره التي يتضمنها مؤلفه الأساسي "أعز ما يطلب"، ووضعها في سياقها التاريخي، ومن فهم سياسة الدولة الموحدية على ضوء كل ذلك.

اعتمادا على الاعتبارات السابقة الذكر، يمكن الافتراض منذ الآن وبدون مجازفة كبرى، أن المذهب التومرتي نابع من البيئة الدينية والثقافية المصمودية، ومرتكز على تيار الإسلام الصوفي كما تبلور وتطور، في بوادي ورباطات هذه الجهة من المغرب الأقصى، حتى نهاية القرن5 هـ/11م. لأن مجال المصامدة تميز عن باقي جهات المغرب الأقصى بظاهرة هيمنة الرباطات على توجيه الحياة الدينية، خلال فترة طويلة من العصر الوسيط. وللمصامدة تقاليد راسخة في هذا الشأن تعود، للقرن الثالث الهجري على الأقل، كما سبق ذكره[2]. هذه الفرضية التي قد تبدو غريبة لأول وهلة، لها ما يعززها من الشواهد والوقائع التاريخية، سواء في التاريخ الشخصي أو العائلي لابن تومرت، أو في تاريخ بلاد السوس ورباطاته، والمغرب الأقصى ووضعه العام.

I - ابن تومرت والولاية :

1- مظاهر الولاية عند ابن تومرت :

تفصح جل تصرفات ابن تومرت، منذ عودته من رحلته المشرقية، سنة510 هـ/1117م على الأرجح[3]، عن سلوك عدد من المتصوفة المغاربة في عصره، والتي ستصبح من التقاليد الصوفية الراسخة فيما بعد. ويظهر ذلك في تسعة مظاهر على الأقل : في زهده وورعه وتقشفه الشديد، وفي مصاحبة الصلحاء والزهاد وأهل الصلاح عموما، وفي ارتياد

---

(1) - من القائلين بانتقائية مذهب ابن تومرت، النجار، **المهدي بن تومرت**. م.س.ص. 356، العروي، **مجمل تاريخ المغرب**... م.س.ج. 2ص149. القبلي. **الدولة والولاية في المغرب الوسيط**، دار توبقال للنشر - الدار البيضاء 1997م ص79.

107 , doctrinc d'Ibn Tumart, opt cité Sur l .Brunschvig, R.

(2) - انظر الرباطات في الفصل الأول من هذا العمل.

(3) - للمزيد من التفاصيل عن هذه العودة وتحقيق تاريخها راجع النجار. **المهدي بن تومرت**.... م.س.ص 84-104.

الرباطات، خلال عودته من المشرق، واتخذ لنفسه الرباط مثل رباط وجاج ورباط عبد الله بن ياسين، وفي العزوف عن الزواج وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوعظ والتعليم بالأمازيغية، بجانب اللغة العربية، كما نسبت له كرامات، كباقي الأولياء، وله مجاهداته ورياضاته. ووصف كذلك بالانقباض ومارس التأمل على عادة بعض المتصوفة، واتخذ نوعا من الأوراد والوظيف، وله دعاؤه. ويلخص ابن خلكان بعضا من تلك السلوكات بقوله: "وكان ورعا ناسكا، متقشفا مخشوشنا مخلولقا، كثير الإطراق، بساما في وجوه الناس، مقبلا على العبادة، لا يصحبه من متاع الدنيا إلا عصا وركوة (إناء من الجلد للوضوء)، وكان شجاعا... شديد الإنكار على الناس فيما يخالف الشرع، لا يقنع في أمر الله بغير إظهاره، وكان مطبوعا على الالتذاذ بذلك"[1].

***الزهد والتقشف والتزام الرباطات :**

أول ما يلفت الانتباه في سلوك ابن تومرت وتصرفاته، هو التزام الزهد والتقشف؛ تجلى ذلك في لباسه ومأكله ومشربه. يقول عنه المراكشي : "يكثر التزهد والتقلل ويظهر التشبه بالصالحين والتشدد في إقامة الحدود، جريا في ذلك على السنة الأولى"[2]. وظل يلبس الكرزية المصنوعة من الصوف وهي من لباس العامة، حتى آخر يوم من حياته[3] ، ويضيف ابن خلدون أنه كان "يلبس العباءة المرقعة، وله قدم في التقشف والعبادة" [4]، و"هو بحالة من التقشف والحصر والصبر على المكاره والتقلل من الدنيا حتى قبضه الله، وليس على شيء من الحظ والمتاع في دنياه"[5]. وكان لا يملك حتى شبع بطنه عندما دخل مراكش، في زي الزهاد سنة514 هـ/1121م[6] ، إذ لم يكن معه أثناء رجوعه من المشرق إلا عصا وركوة للوضوء على عادة المتصوفة، مثل أبي محمد صالح الذي جعلهما من مميزات طريقته الصوفية[7]. كما كان مأكله ومشربه بسيطا، إذ "كان قوته من غزل أخت له في كل يوم رغيفا بقليل سمن أو زيت، ولم ينتقل عن هذا حين كثرت عليه الدنيا"[8].

(1) - الناصري **الاستقصا** ... م.س.ج. 2 ص 77.
(2) - المراكشي، **المعجب** ... م.س.ص. 238.
(3) - البيدق، **أخبار المهدي**... م.س..ص. 41. ذكر مهول، **صاحب الحلل الموشية**..م.س.ص 105.
(4) - ابن خلدون، **كتاب العبر** ... م.س..ج. 6. ص229.
(5) - ابن خلدون، **المقدمة** ... م.س. ص 46.
(6) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب** ... م.س. ص 147 -175.
(7) - الماجري أبو العباس أحمد. **المنهاج الواضح** ... م.س. ص. 178 -180.
(8) - الناصري، **الاستقصا** ... م.س..2ص92.

ابن تومرت من بيت رباط ونسك، كما سبق[1] ، ومن هرغة المشهورة برباطها إيكلي. وأثناء العودة من رحلته المشرقية كان يتوقف بالرباطات ويلتزم سكناها الرباطات، ابتداء من الرباطات الشامية والمصرية، ووصل عدد أتباعه بتلك الرباطات إلى حوالي 42 مريدا معروفين بأسمائهم[2]. نزل في إفريقية، برباط المناستير، مع جماعة من الصالحين واعتكف معهم مدة، إذ استهوته حياتهم بما يطبعها من الزهد والتقشف[3]. واتخذ رباطا بملالة، قرب بجاية، عندما طرد من بجاية يدرس به العلم عدة شهور[4]، واعتكف كذلك مدة، برباط العباد المشهور بضواحي تلمسان[5]. وحتى عندما ينزل بمساجد بعض المدن، فإنه كان لا ينزل إلا في المساجد الصغرى، كما حدث في فاس مثلا، حين نزل بثلاثة مساجد صغرى من مساجد الأحياء الصغيرة [6]. وعندما وصل إلى مسقط رأسه اتخذ رباطين :أحدهما رابطة الغار التي اتخذها خلوة دخلها متعبدا عدة أيام، وكان أتباعه يزورونه للتبرك به ويستوهبونه الدعاء فيمسح على رؤوسهم .وتوج خروجه من هذا الرباط ببيعته، في أواخر سنة 514 هـ، لا على الإمامة والملك، ولكن على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقط[7]. وثانيها رابطة وانسري التي اتخذها للتربية والتعليم، وقد أصبحت هاتان الرابطتان من المزارات المشهورة لدى الموحدين، زارهما الخليفة يوسف العسري، سنة 578هـ/1183م، وأخذ المرافقون له منهما التراب للاستشفاء به وللتبرك[8]. أولى ابن تومرت الجانب التربوي والاجتماعي أهمية بالغة برباط هرغة هذا[9] ونظمه على شاكلة رباط عبد الله ابن ياسين، كما سياتي.

***العزوبية :**

كان ابن تومرت حوصرة، لم يتزوج قط. ومسألة العزوف عن الزواج هذه أو التجرد منه ليست عادة إسلامية أصيلة، بل ورد، في بعض المصادر، حديث ينهى عن ذلك: لا صرورة في الإسلام[10]، بل هي عادة الرهبان المسيحيين دخلت الإسلام عن طريق التصوف، منذ

---

(1) - ابن خلدون، **كتاب العبر** ... م.س.ج.6 ص . 226، القلقشندي، **صبح الأعشى**. م.س.ج. ص 131.
(2) -البيدق، **المقتبس** ... م.س.ص. 28-29.
(3)- النويري، **نهاية الأرب** .... م.س.ص 397.
(4) - البيدق، **أخبار المهدي**... م.س ص 13-41. مجهول، **الحلل الموشية** ... م.س. ص 106.
(5) - نفسه ص. 275.
(6) - البيدق، **أخبار المهدي**... م.س ص23.
(7) - نفسه، ص 33, 94 البيدق، **المقتبس** ... م.س ص42
(8) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ... قسم الموحدين م.س. ص 149.
(9) - انظر تفاصيل هذا الجانب، النجار، **المهدي بن تومرت** ... م.س. ص 126-128
(10) - انظر مادة حوصرة في **لسان العرب** لابن منظور.

ظهوره متأثرا في ذلك بتقاليد الشعوب التي حل بها[1]. وليس التجريد موقفا شخصيا اتخذه المهدي صدفة. إذا لم ينتج عن حالة صحية معينة. بل كان عادة منتشرة بين متصوفة المصامدة وغيرهم. وقد ذكر صاحب التشوف عددا من النساك المتجردين، فمن بين 23 حالة ذكر حالتهم العائلية 8 منهم غير متزوجين، أي الثلث تقريبا[2]. ونجد هذه العادة لدى بعض العلماء الزهاد، كأبي الحجاج يوسف بن نموي الفاسي (ت 614 هـ/1218م) الذي "قطع عمره كله صرورة لم يتزوج قط"[3]؛ بل استمرت ظاهرة العزوف عن الزواج بفاس، إلى عهد الوزان في بداية القرن16م[4]، وهذا يؤكد الافتراض السابق بأن بلاد المصامدة عرفت المسيحية قبل الإسلام.

***استخدام الأمازيغية في التعليم والوعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:**

أهم سلوك يشترك فيه ابن تومرت مع الصوفية، هو تدريس العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحمل الأذى في ذلك، كان يقوم بذلك حيثما حل بالمشرق والمغرب، كما فعل في مكة وفي الإسكندرية، بل حتى على ظهر السفينة التي أقلته من الإسكندرية إلى إفريقية. وأما أنواع المنكرات التي كان ينهى عنها فعديدة، منها : أنواع الملاهي، إذ كان يكسر آلاتها كما يكسر أواني الخمر، وينهى عن اختلاط النساء والرجال، وعن ارتداء ملابس الجاهلية، ويحرص على تطبيق الأحكام الشرعية، بدل الأعراف المحلية، كقطع يد السارق بدل ضربه. وكثيرا ما يثير ذلك العامة فيؤدي إلى طرده ونفيه مكرها من طرف الحكام، كما حدث له في كل من الإسكندرية والمهدية وبجاية وتلمسان وفاس ومراكش وأغمات، أو من طرف السكان الذين قد يوجعونه ضربا، كما حدث في فاس[5]. كما أن البيعة الأولى لابن تومرت، سنة514 هـ/1121م، بهرغة كان هدفها القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل ذلك مع مريديه في رباطه، وظل الأمر على هذا، إلى سنة 518 هـ/1125م، حين بويع بالإمامة كما سنبين بعد حين، وابن تومرت لا يختلف في هذا مع قام به عبد الله بن ياسين، في رباطه بالصحراء، كما سبق الذكر.

---

(1) - آدم ميتز، **الحضارة العربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، نشر مكتبة الخنجي بالقاهرة ودار الكتاب اللبناني - بيروت بدون تاريخ ص 37-38.

(2) - ابن الزيات التادلي، **التشوف** ... م. س. ص 106. 128. 132، 133، 162، 165، 173. 180. 184. 209، 235. 240. 264. 282، 358. 344. 360، 376، 378، 381. 404 وحالات العزوبية ,136، 161، 233. 342، 367 . 407. 410، 440.

(3) - ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة** .... م.س، س 8 ص 428.

(4) - ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة** ... م.س، س 8 ص 428

(5) - الناصري ، **الاستقصا** ... م.س. ج2ص77، زنيبر محمد، **المغرب** ... م.س. ص 162. ابن خلدون، **كتاب العبر** ... م.س. ج 6 ص 126-127.

لكن الشيء الجديد الذي قلما وضعه الباحثون في إطاره التاريخي، هو استخدامه للأمازيغية في وعظه وتعليمه، وقد ورث الموحدون هذه العادة واحتفظوا بها إلى عهد يوسف على الأقل[1]، بل وعلموا بواسطتها سكان أمبراطوريتهم[2]. والتفسيرات التي أعطيت لاستعانة ابن تومرت بالأمازيغية غير مقنعة، كإرجاعها إلى كونه انطلق، من معقل الأمازيغية بالأطلس الكبير[3] ، وهو تعليل يمكن أن ينطبق على كل الدعاة بالمغرب، قبل القرن السادس. كان موقف أغلب المتعلمين من فقهاء وغيرهم، ولو كانوا أمازيغيين، ضد استعمال الأمازيغية في التعليم والوعظ، وهو موقف ينسجم مع سلوكهم المتميز، في الغالب، بالغطرسة والتعالي على العامة، يقول الوزان، في عصره: "إن الأعيان متكبرون جدا، لدرجة أن عددا قليلا من الناس يستطيعون معاشرتهم، ويصدق نفس الشيء على العلماء والقضاة الذين يأبون، حفاظا على سمعتهم، أن يتعاملوا إلا مع بعض الأشخاص"[4].
وكان بعض الفقهاء يستنكفون من أن يخلطوا فصاحتهم العربية برطانة البربر، بل يستهزئون من ظهور يسير عجمة على لسان أحد منهم، كالفقيه يوسف بن موسى الجورائي إمام مسجد القرويين، سنة 558 هـ/1161م، الذي "كان يؤم ولا يخطب، لأنه كان أعجمي اللسان شديد العجمة، فقدم من ينوب عنه في الخطبة"[5]. بينما لم يكن للمتصوفة مثل هذا السلوك المتعالي، فكانوا ملتصقين بواقع العامة ويخاطبونهم بلغتهم، ويلبسون لباسهم .وإذا رجعنا إلى التشوف، سنجد أن هذه العادة كانت منتشرة بين متصوفة البادية .وكان أبو ولجوط تونارت ابن وجرام الهزميري(ت 608 هـ /1212م) من أشهر الوعاظ والخطباء بالأمازيغية[6]، بل كان بعضهم أميا ولا يفقه من العربية شيئا، مثل أبي يعزى .أما ابن تومرت فقد تبنى موقف المتصوفة في التعليم بالأمازيغية، بل كان يستدني "أشخاصا من أهل المغرب، جلادا في القوى الجسمانية أغمارا، فكان أميل إلى الأغمار من أولي الفطن والاستبصار"[7].

(1) – ابن صاحب الصلاة **المن بالإمامة** ... م س.. ص 411، ابن عذاري، **البيان المغرب** ... ق. الموحدين م س، ص. 123.
(2) - المنوني محمد. **العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين**. ط 2 الرباط 1977ص 27-28.
(3) - نفسه. ص 154-157. بل، **الفرق الإسلامية في شمال إفريقيا** ... م س ص 264-265 يرجعها إلى تقاليد المصامدة في ذلك كما عند برغواطة. وحاميم بغمارة.
(4) - الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**..م س ج 1ص214
(5) - ابن آبي زرع. **الأنيس المطرب**..م س ص71-72 .. ابن القاضي، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة -الرباط 1973 ص58 .
(6) - ابن الزيات التادلي، **التشوف**..م. س.ص.401 .
(7) - الناصري، **الاستقصا** ..م س ج 2 ص.81.

أما الميزة التي تقربه من المتصوفة أكثر، فهي أنه كان لا يكتفي بوعظ العامة وحدهم وينهاهم عن المنكر، بل كان يتجرأ على نهى أولي الأمر كذلك، من ملوك فما دونهم. فعل ذلك، في كل منطقة مر بها، فعل ذلك بإفريقية وبجاية وقرية دشر قلال، وأخيرا في مراكش، خلال مناظرته لعلمائها، بمحضر علي بن يوسف، وكان يتعرض للأذى والسجن بسبب ذلك.

***المجاهدات والرياضات الصوفية :**

كانت لابن تومرت بعض السلوكات التعبدية التي نجدها لدى جل المتصوفة، كالتأمل مثلا، إذ كان »شديد الصمت كثير الانقباض، إذا انفصل عن مجلس العلم لا يكاد يتكلم بكلمة[1]...". وكان، عندما يفرغ من تدريس العلم للطلبة بملالة، يجلس" بمكان يعرف بخروب العجوز ويحرك شفتيه بالذكر[2]". كما ألزم أتباعه بالمجاهدات والرياضات، كالأوراد والأذكار، والتي ستنتشر، ابتداء من القرن7 هـ 13/م، بين أغلب المتصوفة المغاربة. لوحظ ذلك في طريق عودته من المشرق، حين ألزم أهل السفينة التي كانت تقله، من مصر إلى المهدية، بقراءة أحزاب من القرآن العظيم[3] ، كما وضع لأتباعه الأوائل، وهو في ملالة قرب بجاية، أورادا ووظيفة قراءة الحزب، فقد أمر يوما، مرافقه البيدق :"ناد الصبيان للورد يقومون يأخذون حزبهم...فأخذوا وردهم وقرأوا حزبهم[4]". وفرض، عندما أنشأ رباط هرغة، على أتباعه ومريديه وظيفة قراءة حزب من التوحيد، كل صباح ومساء، وهو سبعة أحزاب على قدر أيام الأسبوع، وحزب من القرآن[5]. وحينما اجتمعت عليه القبائل، في هذه الرابطة، كان يعلمهم بنفسه أو مستعينا بأعيان أصحابه[6]. وأدمج هذا الورد في تنظيمات الحركة العسكرية الموحدية، فكانت الحركة تضم 50 من الحزاب يقرؤون حزبا من القرآن صباحا، بعد صلاة الصبح ومساء بعد صلاة المغرب، وعمم يوسف قراءة الحزب القرآني. وهي، على ما يبدو، ظاهرة فريدة في العالم الإسلامي[7] .

---

(1) - المراكشي، **المعجب**... م.س .ص.269 .
(2) - البيدق. **أخبار المهدي**... م.س، ص.14 .
(3) - الناصري، **الاستقصا** ..م.س ج 2.ص.77.
(4) - البيدق، **أخبار المهدي** ... م. س. ص17 ، الناصري، **الاستقصا** ..م.س ج 2.ص.77.
(5) - النجار، **المهدي بن تومرت**..م. س. ص124 .. ابن خلدون، **كتاب العبر**..م.س ج 6 . ص.228.
(6) - مجهول، **الحلل الموشية**... م.س .ص109-110 .. ابن القطان، **نظم الجمان**... م. س. ص26-27 ,. 127 . النجار، **المهدي ابن تومرت**... م.س .ص.124 .
(7) - ابن القاضي. **جذوة الاقتباس**... م.س ق1 ص74 .. الجزنائي، **جنى زهرة الأس**... م.س .ص80.. المنوني، **العلوم والآداب**... م. س. ص.64 .

كما تناقلت بعض المصادر دعاءا لابن تومرت، شبيه بدعاء أغلب المتصوفة، تبدو فيه المسحة الصوفية بوضوح[1] ، بل ألف رسالة صغيرة في تسبيح الباري سبحانه والابتهال له[2] . وله رأي يتفق مع المتصوفة، في أحد مبادئهم الأساسية، وهو التواكل[3] ، ولعل هذا ما يفسر اختلاف ابن تومرت عن المذهب الأشعري، في مسألة القضاء والقدر، أو حرية الإرادة، إذ كان على مذهب الجبرية كما هو معروف[4].

***البركة :**

لا يختلف سلوك ابن تومرت عن سلوك بعض أهل الصلاح والولاية، قبله وبعده، فهو، كرجل ذي بركة، كان يمسح بيده المباركة على رؤوس الأطفال، كما فعل بمدينة فاس[5] وعلى رؤوس أتباعه الذين كانوا يزورونه في رباط الغار بهرغة، ويدعو لهم[6] . ونسبت له كرامات، منها العلم بما يحدث في جهة أخرى، مثل الإخبار بوفاة والده بهرغة، وهو في تينمل. وكان، حسب المراكشي، يخبر الموحدين بجزئيات كان يقع أكثرها[7] ، لذا وصفه ابن الخطيب، بأنه "مأمور بنوع من الوعي والإلهام... كان ينتحل القضايا الاستقبالية، ويشير إلى الكوائن الآتية"[8] ، وتدخل الدعاية التي نشرها الموحدون بقرب ظهور المهدي الذي يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا، ضمن تنبوؤاته .

وقد نظرالمصامدة إلى ابن تومرت كولي من أولياء الله، يمتلك قدرات خارقة، إذ اعتقد البعض، بهرغة في أول بيعة له، أنه ليس كبقية البشر ولا يأكل الطعام مثلهم[9]. لذا كان الموحدون يستغيثون به في الشدائد ويتبركون بذكره على موائدهم، وجعلوا شعارهم خلال المعارك الحربية :"أبابا المهدي"، كما حدث أثناء حصار مدينة مكناسة[10]. وله كرامات، فقد كان ذر التراب في أعين المرابطين كافيا لانهزامهم، خلال إحدى المعارك[11]. ولما

---

(1) - مجهول، **الحلل الموشية**... م.س .ص.118-119 .
(2) - ابن تومرت، **أعز ما يطلب**...م.س .242-243
(3) - البيدق، **أخبار المهدي**...م.س. ص.43 .
(4) - ابن تومرت، **أعز ما يطلب**...م.س .ص235-236 .. بل الفرد، **الفرق الإسلامية**...م. س.ص.271-272 .
(5) - البيدق، **أخبار المهدي**...م.س. ص.23.
(6) - البيدق، **المقتبس**...م.س. ص.42 .
(7) - المراكشي، **المعجب**...م.س. ص276 .284. البيدق، **المقتبس**... م. س. ص.27.
(8) - الناصري، **الاستقصا**...م.س ج 2 ص.. المراكشي ابن إبراهيم، **الإعلام بمن حل بمراكش**...م.س.4 ص.78.
(9) - النجار، **المهدي بن تومرت**... ص131، البيدق، المقتبس... م. س. ص.33.
(10) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**...م. س. ص 177 .ابن غازي، **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون** ط. الرباط سنة 1952 ص6، بل الفرد، **الفرق الإسلامية**...م.س . ص.261
(11) - البيدق، **أخبار المهدي**...م.س .ص35.. بيل الفرد، **الفرق الإسلامية**... م. س. ص.260 .

توفي أصبح قبره مزارة كبرى تشد إليها الرحال من طرف العصبية المصمودية، فقد أرسل عبد المومن أشياخ الموحدين لزيارته، أثناء غزوته الطويلة[1] ، واعتاد الخلفاء تقديم زيارة قبره تيمنا وتبركا، قبل القيام بالحركة العسكرية، بل كان الناس يأخذون التراب من رابطة وانسري، ومن رابطة الغار في جبل أكليز من بلاد هرغة للاستشفاء به وللتبرك[2] ، فنظروا إليه كرجل مبروك[3] .

فسلوك وتصرفات ابن تومرت العملية أبلغ من أفكاره النظرية في الكشف عن هوية مذهبه الصوفي وتصنيف فكره. وإذا استعرنا لغة المعجم الصوفي، يمكن القول إن كفة "الصلاح" من تصرفات وسلوكات ابن تومرت ووجود البركة راجحة على كفة "المعرفة والعلم" النظري لديه، أو أنه من أهل "العلم والعمل". وليس من قبيل الصدف أن يعمل الموحدون على إشاعة مسألة التقاء ابن تومرت بالغزالي والاعتزاز بأستاذيته الروحية والعلمية[4]. ومعلوم أن موقف الموحدين من المتصوفة مختلف عن موقف المرابطين، أواخر دولتهم، ولم يحاربوا المتصوفة مثل أسلافهم المرابطين[5].

فتصوف ابن تومرت تصوف عملي، كما تبلور وتطور في رباطات سوس، إذ لا نعثر في ما كتبه على المسحة التأملية الإشراقية مقارنة بتصوف الغزالي، أو ابن العربي (ت638هـ/1241م) مثلا، لأن التصوف الذي نما في رباطات البوادي المصمودية، كانت تطغى فيه الروح الجماعية على النزعة الفردية، وبالتالي لا يمكن أن يكون تصوفا فرديا يسعى للخلاص الشخصي، كتصوف بعض المدن المتحضرة الكبرى الأندلسية أو المشرقية التي تتوفر فيها إلى حد ما - شروط بروز الفردانية. وهذا ما يفسر طغيان الجانب الأخلاقي والسلوكي في تصوف ابن تومرت، وعدم الجري وراء تشييد الصروح النظرية وبناء المنظومات الفكرية، على عكس التصوف الإشراقي الفلسفي النخبوي الذي يغرق في مسائل فلسفية وإشراقية، مما هو متداول لدى أغلب صوفية المشرق والأندلس، أي أنه تصوف يهتم بالقضايا الاجتماعية بالدرجة الأولى. ولعل هذا ما حدا بالمرحوم علال الفاسي إلى القول بأن "تصوف الأخلاق والرقائق هو الذي استقر عليه عامة

---

(1) - الادريسي، **نزهة المشتاق** ... م. س. ص 230، البيدق، **أخبار المهدي** ... م.س. ص 51.
(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب**..م.س. ص149، البيدق، **أخبار المهدي**..م.س .ص.90 .
(3) - بل الفرد. **الفرق الإسلامية**..م.س. ص.261 .
(4) - انظر مادة التصوف في **معلمة المغرب** ج 7 ص 2391 -2396 بقلم أحمد التوفيق.
(5) - تريكي حامد وفرحات حليمة، كتب **المناقب كمادة تاريخية**..م. س. ص55 .، عن موقف دول المغرب خلال العصر الوسيط من كتاب الإحياء للغزالي راجع القبلي محمد، **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**..ن. س. ص.21-51.

المتصوفين المغاربة، وكان له الأثر الفعال في مجتمعنا[1]، وهو ما يفسر إقبال المغاربة على كتاب الإحياء للغزالي الذي يلتقي، في الجوهر، مع المقاصد الأخلاقية للشريعة. تكاد هذه الخاصية العملية والأخلاقية تتطبق على أغلب المتصوفين المغاربة، مثل أبي محمد صالح في القرن13 م، الجزولي في القرن15م. فما هي أصول هذه الولاية؟

2- أصول ولاية ابن تومرت:

هذه الولاية التي رأينا بعضا من مظاهرها في سلوك ابن تومرت وفكره، لها جذور في البيئة التي نشأ فيها بدءا ببيته، وفي تاريخه الشخصي، وفي بلاد المصامدة والغرب الإسلامي.

أ -أصول ولاية ابن تومرت في تاريخه العائلي:

سبق لبعض الباحثين أن استغلوا المعلومات القليلة الواردة في المصادر لدراسة حياة ابن تومرت السوسي[2]. ودون العودة إلى مناقشة خلاصاتهم القيمة هنا، نكتفي فقط بالإشارة إلى بعض القضايا الأساسية التي لها علاقة بمذهبه والتي لم يلتفت لها أصحاب تلك الدراسات لإثبات الفرضية المقترحة هنا.

تنعت جل المصادر بيت ابن تومرت، بهرغة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من تارودانت ببلاد جزولة (قرية تفكيت بهرغة في الأطلس الصغير)، بأنه كان بيت صلاح و"**دين وعبادة**"[3]. لكن هذا الوصف لا يوضح نوعية الصلاح في هذا البيت. ويلاحظ، بالعودة للمصادر، أن بيت ابن تومرت كان يجمع بين نوعين من أنواع الصلاح السائدة ببلاد المصامدة، حتى القرن5 هـ/11م، وهما :صلاح بيوتات إڭرامن (المرابطين)المشهورة التي تولدت عنها الدولة المرابطية، إذ وصف بيت ابن تومرت ببيت "زهد ونسك ورباط"[4]، وصلاح بيوتات إسرغنن، ويعني في لغة المصامدة الشرفاء[5]. وينتمي بيت ابن تومرت إلى

---

(1) - عبد المجيد الصغير. «التصوف المغربي والتصوف الأندلسي في القرنيين السادس والسابع. اتصال أم انفصال؟» ضمن أبو محمد صالح. المناقب والتاريخ منشورات كلية الآداب بالرباط 1990 ص20.، انظر تصنيف التصوف المغربي عند بوتشيش إلى عدة أقسام منها، اتجاه سماه التصوف السني الساذج في كتابه، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين**، دار الطليعة - بيروت 1993 ص 130 -132.، النجار، **المهدي بن تومرت**... م. س. ص.351.

(2) - بروفنصال، **الإسلام في المغرب والأندلس**، ترجمة محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي .ط نهضة مصر ص265. النجار، المهدي بن تومرت... م.س. ص23 -35 ، محمد العنابي، «محمد ابن تومرت»، في مجلة الجامعة تونس المجلد 1 سنة.1937 -1938

(3) - القلقشندي، **صبح الأعشى**... م.س،ص.131 .

(4) - ابن خلدون، **كتاب العبر**..م.س 6 ص226 .، الناصري، **الاستقصا** ..م.س ج 2 ص.76.

(5) - المراكشي، **المعجب**..م.س. ص262، ابن الزيات، **التشوف** ...ص443.، عن معنى اسرغنن انظرمادة شرف في **المعجم العربي الأمازيغي**.

إسرغنن، حسب شهادة المراكشي، مثله مثل بيوتات مصمودية أخرى اشتهرت بهذا الشرف. منها بطن بني علي من بطون قبائل بني مرين، والذين يقول عنهم صاحب الذخيرة، أنهم شرفاء حسنيون قدم جدهم علي بن صالح السرغيني، من بلاد المصامدة، قاصدا الحج. وعندما عاد منه، استقر بمضارب بني مرين ببلاد الزاب، يعلم أولادهم[1]. كما حملت بيوتات مشهورة بالصلاح والعلم، في تاريخ المغرب، هذا الاسم الأمازيغي للشرف[2] ، وانتشر كاسم "طوبونيمي" في بعض المناطق الجغرافية التي استقر بها أولئك الشرفاء في فترة ما[3]. لاشك في انتماء ابن تومرت إلى بيت شريف، لكن هل شرفه شرف مشرقي ينحدر صاحبه من آل البيت؟ أم أن شرفه محلي يستمد جذوره من ديانة المصامدة قبل إسلامهم؟ دافع ابن خلدون عن الشرف المشرقي لابن تومرت، ورد على الفقهاء المنكرين له، معتمدا على مسلمة تبدو غير مقنعة، وهي "أن الناس مصدقون في أنسابهم"[4]. أما النجار فلا يستبعد احتمال الشرف المشرقي هذا في دراسته القيمة عن ابن تومرت، من خلال تحليل ونقد الروايات الأربع الواردة في المصادر، حول نسب ابن تومرت، إذ وجد أن إحداها تبدو ممكنة من الناحية النظرية، ذلك أن عدد الأجيال التي تفصل ابن تومرت المتوفى، سنة524 هـ /1130م، عن الحسن بن على المتوفى، سنة50 هـ، تساوي مدة 474 سنة، أي ما يعادل بين12 و 16 جيلا، على اعتبار أن مدة الجيل هي 30 و 35 سنة[5]. أما ما يؤيد الافتراض المحلي لشرفه، هو انتسابه إلى أمه أو جدته[6] ، حسب تقاليد الأسرة ذات النسب الأُمومِي التي ظلت سائدة ببلاد السوس، إلى نهاية القرن الخامس[7] ، وليس إلى أبيه كما يقتضي الشرع الإسلامي، وكما فعل الأدارسة قبل ذلك بفاس، الذين كانوا يعرفون، في وسط المغاربة، بأبناء الرسول، حسب الجغرافي ابن خردادبة في القرن9م[8] . كما أن بعض قرابة ابن تومرت، خاصة الأعمام منهم، يسمون

---

(1) - ابن أبي زرع، الدخيرة السنية...م.س. ص.21-22.

(2) - ابن الزيات التادلي، **التشوف**... م.س. ص443.، ومنهم بوسرغين دفين صفرو، وفي عدة مناطق أخرى من المغرب، **معلمة المغرب**...م.س.ج 5.، ص.1717.

(3) - منها – حسب علمي –قلعة السراغنة المعروفة ببلاد الحوز، دوار في السفح الجنوبي للأطلس الصغير بالقرب من مدينة طاطا، وسرغية قرب إيموزار مرموشة، وقصر من قصور تافيلالت انظر خريطة تافيلالت في كتاب حافظي علوي، **سجلماسة في القرن 8 هـ**، نشر وزارة الأوقاف1997.

(4) - ابن خلدون، **المقدمة**... م.س. ص.44 .

(5) - النجار، **المهدي بن تومرت**... م.س. ص.24-23.

(6) - ابن القطان، **نظم الجمان** ...م. س. ص 35. البيدق، **المقتبس** ...م. س. ص26. وعن شيوع هذا الاسم كاسم علم للجماعات والأشخاص، التادلي، **التشوف**...م.س. ص 359 .كالصوفي أبي محمد عبد الواحد بن تومرت، ابن عبد الحليم، **الأنساب**... ص55. ابن خلدون يحي، **بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد**، تحقيق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية بالجزائر1980 ، ص 186 إذ جاء فيه أن تومرت فخذ من بني عبد الواد، ويعرف بطن من قبيلة إمغران بورززات بهذا الاسم إلى اليوم .

(7) - راجع الفصل الخامس الخاص بالأسرة والمرأة ص 209 وما بعدها.

(8) - ابن خردادبة، **المسالك والممالك**... م. س. ص.89 .

بأسماء أمازيغية، مثل ابن عمه يصلالسن، كما نجد، في إحدى الروايات، أسماء أمازيغية، مثل أكليد بن وأمزيل. وكيفما كان أصل شرف إسرغنن الذين ينحدر منهم ابن تومرت[1]، فقد كانت لبيته الشريف هذا مكانة في المجتمع المصمودي بهرغة، وكانت تقدم لها الهدايا، إذ إن سبب غنى أهل ابن تومرت هو الهدايا التي قدمت له عند ولادته، ومما يؤكد ذلك أنه كان الابن البكر من بين أربعة ذكور وبنتين من امرأتين تزوجهما أبوه، بعد وفاة أو طلاق الزوجة الأولى من أبيه، وهي أم ابن تومرت ، ولم يمنعه ذلك من التفرغ للدراسة في الوقت الذي يشتغل فيه أمثاله من الأطفال، بالكسب والمعاش في وسط بدوي ذي طبيعة قاسية لا تتوفر حتى على أبسط وسائل العيش، إذ تنعدم في بلده نومكران مياه الشرب، وإنما يشرب أهله من ماء المطر[2]. هيأت له هذه البيئة الدينية، التي ترعرع فيها والمفعمة بالصلاح والورع، الظروف المعنوية على الأقل، لكي ينشأ محبا للدراسة والعلم ويلازم المساجد منذ نعومة أظفاره.

ب - ابن تومرت والولاية :

تذكر بعض المصادر أن ابن تومرت اشتهر، في طفولته، بلقب أسافو. وبررت شهرته بذلك بإقباله، في صغره، على الدراسة والاجتهاد، فكان يسرج القناديل بالمسجد ليلا للدراسة ولتحصيل العلم والصلاة[3]، وهو تبرير غير مقنع لغويا، والصيغة التي تدل على ذلك المعنى هي أسفو بسكون السين وكسر الفاء، أما أسافو بفتح السين وضم الفاء فتعني القبس من النار أو المشعل والمصباح .وشرح بروفنصال الكلمة بأنها تعني الإسراج، وهي عادة كانت معروفة في المعابد القديمة[4]. وهناك احتمالان لإطلاق هذا اللقب عليه .

الأول : أنه مشعل أو سراج الموحدين، أي نور الموحدين الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور؛ ويؤيد هذا المعنى قول أحد زعماء هنتاتة لقبيلته في حديثه عن ابن تومرت:"النور النور في هرغة"، ويرى عبد المومن أن كلام ابن تومرت نور وضياء[5] ، كما

---

(1) - ابن القطان، **نظم الجمان** ...م.س. ص35.. البيذق، المقتبس... م.س. ص.27.

(2) - ابن القطان، **نظم الجمان**... م.س .ص37 .

(3) - نفسه، ص37 ، ابن خلدون، **كتاب العبر**... م.س ج 6 ص 226 انظر مادة الضياء في **المعجم العربي الأمازيغي**، وقد جاءت الكلمة لدى البيذق في سياق يفهم منه تعني فيه الشعار. البيذق، **أخبار المهدي**...م.س .ص.71 .

(4) - بروفنصال ليفي، **الإسلام في المغرب والأندلس**..م.س .ص 276 وقد انتشرت هذه الظاهرة بدليل شيوع اسم بوقنادل كاسم لعدة أمكنة في جهات من المغرب، وهي عادة ظلت شائعة حتى منتصف القرن العشرين، في بعض القرى المغربية، إذ كانت النساء يسرجن الشموع ليلا، على قبور بعض الأولياء وفي بعض المزارات.

(5) - ابن تومرت، **أعز ما يطلب**... طبعة المغرب سنة 1997 ص411 .

وصف ابن تومرت عبد المومن بمرادفها العربي وهو "سراج الموحدين"[1] ، وسبق ذكر رمز النور في ثقافة المصامدة، وشيوع إطلاق هذا النعت كاسم لعدد من المتصوفة [2] .

والثاني أنها قد تعني شعار الحركة الموحدية، كما يفهم من سياق حديث البيدق عن حصار الموحدين لفاس "قال الخليفة للموحدين : أسافو؟ فقالوا باللسان الغربي : "أنغزو السنت وردم نبظي"، أي الغزو سنة لن نفارقها[3].

أما رحلة المهدي إلى المشرق، إذا كان هدفها هو الدراسة، فإنه لم يرحل حتى بلغ من العمر 27 سنة، وهي سن متأخرة مقارنة بالسن التي يرحل فيها الطلبة عادة لطلب العلم والتي كانت تترواح بين 16 و 20 سنة[4]. وما يهم في هذا التأخر أنه لم يرحل للمشرق إلا بعد أن تكونت قناعاته المذهبية والأيديولوجية ونضجت، وبالتالي فإن العناصر التي ستشكل مذهبه قد رسمت ملامحها وتوجهاتها الأساسية ببلده وقبل الرحلة. وما يعزز هذه الفرضية أن طريقة الدراسة آنذاك، في المشرق وغيره، كانت تترك للطالب حرية كبيرة في اختيار أساتذته وفي اختيار الدروس التي يرغب في تعلم مبادئها أو التعمق فيها، ولا يوجهه في اختياراته هذه إلا ميوله وقناعته الشخصية. وإذا كان ابن تومرت اختار أن يتعمق في علم الكلام وأصول الفقه، كما تؤكد المصادر، فقد تم حسب رغبته وميوله التي تبلورت لديه ببلده السوس، قبل الذهاب للمشرق .ويشير ابن خلدون إلى حرية ابن تومرت في الاختيار باستعمال كلمة "**استحسن**" طريقة الأشاعرة، إذ قال عنه أنه :"استحسن طريقهم في الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية الدافعة في صدر أهل البدعة"[5]. كما أن رحلته استغرقت 15 سنة، وهي مدة قياسية كذلك لطلاب العلم، مما يعني أنها لم تكن رحلة علمية فقط، منها 5 سنوات قضاها في الطريق من إفريقية إلى مسقط رأسه، عوض حوالي 70 يوما للمسافر الراكب المجد. أليست هذه الرحلة البطيئة نوعا من السياحة المعروفة لدى بعض المتصوفة؟

كما أن العلوم التي تبحر فيها ابن تومرت بالمشرق لم تكن مجهولة لدى المغاربة جملة وتفصيلا[6]، بل نجدها لدى مجموعة من الفقهاء. وإذا كان قد رجع بشيء جديد من

---

(1) - **نفسه**، ص 16 .

(2) - كان يحمل هذا النعت عدد من المتصوفة منهم آبو يعزى يلانور، ومنهم سيدي بنور، ابن الزيات، **التشوف**..م. س. ص130-213,131.

(3) - البيدق، **أخبار المهدي**..م.س. ص61.

(4) - عن عمر ابن تومرت وقت الرحلة وتاريخها. النجار، **المهدي بن تومرت**..م.س .ص.63 - 66 .

(5) - ابن خلدون، **كتاب العبر**..م.س ج 6ص226 ، الناصري، **الاستقصا** ..م.س ج 2 .ص.78 .

(6) - المراكشي، **المعجب** ...م.س .ص270، 293 رضوان مبارك، «حول بعض القضايا المذهبية والعقيدية في العصر المرابطي...»م.س. ص.71-76.

المشرق فهو ليس علم الكلام وأصول الفقه، وإنما رجع بقوة الإقناع والتمرس على المناظرة والجدال والتأثير في سامعيه بقوة إقناعه[1]، وتوسيع مداركه في قضايا لم تكن مجهولة تماما لديه أو غير معروفة في وسطه المصمودي والمغربي عموما.

ج - المذهب التومرتي متأثر بالبيئة الفكرية والدينية المصمودية:

إن أغلب أفكار المذهب التومرتي، مثل التوحيد والمهدوية، ومعاداة كتب الفروع التي لا تعني بالضرورة معاداة الفقه المالكي بالذات، كانت متجذرة بدورها في المنطقة ولها علاقة برباطاتها.

*انتشار علم التوحيد بالمغرب:

نقصد بالتوحيد معناه العام ووحدانية الله لا بمفهوم علماء الكلام، فكرة التوحيد هذه كانت معروفة عند المتصوفة منذ القرن3 هـ/9م، وقد كان أول من تكلم في التوحيد والورع ببغداد من المتصوفة أبو الحسن السري سقطي(ت253هـ)[2]، بل يعتبر البعض منهم أن مقام التوحيد هو المقام ما قبل الأخير من مقامات التصوف[3] مما يعني أن التوحيد لم يكن غائبا عن اهتمامات المتصوفة منذ وقت مبكر، كما كانت الشهادتان في مقدمة الأفكار التي كانت الرباطات المصمودية تعمل على تعليمها قبل بقية أركان الإسلام الأخرى، لمعرفة حد أدنى من توحيد الخالق.

وينبغي التحفظ من مبالغة المصادر عندما تنفي انعدام العلوم النظرية والتوحيد في المنطقة، كقول عبد الواحد المراكشي، في معرض تعليله لتفوق وشفوف ابن تومرت على فقهاء فاس أثناء مناظرته لهم، "بأنه وجد جوا خاليا، وألفى قوما صياما عن جميع العلوم النظرية خلا علم الفروع"[4]. صحيح أن المرابطين حاربوا تلك العلوم، قبيل وأثناء حرق كتاب الإحياء للغزالي وبعده، كمطاردتهم لابن النحوي (ت513 هـ/1120م) الذي كان يدرس أصول الدين وأصول الفقه بكل من فاس وسجلماسة القريبة من بلد ابن تومرت، أثناء وجود هذا الأخير بالمشرق[5]. ويكفي لتفنيد مثل هذا الحكم أن نرجع إلى تراجم

---

(1) - النجار، **المهدي ابن تومرت** ... م. س. ص 104-107.
(2) - آدم ميتز، **الحضارة العربية**... م. س. ص.25 .
(3) -البادسي عبد الحق بن إسماعيل، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف**... م. س. ص.20 .
(4) - المراكشي، **المعجب** ...م. س. ص 270، 293 .
(5) - ابن الزيات التادلي، **التشوف** ... م.س. ص.97-98 .

المتصوفة والعلماء، مثل أبي بكر محمد المرادي (ت489 هـ/ 1096م) نزيل أغمات الذي اعتبر أول من أدخل علوم الاعتقادات للمغرب الأقصى، وله تلاميذ بالمنطقة ذكر صاحب التشوف بعضا منهم[1]. وقبل هؤلاء جميعا كان أبو عمران الفاسي أستاذ وجاج بن زلو اللمطي وعبد الله بن ياسين من أهل الدراية بأصول الدين[2]. ويلاحظ أن هناك ميلا عاما لنشر علم التوحيد وتعزيز مكانته في الغرب الإسلامي. فلو أخذنا فهرسة القاضي عياض لوجدنا فيها أربعة أعلام درسوا علم الكلام توفوا، أوائل القرن5 هـ/11م. والفقيه عياض له ميول تصوفية كما تدل عليه مؤلفاته وأشعاره التي تشبه توسلات المتصوفة والزهاد[3] وهذا ما دفع بعلال الفاسي إلى القول بأن "معظم رجال التصوف المغربي ودعاته كانوا من أهل العلم بأصول الدين[4]. ولعل انتشار التوحيد وتزايد الاهتمام به في الغرب الإسلامي له ما يبرره تاريخيا، فهو للرد على فكرة التثليث المسيحية والقضاء عليها لدى المصامدة، ولدوره السياسي كذلك[5].

*شيوع فكرة المهدوية بسوس:

كانت المهدوية التي تبناها ابن تومرت متميزة، فالمراكشي مثلا، لا يعتبر ابن تومرت شيعيا بسببها، ويقول : "إنه كان يبطن شيئا من التشيع ولا يظهر منه للعامة"[6]. كما لاحظ أغلب الباحثين أن ابن تومرت يبدو مستقلا في تمسكه بالإمامة بعيدا عن الدعوة الشيعية وممثلا لدعوة خاصة[7] . ويمكن إرجاع تفرد مهدويته كذلك إلى أنها فكرة محلية متأقلمة في المنطقة، قبل الإسلام، كما لدى بقية شعوب البحر الأبيض المتوسط. لأنها ظهرت لدى البرغواطيين بعد أقل من 40 سنة فقط، من وصول الإسلام للمغرب، إذ إن صالح بن

---

(1) - نفسه، ص304,106.

(2) - الحسيسن عبد الهادي، **مظاهر النهضة الحديثية**... ص134-138.. راجع عن تاريخ ظهور المذهب الأشعري وسيادته بالغرب الإسلامي، عبد المجيد النجار، **فصول في الفكر الإسلامي بالمغرب**، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان ط 1 سنة1992 ، ص 16-38، وما زال الموضوع في حاجة لدراسة مفصلة.

(3) - محمد ابن تاويت، «سبتة المسلمة»، في مجلة مناهل عدد 22 سنة 9 يناير1982 ص106 . **مقدمة التشوف**...م. س. ص 14. عن المنحى الزهدي لمؤلف الشفاء.

(4) - علال الفاسي. «التصوف الإسلامي في المغرب»، الثقافة المغربية. عدد1، يناير-فبراير 1970ص46 ،. بوتشيش، **المغرب والأندلس**...م. س. ص.138 - 139 .

(5) - عن انتشار التوحيد بالغرب الإسلامي قبل المهدي، راجع النجار، **المهدي بن تومرت**..ص 440 -441، وعن دوره السياسي، ضريف محمد، **تاريخ الفكر السياسي**...م س .ص.149 -150.

(6) - المراكشي، **المعجب** ... م س .ص.275.

(7) - من القائلين بتفرد مهدوية ابن تومرت عن المذهب الشيعي أو بتأقلمها بالمنطقة، هاشم العلوي، «حركة المهدوية بالغرب الإسلامي فيما بين260-865 هـ»، بمجلة كلية الآداب فاس ع 10سنة 1989 ص 177- 188. فتحة محمد، **النوازل الفقهية والمجتمع**..ص152، محمد عبد الله عنان، **عصر المرابطين والموحدين** ...ج 1 .ص157 ،، ص206 .. النجار، **المهدي بن تومرت**... م س. ص 249-254 ،، 363 -364 .

طريف، في أوائل القرن الثاني الهجري، "زعم أنه المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان لقتال الدجال، وأن عيسى بن مريم يكون من أصحابه ويصلي خلفه وأنه يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا"[1]، ونسب كثيرا من ذلك إلى موسى وإلى سطيح الكاهن .وتعرف السوسيون على المهدوية، من خلال المذهب البجلي، قبل ظهور الدولة الفاطمية[2]. وكان أبو محلي، في القرن16 م، قد اختلطت في ذهنه المهدوية والتصوف[3]. ومما يدل على تجذر الفكرة في الوسط المصمودي شيوع فكرة انتظار ظهور المهدي المنتظر وخروجه برباط ماسة.

***التيار الفكري المعادي لكتب الفروع :**

أما نفور ابن تومرت من كتب الفروع الفقهية، فهو من المواقف التي كانت معروفة لدى بعض المتعلمين ببلاد المصامدة والغرب الإسلامي. فهذا أبو محمد عبد العزيز التونسي (486 هـ/1191م) نزيل أغمات الذي اشتهر بعدائه وكراهته لتدريس الفقه، لأنه يرى أن ذلك يؤدي إلى نيل الدنيا، وقال: "صرنا بتعليمنا له كبائع السلاح من اللصوص"[4]. ونجده لدى عدد من علماء الغرب الإسلامي، مثل قاسم بن سيار الأندلسي (ت273 هـ) في القرن3هـ/9م، ووضاح بن محمد، وبقي بن مخلد الأندلسي، وعباس الفارسي القيرواني الذي أحرق المدونة بنفسه وكتب الرأي الأخرى، على مرأى ومسمع من الناس، في وسط القيروان، أوائل القرن3 هـ/9م، فأدبه أسد ابن الفرات(ت 213هـ) على صنيعه، وكان ينتقد فقهاء الفروع في عصره. ثم سعيد بن الحداد (ت330هـ)، والحافظ ابن عبد البر، والقاضي ابن العربي المعافري (ت543هـ) الذي خلف نصا مشهورا ينتقد فيها طريقة الأندلسيين في تدريس الفقه[5]. ويشكل موقف ابن تومرت والدولة الموحدية خاصة في عهد يعقوب المنصور الموحدي الذي أمر بإحراق كتب الفروع، كما هو معروف[6]، استمرارا لهذا التيار.

يتضح مما تقدم أن المذهب التومرتي يمثل استمرارا للمذهب المرابطي في كثير من الوجوه مع بعض الاختلافات الجزئية البسيطة، وأنهما معا نبعا من البيئة المحلية السوسية

(1) - البكري، **كتاب المغرب**... م. س. ص.135 .
(2) - نفسه، ص. 161 .
(3) - حجي محمد، **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، مطبعة فضالة 1977 ج 1 ص.236.
(4) - ابن الزيات التادلي، **التشوف**... م. س. ص. 92 - 93 .
(5) - الحسيسن عبد الهادي أحمد، **مظاهر النهضة الحديثية في عهد يعقوب المنصور**، صندوق إحياء التراث الإسلامي 1982 ص.134 - 137.
(6) - النجار، **المهدي ابن تومرت**... م.س. ص.487 -500.

ومن المناخ الديني العام المغربي، وهذا ما يفسر كون الصراع المذهبي بين الاخوة الأعداء صراعا محليا وعنيفا[1]. وشهد مزايدات كلامية حادة بين الطرفين . فمذهب ابن تومرت ليس مستمدا من أفكار مشتتة جمعها واستوردها المهدي، خلال رحلته المشرقية، بل استمده من أفكار متجذرة بالممغرب منذ قرون، بما فيها فكرة المهدوية المتميزة والمرتبطة بمهدوية رباط ماسة، وهي أفكار تستجيب لحاجات اجتماعية وفكرية محلية، خلال القرن12 م.

الإشكال التاريخي في حياة ابن تومرت هو متى وقع تحوله من مرابط ومصلح ديني إلى إمام وزعيم دولة؟ ولماذا حدثت هذه النقلة النوعية في نشاطه بعد استقراره ببلاد المصامدة؟

II - من أسماس إلى البيعة أو التحول من الولاية إلى الإمامة:

1 - ابن تومرت شيخ رباط هرغة (515-518 هـ/ 1122-1125م)

هناك اختلاف، بين المصادر، حول تاريخ بيعة ابن تومرت وحول مكانها .هناك من المؤرخين من جعلها في سنة 514 هـ/1121م[2] ، ومنهم من جعلها في مفتتح محرم من515 هـ، كابن الخشاب. وحددها كل من ابن صاحب الصلاة وابن رشيق في سنة 516 هـ[3] ، وعند ابن عذاري سنة 518 هـ[4]. أما أغلب الدارسين المحدثين فيجعلون تاريخها في سنة515 هـ[5]. هكذا نجد التواريخ المقترحة للبيعة هي سنوات : 514 ,515,501 ,516 ,518 ,520 هـ. ونتج عن هذا الاختلاف، في تاريخ البيعة، اختلاف في مكانها، فجل المصادر جعلتها في تينمل[6] ، في حين جعلها البعض الآخر في هرغة، كما لدى ابن خلدون[7]. هذا الخلط والارتباك، في المصادر المتأخرة، راجع إلى عدم تحقق أصحابها من وجود تعاقدات مختلفة بين ابن تومرت وأتباعه، تمت في أزمنة وأمكنة متباينة، واختلف بالطبع الهدف من كل تعاقد منها، ولم يميز بينها، بوضوح نسبي من المؤرخين

---

(1) - محمد عبدالله عنان، **عصر المرابطين والموحدين**... م. س ق 1 .ص.157.

(2) - ابن القطان، **نظم الجمان**... م.س ص74 . مجهول، **الحلل الموشية** ...م. س. ص .107- 108 .

(3) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب** ...م. س. ص180 - 181، ذكر ابن القطان أنه بويع سنة501 هـ. **نظم الجمان**... م. س. ص. 5.

(4) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م. سج 4. ص.68 .

(5) - عبد المجيد النجار، **المهدي بن تومرت**... م.س ص 114 - 115 .. بوربيعة رشيد، ابن تومرت ص65، إلا أن محمد زنيبر حددها في سنة 520 هـ دون أن يبن سنده في ذلك، **المغرب في العصر الوسيط**... م. س. ص 170 .

(6) - المراكشي، **المعجب**... م.س. ص274 .. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب** ...م.س. ص.276 .

(7) - ابن خلدون، **كتاب العبر**...م.س.ج 6.. ص.227 .

القدماء، سوى البيدق المعاصر وعبد الواحد المراكشي المطلع على أخبار البلاط الموحدي، وابن خلدون المتثبت نسبيا رغم الفاصل الزمني الذي يفصله عن الحدث.

تمت البيعة الأولى في رابطة الغار بقبيلة هرغة، أواخر سنة 514 هـ1121/م، أي بعد أيام من وصول ابن تومرت لمسقط رأسه، وتم فيها التعاهد العرفي بين ابن تومرت صاحب الولاية الصوفية وبين أتباعه ومريديه على الطريقة المصمودية المعروفة بأسماس، إذ إن ابن تومرت "عمل **أسماس**، وعمل الملح بيده، وقال :هذا عهد الله وعهد الرسول بيننا وبينكم على الكتاب والسنة" وعدد ابن أبي زرع هؤلاء المبايعين له ب 1500مريد [1]. وتم هذا التعاهد على أساس "الكتاب والسنة"[2]، وهو ما يوضحه المراكشي ب"القيام معه أولا على **صورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا غير ... والدعاء إلى الخير**، من غير أن يظهر **إمرة ولا طلبة ملك**"[3]، أو بقوله في موضع آخر : "ولما كانت سنة515 هـ، قام بالسوس محمد بن عبد الله بن تومرت في **صورة آمر بالمعروف ناه عن المنكر**"[4]، أي بايعه أتباعه على أن يجاهدوا معه على عادة جهاد المريدين في الرباطات الجنوبية قبل ذلك. ولذلك كان أول ما حثهم عليه هو تهيئ "**أسارك**" أي فناء لاتخاذه مربطا للخيل، ووعدهم أن يعطي الرجل منهم على قدر ما أعد من الرباط، وما بنى من المذاود[5]. وبعد مدة قصيرة من بيعة هؤلاء الأنصار وهم قلة، أي في مفتتح، سنة 515 هـ/ 1122م، بويع من طرف قسم من قبيلته هرغة، وكان من الطبيعي أن تتم هذه البيعة في موسم رباطها إيكلي المشهور الذي ينعقد في عاشوراء أو رمضان، كما جرت العادة في الرباطات. وفي سنة 516 هـ/1123م، بايعته قبيلة هنتاتة وجزء من القبيلة التي سميت فيما بعد بقبيلة تينمل على "إجارته والوفاء بما عاهدهم عليه من القيام بالحق والدعاء إليه[6]". وبعد انتقاله إلى مدينة تينمل بويع بها، سنة 518 هـ/1125م، بالإمامة والمهدوية وبالطريقة الشرعية الإسلامية وتحت شجرة خروب اقتداء ببيعة الصحابة للرسول (ص). وتعدد

---

(1) - انظر الفصل الأول عن هذا العرف، وعن سر استقراره في هذا الرباط، البيدق، **المقتبس**... م س، ص 42 -43.الذي يفهم من كلامه بالأمازيغية أنه هارب كممثل للحق من الباطل وممثليه المرابطين، وتهدد الباطل إذا خرج من الغار سيضربه حتى تخرج أحشاؤه.

(2) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**... م. س. ص175 .

(3) - المراكشي، **المعجب** ... م س. ص.274 .

(4) - نفسه، ص.262 .

(5) - البيدق، **أخبار المهدي** ...م س ص33، الناصري، **الاستقصا** ...م س ج 2 ص87.، ويفسر ابن خلدون أسارك **بالقوراء الفسيحة**، كتاب العبر... م س ج 6 . ص 272 . ومما له دلالة تخصيص فصول عديدة للجهاد في كتاب **أعز ما يطلب**، راجع باب الترغيب في باب الجهاد من طبعة المغرب1997 ، ص.412 - 479 .

(6) - زنيبر محمد، **المغرب في العصر الوسيط** ... م. س. ص.173 .

المصادر أسماء المبايعين الأوائل له بتينمل من أهل العشرة والخمسين مع اختلاف بينها، في ترتيبهم. وقد بلغ مجموع المبايعين، حسب ابن الخطيب، 10.000 مبايع[1] .

تمت البيعات الثلاث الأولى كلها بالطريقة العرفية المصمودية المسماة أسماس، وكانت من أجل مساندة ابن تومرت وحمايته للقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا غير، وليس كإمام وقائد حرب، أي كما سبق أن فعلت معه قبيلة بني ورياغل الصنهاجية من بني حماد، من قبل، حين آوته وأجارته في رباط ملالة بالقرب من بجاية[2]. ويظهر من هذه الوقائع أن ابن تومرت لم يكن يخطط، منذ رجوعه من المشرق، للإطاحة بالدولة المرابطية، على عكس ما تحاول المصادر أن توهمنا به، من خلال ما تردده عن لقائه بالغزالي الذي دعا بتمزيق دولة المرابطين وزوال ملكهم على يد ابن تومرت عندما وصله خبر إحراق كتابه، أو من خلال عثوره على كتاب الجفر والملاحم السرية التي وجد فيها قدره ومصيره لتكوين دولة؛ أو ما ذهب إليه البيدق، حين يذكر عددا من تنبؤات ابن تومرت، مثل مواساة ابن تومرت لعبد الواحد الشرقي الذي كانت له بغلة حين أمره بأن يركب عليها عبد المومن "قد يجازيك عليها بالقصور المشيدة، والجواري المزينة، والخيول المسومة[3]". أو إعطاء ابن تومرت خط يده لزطاطين أجازا به وأصحابه، الأول قرب شليف، الثاني قرب بجاية. وأبناء هذا الأخير هم فتيان بجاية[4] الذين أعطاهم عبد المومن أموالا وإقطاعا ضخما[5]. ومثل ما كان يوصي به ابن تومرت عبد المومن من التركيز على بعض الأماكن التي ستشهد حروبا حاسمة في عهد عبد المومن، مثل منطقة على وادي أمليل من غياثة، وفج النساء بين دشر قلال والمقرمدة[6]. ولا يخفى أن هذه وقائع موضوعة من طرف بني عبد المومن لتبرير استيلائهم على السلطة بعد ذلك.

ما هو نشاط ابن تومرت، خلال هذه المدة (514-518 هـ/1125-1129م)، كشيخ لرباط العباد الذي بناه بهرغة[7]؟

---

(1) - المراكشي، **المعجب**... م.س. ص274. ابن الخطيب، المغرب العربي في العصر الوسيط، القسم الثالث من كتاب **أعمال الأعلام**، دار الكتاب، الدار البيضاء1964 ، ص 268 . وما بعدها.

(2) - الناصري، **الاستقصا**...م.س ج 2 ص89 .. ابن خلدون، **كتاب العبر**... م.س ج 6 ص227 .. البيدق، **أخبار المهدي** ... م. س. ص 13 - 14. يسميهم بني عبد العزيز.

(3) - البيدق، **أخبار المهدي** ...م.س. ص.18.

(4) - **نفسه**، ص19 ,20 ,21 . من الذين ناقشوا هذه مسألة تخطيط ابن تومرت للثورة، النجار، المهدي بن تومرت ...ص109 - 112. محمد عبدالله عنان، **عصر المرابطين والموحدين**... ج 1.ص.176 .

(5) - ابن عذاري، **البيان المغرب**...م.س. ق. الموحدين ص.80- 81 .

(6) - البيدق، **أخبار المهدي** ... ص.22.

(7) - الناصري، **الاستقصا**...م.س ج 2 ، ص83 .. ابن خلدون، كتاب العبر... م. س ج 6، ص227.. محمد عبدالله عنان، **عصر المرابطين والموحدين**...م.س ج1، ص. 177- 185.

نرجع أن تكون رابطة ونسري موجودة في جبل إيجليز بقرية تعرف حاليا، بتفكيت بهرغة[1] ، وفي موقع منيع "لأنه مكان لا يصل إليه أحد إلا من طريق لا يسلكها إلا راكب بعد راكب يسد خللها أقل عصبة من الناس لما فيها من التوعر"[2] . وفي رباط هذا الحصن انهال المصامدة على ابن تومرت، من كل حدب وصوب. وتركز نشاطه في هذا الرباط على قضيتين أساسيتين، هما : التعليم والتربية، والأمر بالمعروف والجهاد على ذلك، والدعوة إذ كان يرسل أتباعه إلى القبائل المصمودية[3] .

كان أول ما شرع فيه، عندما أسس رابطة العباد بهرغة المعروفة برابطة وانسري، هو التربية وتعليم أركان الإسلام والدعوة لعبادة الله، كما في باقي الرباطات، مع اختلاف واحد هو التركيز على مبدأ التوحيد، إذ "كان أول ما دبر بهم أمرهم أنه ألف لهم كتابا سماه التوحيد باللسان البربري، وهو سبعة أحزاب" على أيام الأسبوع يقرؤونه، بعد صلاة الصبح مع حزب من القرآن[4]. وقد أصبح هذا التوحيد عند المصامدة كالقرآن العزيز[5]. كما لا تختلف طريقة التربية برباط هرغة خلال ثلاث (سنوات 515ـ 518 هـ) كثيرا عما شاهدناه في رباط عبد الله بن ياسين إلا في تشددها وصرامتها الزائدين، وفي بعض الجزئيات الأخرى، إذ لم يكتف ابن تومرت بوضع قوانين متشددة وعقوبات زجرية صارمة لمن خالفها، كتلك التي وضعها عبد الله بن ياسين من الضرب والتعزير بالسياط فقط، بل فرض القتل في 18 مخالفة، منها الكذب ومنها المداهنة على الأقارب أو الأصدقاء، ومنها ترك امتثال الأوامر، ومن تخلف عن الحضور أدب بالضرب بالسياط مرة ومرتين، وفي الثالثة يقتل، في حين لم يفرض سابقه ابن ياسين القتل إلا في قضية واحدة فقط.

وكان يشترط بدوره على المنخرط أن يتوب عن أفعاله السابقة، كما لدى عبد الله بن ياسين في رباطه، ووضع ابن تومرت مقالة في موضوع التوبة وشروطها[6]. ولم يكتف لترسيخ قواعد الدين الإسلامي بالوعظ والتذكير، بل وضع مؤلفات تربوية سهلة بالعربية

---

(1) - عن هذه القرية التاسافتي، **رحلة الوافد** ... م.س .ص186.. ويدعى أهل القرية الآن أنهم شرفاء قدموا من نواحي سيدي بوعثمان الحالية ربما يقصدون السراغنة، ولهذا المكان علاقة بلقب اسرغنن دون شك .

(2) - مجهول، الحلل الموشية ... م. س. ص 102 . ابن القطان، نظم الجمان...م.س ص82-84 ،85-86 ،91 . محمد عبدالله عنان، **عصر المرابطين والموحدين**...م.س ق 1ص. 178 .

(3) - البيدق، **أخبار المهدي**...م.س .ص 94.

(4) - ابن القطان، **نظم الجمان**...م.س .ص26-27,، 127 الناصري، **الاستقصا** ...م.س.ج 2 ص83 . مجهول، **الحلل الموشية**...م.س .ص109 النجار. 124 -125.

(5) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**...م.س .ص177، الناصري، **الاستقصا** ... م.س ج 2 .ص90.

(6) - انظر تحليل النجار لمعنى التوبة عند ابن تومرت، **المهدي بن تومرت**... ص261 .. وانظر البيدق، **أخبار المهدي**...م.س .ص 12 كيف استتاب سارقا في قسنطينة وبين له شروط التوبة. عن التثويب الحسيسن عبد الهادي، **مظاهر النهضة الحديثية**...م.س.ص 167 نقلا عن الشاطبي.

والأمازيغية لأتباعه ودرسها بالأمازيغية، وزاد على ذلك بأن جعل على أصحابه وظيفا يوميا يتمثل في قراءة حزب من القرآن، وحزب من التوحيد، بعد صلاة الفجر وبعد صلاة العشاء، سواء في حلهم أو في ترحالهم. وقد عمم الموحدون هذه الظاهرة الفريدة في العالم الإسلامي بفرضها على مجموع الغرب الإسلامي، وهكذا أحدث ابن تومرت الوظيف، مثل الوظيف المعروف في الطرق الصوفية، ابتداء من أبي محمد صالح الماجري، في النصف الأول من القرن7 هـ/13م .وكان أتباعه يرددون الأذكار منها "الإكثار من ذكر الله، وقول لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم"، كما حدث في الغزوة الثانية للمهدي، سنة518 هـ/ 1125م[1]. أما طريقته تعليمه للراشدين فمبتكرة وتنم عن بيداغوجية أصيلة[2]، وربى أصحابه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى الانضباط للأوامر، وعلى الطاعة المطلقة للشيخ كما لدى عبد الله بن ياسين[3]، بل وصل الأمر بأتباعه إلى أنهم كانوا "يستحيون من رفع رؤوسهم نحوه حتى يأمرهم"[4] ، ولو أمرهم بقتل أقاربهم لفعلوا دون تردد، كما لدى أتباع عبد الله بن ياسين . وستتعزز هذه الطاعة المطلقة أكثر في تينمل، حين سيصبح ابن تومرت إماما معصوما ومهديا لاتناقش قراراته و لا تقبل النقد، وإلا تعرض المنتقد أو المتشكك للقتل، مثل الشيخ الأفريقي من أهل العشرة الذي قتل وصلب حين أنكر على المهدي قتل أهل تينمل، سنة519 هـ[5] . كما أخذهم بالتقشف والزهد في حياتهم، "والاقتصار على القصير من الثياب القليل الثمن"[6] ، ونهاهم عن التخاطف فيما بينهم على الدنيا[7] . كما رباهم على الأخوة الصوفية، وكان أتباعه يسمي بعضهم البعض بالأخ، مثل قول المهدي لعبد الواحد الشرقي الذي كانت له بغلة "ركب أخاك وامش" يقصد عبد المومن، ومثل مخاطبة إسماعيل إكَيكَ المريد يللتن بكلمة "يا أخي" برباط الغار في هرغة[8]. وبعد استقراره بمدينة تينمل آخى بين أتباعه، ومنع عليهم الاقتتال بينهم[9]. هكذا يظهر أن رباط هرغة كان أكثر تشددا من رباط عبد الله بن ياسين في عقوباته

---

(1) - البيدق، **أخبار المهدي**...م. س. ص.35 .
(2) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**...م. س. ص177 ، الناصري، **الاستقصا**...م س ج 2 ص90
(3) - ابن القطان، **نظم الجمان**... م. س . ص.84 .
(4) - المراكشي، **المعجب**... م س. ص 280 -281.
(5) - ابن القطان، **نظم الجمان** ...م س .ص97 ،، النجار، **المهدي بن تومرت**... م. س.ص. 126 -127 .
(6) - ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**... م. س 8 ص 296.
(7) - البيدق، **أخبار المهدي**...م س. ص.41.
(8) - **نفسه**، ص18.,33، انظر عن عقد المؤاخاة بين الأفراد والقبائل ابن القطان، **نظم الجمان**... م س. ص97، الناصري، **الاستقصا**...م. س. ص 80 ، النجار، المهدي بن تومرت... م. س. ص 127.
(9) - المراكشي، المعجب... م. س. ص281 ،، النجار، **المهدي بن تومرت** ...م. س. ص.126.

الزجرية، والمخالفة للشرع في نظر بعض الفقهاء، لأنها سفك للدماء من غير مبرر شرعي[1].

يمكن، على ضوء السياق التاريخي المتقدم، فهم محتويات كتاب "أعز ما يطلب" فهما تاريخيا، إذ نجد فيه من التعاليم والمبادئ التي نجدها في الرباط من الحرص على تعليم أركان الإسلام .وما التوحيد إلا تفصيل وتركيز على أول تلك الأركان، وهي الشهادة على وحدانية الخالق، كما أفرد فصلا للصلاة، وآخر للطهارة، وثالثا لتحريم الخمر، وخصص قسما منه للمواعظ والأقوال المأثورة في الجنة والنار، ثم الدعاء والابتهال، وأنهاه بباب الجهاد[2]. يمكن مما تقدم اعتبار ابن تومرت من الرواد الأوائل للطرقية والطوائف الصوفية التي شهدتها بلاد المصامدة والمغرب، بعد القرن12 م، ويعزز هذا تردد كلمتي الطائفة والحزب في المعجم اللغوي لابن تومرت وفي المصادر[3].

خلق ظهور هذا الرباط بهرغة دينامية دينية وسياسية في المنطقة، إذ أقبل إليه المصامدة من كل حدب وصوب. يقول ابن القطان عن ابن تومرت في هذه المرحلة "أقام بجبل إيجليز ثلاثة أعوام يدرس العلم ويهاجر إليه السعداء ويعلم المهاجرين ويخاطب القبائل"[4]. أقلق تزايد أتباع الرباط المرابطين لما يمكن أن يترتب عليه من مضاعفات سياسية، خصوصا وأنه يدعو إلى العلوم التي حاربها حلفاؤهم من الفقهاء الأندلسيين، كأصول الدين وأصول الفقه، فكان عليهم أن يواجهوا نشاط هذا الرباط والتضييق عليه . لكن، خلال السنة الأولى، لم تقع حرب بين المرابطين وأنصار رباط هرغة لأن الأمير علي بن يوسف اضطر للعبور للأندلس، أوائل تلك السنة، لتسوية المشاكل الناجمة عن الثورة التي قامت بقرطبة[5] ، وعندما رجع احتال في القبض عليه بواسطة عامله على السوس أبي بكر اللمتوني[6] ، ولما فشلت المحاولة شنوا عليه الحرب، سنة 516 هـ/1123م، حينما هجم عامل السوس على قبيلة وارتانك المناصرة لابن تومرت، وهي بطن من بطون ما سيصبح قبيلة تينمل فيما بعد، فأسروا 100 رجل، منهم أبو الحسن بن يكوت الذي سيصبح

---

(1) - ابن القطان، **نظم الجمان**...م. س. ص26-29، الشاطبي أبو إسحاق اللخمي، **الاعتصام**، تحقيق محمد رشيد رضا. ط المكتبة التجارية الكبرى -مصر ص.205-206 .

(2) - النجار، **المهدي بن تومرت**... م.س .ص149-156 ، محمد عبد الله عنان، **عصر المرابطين والموحدين**... م.س ج 1.ص 210-215.

(3) - البيدق، **كتاب المقتبس**...م.س .ص42.25.

(4) - ابن القطان، **نظم الجمان**...م.س .ص74,23.

(5) - محمد عبد الله عنان، **عصر المرابطين والموحدين**...م.س ق 1ص 81 -85 . والمصادر التي اعتمدها.

(6) - مجهول، **الحلل الموشية**...م.س . ص102 . ابن خلدون، **كتاب العبر**... م.س ج 6. ص.228 .

من أهل الخمسين، فسجنوا في حصن تيونوين قرب تارودانت. كما شنوا عليهم هجوما آخر على وادي الملت بهرغة[1]. وفي نفس السنة، حاصروا ابن تومرت في قلعة إيكَليز التي حصنتها هرغة وآوت فيها زعيمها الديني، وطال الحصار "فمنعوا عنهم الميرة فقلت عند أصحاب المهدي الأقوات حتى صار الخبز معدوما عندهم"[2]. ولشدة الحصار المضروب عليهم هم ابن تومرت أن يسلم نفسه للمرابطين، حسب ابن خلكان والنويري، ولم ينقذهم إلا قبيلة هنتاتة التي فكت عنهم هذا الحصار. وبما أن هذا الحصن لم يكن يوفر الحماية اللازمة، لقلة الماء فيه على ما يبدو، انتقل ابن تومرت وأتباعه إلى تينمل بجبل درن بدعوة من قبيلة هزميرة، سنة518 هـ/1125م، وحاول المرابطون اعتراض طريقهم عند عبور سهل السوس إلى جبل درن، لكن المحاولة باءت بالفشل[3]. وفي تينمل ستبدأ مرحلة أخرى من نشاط ابن تومرت بإعلان الثورة على المرابطين. فلماذا هذا التحول؟

يلاحظ أن العصبية المرابطية والفقهاء قد حادوا عن أهداف حركة رباط عبد الله بن ياسين، كما كان يتخوف منه زعيم قبيلة كدالة، حين عرض عليه عبد الله بن ياسين أن يكون أميرا عليها "لو فعلت هذا لتسلطت قبيلتي على الناس ولعاثوا في الصحراء[4] ، وابتعدت عن الخط المذهبي كما صاغه عبد الله بن ياسين وكما تبلور في لرباطات السوسية، فجاءت الحركة التصحيحية من نفس المكان. بالطبع، هناك عوامل أخرى اجتماعية وسياسية وراء ثورة ابن تومرت فصلها الأستاذ محمد زنيبر[5]. وبالإضافة إلى ذلك تبين لابن تومرت عدم فعالية العمل بوسائل الرباط المحدودة، خلال تجربة دامت أكثر من سبع سنوات منذ إنشاء رباط ملالة. ومن جهة ثانية، فقد تزايد ضغط وحصار المرابطين عليه مما اضطره إلى الانتقال إلى حصن أمنع من حصن مسقط رأسه ايجليز وهو تينمل بدعوة من قبيلة هزميرة، سنة 518 هـ/1125م، في وقت تزايد فيه عدد أتباعه من القبائل المصمودية، خاصة بعد الهزائم التي مني بها الجيش المرابطي بقيادة عامل سوس. ثم إن ظهور الرباط في هرغة جعل المصامدة ينقسمون بشأنه، ففريق منهم يسانده وهم مصامدة الجبل، وفريق آخر يساند المرابطين وهم مصامدة السهل، ووقعت

(1) - ابن القطان، **نظم الجمان**...م. س. ص74,23 .81.
(2) - ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**... م س .ص.573 -574 .
(3) - عن تفاصيل هذه المعارك والأحداث راجع ابن القطان، **نظم الجمان** :.. م. س. ص.81-91.
(4) - النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**... م س. ص.378 .
(5) - زنيبر محمد، **المغرب في العصر الوسيط**..ص.115-129 .

حروب بين الفريقين طيلة ثلاث سنوات[1]، وتمنع من كان تابعا للرباط عن أداء ما كانوا يؤدونه لعلي بن يوسف[2] ، فتحول الرباط من وظيفته الدينية إلى تنظيم سياسي يسعى للسلطة.

2 – ابن تومرت إمام طائفة التوحيد بتينمل (518-524هـ/1125– 1130م):

تم الإعداد والتخطيط لهذه القفزة النوعية بنصب الدعوة وتوفير ظروف نجاحها[3] ، وذلك حين اعتنى ابن تومرت بالأخص بشرح نظرية المهدي المنتظر والإمام المعصوم عندما استقر في تينمل، وذكر ما ورد فيها من الأحاديث والأقوال المأثورة خاصة حديث أبي داوود[4] وبعث دعاته إلى القبائل المصمودية يمهدون لتلك الدعوة ويبشرون بقرب ظهور المهدي الذي يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما، وحدد زمانه، على رأس المائة السادسة، ومكانه بالمغرب الأقصى، ومن صفاته أن له اسما كاسم الرسول(ص)، وله نسب شريف. وعندما تيقن أن دعايته قد أتت أكلها لأن الفكرة كانت منتشرة من قبل، قرر في يوم 15 رمضان من سنة518 هـ/1125م، أن يلقي خطبة قصيرة يعلن فيها ظهور ذلك المهدي المذكور الذي توفر فيه الصفات السابقة[5]. وبعد هذه الخطبة القصيرة سارع عشرة من أصحابه إلى مبايعته على هذه الصفة والمعتقد وتبعهم بقية الموحدين على ترتيب خاص اعتمادا على معايير ستأتي لاحلاقا (وهو ما سيصبح طبقات الموحدين). ثم شرع في وضع أسس نواة دولة ببيت مالها وبجيشها ورموز سيادتها من الطبول والبنود، أي تكوين الجهاز المخزني الموحدي. وعوض الاكتفاء بجهاد المريدين والمتطوعين أو باتخاذ الموقف الدفاعي، كما كان الشأن في رباط هرغة، انتقل ابن تومرت إلى موقف هجومي؛ وشرع في حرب منظمة مع المرابطين . وقد أحصى البيدق 9 غزوات قادها بنفسه، وكانت كلها ضد المرابطين والقبائل الخاضعة لهم، إلا الغزوة السابعة التي كانت ضد هسكورة لتخلفها عن بيعته[6].

---

(1) – ابن القطان، **نظم الجمان**... م. س . ص.81 - 94 .

(2) – **نفسه**، ص.86.

(3) – المراكشي، **المعجب**...م.س .ص 274-275. زنيبرمحمد، **المغرب في العصر الوسيط** ...م.س. ص169 .، محمد عبد الله عنان، **عصر المرابطين والموحدين**...م. س. ج 1.ص.173 .

(4) – البيدق، **آخبار المهدي**...م.س .ص17 .. ابن خلدون، **المقدمة**... م. س. ص. 555 - 578 .

(5) – ابن القطان، **نظم الجمان**...م.س .ص75 -76 .. المراكشي، **المعجب**...م. س. ص 274 -275 .. مجهول، **الحلل الموشية**... م. س. ص 107. النجار، المهدي ابن تومرت...م.س .ص.115 .

(6) – البيدق، أخبار المهدي... م. س. ص 35–39 .. محمد عبد الله عنان، **عصر المرابطين والموحدين**...ق 1ص180 ، وقد التبس أمر هذه الغزوات التي انطلقت في تينمل على أغلب الباحثين مع حروب السوس في رباط هرغة، ومنهم محمد عبد الله عنان، انظر نفس المرجع والصفحة.

بما أن هذه الخطوة التي أقدم عليها، بتينمل، سنة518 هـ/1125م، كانت خطوة سياسية، فقد اقتضت منه أن يتبنى عناصر سياسية ويضيفها لمذهبه وهي الإمامة والعصمة. رغم أن المعلومات، عن نشاطه في هذه المرحلة، قليلة لا تساعد على توضيح ملابسات هذا التحول، ولكن يمكن إرجاعها لثلاث أسباب:

▪ لم يألف الوسط المصمودي، إلى ذلك الحين، الخضوع لسلطة مركزية واستبدادية، فكانت فكرة المهدوية والعصمة من أنجع وسائل ضمان الخضوع لسلطة مطلقة لا تناقش قراراتها.

▪ انتشار الفكرة بالمنطقة، منذ عهود سحيقة، كما سبق ذكره، لأن فكرة المهدوية تحيل على أمل التغيير والإصلاح، وتمثل شعارا سياسيا براقا وجذابا يعد بحل للمشاكل السياسية والاجتماعية التي يعاني منها الناس[1]. وساهم المتصوفة في ترسيخ الفكرة لأنهم يعتقدون بدورهم في ظهور "رجل مجدد لأحكام الملة ومراسم الحق" قد يكون من ولد فاطمة[2] . ومن المؤكد أيضا، أن الفكر السياسي الإسلامي ساهم بشكل واضح في انتشار الاعتقاد بظهور المهدي المنتظر، وتجد هذه الثقافة المهدوية أسسها في جملة من الأحاديث المنسوبة للرسول.

▪ علاقة المهدوية والعصمة الوطيدة بالمشيخة الصوفية[3]. إن قضية العصمة من الخطأ التي ادعاها ابن تومرت ليست غريبة عن الوسط الصوفي، إذ إن الأخطاء التي يقع فيها بعض المتصوفة ينظر إليها المريدون على أنها الحقيقة التي لا ينبغي مناقشتها، مثل صلاة الصالح أبو الفضل النحوي المغرب قبل آذانها[4]؛ وقد سبق ذكر الطاعة المطلقة للمرابطين لعبد الله بن ياسين وطاعة المصامدة لابن تومرت[5]. ولم يكن ابن تومرت الصوفي الوحيد من بين المتصوفة الذين تحولوا من الولاية إلى الإمامة، فهناك الرعيني بمدينة المرية في الأندلس الذي ما لبث أن أصبح عند أتباعه "إماما واجبة طاعته، يؤدون إليه زكاة أموالهم"، وكذلك ابن قسي سنة539 هـ /1145م بالأندلس[6].

---

(1) - ابن خلدون، **المقدمة**...م.س. ص.555 - 578.
(2) - **نفسه**، ص 572. وما قبلها.
(3) - العروي، **مجمل تاريخ المغرب**...م.س ج 2 ص148.. بيل الفرد، **الفرق الإسلامية**... م.س. ص392. . مصطفى بنسباع، **السلطة بين التسنن والتشيع والتصوف**...م.س. ص .95-109.
(4) - ابن الزيات التادلي، **التشوف**...م.س. ص.98 .
(5) - عبد الواحد المراكشي، **المعجب**... م.س. ص.281 .
(6) - عبد المجيد الصغير، «التصوف المغربي والتصوف الأندلسي... » م.س. ص17 - 18.. وانظر مصادره ومراجعه .

وبما أن إعلان المهدوية والعصمة تم، في ظرفية سياسية خاصة لا علاقة لها بمذهب ابن تومرت السابق، سيكون إلغاء هذين العنصرين مؤقتا، بقرار سياسي كذلك، سنة 627هـ/1230م، من طرف المأمون[1].

هكذا تكونت طائفة دينية وأسست نواة دولة جديدة بتينمل، واكتمل مذهبها الديني بشقيه المذهبي والسياسي، فما هي بصمات هذا المذهب على الدولة؟ وما هو تأثيره عليها وعلى سياستها؟ هل سينجح المذهب التومرتي في حل المعضلة الاجتماعية التي عرفها المغرب في ظل الكيانات الإسلامية السابقة والمتمثلة في جور وتعسف الحكام على الرعية، وفي الفساد الديني والأخلاقي للحكام الذين كانوا ينعتون بالجبابرة؟

III - بعض مظاهر الصلاح في الدولة الموحدية :

حرص المهدي على طبع الكيان السياسي الذي أسسه بتينمل، سنة518 هـ/1125م، بالطابع الديني التصوفي كما عرفه في بيئة الرباطات السوسية. ويتجلى ذلك في موقف الدولة من كتب الفقه وتدريسه، وفي نظمها وتنظيماتها، وبالأخص في تقاليد الحركة العسكرية وفي الزهد. وبعبارة أخرى، حاولت الدولة الموحدية أن تقوم بالوظائف التي كان يقوم بها الرباط وجل المتصوفة ببلاد المصامدة من تعليم لسكان إمبراطوريتها بمختلف شرائحهم الاجتماعية، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وحمل الناس على أداء الشعائر الدينية وإجبارهم على أداء الصلاة في وقتها، والقيام بالجهاد. وهذه بعض المظاهر الدينية في الدولة الموحدية.

1-العادات الدينية في نظم الدولة :

يتجلى الطابع الديني للدولة الموحدية في العادات الخاصة بالحركة العسكرية، إذ يفتتح الاستعداد لها بعادة زيارة الخليفة، برفقة أعيان الموحدين، لقبر المهدي قصد التبرك به قبيل انطلاق الحركة. وهناك كانت تعقد الأعلام لفرق الجيش[2]، ومنها عادة جمع الأحاديث الواردة في فضل الجهاد وتحفظيها للموحدين، كما حدث في عهد يوسف[3]. أما العوائد الدينية أثناء تنقل الحركة، فمنها:

---

(1) - انظر الفصل الأخير عن ملابسات وظرفية إلغائه من طرف المأمون ص319

(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ...ق .الموحدين، م.س. ص.407.

(3) - المراكشي، **المعجب** ...م.س. ص.369.

عادة نداء البراح الذي ينبئ بانطلاق المحلة بقوله :"**الاستعانة بالله والتوكل عليه**" وهي عبارة تحيل على التواكل كما لدى المتصوفة. ومنها تدشين الرحلة اليومية وختمها بدعاء الخليفة شخصيا للمسلمين والوزير يؤمن. والعادة الثالثة المهمة هي قراءة حزب قرآني، أثناء سير الحركة، مع شيء من الحديث وتأليف المهدي في العقائد باللغتين العربية والأمازيغية ويسهر على ذلك 50 من طلبة الموحدين. والعادة الرابعة هي، التبرك بتقديم مصحف عثمان أمام موكب الحركة وهو موضوع في أغشية من الفضة والذهب والحرير المزخرف بأنواع الجواهر والياقوت ومحمول على هودج على جمل أبيض ومعه أعلام ملونة، ويليه موطأ المهدي على ظهر بغل أبيض، ثم أضيفت في أواخر الدولة على عهد المرتضى بقية الكتب الحديثية الصحيحة الستة[1]. وأخيرا الحرص على أداء الصلوات تقصيرا في السفر وتطويلا عند التوقف في الحضر، ولا يسمحون لأحد بالتخلف عن صلاة الجماعة، مما يظهر مرة أخرى حرصهم الشديد على الانضباط. وإذا اجتمعت المحلة في مكان واحد تصلي بإمام واحد[2] ، بل إنهم كانوا لا يعطلون ولا يؤخرون الصلاة عن وقتها حتى أثناء بعض معاركهم أحيانا[3].

هكذا تصبح الحركة أداة للتربية الدينية والإعداد النفسي للمجاهدين، أي أننا أمام رباط متنقل، كما تتحول إلى مناسبة لإبراز أيديولوجية الدولة من خلال استعراض بعض رموزها. فقد علق ابن عبد المالك المراكشي على موكب الحركة، كما شاهدها في طفولته، على عهد المرتضى وأبي دبوس، آخر خلفاء بني عبد المومن، والتي يتقدمها العلم الأبيض والمصحف المذكور، قائلا: "وكأن لسان حال هذه الهيئة يقول: إن هذه الراية منذرة بإطلال صاحبها على مقصوده، وأنه داع إلى ما **يقتضيه الكتاب والسنة**، فمن أطاعه كان مسالما له، ومن عصاه حاربه بهذا الجيش الذي هو من حزبه[4]". ويظهر الطابع الصوفي كذلك، في استعمال مصطلحات المتصوفة في لغتها الإدارية، مثل إطلاق مصطلح "البركة" الصوفية على العطاء النقدي للجند بدل مصطلح الراتب أو الجامكية المتداول لدى الدول الأخرى، وإطلاق مصطلحي الإحسان والمواساة على أنواع أخرى من

---

(1) - ابن القطان، نظم الجمان... م.س. ص127 - 128 .. مجهول، **الحلل الموشية**...م.س. ص 152 - 153 .. المراكشي، **المعجب**... م.س. ص 484 - 485.

(2) - التجاني، **رحلة التجاني**، م.س. ص. 346.

(3) - ابن القطان، **نظم الجمان**... م.س. ص.121.

(4) - ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**...م. س. س 1 ص169 .. ابن مرزوق التلمساني محمد بن أحمد781 هـ/1379م، **المسند الصحيح في مآثر مولانا أبي الحسن**، تحقيق د. ماريا خيسوس بيغيرا. الجزائر 1981ص.436 .

العطاء[1]، أو مصطلح الهجرة على الانضمام للحركة، والارتداد عن معارضتها، وإطلاق التمييز على الاستعراض العسكري إلى غير ذلك. كما رمزوا للجهاد في مبانيهم بكتابة الآيات القرآنية على باب القصبة الشرقي للرباط "يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله"، إلى قوله وبشر المؤمنين، كما نقشت صورة سيفين عظيمين مسلطة رؤوسيهما إلى السماء على إحدى نوافذ صومعة حسان من جهة البحر كرمز للاستعداد للجهاد[2].

2- الزهد والتقشف :

أما الزهد فقد ظهر في محاربة الموحدين لكل مظاهر الترف والبذخ، في بناياتهم الأولى، من مساجد وحصون. فقد اضطر فقهاء فاس وأشياخها لستر الزخارف المنقوشة بالذهب واللازورد التي كانت تزين محراب مسجد القرويين بالجص، وذلك قبيل دخول عبد المومن للمدينة، سنة541 هـ/1147م، خوفا من أن ينتقد عليهم الموحدون ذلك النقش والزخرف "لأنهم قاموا بالتقلل والتقشف[3]". ولم يحتفظوا من الآلات الموسيقية التي كانت تستخدمها الجيوش الوسيطية إلا بالطبول، ولم تنفق لديهم الموسيقى، حسب أبي بكر بن طفيل الذي كان يأخذ الجامكية مع عدة أصناف من الخدمة من مهندسين وأطباء وشعراء وأجناد وغيرهم، وكان يقول :"لو نفق عندهم علم الموسيقى لأنفقته عندهم"[4]. ونعلم كذلك أن المنصور حارب القيان والمغنيين، لأول ولايته، وحذر السادات والأشياخ " من الطبل فإنه مما يخفف الأدمغة ويُحَوّلُ العقول"[5]، يقصد بذلك أحواش المعروف عند المصامدة. ولم يستعمل الموحدون الملابس المطرزة بالحرير "لما كانوا عليه من منازع الديانة والسذاجة التي لقنوها عن إمامهم محمد بن تومرت المهدي، وكانوا يتورعون عن لباس الحرير والذهب"[6]، ولم يتخذوا دار الطراز في أول أمرهم، كالدول الوسيطية الأخرى، بل إن يعقوب المنصور كان لباسه من الصوف[7]. والاستثناء الوحيد الذي تساهل

---

(1) - راجع عن أنواع العطاء في العهد الموحدي. الفصل الرابع ص 187- 195.
(2) - المنوني، **العلوم والآداب**... م. س. ص.13 .
(3) - ابن آبي زرع، **الأنيس المطرب**... م. س. ص 26 -62.
(4) - المراكشي عبد الواحد، **المعجب**..م س ص350.، المنوني، **العلوم والآداب**... م. س.. ص.238.
(5) - ابن عذاري، **البيان المغرب**..ق الموحدين م. س. ص 174 ,231.
(6) - ابن خلدون، **المقدمة** ..م. س. ص. 473-472 .
(7) - الناصري، **الاستقصا**..م. س ج 2. ص. 193 .

الموحدون في تزيينه وزخرفته هو مصحف عثمان الذي يجعلونه في مقدمة حركتهم، إذ بالغوا في ترصيعه بذخائر من الياقوت والجوهر وثياب الديباج الفاخرة[1].

3 - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

قامت به الدولة الموحدية من خلال رسائل تكاد تكون دورية يصدرها الخلفاء، وترسل إلى كل الأقاليم وتقرأ على الناس في المساجد بالمدن، وتحضر لسماعها القبائل، وأولها رسالة الفصول التي أصدرها عبد المومن،16 ربيع الأول سنة 543 هـ، من مدينة تينمل،[2] وتتضمن التنديد ببعض العمال ممن لا يخافون الله ويتسلطون على الأموال والأبشار، حسب أهوائهم، ضاربين بأحكام الشرع عرض الحائط، ويبتدعون مظالم شنيعة من قتل للمسلمين ومن استباحة لأموالهم، وضربهم بالسياط لابتزازهم وأخذ أموالهم. وتوعد عبد المومن هؤلاء بالعقاب، وفصلت الرسالة في أمر المغارم والمكوس والقبالات وتحجير المراسي، وابتزاز أموال المسافرين والتجار وغيرها من المظالم المنتشرة والمناقضة لمبادئ الدولة الموحدية، وأمر أشياخ الموحدين أن لا يعتمدوا على غيرهم في تسيير شؤون ولاياتهم، ومنع قتل الناس إلا بعد الحصول على إذن من الخليفة. وأشارت الرسالة كذلك، إلى انتشار بعض المنكرات منها بيع الإماء من غير استبراء، فأصدر تعليمات لتفادي هذه الظاهرة. كما أمر بالاجتهاد في إراقة الخمر وكسر دنانها، وبمراقبة أماكن صناعة الرب واعتصاره، وأن لا يسمح ببيع إلا ما هو حلال شرعا منها. وتوقفت الرسالة عند تعسفات الرقاصين على الرعية وتكليفها مؤونتهم وعلف دوابهم، وأمر بقطع هده العادة الذميمة، ونبهت الرسالة في الأخير إلى امتداد أيدي بعض المسؤولين لأموال المخزن والعبث بها والتعدي عليها، وأمر بعدم التصرف في تلك الأموال إلا بعد أخذ إذنه، وأمر باتباع وتنفيذ التعليمات التي تتضمنها هذه الرسالة.

علق ابن عذاري على هذه الرسالة بأنها جمعت قوانين العدل والفضل والسياسة والرئاسة، فكانت حجة بأيدي الناس، ومؤمنة لهم من البأس. وفعلا شجعت تلك الرسالة الناس على التظلم من الأضرار التي تلحقهم من المسؤولين الإقليميين. وقد سار خلفاؤه على نهجه هذا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأصدر يوسف العسري، في 13 رمضان 561 هـ/1160م، رسالة مماثلة لها نفس المحتوى تقريبا [3] ، وذلك بمناسبة كتابة

---

(1) - عن تاريخ هذا المصحف وزخرفته، راجع المراكشي. **المعجب**... م. س. ص366 -367. الناصري. **الاستقصا**...م.س ج 2 ص.121 .

(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب**...م.س ق .الموحدين ص37.. عزاوي، **رسائل موحدية جديدة**...م.س61-71.

(3) - الناصري. **الاستقصا**...م.س ج2، ص.193 .

علامته. وكتب المستنصر، سنة 617 هـ/1221م، رسالة أمر فيها بأخذ الناس بإقامة الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمحافظة على الصلاة وصلاة الجماعة، وإلزامهم بقراءة التوحيد وسائر الشعائر الدينية، كما فعل جده عبد المومن ويوسف[1]. وأصدر المأمون، سنة 626 هـ/ 1229م، رسائل مشابهة، إذ خطب، أول أمره، "صادعا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحض على الصلوات وإيتاء الزكاة وإيتاء الصدقات والنهي عن شرب الخمر والمسكرات..."[2]، وقد ورثت الدول اللاحقة هذه العادة، كما فعل المولى الحسن حين أصدر الرسالة القرنية مثلا[3]، ونعلم كذلك أن الموحدين قد قتلوا تارك الصلاة.

4 - تأثير المذهب التومرتي على سياسة الدولة و بعض رجالاتها :

يتجلى تأثير المذهب على سياسة الدولة الموحدية في أمرين هامين: الأمر الأول هو سياسة الجهاد ضد المسيحيين، إذ نسب ليعقوب المنصور رغبته في جعل الأندلس دار إسلام، ورغبته في تطهير مصر وتشدد الموحدين تجاه اليهود، أول الأمر، وهي مسائل معروفة[4]. ويتجلى هذا الطابع كذلك في بناء الرباطات، كرباط تازة، ورباط الفتح.

الأمر الثاني، هو السياسة الاجتماعية الداخلية للدولة. فالذي كان يقسم الموحدين إلى اتجاهات وأحزاب سياسية هو المسألة الدينية نفسها ومدى تطبيق الدين في سياسة الدولة، ظهر ذلك في عدة مناسبات، منها: مناسبة خلع محمد بن عبد المومن من ولاية العهد والخلافة، سنة 558 هـ/1163م، إذ كان عدم تدينه وإدمانه على تناول الخمر من أسباب عزله[5].

وظهر ذلك بعد وفاة المستنصر، سنة620 هـ/1224م، حين اجتمع أهل الحل والعقد للتشاور فيمن يقلدونه الأمر، وانحصرت الاقتراحات في ترشيح أميرين، فريق يقترح ترشيح الأمير أبي محمد عبد الواحد، وكان مشهورا بحزمه وصلاحه، رغم كبره، وأشار الفريق الآخر بتقديم أبي محمد بن عبد الله الذي سيعرف بالعادل فيما بعد، وكان يرمى بالميل إلى البطالة وإيثار الشهوات والإخلاد إلى الراحات .وكان ابن القطان حاضرا في ذلك المجلس وأنشد متمثلا ومنبها على الفرق بين الرجلين :

---

(1) - ابن عذاري، **البيان المغرب**...م س ق. الموحدين ص94.. ابن صاحب الصلاة، **المن بالامامة**...م س .ص.225 - 226.

(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب**...م س ق .الموحدين ص.265.

(3) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**... م س .ص253.. الناصري، **الاستقصا**...م س ج 2 ص232.. ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**. تحقيق محمد عبد الله عنان، من 4 أجزاء، القاهرة، المجلد الأول ص412 - 413 .

(4) - التوفيق أحمد، **المجتمع المغربي**... م س .ص478.. انظر هذه الرسالة في **الإتحاف** لابن زيدان، في ترجمة الحسن الأول.

(5) - المنوني، **العلوم والآداب**... م. س. ص. 12- 13 .

إذا رتل القرآن في جنح ليله أُبَيٌّ بن كعب لم يُغَنِّ مخارق

ومعلوم أن أبيا بن كعب من الصحابة الذين شهدوا بدرا ومن كتاب الوحي، بينما مخارق هو أبو المهنى مخارق من المغنيين المشهورين في العصر العباسي[1] ويؤكد المراكشي، قبل عدة سنوات من انعقاد المجلس السابق، الصفات الدينية لعبد الواحد (المخلوع)التي تشبه صفاته صفات الأولياء، ويقول في وصفه كما عرفه شخصيا : "إنه - فيما علمت - صوام قوام، مجتهد في دينه، شديد البصيرة في أمره قوي العزيمة، شديد الشكيمة، لا تأخذه في الحق لومة لائم، أرطب الناس لسانا بذكر الله، وأتلاهم لكتاب الله، شهدته والولاية قد اكتنفته، وأمور الرعية قد استغرقت أوقاته، وهو في كل ذلك لا يخل بشيء من أوراده، ولا يترك وظيفة من الوظائف التي رتبها على نفسه من أخذ العلم وقراءة القرآن، وأذكار رتبها على أوقات الليل والنهار"[2]. وكان تدينه أحد أسباب اختياره للخلافة .وقد تفاءل المراكشي، وهو بالمشرق، بتعيين هذا الأمير، وتوقع أن تعرف الإمبراطورية خيرا شاملا، إذا صح خبر تعيينه .

كما ظهر بمناسبة اختيار المرتضى للخلافة، سنة 646 هـ/ 1152م، إذ برر مزوار الأشياخ أبو عبد الله محمد الكَنفيسي تفضيله للمرتضى بقوله :"غفلتم يا جماعة الموحدين عن السيد التقي العالم الزكي أبي حفص في رغبتكم له في الولاية عليكم أمر الخلافة وتبايعونه لطهارته وصيانته"[3]. بل يقال عنه أنه كان "ينتمي إلى التصوف والزهد والورع، وسمى بثالث العمرين"[4] . وقد احتفل بعيد المولد النبوي، في بلاطه، بإشارة من أبي القاسم العزفي، وأنشأ المدارس على الطريقة المشرقية قبل تأسيسها من طرف المرينيين[5].

كما تأثر عدد من رجالات الدولة بالطابع الديني، ومنهم من أصبحوا زهادا، كالوزير المعروف بالفيل الذي ترك الوزارة في عهد المنصور وتزهد بالأندلس، أو يعقوب المنصور نفسه الموصوف بالتدين والزهد كما سنرى. ويظهر كذلك في تعويض ابن تومرت للأسماء

---

(1) - ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**...م.س . س 8 ص.173 - 174.

(2) - المراكشي، **المعجب**...م.س .ص470.

(3) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... ق . الموحدين م. س. ص 388 .

(4) - الناصري، **الاستقصا**...ج 2ص251، ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**... م. س. ص. 259.

(5) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... ق. الموحدين م. س. ص 446.. عن تأسيس الموحدين للمدارس راجع عملنا، **جوانب من تاريخ التعليم في المغرب الوسيط**. منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط، سنة 2004 ، ص63 .

الأمازيغية القديمة لأصحابه[1] بأسماء الصحابة، على عكس المرابطين الذين احتفظ جلهم بأسمائهم الأمازيغية القديمة، مثل تاشفين، ينتان، فانو...

ساهمت السياسية الدينية للموحدين، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، في انتشار التصوف في عهدهم، سواء بترسيخ أفكار ابن تومرت التصوفية عن طريق تعليم مختلف شرائح الرعية وتربيتهم الدينية[2] أو برعايتها للمتصوفة، أو بسلوك عصبيتها المتناقضة مع المذهب التومرتي نفسه. ويصعب هنا تتبع كل المجالات الفكرية والدينية والعلمية والفلسفية... التى أثر فيها المذهب التومرتي[3]. والأهم من هذا أن الموحدين كانوا ينقسمون إلى جناحين أساسيين تجاه السياسية التي يتعين اتباعها، فريق يسعى مخلصا لتطبيق مبادئ المذهب وتطبيقها في الحياة الشخصية وفي سياسة الدولة داخاليا وخارجيا، وفريق منصرف لإشباع شهواته يسعى لاستنزاف أموال الرعية ولذاته ويميل إلى التواكل والتخاذل في الدفاع عن الأمبراطورية ضد الأخطار المحدقة بها. هذا الفريق تقوى، مع مرور الوقت وقد حاول يعقوب المنصور أن يحد منه بالاستعانة بالفريق الأول، قياة بيت أبي حفص الهناتتي الذي اتخذ منه وزراءه، في إتباع سياسة دينية إسلامية تضمن نوعا من العدل والمساواة بين سكان الإمبراطورية. وقد أكسبت هذه السياسية يعقوب المنصور تعاطف العامة والمتصوفة وغيرهم، إذ رفضت العامة أن تصدق وفاته ونسبت له أنه تزهد[4]. لكن الفريق الآخر، هو الذي تغلب في نهاية المطاف لأسباب موضوعية سنفصل فيها.

خلاصة :

يتبين مما تقدم أن المذهب التومرتي كان يشكل استمرارا للتيار الديني والفكري الذي كان مهيمنا ببلاد المصامدة والذي أطرته الرباطات بالأساس، فلا هو تلفيقي ولا هو انتقائي، وحتى إذا اعتبرناه كذلك، فليس من إنتقاء وتوليف ابن تومرت وحده .هذا التيار الديني سيتبلور أكثر، في عهد الدولة الموحدية، على يد أقطاب التصوف الكبار الذين ظهروا، في ذلك العهد، ويتخذ شكله النهائي على يد الطرق الصوفية والطوائف التي

---

(1) - انظر عن تغيير الأسماء الفصل السابع، البيت الحفصي، ص 286 هامش7 من ص.33.

(2) - المنوني، **العلوم والآداب**... م. س . ص27- 28.

(3) - انظر أثر المذهب التومرتي السياسي والاجتماعي، والأثر الأصولي الفقهي والعقدي، النجار، المهدي بن تومرت...م. س. ص 377 -502، وراجع عن أثر المذهب في الأدب، حسن جلاب، **الدولة الموحدية، أثر العقيدة في الأدب**، منشورات الجامعة، الدار البيضاء1983 . وفي والحديث، الحسيسن، **مظاهر النهضة الحديثية**، مرجع سابق.

(4) - عن هذه السياسة راجع الفصل الأخير.ص 321 ومابعدها.

ظهرت وترسخت بعد ذلك، خاصة بعد تحول الرباطات إلى زوايا، عندما لم يعد هناك مبرر للجهاد الداخلي ضد المنحرفين عن السنة.

هل ستتمكن الدولة الموحدية من القيام بدور الرباط، كما كان يطمح إليه ابن تومرت؟ أو بعبارة أخرى هل ستتمكن من تطبيق المبادئ الدينية للمذهب التومرتي من زهد وتقشف وجهاد، ومن تحقيق نوع من المساواة بين المسلمين وغيره؟ ذلك رهين بترجمة تلك المبادئ إلى تنظيمات اجتماعية وإقتصادية. فهل وفقت في ذلك؟ ذلك هو موضوع الفصليين الموالين.

الفصل الثالث:

الأسس السوسيو-سياسية للدولة والمجتمع من خلال الطبقات الموحدية

I - ملاحظات أولية حول طبقات الموحدين:

تشكل "طبقات الموحدين" التي وضع ابن تومرت أسسها الأولى، مدخلا ضروريا لفهم طبيعة تشكيلة الدولة والمرتكزات السوسيو-سياسية التي قامت عليها وتحدد نوع العلاقات الاجتماعية بين الحاكمين والمحكومين في العهد المذكور.

أصبحت هذه الطبقات معروفة، في خطوطها العامة، بفضل الدراسات العامة المخصصة لها، مثل الدراسة القيمة التي أفردها لها هوبكنز في كتابه عن النظم الإسلامية في المغرب[1]. غير أن جل هذه الدراسات، رغم اجتهادات أصحابها وما راكمته من حصيلة معرفية مهمة، تتميز ببعض التناقض والقصور والغموض بل والخلط أحيانا .فهي من جهة، تصدر أحكاما تشيد ببعض جوانب الطبقات الموحدية، كالقول بجدتها ضمن تنظيمات الدولة المغربية، أو الاشادة بدقتها وبالفكر المنهجي لصاحبها، إذ جاءت دقيقة في اختصاصاتها مترابطة في تسلسلها متداخلة في أعمالها من غير تضارب[2] ، أو بهرميتها الصارمة، أو تشيد بالفكر المنهجي لواضعها محمد ابن تومرت، أو القول بأنها تعكس الروح الديموقراطية المتأصلة في المجتمع المصمودي الأمازيغي. وقد وصل الانبهار بها أن صدرت حولها أحكام غير تاريخية، مثل القول بأن الروح الديموقراطية التي كانت تطبع التنظيمات الموحدية سبقت عصرها بثمانية قرون، أو أن ابن تومرت كان فلتة في التاريخ الإسلامي[3] ، أو أنها واسطة العقد في الحركة الموحدية[4] . ومن جهة أخرى،

---

(1) - هوب كينز، **النظم الإسلامية في المغرب**، ترجمة أمين توفيق الطيبي، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء، ط 2 ،سنة 1999.

(2) - عز الدين موسى، **الموحدون في الغرب الإسلامي**... م س ،ص.87.

(3) - الغناي، عقيلة مراجع، **سقوط الدولة الموحدية**... م س ص.51.

(4) - لوتورنو روجي، **حركة الموحدين في المغرب في القرنين 12 و13م**. م. س. ص34 .

يقر بعض الدارسين لها رغم إعجابهم بها بالغموض الملاحظ في بعض جوانبها، أوفي الكثير من جزئياتها، وهو غموض ناتج عن ضآلة المعلومات المتوفرة حولها في المصادر لأن ما جاء، بشكل مباشر في المصادر الأساسية التي تناولتها، من تعريف المصطلحات المذكورة، لا يتعدى أحيانا، شرح المصطلح بكلمة واحدة أو كلمتين. وقد أوقع هذا الشح بعض الدارسين في تفسيرات مختلفة ومتضاربة، بل ومغلوطة لبعض مصطلحاتها، كمصطلحات السكاكيين والمحتسبين والرماة والغزاة والحفاظ والطلبة[1] . ...

إن هذا الغموض الجزئي الذي مازال يلف طبقات الموحدين يدفع لطرح تساؤلات حول القضايا المعلقة، في هذه التنظيمات، التي تبدو لأول وهلة، فريدة من نوعها لدى دول المغرب والمشرق الإسلاميين، إذ لم تعودنا المصادر على الحديث عن تنظيمات مماثلة لها بالغرب الإسلامي، قبل الموحدين أو بعدهم، مما يدفع إلى التساؤل هل هي ابتكار جديد أم أن صرحها بني على نموذج سابق؟ وما هي جذورها، أهي محلية مغربية أم مقتبسة عن نظم مشرقية معينة؟ والتساؤل الأهم هنا، بالنسبة للموضوع الاجتماعي ما هي المعايير التي تحكمت في وضعها بذلك الشكل؟ هل رعيت في وضها مبادئ المذهب التومري؟ وما هي نتائجها على تنظيم الدولة الموحدية نفسها، وما آثارها على المجتمع المغربي؟

تتوفر مادة مصدرية كافية، نسبيا، لمعالجتها غير انه يصعب الوصول إليها بسهولة ويسر، نظرا لتشتتها، في ثنايا مصادر متنوعة، كما يتحتم البحث عن نظيرها، في المصادر السابقة واللاحقة للفترة الموحدية، والأخذ بعين الاعتبار، أثناء إخضاع المعلومات للنقد التاريخي، لثلاثة عناصر: تاريخ كتابة المصادر، والتعديلات التي قد تكون طرأت على تلك الطبقات، خلال أزيد من قرن من الزمن، والطبيعة العامة لهذه الطبقات .

1- تاريخ كتابة المصادر :

إن المصادر الأساسية التي تناولت طبقات الموحدين معروفة ومنشورة منذ أمد بعيد، وهي مكتوبة في فترات مختلفة تمتد من بداية القرن12 م إلى القرن14م. ويتميز الكتاب المنسوب للبيدق ببعض التوسع والتفصيل النسبي[1]، وهو الذي سنعتمده كأساس في

---

(1) - نقسه، ص 37-41 .حول الحفاظ والطلبة.

(2) - من الدلائل على أن هذا الكتاب ليس كله من تأليف البيدق أن المعلومات الواردة فيه بشأن الأشياخ من أهل الخمسين ليست من رواية البيدق بل من رواية الشيخ أبي سعيد أتيكي، مما يدل على أن مؤلفه فضل هذه الرواية على رواية البيدق، انظر ص 30 من **المقتبس** المذكور، ثم إن آخر تاريخ توقف عنده هو عهد محمد الناصر595-610 هـ. فيكون عمره على هذا الأساس أكثر من120 سنة، وهو أمر مستبعد، لكن هذا لا يقلل من قيمة المعلومات الدقيقة والمفصلة التي يتضمنها، انظر نقد هوب كينز عن قيمة معلوماته، هوبكينز، **النظم الإسلامية في المغرب**...م. س. ص.124 .

دراستنا، كما فعل هوبكينز في دراسته القيمة السابقة الذكر .وقد أثر اختلاف تواريخ كتابة هذه المصادر بالطبع، على المعلومات التي قدمتها، عن تلك التنظيمات. ودون أخذ هذا المعطى بعين الاعتبار لن تفهم التطورات التي شهدتها تلك الطبقات، خلال أكثر من قرن من الزمن، ولا التضارب الظاهري أو الاختلاف بين المصادر نفسها، حول بعض القضايا منها، كالاختلاف حول عدد الطبقات مثلا، إذ إن بعض المصادر الأندلسية الأولى ومن أخذ عنها حصرتها في 8 طبقات كابن الخطيب[1] ، أوفي 13 طبقة كما عند صاحب الحلل الموشية، أو في 14 طبقة عند ابن القطان، بينما يصل عددها إلى 26 طبقة، في كتاب المقتبس من الأنساب المنسوب للبيدق، رغم أنه لم يذكر كل طبقات الموحدين الواردة في بعض المصادر الأخرى (انظر الجداول).

2 - ما هي طبيعة الطبقات الموحدية؟

حاولت جل الدراسات السابقة، أن تدرس هذه التنظيمات من خلال المهام الأساسية الموكلة لكل طبقة على حدة، معتمدة على بعض التعريفات الجزئية والمختصرة التي جاءت في المصادر، كتعريف الطلبة بأنهم حملة العلم، أو بأنهم لحمل العلم والتلقي، أو "لخوضهم في علم الاعتقاد"[2]. أو التركيز على الدور الاستشاري لأهل العشرة وأهل الخمسين، واغفال أدوارهم الأخرى .ومن شأن مثل هذا المسعى أن يدفع إلى الاعتقاد بوجود تخصصات محددة ودقيقة لكل طبقة لا تتعداها، في حين أن الأمر ليس كذلك. ثم إن مهام بعض الطبقات نفسها تغيرت، حسب تطورات الدولة الموحدية، خاصة الإدارية منها. ويبدو أن أحسن مدخل لفهم تلك الطبقات وتفسيرها التاريخي هو الانطلاق من الإشارات التاريخية التي تعرفها بها كوحدة كاملة متداخلة العناصر، وبعد هذا يمكن أن تدرس تخصصات كل طبقة طبقة على ضوء ذلك التعريف العام. ونعثر بالفعل على إشارات صريحة أو ضمنية تمكننا من ذلك.

---

(1) - الناصري، **الاستقصا**..م.س. ج 2.ص.93 - 94 .
(2) - المراكشي، **المعجب**..م.س. ص293 .

جدول طبقات الموحدين حسب المصادر الأندلسية

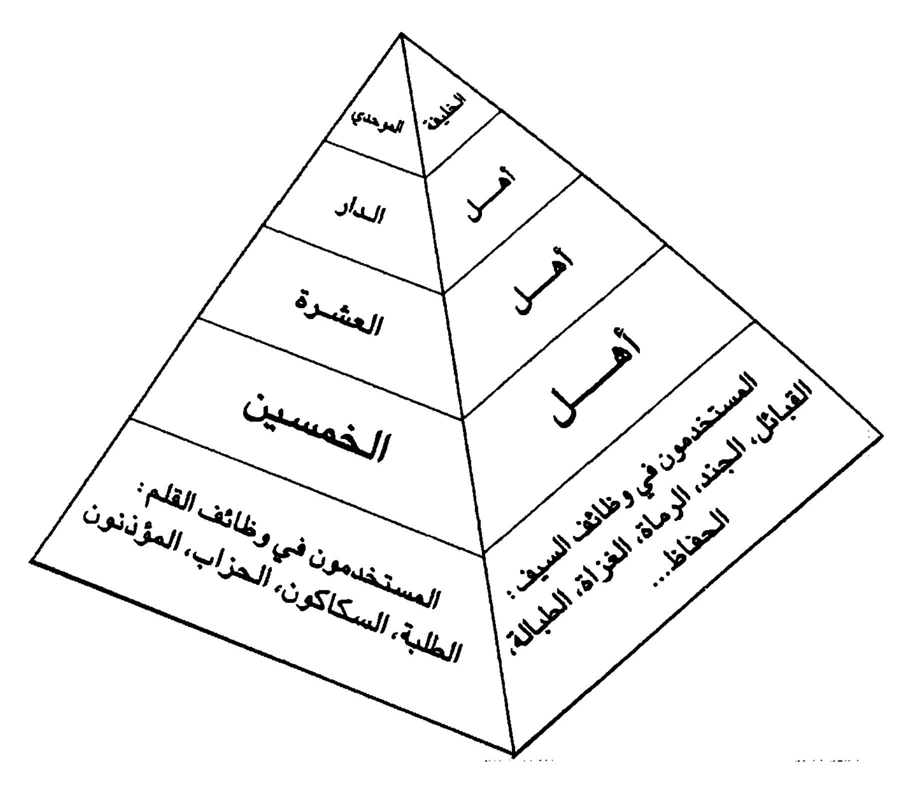
مجهول، الحلل الموشية…	ابن القطان، نظم الجمان…	الناصري نقلا عن ابن الخطيب
1 أهل العشرة	الصنف الأول: العشرة يعني أهل الجماعة	1 أهل الدار : للخدمة والامتهان
2 أهل الخمسين	الثاني : أهل خمسين	2 أهل الجماعة للتشاور والتفاوض
3 أهل السبعين	الثالث : أهل سبعين	3 أهل الساقة : للمباهاة
4 الطلبة	الرابع : الطلبة	4 أهل الخمسين
5 الحفاظ وهم صغار الطلبة	الخامس : الحفاظ وهم صغار الطلبة	5 أهل السبعين
6 أهل الدار	السادس : أهل الدار	6 الطلبة : لحمل العلم والتلقي
7 أهل هرغة	السابع : أهل هرغة	7 الحفاظ : لحمل العلم والتلقي
8 أهل تينمل	الثامن : أهل تينمل	8 أهل القبائل : لمدافعة العدو
9 أهل كدميوة	التاسع : أهل كدميوة	
10 أهل كنفيسة	والعاشر : كنفسية	
11 أهل هنتاتة	والحادي عشر : هنتاتة	
12 الجند	الثاني عشر : أهل القبائل	
13 الغزاة وهم الرماة	الثالث عشر : الجند	
	الرابع عشر: الغزاة وهم الأميون الصغار.	

ترتيب الطبقات الموحدية حسب كتاب المقتبس للبيذق

1- الإمام المهدي أو خليفته	10- القبائل	19 – المحتسبون(ا المتطوعون)
2- أهل الدار	11- كومية	20 – السكاكون(أصحاب البريد)
3 - أهل الجماعة	12 - هسكورة القبلة	21 - جند المدن (كآغمات)…
4 - أهل الخمسين	13 - هسكورة الظل	22 - المؤذنون 15 مؤذنا
5 – أهل هرغة	14 – صنهاجة القبة	23 - طلبة الموحدين
6 - أهل تنيمل	15 - صنهاجة الظل	24 - الغزاة
7 - هنتاتة	16 - عامة عبيد المخزن	25 – الحفاظ
8 - كدميوة	17 - الرماة	26 –أهل الحزب (عددهم 50 حزابا)
9 - كنفيسة	18 – الطبالة	(1)______________________

---

(1) – الاختلافات، بين المصادر، حول عدد الطبقات اختلافت شكلية، البعض منها فصل الكلام عنها والبعض أوجز في ذلك .أما اختلافها في ترتيبها فيرجع إلى التغييرات التي طرأت على الطبقات خلال القرن 6 هـ/ 12م.



هرم التراتيبية العسكرية والإدارية الموحدية في عهد الموحدين (518-627هـ)

لم يستغرب المؤرخون القدماء من الطبقات الموحدية، باستثناء ابن الخطيب الذي استغرب من طريقة ترتيبها، لا من الطبقات في حد ذاتها، مما يدل على أنها تصنيفات مألوفة لديهم، ولها مثيلها في دول الغرب الإسلامي المعاصرة لهم، ورأى فيها جلهم طبقات جند مرتبة في الديوان. فقد سأل العمري، في القرن7 هـ/13م، مخبره المغربي أبا عبد الله ابن القويع عن: "طبقات الجند في هذه المملكة (أي المملكة الحفصية وريثة الدولة الموحدية بإفريقية) ومبلغ أرزاقهم في **ديوانه** (كذا)، وقال: هؤلاء على **ما قرره لهم** المهدي، يعني مهديهم محمد بن تومرت، وكذا عبد المومن وأبناؤه لما كان لهم المغرب"(1). وعندما يتحدث العمري عن الشيوخ الكبار يقارنهم بأمراء الألوف من الجند بكل من الشام ومصر وإيران .ويكون الشيوخ الصغار بمثابة قادة المئات، أما قادة العشرات

(1) - العمري، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، من الباب 8 إلى الباب 14 . تحقيق أبو ضيف مصطفى، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1988 ص.94 .

فذكرهم صاحب الحلل وسماهم النقباء[1]. ويؤكد الناصري طابعها العسكري، لما تحدث عن استقدام عبد المومن لقبيلته كومية، سنة 557 هـ، إلى مراكش، وقال إنه جعلها "في **الطبقة الثانية من أهل الديوان**، وجعلهم بين قبيلة تينمل والقبيلة التابعة لهم"[2]. ويكرر البيدق في المقتبس عبارات تؤكد هذا الطابع العسكري، إثر ذكر بعض تقسيمات القبائل الموحدية وأفخاذها، مثل :"وهم في **السهم والتمييز** وغيره مع... "، أو " تربيعهم مع..."، و "معهم في **التربيع**"[3] . ومعلوم أن **التمييز** في الاصطلاح الموحدي هو العرض العسكري الذي يتم قبل كل حركة عسكرية أو كل ثلاثة أشهر لمعرفة الحاضر والغائب، والقادر من العاجز، والفارس من الراجل، والكامل التسليح من ناقصه. وعلى أساس هذا الإحصاء كان يوزع العطاء المسمى، عند الموحدين، "بالبركة". وأما **التربيع**، فهو الجزء الضروري لتكوين وحدة عسكرية تضم عددا معينا من الجند.

وأما **السهم** فهو نصيب الوحدة العسكرية من الغنائم، ولا يحصل عليها إلا من سجل في الديوان من الجنود، أو نصيبها من الفيء، في شكل أسهم الجباية، فضلا عن غيره من الامتيازات التي يحصل عليها الجند. أما المتطوعة فلا يحصلون عليها[4]. ويقول البيدق، في مكان آخر :"وبعد المحتسبين رسم السكاكيين..." مما يعني بوضوح التسجيل في زمام الجند[5] . كما أن عبد الواحد المراكشي المطلع على تلك التنظيمات، لا يذكر طبقاتها إلا في سياق ترتيبها في العرض العسكري العام أو ذكر مكانتها في الحركة[6] ، وهو ما يعني احتفاظ الدولة الموحدية بطابعها العسكري، إلى أوائل القرن 7 هـ[7] . كما ذكر ابن الخطيب ضمنها طبقة أهل الساقة. ومعلوم أن الساقة كانت تشكل أحد الأقسام الخمسة للجيش، في العالم القديم، خلال العصر الوسيط، وتأتي في مؤخرة المقدمة والميمنة والميسرة والقلب .كما ذكر أن سائر القبائل لمدافعة العدو[8].

مثل هذه العبارات والمصطلحات، زيادة على مصطلحات كالرماة والغزاة والجند، لا تترك أدنى شك في أن هذه الطبقات هي تصنيف للجند الموحدي في الديوان الذي وضع

---

(1) - مجهول، **الحلل الموشية**... م. س. ص.109.

(2) - الناصري، **الاستقصا**...م. س ج 2ص.138 .

(3) - البيدق، **المقتبس**... م.س. ص37 ,.38, 45, 46, 47.

(4) - انظر مادة غنم في **لسان العرب** لابن منظور.

(5) - البيدق، **المقتبس**...م.س. ص.58 .

(6) - المراكشي، **المعجب** ...م. س. ص 480 ,481 , 484.

(7) - اقتبس الموحدون مصطلح التميز من سورة الأنفال الآية37 ، وسورة آل عمران الآية 110 . ابن القطان، **نظم الجمان**... م. س . ص .103

(8) - الناصري، **الاستقصا** ...م. س.ج 2. ص94، انظر معنى الساقة كذلك عند ابن القطان، **نظم الجمان**... م. س . ص127 .

ليحدد، منذ البداية، إمتيازات الأفراد والجماعات، ونسبة الاستفادة من الثمار المادية والمعنوية للحركة الموحدية. ويدخل تأليف كتاب الأنساب المتسوب للبيدق في إطار الحفاظ على امتيازات الطبقات الأولى من الموحدين، فالاهتمام بالأنساب هنا، أملته الضرورة التنظيمية الخاصة بإنشاء ديوان العطاء(1). وكان موسى بن تمارا الكدميوي من أهل العشرة الذي كان أمين الجماعة، وتولى قسمة الإقطاع بين الموحدين، أول الأمر حتى توفي في معركة البحيرة، سنة524 هـ/1130م. توفر الموحدين على ديوان الاقطاع مؤشر قوي توفرهم على ديوان العسكر(2)، لأن أحدهما يتطلب وجود الآخر .

ربما تكون هذه الإشارات هي التي دفعت بعض الباحثين كروبير مونطاني إلى ترجيح فكرة أن يكون منشأ هذه الطبقات تنظيمات من أجل القتال(3). فما هي الوظائف الثانوية لهذه الطبقات العسكرية؟

من التعسف الاكتفاء بالقول إنها مجرد ديوان للجيش يحدد واجبات ووظائف الأفراد ومهام الجماعات وكذلك حقوقهم المادية والمعنوية، فهي إلى جانب ذلك تمثل الجهاز المخزني الموحدي، في قمته الإمام أو الخليفة مصدر أغلب السلط، ثم أهل داره، ويليه المسوؤلون العسكريون والإداريون والسياسيون الكبار، حسب درجاتهم، إلى قاعدة هرم السلطة .إذ إن الركيزة الأساسية للمخزن الموحدي هي الجيش الذي يتكون أساسا من قبائل الموحدين، وأطره القيادية - حسب تراتبها - هي التي تتحمل في نفس الوقت مسوؤلية حماية الإمبراطورية والدفاع عنها ومسوؤلية تسييرها الإداري، لذلك، تتداخل المهام الشورية (العسكرية والسياسية) والتصرف (الإدارية). وكان هذا التداخل بهذا الشكل معروفا لدى الكيانات السياسية في الغرب الإسلامي .يقول صاحب كتاب بيوتات فاس الكبرى عن قسم من العرب الداخلين للأندلس :"وأما أهل **التصرف والشورى** فإنهم يدخلون في عداد **الجيوش** وهم أهل **الحل والعقد**".(4) كما أن ابن القطان يدخل الشيوخ من أهل العشرة والخمسين ضمن أهل الشورى، بينما يذكر صاحب الحلل الموشية أنهم الذين "**يَعْقِدُ** معهم ابن تومرت الأمور العظام"(5).

---

(1) - كتب الأنساب توضع عادة لعدة أغراض منها هذا الغرض راجع مقالا قيما للأستاذ صدقي على ءازيكو، «النسب والتاريخ وابن خلدون»، في مجلة كلية الآداب بالرباط عدد 11 سنة 1985 ص.46 -47 .

(2) - البيدق، **المقتبس**... م. س. ص31 .، المراكشي. **المعجب**...م. س. ص 480.

(3) - لوتورنو روجر، **حركة الموحدين في الغرب**... م. س. ص 73، هوب كينز، **النظم الإسلامية**... م. س . ص123 .

(4) - إسماعيل ابن الأحمر، **بيوتات الكبرى**، دار المنصور للطباعة والوراقة -الرباط 1972 ص.23.

(5) - ابن القطان، **نظم الجمان**... م.س .ص80-81 .. مجهول. **الحلل الموشية**..ص108 .. انظر عن دور أهل الشورى ابن خلدون، **المقدمة**... م. س . ص.395-396.

4 - التعديلات الطارئة على الطبقات الموحدية :

عرفت الطبقات الموحدية، منذ نشأتها سنة 518 هـ إلى عهد الناصر (585-610 هـ)، على الأقل، تغييرات وتعديلات عدة مرات. منها التغيير الذي حدث في عهد المهدي (518 - 524 هـ/1130م) حين أسقط منها بعض القبائل، في تمييز 519 هـ، الشهير الذي وقع في أونابن على يد البشير[1]، كما أضيف مثلا، في تاريخ يصعب تحديده، إلى قبيلة هرغة عشرة أفخاذ من القبائل المجاورة لها بالأطلس الصغير فأصبح عدد أفخاذها 23 فخذا[2]. بالإضافة إلى تعديلات أقل أهمية، مثل تسجيل المهدي ابن تومرت للشيخ عمر أزناك من أهل العشرة بعد اسمه مباشرة لمجرد تطييب خاطره إثر غضبه لسبب مجهول، بعيد هزيمة البحيرة سنة 524 هـ، ولذلك أصبح يتصدر الاستعراض هو وذريته، منذ ذلك الحين وطيلة القرن6 هـ/ 12م، إلى عهد المستنصر (610 -620 هـ)[3]. وضمن التغييرات التي عرفتها هيئة الأشياخ؛ إضافة بعض المُسْتَدْرَكِين إلى هيئة أهل الخمسين بعد تمييز519هـ الشهير بأوانين(هناية) على يد البشير[4]، والذين حلوا مكان بعض الذين توفوا أو استشهدوا في بعض المعارك أو لأسباب أخرى وعددهم عشرة. وأضيف شيخان كانا ينتميان لأهل الدار إلى هيئة أهل العشرة، وهو ما يفسر اختلاف المصادر بشأن هذه الهيئة الأولى إذ يسميها البعض منها أهل العشرة ويسميها البعض الآخر أهل الجماعة، أو هما معا، فأصبحت تضم ليس عشرة شيوخ، كما كان الأمر في عهد المهدي، بل 12 شيخا بعد وفاته[5].

وفي عهد عبد المومن (524-558 هـ) أدمجت بعض القبائل الأخرى، كصنهاجة وهسكورة، سنة 527 هـ. وقد أعاد عبد المومن ترتيب طبقات الموحدين، في الأربعينيات بسبب توسع الموحدين وانضمام قبائل أخرى لحركتهم، حسب ثلاثة تواريخ، فجعل منها ثلاث طبقات أساسية دون أن يلغي، كما توهم البعض، الطبقات التي وضعها ابن تومرت سابقا بتينمل[6]. وكان قصده من إعادة الترتيب هذا، ليس هو إفراغها من مضمونها

---

(1) - ابن القطان، **نظم الجمان**..م س، ص102 ,104 ، البيدق، **أخبار المهدي**... م. س، ص39، ابن عذاري، **البيان المغرب**..م س - ج 4 ,17 ,68 . النويري، نهاية الأرب ... م س، ص402 -400، ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**... م س ج 10. ص 574 - 575

(2) - البيدق، **المقتبس**..م. س، ص.38 .

(3) - البيدق، **أخبار المهدي**... م. س، ص41.، ابن القطان، نظم الجمان... م. س، ص 123.، المراكشي، **المعجب**... م. س. ص 480 -481.

(4) - **نفسه**، ص.35.

(5) - **نفسه**، ص26 ،. 32 . البيدق، **أخبار المهدي**... ص42، انظر تحليل عز الدين موسى لما ورد في المصادر بشأن هذه الهيئة، الموحدون في الغرب الإسلامي... م. س. ص.67-70.

(6) - كتاب الدولة المومنية، رسائل موحدية، مجموعة بروفنصال، المطبعة الاقتصادية، الرباط1941 ، الرسالة 12ص.54-55 .

والقضاء على أشياخ الموحدين وتحطيم نفوذ الطبقات الأولى بمساواتها مع غيرها[1] ، بل كان القصد من ذلك توسيع القاعدة القبلية المشكلة للجيش الموحدي الذي تعتمد عليه الدولة الموحدية إلى ذلك الحين، والمنحصر في جزء من قبائل المصامدة وهي القبائل الست الأولى التي بايعت ابن تومرت في تينمل سنة 518 هـ 1125/م[2]، والتي لا يمكن - مهما كان عددها- إلا أن تكون أقلية في إمبراطورية كبيرة متعددة السكان. واعتمد عبد المومن نفس المعايير التي أنشئت على أساسها الطبقات الأولى، في عهد ابن تومرت، خاصة معيار السبق إلى الانضمام للحركة الموحدية، ولذا صنفها، حسب ثلاثة تواريخ حاسمة، بالنسبة للحركة الموحدية، وهي:

- من انضم للموحدين منذ انطلاق حركتهم إلى معركة البحيرة 524 هـ وجعلهم طبقة، وتضم هذه الطبقة كل الطبقات التي وضعها المهدي، قبل وفاته سنة 524 هـ، ولم يلغ ترتيبها السابق.
- من انضم إليهم، بين 524 هـ وقبل فتح وهران سنة 539 هـ، جعلهم طبقة ثانية، وتشمل العديد من المنضوين لهم مثل جل قبائل صنهاجة وهسكورة، وسكان جبل زرهون[3] ، وبني عزون من الأندلس واللائحة طويلة[4].
- من انضم إليهم، بعد 539 هـ إلى هَلُمّ جَرّاً (إلى ما لانهاية)، وتضم هذه الطبقة بعضا من قبائل هسكورة، حسب ابن خلدون، كما انضم إليها فرسان مرسية سنة573 هـ[5] والغز سنة582 هـ.

اعتماد السابقة، جعل الفاصل الزمني بين الطبقات التي أضافها يكبر ويصل إلى 30 سنة فأكثر، أي مدة جيل كامل بين من انضم، سنة 515 هـ، وبين من انضم إليها بعد فتح مراكش سنة541 هـ/1147م. والنتيجة المنطقية والحتمية لذلك تدني مكانة من جاء بعد ذلك التاريخ بالمقارنة مع المنضمين الأوائل، وسينعكس هذا التفاوت على الامتيازات

(1) - الفناي مراجع عقيلة، **سقوط دولة الموحدين**، مطابع الثورة للطباعة والنشر. بنغازي ليبيا ط 2 سنة1981، ص 58 -.59العزاوي، **رسائل موحدية** ... م س ج 1. ص46، العربي محمد، دور الأشياخ... م. س. ص134 .
(2) - البيدق، **المقتبس**... م. س. ص40,23.
(3) - ابن غازي، **الروض الهتون**...م. س . ص.8-9 .
(4) - راجع الفصل الرابع، المالية الموحدية ص.101 .
(5) - صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**...م. س. ص.378 .

المادية وعلى المكانة المعنوية لكل طبقة، حسب سبقها أو إبطائها. وهذا ما يفسر. اقتصار اسم "الموحدين" على المنضمين للحركة قبل539 هـ /1145م، أي الطبقة الأولى والثانية فقط. ويحدد ابن خلدون، بالتقريب، التاريخ الذي يفصل بين من يسمون بالموحدين عن غيرهم، ممن انضم لحركتهم، إذ يقول إن ابن تومرت :"خص بالمزية من دخل في دعوته، قبل تمكنها، وجعل علامة تمكنها فتح مراكش، فكان إنما اختص بهذا اللقب أهل السابقة، قبل ذلك الفتح"(1). أما القبائل المضافة لهذه الطبقات، بعد فتح مراكش، فلا تظهر مكانتها إلا في الاستعراضات العسكرية وفي الحركة، أو في المراسم البروتوكولية والاستقبالات الرسمية، أو أثناء التشاور مع شيوخ القبائل، قبيل أية معركة حربية هامة(2).

وفي سنة 557 هـ، أدمج عبد المومن قبيلته كومية في الطبقات الموحدية وجعلهم حفاظه أي حرسه الشخصي "وجعلهم في الطبقة الثانية في **الديوان**(3)، وهنا اعتمد مبدأ القرابة وليس مبدأ السبق، وهو كذلك مبدأ كان موجودا في تصنيفات ابن تومرت. ولم ينكر أحد من الموحدين، على عبد المومن، هذا الإجراء العادي والمقبول في النظام القبلي، رغم أن قدومها خلق بعض البلبلة، أول الأمر بين الموحدين، إذ تشوش المغرب بقدومها(4)، لكن لم تترتب عنه أية مشاكل آنية. وإذا كان عبد المومن قد جعل قبيلة كومية في الطبقة الثانية أو في السابعة احتراما ولو شكليا لأقدمية هرغة، فهي تحتل عمليا، الصدارة إذ "أصبح القوم اليوم وليس فوقهم أحد ببلاد المغرب، ولا تطاول أيديهم يد بكون عبد المومن منهم"، حسب شهادة عبد الواحد المراكشي سنة521 هـ(5).

وبعد580 هـ/1185م، ضعّف يعقوب المنصورعدد أفخاذ فرقة الغزاة، أي المجاهدين، وعين عليهم "مزوارين: مزوار **للقْدِم** (أي الموحدين الأصليين)، ومزوار **للمضاف منهم** وهم المسمون بالغزاة عن إذن الأمير أبي يوسف المنصور"(6). كما أحدث مزوارين لأمراء بني عبد المومن، عوض مزوار واحد في عهد أبيه، وأحدث كذلك مزوارين للأشياخ(7) .

(1) – ابن خلدون، **كتاب العبر**..م.س، ج 6، ص.266 .
(2) – كما حدث قبيل معركة الأرك على سبيل المثال، ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**..م. س . ص 223 -224.
(3) – **نفسه**، ص201 -202 . الناصري، **الاستقصا**..م.س ج 2، ص.137 - 138 .
(4) – ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**..م.س .ص .201 -202 .
(5) – عبد الواحد المراكشي، **المعجب** ..م.س .ص.481.
(6) – البيدق. **المقتبس**..م.س .ص.57 .
(7) – ابن عذاري، **البيان المغرب**... ق .الموحدين م.س .ص.231.

خريطة توسع الدولة الموحدية

خريطة رقم : 2 - مراحل توسع الدولة الموحدية، 518-567 هـ / 1124-1171 م ،(حسب البيذق).

فهل كان يرمي من وراء تضعيف المزاوير إلى إحداث توازن داخل القبائل الموحدية، وخلق التنافس بين مختلف الطوائف؟ قرار يعقوب المنصور هذا بتوسيع قاعدة هذه الطبقات الموحدية له ما يبرره كما سنرى، وينسجم مع سياسته الدينية والجهادية ومع سياسته ومحاولته الإصلاحية للمجتمع والدولة في عهده[1].

تعتبر تعديلات المنصور هذه آخر وأهم تعديل شهدته التنظيمات الموحدية، حتى ألغيت مؤقتا، خلال الفترة627-633 هـ، على يد المأمون. أما في عهد الناصر، لم يحدث إلا تغيير بسيط، يخص طبقة طلبة الموحدين، حين «أسقط السلاح عن المؤذنين الذين يسافرون معه، وأمر لهم ببيعه وأن ينتفعوا به، وأمر لهم بالموازين للأوقات خاصة، وكذلك طلبة الموحدين أعزهم الله أسقط عنهم السلاح كذلك، وأنعم عليهم بالتحف من المخزن من الأعشار وغيرها من العطايا الجزيلة في كل عام حيث كانوا، وكان دأبه وعادته معهم دون غيرهم من طلبة المصامدة، وعرف ذلك في أمراء الموحدين"[2]. وبذلك تم إعفاؤهم من المهام الحربية قصد التفرغ لمهمتهم العلمية والإدارية. تدل هذه التعديلات المتواصلة، طيلة القرن6 هـ/12م، على مرونة التنظيمات الموحدية، وأنها غير منغلقة على عكس ما يمكن اعتقاده، إذ كانت مفتوحة نسبيا أمام قبائل المصامدة وغيرها من القبائل وأمام سكان المدن، فهي متجددة باستمرار، كما سبق ذكره. لكن دون أن يعني هذا مساواة المضافين الجدد مع القبائل الأولى في الحقوق والامتيازات المادية والمعنوية .

والآن وقد ثبت أن هذه الطبقات ما هي إلا ديوان للجيش، ولكنها في نفس الوقت هي الجهاز المخزني نفسه، بجل أطره الإدارية، فما هي المقاييس المعتمدة في ترتيبها؟

4 - المعايير المعتمدة في ترتيب طبقات الموحدين:

تقتضي أحوال الرئاسة والملك، حسب ابن خلدون، تميز الرتب وتفاوتها[3]. ويتم ذلك اعتمادا على ضوابط معينة، أهمها، عند الموحدين، أربعة معايير : أولها، معيار السبق أو البطء في في الانضمام للحركة الموحدية. وثانيها درجة القرابة من تِكَمِّي أو «دار

---

(1) - ابن خلدون، **المقدمة**... م. س. ص.327. وجاء في ص501. «إن الجباية في أول الدولة تتوزع على أهل القبيل والعصبية بمقدار غنائهم وعصبيتهم».
(2) - راجع الفصل الثامن من هذا البحث عن سياسة المنصور الإصلاحية.
(3) - البيدق، **المقتبس**... م.س .ص.58 -59.

الحاكم". ومن هنا يحتل أهل الدار المكانة الأولى، في سلم تراتبية الطبقات الموحدية، بعد انتقال الحكم من بيت الأمغاريين، في عهد المهدي، إلى بيت بني عبد المومن بعد ذلك. وثالثها، مقدار **الغَنَاءِ** (بفتح الغين ويعني نفع الأفراد وخدمتهم لأهل الدار وكفايتهم)، أي أن كل من يقدم خدمة من بعض خدمات القلم أو السيف للدولة الناشئة يسجل في ديوان أو زمام العسكرية ويتلقى راتبه من بيت مالها[1] وتصدر له التنفيذات أو الصكوك بذلك[2]، كطلبة الحضر مثلا. وأخيرا معيار السن. لا تختلف هذه المعايير الأربعة عن المقاييس التي نسب لعمر بن الخطاب أنه أرسى عليها أسس ديوان العطاء الذي أنشأه، سنة 15 هـ، واعتمدتها بعده جل الدول الإسلامية[3]. فالمرابطون كانوا لا يقدمون على الصلاة إلا من صلى خلف عبد الله بن ياسين، ولو كان فيهم من هو أقرأ وأكثر ورعا ممن لم يصل خلفه[4]. كما كانت قبائلهم مرتبة، حسب تاريخ انضمامها للحركة، على غرار ما رأينا لدى الموحدين، أولها قبيلة لمتونة ثم مسوفة ثم كُدالة إلى آخر القبائل الصنهاجية المكونة للعصبية المرابطية. وكانت العصبية المرينية مرتبة، حسب نفس المعيار، في عشر طبقات دون الحشم من العرب وغيرهم[5] وتظهر أثناء البرتوكولات الرسمية، كما في عهد أبي عنان[6]. فنحن إذن وأمام ديوان الجند المألوف لدى الكيانات الساسية السابقة للموحدين، الهدف من ترتيب الجند حسب هذه المعايير، هو تحديد مقدار الاستفادة المادية للأفراد والجماعات المنضمة للحركة الموحدية وتحديد مكانتهم المعنوية في هرم المخزن الموحدي.

■ تتمثل الإمتيازات المادية في الاستفادة من عطاءات المخزن والامتيازات التي يوزعها على أنصاره، وتشمل، زيادة على أسهم غنائم الحرب في كل معركة (في حين أن الجنود المتطوعين لا حق لهم فيها) ولا يسجلون في الديوان[7] ونصيبهم من الفيء أي من أسهم الجباية ومدا خيل البلاد المفتوحة، في شكل إقطاعات، والبركة والسكن والكسوة

---

(1) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**... م س ص.141.
(2) - ابن عذارى، **البيان المغرب**..ق .الموحدين م س ص254.. عن معنى التنفيذات. التوفيق، **المجتمع المغربي**..م س ص. 513.
(3) - ابن خلدون، **المقدمة**..م س .ص.432.
(4) - البكري، **كتاب المغرب**... م س ص.169 .
(5) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**... م س ص. 370 -369 .
(6) - ابن الحاج النميري، **فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب**، نشره محمد بن شقرون، الرباط. د ت . ص.178.
(7) - انظر مادة غنم في **لسان العرب** لابن منظور .

وغيرذلك[1]. فإذا أخذنا البركة وحدها (وهي العطاء النقدي المسمى في المشرق بالجامكية والذي يوزع أربع مرات سنويا[2]) فإن أكبرمبلغ هو 10000 دينار يحصل عليه بعض الأمراء، ويحصل الشيخ الكبيرعلى 100 دينار، بينا لا يحصل أصغر جندي إلا على دينار واحد فقط، حسب اللوائح الفريدة التي وصلتنا عن مقدار عطاء الجند في عهد يوسف[3]. ويبلغ الفرق بين أدنى بركة وأعلاها 10000 مرة .وينطبق نفس الشيء على جل العطاءات الأخرى . وهي فوارق لاتختلف عن توزيع العطاء، في عهد عمر بن الخطاب الذي وضع ديوان العطاء لسكان المدينة، على نفس المعايير المشار إليها، وهي درجة القرابة من الرسول (ص). والسبق إلى الإسلام، حسب ثلاث تواريخ (من أسلم قبل بدر سنة 2 هـ، ومن أسلم بعد بدر وقبل فتح مكة سنة8 هـ، ومن أسلم بعد فتح مكة). فكان أكبر عطاء هو عطاء العباس بن عبد المطلب الذي وصل إلى 25.000 درهم سنويا، ثم عطاء عائشة 12000 درهم سنويا، ويصل عطاء بقية زوجات الرسول (ص) إلى 6000 درهم سنويا، وأما أقل عطاء فلا يتعدى 200 درهم[4].

■ الإمتيازات المعنوية : يحدد هذا الديوان كذلك، المكانة المعنوية للأفراد والجماعات التي حصل لها شرف الانتماء للموحدين داخل الجهاز الموحدي، سواء أثناء المراسم البروتوكولية أوالمناسبات المختلفة، أو أثناء التمييز، أي الاستعراضات العسكرية الدورية قبل خوض معركة هامة. ويحدد الديوان مواقعهم وأماكنهم في الحركة أو المحلة، بل يحدد حتى أماكن سكناهم بدار الملك مراكش أو خارجها في الديار المحتجزة للرعية والمعدة لإنزالهم[5] ، ذلك أن عامل القرب أو البعد الرمزي من الخليفة، مصدر كل السلط، هو الذي يحدد مقدار الجاه والنفوذ السياسي الذي يكتسبه الفرد أو الجماعة، كما سنبين في الباب الثاني، من هذا العمل، وما يترتب عليه من تحديد المكانة الاجتماعية والفوائد المادية .

وهكذا نجد، في مقدمة الحركة، ذرية عمر أزناك بعد فرس الخليفة، ثم القرابة وبقية أهل الدار، ثم أهل العشرة، ثم أهل الخمسين وكل ذلك، حسب سبقهم في الانضمام للدعوة

---

(1) - انظر تفاصيل هذه الامتيازات في نفقات الدولة بالفصل الرابع.

(2) - عبد الواحد المراكشي، **المعجب**..م.س ص350 .،414 , .457 ابن عذاري، **البيان المغرب**..ق .الموحدين م.س ص232 .

(3) - انظر الجدول ص

(4) - النبراوي فتحية، **تاريخ النظم والحضارة الإسلامية**، الدار السعودية للنشر والتوزيع، السعودية ط 3 سنة 1985 ص 94 -96 . وانظر مصادرها .

(5) - اراجع فقرة الإنزال في الفصل الرابع من هذا الكتاب ص173.

الموحدية وحسب أعمارهم، تليهم القبائل وفي مقدمتها هرغة، وآخرها هسكورة وصنهاجة، ولا يمثل استثناء، في هذا، إلا بعض البطون من قبيلة صنهاجة المحسوبة على الموحدين والتي لا يعتمد عليهم في الاستعراض ولا في الحضور "**كأنهم رعية**"(1)، لأسباب مجهولة .

لماذا برزت طبقات الموحدين بشكل غير مألوف في المصادر التاريخية؟

5 - ظرفية ظهور الطبقات الموحدية:

إذا لم تكن التنظيمات الموحدية فريدة في تاريخ الغرب الإسلامي، ما دامت مجرد ديوان للجند وأساس المخزن الموحدي، فلماذا تفردت الدولة الموحدية من بين دول الغرب الإسلامي بظهورها منذ بداية حركتهم؟

يعود السبب إلى ثلاثة عوامل أساسية:

- الشتات السياسي. من المعلوم أن المجموعة المصمودية كانت تعرف عند قيام الحركة الموحدية، أوائل القرن6 هـ /12م، تشتتا سياسيا، بفعل هيمنة نظام تقبيلت على تنظيماتها السياسية وكون أغلب تقبيلن فلاحية مستقرة. ولم تظهر لديها سلطة هرمية فعلية كنتيجة لتغلب إحدى تقبيلن على الأخريات، أو تغلب حلف من أحلافها على حلف آخر، كما كان الشأن لدى القبائل الصنهاجية التي كانت تعود زعامتها، قبل قيام الدولة المرابطية، تارة إلى جدالة، وتارة أخرى لقبيلة لمتونة. أو كما هو شأن القبائل المرينية التي كانت زعامتها لبيت بني عبد الحق بعد بيت بني عسكر.

- إن ابن تومرت متزعم الحركة الموحدية، سنة518 هـ/1125م، كان وسطا في قومه، لم تكن لبيته رئاسة وزعامة سياسية بينهم من قبل، كما لم تكن لقبيلته هرغة عصبية متغلبة بين قبائل المصامدة، بل كانت قبيلة صغيرة جدا(2)، فكان على المهدي أن يخلق لنفسه سلطة دينية أولا، وينتقل منها إلى سلطة سياسية بعد ذلك وأن يخلق تراتبية في السلطة داخل المجتمع المصمودي بإحداث هذه التنظيمات العسكرية .

---

(1) - البيدق، **المقتبس**... م.س. ص. 55 .

(2) - ابن خلدون، **المقدمة**... م. س. ص 234 .. المراكشي، **المعجب**... م. س. ص.481.

- هذه التنظيمات فرضتها عملية التمييز أي الاستعراض العسكري الذي يتكرر عند الشروع في الإعداد لأي حركة عسكرية، أو بشكل دوري كل ثلاثة أشهر، لأن أنصار وأتباع المهدي بن تومرت كانوا لا يستنفرون كما اتفق، كما كان يفعل الداعية عبيد الله الشيعي، في بداية الحركة الشيعية بكتامة، إذ كان يحارب بدون وضع ديوان للجند فترة معينة، حتى سنة 293 هـ، حيث "كان حشده بغير **ديوان**، إنما كان يكتب إلى رؤساء القبائل، فيحشدون من يليهم طاعة له، ورغبة فيه .وكان لا يزيد في كتابه إليهم على أن يقول : إن الموعد يوم كذا في موضع كذا، ويصرخ صارخ بين يديه :حرام على من تخلف"[1]. أو كما فعل المرينيون، مدة 36 سنة، منذ ظهورهم بالشمال المغربي، سنة 610 هـ، إذ كانوا يستنفرون بدون ديوان حتى تولى الأمير أبو بكر بن عبد الحق، سنة 642 هـ[2]، فكان " **أول من جند الجنود، وضرب الطبول، ونشر البنود**" على إثر هزيمة السعيد الموحدي بتلمسان، سنة646 هـ . وفي نفس الوقت قسم الإقطاع على قبائل بني مرين وعين لكل قبيلة منهم مدخول خراج جهة معينة من شمال المغرب الخاضع لهم والمسمى **الطعمة**[3]. أما المهدي فقد وضع ديوانا لأتباعه يحدد إمتيازاتهم المادية ومكانتهم الساسية والاجتماعية، وذلك بعد وقت قصير من إعلان حركته السياسية، سنة518 هـ/1125م بتينمل، وبالضبط في غزوته الرابعة، إذ اتخذ البنود ووزعها على القبائل الموحدية الست الأولى، لكل منها علمها الخاص بلون معين وأسند قيادة كل قبيلة لأحد أصحابه من أهل العشرة[4].

ما هي المهام المسندة لكل صنف من هذه الطبقات؟

II - الأصناف الكبرى للطبقات الموحدية حسب مهامها:

1 - الحاكم وأهل الدار :

يلاحظ أن طبقات الموحدين مرتبة ترتيبا هرميا كما في الشكل[5]. ويفهم ضمنيا أن المهدي كان يوجد على قمة رأس هذا الهرم، إذ سجل اسمه في صدارة الديوان أثناء تمييز

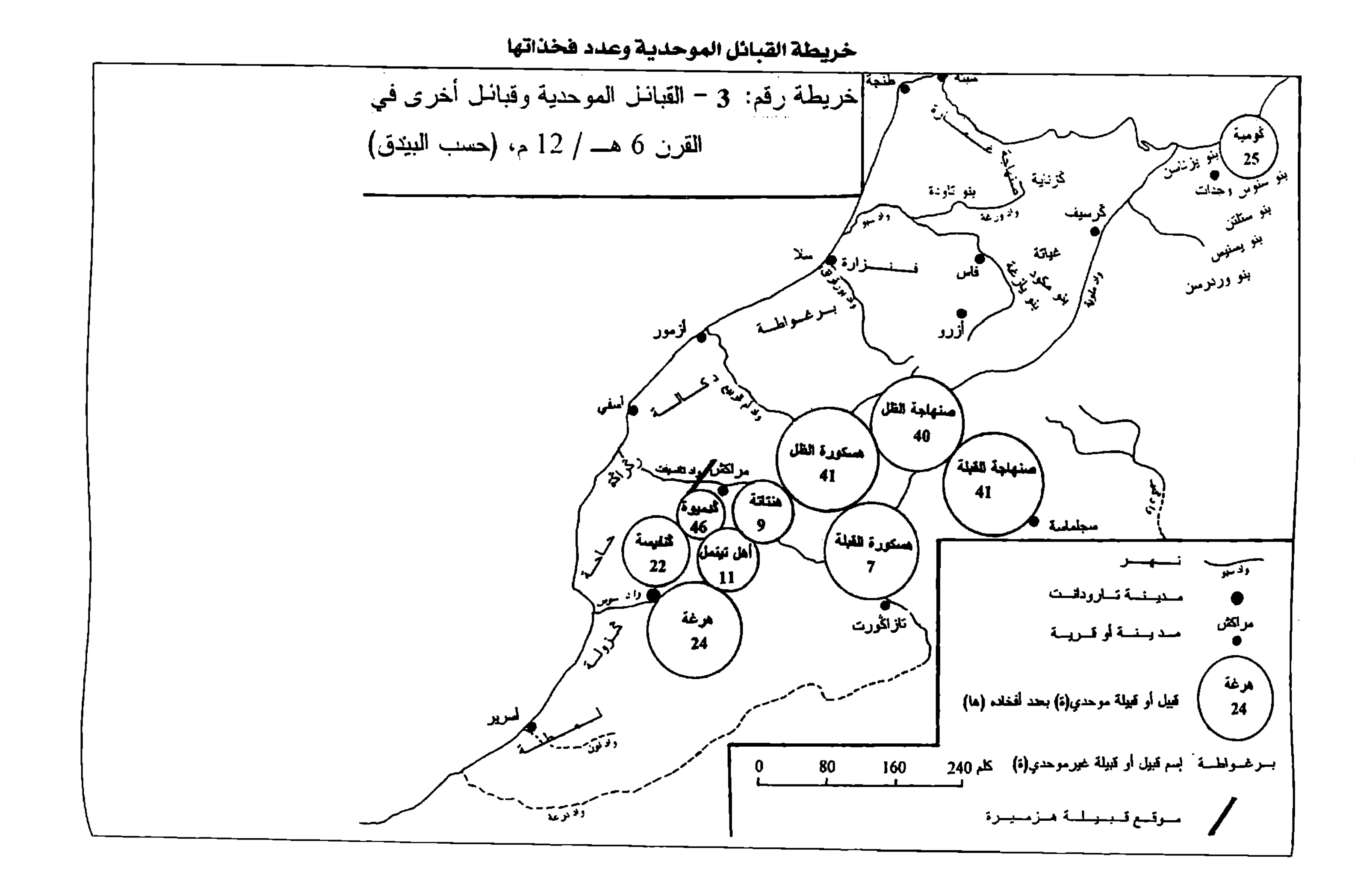
---

(1) - ابن عذاري. **البيان المغرب**..م. س ج1.. ص.138.
(2) - ابن أبي زرع. **الأنيس المطرب**..م س ص291.. ابن عذاري. **البيان المغرب**... ق .الموحدين م س ص.390-391 .
(3) - انظر ص 132 أسفله. وليس هذا الإجراء توزيعا لملكية الأرض على قبائل بني مرين كما ظن الأستاذ محمد القبلي في أطروحته.
(4) - البيدق. **أخبار المهدي** ... م. س. ص. 36 -37 .
(5) - انظر شكل هرم السلطة الموحدية ص.95.

جدول قبائل الموحدين وأصناف المستخدمين من كل قبيلة إعتمادا اعلى البيذق

الوحدة البشرية "القبائل"	تاريخ الانضمام للحركة	عدد شيوخ أهل الجماعة من الوحدة	عدد شيوخ أهل الخمسين	عدد فخداتها	المحتسبون ومزاوير الغزاة	مستخدمو القلم منها				مستخدمو السيف منها		
						الطلبة	الحزاب	المؤذنون	سكاكون	الرماة	الطبالة	الحفاظ
هرغة	515 هـ	0	14	23	مزوار	?	?	1	0	+	+	3
كومة	557 هـ	1	0	25	2	?	?	1	0	+	+	0
تينمل	516 هـ	2	20	11	2	?	?	1	1	+	+	1
هنتاتة	516 هـ	1	14	9	2	?	?	1	1	+	+	1
كدميوة	517هـ	1	4	46	2	?	?	1	0	+	+	1
القبائل	518هـ	1	1	8	2	?	?	1	0	+	+	1
هسكورة القبلة	527هـ	0	4	7	2	?	?	0	0	+	+	1
هسكورة الظل	527هـ	0	0	11	2	?	?	0	0	+	+	0
صنهاجة القبلة	527هـ	1	3	41	2	?	?	0	0	+	+	1
صنهاجة الظل	؟	0	0	40	2	?	?	0	0	+	+	1
العبيد	522هـ	0	0	8	2	0	0	0	0	+	+	0
حدد المدن	541 هـ	0	0	?	2	0	0	8	0	+	+	0
المجموع		8	50 شيخ	251 +	21 مزوار	مجهول	50	15 مؤذن	3	مجهول	مجهول	11 فرقة

خريطة القبائل الموحدية وعدد فخذاتها



524 هـ، ثم سجل بعده اسم عمر أزناك من أهل العشرة تطييبا لخاطره[1]. ويؤول خمس الغنائم لبيت المال الذي يستفيد منه بالدرجة الأولى، ابن تومرت متبوعا بأهل العشرة وسائر الطبقات حسب تراتبها وتتابعها، من سبق أو إبطاء وحسب أعمارهم. والإمام المهدي أو الخليفة بعده هو الذي يتربع على قمة هرم السلطة الموحدية يجمع أغلب السلط السياسية والدينية والعسكرية، مثلما هو معروف في أنظمة الدول الإسلامية[2] ، على عكس المرابطين الذين فصلوا بين السلطة الدينية والسياسية، على عادة تقبيلت . ومن مظاهره تولي عبد الله بن ياسين الزعامة الروحية في بداية الدولة المرابطية، وإسناد الزعامة السياسية أو الحربية لأبي بكر بن عمر، إذ كان "الأمير يتولى النظر في أمر الحرب وعبدالله بن ياسين ينظر في ديانتهم وأحكامهم ويأخذ زكاتهم وأعشارهم"[3] ، كما »أن اللمتونيين اتفق رأيهم " على تقديم أمر الحرب لأبي بكر بن عمر اللمتوني"[4] ، ونسب لعبد الله بن ياسين قوله" إنما أنا معلم دينكم"[5]، وعندما توفي بن ياسين تولى مكانه الفقيه سليمان بن حدو، كما كانت للفقهاء، في عهد المرابطين، مكانة لم يعهد لها مثيل بالغرب الإسلامي، وبلغلوا "**مبلغا عظيما لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس**"[6].

ومن بين بقايا مظاهر الفصل بين السلطة الدينية والسياسية ما شاهده الحسن الوزان في القرن16 م، في عدة مناطق من الجنوب المغربي. إذ لاحظ وجود الفقهاء والقضاة الذين ينظرون في المسائل الدينية لكنهم لا يتدخلون في الأمور السياسية التي تندرج ضمن اختصاصات إِنْفْلاَسْ[7]. فمثلا، قاضي تسكدلت بحاحة المتضلع في الفقه، كان "يفصل في كل القضايا إلا ما يرجع منها للنفاليس"[8] ، ومدينة تَفْتّنَة رغم وجود الشيوخ (المتصوفة) والفقهاء فيها "إلا أن هؤلاء غير مختصين في النظر في جرائم القتل والجروح"[9] ، ونقس الشيء كان يحدث في مدينة تِيُّوتْ، بسهل سوس، إذ كان فيها "قضاة

---

(1) - البيدق، **أخبار المهدي**... م س .ص41 ، ابن القطان، **نظم الجمان**... م س .ص.123 .
(2) - عن نظام الحكم في الإسلام راجع، محمد ضريف، **تاريخ الفكر السياسي بالمغرب**، م س ص 11 -12 والمراجع التي يحيل عليها
(3) - ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب**.. ص.127 .
(4) - **نفسه**، ص.132 .
(5) - مجهول، **الحلل الموشية**..م س ص.21 .
(6) - المراكشي ، **المعجب**..م س ص 252 -253
(7) - انظر الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**،م س 1 ص79، 80. 92.89.86 - 93، 94، 140،
(8) - **نفسه**، ص.83 .
(9) - **نفسه**، ص.89.

وفقهاء يُرّجع إليهم في الأمور الدينية، أما المسائل الدنيوية فإن من كان أكثر أهلا كان أكثر حظا فيها"(1).

ويأتي بعده، أهل الدار:

لائحة أهل الدار حسب المقتبس من كتاب الأنساب

اسم الشيخ	قبيلته أو أصله	تاريخ انضمامه للحركة	علاقته بابن تومرت
محمد الهرغي	هرغة	515 هـ	من قبيلته
أبو محمد وَاكّتَنْ	هرغة	515 هـ	من قبيلته
يَصلّاسَنْ الهرغي	هرغة	515 هـ	ابن عمه
عيسى ابن وَمْغَار	هرغة	515 هـ	أخ شقيق له
عبد العزيز ابن وَمْغَار	هرغة	515 هـ	أخ شقيق له
أحمد بن وَمْغَار	هرغة	515 هـ	أخ غير شقيق له
على بن موسى	هرغة	515 هـ	من قبيلته
عبد الواحد الشرقي	ملالة بالمغرب الأوسط	قبل سنة 514 هـ	من مريديه
أبو محمد وسنار	؟	؟	مريد ومن خاص خدمه
يعقوب آفغُور الصودي	صودة	؟	مريد ومن خاص خدمه
عيسى الخلاسي	صودة	؟	مريد ومن خاص خدمه
أبو زيد بن تَوْلوَا	؟	؟	
عبد العزيز الغيغائي	غيغاية	514هـ بمراكش	
إبراهيم بن جامع	أندلسي	514 هـ بمراكش	
يونس بن تدْرارت	؟	؟	
يحي بن أم وصوم	تينمل	؟	
عبد الكريم مُنْغْ فَادْ	؟	قبل 514 هـ	
بورْزْگْ الزناتي	بني وَامَنُو الزناتية	؟	
سعيد الحاحي	حاحة وهي غير موحية	؟	
سليمان بن ميمون	؟	؟	(2)

(1) - نفسه، ص.93 .

(2) - يلاحظ من هذا الجدول أن سبعة من أهل الدار ينتمون لقبيلة ابن تومرت هرغة، أربعة منهم من قرابته، ولا تشمل اللائحة أخت المهدي وعميه ،وينتمي اربعة منهم إلى القبائل الموحدية الستة الأولى . بينما تسعة منهم هم غرباء عن القبائل الموحدية، كما لا يوجد ضمنهم أي من كبار أصحاب ابن تومرت.

أهل الدار ترجمة حرفية للمصطلح الأمازيغي أيت تِكِمِّي التي تردد في المصادر الموحدية[1]. والكلمة العربية الفصيحة المرادفة لها والمتداولة هي آل البيت، كالبيت العلوي والبيت الهاشمي، ومنها كتاب بيوتات فاس الكبرى. ومعلوم أن تكمي نوع من السكن خاص بالمجال المصمودي، ومجال هذا السكن، حسب لاوست، هو الأطلس الكبير الغربي بالدرجة الأولى[2]. وليست تكمي دائما منزلا مبنيا بالحجر، كما هو معروف في المجال المصمودي المتميز بغلبة الاستقرار، إذ وردت بمعنى الخيمة عند ابن القطان عندما رتب الخليفة عبد المومن "ساقة تيظاف (أي الحراسة) للمبيت في إيمي ن تكمي" إثر هجوم قبيلة بني بيغز على خباء الخليفة استهدف قتله ليلا سنة529 هـ[3] . ويبدو أن استعمال هذا المصطلح يعود إلى ما قبل العهد الموحدي، إذ كانت بعض القبائل تحمل هذا الاسم مثل قبيلة غفجومة التي ينتمي إليها العالم المشهور أبي عمران الفاسي الغفجومي وغيره[4]. وهو معروف كذلك كاسم لأحد أبواب مكناسة[5]. ويقصد بأهل الدار أو أيت تكمي حسب تعبير المصادر المشرقية، من يسكن مع الحاكم من الأقارب والعبيد والخدم والأنصار أو الحشم (المسخرين في القرن19 م) في داره أو قصره، في حله وترحاله[6].

يحتل أهل الدار الرتبة السادسة على سلم الطبقات، في أغلب المصادر الأندلسية الأولى ومن نقل عنها، في حين يذكرها كتاب الأنساب هي الأولى مباشرة بعد ذكر نسب كل من المهدي وخليفته عبد المومن، وهذا يفسر التحول الذي عرفته طبقة أهل الدار إذ انتقلت مكانتها الفعلية من الرتبة السادسة إلى الرتبة الأولى مباشرة بعد الحاكم، مع انتقال الحكم من بيت الأمغاريين إلى بيت بني عبد المومن. وتضم لائحة أهل الدار في عهد المهدي بن تومرت 20 شخصا من الرجال وحدهم دون النساء، وهم :سبعة من هرغة، أربعة من بعض قبائل الموحدين، والباقي غرباء من قبائل غير مصمودية أو من مدن مختلفة منها مدنا أندلسية. وضمن الهرغيين ثلاثة من إخوان المهدي وأربعة من أعمامه أو أبنائهم، كما سبق في اللائحة. فما دور هؤلاء في دار الحاكم؟

---

(1) - جاءت لدى البيدق، **المقتبس**...م. س. ص59. ابن صاحب الصلاة. **المن بالإمامة**...م س ص201 -202 , 333 ، ابن القطان، نظم الجمان... م س ص117 ،213 ، ابن غازي، **الروض الهتون**... م س ص11.، ومعروفة كذلك عند الحفصيين حسب الزركشي

(2) - **L'habitation chez les transhumants du Maroc central**. p. 146. Laoust (E),

التوفيق أحمد، **المجتمع المغربي**...م س ص.181.

(3) - ابن القطان، **نظم الجمان** ...م س ص.213 .

(4) - ابن الزيات التادلي، **التشوف**...م س ص87 .،.337

(5) - ابن غازي، **الروض الهتون**...م س ص.11.

(6) - راجع عن هذا المفهوم الفصل السابع من هذا العمل.

توجد قرابة المهدي في مقدمة أهل الدار، لأن الولاء ليس لشخص الحاكم المهدي ابن تومرت وحده، ولكن لبيته ككل في مجتمع لا يعترف بالفرد إلا داخل جماعته. ومن المفروض -حسب التقاليد القبلية -أن يساعد هؤلاء الأقارب الحاكم في تسيير مملكته، إذ هي ملك جماعي لهم. أما الآخرون من غير القرابة، فهم خدم البيت وأنصاره، وربما حتى عبيده الذين يساعدونه في الأمور المنزلية اليومية، كما توحي بذلك كلمة الخلاسي الذي سمي بها أبو موسى عيسى الصودي من أهل الدار، أو يساعدونه في تسيير دفة الحكم مادامت إدارة المملكة شأنا عائليا، أي أنهم يقومون بدور **الحشم** والخول في أي بيت آخر من البيوت العادية . ويحدد ابن الخطيب مهام بعضهم، بقوله إنهم "للامتهان والخدمة" ليلا ونهارا [1]. ويوضح المراكشي أكثر مسؤولية واحد منهم وهو أبو محمد وسنار بقوله "وهو رجل دباغ أسود من أهل أغمات... فاختصه أبو عبد الله ابن تومرت لخدمته، لما رأى من شدة في دينه وكتمانه لما يرى ويسمع، فكان يتولى وضوءه وسواكه والإذن عليه للناس وحجابته والخروج بين يديه"[2]. فهو يقوم بمهمة حاجب وخادم شخصي لابن تومرت داخل المنزل وخارجه. فأهل الدار من غير القرابة مرتبطون بالحياة الخاصة والعامة أو الرسمية للحاكم.

وبما أن الدار هي مقر الحكم، فقد كان من الطبيعي أن تتميز عن باقي البيوتات الأخرى في عدة مظاهر منها إتخاذ لقب تشريفي وتسميتها بيت **الأمغاريين**، منذ انطلاق الحركة الموحدية، وهو لقب أطلقه المهدي على أبيه على وجه التعظيم وليس لقبا قديما لبيته[3] واحتفظ أخوا ابن تومرت بهذا اللقب بعد تولي عبد المومن الخلافة. كما عين حراس لهذا البيت وهم المسمون بحفاظ إمن تكّمي الذين يشكلون أحد الأقسام الثلاثة لحفاظ قبيلة هرغة[4] . وتنحصر وظيفتهم، في المهام التي كان يقوم بها الجنادرة عند المرينيين[5] أو الشرطة العليا عند أمويي الأندلس أو الوقافين، كما عند الحفصيين الذين اقتبسوها من نظم الموحدين[6] أو المشاورية في القرن19 م[7]. واستمرت هذه الوظيفة بقصر الحجر، حسب ابن صاحب الصلاة، إذ كان لهؤلاء سقائف تعرف بسقائف إمي ن تكّمي بقصر

---

(1) - الناصري. **الإستقصا**...م س ج2.، ص94.، وانظر هوبكينز، **النظم الإسلامية**... م س ص .125.
(2) - المراكشي. **المعجب**...م س ص480 . الناصري وصف ابن تومرت «أنه شديد الحجاب إلا عند مظلمة. وله رجل مختص بخدمته والإذن عليه». **الاستقصاء**... ج 2 ص.93 .
(3) - البيدق. **المقتبس**... م س ص.27 .
(4) - **نفسه**، ص.59 .
(5) - ابن خلدون، **المقدمة**...م س ص.428 .
(6) - القلقشندي، **صبح الأعشى**... م س ج 5 ص.134 -133.
(7) - ثريا برادة. **الجيش المغربي وتطوره في القرن19**. منشورات كلية الآداب بالرباط. سلسلة الأطروحات رقم 37 سنة 1997 ص130.

الحجر في مراكش[1]. أما العبيد من أهل الدار فقد شيد لهم يعقوب المنصور سقائفهم بتمراكشت، وتحدث عنها العمري الذي اعتمد ابن سعيد المغربي الذي عاش، في القرن7هـ/13م، وعرف أهل الدار بغلمان الخلافة[2]، مما يعني انقسام أهل الدار إلى العبيد والقرابة، والأتباع. ومن أهل الدار الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن عمر الذي كان يخطب في المحافل الرسمية باللسانين الغربي والعربي إلى عهد يوسف بن عبد المومن[3].

وبعد أهل الدار يأتي الأشياخ. فمن هم الأشياخ وما هو دورهم في الدولة الموحدية؟

2- من الأصحاب (510-524 هـ) إلى الأشياخ (أصحاب التصرف والشورى 524 -627 هـ):

يتكون الأشياخ حسب ترتيبهم في هرم السلطة من : أهل العشرة (أيت العشرة) الذين تسميهم بعض المصادر بأهل الجماعة نظرا للتغيير الذي أدخل عليهم بعد وفاة المهدي، ويليهم أهل الخمسين (أيت الخمسين)، وأهل السبعين، في بداية الحركة، حسب بعض المصادر، ثم المزاوير. يذكر البيدق أن عدد أهل العشرة أو أهل الجماعة هو 12 شيخا، لأنه أضيف إليهم اثنان من أهل الدار، بعد وفاة المهدي، وهما: أبو موسى الصودي الخلاسي، وأبو محمد عبد العزيز الغيغائي اللذان كانا معدودين في عهد ابن تومرت من أهل الدار، وتمت ترقيتهما، ربما بسبب دورهم أثناء فترة كتمان وفاة المهدي التي دامت ثلاث سنوات[4]، وكان لكل واحد من أهل العشرة في عهد المهدي مهمة خاصة يقوم بها[5].

أما أهل الخمسين فقد ذكر ابن القطان أن عددهم كان هو 41 شيخا، وتساءل، في الأربعينات من القرن7 هـ/13م، عن بقية الخمسين المذكورة عند ابن صاحب الصلاة، وشكك في صحة ووجودهم. وقد تم استدراك بعض من توفي منهم أو قتل شهيدا[6]. وذكر البيدق أسماء أولئك المُسْتَدْرَكين في إحدى التمييزات لما بعد تمييز519 هـ المشهور، ومنهم أبناء الشيخ الشهيد[6] أبي موسى عمران بن يركان[7] ، وذكر لائحة من

---

(1) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**... م س .ص200-201 ,.333 . هويكينز، **النظم الإسلامية**... م.س .ص.146 -145.
(2) -العمري، **مسالك الأبصار**، القطعة المنشورة في ورقات عن الحضارة المغربية في عهد بني مرين لمحمد المنوني ص.303 .
(3) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**... م س .ص333 .,324,361 ,411 ,.434
(4) - البيدق، **المقتبس**...م س .ص25، أخبار المهدي... ص42، ابن القطان، **نظم الجمان**... م.س .ص.130.
(5) - انظر جدول أهل العشرة ص.110.
(6) - ذكر البيدق أسماء اربعة من أوائل المستشهدين من الأشياخ، **أخبار المهدي**... م.س .ص.94-95 .
(7) - البيدق، **المقتبس**... م.س .ص.35.

48 شيخا، واعتذر عن عدم ذكرهم بالتمام بقوله :"وبقي بعضهم لم أقف على أسمائهم"، والعدد الذي لم يقف عليه هو 2 من المستدركين من قبيلة هنتاتة[1]. والملاحظ أن عدد شيوخ القبائل من أهل الخمسين متفاوت، ولا يتناسب مع عدد أفخاذ القبائل وبطونها وحجمها .فاتحادية تينمل كان لها 20 شيخا، في حين أن الاتحادية المعروفة بالقبائل المتكونة من هركاكة ووريكة ونفيس وغيرها، لم يكن لها إلا شيخ واحد فقط، بل نجد ضمنهم شيوخا من غير قبائل الموحدين وهم 5 أو 6 غرباء آخى المهدي بينهم وبين هرغة، بعد انتقاله لتينمل سنة 518 هـ، مما يعزز مرة أخرى عدم تمثيليتهم القبلية[2].

أما هيئة أهل السبعين فقد ذكرتهم المصادر الأندلسية الأولى المكتوبة، حوالي منتصف القرن6 هـ/12م، واختفى ذكرها، في النصف الثاني من القرن السادس، إذ صرح ابن القطان بأنه لا يعرفها، لكنه قدم لائحة تضم سبعة أشخاص قال إنهم رجال مشورة ابن تومرت. وإذا دققنا في أسمائهم سنجدهم من شيوخ الموحدين المعروفين، كأبي مغاليف الهنتاتي أحد قادة هنتاتة المشهورين ومن مجلس أيت الربعين الخاص بالقبيلة والذي حقق أول نصر لقبيلة هنتاتة على المرابطين، سنة516 هـ[3]. ولا نجده ضمن أهل العشرة، ولا ضمن أهل الخمسين، مما يدل على أن هذه اللائحة هي لغير هاتين الهيئتين. كما أن البيدق لم يذكرهم في المقتبس من كتاب الأنساب، كطبقة مستقلة. ومن المحتمل أن تكون هذه الهيئة قد أنشئت، في بداية الحركة وأن يكونوا قادة المئات يرأسون 7000 جندي، وهو رقم قريب من الرقم الذي أعطاه ابن الخطيب عن عدد المبايعين لابن تومرت بتنميل وهو 10.000 شخص، وربما غير بعد ذلك اسمها باسم المزاوير هم المقدمون على الطوائف والجماعات وشيوخها، حسب العمري[4]. ونصادف هذا المصطلح، في المصادر، منذ عهد يوسف مع تزايد أعداد الجيش[5]، ثم زاد يعقوب المنصور من عددهم وأحدث مزاوير للغزاة، وسماهم بهذا الاسم[6].

ما أصول هذه الهيئات من الأشياخ؟ وما هو دورها؟ هل هي بقايا التنظيمات "لديموقراطية" لتقبيلت الأمازيغية ومجالسها المعروفة بإنفلاس أو أيت الربعين، كما ذهب

---

(1) - نفسه، ص.33.
(2) - نفسه، ص.40 -41 .
(3) - ابن القطان، **نظم الجمان**... م. س. ص87,90-91.
(4) - العمري، مسالك الأبصار..من نشر أبو ضيف م.س .ص94 .. هوب كينز، **النظم الإسلامية**...م.س .ص 133. والمصادر التي اعتمدها.
(5) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**... م. س. ص 408 ,424 .
(6) - البيدق، **المقتبس**... م. س. ص.57 - 58.

إليه روبير مونطاني، في دراسته عن الأطلس الكبير ومن أخذ عنه من الباحثين الأجانب أو المغاربة[1] ؟

تسير شؤون تقبيلت الأمازيغية من طرف مجلس يضم أربعين نفلوسا أو أمغارا. وربما تكون أقدم إشارة إلى هذه الهيئة، في المصادر العربية، تعود إلى سنة 140 هـ، بمناسبة الحديث عن تأسيس مدينة سجلماسة، إذ لم يبن أبو القاسم سمجوا بن واسول المكناسي المدينة إلا عندما "اجتمع إليه قوم من الصفرية فلما بلغوا أربعين رجلا" شرع في البناء[2] ويسير هؤلاء الأشخاص شؤون تقبيلت أو المدينة بالتناوب على الحكم فيما بينهم، لمدة زمنية محددة لا تتجاوز سنة في الغالب، وهو ما يسميه ابن خلدون دولة إمغارن، كما سبق الذكر[3]. لكن هذا الرقم لا علاقة له بأعداد مجالس أشياخ الموحدين 10 : و 50 أو70 ، وإن كان يحلو للبعض أن يقوم بإضافة أهل العشرة إلى أهل الربعين ليصل إلى أهل الخمسين دون سند في ذلك[4]. وهناك سبب آخر يدحض دعوى أصحاب هذا الرأي، هو أن سلطة الإمام المهدي المطلقة والمعتمدة على المهدوية والمعززة بفكرة العصمة، وبالتالي لا تناقش قراراتها فضلا عن أن تنتقد، ليست في حاجة إلى وجود نظام "ديموقراطي انتخابي" يدعم شرعيتها، إذا أمكن الحديث عن الشرعية آنذاك. وقد أشرنا إلى عدم تمثيلية الشيوخ للقبائل المصمودية، سواء من حيث عددهم بالنسبة لكل قبيلة، أو بوجود غرباء بينهم. كما كانت قيادة القبائل في الحرب، تسند كل مرة لشيخ من أصحاب ابن تومرت لا ينتمي بالضرورة إلى القبيلة التي يقودها. وقد لاحظ العمري انعدام العلاقة بين الأشياخ والقبائل الموحدية، حين ذكر أنهم "لم يكن لهم أتباع وعدة عسكرية، كأمراء مصر (قادة الألوف من الجيش)، وإنما هم أعيان من جماعة الموحدين تحضر عند السلطان للرأي والمشورة"[5]. ويؤكد صاحب الحلل أن هؤلاء الأشياخ لم تكن لهم أية سلطة في قبائلهم من قبل، بل كان أغلبهم خاملا، وإنما اكتسبوا تلك السلطة والجاه بفضل مكانتهم وحظوتهم عند المهدي، منبع كل السلط. وخلاصة القول أن هذه المجالس لم تنبثق من لب التنظيمات السياسية المحلية المصمودية ذات الطابع الديموقراطي؛ فهل هي اقتباس لتنظيمات مشرقية معينة؟ من المعلوم أن المهدي قلد الرسول في كثير من الأمور

---

(1) - هوب كينز، **النظم الإسلامية**... م.س. ص129 .، محمد زنبير، **المغرب في العصر الوسيط**..م.س. ص.105 .

(2) - البكري، **كتاب المغرب**... م.س. ص.149 .

(3) - نفسه.153 ، وكذا الفصل الأول من هذا العمل.

(4) - Brignon et autres, **l'occident Musulman**, Publication du centre des études arabes-rabat, 1994.

(5) - العمري، **مسالك الأبصار**...القسم المحقق من طرف ابو ضيف م.س. ص.94.

في اسمه واسم أبيه، وفي الهجرة، والبيعة[1]. فهل قلده في وضع هذه التنظيمات كما ذهب إلى ذلك أحد الباحثين[2] ؟

لا يوجد في سيرة الرسول ذكر لما يطابق مثل هذه الأرقام، سواء في بيعة العقبة الأولى أو الثانية، سوى العشرة المبشرين بالجنة، ويمكن أن يماثلهم أهل العشرة لدى المهدي فماذا عن أهل 50 وأهل70 ؟

نجد، قبيل قيام الثورة العباسية، تنظيمات سرية مكونة من عدد من الدعاة والنقباء والعمال، لكن أعدادها الواردة في المصادر لا تطابق أعداد المجالس الموحدية[3]. فماذا تقول المصادر؟

لم يطلق اسم الأشياخ على هذه الهيئة إلا بعد وفاة المهدي، سنة 524 هـ، وبالضبط، في غزوة عبد المومن الطويلة 534-541 هـ/1147-1147م[4]. ويطلق مصطلح الأشياخ على أعيان طبقات الموحدين، بما في ذلك طبقة أهل الدار من خول وحشم، لأن كلمة الشيخ هي للتقدير والاحترام لمكانة الشخص وسنه أكثر مما تعني شيئا آخر. وقد أطلق عليهم هذا المصطلح، بعد وفاة ابن تومرت، وكان يطلق عليهم قبل ذلك الأصحاب أو الطلبة أحيانا[5].

نجد مفهوم الصحبة في عهد الرسول(ص) الذي يختلف المفسرون والأصوليون حول معناه كل من زاوية تخصصه[6]، وهو أيضا من المفاهيم الأساسية عند المتصوفة؛ والمهدي نفسه تحدث في كتابه "أعز ما يطلب" عن آداب الصحبة وحصرها في ثمانية[7]. والصحبة لها عدة معان في القواميس العربية، فهي مشتقة من المعاشرة والملازمة، وتطلق على معتنقي مذهب معين مثل أصحاب أبي حنيفة أو أصحاب مالك، وتعني كذلك الانقياد والمتابعة. فكل هذه المعاني تنطبق على أتباع ابن تومرت في رباط العبادة بهرغة، والبيدق لا يتحدث عن أصحابه المغاربة فقط، بل ذكر أصحابه المشارقة الذين تعرف

---

(1) - فتحة محمد، **النوازل الفقهية والمجتمع**... ص.152 .

Povançal.L. "La naissance d'un empire, Ibn Tumert et Abd al Moumen", Islam d'occident, Paris, 1948 p 81-82.

(2) - عز الدين موسى، **الموحدون في الغرب الإسلامي** ..م.س .ص.86 .

(3) -أبو ضيف مصطفى، **دراسات في تاريخ الدولة العربية**، دار النشر المغربية -الدار البيضاء1983 ، ص.200.

(4) -البيدق، **أخبار المهدي**... م.س .ص.41.

(5) -البيدق، **كتاب المقتبس**... م.س .ص28,، 29، 36.

(6) -خليل عبد الكريم، **محمد والصحابة**، السفر الأول سيناء للنشر .مصر، ط1 1997 ص.10.

(7) - ابن القطان، **نظم الجمان**..م.س .ص.129.

عليهم في **الرباطات** المشرقية وهم "الذين آمنوا به **وانقطعوا إليه وآخوه في الله**"، وذكر منهم 42 مريدا[1] . فهؤلاء الأصحاب كانوا من مريدي المتصوف ابن تومرت قبل مبايعته بهرغة، سنة 515 هـ إلى سنة518 هـ/1125م. وليس صدفة أن يستعمل من ترجم كتاب الحسن الوزان وكتاب مارمول كلمة المريدين للحديث عن أتباع المهدي ومعتنقي مذهبه[2]. وتقسيم المهدي لأصحابه، إلى مجموعات من 50 و70، لها ما يشبهها لدى المتصوفة، إذ نجد لديهم طبقات مرتبة ترتيبا هرميا في مقدمتها القطب والأوتاد وغيرهما من المراتب، لكن هذا لا يعني أنها اقتبسها منهم[3].

كان ابن تومرت، منذ عودته من المشرق، ينتقي أصحابه، أو على الأصح يتعلقون به تعلق المريد بالشيخ، بدءا بالمغرب الأوسط، لكن غالبيتهم انضمت خلال جولته الأطلسية، قبل الاستقرار بهرغة. ويشكل أشياخ اتحادية تينمل ثلاثة أخماس من مجموع أهل الخمسين. فلم تكن لهم، قبل قيام الحركة الموحدية، سلطة ونفوذ في قبائلهم، باستثناء يوسف بن وانودين الهنتاتي الذي كان أميرا في قومه وقائدا لقبيلته وانضم بهذه الصفة للحركة في بدايتها. وبما أنهم كانوا من مريدي ابن تومرت أو تلامذته، لم يراع في اختيارهم التمثيلية القبيلة،[4] بل منهم ثلاثة شيوخ ينتمون لبيت واحد، وهم أولاد تمارا الكدميوي مثلا[5]. أسندت لهؤلاء المريدين، بعد تكوين الدولة بتينمل، مهمة تسيير شؤونها كما كانوا من قبل يسيرون رباط هرغة، وأصبح لهم، نتيجة لذلك، جاه ونفوذ سياسي بين قبائل الموحدين، إذ "انعقد لهم من البر والتكرمة ما أنهضهم إلى أن تسمع بقية عوامهم منهم وتطيع"[6]. فانتقال الأصحاب أو المريدين القدماء إلى أهل الشورى والتصرف، جعلهم يتحملون مسؤوليات مختلفة في تسيير الدولة الناشئة بجبال درن، كنشر الدعوة والادارة، وعمل أهل العشرة منهم، كوزراء أي مساعدي ابن تومرت[7] وكقواد للجيش . وينقسم الأشياخ، حسب طبقاتهم، إلى أشياخ كبار وأشياخ صغار، يقابلهم في المصادر المشرقية قادة الألوف والأمراء وقادة المئات[8].

---

(1) - البيدق، **كتاب المقتبس**..م. س، ص28 ,36,29.
(2) - الوزان الحسن، **وصف إفريقيا**..م. س ج1، ص. 100.
(3) - نفسه، ج1 ص210 –211 .. انظر كذلك أحمد النقشندي الخالدي، **الطرق الصوفية**. تحقيق أديب نصر الله، مؤسسة الانتشار العربي بيروت لبنان 1997 ص.13-19 .
(4) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م.س .ص151، ابن القطان، **نظم الجمان**..م.س .ص31 .،.230-231
(5) - البيدق، **المقتبس**... م.س .ص.34 .
(6) - ابن القطان، **نظم الجمان**... م.س .ص81.. مجهول، **الحلل الموشية**..م.س .ص.108 .
(7) - مجهول، **الحل الموشية**... م.س .ص108 -109 ، ابن القطان، **نظم الجمان**... م.س .ص.74 -75.
(8) - القلقشندي، **صبح الأعشى**... ج 5 ص.133.

لم تكن هيئة الأشياخ مغلقة، إذ إن ضم إليها أعيان المناطق التي يستولي عليها الموحدون، كبني حماد بالمغرب الأوسط، كما ألحق بها يوسف بن عبد المومن "هلال أخا غانم (بن مردنيش) والكبار من اخوته في جملة أشياخ الموحدين وأبناء الجماعة لحضور مجلسه العالي و**مباشرة الأمر وما يدور من الآراء، تشريفا وتقريبا**"[1] . كما انضاف إليهم قبل ذلك أشياخ الجند المرابطي من قبائل مسوفة ولمتونة الأندلسي في مقدمتهم بني عزون، وأشياخ العرب وأشياخ زناتة وغيرهم من الجماعات المتحالفة مع الموحدين[2]، لكن مكانتهم كانت أقل من رتبة أشياخ الموحدين .

وبعد وفاة ابن تومرت، سنة524 هـ/1130م، طرأت بعض التحولات على وضعيتهم وعلاقتهم بالبيت المومني الحاكم، أملتها التطورات السياسية التي شهدتها الدولة الموحدية، حتى سنة 548 هـ، إذ قلص عبد المومن من دورهم الإداري بعد تعيين أبنائه السادات على رأس الولايات يؤازرهم أبناء الأشياخ المعروفين بالحفاظ الذين كونهم بمراكش [3]، واحتفظ بدورهم الشورى المتمثل في حضور مجلسه العالي أو البساط، كما كان يسمى أحيانا، وفي حضور ولاية العهد وأخذ البيعة للخلفاء، كما يسند لبعضهم إدارة الأقاليم إلى جانب السادات أبناء الخليفة[4]. غير أن تواكلهم وتقاعسهم، ابتداء من عهد المنصور، أدى إلى توتر علاقتهم مع البيت الحاكم، فكان من نتائجه هزيمة العقاب609هـ/1210م، وبلغ مداه في عهد المأمون الذي اضطر للقضاء عليهم، خلال الفترة الممتدة من627 هـ/1230م إلى 332 هـ/1236م. واختص زعماء الفرقة المسيحية والقبائل المساندة له، خارج قبائل الموحدين، بهذه الوظيفة[5]، وظل الحفصيون محافظين على هذه الهيئة كما ورثوها عن الموحدين تقريبا[6].

3- طبقة الطلبة كنموذج لأصحاب وظائف القلم:

يغلب جانب وظيفة القلم، لدى بعض الطبقات الموحدية، على جانب وظيفة السيف، والعكس أيضا صحيح لدى بعضها الآخر. وتمثل طبقة الطلبة أهم نموذج يغلب عليها جانب وظيفة القلم، بينما تمثل طبقة الحفاظ أهم نموذج تغلب عليهم وظيفة السيف.

(1) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**... م.س. ص426 .. المراكشي، **المعجب**...م. س . ص 367,302

(2) - **نفسه**، ص133 ..179 ، وعن أشياخ لمتونة ومسوفة، نفسه، ص219 .,404 ، عن أشياخ الأندلس، وعن معاملة الموحدين للأرستقراطيات القديمة، انظر المراكشي، **المعجب**...م.س. ص302 - 303.. 367 -368

(3) - مجهول، **الحلل الموشية**... م.س. ص.151 .

(4) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**..م.س. ص133 .,217 -216 ، ابن عذاري، **البيان المغرب** ...م.س.ص84.,79 ., 171

(5) - الناصري، **الاستقصا**... م.س ج 2ص. 234 -233. وانظر عن أسباب هذا التوتر ضمن هذا العمل ص

(6) - احتفظ الحفصيون بما ورثوه عن الموحدين، من تقاليد الحكم وضمنها طبقة الأشياخ الذين كان لهم شفوف داخل الدولة، إذ كان شيخ الموحدين برأس المزاوير وكان يعين من قبل السلطان وتضاف إليه أحيانا رتبة الوزارة أو الحجابة، ابن قنفد القسطنطيني، **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، تحقيق محمد الشاذلي النيفر، تونس 1968 ص .133القلقشندي، **صبح الأعشى**...م.س ج 5ص.134.

لا تكفي التعريفات المباشرة الواردة في المصادر، لتحديد مهام طبقة الطلبة، لأنها تعريفات مختزلة وناقصة، مثل تعريفها من طرف العمري بأنهم "أهل العلم والقرآن". والطريقة المثلى لفهم طبيعة هذه الطبقة الرابعة ودورها، هي البحث عن مدلول الكلمة في الإشارات المتناثرة في ثنايا المصادر.

فالطالب في الاصطلاح المغربي الأندلسي، قبل العهد الموحدي، هو العالم، لأنه لا ينقطع، مهما كانت درجة تحصيله ومستواه العلمي، عن طلب العلم[1] .

وقبل التعرف إلى مهام الطلبة عند الموحدين الذين أدرجهم ابن تومرت، في الرتبة الرابعة، من سلم طبقاته ، لابد من الإشارة إلى أن ابن تومرت كان هو نفسه طالبا[2]، نعتته المصادر المتأخرة بالعالم والسلطان[3]. ويعرف أهمية العلم والعلماء رغم منحاه الزهدي، وبنى دعوته على العلم، وليس صدفة أن يفتتح مؤلفه الأساسي بجملة "أعز ما يطلب، وأنفس ما يدخر، وأحسن ما يعمل به العلم الذي جعله الله سبب الهداية إلى كل خير". كما قضى قسطا من عمره مع طلاب العلم بالمشرق والمغرب، وأثناء رجوعه كان يحرص، أثناء توقفه بالمدن المغربية، على مناظرة الطلبة، كما فعل في عدة مدن كفاس .كما كان طلاب العلم يشكلون جل أتباعه قبل أن يعلن دعوته، كعبد المومن وإسماعيل أكيك وابن تحضريت بأغمات. وكانوا يساعدونه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في طريق دعوته من المشرق، وهم أول من بايعه بتينمل، وكلفهم بالدعاية لدولته الناشئة وبعثهم إلى القبائل، ففي سنة 520 هـ بعث طلبة الموحدين إلى قبائل المصامدة، "منهم أبو موسى ابن تيموق إلى أهل تيفنوت وأبو محمد عطية المنكصي إلى غجدامة"[4]. وكانوا يدرسون المنضوين للحركة ويعلمونهم القرآن والتوحيد[6]. ويذكر مارمول أن عددهم كان " 16 طالبا يقومون بوظيفة الكتاب، وكان أولئك يبتون في القضايا ويخرجون إلى البادية كلما اقتضى الأمر القيام بالدعوة لمذهبهم والتعريف به لأنهم كانوا كلهم دعاة". ومن ضمن مهام طلبة الموحدين كذلك، قراءة الحزب القرآني وبعضا من تآليف ابن تومرت بالأمازيغية والعربية،

(1) - انظر عملنا، **تاريخ التعليم في المغرب الوسيط**، م. س. ص.129 - 130 .
(2) - ابن خلدون، **كتاب العبر** ...م.س، ج 6،، ص226 .. النجار، **المهدي بن تومرت** ...م.س، ص.132 .
(3) - النجار، **المهدي ابن تومرت** ...م.س، ص.394 .
(4) - البيدق، **أخبار المهدي** ...م.س، ص.94 .
(5) - ابن القطان، **نظم الجمان** ...م.س، ص26 - 27 . ,127 . مجهول، **الحلل الموشية** ...م. س، ص. 110 .
(6) - مارمول، **إفريقيا** ...م. س، ص 330 .

سواء في الحل أو الترحال، وعدد هؤلاء في الحركة 50 حزابا[1]. وهو نفس عدد الحزاب الذين احتفظ به المرينيون في حركتهم[2].

ومن بين مهام الطلبة الآذان، وقد انفرد البيدق صاحب المقتبس بذكر المؤذنين وجعلهم في الرتبة 21 في سلم التنظيمات، وذكر أن سبعة منهم يؤخذون من سبع قبائل ومنها كومية المنظمة للموحدين بعد مدة، ومنهم 8 من الحضر، بعضهم يؤذن في صوامع معينة بمدينة مراكش، وبعضهم الآخر يرافق الخليفة، في ترحاله، ويؤذن في المحلة[3].

وكل من تولى من الطلبة مسؤولية معينة يرتسم في الزمام أو ديوان العسكر للحصول على العطاء والإقطاع والكسوة، وظلوا يحملون السلاح، كبقية الطبقات الأخرى حتى عهد الناصر[4]. ومن بين كتاب المهدي الأوائل ابن تعظيمت، وملول بن إبراهيم الصنهاجي الذي أعطيت له أسهم بأونابن على ذلك[5].

فطلبة الموحدين هم المتعلمون من مريدي وتلاميذ ابن تومرت لعبوا أدوارا متعددة : فمن الدعاة للحركة إلى تقلد وظائف القلم والوظائف الدينية والإدارية ويتميزون عن طلبة الحضر بانتمائهم للقبائل الموحدية وبالازدواجية اللغوية (الأمازيغية والعربية)، "وكان الموحدون لا يقدمون للخطابة والإمامة إلا من يحفظ التوحيد باللسان البربري"[6] ، حتى في المدن التي تعربت، جزئيا، منذ فترة طويلة كمدينة فاس التي استبدلوا منذ دخولهم إليها خطيب القرويين السابق "بأبي الحسن بن عطية من أجل حفظه اللسان البربري"[7]. وبالإضافة إلى هذا الصنف من طلبة الموحدين، أضيف إليهم صنف آخر سمى طلبة الحضر .

طلبة الحضر

أضاف عبد المومن، عندما توطد حكمه، في وقت يصعب تحديده، هذا الصنف. ولاحظ ضعف وضعيتهم المادية وإقلالهم الظاهر، فأقرضهم من مال المخزن 1000 دينار لكل واحد منهم، على وجه القراض ليتاجروا به من أجل تحسين وضعيتهم المادية[8].

---

(1) – نفسه، ص59 .. المراكشي، **المعجب** ...م.س، ص485 .. عن موقف فقهاء المالكية من قراءة الحزب جماعيا يقولون بكراهيته، الونشريسي، المعيار ...م.س، ج11 .. ص112 .,.115 -116
(2) – ابن الحاج النميري، **فيض العباب** ...م.س، ص.67 .
(3) – البيدق، **المقتبس**...م.س، ص.58 .
(4) – **نفسه** . ص.58 .
(5) – **نفسه**، ص .41-42 .
(6) – ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب**...م.س ص71
(7) – **نفسه**، ونفس الصفحة
(8) – ابن القطان، **نظم الجمان** ...م.س، ص138 .

ويعود إلحاق علماء المدن بالطبقات الموحدية إلى تكوينهم العلمي الرفيع وخبرتهم ببعض الميادين مقارنة بطلبة المصامدة البدويين، وأسندت إليهم المهام التي يتقنونها أكثر طلبة الموحدين، مثل كتابة الرسائل بالعربية وانتساخ المراسلات، ومن هنا اختير جعفر بن عطية كاتبا ثم وزيرا، سنة541 هـ/1147م، وإلقاء الأشعار بالعربية في المناسبات المختلفة لتخليدها، وإلقاء الدروس في المجالس العلمية السلطانية، وتعليم أبناء البيت الحاكم وأبناء الأشياخ، وإدارة خزانة كتب البلاط، وممارسة الطب والصيدلة. وكان الموحدون يستدعون المزيد من طلبة الحضر، في بعض المناسبات، لذلك يقل عددهم أو يكثر، حسب الظروف[1]، وأهم ما يستدعون إليه هو حضور المجالس العلمية أو التدريس .ونظرا لكثرة عددهم، عينت لهم أماكن خاصة بالبلاط، منها محضرة أو مدرسة، كما حدد مكان جلوسهم بالمجلس السلطاني. وكأي طائفة كبيرة، عين لهم مزوار، أولهم أبو الحسن الإشبيلي في عهد عبد المومن حتى توفي، سنة567 هـ/1172م[2] ، فخلفه المالقي حتى سنة574 هـ/1180م، ثم أبناؤه[3] ، تم تولاها ابن القطان أبو الحسن من عهد المنصور حتى عهد يحي الناصر[4]. ومنهم في عهد السعيد، أبي محمد العراقي[5]. ويتبين من ما أورده ابن صاحب الصلاة عن أعمال المالقي مزوار الطلبة في عهد يوسف، أنه كان مكلفا برفع المسائل وبرفع أشعار الشعراء وإخراج الجوائز لهم وبالخطابة والصلاة بالخليفة، ومكلف كذلك بقراءة الرسائل الواردة على الحضرة. وكان في مسلاخ وزير لأمانته وتمكنت حظوته لدى عبد المومن وابنه يوسف[6]. فمهمة مزوار الطلبة لا تختلف، في شيء، عن مهمة وزير الفضل لدى الحفصيين، إلا في الاسم فقط[7] .

ويستخلص، مما سبق، أن دور الطلبة، في الدولة الموحدية، لا يختلف عن دور المتعلمين في جل الدول الإسلامية، إلا في الاسم [8] وفي الدور الذي قاموا به قبيل تأسيس الدولة والمتمثل في نشر المذهب التومرتي والدعوة له لما كانوا في رباط هرغة. وتسمية الدولة الموحدية "بدولة الطلبة" تسمية مبالغ فيها[9] ، إلا إذا أخذنا في الاعتبار

---

(1) - المراكشي، **المعجب** ...م.س، ص .484 -483 .

(2) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة** ...م.س، ص95 .,.161-160

(3) - نفسه، ص71 .. وعدة صفحات ابن الآبار، **التكملة**، ترجمة١٣٩٤ ، المراكشي، **المعجب** ...م.س، ص.375 -377 .

(4) - ابن عبد الملك، **النيل والتكملة** ...م.س، س8.. ص195 –165 .. انظر المنوني عن أسماء مزاور طلبة الحضر، **العلوم والآداب** ... ص38.. والمصادر التي يحيل إليها.

(5) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ...م. س، ص. 370 -371 .

(6) - **نفسه**، ص71,. 139, 209,201 ,.210

(7) - القلقشندي، **صبح الأعشى** ...م.س، ص .139 .

(8) - حمل العلماء عند الفاطميين إسم **الدعاة** ويترأسهم داعي الدعاة، بينما يعرفون عند الخوارج بالغرب الإسلامي **بالعزابة**.

(9) - عبد الهادي التازي، المقدمة التي عقدها لكتاب ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة** ...م.س، ص.54.

كون أغلب موظفيها ومتسخدميها من المتعلمين. وبهذا الاعتبار، أطلق لقب الطلبة على المسؤولين الإقليمين، بما فيهم المستخدمين من غير الموحدين الذين تثب أسماءهم في زمام العسكرية للمواساة كل شهر، مثل ابن صاحب الصلاة ورفاقه الأندلسيين[1] ، كما يستنتج من الرسائل الرسمية وبعض المصادر[2] . وأطلق اللقب على السادات (الأمراء)[3] لثقافتهم العالية، بدون شك.

4 - أصناف وظائف أهل السيف :

يصنف الجيش الموحدي، كغيره من الجيوش الإسلامية، حسب أزيد من 14معيار مما يعطي أكثر من 14 صنفا من الجنود، منها الوضعية القانونية للجندي :الحرية أو العبودية. ومنها العطاء: مرتزق أو متطوع. ومنها نوعية السلاح: فارس، راجل، رماة، الطبالة، البنادة. ومنها الانتماء للعصبية الحاكمة (الدخليين) أو أجنبي عنها (الحشم). ومنها الانتماء للقبيلة بالبادية أو للحاضرة، ومنها المهام المطلوبة منه (كالحفاظ، وهم فرق من الموحدين تعمل كمليشيا وبالتناوب للحفاظ على الأمن داخل الإمبراطورية وتشكل حامية بالمدن الرئيسية)، ومنها مدة الاشتغال: مؤقت أو دائم (فهناك جيش مرتزق ويسمى الجموع، يكون بمراكش لا يبرحها، ويبلغ عدده بمراكش 10.000 جندي من الموحدين ومن غيرهم. وصنف آخر يدعى العموم، وهو جيش احتياطي يستقر أفراده في بلدانهم ويشتغلون بأعمالهم الفلاحية أو غيرها ويستنفر عند الضرورة للقيام بحركة كبرى)[4]. أما المتطوعون من الموحدين وبالتناوب للجهاد في الأندلس فيسمون الغزاة ولهم مزاويرهم. وأهم أصناف الجيش الواردة في طبقات الموحدين:

*الحفاظ :

مصنفون في الطبقة الخامسة. والحفاظ من المصطلحات التي تبدو للوهلة الأولى مشوشة ومضطربة في المصادر، إذ يعرفهم مؤلف الحلل الموشية مثلا "بصغار الطلبة"[5] وهو تعريف صحيح بالنظر إلى كونهم من المتعلمين، ولكنه غير كاف ولا يبين مهامهم، كما أنه تعريف لا يتفق مع ما ورد بشأنهم من معلومات، عند البيدق وفي المصادر الأخرى .

---

(1) - نفسه، ص141 ...339 -340

(2) - نفسه، ص92 - 93 .

(3) - التجاني، **رحلة** ...م.س، ص361 .. ابن عذاري، **البيان المغرب** ...م. س، ص231.

(4) - المراكشي، **المعجب** ...ص484 -383 .. ثريا برادة، **الجيش المغربي**...م. س. ص132 .

(5) - مجهول، **الحلل الموشية** ...ص109 .

يتضح من خلال الشوارد المتناثرة، في المصادر، أن المقصود بالحافظ في كتب التراجم هو حافظ الحديث والمتبحر في علومه، وهي درجة علمية لا يبلغها إلا القلائل، مثل الحافظ ابن عبد البر مثلا. فهل اقتبس الموحدون هذا المصطلح الحديثي وأطلقوه على من يحفظ القرآن ومؤلفات المهدي والمصنفات الحديثية الأخرى؟

نجد، في المصادر، ما يوحي بمثل هذا الافتراض، خاصة النص المشهور لصاحب الحلل حول تكوين الحفاظ الذي يربط فيه بين الحفاظ وحفظ مؤلفات ابن تومرت وغيرها من المصنفات[1]، ويعززه ما عرف عن عناية الموحدين الكبرى بالحديث وتشجيع الدراسات الحديثية[2]. لكن يتضح بالرجوع إلى المصادر، أن المصطلح لا علاقة له بهذا الحفظ، فهم بالفعل صغار الطلاب (العلماء)، كما يقول عنهم صاحب الحلل، ولهم مهام يقومون بها .

عند استقراء الكلمة، في تلك المصادر، نجدها ترد بصيغة المفرد والجمع. فالحفاظ، بصيغة الجمع، لدى البيدق وغيره هو الحامية العسكرية التي تحافظ على الأمن في أقاليم الإمبراطورية وتستقر بقصبات المدن الرئيسية، إذ تقوم بدور الشرطة أثناء الحركة أو في المدن. وبهذا المعنى عرفهم العمري، حين قال: "**المقدمون على الأعمال لحفظها**"[3] ، وبهذا المعنى استعمل مصطلح الحفاظ في بداية العهد المريني. يؤخذ الحفاظ من جل القبائل الموحدية، باستثناء هرغة التي يؤخذ منها ثلاثة أضعاف ما يؤخذ من الحفاظ من القبائل الأخرى، قسم منهم مكلف بحفظ الأمن أمام البلاط ويسمون حفاظ إمي ن تڭمي (باب الدار)، وهو ما يشكل امتيازا لها لأسبقيتها على باقي القبائل الموحدية. في حين لا يؤخذ الحفاظ من قبيلة هسكورة، لسبب غير معروف، ومن قبيلة كومية التي سجلت في الديوان الموحدي، سنة557 هـ[4] ، وإن كانت كومية من حفاظ بني عبد المومن كما سبق، كما لا يؤخذون من الجند ومن العبيد لأنهم لا ينتمون للعصبية المصمودية ولأن لهم مهام أخرى. ومن أمثلة الحفاظ الحامية التي عينها يوسف بن عبد المومن، سنة565 هـ، بشرق الأندلس، إذ "أسكن صنهاجة وهسكورة في شاطبة ومرسية، وأسكن في لورقة أهل تينمل..."[5]. ومما يؤكد طبيعة وظيفتهم السيفية أن الحفاظ كانوا

---

(1) - نفسه، ص.150 - 151 .
(2) - الحسيسن عبد الهادي، **مظاهر النهضة الحديثية**..م. س. ص. 163-267.
(3) - العمري، **مسالك الأبصار**، القطعة المنشورة في ورقات عن الحضارة المغربية لمحمد المنوني ...ص.303 .
(4) - البيدق، **المقتبس**...م. س. ص. 59.
(5) - البيدق، **أخبار المهدي**...م. س. ص.89 .

يستعرضون كما يستعرض الجند بشكل دوري، كما حدث في الأندلس في عهد يوسف[1] وحسب ابن خلدون، فإن الذي يحدد مساحة المجال الذي تستولي عليه أية دولة هو عدد رجال عصبيتها المتوفرين لتوزيعهم كحامية للمجال الذي استولت عليه[2]. ويسمى ابن عذاري هذه الحامية، في عهد المرتضى، بالزماميين المرتبين أي المسجلين في الزمام ويتلقون راتبا، كما هو شأن حامية قصبة مدينة طنجة، سنة654 هـ[3].

أما الحافظ بصيغة المفرد، فالمقصود به في المصادر هو والي المدينة أو والي منطقة معينة، مثل حافظ بسكرة[4]، أو المتولى على قبيلة معينة، كالحافظين اللذين كانا واليين على قبيلة ݣزولة حتى ثارت عليهما، سنة548 هـ[5]، أو حفاظ القبائل السوسية في عهد أبي دبوس[6] . وللحفاظ، كوال للمدينة أو شيخ على قبيلة، دور مدني وعسكري، كما يتجلى عند الحفصيين ورثة الموحدين حتى في تنظيماتهم[7]. ويمكن القول إن الحافظ هو القائد أو الباشا، في التاريخ المعاصر المغربي أو المحافظ في الشرق الآن. وقد دخلت كلمة الحفاظ إلى الأمازيغية على صيغة إحفيظن وتعني الشرطة في مجال هسكورة[8].

ستعرف هيئة الحفاظ أي الولاة منهم، في سنة547 هـ، تغييرا مهما تمثل في إقدام عبد المومن على جمع النجباء من أبناء أشياخ الموحدين من مختلف مدن الإمبراطورية الموحدية من إشبيلية وفاس وتلمسان بمراكش، منهم 50 طفلا جاءوا من إشبيلية برفقة أستاذين. وبلغ عددهم 3000 طفل، في سن واحدة، كأنهم أبناء ليلة واحدة[9] ، وجمع معهم أبناءه، وأخضعهم، مدة ستة أشهر، لتكوين مذهبي بتحفيظهم لمؤلفات المهدي باللغتين الأمازيغية والعربية، ولتدريب عسكري. وبعد أن كمل مراده فيهم، عينهم على رأس الولايات بمعية أبنائه، وعزل حفاظ الموحدين القدماء، من الجيل الأول المعاصرين للمهدي، أو الذين كانوا أشياخا، عن ولاية الأعمال والرئاسة، وقال لهم :"**العلماء أولى منكم، فسلموا لهم، وأبقاهم في المشورة**".

---

(1) – ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة** ..م. س، ص.221 .
(2) – ابن خلدون، **المقدمة** ..م.س، ص.285 - 286 .
(3) – ابن عذاري، **البيان المغرب** ..ص410.، وانظر أيضا الثائر محمد بن عبد الكريم الرجراجي بالمهدية في إفريقية سنة695 هـ كان أبوه ضمن حاميتها ومحسوبا على حامية كومية، التجاني، **رحلة التجاني** ... م. س، ص.350 .
(4) – ابن خلدون، **كتاب العبر** ..م.س، ج 6.، ص195 .. هوب كينز، النظم الإسلامية ..م س ص.147 .
(5) – البيدق، **أخبار المهدي** ..م.س، ص.77 .
(6) – ابن عذاري، **البيان المغرب** ..م.س، ص.459 .
(7) – القلقشندي، **صبح الأعشى** ..م.س، ج5.، ص.135.
(8) –التوفيق أحمد، **المجتمع المغربي** ..م.س، ص.489 .
(9) – ابن القطان، **نظم الجمان** ..م.س، ص140-139 .. مجهول، **الحلل الموشية** ..م.س، ص. 150 -151 .

وللحفاظ، في الغالب، تكوين وثقافة واسعة وكفاءة عسكرية وسياسية، مثل يحي ابن سنان من أبناء الخمسين الذي تولى على حصن طبيرة وشنتمرية والعليا، سنة 565 هـ، مدة 12 سنة، ثم نقل بعدها إلى أشغال مرسية[1]. وأهم نموذج للحفاظ هو ابن وانودين الهنتاتي، وأبي يحيى ابن الشيخ والي بطليوس[2] ، غير أن بعضهم لم يكن يتوفر على مثل تلك الكفاءة، كالطالب الحافظ يحيى بن يمور على مدينة لبلة الذي ارتكب أخطاء سياسية[3] ، والشيخ أبو محمد عبد الحق الجنفيسي الذي "كان رجلا مقعدا لكنه يركب على الدابة وينزل عنها برجال مستبدين لذلك وعبيد"، عينه المرتضى على سجلماسة ودرعة حتى ثار عليه فيها أحد مساعديه وهو القطراني، سنة 655 هـ / 1258م[4].

***القبائل:**

تتفق أغلب المصادر على أن وظيفة القبائل الموحدية هي الدفاع عن الدعوة ونصرة الدولة. يقول الناصري : "وسائر القبائل لمدافعة العدو"[5]. وقد اقتبس الموحدون مصطلح القبيلة من اللغة العربية غير أنهم لم يستعملوه بالمفهوم السائد، في شبه الجزيرة العربية في الجاهلية وصدر الإسلام، أي المجموعة المنتمية لأب مشترك حقيقي أو وهمي، بل استعملوه كمصطلح للتعبير عن المجموعات البشرية التي كونت العمود الفقري لجيشهم، إذ لم يراع في تكوينها عامل القرابة الدموية ولا تنتسب لجد مشترك حقيقي أو وهمي، لأن المجتمع الأمازيغي، في أغلبه إلى بداية العهد الموحدي، لم يكن يعرف مثل تلك الأنساب، بسبب سيادة الأسرة ذات النسب الأمُومِي على تنظيمه الاجتماعي، والتي لا تعطي أهمية كبرى للأنساب مثل قبائل الأسرة الأبيسية[6] ، بل روعي في ترتيبها ثلاثة معايير أساسية:

المعيارالأول : السبق إلى الانضمام للدعوة الموحدية، أسبقها مجموعة هرغة سنة 515 هـ، وتبعتها 5 مجموعات أخرى، قبل518 هـ / 1125م، وهي التي انبنت عليها الدولة الموحدية إلى سنة524 هـ / 1130م[7]، وانضمت لها أغلبية هسكورة وصنهاجة في أوائل عهد عبد المومن، وآخرها كُومية سنة557 هـ / 1162م. لكن بعض أقسام صنهاجة لا

---

(1) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة** ... م. س، ص 9-310 ،، وعن حافظ آخرين، **نفسه**، ص66 ,75 ,128 ,217 ,295 .
(2) - **نفسه**. ص.305 .
(3) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ...م. س، ص.52 -53 .
(4) - نفسه، ص.410-411 .
(5) - الناصري، **الاستقصا** ...م.س، ج 2 ،، ص.94 .
(6) - انظر الفصل الخامس من هذا العمل
(7) - البيدق، **المقتبس** ...م.س، ص.40.

يعتمد عليهم في الحضور ولا في التمييز كأنهم رعية[1] ، ولعل السبب في ذلك أن هذه البطون لم تنضم للموحدين مع باقي بطون هذه القبيلة.

المعيار الثاني : القرب الجغرافي بين هذه المجموعات لحاجة الدولة له في التمييز (الاستعراض العسكري) وغيره، ذلك أن التمييز كان يعتمد ليس على وثائق إدارية تسلمها مصالح الدولة، وإنما على معرفة الناس بعضهم ببعض، بحكم المعاشرة والجوار الجغرافي، وتلك مهمة يتكلف بها الأشياخ والمزاوير، لهذا يمكن للمزاوير أن يدخلوا أشخاصا في مجموعتهم ليضخموا من أعدادها وعطائها[2] ، كما كانت ظروف الحرب في العصر الوسيط تقتضي أن يتعارف الجند فيما بينهم، إذ لم يكن المقاتلون يرتدون زيا رسميا معينا يمكنهم من معرفة بعضهم البعض في ميدان المعركة، وتمييزهم عن عدوهم، ولم تكن الأعلام والبنود التي يلجأ لها الجنود، أثناء المعارك، كافية وحدها لذلك[3]. وقسمت الجماعات البشرية المنضمة للموحدين، بناء على هذه المعايير، إلى إحدى عشرة مجموعة كبرى سميت قبيلة، وتضم كل مجموعة سكان المناطق المجاورة بعضها لبعض. وتحمل هذه المجموعات، في الغالب، إما أسماء الأماكن الجغرافية التي يقطنها بعض فروعها بأودية وغيرها، مثل هرغة المنتسبة لأحد أودية الأطلس الصغير، ومثل كنفيسة المنسوبة لأعالي وادي نفيس[4]، أو الانتساب لمدينة تينمل، كما هو الشأن بالنسبة للمجموعة الثالثة التي تضم قبائل شتى يجمعها اسم هذا الموضع، وتمتد على منطقة واسعة من جبال درن (الأطلس الكبير) من تزي ن تشكا، نحو الجنوب الشرقي حتى مشارف درعة. وإذا لم يجمعها مكان جغرافي متصل وواحد كبقية المجموعات الأخرى[5] فإنها تحمل اسما، كاسم "القبائل" التي كانت تضم خليطا يضم 8 قبائل، منها قبيلة وريكة، وماغوسة وغيرها من الأفخاذ. بينما احتفظ بعضها بأسماء الاتحاديات القائمة قبل ظهورالموحدين، كاتحادية هسكورة، واتحادية صنهاجة المقسمتين إلى مجموعتين، حسب مكان وجودها في السفح الجنوبي لجبال درن الذي يسمى القبلة، أو في السفح الشمالي الذي يسمى الظل (أملو)؛ ولهذا التقسيم مضمون اجتماعي واقتصادي مرتبط بنوع نمط العيش في كلا السفحين، وبموقف كل منهما من الحركة الموحدية في بدايتها[6].

---

(1) - **نفسه**، ص.55 .

(2) - ابن صاحب الصلاة. **المن بالإمامة** ...م. س. ص345 .. عزاوي. **رسائل موحدية** ...م. س، ص.327.

(3) - ابن خلدون، **المقدمة** ... م. س. ص.481 .

(4) - انظر عن معنى هذا الاسم التاسافتي. **رحلة الوافد** ...ص54 .. هامش رقم 103.

(5) - البيدق، **المقتبس** ...م س، ص.49 -50 .

(6) - انظر عن هذا المضمون. التوفيق أحمد. **المجتمع المغربي** ...ص63.

الثالث : المعيار تنظيمي، إذ تقسم هذه المجموعات المسماة القبائل، لتسهيل العمل الإداري والعسكري أثناء التمييز وغيره، إلى عدة مستويات متدرجة من الأكبر إلى الوحدات الأصغر فالأصغر. إذ تقسم "القبيلة" إلى أخماس، والخمس يقسم إلى الأرباع[1] ، والأرباع إلى بطون أو أفخاذ. ومن المعلوم أن الربع كان يستعمل كوحدة قياسية في المكاييل والأوزان والمساحة وغيرها، ويقصد به، هنا، عدد معين من الجند لم يصلنا مقداره، وإن كان روبير مونطاني يحدده في ما بين 400 و 500 عائلة، تشغل مساحة حوالي 50 هكتار في كل الشمال الإفريقي[2]. وتنقسم الأرباع إلى أفخاذ، حسب عدد السكان دون شك، إما حسب الكوانين، أو حسب عدد البالغين القادرين على حمل السلاح .وكل من توفر من المجموعات على العدد المطلوب يكون فخذا مستقلا بنفسه، مثل "بني يوسف من هرغة قبيل مستبد بنفسه"، وفخذ بني فتنزر من كدميوة الجبل، وفخذيين من صنهاجة القبلة، هما سولينت ومزككة[3]. ومن لم يتوفر منها، على ما يشكل فخذا أو ربعا، أضيف إلى غيره، مثل فخذ كدانة مع فخذ بني حمزة من قبيلة هرغة وغيرهما[4]. وهناك مجموعات سبق لها أن تحالفت مع مجموعة أخرى قبل قيام الحركة الموحدية، مثل مزالة (أيت مزال) كانوا حلفاء لأيت واوزكيت وشكلت معها ربعا[5]. وإذا هاجرت مجموعة، من منطقة بعيدة عن جبال درن، فإنها تدمج مع مجموعة أخرى، مثل المجموعة المهاجرة من دكالة، وزنانة تيسفرت وهيلانة، المدمجة مع "قبيلة" ݣدميوة[6]. وتخضع هذه التقسيمات الصغرى الأخيرة، بدورها أثناء ترتيبها، لمبدإ السبق المذكور سابقا، إذ إن فروعها هذه لم تنضم كلها للموحدين في وقت واحد. وهذه التقسيمات العددية كانت معروفة قبل العهد الموحدي، وجدها عبد المومن بجبال الريف في غزوته الطويلة، إذ كانت قبيلة "تمسمان"مثلا، تنقسم إلى أرباع، ذكر منها الربع الفوقاني، والربع الأوسط[7] ، وربما تعود إلى العهد الروماني، حسب الأستاذ هاشم العلوي[8] . هل هي وحدات تجنيدية وتسخيرية أم وحدات جبائية؟

---

(1) - البيدق، **المقتبس** ...م س، ص.56.

(2)- Montagne Rober, **Les Berbères et le Makhzen**.... Opt. Cité p. 127.

(3) - **نفسه**، ص38 ,.45 ,.55.

(4) - **نفسه**، ص37 ,.38 ,45 ,.46.

(5) - **نفسه**، ص.44 .

(6) - **نفسه**، ص.47 .

(7) - البيدق، **أخبار المهدي** ...م س، ص52,55.

(8) - هاشم العلوي، **المجتمع المغربي** ...م. س، ص.492 .

يمكن القول، في حالة القبائل الموحدية، أنها وحدات ديوانية للتجنيد ولإقتسام المهام العسكرية، أثناء الحرب أو حصار مدينة قصد تحديد مسؤولية كل جماعة وفرقة، ولتوزيع أسهم الغنائم والفيء والكلف، حسب ما يفهم من كلام البيدق، عندما يكرر جملا من قبيل: "ومعهم في التربيع والتمييز والسهم وغيره"[1].

لا تمت هذه التقسيمات الأخيرة بصلة للتقسيمات القبلية المعروفة لدى العرب، في الجاهلية وصدر الإسلام، كما قد يوحي بذلك استعمال لفظتي البطن والفخذ، بل هي وحدات عددية معينة لحساب عدد المقاتلين، لأن هذين اللفظين يستعملان حتى بالنسبة لجند المدن والعبيد الذين لا تربطهم علاقة القرابة الدموية[2]. والملاحظ أن عدد الأفخاذ متفاوت من مجموعة لأخرى، أقلها من حيث الأفخاذ مجموعة القبائل التي لا تضم سوى7 فخذات، وأكثرها هسكورة القبلة التي تضم 41 فخذا. ورغم أن هرغة اعتبرت قبيلة صغيرة فإن لها من الأفخاذ 23 فخذا. ويبلغ مجموع أفخاذ الموحدين، باستثناء جند المدن الذي لم يذكر البيدق عدد أفخاذهم،251 فخذا، في عهد المنصور، على ما يبدو. ويشمل هذا العدد أفخاذ العبيد وهم 8 أفخاذ. وإلى جانب تقسيم الجيش إلى الوحدات المذكورة، يقسم الجيش الموحدي كغيره من جيوش الدول الوسيطية إلى وحدات متدرجة من العشرات على رأسها النقيب أو العريف لهم خباء واحد أثناء الحركة[3] ، إلى المئات يقودها الشيخ الصغير، وأخيرا الألوف يقودها الشيخ الكبير الذي يسمى كذلك الملك أو الأمير.

قسم الموحدون على هذه القبائل جباية الأراضي التي استولوا عليها في شكل سُهْمَان، عرفنا النموذج الأول في قسمة أراضي هزميرة جوائز جائزة لكل قبيلة. وإذا لم تتحدث المصادر عن من قام بمثل هذا العمل من خلفاء الموحدين، فإن المصادر تتحدث عن أملاك الموحدين[4] ورباعهم وسهامهم، وكثيرا ما ردد الخلفاء الموحدون، خاصة يعقوب المنصور، أن الأغزاز أو الطلبة من غير الموحدين ليست لهم أملاك يرجعون إليها مثل الموحدين . وهذه السُهْمَان والأملاك ما يفسر سكوت الموحدين عن عطاء جند القبائل

(1) - البيدق، **المقتبس** ...م.س، ص37 .,38, 45, 46.,
(2) - **نفسه**، ص.57.
(3) - مجهول، **الحلل الموشية** ...م.س، ص .109 هل يمكن معرفة مقدار أفراد الفخذ من الجنود؟ إذا اعتبرنا أن الأشياخ أو المزاوير هو رؤساء الألوف، حسب تصنيف ابن رضوان لطبقات الجيش في كتابه، **الشهب اللامعة في السياسة النافعة**، تحقيق علي سامي النشار، دار الثقافة، الدار البيضاء،1984 ، ص385-384 .، فإن ما يمكن أن يجنده الموحدون، في عهد المنصور، من مختف أصناف الجيش هو 251 x 1000= 2510000 جندي.
(4) - المراكشي، **المعجب** ...م .س، ص402 .,.414

العربية الذي يفوق، في بعض الأحيان، عطاء الجند الموحدين، كما هو مبين في جدول البركة[1]. وهذا النوع من الإقطاع يختلف عن إقطاع الأشخاص، إذ إنه إقطاع دائم ويطلق عليه في هذه الحالة في النظم الإسلامية الطُّعْمَة. وقد طبق في الأندلس مع الجند الشامي، إذ جعل لهم عند دخولهم "ثلث أموال أهل الذمة **طُعْمَةً**"[2] ، وطبقه المرينيون، سنة646 هـ/1249م، بشمال المغرب[3].

***الجند :**

الجند مصطلح عام يمكن أن يندرج ضمنه أصناف عديدة من الجيش، لذا يتعين تحديد مدلوله من خلال المصادر الموحدية. ويفهم من كلام البيدق أن المقصود به هو الجند المتكون من جيش المدن الذي لا ينتمي لأية قبيلة موحدية أو غيرها من القبائل. وأول جيش من هذا الصنف، هو جيش مدينة أغمات التي افتتحت صلحا، قبيل فتح مراكش، سنة541 هـ/1147م، ثم غيرها من المدن المغربية الأخرى أو الأندلسية[4] ، وكأن الجند هنا حضري في مقابل الجيش البدوي القبلي، وهو جيش احترافي يرتزق من الجندية ويتلقى راتبه مشاهرة أو سُهْمانا من الجباية. ورغم أنه ينتمي للمدن إلا أنه منظم على أساس الجهات التي قدم منها، ونعلم مثلا، أن هناك جندا أندلسيا، وكان أبو مدين شعيب دفين العباد من ضمن من عملوا في صفوفه مدة بمراكش، فكان لا يصل إليه عطاؤه كاملا[5]. ومن الذين عملوا في هذا الصنف جعفر ابن عطية الذي كان، قبل أن تكتشف كفاءته الكتابية، ضمن الرماة بجيش أبي حفص أثناء حملته لمحاربة ابن هود الماسي[6]. ولم يذكر البيدق عدد أفخاذ الجند، فلا شك أن عددهم تزايد مع الوقت، فقد ذكر عبد الواحد المراكشي أن عدد الجند بمراكش وحدها يبلغ 10000 جندي من الموحدين والعرب والغز والعرب والأندلس والروم والمرابطين[7]، ونعلم أن الأندلس كانت، في سنة495 هـ/1102م، تتطلب 17000 جندي على عهد يوسف بن تاشفين[8] ، زيادة على ما تتطلبه الولايات الأخرى.

---

(1) - انظر هنا، ص 143.
(2) -ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة** ..م.س، المجلد1 ، ص.64-65 .
(3) -انظر ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب** ..ص291.. **الذخيرة السنية** ..م. س، ص.64 -65 .
(4) -البيدق، **كتاب المقتبس** ..م.س، ص.58.
(5) -التادلي، **التشوف** ..م.س، ص.320.
(6) -ابن عذاري، **البيان المغرب** ..م.س، ص.31.
(7) -المراكشي، **المعجب** ..م.س، ص483 .. للمزيد من التفاصيل الإضافية والمهمة عن طبقة الجند راجع هوب كينز، النظم الإسلامية ...ص.139 –142.
(8) - مجهول، **الحلل الموشية** ..م.س، ص .80.عن اتخاذ الجند من قبائل عديدة منها العرب وغيرها انظر، ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة ..م.س، ص 111,90 -112 ، ابن عذاري، **البيان المغرب** ..م. س، ص.481.

***المُحْتَسِبُون :**

فسر بعض الباحثين هذه الكلمة على أنها تعني الأشخاص الذين يقومون بخطة الحسبة المعروفة، في النظم الإسلامية، ويتكلف متولوها بمراقبة أثمان السلع في الأسواق ومحاربة الغش والسهر على الآداب العامة، في شوارع المدن، إلى غير ذلك. ولم يتنبه إلى أن هذا الشرح لا يستقيم مع بقية ما ورد من معلومات حول المحتسبين عند البيدق، وهي أنه يؤخذ منهم نوع من الجيش وهم الغزاة، ولهم مزاويرهم أو شيوخهم البالغ عددهم 22 مزوارا أو شيخا[1]، وبالتالي لا علاقة لهم بخطة الحسبة المذكورة. فالمصطلح مشتق من الاحتساب، أي القيام بعمل ما، بشكل تطوعي، دون عطاء أو أجر، بل احتسابا لوجه الله وابتغاء مرضاته. فهم نوع من الجند المتطوع من بين القبائل الموحدية للجهاد في سبيل الله خاصة بالثغور الأندلسية، وأقدم إشارة لهذا الصنف من الجنود المتطوعين، في بداية الحركة الموحدية، يعود إلى سنة524 هـ/1130م، حين أرسل منهم عبد المومن 50 رجلا محتسبا لحماية أنقاب جبل هزرجة التي همت بغدر الموحدين، على إثر هزيمة البحيرة[2]. وقد ضاعف المنصور عددهم، في كل قبيلة موحدية، باستثناء هرغة التي ليس فيها مضاف. وعين لكل قسم، في كل مجموعة أو قبيلة، مزوارا أو شيخا: مزوار للقسم القديم منه، ومزوار للمضافين لهم وسماهم الغزاة[3]. وهذا الجند التطوعي يجهز نفسه ويتكلف غالبا، بكل حاجاته ونفقاته الخاصة. قد ساهم هذا التغيير الذي أحدثه المنصور، بدون شك، في تحقيق انتصار معركة الأرك591 هـ/1195م. ونعلم أن المرينيين ورثوا وظيفة الغزاة عن الموحدين وبلغت لديهم شأوا بعيدا، وهم المتطوعون، من الأمراء المرينيين وغيرهم، للجهاد بالأندلس.

***عبيد المخزن:**

بالرغم من تواتر ذكر العبيد، في المصادر الموحدية، فإنه لم يتم ذكرهم كطبقة قائمة الذات، ضمن الطبقات، إلا عند البيدق الذي ذكر أن طبقتهم تشمل 8 أفخاذ[4] ، وعددها بأسمائها، كما ذكر أنه يؤخذ منهم الرماة بدورهم، كبقية المجموعات العسكرية الأخرى . ويمكن القول إن عبيد المخزن هم عبيد بيت المال، حصل عليهم الموحدون من غنائم

---

(1) - البيدق، **كتاب المقتبس** ...م. س، ص.57 -58 .
(2) -ابن القطان، **نظم الجمان** ...م س، ص.121.
(3) - البيدق، **كتاب المقتبس** ...م س، ص.57 - 58 .
(4) - **نفسه**، ص.7.

حروبهم مع المرابطين والكيانات السياسية التي قضوا عليها، في الغرب الإسلامي، خصوصا وأن المرابطين كان لهم عدد هام منهم ضمن جيشهم، جاءوا بهم من جنوب الصحراء، أو فرضوا على الرعية شراء عدد مهم لفائدة المخزن المرابطي وتجهيزهم بالسلاح وكل ما يلزمهم، كما حدث بفاس، سنة 530 هـ/1136م، إذ فرض على سكان المدينة أن يشتروا ويجهزوا 300 عبد من مالهم. وأفخاذ العبيد لدى الموحدين مرتبة بدورها، حسب تاريخ ملكيتهم، فالفخذ الأول يعرف **بالقدم**، وقد حصل الموحدون على جزء من هذا الفخذ والذي أطلق عليه عبيد المخزن، خلال حروبهم الأولي بين سنوات518-520 هـ. وتم إطلاق تسمية عبيد المخزن عليهم حوالي 522 هـ، أي بعيد غزوة المهدي لمنطقة أصليم من بلاد هسكورة، ثم أضيف إليهم عبيد غزوة تازكورت (زاكورة)، وأسند ابن تومرت قيادتهم لعبد اسمه ميمون الكبير. وتزايد نصيب بيت المال من العبيد، مع توالي الحروب مع المرابطين، فسمي عبيد ما قبل فتح مراكش بعبيد القدم. أما الفخذات السبعة الباقية نسب بعضها إلى المناطق التي غنمهم الموحودون فيها، مثل أهل مراكش الذين غنموا في فتح المدينة، سنة 541 هـ/1147م، ومثل عبيد يلارْزْكْ (أي المحظوظ) الذين غنمهم أبو حفص عمر بعد القضاء على ثورة بومزكيدة، في بندغل سنة543 هـ/1149م. أو يحملون اسم المنطقة التي جاءوا منها كعبيد واركلن القادمين في ظروف مجهولة من وركلة (هل بالشراء أم غنيمة؟)، ومنهم فخذة تعرف بإِغْزّافْنِ (أي الطوال)، ومنهم من حمل فقط الاسم الأمازيغي إِسْمْكَانْ (أي العبيد)، ومنهم المهاجرون وهم محسوبون من أفخاذ كنفيسة[1]. أو يحملون اسم القبيلة التي غنموا منها كعبيد كزولة وعبيد لمطة[2].

يشكل العبيد 8 أفخاذ من 251 فخذا التي يتكون منها الجيش الموحدي، أي 1/40 من القوة الحربية الموحدية، وإذا افترضنا أن الفخذ وحدة عسكرية تضم 1000 فرد، فسيكون مجموع العبيد 8000 فرد، وهو عدد قليل مما نعرفه من عبيد الموحدين، إذ بلغ عدد المشاركين مثلا، بجانب الناصر في معركة العقاب، سنة609 هـ/1210م، 30.000 عبد[3] ومما يؤكد كثرتهم في البلاط الموحدي أن عدد موتى العبيد، في وباء571 هـ/1176م، كان 30 شخصا كل يوم، مدة سنة ونصف[4]. كان العبيد يساهمون في الحروب، فقد شاركوا

---

(1) - **نفسه**، ص.48 .

(2) - وقد تردد عز الدين موسى، بسبب حمل بعضها لأسماء قبائل مرابطية، بين اعتبارهم عبيدا أو اعتبارهم قبائل مرابطية، عز الدين موسى، **الموحدون في الغرب الإسلامي** ...م . س. ص. 220-221 .

(3) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب** ...م س، ص.239 .

(4) - ابن عذارى، **البيان المغرب** ...ق. م، ص.137- 136 .

في فتح مراكش، سنة541 هـ/1147م، إذ قسم سورها على القبائل الموحدية، وكلف عبيد المخزن بالدخول بالسلالم من جهة باب الدباغين[1]. ويقومون ببعض الأعمال، كردم الخندق المحيط بحصن قلمالة بالأندلس، سنة587 هـ /1192م[2]، أو كما حدث عندما قام أهل الخدمة من العبيد بردم الخندق الدائر من الجهات الأربع، بمدينة قصر أبي دانس بغرب الأندلس، سنة1192 م[3]. وفي زمن السلم يقومون بأدوار عديدة، منها : الاشتغال في الفلاحة، إذ ساهموا في غراسة بساتين قصور الخليفة بإشبيلية، في عهد يوسف، سنة567 هـ، إذ كانت "دواب أمير المؤمنين ... وعبيده ينقلون عليها الأحجار والأجور والجيار، والثمار والأشجار"[4]. وهناك فرقة منهم تحمل اسم عبيد البحايرين أو الجنانيين الذين يشتغلون في بساتين بيت المال التابعة للبلاط بمراكش[5]. كما كانوا يشتغلون في البناء، فهم الذين هدموا جانبا من السور القديم لمدينة مراكش قصد توسعة المدينة، سنة579 هـ[6] ، إلى غير ذلك من المهام، كالمساهمة في عملية قتل زعماء قبيلة الخلط[7] . بل منهم من أسندت له مهمة إدارية هامة، مثل مملوك الناصر ناصح الذي عين مشرفا لديوان سبتة، مدة طويلة[8]. والعبيد أطوع الطبقات للخليفة وأخلصها له. هذا النوع من العبيد لا يدخل في قسمة التركات، حسب ما يفهم من كلام سعيد بن صالح بني عصام، في مدينة نكور[9]. ولغمان الخلافة هؤلاء سقائفهم الخاصة بدار الملك، كبقية الطبقات الموحدية الأخرى[10] .

***الرماة :**

ورد ذكر كلمة الرماة، في كتاب المقتبس، خمس مرات: مرتين مطلقة، وثلاث مرات مضافة لغيرها[11]. ويشكلون قسما قائم الذات من كل صنف من أصناف الجيش الموحدي :من عبيد المخزن، ومن القبائل الإحدى عشر، ومن المحتبسين (المتطوعين)

---

(1) - **نفسه**، ص.28 .
(2) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة** ..م. س، ص211. الناصري، **الاستقصا** ..م.س، ج 2.، ص.250.
(3) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ..م. س، ص 210.
(4) - **نفسه**، ص.376 .
(5) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ..م.س، ص.329 .
(6) - **نفسه**، ص.154 .
(7) - **نفسه**. ص.329 .
(8) - التجاني، **رحلة التجاني**،. س، ص.359 .
(9) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ..م. س، ج1. ص.177.
(10) - العمري، **مسالك الأبصار** ...القطعة المنشورة في ورقات عن الحضارة المغربية ..لمنوني، ص.303.
(11) - البيدق، **المقتبس** ..م. س، ص57, 58, 59.

يمكن أن يستخلص، من خلال استقصاء المصادر التاريخية، أن المقصود بهم هم الرماة بالقسي والسهام بأنواعها الثلاثة: القوس العادية، وقوس الزيار أي اللولبي أو العقارية التي يستعملها عدة رجال، وقوس الرجل التي تستخدم في وضعية الجثو. لقد كان القوس، طيلة العصر الوسيط، يشكل أهم سلاح استراتيجي للدفاع والهجوم معا، قبل استعمال السلاح الناري، في بداية القرن16م. وكان للرماة دور هام في مختلف الجيوش بالغرب الإسلامي، إذ مكنوا من حسم بعض المعارك العسكرية، مثل معركة البحيرة، سنة524 هـ/1130م، على ما يبدو[1] ، ومن القضاء على بعض الملوك والأمراء، مثل يحي بن عمر الكدالي سنة468 هـ/1173م[2] ويوسف بن عبد المومن قتل بسهم وصله إلى خبائه بمحلته أثناء حصار شنترين، سنة580 هـ/ 1185م، حسب بعض الروايات[3]. وقتل يحي بن إسحاق بن غانية بسهم، في معركة عمرة، سنة583 هـ/1187م[4]. ونظرا لأهميته الاستراتيجية، كان من الطبيعي أن يوليه الموحدون أهمية خاصة في تنظيماتهم العسكرية، كغيرهم من الدول المعاصرة لهم، إذ كانوا حريصين على إعداد الكمية اللازمة من القسي، قبل كل معركة، كما حدث في استعدادات عبد المومن لغزو الأندلس سنة557 هـ، إذ كان يضرب له منها يوميا 10 قناطر من السّهام[5]، أي حوالي 508 كلغ على اعتبار أن القنطار يساوي 50,8 كلغ، وهو رقم معقول بالنظر لشساعة الإمبراطورية، وإذا علمنا أنه كان بسبتة وحدها في وقت ما من العصر الوسيط ربما خلال العهد الموحدي40 منجرة لصنع القسي والسهام، لم يبق منها في أوائل القرن 9 هـ/15م إلا 15 منجرة[6].

وكان الموحدون حريصين كذلك على تدريب فرق من جيوشهم على الرماية، وكانت الرماية من التداريب العسكرية التي كان يتلقاها الحفاظ (الولاة والشرطة) والسادات (الأمراء)، أثناء تعليمهم بمراكش[7]. وكان أحد عوامل استعمال الموحدين للأغزاز واتخاذ فرقة منهم، في الجيش الموحدي، هو إتقانهم للرمي بالسهام وهم راكبون على الخيل. وقد كان من اهتبال المنصور بهم أنه كان يقطع رؤساءهم أكبر الإقطاعات مساحة وفائدة تساوي أو تفوق أحيانا إقطاعات بعض أقاربه، زيادة على العطاءات الضخمة التي كانت تعطى لهم[8]. والسبب في كون الرماة صنفا من أصناف الجيش الموحدي أن الرماية كانت

---

(1) - ابن القطان، **نظم الجمان** ...م. س، ص.120 .

(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ...م. س.ج 4، ص.26.

(3) - **نفسه**، ص.135

(4) - **نفسه**، ص186-187 .، مجهول، **الاستبصار** ...م.س، ص131 .،.154

(5) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب** ...م.س، ص.201.

(6) - الأنصاري السبتي محمد بن القاسم، **اختصار الأخبار عما كان بسبتة من سني الآثار**، المطبعة الملكية الرباط، ط 3 .، سنة1996 ، ص.36-37 .

(7) - مجهول، **الحلل الموشية** ...م. س، ص. 150 .

(8) - المراكشي، **المعجب** ...م.س، ص414 .. ابن عذاري، البيان المغرب ...م. س، ص232، عن الترك راجع ابن خلدون، **المقدمة** ...م. س، ص.486 .

تتطلب تداريب مركزة مستمرة لإتقانها، وكانت تخصص لها، في بعض المدن المغربية الوسيطية، ساحات للتدريب من مرامي وأماكن السبق، تسمى الجلسات. وكان عددها بسبتة في وقت ما من العصر الوسيط- ربما العهد الموحدي 46 مرمى وحلبة للسباق مختلفة المدى، منها ذات 120 خطوة أو ذات 400 خطوة، وجلسات من 700 خطوة ومن 1500 خطوة، ومنها الخاص بالقوس العادية المسماة عربية، ومنها الخاصة بالقوس العقارة[1] . وفي حصار مدينة وبذة قسمت السهام على الرماة، وكان لهم شيخ خاص بهم قدم عليهم في ذلك الحصار وهو الشيخ محمد بن تِيفَوّتْ[2]. ورغم ظهور السلاح الناري لم يختف السهم والقوس إلا بعد مدة، إذ تعايش معه زمنا طويلا، حسب شهادة الحسن الوزان[3].

ولاننس الأهمية التي اكتسبها الرماة في التاريخ المغربي والثقافة الشعبية حتى النصف الثاني من القرن العشرين، إذ كانت تنظم إلى وقت قريب احتفالات شعبية سنوية تعرف إما بعبيدات الرما، كما في بلاد الشاوية أو موسم الرما فقط، بأغلب قرى الأطلس الصغير[4]. وقد دخلت كلمة الرماة الأمازيغية وتعنى مصطلح الرامي الفرد الواحد البالغ في أي إحصاء للناس.

***الطبالة:**

أطلق الموحدون الطبالة على الفرقة الموسيقية والاستعراضية، التي تشمل كذلك أصحاب البنود وغيرهم من أهل الساقة، إذ يتكلف الطبالة كذلك بحمل البنود والأعلام، لذا يسمى صاحب الساقة، لدى الحفصيين، بصاحب العلامات يتولى أمور الأعلام، ويأمر بدق الطبول عند ركوب السلطان في المواكب[5]. ويتكلف أيضا بالمصحف العثماني الذي يحمل على جمل وبالموطأ المحمول على بغل، وبالعلم الأبيض وبقية الأعلام الخلافية التي تتقدم الحركة[6].

وللطبول أهمية كبرى، سواء في زمن السلم أو الحرب، إذ لا يخفى تأثيرها، أثناء المعارك، نظرا لما للموسيقى الصادرة عنها من أثر في نفوس المقاتلين. وتشكل، في زمن

(1) - الأنصاري السبتي محمد بن القاسم، اختصار الأخبار ... م.س.ص 47-48
(2) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة** ...م.س، ص407 -406 .
(3) - الوزان، **وصف إفريقيا** ...م.س، ج1، ص130 ,131 ,224 ,274 .
(4) -المنوني محمد، **قطعة من نشاط الرماية بالجنوب المغربي**، منشورات وزارة الثقافة والتعليم العالي والثانوي والأصلي وتكوين الأطر، الرباط1972 .
(5) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة** ...م.س، ص342 ,356, 414 . القلقشندي، **صبح الأعشى** ...م.س، ج 5، ص135.
(6) - المراكشي، **المعجب** ...م.س، ص484-485، مجهول، **الحلل الموشية** ...م.س، ص 152 - 153 .. عدد الأعلام الخلافية ٧ حسب ابن عذاري، **البيان المغرب** ...ق .الموحدين م.س، ص.464 .

السلم، مع الأعلام أحد رموز السيادة، والتي لا يسمح الخليفة لغيره من قادة الموحدين أو ولاتهم باستعمالها في تنقلاتهم. كما أنهم انتزعوا بنود وأعلام القبائل التي كانت تملكلها قبل خضوعها لهم، كبني مرين بقيادة المخضب[1]. وجعلوا لها موكبا خاصا يتبع السلطان في مسيره يسمى الساقة، حسب شهادة ابن خلدون[2]. وتلعب الطبول دورا استعراضيا هاما في الحركة، لأنها أهم وسيلة للمباهاة، حسب ابن الخطيب. فالمرتضى لم يستطع دخول مراكش بدون بنود التي ضاعت منه مرتين، حتى حصل على بدائلها. الأولى عند بيعته بسلا، فكانت الطبول والبنود قد ضاعت في حملة السعيد على تلمسان وتوجهه لمراكش» غير أنه لم يكن بطبول وأعلام، فلما قرب من حضرة مراكش خرج إليه أشياخ الموحدين بجهازات جميلة وكسى حفيلة وخيول **وطبول وبنود**"[3] . وعندما انهزم في معركة بني بهلول أمام المرينيين التقاه أهل مراكش بدكالة بعد أن " أمرهم أن يلقوه بطبول وعلامات ... فلقوه بموضع زاط بجهة دكالة بالخيل والبغال **الطبالة والبنادة**، فانعقدت عليه الساقة هناك"[4] . والباب الذي تخرج منه الطبول بقصبة مراكش سمي باب الطبول، ومنه دخل أبو دبوس، سنة656 هـ، خلال قيامه على المرتضى[5].

ولا يقتصر دور الطبالة على حمل الطبول وقرعها أثناء الحركات العسكرية، بل كان من عادة الموحدين أن يقرعوا الطبول في المناسبات السارة، وأوقات البشرى والاحتفال، كالاحتفال باستقبال بعض السادات، أو الاحتفال بإيصال الماء لمدينة إشبيلية[6]، أوبمناسبة القضاء على ثائر وقطع رأسه[7] .

وإذا كانت الدول السابقة للموحدين، بالغرب الإسلامي، تستعمل آلات موسيقية متنوعة من طبول ومزامير وغيرها، فإن الموحدين اقتصروا فقط على استعمال الطبول وحدها، تبعا لتعاليم المهدي الذي كان يأمر بكسرها عند عودته من المشرق[8] . وكانت الطبول التي اتخذها الموحدون، في بداية حركتهم، مربعة الشكل، على غرار النقود الموحدية، مستغلين بدون شك معتقدا شعبيا سائدا رسخه المنجمون، كان يرمز للحزن ببعض

---

(1) - ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**...م س ص.21.
(2) - ابن خلدون، **المقدمة** ...م. س، ص459 .. وانظر نفس **المصدر** عن دور الساقة في حشد العسكر ص474 .
(3) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ... ق . الموحدين، م. س، ص389.
(4) - **نفسه**، ص.408.
(5) -ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب** ... م س، 260 ابن عذاري، **البيان المغرب** ...ق .الموحدين، م س، .449
(6) -ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة** ...م س، ص213- 214 ,378.
(7) -المعجب، **المعجب** ...م. س، ص466.
(8) -البيدق، **أخبار المهدي** ...م. س، ص.23-24.

الأشياء المربعة الشكل، إذ يبدو من كلام الوزان أن الدفوف التي تستعمل بفاس، خلال المناسبات الحزينة ، كانت مربعة الشكل[1]. ويذكرنا هذا باستغلال الثورة العباسية للون السواد كلون للحزن، عند انطلاق ثورتهم بالمشرق. وكان عدد الطبول لدى الموحدين يتراوح بين 100 و 200 طبل، في عهد يوسف، حسب ابن صاحب الصلاة [2]، و 300 طبل، حسب المراكشي[3]. كما كان للموحدين طبول لها وظائف خاصة، مثل طبل تيظاف التي تعنى الحراسة والمراقبة والذي وضعه المهدي على قمة جبل مطل على تينمل ومشرف على الطريق الصاعدة لتينمل على نهر نفيس يخبر سكان المدينة بقدوم عدو إليها[4]. وهناك طبل ضخم قطره حوالي 7 أمتار من خشب أخضر مذهب مخصص للإعلان عن انطلاق سير الحركة الموحدية، إذا ضرب فيه ثلاث ضربات. وكان يسمع على بعد نصف مرحلة، أي 15 كلم تقريبا، إذا ضرب في مكان عال وفي وقت لا ريح فيه[5]؛ وربما هذا الطبل هو الذي عرف بطبل أكومي[6]. وقد استعمل الموحدون الطبول والأعلام في الغزوة الرابعة، وضمنها العلم الرئيسي والأبيض الذي اسنده ابن تومرت لعبد المومن[7] . وترتب هذه الأعلام، حسب نظام، فصله ابن القطان وغيره[8].

*السكاكون :

ظن أحد الباحثين أن هذا المصطلح يعني المكلفون بسك النقود، وانساق مع هذا الشرح للحديث عن خصائص العملة الموحدية المتميزة بشكلها المربع الفريد، لكن استعصى عليه فهم لماذا كان عدد السكاكين ثلاثة أشخاص فقط، أخذوا من ثلاث قبائل موحدية لا غير، وتوفي منهم اثنان دون أن يخلفا وارثا لهما وغيرها من المعلومات القليلة الواردة بشأنهم لدى البيدق[9]. فما هي السكة المقصودة في التنظيمات الموحدية؟

---

(1) - الوزان، **وصف إفريقيا** ...م س، ص.201.
(2) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة** ...م. س، ص340,404, 406.
(3) - المراكشي، **المعجب** ...م. س، ص.339 .
(4) -البيدق، **أخبار المهدي** ...م. س، ص41. التاسافتي، رحلة الوافد، م. س. ص 170 -171، ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة** ... م. س، ص413.
(5) - مجهول، **الحلل الموشية** ...م. س، ص152.
(6) - هوب كينز، **النظم الإسلامية** ... م. س، ص132.
(7) - البيدق، **أخبار المهدي** ... م س. ص36، ابن القطان يقول إن الموحدين لم تكن لهم الأعلام في البداية، وإنما استعملوا ملابسهم كأعلام، **نظم الجمان** ...م. س، ص128.
(8) - ابن القطان، **نظم الجمان** ...م. س. ص.127 - 128 .
(9) - البيدق، **المقتبس** ...م. س، ص58.

تعني السكة كذلك طريق البريد، فقد تحدث ابن خرداذبة، في القرن3 هـ/9م، عن وجود 930 محطة للبريد في دار الإسلام .وتعرف تلك المحطات بالسكك، وهي مزودة بالخيل وركابها، ويفصل بين كل محطة وأخرى ثلاث أميال أو فرسخين[1]. وورد لدى البكري لفظ السكة، كمقياس للمسافات الطويلة مرادفة لكلمة البريد[2]. كما نجد في الغرب الإسلامي عدة حصون تحمل اسم حصن السكة، كحصن السكة بالأندلس، أو حصن آخر بإفريقية[3]. فالمقصود إذن بالسكة، هي سكة البريد أي طريقه ومحطاته، ويتولى أصحابها الإشراف على سعاة البريد المعروفين، بالمغرب، بالرقاصين الخاصين بالخليفة، لأن للمسؤولين الإقليميين سعاتهم وعلى نفقاتهم. وقد تحدثت رسالة الفصول لعبد المومن، سنة 543 هـ، عن تعسفات هؤلاء الرقاصين في إجبار سكان الطريق التي يمرون منها على إطعامهم والقيام بمؤونتهم عدة أيام. ومهام السكاكين لا تختلف عند الموحدين عما هو معروف لدى الدول الإسلامية الوسيطية، من ضمان نقل المراسلات والتجسس وغيره من الوظائف الموكلة لهم[4]. وتميز البريد الموحدي بالسرعة، فقد وصل البريد من مرسية إلى مراكش في مدة 16 يوما وهي سرعة قياسية[5]، بل وصل خبر الانتصار، في غرناطة، إلى مدينة الرباط في نفس اليوم[6] باستعمال الحمام الزاجل، ولا شك .

هكذا يتضح أن الطبقات الموحدية تشكل الجهاز المخزني الموحدي بأطره المختلفة المتقلدة لوظائف السيف والقلم معا. يبقى أن نتساءل الآن عن انعكاسات هذه التنظيمات على البنيات السوسيو-سياسية.

III - انعكاسات ترتيب الطبقات الموحدية على البنيات الاجتماعية والسياسية:

كان لهذه التنظيمات عدة نتائج على أكثر من مستوى : على المستوى الاقتصادي، وعلى المستوى الديموغرافي، وعلى المستوى الاجتماعي، سواء بالنسبة للحكام أنفسهم، أو بالنسبة لبقية شرائح المجتمع، أول هذه النتائج:

---

(1) - ابن خردادبة، **المسالك والممالك** ...م. س، ص225 -229 .. ميتز آدم، **الحضارة العربية الإسلامية** ...م. س. ص.150-153 .

(2) - البكري، **كتاب المغرب** ...م.س، ص104 ,107 .

(3) - مجهول، **الحلل الموشية** ...م. س، ص94 .. ابن القطان، **نظم الجمان** ...م. س، ص182 .

(4) - آدم ميتز، **الحضارة العربية الإسلامية** ...م. س، ص251-254. .

(5) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة** ...م. س، ص200.

(6) - **نفسه**، ص135 .

1- انقسام المجتمع إلى كتلتين متمايزتين: كتلة الحكام وكتلة الرعية:

تقسم هذه التنظيمات المجتمع إلى كتلتين متمايزتين : كتلة **السلطان** أو الحكام من جهة، وكتلة الرعية أو المحكومين. فقبائل الموحدين، حسب المراكشي: "هم الجند والأعوان والأنصار، **ومن سواهم** من سائر البربر والمصامدة **رعية لهم وتحت أمرهم**"[1]؛ ولا توجد كتلة وسطى بين الحكام والمحكومين، إلا ثلاثة بطون من قبيلة صنهاجة لا هي معدودة من المحكومين ولا هي محسوبة من الرعية[2].

ويترتب عن وضع هذه الطبقات، تفاوت بين الرعية والحكام في الجاه السياسي والنفوذ وتفاوت اقتصادي واجتماعي كبير بين الكتلتين يبرز في احتكار كتلة الحكام وحدها للفائض الاقتصادي، كما سيتضح في الفصل الموالي. كما ترتب عنه اختلافات بينها في التنظيمات، إذ إن لكل منهما قضاءها الخاص بها وشرطتها وسجنها. وتمايز على مستوى العيش يظهر في الفرق الشاسع بين سكنى الكتلتين، إذ تسكن الكتلة الحاكمة في دور أو قصور فخمة معزولة عن الرعية في أحياء وأماكن خاصة بها، بالإضافة إلى تفاوت كبير في نسبة النمو الديموغرافي لدى كل كتلة، إلى غير ذلك من الاختلافات الجزئية[3]. وقد تنبه عز الدين موسى إلى شيء من هذه الاختلافات الصارخة، دون أن يوضح أسبابها، عندما لاحظ ان المهدي خلق عزلة شعورية بين الموحدين ومجتمعهم على المستوى المعنوي[4] . ولاحظ العروي وجود شبه "انفصام بين الدولة والمجتمع"[5]. وتعبر المصادر عن الكتلتين بعدة مصطلحات منها مصطلحي الجبابرة والمتسضعفين.

على المستوى المادي، تشكل المجموعات المصمودية عصبية الدولة وحماتها وأنصارها، وحصلت مقابل ذلك على عدة امتيازات، منها أولا المحافظة على أملاكها السابقة إن كانت تتوفر عليها . ثانيا، الحصول نصيب من كل أصناف الغنائم، من الإماء والعبيد، والخيل والأرض إذا قسمت بين الغانمين لها، كما فعل المهدي بممتلكات قبيلة هزميرة بتينمل التي "سبي حرمهم، وغنمت أموالهم، فقسم أرضهم وكرومهم بين الموحدين

---

(1) - المراكشي، **المعجب** ...م. س، ص481.

(2) - البيدق، **المقتبس** ...م. س. ص55 .

(3) -انظر التفاصيل في نقطة كتلة الحكام، الفصل السابع ص.258 .

(4) -عز الدين موسى، **النظم والتنظيمات الموحدي** ...م س، ص.79.

(5) -العروي، **مجمل تاريخ المغرب** ...م س. ج2.، ص227.,، 229

(6) --ابن القطان، **نظم الجمان** ...م س، ص.94.

من أصحابه، وأصفى ديارها جوائز : لكل قبيلة جائزة"[6]. وإذا لم تقسم تحصل على نصيبها من أسهم مداخيلها في شكل إقطاع جباية[1] ؛ كما جرت به العادة لدى دول الغرب الإسلامي، منذ الفتوحات الإسلامية. فالجند الشامي الذي دخل الأندلس، بعد ثورة 122 هـ، أنزل على أملاك الذميين، وأعطيت لهم طعمة، ونفس الشيء فعله الأمير المريني أبو بكر، سنة646 هـ/1249م، عندما أنزل قبائل بني مرين في شمال المغرب وأعطاها ما نزلت عليه "وما غلبت عليه من البلاد طُعْمَة لا يشاركهم فيها غيرهم" أي أنها تتحصل مدخولها أو مستفادها بصفة دائمة[2].

ثالثا، الحصول على عطاء نقدي، وهو شبيه بالعطاء في عهد عمر ابن الخطاب، سواء شاركت في الحرب أو لم تشارك. وإذا ساهم فرد من تلك المجموعات، وشارك في الحركة، أخذ البركة زيادة عن السهمان من الجباية. وحسب ابن صاحب الصلاة، يمكن للجند أن يطلبوا المواد الغذائية من مخازن الدولة، مثل ما حصل في حصن بنيول بالأندلس، سنة567 هـ /1172م[3]. ولدينا أربعة أمثلة عن مقدار البركة التي فرقها يوسف على أجناده من الموحدين والعرب، فضلا عن الكسوة والسلاح والخيل أو أنواع أخرى من العطاء والإطعام[4].

---

(1) - القلقشندي، **صبح الأعشى** ...م. س، ج 5، ص136 -137 .
(2) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب** ...م. س، ص291.
(3) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة** ... م. س. ص422 .
(4) - انظر تفاصيل هذه الأمور في الفصل الرابع، ص 185. وما بعدها

جدول بركة الأجناد الموحدين والعرب في عهد يوسف [1]

التاريخ	المكان	رتبة الجندي ودرجة تسليحه		مقدارها
12 ربيع الأول سنة 561 هـ	مراكش	الشيخ الموحدي دون تحديد لدرجته لرتبته		100متقال
		الفارس من الموحدين دون تحديد لرتبته		20 متقال+ الكسوة
566 هـ	مراكش	من الموحدين	الفارس الكامل التسليح	10دينار
			الفارس غير الكامل التسليح	8 دينار
			الراجل الكامل التسليح	8 دينار
			الراجل غير الكامل	3 دينار
			الشيخ الكبير أو الأمير	100 دينار
		من العرب	الشيخ الصغير	50 دينار
			الفارس الكامل التسليح	25 دينار
			الفارس غير الكامل التسليح	10 دينار
			الراجل الكامل التسليح	7 دينار
			الراجل الناقص التسليح	7 دينار
9 ذي الحجة 567 هـ	الأندلس	لجميع الجند	الفارس دون تحديد لدرجة تسليحه	2 دينار
			الراجل دون تحيد لدرجة تسليحه	2 دينار
فاتح صفر 568 هـ	بمدينة مرسية		الفارس الكامل التسليح	5 مثقال
			الفارس غير الكامل التسليح	4 مثقال
			الراجل الكامل التسليح	2 مثقال
			الراجل غير الكامل التسليح	1 مثقال[2]

(1) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة** ...ص215 - 216, 348, 421 , 424. الفارس الكامل هو المدرع والمدجج بالحديد.

(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب**..م.س ج1، ص 148 تقارن هذه المعطيات بالعطاء عند الأغالبة 20 للفارس 10 للراجل، وفي عهد والي إفريقية حنظلة بن صفوان سنة 124-127 هـ، كان20, 30 , 50 دينار وهي حالة استثنائية، النويري، **نهاية الأرب** ... م. س، ص217، وبالعطاء بمغرب القرن19 م، كما أوردتها ثريا برادة .ويمكن أن يستخلص من هذا الجدول نسبة الفوارق بين أعلى بركة وأدناها، علما أن كبار الأسياد(الأمراء) تصل بركتهم إلى 10000 دينار. ويستخلص منه كذلك مواعيد توزيعها، ويلاحظ أن مبلغها غير قار في الزمان والمكان.

وهم كذلك أصحاب النفوذ والجاه يتولون المناصب الإدارية المختلفة ولا يتلقون أجرا عليها من بيت المال، في غالب الأحيان، وإنما تطلق أيدهم في الرعية. على كل، فهم يتحكمون في رقاب الناس ويحتكر المتعلمون منهم أهم المناصب الدينية كذلك، كالإمامة والخطابة والقضاء، وكان تولي أي منصب يعتبر، في حد ذاته، مكافأة مهمة يكسب صاحبه الجاه والنفوذ ويدر عليه الثروة.

وقد تمكن الموحدون، بفعل احتلالهم لجل مناصب المسؤولية داخل الإمبراطورية، من جمع ثروة هامة تتحدث المصادر عن أنواعها دون كميتها. ففي سنة632 هـ/1235م، بعد تصالح الرشيد مع أشياخ الموحدين ووصولهم إليه بمراكش، "صرفت على جميع الموحدين **ديارهم وعقارهم وأملاكهم وسهامهم** فعادوا إلى أحسن عادة، واستشعروا النمو في أحوالهم والزيادة[1]. وأضاف، في مكان آخر، أن الموحدين تمكنوا "**من بلادهم وسهامهم وأملاكهم**"[2]. ولا يمتلكون العقارات وسهمان الجباية في مراكش وضواحيها وحدها، بل في كل مدن الإمبراطورية الموحدية، كممتلكات أخوي المهدي الموزعة على عدة مدن[3]، أوالعمال والمشرفين، في فاس وتازة ومكناسة، الذين كانت لهم الرباع والضياع " **في كل بلد ومكان**" من إمبراطورية الموحدين[4]. وقد أثر هذا الاغتناء المتزايد للكتلة الحاكمة، مع مرور الوقت، في سلوكها الاجتماعي، يتجلى بالخصوص في ميلها للتهاون والتخاذل.

2 - تزايد ميل الكتلة الحاكمة للتواكل والدعة:

كان من نتائج تحسن أحوال الموحدين عموما، وتحولهم من الفقر إلى الغناء، بالخصوص في عهد يوسف[5] ، انصراف هذه الأرستقراطية الثرية، إلى حد كبير، إلى البذخ واللهو غير آبهة ولا مهتمة بأمور الدفاع عن حدود الإمبراطورية وحمايتها. وهو ما أدركه يعقوب المنصور وحاول جاهدا أن يحد منه بإصلاحاته المشهورة. أولا، بالتحذير من الطبل وبمحارية القيان والخمر، وذلك "لما رأى التساوي في الانهماك والاغترار، وسمع المجاهرة بالاستهتار، والتنافس في الشهوات ونفاق سوق الغانيات لملهيات تنكر وغضب

---

(1) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ... م. س. ص.318.
(2) - **نفسه**، ص.334.
(3) - كتاب الدولة المومنية، **رسائل موحدية**..م. بروفنصال، الرسالة11 ، ص40-4143.
(4) -ابن عذاري، **البيان المغرب** ... ق. الموحدين، م. س. ص.158 .
(5) - المراكشي، **المعجب** ... م.س، ص370-371 . ابن عذاري، **البيان المغرب** ..ق . الموحدين م.س، ص99.، ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة** ..م. س، ص168 .. عن اغتناء الصحابة. ابن خلدون، **المقدمة**، م. س. 362-363 ..

الله لذلك ...وضمنت الكتب النافذة لذلك فصولا في بسط العدل والتأكيد على العمال والولاة بتأنيس الرعية، وتوخي رضاهم في القضاء حقوقهم وكف أيدي الظالمين عنهم وإباحة جواز البحر للمشتكين والمتظلمين، فانبسطت الآمال وحسنت الأحوال"[1] ، وقام بحملة تطهيرية في صفوفها[2].

لم يقتصر الأمر على اتساع الفوارق الاجتماعية بين كتلتي الحكام والرعية فقط، بل ظهرت فارق اجتماعية كبيرة بي كتلة الحكام أنفسهم أفرزتها المعايير الأربعة التي أسست عليها الطبقات: السبق، حسب سرعة الهجرة أو بطئها، ودرجة القرابة الدموية من بيت الحاكم، والسن والكفاية أو الغناء(النفع للحاكم). وقد تزايد هذا الشرخ الاجتماعي وخلق ذلك توترا اجتماعيا بين شرائح الموحدين. وتردد صدى ذلك، في مصادرنا، كما يظهر من المثال التالي : ففي سنة533 هـ/ 1236م، أرسل الرشيد بفاس، يستدعي أشياخ الموحدين للتشاور معهم في شأن خيل انتبهت خارج فاس، وأرسل لهم شخصا من كومية يشغل منصب خليفة الوزير وهو الشيخ أبو موسى، "فوصل إليه أشياخ الموحدين إلا أبو اسحاق بن الشيخ لأنفة أدركته تغلظ بها عن إجابته وتكلم بقدح فيه واستحقره لكونه من عامة الموحدين من كومية، وهو من صبيان أهل الجماعة من هرغة[3]. وهكذا لم يعد الموحدون كتلة متراصة يوحدها هدف معين أو مصلحة مشتركة، كما كان الشأن في بداية الحركة، بل أصبح أغلبهم يتنافسون على جمع أكبر قسط ممكن من المال من الرعية، وعلى المناصب التي تتيح الاغتناء السريع، ولم يعد يهمهم الدفاع عن الإمبراطورية ضد الأخطار المحدقة بها داخليا وخارجيا، بل لم تعد مبادئ المذهب التومرتي الجهادية تلهمهم وتلهب حماسهم، كما كان الأمر في بداية الحركة.

الخلاصات :

لقد تبين مما تقدم، أولا، أن التنظيمات الموحدية التي أبرزتها المصادر، بشكل خاص، حتى بدت كأنها تنظيمات مصمودية صرفة وفريدة من نوعها في العالم الإسلامي مشرقا ومغربا، لا تختلف، في شيء، عن تنظيمات الدول الإسلامية الأخرى، وبالتالي ليس فيها بصمات محلية، كالتي بحث عنها الأوروبيون ومن سار على منوالهم. لذلك، لم تثر استغراب

---

(1) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ..ق .الموحدين مصر سابق. ص.172 -173 .
(2) - انظر تفصيل ذلك في الفصل الثامن. ابن عذاري، **البيان المغرب** ..ق .الموحدين م.س، ص.231.
(3) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ..ق .الموحدين، م. س، ص.337 .

المعاصرين لها أو حتى استغراب المؤرخين، باستثناء تعجب ابن الخطيب من غرابة تقسيمها وليس من الطبقات في حد ذاتها[1]. ويكفي مقارنتها بتنظيمات الأمويين بالأندلس[2] وبطبقات المرينيين[3] ، للتأكد من ذلك. ورغم أن جوهر هذه التنظيمات كان عسكريا فرضه اتخاذ ديوان الجيش، إلا أنها تكون، في نفس الوقت، الجهاز المخزني الموحدي بأطره الإدارية والسياسية والتي يصعب فصلها عن الأطر العسكرية، كما تظهر سلم السلط المختلفة وتدرجها من القمة إلى القاعدة بشكل هرمي، يتربع الخليفة على قمته ويجمع بين كل السلط العسكرية والدينية والإدارية والسياسية. وتتسم طبيعة هذا الجهاز، في علاقته بالرعية، بالميل إلى الحيف والجور، لأن أغلب المسؤولين المدنيين لا يتلقون راتبهم من بيت المال، بل يستخرجون أتعابهم من الرعية، مثل الخراص والقباض[3]، مما يضفي عليه طابعا فيوداليا بالمعنى الضيق للكلمة لا بمعناه التاريخي في أوربا.

ثانيا، قد تبين من خلال الوقائع المعالجة، في هذا الباب، وكما سيتضح أكثر، من خلال دراسة المالية في الفصل الرابع، مدى تأثير البنية السياسية على البنية الاقتصادية والاجتماعية، بل تحكمت في توجيه سياسة الموحدين الداخلية والخارجية، وبالتالي على مصير الدولة الموحدية نفسها. وما آلت إليه الدولة من ضعف وانهيار، في نهاية المطاف، يجد تفسيره الأساسي في هذه البنية السياسية المعتمدة على معايير قبلية مشرقية، وليس في ظرفية تاريخية خارجية معينة. فالمسألة بنيوية وكان حتما أن تبرز تناقضات تلك البنية القبلية وتوجه مسار الدولة الموحدية على نفس المسار الذي عرفته أغلب الدول الإسلامية الوسيطية. ومعلوم أن العقلية والبنية القبلية، تتميز بظاهرتين : ظاهرة الإقصاء، إذ يتم إقصاء من لا ينتمي إلى القبيلة إما بتصفيته، أو باستعباده وتهميشه، وهذا ما حدث في بداية الدولة حين همشت أغلب سكان المغرب ممن لم ينضم لهم، بل واعتبرتهم عبيدا، كما سنوضح، رغم انطلاقها من فكرة الوحدة الإسلامية وتحقيق العدل والمساواة، نظريا.

---

(1) - الناصري، **الاستقصا** ..م.س، ج 2.، ص.93.

(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ..م.س، ج 3.ن ص.48.

(3) - ابن فضل الله، **مسالك الأبصار** ..ورقات ص291-290 ،. ابن مرزوق التلمساني محمد بن أحمد، **المسند الصحيح**..م. س. ص353. إذ جاء فيه :«ربما تقع المشاورة للمشايخ. على حسب ترتيب مناصبهم في التقديم والتأخير»، وقارن ما جاء لدى العمري عن تنظيمات الحفصيين والمرينيين. وانظر تفاصيل ترتيب طبقات المرينيين، في قصيدة أوردها ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**..م.س. ص370

(4) - عز الدين موسى، **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي في القرن السادس الهجري**، دار الشروق لبنان، سنة 1983 ، ص.170-171 .

ثم ظاهرة التوازن، بين المجموعات القبلية (ذات التعارض الانقسامي)، هذا التوازن يختل عندما تسيطر العصبية الحاكمة على الحكم، فتنقسم بدورها إلى جماعات متنافسة على السلطة فيتقلص ظل السلطة، عن المجموعة الموحدية، ليتركز في البيت الحاكم وحده، ابتداء من سنة548 هـ . فتقع المنافسة بين أفراد البيت نفسه حتى يستقر الأمر في يد شخص واحد هو الخليفة الذي يستبد وحده بالسلطة، كما حدث في عهد المنصور والناصر . وما أن تصل الأمور إلى هذه الدرجة حتى يسهل على أهل الدار من غير القرابة، والتي لم يكن لها، في أول الأمر، أية سلطة تذكر أن ينفردوا بالحاكم ويوجهوه، حسب ما يخدم أغراضهم الشخصية بالأساس، خاصة إذا صادف أن كان الحاكم طفلا، إذ يحجرون عليه وإذا تخوفوا منه حينما يكبر يدبرون مؤامرة لقتله بأية وسيلة، في محاولة منهم لمصادرة السلطة. وهكذا تفقد الدولة سلطتها عندما تصل إلى هذا المستوى الفردي المناقض لمفهوم الجماعة القبلي الانقسامي؛ فالخلل إذن داخلي قبل أن ينتج عن ظرفية معينة[1] .

إذا كانت التنظيمات السياسية لا تترجم مبادئ المذهب التومرتي بل تتناقض معها، فهل نجد صداها التنظيمات المالية؟

(1) - انظر تفاصيل ذلك في فقرة الكتلة الحاكمة خاصة البيت الحاكم، في الفصل السابع من هذا العمل

الفصل الرابع
الأسس الاقتصادية للدولة والمجتمع من خلال المالية الموحدية

من الصعب دراسة الاقتصاد دراسة وافية ومعمقة، في المغرب خلال الفترة الموحدية، كغيرها من فترات العصر الوسيط المغربي، لعدم توفر المعطيات الرقمية المفصلة الكافية لذلك، في مصادرنا التاريخية. وتتيح المعطيات المتوفرة، في المصادر المتاحة، التعرف، في أحسن الأحوال، إلى حالات الازدهار الاقتصادي أو تدهوره، في هذه الحقبة أو تلك، أو في هذا القطاع أو ذاك، وفي جهة معينة من المغرب. لن تفيد معرفة تاريخية جزئية أو قطاعية من هذا النوع رغم أهميتها، كثيرا في موضوع المجتمع الذي نحن بصدده. ويبدو أن أحسن مدخل لمعرفة الأسس الاقتصادية للمجتمع والدولة في هذه الحالة، هو تناول مالية الدولة من خلال بعض الأرقام التي وصلتنا عنها رغم قلتها، ومن خلال الإشارات التاريخية الواردة في المصادر، علها تمكننا من التعرف إلى الخطوط العامة لتطور موارد الدولة ونفقاتها، واستخلاص بعض مميزاتها الأساسية، وفهم طريقة اشتغالها، من خلال التعرف أولا، على المرجعية الشرعية الإسلامية أو القانونية والعرفية المنظمة لها. وثانيا من خلال التعرف إلى العادات التي تحكم صرف نفقاتها والمجالات التي تصرف فيها أموالها، ومن ثمة رصد تأثير التنظيمات المالية على المجتمع وانعكاساتها على الدولة الموحدية نفسها (المخزن) وأخيرا، قد تفيد في التعرف إلى نوعية العلاقات المادية التي تربط الدولة برعاياها، وفي فهم أدق لطبيعة «الضرائب» أو الموارد المالية للدولة، والتي غالبا ما يسودها الخلط والغموض في كثير من المصادر التاريخية الوسيطية، وفي تمييز أنواعها ما أمكن، إذ لم تستطع الدراسات الحديثة أن تفك كل ألغازها المستعصية.

وعلاوة على هذا، يسمح البحث، في مالية الدولة، بالتحقق من أطروحة ابن خلدون القائلة بأن الخلل إذا طرق الدول، فإنه يطرقها من باب المال، أو من باب العصبية المعبر عنه بالجند[1]، فمن أي باب منهما أتى الخلل الدولة الموحدية، أعظم دول الغرب الإسلامي، خلال العصر الوسيط؟

(1) - ابن خلدون، المقدمة...م.س.ص 521 وما بعدها.

تعريف بيت المال:

قبل استعراض مداخيل الدولة ونفقاتها، لابد من كلمة قصيرة عن بيت المال. فخلافا لما قد يتبادر إلى الذهن، ليس بيت المال مقصورا على خزينة تودع فيها الأموال النقدية فقط، بل يشمل كل ما يمكن للدولة أن تمتلكه، وهو على ثلاثة أصناف رئيسية من الأملاك:

1 - الممتلكات من البشر في شكل عبيد حصلت الدولة عليهم من أسرى الحرب أو بالشراء ويطلق عليهم "عبيد المخزن"[1]. وتمتلك الدولة منهم عددا لا يستهان به، إذ بلغ مثلا، عدد الذين شاركوا، بجانب محمد الناصر، في معركة سنة 609 هـ/1210م، 30.000 عبدا[2]. ويقومون بعدة مهام عسكرية وأمنية واقتصادية، كالاشتغال في الفلاحة والبناء وغيرهما لصالح المخزن، بالإضافة إلى اشتغالهم، كخدم في القصور واتخاذ الإماء من نسائهم. ويعتبرون يد عاملة تساهم في تنمية موارد بيت المال[3].

2 - الممتلكات من الأموال المنقولة العينية والنقدية منها، وتشمل العينية الحلي والمجوهرات والذخائر الثمينة، والثياب المدنية أو العسكرية، وأنواع الأسلحة المختلفة... وأكثرها أهمية من حيث الحجم والقيمة هو أنواع المحصولات الفلاحية، من مواد غذائية كالحبوب والزيوت، والعلف ومختلف أنواع الماشية. وتحفظ الغلات الفلاحية في سلسلة من الأهراء بقصبات المدن الرئيسية، أو ببعض الحصون الاستراتيجية يشرف عليها مسؤول يعرف ب "خازن الطعام" أو صاحب الطعام، أو تحفظ في شكل أكداس يطين عليها، على الطرق الرئيسية للحركات، ليتزود منها الجنود[4]. وأهم هذه المخازن مخزن "دار الملك" بمراكش، الذي كان يسمى، حسب الوزان، بقصر النصر، وكانت توضع فيه الأسلحة وذخائر المدينة، وبجانبه إسطبلات عظيمة وهريان من طابقين يسع كل منها من الحبوب 30.000 روجي، أي حوالي 1.020.000 كلغ، حسب الحسن الوزان[5].

أما الماشية، فلها مراع خاصة تعرف بالحمى وتوسم ماشية كل واحد منها بعذرة أي علامة معينة لذا سمي الحمى المخزني بالمعذر أو العذير في القرن19م، وتعرف خطة

---

(1) - البيدق أبو بكر الصنهاجي، **أخبار المهدي**... م.س، ص.38.

(2) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**...م.س ص.240.

(3) - انظر الفصل الثالث، التنظيمات الموحدية

(4) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**... م.س ص117 .137 ,142،163 ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب** ..قسم الموحدين ص 267 .إذ ذكر فتح مخازن في مجاعة 616 هـ. أما عن التطيين عليها انظر النويري أحمد، **نهاية الأرب في فنون الأدب**... م.س ص421 .، الناصري، **الاستقصاء**... م.س ج 2 ص131 ، ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**..ص.147- 148 .

(5) - الوزان الحسن، **وصف إفريقيا**... م.س ص105 .، مارمول، **إفريقيا**... م.س ج1 .. ص.51.

رعي ماشية بيت المال بخطة الشاوية، وتسند إلى شخص مكلف برعيها، ويختار أماكن رعيها[1].

3 - النوع الثالث من الممتلكات، وهو أكثرها أهمية كما وكيفا، هو الممتلكات العقارية الفلاحية بالبادية، والعقارات بالمدن. ويكفي للتدليل على أهميتها أن أكثر من ثلثي الأراضي، على الأقل، أصبح في ملك الدولة الموحدية، إن لم يكن أكثر من ذلك، حسب ما يمكن استخلاصه من المصادر المختلفة، وخاصة من الرواية التي نسبت إلى عبد المومن أنه أول من قام بعملية التكسير[2]. وتستغل الدولة ملكيتها هذه بطرق مختلفة، وما تحصل من ذلك الاستغلال يسمى بالخراج ويشكل المورد الرئيسي للدولة في مرحلة هامة من تاريخها. ونعرف أن عبد المومن فرض الخراج على ثلثي مساحة إمبراطوريته بعد أن أزال منها الأراضي غير المستغلة من جبال وغابات وأنهار وسباخ وطرقات وحزون، وفرض الخراج على الثلثين الصالحين للزراعة وألزم كل قبيلة أن تدفع **قسطا** منه عينا، أي من الزرع بالأساس، وقسطا آخر من النقد الفضي[3]. فكيف حصلت الدولة الموحدية على هذا الرصيد العقاري الهام وعلى غيره من ممتلكاتها الآنفة الذكر؟ وكيف تستغلها؟ يجرنا الجواب، على هذه التساؤلات وغيرها، للحديث عن الموارد المالية للدولة الموحدية.

I. مداخيل بيت المال الموحدي:

تتميز مداخيل الدولة الموحدية بظاهرتين، الأولى تعدد أنواعها وتعايشها في نفس الفترة الزمنية من عمر الدولة، والثانية هيمنة أحد الموارد في فترة معينة من تاريخ الدولة على غيره من الموارد الأخرى، ويختفي تحت السطح، في فترة لاحقة، ليطفو ويهيمن محله مورد آخر. ويمكن بسط تعاقب هيمنة الموارد على الشكل التالي:

من هيمنة الغنائم (1125-1160 م) إلى هيمنة الخراج (1160-1211 م)؛

من هيمنة الموارد الشرعية (1125-1211م) إلى هيمنة الموارد العرفية (1211-1270م)؛

من هيمنة المشاطرة والمصادرة (1160-1219م) إلى هيمنة التغريم (حوالي1219-1270 م)؛

---

(1) - البيدق، **أخبار المهدي**...م.س. ص50 , 78 مارمول، **إفريقيا**...ج 2.ص.171.

(2) - يفهم من هذه الرواية أن ثلثي الأراضي المستغلة فلاحيا كانت في ملك الدولة الموحدية، وهي نفس النسبة التي كانت موجودة بغرناطة، في منتصف القرن 8 هـ حيث كانت الملكية الخاصة 161 ألف مرجع مقابل 561 ألف مرجع من أملاك الدولة والأحباس، حسب ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**... م.س. ج1 ص132 -133، (المرجع يساوي5050 ذراع. حسب ابن جبير)، وهي نفس النسبة كذلك في إفريقية. راجع فتحة محمد، **النوازل الفقهية والمجتمع**... م.س، ص337 .، نقلا عن أحكام البرزلي ...ج 1ص.36 .

(3) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب** ... ص 199 - 198 ، الناصري، **الاستقصا** ...م.س .ج2.، ص 135 .حركات، **المغرب عبر التاريخ**... ص. 332 .

1 - من الغنائم (1125- 1160م)إلى الخراج (1160- 1211 م) :

أ. الغنائم :

تكونت نواة بيت مال الموحدين الأولى، من خمس الغنائم التي غنموها في حروبهم مع أعدائهم المرابطين، في أول الأمر، ثم تزايدت الغنائم مع توسع الحركة الموحدية، وظلت تشكل موردها الأساسي والمهيمن على غيره من الموارد، طيلة 38 سنة الأولى، من تاريخ الموحدين (518 - 555 هـ). وقد أدرك ابن تومرت، منذ بداية حركته، مدى الإغراء الذي تمارسه الغنائم على أتباعه، إذ كانت تحفزهم وتشجيعهم على نصرة حركته، فأمرهم، أثناء بيعته الأولى، سنة515 هـ، باتخاذ "أسارك"، أي فناءا يتخذ كمربط الخيل ووعدهم أن من بنى منهم مذودا أخذ من الخيل على قدر ما بنى من المذاود[1]. وعندما قسم عليهم الغنائم التي غنموها من عسكر الموحدين، سنة 516 هـ، تلا عليهم قوله تعالى : "وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها، فجعل لكم هذه" الآية[2]. كانت الغنائم موردا معروفا لبيوت مال الكيانات السابقة واللاحقة للموحدين ببلاد الغرب الإسلامي، خلال العصر الوسيط، كالمرابطين والمرينيين مثلا، في بداية حركتهم[3] ؛ بل كانت بعض القبائل في حروبها بعضها مع بعض، وخاصة الرحل منها، تجرد المنهزمة من أملاكها. وقد حلل ابن تومرت أخذ أموال المسلمين، فقد "استحل دماء المسلمين، واستحل أموالهم، وجعل أموال المسلمين تخمس، كما تخمس أموال النصارى"[4]، ويبرر ذلك، من الناحية الدينية، باعتبار كل من لم ينضم لحركة الموحدين كافرا، مثلما فعل الفاطميون قبله[5]. وكانت قبيلة غجدامة، بجبل درن، أقدم من استحل الموحدون أموالها ودماءها، نظرا لقتلها لأحد دعاة ابن تومرت[6]. وتحرص المصادر غالبا، على ذكر ما غنمه الموحدون من كل صنف منها لأول مرة منها، بل وتطيل في سرد أنواعها وأعدادها أحيانا، كالخيل سنة 516 هـ[7] ، وسنكتفي هنا بذكر بعض النماذج من كل صنف.

---

(1) - البيدق، **أخبار المهدي** ... م.س ص33 . الناصري، **الاستقصا**..م.س ج2.، ص.87 -88 .

(2) - الناصري، **الاستقصا**... م.س ج2.، ص.91 .

(3) - بل نجد هذه العادة لدى دول المشرق أيضا كالبويهيين مثلا، راجع عن ذلك، أحمد عبد الحليم يونس، **تطور أنظمة استثمار الأرض الزراعية في العصر العباسي**، دار الطليعة - بيروت لبنان 1986 ص.152 .

(4) - ابن القطان، **نظم الجمان**... م.س ص10 .، ابن غازي، الروض الهتون..م.س ص9 . المراكشي، **المعجب**..م.س ص282

(5) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م.س ج ١ص. -158-185.

(6) - ابن القطان، **نظم الجمان**... م.س ص.93.

(7) - **نفسه**، ص82 . انظر مثلا غنائم غمارة بعد القضاء على تمرد ابن منغفاد نفسه، ص244 . وعن غنائم معركة الأرك سنة591 هـ 1195/م، المقري، **نفح الطيب**... ج1.، ص425.، ج 6.، ص.163.

بالنسبة للأموال النقدية، كانت الكميات التي غنمها الموحدون من النقود كبيرة، إلى درجة أنها فرقت بالكيل على المقاتلين في إحدى المعارك الأولى بين المرابطين وقبيلة هنتاتة، بتيفنوت، سنة 516 هـ، "تحصل لأحد الهنتاتيين صاع مملوء ذهبا من الدنانير أي حوالي 7 لترات[1].

بالنسبة للعبيد، حصل الموحدون على أعداد هامة منهم، وتشكلت النواة الأولى لعبيد المخزن، سنة 522 هـ[2].

وكانت كمية الغنائم من الماشية وخاصة الخيل والجمال كبيرة، فقد غنم عبد المومن خيل ابن ساقطرا المرابطي وأعطاها لصنهاجة بتادلا لرعيها. كما غنم الموحدون في فحص مراكش 80.000 ناقة من قبيلة لمطة، سنة 541 هـ[3]. وبلغ خمس بيت المال من غنائم المعركة مع جزولة، سنة 548 هـ، 800 ناقة، أعطاها عبد المومن لابن ومانو ليرعاها[4]. وكان اكتساب الماشية من طرف الدول الحاكمة ظاهرة معروفة منذ عهد الأدارسة، إذ إن إدريس بن إدريس أنزل جميع أجناده وقواده بعدوة الأندلس "وجعل بها جميع كسبه من الخيل والإبل والبقر والغنم **بأيدي ثقاته**"[5]. وفي سنة 656 هـ / 1258م، تبقى للمرتضى جملة من البغال بشفشاوة أعطاها لعلي بن زكندار الونجاسي[6]. وهذا ما يشبه عملية الهوير لدى مخزن القرن19 م[7]. وقس على هذا فيما يخص الذخائر والسلاح واللباس وغيره من الممتلكات المنقولة. لكن يبقى الرصيد العقاري الضخم أهم الغنائم التي حصل عليها الموحدون. فكيف تكون ذلك الرصيد؟

تكون أغلبه، بين سنوات 518 هـ، سنة انطلاقة الحركة الموحدية وسنة 555 هـ، التي استكمل فيها عبد المومن السيطرة على إفريقية وتوحيد جل أراضي أقطار الغرب الإسلامي. ويتكون هذا الرصيد من:

1 - أملاك الدول والكيانات السياسية التي قضوا عليها (المرابطون، بنو حماد بالمغرب الأوسط، الزيريون بإفريقية، أمراء الأندلس) والتي كانت بدورها هامة جدا.

---

(1) - ابن القطان، **نظم الجمان**...ص.91 .
(2) - البيدق، **أخبار المهدي**...ص.38 .
(3) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... ق م، ص.26 .
(4) - **نفسه**، ص.78.
(5) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**...م.س .ص.46 .
(6) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م.س .ص.441 .
(7) - **نفسه**، ص50 , 78 عن الهوير في القرن19 ، الخديمي علال، «المجتمع الشاوي بين تأثيرات السلطة وتحولات المجال خلال القرن التاسع عشر»، منشور في دفاتر الشاوية1 دار النشر المغربية -الدار البيضاء 1997ص87 - 88. وكلمة الهوير مشتقة من الهور وهو القطيع من الماشية كانت الدولة تكلف القبائل برعيه.

2 - الأراضي التي فر عنها سكانها، بسبب الفتن والاضطرابات الناتجة عن الحروب بين الموحدين وخصومهم، سواء كانوا مالكين لها أو مجرد **مُعَمِّرِين** لها. والأمثلة على فرار السكان وخاصة الفلاحين منهم عديدة، فكانوا يفرون من السهول والهضاب المستغلة ويلجأون للتحصن بالمعاقل الجبلية والصحاري أو غيرهما، مثل هروب سكان سهل سوس إلى الأطراف، حسب رسالة رسمية أوردها ابن القطان[1]، وهروب سكان بلاد الهبط، «فقصر عبد الكريم وليس فيه إلا القليل من الناس في خيمات وحانوت واحد كان سوقهم، والأسود تزأر حواليه، والأرض موحشة قفرة، **أخلاها تهارج الفتن**"[2]. وكانت مدينة بني تاودا بالقرب من فاس، حسب الإدريسي، مزدهرة فلاحيا، خلال العهد المرابطي، "أول مدينة من مدن الغرب التي حل بها الفساد واستأصلها المصامدة... ولم يبق من هذه المدينة المنسوبة لبني تاودا إلا مكانها"، ولم يعد إليها عند خمود الفتنة إلا نحو 100 رجل حملهم على العودة إليها ما تتميز به أرضها من خصوبة كبرى ومردودية فلاحية مرتفعة[3] وكانت الطريق بالأندلس، بين مدينة شريس ومدينة طريف والنواحي المجاورة لهما، سنة 541 هـ، "كلها مقفرة لا سكنى بها ولا عمارة لقرب الفتنة المهلكة لأهل الأندلس"[4]. وما أن تضع الحرب أوزارها حتى يعود إليها قطانها، بعد أن أصبحت تحت سيطرة الموحدين وملكا لهم، وسيصبحون مجرد عمار عليها، وسيستغلونها، لا كمالكين للأرض، ولكن كشركاء للموحدين : خماسين ورباعين، أو مكترين لها. وكانت ظاهرة فرار السكان عن الأوطية وإخلاء عمارة القرى، تتكرر مع تكرار الاضطرابات، خاصة المصاحبة منها لمجيء دولة جديدة، كما حدث في المرحلة الانتقالية بين الموحدين والمرينيين. فعندما دخل المرينيون الشمال المغربي، سنة 610 هـ، "شنوا الغارات على قراه ومدنه، وضيقوا على قبائله فكان أحدهم لا يقدر أن يخرج من مسكنه، إلا أن كل من أذعن لهم **بالطاعة سالموه**، ومن **نابذهم قاتلوه وقصموه، ففر الناس** أمامهم يمينا وشمالا، ولجأوا إلى الجبال المنيعة لتكون لهم حصنا ومآلا، **وخلت المجاشر وقلت العمارات**..."[5]، ولم يعودوا إليها إلا بعد أن استقرت الأوضاع، ابتداء من عهد الأمير أبي بكر بن عبد الحق، سنة 546 هـ، الذي "أمر القبائل بسكن الأوطية، **وعمارة القرى والمجاشر الخالية**،

---

(1) - نفسه، ص210 ، عزاوي، **رسائل موحدية جديدة**... م س ص.50 -51.
(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب**..قسم الموحدين، م س ،ص.43 - 44 .
(3) - الإدريسي أبي عبد الله محمد، **نزهة المشتاق**..م س ص . 249 ،وعن تازكورت، ابن القطان، **نظم الجمان**..م س ص195، ومادة تازكورت في معلمة المغرب..م س ص.190 .
(4) - ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب** ..قسم الموحدين م س، ص.43 .
(5) - ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب** ..م س ص288 -289 . **الذخيرة السنية**... م س ص.36.

والاستكثار من الحرث[1]...". وهذا يبين أن عملية إعادة تعمير المناطق الفلاحية المهمة بشركاء قدماء أو جدد من الرعية، مرتبطة بسيطرة متغلب جديد على الأرض، ومن ثمة توزيع خراج هذه المناطق على القبائل المرينية المتغلبة.

3 - الأراضي التي فتحت عنوة، يطبق عليها مبدأ وحكم الأرض المفتوحة عنوة المعروف في الفقه، والذي يقضي بأن تصبح الأرض وكل الممتلكات المنقولة في ملك الفاتحين، ويقضي كذلك نظريا، بأن يصبح سكانها عبيدا في حالة إذا لم يقتلوا، وهو أمر صعب التطبيق على أرض الواقع، ولذلك سلك الموحدون تجاه المغلوبين سياسات مختلفة، حسب الظرفية العامة والملابسات المحيطة بكل معركة معركة. ومن الأمثلة، على تطبيق سياسة الأرض المفتوحة عنوة، ما حدث في تازكورت إذ قتل أزيد من 20.000 من سكانها[2] وفي وهران وتلمسان ومراكش. وكان سكان دكالة كثيري العدد، سنة 544 هـ، "فقتل أكثرهم وغنمت أموالهم ونساؤهم فبيعت الجارية بدراهم يسيرة[3] "، إذ قتل الرجال وبيع النساء والأطفال بيع العبيد، وخمست أملاكهم[4] . وقد يرحل، المالكون للأرض دون الفلاحين المشتغلين فيها، كما حدث مع برغواطة، في تامسنا بعد انهزامها أمام الموحدين، سنة 543 هـ[5]. ومما يدل على بقاء السكان بها ما ورد، في المصادر، من رخاء وازدهار فلاحي خلال العهد الموحدي[6].

4 - الأرض التي فتحت صلحا إثر مواجهة حربية، ويطلب سكانها الأمان في أنفسهم وأهاليهم، بينما تصبح أموالهم وعقاراتهم ملكا للمنتصرين، ويصبح السكان عمارا عليها مكترين لها. والمثال على ذلك، ما حدث في مدينة تونس إذ أجبر سكانها على دفع نصف قيمة كراء منازلهم، بعد خضوعها لعبد المومن، سنة 555 هـ. ويوضح لنا التجاني كيف آلت كل أملاك وأمتعة أهل تونس وجل بلاد إفريقية للموحدين، باستثناء ما كان يستر عوراتهم من اللباس فقط، "ولما عفا (أي عبد المومن) عن أهل تونس اشترط مسالمتهم في أنفسهم **ومشاطرتهم في رباعهم وأموالهم، كلها للمخزن** ماعدا ملبوس رقابهم،

---

(1) - **نفسه**، ص.73.

(2) - ابن القطان، **نظم الجمان** ...م.س .ص.195 .

(3) - النويري، **نهاية الأرب** ...م.س .ص.412 .

(4) - عن فتح مراكش، مجهول، **الحلل الموشية** ص 143-144 ، ص 153 عن فتح تونس، التجاني، **رحلة التجاني**... م .س .ص .345 .

(5) - البيدق، **أخبار المهدي** ...م. س .ص.71 .

(6) - عن جنات تامسنا وفلاحيها، ابن الزيات التادلي، **التشوف**... م.س309 ،.383 ، وعن ازدهارها الاقتصادي، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل، **تقويم البلدان**، ط.دار صادر، بيروت - لبنان، ص 131 ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**...م.س .ص.343.

وغير أهل تونس من قراها وسائر بلادها **يشاطرون** في أموالهم... وأقام عبد المومن بعد الفتح ثلاثة أيام ثم ارتحل إلى المهدية، وخلف أبا عبد السلام الكومي ومعه أشياخ **من الموحدين** لاستخلاص الأموال من أهل تونس فوقع البحث عن أموالهم، ودخلت دورهم، فحمل جميع ما فيها، وبيع ما أمكن بيعه من رباعهم وأملاكهم، وخرج الأمناء إلى سائر بلاد إفريقية **لمشاطرة الرعية في جميع ما بأيديهم حتى لم يبق من إفريقية بقعة إلا عمها ذلك**"[1] . وتتكرر نفس العملية، بعد معاقبة أهل المدن الثائرة، كمدينة قفصة سنة 582هـ[2]. وفي حالات نادرة يعفى عن رؤساء المنهزمين وترد لهم أموالهم المنقولة وأهاليهم لأسباب معينة، كما حدث مع بعض شيوخ القبائل العربية المنهزمة، سنة 547 هـ، بسطيف[3].

هكذا استحوذ الموحدون على أغلب الممتلكات العقارية في بلاد الغرب الإسلامي، كما رأينا في حالة بلاد إفريقية التي ظلت بها ملكية الأرض في ملك الدولة، إلى عهد المفتي البرزلي، في القرن 9 هـ، الذي لاحظ أن "أراضي قرى إفريقية الغالب عليها عدم الملك"[4] وهي نفس الوضعية العقارية السائدة في مملكة غرناطة، خلال القرن14 م، حسب ابن الخطيب . وأكدت بعض الدراسات، على هيمنة ملكية الدولة على أنواع الملكيات الأخرى، ويقول أحد المؤرخين عن وضعية الأرض، في القرن16 م : "وأغلب الباحثين إن لم نقل كلهم يرون بأن أراضي المغرب اعتبرت ملكا للأمة الإسلامية، وأنها بمثابة وقف عليهم، وأن زراعها بمنزلة مزارعين يدفعون **الخراج إيجارا** للأراضي التي يزرعونها"[5]. وهكذا آلت ملكية أغنى الأراضي بالبادية، والعقارات، بأغلب، المدن للدولة الموحدية. وتعرف الأملاك المخزنية الفلاحية منها، في مصادرنا **بالضياع السلطانية**، نسبة للسلطة أي المخزن، وليس ملكا شخصيا للخليفة، كما قد يعتقد، كما تعرف **بالمستخلص**، أي أنها استصفيت واستخلصت لبيت المال بعد تطييب نفوس الغانمين لها . بينما يعرف العقار في المدن **بالمختص**، أي العقارات الخاصة ببيت المال التي يستغلها بنفسه، كالحمامات والأرحاء والفنادق ولا يشترك فيها مع الغير، كمختص الرباع في فاس[6] أو الرباع

---

(1) - التجاني أحمد، **رحلة التجاني**... م س، ص.345 وراجع كذلك النويري، **نهاية الأرب** ...م س ص.422.

(2) - ابن خلدون، **كتاب العبر** ...م س ج 6ص193 ، عبد الواحد المراكشي، **المعجب**... م س ص.395 394.

(3) - البيدق، **أخبار المهدي**... م س، ص.76.

(4) - فتحة محمد، **النوازل الفقهية والمجتمع**... م س، ص 337 نقلا عن أحكام البرزلي ج1 .. ص.36 .

(5) - مزين محمد، **فاس وباديتها**، منشورات كلية الآداب بالرباط1986 ، ص.321.

(6) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب** ...ص255 .. عن استعمال مصطلح المختص في الوثائق الرسمية خلال النصف الأول من القرن 7 هـ، راجع عزاوي أحمد، **رسائل موحدية جديدة**..م س ص470 .,474 ، ابن غازي، الروض الهتون... م س ص 5 إذ ورد ذكر حمام المختص.

المخزنية في مكناس[1]. وقد ظلت الأملاك المخزنية تسمى بنفس الاسم حتى عهد أبي عنان، في القرن8 هـ/14م[2]. والأراضي التي كانت خارجة عن ملكية الدولة هي أراضي الصحاري وبعض الجبال وليس كلها، كما توهمنا رواية التكسير السابقة.

ولم تحرر الدولة الموحدية إلا أملاك السكان الذين بادروا إلى الانضمام للموحدين والذين يسمونهم **بالمهاجرين**، مثل ابن عزون بمدينة شريس أول المدن التي احتلها الموحدون بالأندلس صلحا، في فاتح ذي الحجة من سنة 539 هـ، "فليس في أملاكهم **رباعة**، وجميع بلاد الأندلس **مربعة**"[3]، وأملاك ابن رشد ووفد إشبيلية المبايع لعبد المومن، بمراكش سنة541 هـ[4]. وكان سكان جبل زرهون الذين بعثوا بيعتهم إلى عبد المومن، وهو في أحواز تلمسان "بسبب سبقهم أحرارا من المغارم كتب لهم بذلك صكوكا كانت بأيديهم ولم يتعرض لأموالهم كما فعل بالأملاك التي أخذت عنوة"[5]. وجاء فرسان من مرسية التي كانت ما تزال خاضعة لابن مردنيش، سنة 567 هـ، إلى يوسف بن عبد المومن و"أمر لهم بظهائر كتبت لهم بتحرير أموالهم، وتقرير آمالهم، لتشهد لهم **بهجرتهم** (أي انضمامهم للموحدين)، **وبدارهم** إلى هذا الأمر العزيز"[6].

وتجدر الإشارة إلى أن التمييز بين الأرض المفتوحة عنوة أو صلحا، يستند إلى اعتبار الموحدين لكل الرافضين لاعتناق مذهبهم والخضوع لهم عنهم **مجسمين** كفارا، ولو كانوا من المسلمين. وقد أفاضت كتب الأموال في شرح هذا النوع من الفتح[7]. وبدأت هذه السياسة، في التعامل مع الأرض، مع الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا، وتكررت بعده مع أغلب الكيانات التي عرفها الغرب الإسلامي، بالرغم من إسلام سكانها، وتجلت بشكل واضح في عهد الفاطميين، وقد طبقوها على فتح عدد من المدن في بلاد المغرب وإفريقية[8]. كما يتجلى في عمليات النهب والسلب التي تمارسها بعض القبائل القوية في ظرفيات معينة[9]. ورغم ذلك يمكن اعتبار الموحدين، في هذا الصدد، أقل من سلفهم

---

(1) - ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية** ...م.س .ص.75 .

(2) - ابن الحاج النميري، **فيض العباب**...م.س .ص.250.

(3) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب** ...م.س .ص.188 .

(4) - **نفسه**، ص.190.

(4) - ابن غازي، **الروض الهتون**...م.س .ص.9 .

(6) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**... م.س .ص378 ، المراكشي، **المعجب** ...م.س .ص.362 -363 .

(7) - انظر كتاب الخراج للقاضي ابي يوسف(ت) 172، **وكتاب الخراج** ليحي بن آدم القرشي (ت303هـ) **وكتاب الاستخراج لأحكام الخراج** لابن رجب الحنبلي في موسعة الخراج دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان.1979

(8) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م.س .ج 1ص149 ،.,208.

(9) - انظر مثلا كيف صالح بني حماد القبائل الهلالية على آن يكون لهم نصف غلات مملكتهم، المراكشي، **المعجب**...ص.328 -329

المرابطين الذين طبقوا نفس السياسة[1]، بل فاقوهم، إذ كانوا يفرضون على من انضم إليهم طوعا، في بداية حركتهم بالصحراء أن يدفع لبيت المال ثلث "أمواله المختلطة بالكسب الحرام ليحل له الباقي، كما فعل عبد الله بن ياسين مع قبيلة لمطة التي انضمت إلى حركتهم طوعا وأخذ منها "ثلث أموالهم ليطيب لهم الثلثان الباقيان[2]". وانتقد فقهاء المالكية عبد الله بن ياسين، في هذه المسألة، واعتبروا حكمه فيها شاذا عن المذهب المالكي[3]. ويبدو أن هذه العادة كانت سائدة في الرباطات، تبناها بعض المتصوفة المغاربة، خلال العصر الوسيط، ونسبوها للرسول[4]، مما يدل على أن تأثير ثقافة ومبادئ الرباطات، على مذهب ابن ياسين، أكثر من تأثير المذهب المالكي عليه[5].

وما يتردد، في المصادر التاريخية، حول شراء الحكام لأراضي بعض المدن من أصحابها المالكين لها، ينبغي أن يؤخذ باحتياط وحذر ويفهم في سياقه التاريخي، مثل شراء أرض فاس من طرف المولى إدريس، أو شراء أرض مراكش مرتين، مرة في عهد يوسف بن تاشفين، ومرة وفي عهد يعقوب المنصور الموحدي. فالقصد من مثل هذه الروايات هو البرهنة على أن امتلاك أرض المدن المذكورة، كان- بكيفية استثنائية - حلالا، ولم يكن غصبا وظلما من المتغلبين، كما هو مألوف[6]. وحتى في حالة تعويض الملاكين يكون التعويض ناقصا، كما حدث لبعض سكان إشبيلية اللذين أخرجوا من ديارهم بقصبتها، وعوضهم المخزن "في المدينة أعواضا من ديار المخزن مما لا يرضيهم، وكان هذا على الناس أشد من قتل نفوسهم، وزيادة كثرة همومهم وبؤسهم.. .ولم يزل الناس يشتكون من هذا العوض، مدة الخليفة الأول والثاني والثالث"، أي من عهد عبد المومن إلى عهد حفيده المنصور[7].

---

(1) - راجع عن المدن التي فتحها المرابطون عنوة، ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**... م س ص128 .,129 ,134 ,139 ,141 ,.142
(2) - عذاري، **البيان المغرب**..م س ج 4 ص10 ، البكري166، **كتاب المغرب**..م س،169 ، هوب كينز، النظم الإسلامية..م س ص.58 - 59.
(3) - البكري، **كتاب المغرب**... م س ص169 .. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**..ص . 132 .ابن عذاري، **البيان المغرب**... م س ج 4. ، ص.16.
(4) - ممن تبنى هذا الحكم أبو محمد صالح، انظر الماجري أبو العباس أحمد، **المنهاج الواضح**..م س ص258، وكذلك الصوفي ابن العريف، انظر التادلي، **التشوف**..م س ص.228 - 229
(5) -انظر فصل المذهب في هذا العمل.
(6) - انظر عن شراء مكان مراكش من طرف يوسف بن تاشفين، ابن ابي زرع، **الأنيس المطرب**... م س ص183، الإدريسي، **نزهة المشتاق** ..م س ص233، ابن عذاري، **البيان المغرب**... م س ج 4 ص123 ، ومن طرف يعقوب المنصور، البيان المغرب..قسم الموحدين ص230 ، وعن شراء مكان فاس من طرف المولى إدريس. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب** ..ص31.، الجزنائي، **جنى زهرة الأس**... م س ص 19بثمن 6.000 درهم وقد ناقش هوب كينز هذه المسألة في مؤلفه، النظم الإسلامية في المغرب ... ص.61- 62 .
(7) - ابن عذاري، **البيان المغرب**..ق .الموحدين م س، ص.39 .

هكذا تكونت الممتلكات المختلفة لبيت المال الموحدي بواسطة الغنائم . وكانت موارده كافية لتسيير دواليب إدارة الدولة الناشئة، ولتلبية وإشباع طلبات جنودها، من القبائل الموحدية أومن غيرها، بما يحصلون عليه من نصيبهم من العقارات بالمدن خاصة، أو من أسهم الجباية. كما مكنتهم من دفع العطاء بسخاء كبير، إذ كان عبد المومن يدفع أحيانا، المواساة ثلاث مرات في الشهر، حسب حضور المال لديه، ويدفع أقساطا هامة تصل إلى 10 دنانير حشمية (مرابطية) [1]، في حين جرت العادة أن تفرق ثلاث مرات في السنة . وكان جل الموحدين راضين بما حصل في أيديهم من المال وما تكدس لديهم من الثروات، وتغيرت حالتهم الاقتصادية، نتيجة لذلك، تغييرا كبيرا، فخرج جلهم من الخصاصة والفقر وتحولوا إلى الرفاه والنعيم، وإلى التأنق في الملبس والمسكن والمطعم، وغرس البحيرات والمنتزهات[2]. وتشير بعض المصادر إلى هذا الثراء الذي كان واضحا، في عهد يوسف بن عبد المومن، "ونمت الأرزاق وعمرت الأسواق وزادت المخازن وفورا، ودرت الخيرات على الناس درورا، وابتنوا بمراكش الديار العتيقة، واغترسوا خارجها أينع حديقة..."[3]. وقد شبه بعض الطلبة (العلماء) وأهل التواريخ عهد يوسف بن عبد المومن، بعهد عثمان بن عفان إذ اقتنى الناس(أي الموحدون) الأموال والضياع، مثل كبار الصحابة بعد الفتوحات الإسلامية الكبرى، وكانت ثرواتهم كبيرة جدا، ومدخولهم اليومي مرتع جدا، كمدخول طلحة الذي يقدر ب 4 كلغ من الذهب يوميا[4] (أي ما يعادل اليوم40 مليون سنتم تقريبا). ويفهم، من مقارنة أملاك الموحدين مع ثروات كبار الصحابة، في عهد عثمان بن عفان، أن ثروات كبار الموحدين كانت ضخمة جدا . وبالفعل، تتحدث المصادر عن أملاكهم وسهامهم وديارهم وعقارهم في عدد من المناسبات[5]. ولم تحدث خلافات كبرى بين الموحدين في هذه المرحلة، إلا ما كان من الخلافات السياسية حول الخلافة، وأهمها محاولة أخوي المهدي الثورة على عبد المومن.

لكن، بعد سنة 555 هـ، توقفت الفتوحات الكبرى دون أن تتوقف حروب الموحدين خاصة مع المسيحيين بالأندلس، أوالثوار داخل الإمبراطورية، كثورات جبال غمارة[6]،

---

(1) - ابن القطان، **نظم الجمان** ...م.س .ص131 .، ابن ابي زرع، **الأنيس المطرب** ...م.س .ص.194.

(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م.س .ص359 .، انظر فقرة البناء في هذا الفصل

(3) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ...م.س .ص99 .، ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة** ...م.س .ص266 ، وعن الأمن والرخاء الاقتصادي خاصة في عهد يوسف بن عبد المومن، راجع المراكشي، **المعجب** ...م.س .ص.371.

(4) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**... م.س .ص 168 .وعن اغتناء الصحابة في عهد عثمان (ض) **المقدمة** ابن خلدون 362-363 ورد فيها أن مدخول طلحة كان ألف دينار، ووزن الدينار الشرعي يفوق 4 غ من الذهب.

(5) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... قسم الموحدين م.س .ص318،, 334, 338 ، المراكشي، **المعجب** ...م.س .ص.414.

(6) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م.س .ص231-245 . ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**..م.س .ص 244 إذ جاء في رسالة رسمية أنهم غنموا 27.000 من الغنم 12.000 رأس من البقر، و 617 من الدواب، و 3647 من السبي.

وبني غانية في إفريقية[1] ، فأصبحت الحرب غير اقتصادية ولم تعد لها نفس المرودية السابقة، بل كان بعضها مكلفا جدا، شأن حروب إفريقية التي كانت تمتص قسطا وافرا من مالية الموحدين، كما سيأتي لاحقا، فأصبح المورد الأساسي والمهيمن على غيره هو الخراج حتى حوالي، سنة 610 هـ . فما هو الخراج؟

ب. الخراج:

الخراج مفهوم مطاط يرد في المصادر، بدلالات متنوعة، حسب السياق. فالخراج لغة، هو الغلة والكراء والأجر، وبهذا المعنى الأخير ورد في القرآن الكريم[2]. وليس الخراج ضريبة على الأرض، كما ذهب إليه جل الباحثين[3]. ويمكن القول بأنه هو ما يتحصل من استغلال الدولة لأملاكها المختلفة وخاصة العقارية منها، واستعمل كمرادف للأموال التي ترد على الدولة على سبيل التغليب، ثم شاع هذا الإطلاق واتسع نطاقه، مرة أخرى، ليشمل الموارد وطريقة جمعها وإنفاقها. وبهذا المعنى جاء كعنوان لبعض كتب الأموال، ككتاب الخراج لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم (ت 182هـ /798م)، ويحي بن آدم، وقدامة بن جعفر. كانت الدولة الموحدية تحرص أشد الحرص على "**تثمير**" تلك الأملاك **وتنميتها**[4] باستغلالها، لذا سمي وزير المال عندهم بوزير أو صاحب الأشغال، إذ يقوم بالأعمال الضرورية لتنمية أموال الدولة . في حين يسمى، لدى بني الأحمر في الأندلس، بالوكيل[5]، ويسمى المسؤول الإقليمي على أملاك الدولة بالمشرف. ويتم استغلالها بثلاثة أشكال رئيسية: الاستغلال المباشر من طرف الدولة لأملاكها، أو عن طريق كرائها، أو استغلالها عن طريق الشركة مع الغير، في الغالب من لا يملك الأرض، وتعرف هذه الشركة إما بالمقاسمة أو المشاطرة أو المغارسة أو المساقاة في الميدان الفلاحي .

* طريقة الاستغلال المباشر:

كانت الدولة هي المستثمر الأول، لأنها المالكة لأغلب وسائل الإنتاج من الأرض وغيرها. وتستثمر جزءا من أراضيها الفلاحية بغرس البساتين من الأشجار المثمرة،

---

(1) - Bel (A), **Les Benou Ghania** ; Paris 1903 .

(2) - جاء في التنزيل، "أم تسألهم خرْجاً فخراج ربك خير" بمعنى الأجر. وانظر أيضا عن معاني الخراج، ابن منظور، **لسان العرب**.

(3) - انظر مادة الخراج في **الموسوعة الإسلامية** مثلا، هوب كينز، **النظم الإسلامية**..ص.59 -70.

(4) - عن حرص المخزن الموحدي على ضبط أمواله "وتثميرها بما يوفرها وينميها". عزاوي، **رسائل موحدية، مجموعة جديدة**..م - س ص438 ,.441, 442, 471

(5) - ابن خلدون، **المقدمة**... م-س، ص.429 .

خاصة الزيتون والفواكه الصيفية والخريفية حول أهم المدن الكبرى، وهي التي تسمى البحاير نظرا لكبر مساحتها[1]، إذ يصل محيط بعضها إلى 12 ميلا، أي حوالي 160 هكتار، كالبستان الذي غرسه عبد المومن بمراكش مباشرة بعد افتتاحها، سنة541 هـ/1147م[2]، ومثل بحاير مراكش العديدة، ومكناس وفاس والمقرمدة وتازة[3]. ويتم استغلالها بواسطة عبيد ودواب المخزن أو بواسطة السخرة، كما حدث عندما غرس يوسف بن عبد المومن بحاير إشبيلية[4]. وكان المخزن يحصل على مبالغ مهمة من هذه البحاير، إذ بلغ مدخول بيع حب زيتون البحيرات التي غرسها الوالي محمد بن وجاج بفاس 50.000 دينار، ومدخول بحائرمكناسة 35000 دينار[5] ومستفاد بحائر تازة 250000 دينار. لكن هذا النوع من الاستغلال محدود في ضواحي بعض المدن الرئيسية والمتوسطة حيث تستقر الحامية العسكرية، كما أسلفنا.

أما مختص الرباع بالمدن فهو تلك المرافق الأساسية التي كانت الدولة تبنيها وتكتريها للسكان، مثل الآبار والأرحى والحمامات والقيساريات والدكاكين وغيرها من المرافق الحيوية، مثل بناء فندقين في القصر الكبير من طرف الدولة، أو بنائها لأسواق وفنادق وقسارية عظيمة بمراكش جلبت لها التجار[6].

ونجد هذا النوع من الاستغلال في تربية الماشية واستغلال المراعي، كما نجده في المجال التجاري والصناعي، كدار الطراز المخصص لصناعة اللباس الذي نجده لدى أغلب الدول الإسلامية. ولكن لا توجد عليه إشارات صريحة في العهد الموحدي، باستثناء ما ورد عند ابن خلدون من أن أغلب الدول تقوم بنفسها بصناعة الملابس الخاصة بالسلطان في دور خاصة، ويسمى المشرف عليها صاحب الطراز[7].

طريقة الكراء:

كان، في مقدمة ما يكتريه المخزن، أراضي السكنى داخل أسوار أغلبية المدن، خاصة المفتوحة عنوة، إذ يكتريها للقاطنين للذين شيدوا عليها منازلهم من مالهم، بنصف ثمن

---

(1) - مجهول، **الاستبصار** ..م.س ص.209.

(2) - مجهول، **الحلل الموشية** ..م.س ص145-146 .. وإذا كان الميل يساوي 1,340 كلم يكون ضلع هذا البستان (12/4 = 3*1340م=4020م) أي ما مساحته حوالي16000000 م مربع أي160 هكتار.

(3) - **نفسه**، ص.145 - 146المنوني، العلوم والآداب... م.س ص240-241 .، مجهول، **الاستبصار**..م.س ص 178 -188، ابن القطان، **نظم الجمان**..م.س ص343 .، ابن غازي، **الروض الهتون**... ص3 ، ومادة بحائر في موسوعة، **معلمة المغرب**، ج 4 ص.1063

(4) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة** ..م.س ص.373 - 376 .

(5) - ابن غازي، **الروض الهتون** ..م.س ص.3 .

(6) - مجهول، **الاستبصار** ..م.س ص189.,.210

(7) - ابن خلدون، **المقدمة**... م.س، ص.472 .

الكراء، أي أنهم أصبحوا شركاء للمخزن في أرضه، سواء شيدوها قبل أو بعد امتلاك الموحدين للأرض، كما يظهر من حالة تونس "إذ أقام أهل تونس على أجرة تؤخذ عن نصف مساكنهم"[1] ، ومن حالة مدينة قفصة السابقة الذكر. وهذا النوع من الكراء كان معروفا بالجزاء، ببلاد إفريقية، منذ القرن 2 هـ، وبفاس منذ عهد الأدارسة، إذ كان إدريس قد أمر بأن من بنى موضعا، قبل إتمام السور، فهو هبة له. ويعلق الكاتب على عمل إدريس هذا بقوله "يظهر من هذا والله أعلم -أن من بنى شيئا بعد تمام السور المذكور، إنما يكون **باستئجار الأرض، وهو سبب الجزاء في بعض جهاتها**"[2]. ويقصد بذلك الأحياء العديدة التي كانت تحمل اسم الجزاء، كجزاء ابن برقوقة وجزاء ابن عامر وجزاء ابن زكون. وقد استمر الكراء، بمدن المغرب إلى بداية القرن العشرين، كما يظهر من نموذج مدينة الدار البيضاء التي كان كل ما يحيط به سورها من الأراضي في ملكية المخزن. فكان يستغل تلك الأرض بعدة أشكال منها : الشركة وهي أن يبني السكان على أرض الدولة دورا وحوانيت ويدفعون نصف الكراء المقدر لها للدولة، أما إذا شيدت الدولة نفسها الدور والحوانيت، فإنها تكتريها بالمزاد العلني وتحصل، في هذه الحالة، على الكراء كاملا.[3] والأمثلة على هذا النوع من الاستغلال كثيرة في العهد الموحدي، منها، كراء عقارات باجة بعد أن جدد يوسف بناءها وأعاد تعميرها، سنة 570 هـ، إذ "تمكن الناس بقصبتها وفي ديارهم الحديثة البنيان، وتبايع الناس في أرضها بينهم في خارجها وداخلها وحرثوا الأرض **وعمروها**، وبنوا الحوانيت والرباع ورفعت إلى دار الإشراف بإشبيلية **الأزمة بأعشارها وكراء رباعها**"[4]. وفي سنة 572 هـ، بنيت الأسواق والحوانيت وجامع القصبة بإشبيلية المعروف بالخرالدة ونقلت إليها الأسواق القديمة، "وتزاحم الناس باعتباطهم في المزايدة في **كرائها ونما الخراج في ذلك نموا غاليا**"[5]. وكانت الدولة تكتري الحوانيت والفنادق بالمزايدة في تلمسان[6]. ويخبرنا صاحب المستفاد أن استخلاص خراج الأراضي الفلاحية كان عادة متجذرة بفاس على العهد الموحدي[7]، وتكترى بها الرباع

---

(1) - الناصري، **الاستقصا**..م.س. ج 2 ص.132.

(2) - الجزنائي، **جنى زهرة الآس**..م.س. ص26 .، هوب كينز، **النظم الإسلامية**... م.س. ص.62.

(3) - النجيدي محمد، «الوضعية العقارية في الدار البيضاء في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين»، مقال منشور ضمن أعمال ندوة المدينة في تاريخ المغرب العربي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية II بنمسيك الدار البيضاء 1988 ص 213- 224

(4) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... قسم الموحدين م.س. ص.134 .

(5) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة** ..م.س. ص.396 .

(6) - التادلي، **التشوف** ..م.س. ص447.،.429

(7) - المنوني، «لقطات دفينة من كتابين في المناقب»، ضمن أعمال ندوة، التاريخ وأدب المناقب منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، عكاظ - الرباط ص12 ، وكذلك بن عيشون الشراط، **الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس**، تحقيق زهراء النظام، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية. سلسة. رسائل وأطروحات 1997 ص.205 .

المخزنية بالمزايدة[1]. والإحصاء الوارد لدى ابن أبي زرع، حول دور فاس وعقاراتها وغيرها، هو من سجلات الخراج الموحدي، في عهد محمد الناصر[2] .

وكانت الدولة أيضا، تكتري الأراضي الفلاحية للزراعة، منها كراء الأراضي البورية بمكناس، إذ كان بها "أرض بيضاء (بورية) للخضر والكتان تكترى بمال جسيم"[3]. وكما حدث للمتصوف يخلف بن خزرالأوربي (ت578هـ)، بضواحي مدينة فاس، الذي "كان يحرث ببلده **بزوج** (أي زوج الحرث)، فإذا كان وقت دفع **الخراج** الذي على الأرض، يقول أهل بلده بعضهم لبعض : تخرج زوج الشيخ من الزمام (أي من سجل الخراج)، فيقول لهم: لا تفعلوا ذلك، لأنكم إذا أسقطتموها عني رجعت على الباقي من الحراثين، فهذا لا يمكنني فعله، ولو سقطت من الأصل ولا يرجع **بكرائها** على أحد، لقبلت منكم، فوصل ذلك للناظر في أمر الخراج، فأخذ له ظهيرا ممن له الأمر بإسقاط ذلك عنه، ولا يرجع بما ينوبه على أحد"[4]. ولعل انتشار عادة الكراء هو ما يفسر شيوع تسمية الفلاحين بالأكرة في المصادر الوسيطية[5].

وتكترى الدولة أيضا المراعي[6] والماء، في بعض الجهات، والمصايد في البحار والأنهار، وكل ما يمكن أن يدر ربحا. فكراء المصايد كان معروفا لدى الفاطميين، وظهر في العهد المريني الأول بسبتة[7] واستمر العمل بذلك إلى العهد السعدي، إذ كان "الملك يكتري صيد نهر فاس بأكثر من 20.000 مثقال ويستمر من بداية أكتوبر إلى منتصف إبريل[8]

ويدخل ضمن الكراء، كراء خدمات بعض المنشآت، مثل المرور على القناطر والجسور التي يدفع المستعملون لها القبالة[9]، والتي كانت كذلك تسمى المكري، في أوائل

---

(1) - التميمي ابن عبد الكريم **المستفاد في مناقب العباد**، مخطوط، لوحة81.

(2) - ابن غازي، **الروض الهتون** ...م س ص .3.المنوني، **العلوم والآداب**...م س ص.240-241 .

(3) - ابن غازي، **الروض الهتون** ...م س ص .3.المنوني، **العلوم والآداب**...م س ص.240 - 241 .

(4) - بن عيشون الشراط، **الروض العطر الأنفاس**... م س ص 205 نقلا عن المستفاد للتميمي.

(5) - ابن خلدون، **المقدمة**... م س ص494 .، أحمد عبد الحليم يونس، تطور **استثمار الأرض** ... ص184 . و انظر معناها عند ابن منظور، لسان العرب.

(6) -تعرف كراء المراعي لدى الفاطميين حسب ابن حوقل، **كتاب صورة الأرض**... م س ص 97. ومعلوم أن الجباية الموحدية لا تختلف عن الجباية الفاطمية وغيرها من الدول في الغرب الإسلامي.

(7) - انظر كراء مضرب السمك في سبتة في العهد المريني وطريقة تقسيم مدخوله بين آل العزفي وبيت المال، المقري، **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**، نشر صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة ج 1 ص.42 .

(8) - مارمول، **إفريقيا**...ج 1ص .152وعن ملكية الملك السعدي لماء نهر فاس، نفسه، ص.148 .

(9) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة** ...م س ص .166 .

القرن12م[1]، وسميت قبالة لأنها متقبلة، أي أن متوليها ومكتريها ضامن لتحصيل مدخولها. والموحدون عملوا بالأمانة في جل جبايتهم.

طريقة الشركة :

الطريقة الثالثة، هي استغلال الأراضي الزراعية عن طريق الشراكة مع الغير. وتسمى الشركة في الفلاحة بالمساقاة في سواد الأراضي أي المسقية، وبالمزارعة في بياضها أي في الأراضي البورية. واشتهر هؤلاء الشركاء في عرف أهل مراكش **بالمرابعين**، لأنهم يعملون في ذلك، على أن يكون لهم الربع من الإنتاج[2]. وهذه الشركة من التقاليد الإسلامية المتوارثة، أفاضت كتب الفقه والأموال في الحديث عنها وفي تفصيل أنواعها، وتتراوح نسبة الشركة بين النصف والخمس من الإنتاج، حسب خصوبة الأرض وحسب طريقة الري (طبيعي أو اصطناعي) وحسب نوعية المزروعات. وإذا كان اسم المرابع غالبا بمراكش، فلأن الموحدين أعطوا الأرض بالربع لأن الزراعة السائدة هي الزراعة المسقية بالآلات، بينما في مكناس أعطوها بالنصف في الفواكه الصيفية والخريفية لأنها تسقى سيحا، وبالثلث من إنتاج الزيتون[3]. واستمر العمل بالشركة، حتى سنة 634 هـ، إذ "عمر الموحدون بلادهم ومجاشرهم وضموا **شركاءهم** وأقبلوا على أشغالهم وصلاح أحوالهم في خدمة بواديهم"[4]. ويبدو أن الموحدين كانوا، إلى سنة 555 هـ، قد اتبعوا ما يمكن تسميته بخراج المقاسمة المعتمد على الشركة مع الفلاح بنصيب معين من الإنتاج يتراوح بين النصف والخمس من الغلة الفلاحية، واضطروا إلى تغييره جزئيا في تلك السنة إلى خراج **التقسيط أو الوظيف**، وهو مقاطعة الشريك على دفع مقدار جزافي معين، حسب مساحة الأرض وقيمتها. **ويقسط** أو **يوظف** ذلك المبلغ، حسب معايير أهمها مساحة الأرض، لذلك يعرف بخراج المساحة، فيتحول الخراج من الشركة إلى الإيجار الدائم للأرض. لماذا هذا التغيير الجزئي في هذه السنة بالضبط في طريقة الشركة الفلاحية؟

كان شركاء الموحدين من الفلاحين يعانون الأمرين من سلبيات هذا النوع من الشركة، لأنها تقتضي عند بيع نصيب المخزن من المحصول الفلاحي، إما أن يشتريه الشريك لنفسه بثمن مرتفع، أو أن يبيع هو نصيبه للقشاش المكلف ببيع نصيب المخزن بأقل ثمن،

---

(1) - البيدق، **أخبار المهدي** ...م س. ص.26 .
(2) - ابن عبد المالك، **الذيل والتكملة**... م س. س 8 ص.177 - 178 .
(3) - ابن غازي، **الروض الهتون**...م س. ص.10 .
(4) - ابن عذاري، **البيان المغرب**...قسم الموحدين م س. ص.338.

فيتعرض الفلاح الشريك في كلتا الحالتين لابتزاز ماله. بالطبع، لا يضر ذلك بالشركاء وحدهم، الذين يضطرون إلى ترك العمل في مثل هذه الشروط المجحفة وهجرة الأرض وتركها حتى تبور كما حدث بمدينة مكناس وأحوازها أول الأمر[1] ، بل يضر بالإنتاج، وبالتالي بنصيب المخزن نفسه. فقرر عبد المومن بعد رجوعه من إفريقية، سنة 555 هـ، أن يقاطع جل الفلاحين بالغرب الإسلامي.

يرى أحد الباحثين أن هذا التغيير وقع، سنة 543 هـ، معللا ذلك بالثورتين العارمتين سنوات 541 و 543 هـ بالمغرب الأقصى[2] ، وغاب عن صاحب هذا الرأي أن مكناس التي وقع فيها تغيير الموحدين لطريقة الشركة الفلاحية، لم يستول عليها الموحدون إلا بعد، سنة 544 أو 547 هـ، أي بعد القضاء على الثورات المشار إليها بسنة أو أربع سنوات[3] ، وبالتالي يستبعد أن يحدث التغيير الذي أشار إليه ابن غازي، في سنة 543 هـ. والغالب على الظن أن تغيير طريقة الشركة من الشركة المعتمدة على نصيب من الإنتاج إلى المقاطعة، حسب المساحة، حدث في سنة 555 هـ، وهناك العديد من القرائن التي ترجح هذا الظن. أولها أن الرواية التي تعتبر عبد المومن أول من قام بإحداث التكسير في بلدان المغرب الثلاث[4]، تتضمن عناصر تدفع إلى التشكيك في بعض تفاصيل محتواها وخاصة المقياس الذي تم به التكسير، أي بواسطة الأميال والفراسخ. فالتكسير معروف منذ العهد الروماني بشمال إفريقيا، وورثته الكيانات السياسية التي عرفها الغرب الإسلامي، مثل الفاطميين . فقد عهد عبيد الله الشيعي إلى الفقيه مالك بن عيسى القفصي "بتعديل الأرض له **لتوظيف الخراج** الذي يسميه **المقسط**"[5]. وفي سنة 303هـ/ 915هـ، "ولى عبيد الله بإفريقية الخراج أبا معمر عمران بن محرز القاضي فتولى **وظيف التقسيط** على ضياع إفريقية بعد أن وزع جميعها، ونظر إلى أوفر مال ارتفع من العشور في سنة وأقله، ثم جمع المالين ووظف الشطر على كل ضيعة"[6]. وكان علم تعديل الأرض من

---

(1) - ابن غازي، **الروض الهتون**... م. س . ص.10 .

(2) - عز الدين أحمد موسى، **النشاط الاقتصادي في الغرب الإسلامي**... م.س .ص135 ، ويرى الأستاذ القبلي أن هذا التغيير حصل في عهد يعقوب المنصور دون أن يحيل على مستنده في ذلك، وربما اعتمد على ما ورد لدى،
Brignion et autres, **Histoire du Maroc**, Librairie National , Casablanca 1968.p115

(3) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب** ..م.س.ص.191 .

(4) - انظر، الناصري، **الاستقصا** ..م.س .ج 2.ص135.، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب ... م.س .ص.198- 199 .

(5) - هوب كينز، النظم الإسلامية في الغرب الإسلامي... م.س .ص63-64 ، فرحات الدشراوي، الخلافة الفاطمية بالمغرب ترجمة حمادي الساحلي. دار الغرب الإسلامي، بيروت 1994 ص.493 .

(6) - ابن عذاري، **البيان المغرب**..م.س .ج 1 ص141.، المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر-بيروت 1986ط ١سنة م 12 جزءا، ج 4 ص5 . هوب كينز، النظم الإسلامية... م.س .ص.63 - 64 .

العلوم الرائجة بين بعض المتعلمين خلال العصر الوسيط نظرا للحاجة إليه في عدة مجالات أهمها، حسب ابن خلدون، تكسير الأرض لتقسيط الخراج عليها[1]. وقد اشتهر بعض الفقهاء بمعرفتهم بفن تعديل الأرض، ومن ضمن الفقهاء الذين برعوا في فن تعديل الأرض الفقيه مالك بن عيسى القفصي السابق الذكر في القرن 4 هـ، وأبو العباس أحمد بن محمد الزغبوشي المكناسي الذي انخرط في الحركة الموحدية قبل فتح مراكش[2].

أما القرينة الثانية، فهي عادة الموحدون في فتوح البلدان، إذ كانوا يحصلون على وثائق تكسيرها إذا كانت موجودة، أو يقوم به أمناؤهم، وكان يتطلب منهم ذلك وقتا طويلا. فقد بقي الأمناء، مدة شهرين في تقييم أملاك مراكش بعد فتحها وتكررت نفس العملية عند افتتاحهم لعدة مدن كبجاية وتونس[3].

والقرينة الثالثة، أنه يرد في المصادر ما يدل على شيوع التكسير، كالمقاييس المستعملة في تعديل الأرض والتي تحمل أسماء محلية، مثل إطلاق كلمة الحبل أو المطوي (أي نصف طول الحبل) على نوع من الجبايات الفلاحية خلال العهد المريني. ومعلوم أن التكسير يتم بالحبل ويعتبر أحد وحدات المساحة، ويسمى التكسير بالقبطية في مصر بالروك (الروش) وهو الحبل[4]، وقد ذكره ابن مرزوق في عهد أبي الحسن المريني[5]، وظل مستعملا في الواحات المغربية إلى القرن19 م[6]. أما في الأندلس فكان يطلق على المقياس الفلاحي **المرجع**، وهو خمسون ذراعا مربعا[7]، بينما أطلق على التكسير بمدنها **التربيع**، فالأندلس كلها **مربعة** ولم يستثن إلا أملاك السابقين مثل بني عزون فليس فيها رباعة[8]. ولكن أهم مقياس فلاحي هو زوج الحرث الذي ذكر منذ العهد المرابطي بدكالة[9]، وعلى أساسه كانت تفرق أسهم الجباية لشيوخ الموحدين عند الدولة الحفصية وريثة الدولة الموحدية في نظمها[10]. أما التكسير بالفراسخ والأميال فغير

---

(1) - عن علم المساحة والحاجة إليها في توظيف الخراج وغيره، ابن خلدون، **المقدمة**... م. س. ص.904.
(2) - ابن غازي، **الروض الهتون**..م س. ص 7-8, 20.
(3) - مجهول، **الحلل الموشية**... م س. ص 143-144 رسالة عبد المومن لطلبة تلمسان ص 23-24 أوردها المنوني، **العلوم والآداب**... م س. ص. 188. التجاني أحمد، رحلة التجاني ... م س ص 345.
(4) - إبراهيم على طرخان، **النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى**، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة 1968 ص 96.
(5) - ابن مرزوق، **المسند الصحيح**... م س، ص 284. وما بعدها.
(6) - البوزيدي أحمد، "البنيات العقارية وتأثيرها السلبي على النشاط الزراعي بدرعة". مجلة أمل عدد 9 سنة 1997. ص 42 والهامش 31 من المقال
(7) - ابن القطان، **المن بالإمامة** ..م س. ص 375 وابن الخطيب، **الإحاطة**... م س ج 1 ص132 - 133، وعن مقدار المرجع، ابن جبير رحلة ابن جبير... ص101 ,.118 , .330 وهناك المرجع السجلماسي، الجزنائي، **جنى زهرة الآس**..م س ص.78.
(8) - وهم عز الدين موسى في فهم هذا المصطلح، واعتبره إشتراكا بالربع، النشاط الاقتصادي... م س ص.138.
(9) - الزياني أبو القاسم، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا**، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، نشر وزارة الأنباء ص78
(10) - القلقشندي، **صبح الأعشى**... م س ص136، التوفيق أحمد، **المجتمع المغربي**..م س ص.201 - 202.

معتاد، وهو معروف لدى المعدلين قبل عهد عبد المومن، فالجغرافي أبو بكر الزهري الأندلسي (كان حيا سنة 546 هـ) ذكر أن تكسير الجزء السادس، من الأرض الذي توجد ضمنه إفريقية وبلاد المغرب، هو 3300 فرسخ[1] . بالطبع، لا جدوى من معرفة المساحة الإجمالية للإمبراطورية الموحدية وإسقاط الثلث المفترض أنه غير منتج منها بطريقة عشوائية، لأن هدف التكسير هو تقييم الأرض الصالحة للزراعة والمستغلة، حسب مساحتها وخصوبتها وما عليها من منشآت ومرافق. وقد أضاف مؤرخ متأخر أن التقسيط الذي فرضه عبد المومن كان تبعا لكثرة نفع الأرض وقلته[2]. ومعلوم أن هذا التقييم كان يتجدد كل عقدين أو ثلاث عقود، ونعلم أن الإحصاء الوارد لدى ابن أبي زرع الفاسي، والخاص بدور فاس ومنشآتها، منقول عن زمام المشرف على خراج مدينة فاس أبي البركات، في عهد الناصر، مما يدل على تجدد تقييم الأملاك والتكسير في العهد الموحدي بفاس[3] .

القرينة الرابعة، نكبة عبد المومن لوزيره عبد السلام الكومي، في السنة المشار إليها لأسباب سياسية ومالية متداخلة، منها تشكي الناس في العدوة من ظلم عمال هذا الوزير وأغلبهم من قبيلة كومية، وأنه كان متواطئا معهم في تعسفهم على الرعية[4]. ولاشك أن مثل تلك التجاوزات هي التي دفعت عبد المومن إلى التخفيف على الفلاحين في شركة بعض المغروسات كالزيتون، وأن يقاطعهم في أخرى بمبلغ مالي من الفضة وقدر محدد من غلة الحبوب أو غيرها، وقصده من ذلك أن يرفع عنهم ظلم وتعسفات الجباة والقشاشين . وقد ورد مصطلح التقسيط، في المصادر الموحدية، ذكر صاحب التشوف مثلا، أن الوظيف كان مفروضا على إحدى القبائل ببلاد تادلا[5]. ولا يعني هذا أن شركة التقسيط هذه قد حلت محل شركة المقاسمة، بل نجد في مصادرنا نوعي الخراج، ولا نعرف ما هي المجالات الزراعية أو الجغرافية التي عملوا فيها، بهذا النوع أو ذاك، إلا في حالة مدينة مكناس[6]. وكيفما كان الأمر، فإن الخراج بأنواعه الثلاثة السابقة كان أهم مورد في ميزانية الموحدين طيلة نصف قرن.

---

(1) - التاسافتي عبد الله ابن إبراهيم، **رحلة الوافد**... م.س. ص .231.
(2) - حركات إبراهيم، **المغرب عبر التاريخ**... م.س. ج 1 ص.332 .
(3) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**... م.س. ص.48 -47 .
(4) - ابن القطان، **المن بالإمامة**...م.س. ص113 - 119 .. ابن عذاري، **البيان المغرب** ...م.س. ص.67-68
(5) - ابن الزيات التادلي، **التشوف** ...م.س. ص.442 .
(6) - ابن غازي، **الروض الهتون** ...م.س. ص10 .

ويمثل عهد يوسف قمة ارتفاع مداخل الخراج الموحدي، وساهم في تحقيق فائض كبير في ميزانية الدولة، حسب شهادة صديق عبد الواحد المراكشي، كان يشتغل ببيت المال الموحدي والمطلع على سجلات كثيرة بختمها من مداخيل الدولة، أوائل سنة611 هـ. ومما سهل عليه بذل المال "**سعة الخراج وكثرة الوجه** التي يتحصل منها الأموال"[1]، وشساعة إمبراطوريته المترامية الأطراف "يجبى إليه **خراج** ذلك كله دون مكس ولا جور، فكثرت الأموال في أيامه"[2]. وقد فاقت إيرادات الخراج الموحدي إيرادات نظيره المرابطي والدول السابقة لهم، في الغرب الإسلامي، خلال العصر الوسيط[3].

كان خراج إفريقية وحده، يصل إلى 150 حمل من المال النقدي، مع أن إفريقية هي أفقر الولايات، نظرا لاضطرابها ووضعيتها الخاصة قبل فتحها من طرف الموحدين . وبلغ خراج ولاية بجاية 50 حملا وخراج ولاية إشبيلية 150 حملا[4]، في حين وصل خراج أقطار مكناس 200.000 دينار، وبلغ مبيع زيتون بحيرتها 35000 دينار[5] ، ووصل خراج مدينة صغيرة كمدينة الجمعة، قرب مراكش 100000 دينار[6]. ابتداء من عهد المستنصر (610-620 هـ) بدأت موارد الخراج تتقلص بشكل واضح، وساءت نتيجة لذلك أحوال الجند فأرجل أغلب الفرسان وسرح مشاته، لأن بيت المال أصبح خاليا من السيولة النقدية. ولم يستطع المستنصر تجهيز أية حركة وإرسالها للقضاء على ظاهرة انتشار قطاع الطرق والمحاربين الساعين في الأرض فسادا، حتى في ضواحي دار الملك، وعلى مرمى حجر من مراكش، فضلا عن المناطق النائية[7] . إذ أخذت القبائل القوية تستحوذ، في جل أنحاء الإمبراطورية، على خراج الأرض التي تغلبت عليها في غياب حضور الدولة وعجزها عن القيام بأية حركة عسكرية تذكر لردعها، إذ إن الخليفة المستنصر "لم تكن له حركة تشهر ولا غزوة تذكر"[8]. وقد بدأت بوادر ظاهرة استحواذ بعض القبائل القوية على خراج الدولة الموحدية، تظهر بوضوح، أوائل القرن7 هـ/13م، بسبب النزيف المالي الذي خلقته النفقات الباهظة للحركات الكبرى التي جهزها الموحدون، خاصة الموجهة

---

(1) - عبد الواحد المراكشي، **المعجب**... م.س .ص.370 .
(2) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**...م.س .ص.206.
(3) - انظر الجدول في الصفحة201 من هذا العمل.
(4) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة** ...م.س .ص331 . المراكشي، المعجب... م.س .ص.370.
(5) - ابن غازي، **الروض الهتون**... م.س .ص 12 وعن مدخول بحيرة مكناس، نفسه، ص.3 .
(6) - الوزان، **وصف إفريقيا**...م.س .ص.97 .
(7) - ابن عبد المالك المراكشي، **الذيل والتكملة**... م.س .س 8 ص 177 . وما بعدها،
(8) - ابن، عذاري، **البيان المغرب**...قسم الموحدين م.س .ص. 265.

منها للقضاء على ثورات إفريقية، كثورة بني غانية[1] ، وبسبب تواكل وتخاذل العصبية المصمودية في الدفاع عن إمبراطوريتها. وعند عودة الناصر من إفريقية، سنة 604 هـ، بدأت القبائل الزناتية تستخلص الخراج لنفسها بالمغرب الأوسط عموما وبنواحي تلمسان خاصة[2]. وكذلك فعلت قبائل بني مرين، حين استولت على مناطق الشمال الشرقي من المغرب الأقصى، منذ سنة 610 هـ، ووضعت **الخراج**، سنة 614 هـ، على 9 قبائل "**وأخرجوا الحفاظ**(أي الولاة)**عليها**"[3]. يقول ابن خلدون عن هذه الظاهرة :"وكثر بالمغرب الثوار **وامتنع عامة الرعايا عن المغرم**، وفسدت السابلة واعتصم الأمراء والعمال من السلطان فما دونه بالأمصار والمدن..."[4] ، ووضع المرينيون بدورهم على كل قبيلة مالا وزرعا معلوما يؤدونه، كل سنة، خفارة على بلادهم. ويعد تقسيم الأمير أبي بكر لأراضي المناطق الشمالية من المغرب الأقصى على القبائل المرينية، سنة 646 هـ، تقسيما لمداخيل تلك الأراضي وخراجها، وليس تقسيما لملكية الأراضي . فقد جعل أبو بكر بن عبد الحق خراج تلك البلاد طعمة لهم، أي خاصا بهم وحدهم دون سواهم مدى الحياة، "فأنزل كل قبيلة في ناحية منه، وجعل لها ما نزلت فيه من الأرض، وغلبت عليه من البلاد **طُعْمَةَ لا يشاركهم فيها غيرهم**..."[5]. وسيطرت بعض القبائل العربية والمتحالفون معها على خراج مناطق تواجدها بالسهول المحيطية، كسيطرة الخلط على خراج دكالة وتامسنا وركراكة[6]. وهكذا أخذت ممتلكات الدولة العقارية في التقلص تدريجيا، وتقلص معها مدخولها من الخراج من البوادي، وانحصر سلطان الدولة في المدن فقط[7]. فما هو المورد الذي يمول ميزانيتها طيلة أزيد من الخمسين سنة التي عمرتها بعد ذلك؟

ستضطر الدولة الموحدية للحفاظ على بقائها، إلى العودة للأعراف والقوانين المالية القديمة التي حاولت جاهدة، في البداية، أن تحاربها بقوة وأن تستأصلها لأنها غير شرعية، حتى كادت تختفي، لكنها، في الواقع، صمدت وعادت من جديد وبشكل بارز، خلال النصف الأول من القرن7 هـ/13م.

---

(1) - التجاني، **رحلة** ... م. س. ص361.349.
(2) - الحميري محمد بن عبد المنعم، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس. مكتبة لبنان بيروت ط 2 سنة 1984 ص174.
(3) - ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**... م. س. ص172، أحمد عبد الحليم يونس، **تطور أنظمة استثمار الأرض الزراعية**..م س. ص194، ابن خلدون، **كتاب العبر**... م س. ج 7 ص. 170 .
(4) - ابن خلدون، **كتاب العبر**...ج 7. ص.170.
(5) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**... م. س. ص291.. **الذخيرة السنية**... م. س. ص. 65.
(6) - ابن، عذاري، **البيان المغرب**..قسم الموحدين ص.333 .
(7) - ابن خلدون، **كتاب العبر**...ج 7ص 170 . ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**... م. س. ص.35.

2 . من الموارد الشرعية (*518- 610* هـ) إلى الموارد العرفية (*610-668* هـ):

كان من أهداف الإصلاح الديني الذي تزعمه ابن تومرت إعادة العمل بالشرع في المجال المالي والجبائي، إذ إنتقد المرابطين لعدم إتباع ما جاء في القرآن والسنة حول القضايا المالية، واستنكر الظلم والجور على الرعية كما جاء في رسالة عبد المومن لأهل بجاية[1]. فقد لوحظت بالفعل، تعسفات مالية في عهد علي بن يوسف ومن جاء بعده، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، ما فرض من المعونة والتعتيب لبناء أسوار المدن بالأندلسية والمغربية519 هـ[2]، ومنها بناء سور القوارجة التي بين باب الجيسة وباب يصليتن على يد القاضي عبد الحق بن معيشة بمال وظفه على أهل مدينة فاس[3] ، ومنها ما فرض على سكان مدينة فاس، سنة 531 هـ، من تغريم وإلزامهم بشراء 300 عبد وتجهيزهم، من مالهم الخاص، بكل ما يلزمهم من السلاح والخيل ليحاربوا لصالح المرابطين[4]. وحاولت الحركة الموحدية، أول الأمر، الالتزام بخطها الإصلاحي، فكان من الإغراءات التي استعملها الموحدون لدفع سكان المدن للانضمام إلى حركتهم، وعدهم بإزالة المكوس والقبلات وغيرهما، كما فعل عبد المومن في رسالته إلى أهل قسطنطينة[5]. وحاولت الدولة منذ عهد عبد المومن أن تزيل الضرائب العرفية التي انتشرت في العهد المرابطي، مثل القبالات التي يقول عنها الإدريسي المعاصر : "وكانت أكثر الصنائع بمدينة مراكش **متقبلة** عليها مال لازم مثل سوق الدخان والصفر والمغازل، وكانت القبالة على كل شيء يباع دَقّ أو جَلّ على قدره، فلما ولي المصاميد، وصار الأمر لهم قطعوا القبالات بكل وجه وأراحوا منها، واستحلوا **قتل المتقبَلين** لها، ولا تذكر الآن القبالة في شيء من بلاد المصاميد"[6]. وحاولت الدولة أن تكتفي بتحصيل الموارد الشرعية (الغنائم السابقة والخراج والزكوات والأعشار وغيرهما) . وكانت أوامرها صريحة في هذا الشأن، في بعض رسائل عبد المومن[7] ، أو في تقاديم تعيين بعض الولاة والعمال في عهود الخلفاء الموحدين الآخرين التي تلح، كل مرة، على إزالة **المحدثات**

---

(1) - عزاوي، **رسائل موحدية** ...م س ص .الرسالة 2 ص44 . المنوني، **العلوم والآداب**... م س ص195 - 193 .. ص191 ، ابن القطان، **نظم الجمان**...م س ص.88.

(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب**...م س ج 4 ص73 -72 ، عبد الله عنان، **عصر المرابطين والموحدين**...م س ج 1 ص.115 -116.

(3) - الجزنائي، **جنى زهرة الآس**... ص.42 .

(4) - ابن القطان، **نظم الجمان** ...م س ص.226.

(5) - مجموعة من الكتاب، **رسائل موحدية**... بروفنصال ليفي. ص.21-22.

(6) - الإدريسي، **نزهة المشتاق** ...م س ص235، ابن القطان، **نظم الجمان**...م س ص.167.

(7) - عزاوي أحمد، **رسائل موحدية**...م س ص64، وانظر أيضا عن نفس الرسالة ابن القطان، **نظم الجمان** ...م س ص149-195 ، المنوني، **العلوم والآداب**... ص191، بروفنصال، **رسائل موحدية**... م س ص.131 -134.

ورفع **المظالم** والاقتصار على الموارد الشرعية وحدها[1] . وظل تحصيل هذه الموارد الشرعية مستمرا، إلى نهاية دولتهم، سنة 668 هـ.

أ -الموارد الشرعية:

* الزكاة:

تشدد الموحدون في إقامة أركان الإسلام وتنفيذ أحكامه بصرامة وحزم، إذ المعروف عنهم أنهم كانوا يقتلون مثلا، تارك الصلاة في وقتها[2] ، وتشددوا في أخذ الزكوات[3]، بل كان بعض العمال يبتزون الناس، مبررين تصرفاتهم بواجب الزكاة وحقوق الله. وحرص الموحدون على الضرب على أيدي المتلاعبين بمال الزكاة، من ذلك قتل رجلين بإشبيلية، سنة 543 هـ، كانا يشتغلان بقبض الفطرة لاتهامهما بالتقصير وخيانة الأمانة[4]. وفي نفس السنة أخذت الزكاة من برغواطة[5] . وكان ابن صاحب الصلاة ممن عُيّن لتقييد أموال المخزن، "**ولضم الزكوات** والفرائض المفروضات"[6] . وهذا إدريس بن جامع الذي عين، سنة 560 هـ، وزيرا "أخذ الزكاة من الماشية والحرث، على حكم السنة ووضعها في مواضع حقها"[7] ، وهناك أشخاص من علية القوم يبادرون من تلقاء أنفسهم إلى دفع مستحقاتهم من الزكاة في وقتها دون تأخير، مثل الشيخ أبي عبد الله بن إبراهيم والي غرناطة، سنة561 هـ[8]. وفي الحوار الذي جرى بين التاجر المراكشي المشهور بالذيب وأبي الحسن ابن القطان مزوار الطلبة، عندما طلبه ابن القطان بدفع قسط من ماله لإعانة بيت المال الفارغ في عهد المستنصر، أجابه بأنه دفع ما عليه من الزكاة، وبالتالي ليس للمخزن أي حق في ماله غير ذلك[9].

---

(1) - عزاوي، **رسائل موحدية**..ص،431 ,432 ,439 ,443 ,454 ,475.
(2) - المنوني، **العلوم والآداب**..م.س ص 13وانظر المصادر المذكورة فيه، التادلي، **التشوف**..م.س ص.220 .
(3) - جاء في رسالة عبد المومن، "وخذوا بإيتاء الزكاة، وبالكشف عن معانيها وتشخيص ممسكها أو النزر اليسير منها، فالزكاة حق المال، والجهاد واجب على من منع منها قدر العقال، فمن ثبت منعه للزكاة فهو لاحق بمن ثبت تركه للصلاة، فمن منع فريضة كمن منع الفرائض كلها، ومن منع عقالا فما فوقه كمن منع الشرع كله" المنوني، **العلوم والآداب**... ص190 ، **رسائل موحدية**....م، بروفنصال ص.131 -134 .
(4) - ابن عذاري، **البيان المغرب**..قسم الموحدين م.س ص.37 - 38 .
(5) - البيدق، **أخبار المهدي** ..م.س ص.69 .
(6) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**... م.س ص.139.
(7) - **نفسه**، ص.211 .
(8) - **نفسه**، ص.222 .
(9) - ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل والتكملة**..م.س . س 8 ص.177 .

*** الأعشار :**

تشمل ثلاثة أنواع : صدقة الماشية، وأعشار المنتوجات الزراعية التي تنتجها أرض العشر، أي التي في ملك الخواص، وهي لا تشكل إلا نسبة ضئيلة وجلها في ملكية العصبية الحاكمة. وكان كذلك على شريك الدولة أن يدفع أعشار نصيبه من الإنتاج. النوع الثالث هو أعشار الصادرات والواردات التجارية في مدن الأطراف، كسجلماسة والموانئ البحرية. ولم ترد بشأنها كثير من التفاصيل، باستثناء ما جاء في رسالة الفصول من تحجير بعض الجباة للمراسي[1]، وما ذكر عن وجود دارين للإشراف بسبتة : دار الإشراف على الديوان قرب فنادق المسيحيين، ودار الإشراف على سد الأمتعة وحلها والتي كانت تعرف بالقاعة[2]. كما كان صاحب ديوان بجاية يربح مبالغ هامة، كأبي محمد عبد الله بن عبادة القلعي (ت669 هـ) الذي كان مشاورا وشاهدا بالديوان، ويكسب سنويا 1000 دينار[3]. وربما لأهمية مداخل الديوان عين الناصر مملوكه في أهم موانئ الإمبراطورية وهو ميناء سبتة[4]. ويمكن القول إن أعشار التجارة، عند الموحدين، لا تختلف عما لدى غيرهم، كالمرينيين مثلا . ومن بين مظاهر خضوع السكان لسلطة الخليفة الموحدي أن "يجلبوا له من خراجهم **وزكاتهم وأعشارهم**"[5]، إذ لم **يُسَيِّب** الموحدون رعيتهم، إلا في أوائل القرن7 هـ/13م[6] .

***الجزية :**

لم يرد في المصادر ما يشير إلى استخلاص الموحدين للجزية من الذميين، على الأقل في عهد الخلفاء الثلاثة الأوائل، إذ لم تنعقد ذمة ليهودي أو نصراني في عهد الموحدين الأوائل، حسب شهادة المراكشي وغيره من الإخباريين[7]. لكن في القرن السابع لاشيء كان يمنع من استخلاصها بعد تسامح الموحدين معهم، لأن سياسة الموحدين المتشددة تجاه الذميين في بداية حركتهم كانت أهميتها قليلة، إذ سرعان ما استأنفوا حياتهم العادية[6].

---

(1) - عزاوي، **رسائل موحدية**... م س ص61-71، ابن القطان، **نظم الجمان** ..ص.149-167 .
(2) - الأنصاري السبتي، **اختصار الأخبار**..م س ص.41-42.
(3) - الغبريني، **عنوان الدراية**... م س، ص.65 .
(4) - التجاني، **رحلة التجاني**... م س359 .
(5) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب** ... م س ص.206.
(6) - ذكرت كلمة سيبة في **الذخيرة السنية** ...لابن أبي زرع ص36 ، جاء فيه، أن الموحدين "سيبوا رعيتهم"
(7) - المراكشي، **المعجب** ..م س ص434-435.. التجاني، **رحلة التجاني** ..م س ص347، النويري، **نهاية الأرب** ..م س ص430.
(8) - من مؤشرات عودة اليهود إلى وضعيتهم السابقة، ما ورد من تخصيص لباس لهم يميزهم عن المسلمين في عهد يعقوب المنصور، وكانت لهم أموال طائلة في مدن أزمور وفاس. وكان أحدهم كاتبا لوالي سجلماسة، ابن عذاري، **البيان المغرب**..ق .الموحدين م س ص228,. 364, 371 .

ب -الموارد العرفية:

غالبا ما تنفي المصادر وجود الضرائب العرفية، في عهد دولة معينة، كالدولة المرابطية مثلا، أو في عهد حاكم محدد، كعهد يوسف ابن تاشفين[1]. وينبغي أن يؤخذ كلامها على أنه مجرد مدح وإطراء لهذا السلطان أو ذاك ونوع من التبسيط لواقعٍ شديد التعقيد، لأننا لا نعدم عند التدقيق والتمحيص، في المصادر، ما يدحض دعواها[2]. وهذا القول ينطبق على الدولة الموحدية بدورها، فقد تعايشت في عهدها المداخيل الشرعية والعرفية جنبا لجنب، وبدرجات متفاوتة، في كل مرحلة من مراحل عمر الدولة. وقد لفتت المداخيل العرفية انتباه عبد المومن واستنكرها، في بداية الدولة الموحدية، سنة 543 هـ، وفي قاعدة ملكه بمراكش، فكيف بالمناطق النائية[3]. وتسمى هذه الموارد العرفية بعدة "**ألقاب**". منها ما هو عام، كمصطلح الوظائف الطارئة و**المحدثات والمظالم** والمغارم والمكوس والقبالات والمعونة. ومنها ما هو خاص ودقيق يحمل أسماء تختلف، حسب الجهات والأزمنة كالمراصد والرتب. وتنعت بعض المصادر هذه المداخيل العرفية بأنها **قوانين قديمة**، كما سماها ابن حوقل، في حديثه عن جزء من جباية سجلماسة، سنة 340 هـ، وابن مرزوق في حديثه عن عهد أبي الحسن المريني[4] . كما تتحدث الفتاوى الفقهية عن أرض القانون، أي التي تطبق عليها تلك القوانين القديمة[5]. وهذه الموارد العرفية عديدة ومتنوعة، نذكر منها :

***الكلف :**

لا تستطيع إيرادات الدولة الموحدية الشرعية المشار إليها أعلاه أن تغطي مختلف نفقات المخزن وتمول كل الأنشطة التي يقوم بها، خاصة نشاطاته العسكرية المكلفة جدا. لذا تعمد الدولة إلى إشراك الرعية وقبائل عصبيتها المصمودية في تمويل حركاتها العسكرية بقسط وافر مما تحتاج إليه، وتجنيدهم كلما دعت الضرورة لذلك. وقد اتخذ هذا الاعتماد على الرعية عدة أشكال منها المادي ومنها التسخيري، ويطلق على هذه

---

(1) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**...م س. ص167 . عن عهد الدولة المرابطية، وص 137 عن عهد يوسف بن تاشفين، الناصري، **الاستقصا**...م س. ج 2 ص.71.

(2) - الونشريسي، **المعيار المعرب**...ج 11 .ص132 ،. ج 9. ص452 .، الناصري، **الاستقصا**...م س. ج 2ص 57-58

(3) - عزاوي، **رسائل موحدية جديدة**...م س. ص. 63 -64 .

(4) - ابن حوقل، **صورة الأرض**...ص97،..100 -99 . ابن مرزوق، **المسند الصحيح**... ص.284 .

(5) - الونشريسي، **المعيار المعرب**...م س، ج 5 ص97،. ج 6 ص133 ،. ج 9 ص73 .

المساهمة التسخيرية **الكلف الناشئة**، وعلى المساهمة المادية **الوظائف الطارئة**، أو **المعونة**. وعليهما معا **المحدثات** أو **المظالم** كما تسميها التقاديم الرسمية الموحدية، لأنها محدثة في الإسلام ولا سند شرعي لها، وبالتالي تعتبر بدعة وضلالة. وسميت طارئة لأنها أولا، غير قارة ودائمة مثل بقية الواجبات المالية التي ترد على بيت المال بانتظام نسبي، كالخراج والزكاة مثلا، فهي تفرض على السكان في بعض الحالات الاستثنائية الطارئة وليس في الأحوال العادية. والدولة الموحدية ستعيش، بعد هزيمة العقاب، سنة 609 هـ، حالة طوارئ دائمة قرابة 60 سنة. وتشمل الكلف الطارئة تسخير الناس في أمور مدنية، كالبناء والزراعة وغيرهما[1]. ولكن أهم ما يسخر فيه الناس هو الجيش، وأهم الوظائف أوالمغارم هي تلك المؤن المفروضة على السكان لتموين الحركة أو رجال المخزن الذين يقومون بمأمورية معينة، كالرقاصين. وإلى هذا يشير ابن خلدون في حديثه عن بعض القبائل الخاضعة للموحدين "**بأن عليهم للسلطان(المخزن)عسكرة وجباية**"[2].

*الاستجاشة :

الاستجاشة أو العسكرة هي عملية استنفار المقاتلين، وتجنيد الرجال من القبائل وسكان المدن. ويعرف هؤلاء في المصادر ب"الحشود أو الجموع" ويتكونون من الحصص المفروضة على كل قبيلة داخل الإمبراطورية، بما في ذلك القبائل الموحدية أو القبائل الخاضعة لها خارج العصبية الحاكمة. وتفرض تلك الحصص، حسب معايير لم تصلنا، ويحتمل أن تكون هي نفس المعايير التي استخدمها السعديون والمستمرة إلى القرن19 م، وهي تجنيد ما بين ثمن وعشر السكان، وكذلك تجنيد فارس لكل 15 كانونا (وإذا كان الكانون يضم 5 أفراد نصل إلى فارس عن كل 75 فرد)[3]. وتجهزهم القبيلة بكل حاجياتهم من السلاح والمال والمؤن طيلة مدة الحملة، كما تساهم المدن بنصيبها في التجنيد. ولوحظ هذا التجنيد عند المرابطين اللذين فرضوا على الرعية المساهمة بالعبيد. ففي سنة 530 هـ "قسط علي بن يوسف على الرعية سودانا يغزون في العساكر، ومما قسطه على أهل فاس 300 غلام من سودانهم برزقهم وسلاحهم ونفقاتهم يخرجون ذلك من

---

(1) - انظر كيف سخر يوسف بن عبد المومن الآلاف من أهل بوادي الشرف وشيوخهم لجلب أصول الزيتون لغرسها في بحيرة إشبيلية، سنة567 هـ. ابن صاحب الصلاة. المن بالإمامة... م.س .ص375 .. وكان الأمويون مثلا يسخرون الناس في جمع الجراد. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**...م.س .ص .115.

(2) - ابن خلدون. **كتاب العبر**...ج 6 .ص 31 . في حديثه عن العاصم والمقدم من الإثبج بتامسنا مثلا. الناصري، **الاستقصا**...ج 2.ص.165 .

(3) - الحساني إبراهيم بن علي. **ديوان قبائل سوس**، تحقيق عمر أفا كلية الآداب والعلوم الإنسانية . الرباط ص.14 .

أموالهم"[1]. ومن أوائل الحشود التي جندها الموحدون، من القبائل الخاضعة لهم، حشود من قبيلة هيلانة في معركة البحيرة التي قتل منها 12 ألف في تلك المعركة[2]. وكان من أحد أسباب نجاح فتوحات عبد المومن بن علي، في حركته الطويلة (534-541هـ/1147م)، أن الجبال التي احتلها كانت توفر له هذه الحشود، على عكس تاشفين الذي "ينزل البسائط بعساكره، فلا يجد من البرابرة من يواصله، ولا من يستعين به ويداخله"[3]. وممن سجل ضمن أجناد البحر، بمدينة سبتة، شخص كان كثير العيال وضعيف الحال[4]، كما سجل والي بجاية أبو عبد الله بن يغمور خديم الفقيه أبي دحية عمر بن دحية الكلبي (544-633-هـ) ضمن الغزاة البحرية[5]. وكانت الحصة التي فرضها السعيد في حركته لتلمسان، سنة 642 هـ، على بني مرين، هو500 فارس[6]. كما جند إخوان الصوفي أبو محمد عبد الأيلاني رغم توفرهم على صك بالحمل على البر والرعاية، مما يعفيهم من التجنيد وغيره من الكلف والوظائف، ولم تقبل شفاعة قريبهم الصوفي[7]. وبلغ عدد هذا النوع من الحشود الذين جندوا مجانا 300.000 مقاتل، في معركة العقاب سنة 609 هـ، أي نصف عدد الجنود المشاركين[8]. ويجند هؤلاء بالقوة أو الرهبة في عهد قوة الدولة. وفي حالة ضعفها تلجأ إلى أخذ المراهين من القبائل القوية لتضمن مشاركة جنودها إلى جانبها، مثل ما حدث مع بعض القبائل المرينية، عندما أخذ السعيد 40 شخصا رهنا، من أبناء قبيلة بني عسكر، فجعلهم بدار الجوزة من مدينة فاس، سنة 642 هـ، وجند حصة من رجالها لتحارب معه ويستأمن بها من عيث القبيلة[9].

الوظائف الطارئة :

وتشمل ثلاثة أنواع رئيسية : المروة (أو الهدية) والتضييفات والإنزال.

المُرُوَّة :

تعود أقدم إشارة للمعونة المادية للدولة، في العهد الموحدي، إلى الغزوة الطويلة التي قام بها عبد المومن، سنة 534 هـ . وذكرت باسم "المروة" أو "الهدية" في أربع مناسبات،

(1) - ابن القطان، **نظم الجمان**...م س ص.226.
(2) - **نفسه**. ص.121 .
(3) - مجهول، **الحلل الموشية**...م س ص.130 .
(4) - **نفسه**. ص.279 .
(5) - الغبريني، **عنوان الدراية**... م س .ص.270.
(6) - ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية** ...م س .ص .72 .
(7) - ابن الزيات التادلي، **التشوف** ...م س .ص.252 .
(8) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب** ...م س .ص.234.
(9) - ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية** ...م س .ص65 .. ابن عذاري، **البيان المغرب**...م س .ص.385 .

وهي عبارة عن مواد غذائية متنوعة وعلف الدواب تُقَدّم للحركة مع بعض الهدايا المختلفة، تدفعها القبائل سواء كانت من العصبية الحاكمة أو من الرعية، دفعتها قبيل واوزكيت لجيش الموحدين، سنة 534 هـ. وفي سنة 539 هـ، حمل قبيلة بني مانو الزناتية قرب تلمسان الهدية لعبد المومن، وأعادها لهم تفضلا منه وتكرما ولاشك، ولغرض في نفس يعقوب[1]. وساقت قبيلة هسكورة وقبيلة صنهاجة- وهما قبيلتان موحديتان - في سنة 541 هـ، المروة للجيش على نهر أم الربيع، في طريق عودته من الشرق. وأخذت المروة والزكاة، سنة 543 هـ، من قبيلة برغواطة الثائرة إثر إخضاعها[2]. ونجد نفس المصطلح مستعملا، إلى عهد أبي عنان المريني، في منتصف القرن8 هـ/14م[3]. ويدفع الأفراد من الأعيان الهدية، مثل ابن مردنيش الذي أهدى الخليفة يوسف، سنة 567 هـ، "وقبل الخليفة (ض) عنه هداياه، وحباه بالعطايا الجزيلة أكثر من عطاياه"[4]. ومن ذلك في العهد المرابطي أن الفقيه يوسف بن عيسى الملجوم اتصل بأبي بكر بن عمر اللمتوني بالسوس[5]. وتمثل هذه الهدية من طرف الأفراد والجماعات رمزا للخضوع للحاكم[6].

التّضْييفَات:

بالإضافة إلى المروة والهدية، يقوم سكان القبائل والمدن بتضييف الحركة، خلال مقامها بينهم أو قريبا منهم، بتقديم الأكل له، كما حدث بفاس في حملة المنصور لإفريقية، سنة582 هـ، فاستضافه أهل فاس هو والجيش المرافق المتكون من 20 ألف فارس، مدة 15 يوما، "فأقام الناس فيها في تضييف خرق العوائد بتنافس الرعايا في ذلك على الأعياد يأتون بجفان تحمل الواحدة عدة من الرجال عليها عدة جزر(ذبائح) يأكل منها جموع فلا يأتون لها على انتهاء"[7]. كما أن أهل دكالة وصلوا بالضيافة للعادل بأحد مدن دكالة[8]. ومنها تضييف حركة السعيد بجبل درن وبتامسنا[9]. وتكرر ذكر التضييف في الرسائل

---

(1) - ابن عذاري، **البيان المغرب**..قسم الموحدين م س ص 19 .
(2) - البيدق، **أخبار المهدي** ...م س ص ,63.50.
(3) - ابن الحاج، **فيض العباب** ...م س ص.251 .
(4) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**..م س ص.424 .
(5) - ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**... م س س 8 ص.430 .
(6) - عن دور المهدية راجع، عبد الله الحمودي، **الشيخ والمريد**، دار توبقال للنشر 1999 ص 77 وما بعدها

Mauss M.," Essai sur le don et le sacrifice dans les sociétés Archaïques", in Sociologie et Anthropologie, PUF, 1958.

(7) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... ق الموحدين م. س . ص.186 .
(8) - الحميري، **الروض المعطار**... م. س . ص 619. وما بعدها .
(9) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م. س . ص372,324.

الرسمية[1]. واستمرت العوائد المرتبطة بالتضييف إلى العهد السعدي وما بعده. ويميز فيها بين عوائد أهل البوادي وأهل المدن[2] . ولا يخص التضييف الحركة وحدها، بل يخص كذلك جل المسؤولين المخزنيين الذين يقومون بمهام معينة، مثل الرقاصين الذين كانوا يحملون الرسائل، والذين كانوا، حسب عبد المومن، "يأخذون الناس بالنظر في **كلفهم**، ويلزمونهم في زادهم من كل موضع (...) وأن من جملة ما حكي عنهم أنهم يتألّفُون في الطرق جموعا، ويحتلون بأفنية الناس حلولا شنيعا، **يكلفونهم مؤناتهم** تكليف المجرم، ويتحكمون عليهم بحكم المغرم، حتى أنهم لا يرضون في **ضيافتهم** إلا بأسمن الجزر (الذبائح)"[3]. وقد ورث الموحدون هذا الوظيف من الكيانات الإسلامية السابقة، كالدولة المرابطية التي كان جندها من الروم الذين أركبهم علي بن يوسف" في المغرب وجعلهم يحقدون على المسلمين في مغامرتهم، **ويأخذون منهم في نفقاتهم أكثر ما يجب عليهم**"[4]. واستمر عند الحفصيين، وفي مغرب القرن19 م[5].

الإنزال:

لا يقتصر الأمر على تضييف الحركة ورجالات المخزن من طرف الرعية، بل تحجز منازلها لسكنى علية القوم المرافقين للحركة، وخاصة في المدن التي لا يتوفر فيها المخزن على الدور الخاصة لذلك، وتحجز بأثاثها، وتسمى هذه العملية "بالإنزال". وكانت من ضمن الكلف المعروفة، منذ العهد المرابطي. وتشكل عبئا ثقيلا على الرعية، إذ اضطر يوسف بن تاشفين إلى تجنب المرور بحركته، في ذهابه وإيابه من الأندلس، بالمناطق الآهلة بالسكان رفقا بالرعايا وتخفيفا عليهم وتورعا منه[6] . وكانت ترافقها تعسفات تمس حتى بأعراض الناس أحيانا، مثلما حدث عندما كان يصعد الجند الرومي في عهد علي بن يوسف لجبل درن "يأخذون من الأموال المقررة من جهة السلطان (المخزن)، **فيسكنون البيوت ويخرجون أصحابها منها**"[7]. وقد تشكت الرعية بالأندلس كذلك من ثقلها، في عهدالموحدين. ومن ذلك تشكي سيدة تنتمي لبيت بني عامر هي أسماء العامرية

---

(1) - عزاوي، **رسائل موحدية**..م س ص.312 .
(2) - الحساني، **ديوان قبائل سوس** م س ص15 ,27-28 .
(3) - عزاوي، **رسائل موحدية**..م س ص.67.
(4) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م س ج 4 ص.102-103 .
(5) - القلقشندي، **صبح الأعشى** ... م س ج.5 ص134 .. الزرهوني، **العلاقات بين السلطة والسكان**... م س ص 251 . وما بعدها.
(6) - الناصري، **الاستقصا**...م س ج 2 ص. 48.
(7) - النويري، **نهاية الأرب** ..م س ص.400 .

الإشبيلية، وكتبت إلى عبد المومن تسأله رفع الإنزال على دارها والاعتقال لمالها[1]. وفي عهد المأمون اشتكت امرأة بأحد الجنود نزل بدارها[2]. ومما يزيد من ثقلها في الأندلس بالخصوص، أن الحركات لا تكاد تنقطع وتكاد تكون سنوية، مقارنة بالجهات الأخرى من الإمبراطورية. وفي سنة 567 هـ، وقبيل دخول يوسف بن عبد المومن مرسية، أصدر أمره لهلال بن مردنيش "أن ينظر في إنزال الموحدين في الديار، والاشتغال ببرهم على أكمل الأوطار، فوجدها معدة مملوءة كسى وأرزاقا عدة... **وأضاف بأكمل تضييف**"[3]. وأقدم يوسف بن عبد المومن، سنة 566 هـ، للتخفيف من ثقل الإنزال على سكان مدينة إشبيلية العاصمة الإقليمية للأندلس، على شراء 100 دار لإنزال أعيان الموحدين وغيرهم، وتبين أن هذا العدد لم يكن كافيا لإيواء الجميع، فاضطر لإنزال بقية أشياخ الموحدين ب 60 دارا منها، وقسم بقية الموحدين على المدن التابعة لإدارة إشبيلية للسكنى في دورها[4]. واشترى لأفراد بيت بني مردنيش" دورا بإشبيلية من أربابها لسكناهم، وبسطها لهم وملأها أرزاقا وارفاقا"[5]. وكان أبو بكر بن زهر، في جواز يعقوب المنصور للأندلس، سنة 591 هـ، من بين المكلفين بتنفيذ براءات الإنزال ضمن جماعة من أشياخ إشبيلية تستعين بهم الدولة في ذلك[6]. ونظرا لتعسفات الجند الموحدي بالأندلس في التمتع بهذا الامتياز واستغلاله بالسكن مدة طويلة في دور الرعية، اضطر المستنصر (610 ـ 620 هـ) إلى خصم ثمن كراء الدور المنزلة من عطاء ساكنيها من الجنود حتى يقتصروا على سكناها وقتا محددا ومعقولا. وفرح الأندلسيون المعنيون لهذا الإجراء، خاصة لأن أكثرها كانت دورا في ملك الضعفاء[7]. وأمر المرتضى، سنة661 هـ، ببراءة الإنزال لقائد الفرقة المسيحية عند الشيخ أبي زيد الجدميوي[8].

لم تكن هذه الكلف والوظائف عامة، إذ يعفى منها بعض الفئات من الرعية، وتصدر لهم ظهائر **التوقير والاحترام**[9] ، إما لأنهم قدموا خدمة للحاكم الموحدي، مثل فتيان

---

(1) - المنوني، **العلوم والآداب** ...م.س ص 34 نقلا عن المقري، **نفح الطيب**... م.س.ج 6 ص.72.
(2) - ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة** ... م.س .ج 1 ص.416 .
(3) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة** ...م.س ص.424 .
(4) - **نفسه**، ص.362.
(5) - **نفسه**، ص .426 .
(6) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... ق .الموحدين م.س .ص. 218 .
(7) - عزاوي، **رسائل موحدية** ...م.س ص.312 .
(8) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م.س ص.429 .
(9) - معنى الظهير لغويا حسب القلقشندي هو المعين سمي به لما يقع من المعاونة لمن كتب له به، أي هو ما يشد الظهر ويستعان به على الزمن القلقشندي، **صبح الأعشى**... القطعة المنشورة من طرف ابن تاويت في مجلة المناهل... م.س ص250 ، والظهير في القرن19 م. يخرج صاحبه من زمرة العوام بإسقاط الكلف والوظائف عليه، وترك أعشاره له رفعا لقدره التوفيق، **المجتمع المغربي**... م.س ، ص.459

ضواحي تلمسان الأربعة أبناء صديق عبد المومن في الشباب والذي أرشده ودله على الفقيه ابن تومرت بتملالت، وعند رجوع عبد المومن من فتح بجاية، "**أسهمهم أرضا واسعة لاحتراثهم** وأعطى كل واحد منهم ألف رأس من الغنم ومثلها من البقر وأربعة آلاف دينار، وكتب إليهم **ظهيرا بالعز والأمان والبر اللاحسان**، وأن يكونوا **حكاما** على قبيلتهم"[1]. وإما لمكانتهم الدينية، مثل إعفاء بيت أحد المتصوفة بأغمات من التجنيد[2]، ومثل بيت الأمغاريين بطيط نفطر الذي أصدرله آخر خلفاء بني عبد المومن أبو دبوس (666-668هـ) ظهيرا يعفيه من "**الوظائف الطارئة والكلف الناشئة وجميع ما يلزم من المؤن والسخر**"[3]، زيادة على بعض الامتيازات الأخرى. وقد أخذت هذه الإعفاءات في التقلص أواخر الدولة، إلى درجة أن من كان يتمتع ببعض الامتيازات، مثل سكان جبل زرهون الذين "كلفوا أخرا من **الكلف الطارئة ما لم يكن لهم به طاقة**، ولم ينفعهم **بدارهم**"[4].

*** قوانين قديمة :**

لم تنقطع الضرائب القديمة، بصفة نهائية، بالمغرب وكل الشمال الإفريقي، منذ الفترة الرومانية وطيلة العصر الوسيط. فقد كانت تختفي مؤقتا في بعض الجهات، لكنها سرعان ما تعود للظهور من جديد مع مجيء قوة جديدة تستطيع استخلاصها و"**تحيي رسمها**". وتشمل نوعين : الضريبة على الأشخاص، والضريبة على الملكية الخاصة من الأراضي أو غيرها.

الضريبة على الأشخاص، هي المعروفة ب Capitatio في العهد الروماني[5]أو بالجزية في الإسلام، إذا كان الأمر يتعلق بالذميين، لكنها قد تفرض على المسلمين وتحمل آنذاك ألقابا غير الجزية، حسب الأمكنة والعهود، كالجماجم في العهد الفاطمي أو الرؤوس أو الكانون أو إمزداغن (التي تعني حرفيا الساكنون بمكان ما) في العهد المريني[6].

أما الضرائب على الأموال، فتشمل الضرائب على الأرض التي تعرف بأرض **القانون**.[7] وغرم السلع على أبواب المدن، وعلى الطرق في المحطات الرئيسية على

---

(1) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... مصدر ساق، ق .الموحدين ص81 ن ابن القطان. **نظم الجمان**... م س ص.137 .
(2) - التادلي، **التشوف** ...م س ص.252.
(3) - القبلي محمد، **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**... م س ص100 . نقلا عن عبد العظيم الأزموري، **بهجة الناظرين**
(4) - ابن غازي، **الروض الهتون** ...م س ص.8-9 .
(5) - هاشم العلوي، **مجتمع المغرب الأقصى**... م س ص.348 .
(6) - ابن مرزوق، **المسند الصحيح**... م. س ص.285 .
(7) - **نفسه**، ص.284.

النقط الإستراتيجية، كالجسور والقناطر والممرات الهامة، وتسمى بالرتب أو الجوالي أو المنازل أو المراصد، أو تسمى غالبا، المكوس أو القبالات، لأنه كان يعمل فيها بالتقبل، أي بالضمان، إذ يلتزم الجابي بدفع مبلغ متفق عليه مسبقا مقابل استخلاص جبائية مكان معين. وعندما يعمم الضمان على جميع أنواع الجبايات تتحول طريقة الجباية من الأمانة إلى الالتزام، وهو شيء نادر ومحدود في الزمان والمكان، إذ لم يعمل بطريقة الضمان، خلال العهد الفاطمي إلا بمدينة برقة وحدها[1] ، ويمكن أن تنحصر على سلع معينة دون غيرها، ويمكن أن تشمل كل السلع والصناعات، كما لوحظ في أواخر العهد المرابطي[2].

وإذا كانت الدولة الموحدية في بدايتها، قد عملت على الحد من هذه الضرائب العرفية، فإنها اضطرت لفرضها، في القرن7 هـ/13م . ولا تسقط إلا في بعض الفترات القصيرة، عند تولي خليفة جديد يزيلها للأول ولايته لأسباب سياسية ودعائية في الغالب، وكسب تأييد الرعية، مثل الرشيد الذي رفع المغارم على أهل مراكش، في أول دخولها سنة 630 هـ[3] ، ومثل أبو دبوس الذي "**رفع الكلف والمحدثات بالبوادي والحواضر (جنوب أم الربيع)، واقتصر على الحقوق الواجبة التي جرى عليها قديما العمل المتواتر**"، على الرغم من أنه "**ليس ببيت المال مال ولا طعام**"، فأمر برفع غرم الأبواب المفروضة على المواد الغذائية وعلى مختلف السلع، وأمر كذلك برفع المعونة في الرحاب[4]. هكذا كانت تحدث دورة جبائية مع كل حاكم جديد، نظرا لما يقع فيها من الإمساك التدريجي بتلابيب الملزمين وإثقال كاهلهم، فيضطر خلفه في أول عهده للتخفيف منها[5].

لا تستطيع هذه الألقاب الجديدة أن تحد من تدهور ميزانية الدولة الموحدية المتواصل، خلال القرن 7هـ، ومن عجزها المالي، لأن مجال الخراج المورد الأساسي بدأ يتقلص تدريجيا، بفعل تغلب القبائل القوية عليه، بدءا بالأطراف البعيدة عن دار الملك، خاصة خراج البوادي، كما سبق الذكر. وتلجأ الدولة إلى وسيلة غير شرعية، وهي العرف القديم المتمثل في تغريم الأملياء من التجار وغيرهم. وهي مرحلة تأتي، بعد استنفاد وسيلة أخرى، هي مشاطرة جباة الأموال أو غيرهم من المسؤولين، التي تنتهي في الغالب

---

(1) - ابن حوقل. **صورة الأرض**... م.س. ص.97 .

(2) - الإدريسي. **نزهة المشتاق** ... م.س. ص.235 .

(3) - ابن عذاري. **البيان المغرب**...ق الموحدين، م.س. ص.300.

(4) - نفسه. ص.449 448 .

(5) - التوفيق. **المجتمع المغربي**... م.س. ص 548 . نقلا عن ابن خلدون حين قرر "أن المغارم في أواخر الملك أكثر منها في أوله"

بمصادرة أموالهم. فلنتتبع تعاريج وتموجات تطور هذين الموردين والملابسات المحيطة بهما، في النصف الأول من القرن7 هـ/13م.

3 - من المشاطرة إلى التغريم:

أ - مشاطرة العمال (566-609 هـ) :

تعرف مشاطرة العمال كذلك بالمقاسمة، أي أن الدولة تشغل الجباة والولاة وغيرهم في الإدارة الإقليمية أو المركزية دون أن تخصص لهم أجرا قارا من بيت المال على خدماتهم، وإنما كان يحدد لهم نصيب معين من المداخيل التي يقومون بتحصيلها، مثل مقاسمتها للفلاحين التي سبق التطرق لها. وهي عادة مألوفة لدى الدول الإسلامية، ترجع أصولها إلى بداية الدولة الإسلامية، في عهد عمر بن الخطاب (13-23 هـ)، الذي كان يشاطر عمال الزكاة ويقاسمهم مناصفة في الأموال التي اكتسبوها خلال توليهم لعملهم[1]. وقد أنشئت مصلحة خاصة لمحاسبتهم في أغلب الكيانات السياسية الإسلامية تعرف **بديوان الكشف**، كما لدى الفاطميين[2]. وهو الاسم الذي استعمله الموحدون، حسب ما يبدو من الإشارات المصدرية. ومارسوا محاسبة العمال، فعند تجديد بيعة يوسف، سنة 563 هـ، "عفا عن المسجونين (في حقه وماله) وحط البقايا عن العمال الخائنين وأمنهم من المخاوف **فيما تقيد عليهم في الدواوين**"[3] . ومن ضمن المكلفين بالمحاسبة، نذكر الفقيه الهوزني الذي "رفعته أيامه بتدوينه في المحاسبة وبخطه"[4]. ومن الإجراءات التي اتخذها الناصر، سنة 604 هـ، لمواجهة النزيف المالي تركيز السلطة المالية في يد شخص واحد واستدعاء "العمال إلى الحضرة وكتابهم المقيدين لأشغالهم"[5] قصد محاسبتهم وتصفحها والتحقيق معهم. لكن هذه المحاسبة لم تتم، حسب القواعد، إذ لم يقصد فيها إلى تحقيق. وعندما أخذ الناصر في الاستعداد لحركته الأندلسية، سنة 607 هـ، شرع في "**التكشف** عما أحدثه الولاة والعمال"[6]. وفي عهد المستنصر، ألف ابن القطان مزوار الطلبة ابن القطان كتابا في موضوع مشاطرة العمال، مما يعني أن المسألة كانت مطروحة

---

(1) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م.س. ج 2 ص.225 .
(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م.س. ج 1ص 162 .تولاه سنة 398 هـ أبو جعفر البغدادي
(3) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**... م.س. ص.266 .
(4) - **نفسه**. ص.187 .
(5) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م.س. ص.251.
(6) - **نفسه**. ص258.. وفي عهد المنصور **نفسه**. ص .177 .

بحدة آنذاك[1]. لكن أهم المحاسبات، في العهد الموحدي، حدثت بين سنوات 555 -609 هـ[2]..

ما هو السبب في توسع ظاهرة المحاسبة والمصادرة في هذه الحقبة؟ هل وراءها أسباب مالية محضة فقط؟ هل تعود لطريقة الموحدين في جباية المال واختيارهم الأمانة على الضمان أو الالتزام، كما يبدو من المصادر؟ أم لذلك أسباب سياسية خفية لها علاقة ما بتصفية الحسابات، بين الأجنحة السياسية للأرستقراطية الموحدية الحاكمة، أو بين بعض أفراد البيت الحاكم؟ الجواب على هذه الأسئلة وغيرها، يقتضي رصد تطور محاسبة ومصادرة أموال المشرفين والعمال خلال العهد الموحدي.

كانت المحاسبة، في بداية العهد الموحدي، محدودة ومنحصرة في دائرة بعض المكلفين الصغار من أعوان العمال أو المشرفين الذين اتهموا بالتقصير وخيانة الأمانة وباحتجان الأموال، كما حدث، سنة 543 هـ، إذ قتل المكلفان بتحصيل زكاة الفطرة في إشبيلية[3]. ولم تأخذ المحاسبة بعدا كبيرا إلا ابتداء من 555هـ، ولكنها كانت مكثفة في فترتين، الأولى دامت 13 سنة، بين سنوات 555 و579هـ، والثانية دامت 5 أعوام بين سنوات 604-609 هـ.

أول ما وصلنا عن المحاسبة، هو ما يتعلق بظروف وملابسات نكبة الوزير عبد السلام الكومي، سنة 555 هـ . فقد اتهم أثناء حركة عبد المومن لفتح إفريقية بأربعة تهم، اثنتان منهما سياسيتان تتعلقان بتحامله على السادات (أي الأمراء) أبناء الخليفة عبد المومن واتهامهم بتناول الخمر. والثانية، استعلاؤه وتكبره الشديد على أشياخ الموحدين مستغلا قرابته بعبد المومن، لأنه كانت له أخت من أمه تعلو، تسمى فندة، فسمي "بالمقرب". والتهمتان الأخيرتان تتعلقان بالمال وب"**تضييع المخازن والدين**"، منها اتهامه باحتجان غنائم إحدى المعارك التي وقعت بالقرب من مدينة قابس بإفريقية، ومنها تشكي الناس في العدوة (المغربين الأوسط والأقصى) من ظلم وجور عماله، وأغلبهم بالمناسبة من قبيلته كومية. وعقد مجلس لمحاكمته استمع فيه للشهود فقط، وقتل على إثره مسموما

---

(1) - ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**... م.س. س 8 ص.168 .

(2) - انظر، عن سنة نكبة عبد السلام الكومي وسنة مقتل عمال الشمال المغربي عمال وولاة فاس مكناس وسبتة من طرف محمد الناصر التي كان هذا أحد أسباب تخاذل الجيش الموحدي في معركة العقاب ابن عذاري، **البيان المغرب**...م. س. ص 259-263.260 .

(3) - نفسه، ص.37 - 38.

دون التقصي فيما أضاعه من المال، بالاعتماد على الوثائق الجبائية، كالمعتاد في مثل هذه الظروف[1]. ولاشك أن أتباعه من العمال سيحاسبون على ما أضاعوه لأن كل تغيير سياسي من هذا النوع والحجم تتبعه محاسبة أنصار وأتباع الشخصية المنكوبة. في هذه الحالة، اختلطت الدوافع السياسية والمالية.

بدأت الفترة الأولى (566-579هـ) بمحاسبة وعزل ابن المعلم الأيلاني عامل إشبيلية، سنة 566 هـ، وتعويضه بابن جلداسن[2]. ويظهر أن محاسبته كانت مقررة، منذ عدة أعوام، إذ اتهم أنه بنى للسيد الأعلى أبي حفص قصورا فخمة، خارج باب الكحل على وادي إشبيلية، أي أنه ذهب ضحية التنافس بين الأمراء الموحدين. ودامت محاسبته مدة شهر تقريبا. وحوسب مشرف إشبيلية محمد ابن عيسى، سنة 571 هـ، واستصفي ما كان عنده من المال والعقار، بعد ما تعرض لأنواع التعذيب الشديد، وبعد أن مات تحت التعذيب، قذف بجثمانه بعد لفه في حصير في نهر إشبيلية. وهذه أول مرة يلجأ فيها الموحدون إلى تعذيب العمال. ولم يقتصر ذلك على الشخص المعني وحده، بل شمل التعذيب أقاربه وأعوانه وأتباعه[3]. وبعد سنة 573 هـ، بدأ نطاق المحاسبة والمصادرة يتسع ليشمل، في وقت واحد، عدة جهات من الإمبراطورية الموحدية، ويمس جل درجات التراتبية الإدارية المالية والسياسية، من العمال ومساعديهم إلى الوزير ابن جامع وقرابته اللذين حكم عليهم بالنفي إلى ماردة لمدة ست سنوات[4]. وممن حوسب وصودرت أمواله مشرف إشبيلية ابن المعلم الأيلاني وأعدم بالمقصلة[5] ، ومشرف سجلماسة ابن فاخر ومشرف تلمسان ابن حيون الكومي هو وأبوه، فنفي الأب إلى مدينة بطليموس بالأندلس، بينما سجن ابنه حتى فر من سجنه في حركة أبي يعقوب يوسف، سنة 579 هـ، بقرية تقظوين (قريبا من سيدي بوعثمان الحالية)[6].

وفي 13 من ذي الحجة سنة 579 هـ، حوسب 18 عاملا من المشرفين وأعوانهم من خازني الطعام وغيرهم، بكل من فاس ومكناس وتازة، ومعهم قاضي معدن عوام بجبال فزاز (الأطلس المتوسط الحالي) بتهمة خيانة الأمانة واحتجان الأموال والتعسف على

---

(1) - **نفسه**، ص 67 - 68 .، ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة** ... م س ص.112 - 119 .
(2) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**..م.س ص373,363.
(3) - ابن عذاري، **البيان المغرب**..م.س ص.135 .
(4) - **نفسه**،ص139
(5) - **نفسه**، ص.191.
(6) - **نفسه**، ص155 ,157 ,160.

الرعية، واحتجزت **أموالهم ودورهم وضياعهم** في كل المدن التي توجد بها في الإمبراطورية، فصودر كل ذلك ولم يبق لكل واحد منهم إلا دار واحدة للسكنى، وفرض عليهم زيادة على ذلك أداء غرامة 40000 دينار، أي 690 كلغ من الذهب (على اعتبار أن الدينار يساوي 2,40 غرام من الذهب في عهد يوسف بن عبد المومن)، وظلوا في السجن حتى أدى عنهم أقاربهم ذلك المبلغ، ومن حسن حظهم أنه لم يتعرضوا للنفي أو القتل(1).

في عهد المنصور، ركدت ريح مصادرة أموال العمال والمشرفين، ولم تسجل لنا المصادر محاسبات كبرى، بسبب مراقبة المنصور الصارمة للمتصرفين الإداريين للدولة **ومنها التّكَشُف على العمال**(2) وجلوسه للمظالم، منذ الشهور الأولى، من توليه للحكم. ولم تسجل سوى محاسبة مخالفة لسابقاتها، إذ كانت نزيهة وموضوعية، وهي محاسبة داوود بن جلداسن مشرف إشبيلية، سنة 593 هـ، ودامت مراجعة الحسابات ستة أشهر تحت إشراف طاقم يضم 52 شخصا. وثبت عليه قدر معلوم في ماله الخاص، ونقصان 50000 دينار من مداخيل دائرة نفوذه، ولم يمتحن، كسابقيه هو وأهله بالعذاب والسجن أو النفي أو القتل، كما أن أمواله لم تصادر(3). وقد تمت المحاسبة، بعد الحركة وليس قبلها، كما هو الشأن في المحاسبات السابقة أو اللاحقة لها. ورغم تظلم الرعية بالأندلس من جور الولاة والحكام، قبل غزوة الأرك سنة 591 هـ، فقد فضل يعقوب المنصور البدء بالغزو أولا، بعد أن هَدد العمال المشتكى بهم(4).

استؤنفت عملية المحاسبة والمصادرة، سنة 604 هـ، بشكل أكبر من ذي قبل، مما يدل على أن القضايا المالية أصبح لها وزن أكبر في اهتمامات المسؤولين في الدولة، لأن بوادر الضائقة المالية بدأت تلوح، في الأفق، إثر رجوع الناصر من حركته الإفريقية التي أنفق فيها أموالا طائلة(5). فقد تم القبض على المشرفين والعمال بفاس ونواحيها، وصودرت أموالهم وسجنوا(6). وتلتها محاسبة المتصرفين بإشبيلية، إلا أن مراجعة حساباتهم كانت غير دقيقة "إذ لم يقصد فيها إلى تحقيق"، ولم تثبت التهم الموجهة لأحد المؤرخين، فأطلق سراحه، ربما بسبب تأليفه التاريخي، ولكن نظراءه أودعوا بالسجون في إشبيلية ومراكش،

---

(1) - نفسه، ص.158.
(2) - راجع الفصل الأخير عن سياسة يعقوب المنصور الإصلاحية ص 321.
(3) - ابن عذاري، **البيان المغرب**..م س .ص.224 - 225 .
(4) - **نفسه**. ص.204 .
(5) - راجع ص 202 من هذا الفصل.
(6) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ... م س .ص249 ,251.

وأخذت قضيتهم بعدا سياسيا كبيرا مما اقتضى تدخل وزير الأشغال (المالية) السابق ابن يوجان، سنة 605 هـ، لإطلاق سراحهم، وكان لذلك وقع كبير في نفوس قبائلهم، وعمتهم الفرحة[1]. ومما يؤكد الطابع السياسي، لهذه المحاسبات، التغيير الشامل الذي شهده الجهاز الإداري، إذ عزل الوزير أبو يحي بن أبي الحسن أبي عمران الضرير، وحكم عليه بالإقامة الجبرية مدة، ونفي بعدها إلى الأندلس. وشمل التغيير الإدارة المركزية والإقليمية[2]، وحل مكانه ابن جامع الذي عين أصحابه وأتباعه من الموحدين في المناصب الإدارية المركزية والإقليمية . لكن بعد سنتين، من تعيين هؤلاء كمشرفين في الشمال المغربي بفاس ومكناس وسبتة وتازة، سيسجنون وبدون محاسبة، بسبب تحميلهم المسؤولية في حصول فراغ غير عادي لم يسبق له نظير في المخازن الموجودة على طريق حركة الناصر للأندلس، سنة 607 هـ. خصوصا وأن هذه المخازن، مثل مخازن القصر الكبير، تشكل آخر منطقة يتزود منها الجيش بحاجياته من المواد الغذائية وغيرها قبل العبور للأندلس. وظلوا في سجن فاس حتى أعدموا، آخر سنة 608 أو بداية 609 هـ . وتدل طريقة القبض عليهم التي تمت بالتحايل، وكذلك طريقة إعدامهم أمام الملأ بفاس، على الطابع السياسي لهذه المحاسبة، وحمل الموحدون مسؤولية قتلهم للوزير ابن جامع ولمساعده ابن مثنى المغمور، مرددين بالعامية : "مدها وقل لابن مثنى يردها"[3]. فاكتسى رد فعل أنصارهم من الموحدين طابعا سياسيا بدوره، إذ تخاذل الموحدون في ميدان المعركة قاصدين لذلك . واستمرت المحاسبات والمصادرات، إلى عهد أخر خلفاء بني عبد المومن أبي دبوس، الذي قبض على المشتغلين فأغرمهم[4].

لماذا هذه المحاسبات والمصادرات المتكررة والمتزايدة خلال العهد الموحدي، والتي رافقها تصعيد في قسوة العقوبات المتخذة في حق المنكوبين؟

هناك عدة أسباب أملت على الموحدين هذه المحاسبات والمصادرات، في مقدمتها بالطبع حرص الدولة على حماية أموالها من تلاعبات واختلاسات المتصرفين فيها، وتفرض طريقة الأمانة التي تبنوها في جل الجبايات محاسبة المشرفين والعمال، ولم يصلنا ما يفيد بأنهم عملوا بالالتزام كما فعل المرينيون في بعض الفترات[1]. وقد نبهت

---

(1) - **نفسه**، ص.253 .

(2) - ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**... م. س .س 8 ص.175- 176 .

(3) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ... م. س.ص259 ,263.

(4) - **نفسه**، ص.448 .

رسالة الفصول لعبد المومن، سنة543 هـ، إلى امتداد أيدي بعض المسؤولين إلى المخازن يعيثون فيها ويتحكمون، وأمرت الرسالة بعدم التصرف في تلك الأموال بدون استئذان ولا حساب ولا رقيب[2]. وأنشأت الدولة جهازا مكلفا بمحاسبتهم، وبمقاسمة المشرفين في الأموال التي اكتسبوها خلال توليهم، خصوصا وأنهم لا يتلقون راتبا معينا على خدماتهم للدولة. ثم إن الجباية غير مضبوطة بمعايير دقيقة، إذ كان للمتصرفين هامش كبير من السلطة التقديرية. ويمكن للمشرف أن يرفق بالرعية، كما يمكنه أن يعتصر ضرع الجباية إلى حد النزيف أو "يغمس يده بين فرث ودم" ويمتك عظم الملزمين، رغم إلحاح التعليمات الرسمية على التعامل مع الرعية "باللين من غير ضعف"[3]. وعندما يكون الهدف هو المراقبة تكون المحاسبة نزيهة وموضوعية كالتي أشرنا إليها في عهد المنصور[4].

تتزامن هذه المحاسبات مع الفترات التي تكون فيها الدولة في حاجة لأموال ضخمة للإنفاق على مشاريعها الضخمة التي تتطلب أموالا طائلة، كالإعداد للحركات الكبرى للأندلس مثلا، أو البناء والتشييد[5]. وهذا ما يفسر تكرار السطوة بمشرفي وعمال شمال المغرب الأقصى ثلاث مرات، وتزامنت مع مرور الحركة بمخازن هذا الطريق الاستراتيجي للأندلس. وكانت الدولة تحصل بالطبع، من مصادرات أملاكهم ومن الغرامات المفروضة عليهم، على مبالغ لا يستهان بها سبق الإشارة لبعضها.

ولم تكن الأهداف السياسية غائبة في اعتبارات المخزن الموحدي أثناء هذه المحاسبات، إذ تتخذ كذريعة، في بعض الحالات، لتصفية الحسابات بين أفراد البيت الحاكم. وأبرز مثال على ذلك في الأندلس، بناء المشرف ابن المعلم مباني فاخرة للسيد الأعلى أبي حفص "على وادي إشبيلية خارج باب الكحل منها، التي أوجبت النقد على محمد ابن المعلم المذكور"[6] . أو لتصفية الحسابات بين الجماعات المتصارعة حول السلطة، بزعامة بعض البيوتات الموحدية المشهورة، كبيت الحفصيين وبيت بني جامع، وظهر ذلك جليا في السطوة بالوزير عبد السلام الكومي، سنة 555 هـ/ 1160م، السابقة الذكر، وفي نكبة بيت جامع سنة 579 هـ/ 1184م، وأثناء عودته للسلطة سنة 605 هـ [7].

---

(1) - المنوني، **ورقات عن الحضارة**... م. س. ص.90 .
(2) - عزاوي، **رسائل موحدية** ... م. س. ص.68.
(3) - **نفسه**. ص.427, 434, 439.
(4) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ... م. س . ص.225 .
(5) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**... م. س. ص. 229-230.
(6) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**... م. س . ص 374.363.
(7) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ... م. س . ص.253-254 .

وقد رافق هذا التغيير المصاحب للمحاسبة تغيير جل المسؤولين في الجهاز الإداري الموحدي من قمته إلى قاعدته.

وهناك سبب رابع لهذه المحاسبات، وهو تظلم الرعية من العمال والمشرفين. كانت للمتصرفين في جباية المال سلطة كبرى ويتمتعون بهامش كبير من الحرية زيادة على استئثارهم بما يزيد عن القوانين[1]. كما يستعملون كل الوسائل حتى الإكراه لاقتضاء المال، لأن الجبايات لا تدفع من طرف الملزمين عن طيب خاطر[2]، بل تستخلص عادة بالضغط والإكراه، مثل الضرب وسمل العيون وغيرها من أساليب التعذيب القديمة المستخدمة لاستخلاصها في المشرق وفي الأندلس[3]. غالبا ما يلجأ المسؤولون في المغرب إلى وسائل التعذيب، كجلد الملزمين بالسياط، كما لاحظ ابن تومرت أن المرابطين كان لهم سياط كأذناب البقر يعذبون بها الناس. وقد لاحظ الخليفة عبد المومن الكومي، سنة 543 هـ/1149م، أن بعض المسؤولين " يمدون أيديهم إلى ضرب الناس بالسياط إبلاغا في الانتهاء بكثرتها وإمحاشا، ويتسببون بذلك لأخذ أموال الناس إيغارا للصدور وإيحاشا"[4]. وهو ما كان يفعل عامل بغمارة من ضواحي مدينة سبتة[5]. أو يلجأون إلى سجن الملزمين حتى يدفعوا ما بذمتهم، كما كان حدث في مدينة كوز[6]، أو حجز ممتلكاتهم، كما حدث في نظير بتادلا، إذ حجز العامل دواب إحدى قبائل المنطقة حتى أدوا ما بذمتهم من المال الموظف عليهم[7]. وقد سبق أن رأينا أن نكبة عبد السلام الكومي كان وراءها تظلم الرعية من تجاوزات عماله وتعسفاتهم، وكيف كان القشاشون يبتزون شركاء الدولة في أملاكها. ونظرا للسلطة التقديرية للعامل في تحديد الجباية يضطر الناس إلى مصانعة العامل بالهدايا والأموال، وهو ما دفع بالمتصوف أبي عبد الله محمد بن إسماعيل الهواري (ت581 هـ) بمدينة أغمات إلى عدم اقتناء الأملاك من دور وضياع، معللا تصرفه هذا بقوله :"أخاف أن أكتسب ملكا فأحتاج إلى مصانعة العمال"[8]. ومن مظاهر تجاوزات بعض العمال التجسس على أملاك الناس، وعدم احترام حتى أملاك

---

(1) - ابن حوقل، **صورة الأرض**... م.س. ص.97 .

(2) - انظر حكاية طريفة حول اعتبار الجبايات كلها حراما مما دفع أحد الفقهاء إلى طلب جرايته من مكس الخمر !لأن دافع مكسه يؤديه عن طيب خاطر، ابن خلدون، **المقدمة**... م.س. ص.709.

(3) - آدم ميتز، **الحضارة**... ص.251 - 254 .

(4) - عزاوي، **رسائل موحدية**... م. س . ص.63 .

(5) - التادلي، **التشوف**... م.س. ص.434.

(6) - **نفسه**، ص.355.

(7) - **نفسه**، ص.442.

(8) - **نفسه**، ص.270 .

الأحباس وفرض الخراج عليها، كما حدث بأغمات، قبل سنة 518 هـ. وكثيرا ما كان تشكي السكان بهم سببا في محاسبتهم والسطوة بهم. وكان موقف بعض المتصوفة من جور العمال جريئا، إذ ينتقدونهم علانية[1]، أو يتدخلون للشفاعة لبعض الملزمين لدى المشرف[2]. ويكره بعضهم السكن في مكان تواجد العامل[3] . كما أن بعض العلماء كانوا يرفضون أن يستعملوا في الإشراف على **المجابي السلطانية**، مثل أحمد الأنصاري القرطبي (ت 646هـ) الذي تقلدها عن كره وتقية[4]. وكان من عادة حكام الدول بالغرب الإسلامي أن يدشنوا عهدهم بإزالة ما كان، من قبل، من الجبايات أو التخفيف من ثقلها كوسيلة لكسب تأييد السكان ورضاهم، كما لاحظناه لدى دخول أبي دبوس لمراكش[5].

هذه المحاسبات الرامية لضبط مداخيل الدولة ومعاقبة المختلسين لأموالها بالمصادرات وغيرها، لا يمكنها أن تسد العجز المتزايد في ميزانيتها. للحفاظ على وجودها لا تتورع في اللجوء إلى انتزاع الأموال ممن توفرت لديه من الأثرياء.

ب - التغريم (حوالي 615-668 هـ):

التغريم هو غصب أموال الأغنياء من التجار وسكان المدن أو القبائل، بدون مبرر شرعي مقبول. وكان يطلق على ذلك ألقاب، مثل المعونة (جمع المعاون) التي أفتى المرابطون في شأنها الفقهاء، واختلفوا حولها ما بين مبيح لها ومحرم[6]. وقد قتل ابن المناصف رجما، بمدينة قرطبة، سنة 536 هـ /1142م، بسبب إفتائه بتجويزها[7]. وبالفعل فرض على بن يوسف سكان مدينة فاس، سنة531 هـ، معونة للجيش المرابطي مقدارها 20 ألفا من الدنانير[8]. ويمكن اعتبار التغريم، مهما كان الاسم الذي أطلق عليه، نوعا من الموارد العرفية السابقة الذكر. وقد أخذ حجما أكبر حتى أفقر بعض السكان. وبدأ، حسب مصادرنا، في عهد المستنصر حوالي 615 هـ، واستمر إلى نهاية الدولة الموحدية .

---

(1) - **نفسه**، ص.355 .

(2) - **نفسه**، ص.354 .

(3) - **نفسه**، ص.396 .

(4) - ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة** ... م.س س 1 ص.294.

(5) - لوحظت هذه الظاهرة لدى الأغالبة، ابن عذاري، **البيان المغرب**...م.س.ج 1 ص131.. وفي الأندلس، **نفس المصدر** ج 3 . ص3 .. وفي عهد أبي دبوس، **نفس المصدر**، قسم الموحدين ص..448 .

(6) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ... م.س. ج 4 ص118 ، الناصري، **الاستقصا** ... م.س. ج 2 ص 57 -58 ، الونشريسي، **المعيار المعرب**... م.س. ج 11ص.127 .

(7) - ابن القطان، **نظم الجمان** ...م.س ص.191.

(8) - **نفسه**، ص226 ، والجزنائي، **جنى زهرة الآس**...م.س. ص.42 .

وكانت أول محاولة في هذا الباب، من اقتراح ابن القطان في محاولة منه لإيجاد مصدر لتمويل الجيش الضروري لإعادة استتباب الأمن على الطرق القريبة من مراكش، ويرى أن يوظف قسط من المال على الأغنياء من أهل مراكش، وكان أكثرهم مالا آنذاك المرابعون (هم المتصرفون في أملاك الدولة بالشركة) والقشاشون وهم التجار الذين يشترون غلات أملاك الدولة[1]. فقصد إلى كبيرهم المشهور بالذيب، الذي كان يملك من الزيت وحده 12000 قنطار، أي حوالي 600000 لتر، وحاول إقناعه أن يساهم بقسط من ماله كإعانة منه لبيت المال الفارغ، وأبى معللا رفضه بحجج دينية. ولم يجن ابن القطان من محاولته هذه إلا الإضرار بسمعته بين أهل مراكش، وعداوة وجوه دولة المستنصر له[2]. واعتمدت فكرة ابن القطان، كغيره من الفقهاء الذين يسوغون مثل هذه الممارسة، على القول المنسوب لعمر ابن الخطاب :"في المال حق غير الزكاة"[3]. أما ابن خلدون فيعطيها تخريجا آخر، مضمنه أن الأموال التي يكتسبها مستخدمو الدولة وغيرهم هي أموال مكتسبة بفضل حكم الحاكم وفي ظل دولته، وبالتالي يحق له أن يأخذ منها ما أراد ومتى احتاج لذلك[4]. وكيفما كان تبريرها شرعيا أو عرفيا، فإن الموحدين نفذوا الفكرة كما كانت تنفذها القبائل القوية في تلك الفترة، كالمرينين وبعض القبائل الناطقة بالعربية. وهذه بعض الأمثلة عنها : عندما احتل السيد عبد الله بن أبي حافة مراكش ليحيى الناصر"اكتسح لنفسه، وأخذ المال من وجوه البلد وتجاره، **واصطنعه** الناس خوفا على أنفسهم، وكان له ابن استولى على أموال الناس بحيل مختلفة ومبررات"[5]. وفي حركة عبد الله ابن وانودين لبلاد الغرب، سنة 635 هـ، نزل بظاهر مكناسة "ألزم أهلها وظائف وتكالف، وابتلاهم بأنواع المغارم والملازم"، ورحل إلى فاس "لكي يوفي العسكريين مالهم فيها، فأغرم بالتعيين جملة من الناس"[6]. ولما رجع السعيد من فاس، سنة 643 هـ/1245م، "أخذ أهل أزمور بالمغارم الثقيلة حتى لم يبق لهم شيئا"[7]. ونجد نفس التصرف لدى المرينين في بدايتهم، فالأمير يحيى بن عبد الحق أغرم 300 من أعيان أهل

---

(1) - ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**... م س س 8ص177 -178 .، انظر عن القشاشين، ابن غازي، **الروض الهتون**... م س ص10، ابن مرزوق، **المسند الصحيح**.

(2) - ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**...م. س . س 8 ص.179 .

(3) - الناصري، **الاستقصا**... م س ج2 ص.47-58 .

(4) - ابن خلدون، **المقدمة**... م س ص. 503.

(5) - ابن عذاري، **البيان المغرب**..ق الموحدين م. س ص.327 .

(6) - نفسه،354 . ويعلق ابن أبي زرع على فعلهم بمكناس بقوله :حتى «أفنوها بالمغارم الثقيلة وأفقروا أهلها» الذخيرة... م س ص.60.

(7) - ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**... م س ص.66 .

فاس، سنة 647 هـ/1250م، ب 300.000 دينار عشرية في الخطإ[1]. بل كان يغرم حتى أفراد البيت الحاكم نفسه، مثل حبابة الرومية أم الرشيد التي سجنها السعيد وأغرمها مالا كثيرا[2]. ومثلما فعل المرتضى، سنة546 هـ/1152م، حين "سجن الحرة عزونة أخت السعيد وأغرمها مالا كثيرا وحليا خطيرا"[3]. وهو نفس ما كانت تفعله القبائل الناطقة بالعربية في صنهاجة تسغرت ودكالة وركراكة التي كان الخلط أشد استيلاء عليها حتى حاربهم الرشيد، "وارتفعت عن الأمة أمور من المظالم التي كان العرب يتنوعون فيها"[4].

وتسمى هذه المغارم من المعارضين لها أو من طرف الملزمين من الرعية **بالمظالم**، ويطلق على المتعسفين من الجباة **الظلمة** الذين كانوا يسمون جبل زرهون بجبل الذهب، كناية عما يمكن استخراجه منه من الأموال لفائدتهم الشخصية[5]. وإذا رجعنا إلى مفهوم الظلم، في المصادر، نجده يكاد يقتصر على أشكال الظلم في الأموال لغلبته على غيره من المظالم[6]. لابد أن تكون لهذه الممارسات في تحصيل المال من طرف الدولة وغيرها، رغم محدوديتها في الزمان والمكان، نتائج على الاقتصاد والمجتمع، فهي لا تسمح بتراكم الثروة المادية لدى فئة اجتماعية قارة. وقبل هذه النتائج، ماهي مصاريف الدولة؟

II -نفقات بيت المال:

لا نتوفر على معلومات كافية ومفصلة عن الأوجه التي تصرف فيها دول الغرب الإسلامي أموالها، باستثناء ما ذكر عن الخليفة الناصر بالأندلس، سنة 325هـ/937م، من أنه كان يقسم أموال الجباية إلى ثلاثة أقسام كبرى، قسم يصرفه على الجيش، وقسم يصرفه على البناء، والجزء الثالث يدخره[7]. قد تكون هذه الخطاطة المبسطة صحيحة، في عهد هذا الخليفة ومن عمر الدولة الأموية، ولكن يصعب تعميمها على كل العهد الأموي بالأندلس وعلى غيرها من الدول الأخرى. ومع ذلك فهي تظهر لنا بعض الأوجه الرئيسية

---

(1) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م.س .ص397 ، ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**... م س ص 245- 246. **الذخيرة السنية**... م س .ص 77 - 78

(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب**..ق .الموحدين م س ص.360.

(3) - **نفسه**، ص.389 .

(4) - **نفسه**، ص334. انظر مساهمة حتى الأفراد من السوقة في مثل هذه العمليات، **نفسه**، ص.327 .

(5) - ابن غازي، **الروض الهتون**... م س . ص9 ، **رسائل موحدية** من تحقيق بروفنسال، جاء فيها، فلا يطالبون (أي الموحدون إلا بما توجبه السنة وتطلبه. ولا يلزمون -ومعاذ الله مكسا ولا مغرما **ولا سميا ما تسميه الظلمة بأسمانها وتلقبه** «الرسالة» 7 ص.22 ،

(6) - ابن خلدون، **المقدمة**... م س ص510 .. وانظر مثلا عن ظلم مغرواة بفاس، ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**... م س ص.113 –114

(7) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ... م. س . ج 2 . ص.231 .

لصرف مال الدولة في الغرب الإسلامي، إذ يستحوذ المجهود العسكري والبناء في فترة معينة من تاريخ الدول غالبا فترة الازدهار على ثلثي ميزانيتها. فكيف كان الموحدون يصرفون أموالهم؟

يمكن تقسيم أوجه صرفها، حسب الإشارات التاريخية، إلى ثلاثة أبواب رئيسية: نفقات عسكرية ونفقات البناء والتشييد ثم نفقات اجتماعية.

1 - عطاءات أهل السيف وأهل القلم:

يجب الإشارة إلى أن أغلب الدول في الغرب الإسلامي لم تكن تدفع دائما عطاء كل موظفيها من بيت المال، بل تترك للعمال وللولاة وللرقاصين ولبعض الجنود، بعض الحرية لاقتضاء المال من الرعية مقابل خدماتهم، مثل جند الروم، في عهد علي بن يوسف المرابطي، الذين كانوا يأخذون من الرعية "**نفقاتهم وأكثر ما يجب عليهم**"[1] . وهناك استثناءات لهذه القاعدة العامة، منها أن أبا عقال بن الأغلب (ت 226هـ /841م) «غير أحداثا كانت قبله، وأجرى على العمال أرزاقا واسعة وصلات جزلة، **وقبض أيديهم عن الرعية**"[2]. وفي بداية العهد الموحدي كان كل من يقدم خدمة مدنية أو عسكرية للدولة الفتية مسجلا، في ديوان الجند الذي وضعه ابن تومرت، كالطلبة والكتاب، ليتقاضى راتبه من بيت المال[3]. لكن ذلك لم يطبق دائما، كما تدل عليه حالة الرقاصين، سنة 543هـ/1149م، الذين كانوا يبتزون الرعية، في بداية حكم الدولة الموحدية، ويفرضون عليها مؤنهم[4] . وقد حاول يعقوب المنصور أن يصلح هذا الوضع، إذ "أجرى على أكثرهم الإنفاق من بيت المال" و "أجرى المرتبات على الفقهاء والطلبة على قدر مراتبهم وطبقاتهم"[5]. وأهم ما كانت الدولة تدفعه من بيت المال مكافآت لخدامها وأنصارها من عصبيتها (الموحدين) أو من المصطنعين، كبعض قبائل زناتة والعرب وغيرهم. لذا كانت النفقات العسكرية هي الغالبة على نفقات التسيير نظرا للطابع العسكري للدولة، كما سبق ذكره في فصل الطبقات الموحدية. وكانت المكافآت تدفع من كل أنواع الأموال التي توجد ببيت المال:

---

(1) - **نفسه**، ج 4 ص.102.

(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ... م. س .ج 1 ص.107.

(3) - انظر فصل التنظيمات ص 93 ومابعدها

(4) - عزاوي، **رسائل موحدية** ...م. س. ص.67-68 .

(5) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**... م. س. ص217 .، وقال نفس الشيء عن يوسف بن تاشفين، **نفسه**، ص137.

أ العطاءات النقدية:

تكون العطاءات، لكي لا نقول الأجور المتعاقد عليها، نقدية أو عينية. النقدية منها تعرف بالبركة بالمغرب وبالجامكية في المشرق، حسب عبد الواحد المراكشي. والعطاءات أوالصلات النقدية، حسب زمن دفعها، إما مياومة، مثل التي كان يدفعها المرتضى لقائد الفرقة المسيحية المعروف بذي اللب[1]. وإما مشاهرة، مثل التي تدفع للجند المرتزقة[2]، ولبعض المستخدمين الدينيين، كقاضي الجماعة في عهد محمد الناصر الذي بلغ ما ناله في عهد المنصور19.000 دينار سوى الخلع والمراكب والإقطاع[3]. لكن أغلب العطاءات كانت فصلية، مثل بركة أجناد الموحدين التي يتقاضونها كل ثلاث مرات في السنة، أي كل أربعة أشهر على إثر كل عملية التمييز أو في الأعياد الدينية : عيد الفطر وعيد الأضحى، وفي ربيع الأول، وفي شهر رجب[4]. أو تكون سنوية، مثل الإحسان وهو مبلغ مالي غير محدد يعطى حسب أقدار الناس ومكانتهم وحسب وفرة المال. ومن العطاءات ما هو مرتبط بالسنة الهجرية وما هو مرتبط بالسنة الفلاحية.

لا يكاد مقدار بركة الجند يختلف عند الموحدين عن نظيره لدى دول الغرب الإسلامي الوسيطية، لا من حيث معاييره، كالتمييز بين الفارس والراجل ورتب الجند، بل تتقارب حتى في مقدار العطاء في بعض الأحيان [5].

ب - عطاءات عينية:

تشمل جل المواد الموجودة ببيت المال (حبوب، خيل، دور، عبيد وإماء أحيانا)... ، أهمها:

***السُهْمَان:**

قسط من الخراج يعرف بالأسهم أوبالسهمان من الجباية أو بالإقطاع. والأسهم هي نصيب من خراج استغلالية فلاحية لمدة محددة. ويطلق على تلك الاستغلالية، حسب نوعية المنتوجات الفلاحية الغالبة على الاستغلالية، إما الضيعة أو القرية إذا كان تغلب

---

(1) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ..ق . الموحدين م. س . ص .429.
(2) - **نفسه**، ص211 . المراكشي، **المعجب** ..م.س .ص350 .,414 ,454، ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**..م. س. ص.285.
(3) - **نفسه**، ص. 445.
(4) - **نفسه**، ص414، القلقشندي، **صبح الأعشى**..م. س .ج 5 ص 137-136 العمري **مسالك الأبصار**..نشر ابوضيف ص.94.
(5) - قارنها بأجور الجند في القرن 19 م بالمغرب، ثريا برادة، **الجيش المغربي في القرن19**... م. س . ص. 110 -111 .

عليها المغروسات والفواكه والحبوب، وإما المجشر إذا كان الغالب عليها الرعي (منها جاءت كلمة الدشر التي تطلق على التجمعات القروية بالمغرب أوالعزيب في التاريخ المغربي المعاصر). هذه الاستغلالية الفلاحية تضم أراضي رعوية وبساتين مغروسة وأرض لزراعة الحبوب تحرثها الدولة لهم أو يحرثونها لأنفسهم بواسطة شركائهم، ويحصلون إما على عشرها فقط، أو على حكرها (أي غلتها كاملة) حسب تعبير العمري والقلقشندي[1]. وتقدر مساحة تلك الاستغلالية بحرث عشرة أزواج للشيوخ الكبار وحرث خمسة أزواج للشيوخ الصغار، أي أن مساحتها تصل إلى 20 فدانا تغل حوالي 360 قنطار، أو حرث 10 أزواج أي 80 أو100 هكتارا 4x قنطار = حوالي 400 قنطار سنويا[2]. وتؤخذ من مخازن الجهة التي عينت فيها الأسهم ومن دار الإشراف بها، مثل مخزن إشبيلية أو سبتة[3]. أو تكون بمنطقة معينة كركراكة ويطالب الشخص أن يأخذها بمخزن جهة أخرى كإشبيلة[4]. وكانت هذه الأسهم تستعاد لأسباب عديدة وتنتزع ممن عينت لهم، وكان ممن كلف باستعادة الأسهم المنزوعة من أيدي الناس، في عهد المنصور، المؤرخ يوسف بن عمر الذي كان مكلفا كذلك بمستخلص الشرف ومدينة لبلة[5]. وممن انتزعت منهم الموحدون الذين لم يشاركوا في إحدى المعارك بالأندلس بقيادة الحافظ ابن وانودين[6]. وانتزعها العادل من ابن القطان مزوار الطلبة[7]. وفي سنة647 هـ، وفد على المرتضى بمراكش أبو عمران موسى بن زيان الونجاسني من بني مرين عين له "مالا معلوما في كل عام، وكان قد وصل معه جماعة من بني ونجاسن، فخرج لهم مالهم على جهة صنهاجة في هذا العام"[8]. ويظهر أن صكوك تجديد الأسهم كانت تعرف بالتنفيذات[9]. وأقدم إشارة عن إعطاء الأسهم كمكآفأة عن تقديم خدمة معينة، هي أسهم ملول بن إبراهيم بن يحيى الصنهاجي كاتب للمهدي يتقن ويكتب له بعدة لغات منها السريانية، فحصل على أسهم

---

(1) - عن حكر الاستغلالية انظر العمري، والقلقشندي، **صبح الأعشى**... ج 5 ص 136 ، عن ورود "حكر الأرض وعشرها" في الفتاوي خلال العصر الوسيط، راجع، محمد فتحة، **النوازل الفقهية والمجتمع**... ص355

(2) - قارن إقطاع الحفصيين هذا بإقطاع المرينيين، العمري، **مسالك الأبصار**... المنشور في **ورقات عن الحضارة المغربية**... ص 306-305

(3) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م. س . ص.211.

(4) - عزاوي أحمد، **رسائل موحدية**..م. س . ص .295.

(5) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ... م. س . ص.225 .

(6) - **نفسه**، ص.151 .

(7) - ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة** ... م. س . س 8 ص.175-176 .

(8) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ... م. س . ص.399.

(9) - **نفسه**، ص254، التنفيذات، هي الأوامر الذي يصدرها السلطان إلى الوالي أو العامل بتسليم أحد الأشخاص مالا أو أرضا أو قوتا أو كسوة رعيا لخدمته أو مكانته في المجتمع أو في دواليب المخزن، راجع التوفيق أحمد، **المجتمع المغربي**... م.س ص513.

بأوناين في جبل درن معروفة باسمه[1]. الأمثلة عن ظهائر الإنعام والمواساة كثيرة، منها ظهير ابن صاحب الصلاة[2]. كما وصلنا نموذج من ظهائر عطاءات الموحدين مثل الظهير الذي أصدره الرشيد، سنة637 هـ، للمشرف الحسن بن غالب، يتقاضى بموجبه 40 دينارا شهريا، مع مدين من القمح وأربعة أمداد من الشعير ربما في اليوم، بالإضافة إلى 200 دينار سنويا[3]. وبلغ ما وصل قاضي الجماعة محمد بن طاهر الحسني من المنصور، خلال سبع سنوات، 19 ألف دينار نقدا دون الخلع والمراكب والإقطاع[4].

أما العطاءات العينية فمنها ما هو سنوي مثل المواساة. وهي عبارة عن مواد غذائية تفرق عند جمع الغلات وتخزينها بالمخازن، وليس لها، بدورها، قدر مضبوط بل خاضعة لرأي السلطان وحسب أقدار الناس. وأهم ما تشمله المواد الغذائية الأساسية كالدقيق واللحم[5]، وأضاحي العيد؛ إذ قد فرق يعقوب المنصور73.000 شاة ومعز في عيد الأضحى، سنة 593 هـ/1197م، بالأندلس[6].

يعتبر تقلد المسؤولية، في حد ذاته، تنويها وإشادة بالشخص المسندة له، نظرا لما يمنحه المنصب المسند له من نفوذ وجاه ومكانة اجتماعية. وكثيرا ما كان إسناد المنصب، لبعض الأفراد من العصبية الحاكمة أو من خارجها، مكافأة لهم. لذلك نجد أن أغلبية المسؤولين الإداريين، كعامل الزكاة والرقاص والحفاظ، لا يتلقون مقابلا على مسؤولياتهم، باستثناء بعض الطلبة أوالمرتزقة من الجند.

***الكسوة :**

جرت عادة الموحدين، كباقي الدول الإسلامية، أن يدفعوا كل سنة كسوة كاملة للجيش من الموحدين وغيرهم من الأجناد وأرباب القلم. وتشمل الكسوة السنوية ستة أثواب بعضها غير مخيطة، وهي : عمامة وقبطية مبطنة وغفارة ومقطعان مهدواين (نسبة لنوع من النسيج المشهور كان يصنع في مدينة المهدية أيام العبيديين، لذا يسمى أيضا بالعبيدي) وشقة. كان طلبة الموحدون ممن يأخذون الكسوة السنوية طيلة العهد

---

(1) – البيدق، **المقتبس**... م. س . ص.41 -42 .

(2) – ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**... م. س ص.340-341 .

(3) – عزاوي، **رسائل موحدية** ...م. س . ص.391-392.

(4) – المراكشي، **المعجب**... م. س . ص.445 .

(5) – ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**... م س س 8 ص 175 ،251 ، انظر كذلك ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**... م س ص26 ,285.

(6) – المقري، **نفح الطيب**...م س ج 4 ص102 ،، المنوني، **العلوم والآداب**... م. س . ص.18.

الموحدي[1] . ومن بين الطلبة الذين أعطوا كسوة فاخرة أبو موسى الجزولي استبدل بها كسوته التي كانت على زي بربر البوادي، إضافة إلى بغلة فارهة لركوبه ودار بمحلة هرغة مشتملة كل اللوازم من أثاث، والمواد الغذائية والوقود وكتب العلم وعبيد وإماء[2].

وكان من عادة الموحدين توزيع الكسوة والسلاح على جنودهم الذين يقدرون بمئات الآلاف، قبل القيام بالحركة. ففي سنة 560 هـ/1165م، أنعم يوسف على الموحدين والعرب وجميع المقيمين منهم بمراكش "بالكسوة التامة من العمائم والغفائر والبرانس والأكسية، بأن حصل لكل فارس غفارة، وعمامة وكسا، وقبطية وشقة، وأنعم على جميع الناس الغازين والقاطنين بذلك وعلى طلبة الحضر"[3]. وقام، سنة 566 هـ/1171م، بتوزيع الثياب على الجند المشاركين في حركته للأندلس. وبدأ توزيعها بمراكش على قبائل الموحدين والعرب وعلى طلبة الحضر. ويبدو، أن ما كان متوفرا منها بمخازن مراكش لم يكن كافيا، لذا وزعها برباط الفتح على من لم يحصل عليها بمراكش، بعد أن جاءت من مخازن جهات أخرى[4]. وكان مما بعثه الناصر، سنة 605 هـ، إلى أبي عبد الواحد الحفصي من مراكش وحدها: 100000 دينار و 1800 كسوة و 300 سيف و 100 فرس، زيادة على ما أرسله له من سبتة وبجاية وغيرهما، ووعده بالزيادة[5]. وكان ابنه المستنصر يسرب الأموال والأكسية للحفصيين، حتى سنة618 هـ[6]. ورغم ضعف الدولة الموحدية، في عهد الرشيد، فإنه أعطى سنة 637 هـ/1240م لوزيره ابن وانودين "جملة أحمال من الكسا الشرقية البديعة برسم الإعطاء لبني عبد الحق ولأشياخ بني مرين، **ولمن يجب عطاؤه**"[7].

لقد كانت الدولة تحتاج لكميات هائلة من الثياب لأنصارها وأعوانها العديدين من عصبية الدولة أو من غيرها، لذا كانت تقتني منها كميات ضخمة أو تصنعها، إلى درجة أنها كانت تنقلها على السفن، منها سفينتان محملتان بالثياب للمخزن جاءتا من إفريقية، يوم الجمعة 7 رجب سنة 567 هـ/ 1172م، واعترضتهما سفينتان مسيحيتان بالقرب من

---

(1) - البيدق **المقتبس**، م.س.ص. 59.
(2) - ابن عبد الملك ، **الذيل والتكملة** ... م.س، س 8، ص . 251.
(3) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة** ... م.س. ص .215.
(4) - **نفسه**، ص 348، 360.
(5) - ابن خلدون، **كتاب العبر** ... م.س. ج . 6 ص.278.
(6) - **نفسه**، ص 279.
(7) -ابن عذاري، **البيان المغرب** ... م.س. ص . 353

مدينة تنس بالمغرب الأوسط[1]. ويحرص المخزن الموحدي على توفير العدد الكافي منها في مخازنه، كما يظهر من الكمية الضخمة التي أخرجها المنصور، من تلك المخازن في بداية ولايته سنة580 هـ/1185م، فقد أمر بإخراج ما كان بمخازن مراكش "من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهب، فبيعت منه ذخائر لا تحصى بأثمان لم تُوفَ ولم تُسْتَقْص"[2]. ومن ذلك أيضا، ما أخرجه يحيى بن غانية من مخازن بجاية فكسا به، سنة581 هـ، أنصاره من العرب وغيرهم[3]. وكان ثمن هذه الكسوة السنوية يفوق بكثير قيمة البركة (العطاء النقدي) التي يحصل عليها كبار الأشياخ، إذ كانت قيمة المقطعين المهدويين من تلك الكسوة تساوي 100 دينار أو أزيد، وكان الواحد المصنوع منهما بمدينة وجدة يساوي أزيد من 50 دينار، حسب شهادة معاصرة[4]. وكان الغزل المصنوع بمدينة سوسة، في العهد الموحدي، يباع بضعف وزنه من الذهب[5]، فكيف إذا تم استيراده من الصين. وكانت الملابس، نظرا لغلائها، مما يسلب في الحروب، كتجريد المرينين للجند الموحدي المنهزم أمامهم، سنة 613 هـ/1217م، واضطروا لستر عوراتهم بنبات المشعلة[6]، فسمي ذلك العام عام المشعلة. وعام المشعلة معروف وهو حقيقي، وليست قضية لغوية ورمزية فقط، كما ظن أحد الباحثين[7]. كما كانت الثياب تتعرض للسرقة بكثرة في أوقات مضطربة، كتجريد العرب للناس منها بالريف، بعد ضعف الدولة الموحدية[8].

نخلص مما تقدم، أن لباس العصبية الحاكمة وأعوانهم من جيش مرتزق ومستخدمين تتكفل به الدولة، ومن ثمة فهو متميز عن لباس الرعية خاصة لباس أهل البوادي، في جودته وإتقانه وألوانه الزاهية. فلباس العامل الموحدي كان أنيقا وجميلا شبيها بلباس أحد المتصوفة الذي كان يتكون من جبة من الصوف الأخضر، وإحراما من صوف تلمسان، وعمامة بيضاء ونعلا طائفيا[9]. وتقصد الدولة من توفير هذه الألبسة الحريرية أو القطنية

---

(1) - عزاوي، **رسائل موحدية** .... م. س. ص . 84-85.

(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ... م.س. ص.174 .

(3) - نفسه، ص.177 .

(4) - مجهول، **الاستبصار** ... م.س. ص119, 170 , 177 عن المدن الرئيسية لصناعة الملابس بشمال إفريقية خلال العهد الموحدي وأثمانها.

(5) - **نفسه**، ص.119 .

(6) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ... م. س. ص.269 .

(6) - Kably Mohamed, **Société**...P. 4 -5, 59.

(8) - البادسي، **المقصد الشريف**... م. س . ص96،75.

(9) - نفسه، ص72، هوب كينز، **النظم الإسلامية في المغرب**...ص.147 .

الملونة بالألوان الزاهية الغالية ومنحها لأعوانها أن يتميز خدامها عن غيرهم من الرعية. لكن مع ضعف الدولة الموحدية لم يعد في إمكانها أن توفرها لهم، فتغيرت وضعية لباس أهل مراكش، سنة632 هـ، الذين يتكون أغلبهم من خدام الدولة "فما بقي بمراكش من يلبس ثوبا يساوي 10 دراهم إلا الأطمار المتغيرة الخلقة"[1]؛ أما الرعية فهي شبه عارية وخاصة في البوادي، ويكفي الرجوع إلى ما ذكره مارمول والوزان عن لباس عدة مناطق من شمال المغرب للتأكد من ذلك[2]. وكان من العلامات المميزة للمرابطين قبل مجيئهم من الصحراء وتولي الحكم، حسب ابن تومرت، أنهم كانوا عراة حفاة عالة(أي فقراء)، وهو اتهام له أساس من الصحة وينطبق على أغلبيتهم[3].

*السلاح :

عادة يكون سلاح المقاتل على حسابه الشخصي، لكن يحدث أن يوزع الخليفة السلاح على قبائل الموحدين أو غيرهم من الأنصار قبيل القيام بالحركة، مثل ما أعطاه يوسف بن عبد المومن للجند من الموحدين والعرب من "السيوف المحلاة، والدروع السابغات، والبيض والقنا من الرماح الطوال، وأمر لهم بثلاثة آلاف فرس قسموها على قبائلهم"[4] وقد سبق ذكر ما بعثه الناصر لأبي حفص بإفريقية من المال والسلاح.

*المَرْكُوب:

كانت المكانة الاجتماعية للفرد تتحدد، حسب نوعية المركوب المستعمل في تنقله. ويأتي الخيل في القمة ثم البغال التي يستعملها الأعيان كالموحدين. كان من ضمن ما أعطاه عبد المومن لأخيه إبراهيم عندما وفد عليه "**الخيل والعبيد والخباء** وأنزله في موضع محمد بن أبي بكر بن بيكت"[5]. وعندما يخرج أحد منهم من داره بتمراكشت "**يخرج هو من بابه راكبا لا تقع عليه العين راجلا**"[6] ، وكان مما ربى عليه عبد

---

(1) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م س .ص.325.

(2) - انظر على سبيل المثال لا الحصر، لباس سكان جبل الهبط الذين «لا يستطيعونأن يرتدوا لباسا لائقا» لأنهم يدفعون الضرائب لفاس، الوزان، وصف إفريقيا، ج 1 ص 248، بينما سكان المنطاق التي لاتدفع الضرائب يكون لباسهم حسن جدا، **نفسه** 258 .

(3) - ابن تومرت، **أعز ما يطلب**... ص 258 من طبعة الجزائر1903، ص 384 . من طبعة الرباط1997.

(4) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**... م س .ص148...348.

(5) - البيدق، **أخبار المهدي** ... م. س . ص55.، وانظر كذلك ما منى به ابن تومرت عبد الواحد الشرقي «من القصور المشيدة والجواري المزينة، والخيول المسومة»، **نفسه**، ص.18.

(6) - العمري، **مسالك الأبصار**، القطعة المنشورة في ورقات عن الحضارة المغربية للمنوني م س .ص.301 -302 .

المومن أبناءه ركوب الخيل والتدرب عليها، ولتواضعهم "ربما يمشون على أقدامهم" في بعض الأحيان[1]. وإذا أهين أحد من الأمراء أو الأشياخ فإنه يُرَجّل، مثل السيد أبي إسحاق عم المنصور الذي حاول الثورة عليه "أخرج على وجهه وطردت دابة ركوبه، ومشى على قدميه إلى منزله والعامة تطأ أثوابه"[2]، مما يعنى أن الأرستقراطية الموحدية لا ترى إلا راكبة على الخيل. كانت الخيول، نظرا لغلاء ثمنها، من بين الأشياء التي تعطى كهدايا للشخصيات المهمة، مثل السيد أبو زيد عم المنصور ووزيره الذي كان الناس يهدونه الجواري والخيول[3]. لذا يوزع الموحدون هذه المراكب على الجند وعلى الشخصيات الهامة، ككبار العلماء أمثال أبي موسى الجزولي والشريف طاهر الحسني.

أما المركوب الأساسي، لجزء قليل من الرعية، فيختلف حسب أنماط عيشها، في بعض المناطق الجبلية والمدن هو الحمار. ويسمى زعماء بعض الثورات بنوعية مركوبهم، شأن الثائر بوغيول (بوحمارة) أو بوسردون (صاحب البغل)[4]. فقد وصل أحد أولاد المرتضى وهو أبو زيد من الأندلس، سنة 684 هـ/1286م، على حمارة "فسمته العامة بوحمارة" وعاش بجبل سكساوة إلى ما بعد712 هـ/1313م[5]، مما يدل على أن بوحمارة له رمزية ثقافية، منذ العهد الموحدي إلى بداية القرن20 م.

*السكن:

حرص الخلفاء الموحدون على توفير السكن لأعيان أنصارهم من الموحدين ولأهم أتباعهم، كأبناء البيوتات القديمة : مثل بني حماد وبني مردنيش، ولخدامهم كالقضاة والكتاب والعلماء، مثل أبي موسى الجزولي. وقد حصل الموحدون على دور السكن بدار الملك مراكش عند احتلالها. وعندما ضاقت المدينة بساكنتها، بسبب التزايد الديموغرافي السريع للأرستقراطية الموحدية وحاشيتها، بنى يعقوب المنصور تمراكشت وبنى بها دورا وأحياء خاصة بكل قبيلة مرتبة، حسب التراتبية المتبعة في ديوان الجند والاستعراض والحركة. وتميزت المساكن المشيدة بمدينة مراكش، حسب ابن سعيد المغربي، بالفخامة والضخامة، وبلغ اتساع بعضها أنه "إذا كان الرجل في صدر الدار ونادى

---

(1) - ابن القطان، **نظم الجمان**... م. س . ص.132 .
(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م. س . ص.198 .
(3) - نفسه، ص.174 .
(4) - البيدق، **أخبار المهدي**....م. س . ص.85 .
(5) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ....م. س . ص.447 .

رفيقه وهو في صدرها الأخر بأعلى صوته، لا يكاد يسمعه"[1]. وأهم قصورها بعد قصور بني عبد المومن، قصر الوزير ابن جامع في عهد الناصر والمستنصر، الذي صرفت على بنائه أموال طائلة، وكان فيه "ساحة يلعب فيها خمسمائة جارية على خيل من الخشب وتتطاعن"[2]. هذا في دار الملك. أما خارجه، فقد كانت الدولة توفر لأتباعها خباء لمبيتهم أثناء تنقل الحركة. وكانت توفر لهم دورا ينزلون بها طيلة مقامهم ببعض المدن . منها ما اشتراه يوسف بن عبد المومن من الدور لأتباعه ولمن وفد إليه، بإشبيلية العاصمة الإقليمية للأندلس على عهد الموحدين، "ولم ينزل بإشبيلية من دورها إلا نحو ستين دارا لأشياخ الموحدين خاصة ... **رفقا منه بأهل إشبيلية**"[3]. أما حيث لا يتوفر المخزن على دور في ملكيته، فإنه يلجأ إلى عملية الإنزال المشار إليها أعلاه، كما حدث في مدينة مرسية، إذ أمر محمد ابن هلال هذا "أن ينظر في إنزال الموحدين في الديار، والاشتغال ببرهم على أكمل الأوطار، فوجدوها معدة، مملوءة كسى وأرزاقا عدة... وأضاف بأكمل التضييف"[4]. وفي سنة 547 هـ/1250م، بعد أن احتل عبد المومن المغرب الأوسط جاء معه "يحيى بن عبد العزيز ملك صنهاجة وأعيان دولته، فحين وصلوا إلى مراكش أمر لهم بالمنازل الفاخرة والأموال الوافرة، وخص يحي من ذلك بأجزله، وأسناه وأحفله"[5]. أما "جميع أولاد محمد بن مردنيش بعيالتهم ... فأنزلهم في قصر ابن عباد وفي الدور المتصلة به، واشترى دورا بإشبيلية من أربابها لسكناهم، وبسطها لهم **وملأها أرزاقا وأرفاقا**"[6] ، بينما أنزل هلال بن محمد في قصر ابن عباد بإشبيلية[7].

*المأكل :

يحرص خلفاء الموحدون على إطعام أعيان أنصارهم في عدد من مناسبات، كالأعياد أو الاحتفال بمناسبة سارة أو بحدث معين. وقد يطعمون أعدادا ضخمة من الجيش تفوق عشرات الألوف لمدة 15 يوما أو أكثر، مثلما حدث في عهد يوسف بمراكش[8] . زيادة على

---

(1) - العمري، **مسالك الأبصار** ..في ورقات عن الحضارة المغربية... م س، ص.300 .
(2) - **نفسه**، ص.303 -304 .
(3) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**... م. س . ص.362 .
(4) - **نفسه**،424.
(5) - المراكشي، **المعجب** ...م. س . ص .302 .
(6) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**... م. س . ص،426 .
(7) - **نفسه**، ص.382 .
(8) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ...م س .ص.117 .

الإطعام اليومي للأعيان الذين يحضرون مجالس الخليفة، كما كان يحدث في عهد أبي الحسن المريني[1].

كانت هذه النفقات معروفة، قبل العهد الموحدي بالمغرب، ولدى جل الدول الإسلامية، أشار إليها مؤلفو كتب الأموال، واعتبروها جائزة شرعا وسندهم في ذلك السنة النبوية وعمل الخلفاء الراشدين، خاصة عمر بن الخطاب الذي يتخذ مرجعا في عدة نظم[2]. فهذه الممارسات المالية مبنية على تصور معين للحكم والسلطة، ومبنية بالأخص على علاقات اجتماعية تستمد جذورها من التقاليد القبلية، إذ إن صاحب الدار الكبيرة، الذي هو صاحب السلطة في القبيلة، اعتاد أن يتكفل بالحاجيات الأساسية، من مأكل وملبس وسكن، لكل أفراد بيته المتكون من القرابة، ومن الأنصار والمصطنعين بالولاء والعبيد . فالأرستقراطية الموحدية تشكل جزءا من بيت بني عبد المومن "**وهم الجند والأعوان والأنصار**، ومن سواهم من سائر البربر **رعية لهم وتحت أمرهم**"[3]. ومما يؤكد هذه العلاقات الاجتماعية أن أبناء أعيان الموحدين كانوا يربون مع أبناء بيت بني عبد المومن، كما فعل عبد المومن حينما تكفل بتعليم 3.000 من أبناء أشياخ الموحدين مع أبنائه وسماهم الحفاظ[4] ، واستمر ذلك إلى عهد المنصور على الأقل، إذ يخبرنا التجاني بأن ابن الشيخ عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي كان رباه الناصر "مع ولده يوسف المستنصر ولي عهده واختصه كولده"[5] ، كما أن إدريس ابن جامع وزير يوسف كان "نشأة دار أمير المؤمنين وابن أميرهم المذكور"[6] .

2 – نفقات التشييد والبناء :

كان تشييد القصور وبناء الدور، حسب شهادة المراكشي وغيره من الإخباريين، من أهم الأولويات في سياسة عبد المومن، يليها إعداد السلاح ومحاربة الثوار، ثم تأمين الطرق، وأخيرا شؤون الرعية[7]. ويتبين بالفعل، من خلال الوقائع التاريخية، مدى اهتمام الموحدين بالتشييد والبناء وكيف كان البناء يستحوذ على جزء هام من مصاريف الدولة

---

(1) - ابن مرزوق، **المسند الصحيح**...م.س. ص 136 . وما بعدها.
(2) - راجع كتب الأموال المدرجة في لائحة المصادر.
(3) - المراكشي، **المعجب**...م.س. ص.480 .
(4) - انظر الحفاظ في فصل التنظيمات الموحدية من هذا العمل ص. 122.
(5) - التجاني، **رحلة التجاني** ...م.س. ص.361 .
(6) - ابن عذاري، **البيان المغرب**...م.س. ص.84 .
(7) - المراكشي، **المعجب** ...م.س. ص303, 332.

الموحدية، كبناء القواعد العسكرية، مثل بناء قاعدة جبل طارق، سنة 555 هـ/1258م[1] ، أو قاعدة رباط الفتح التي بدأها عبد المومن، سنة545 هـ/1248م، وأضاف إليها ابنه يوسف بعض المنشآت، واصل يعقوب المنصور التشييد بها مدة حكمه، أي مدة 15 سنة، حتى فخمها، وأنفق عليها أموالا، قيل إنه ندم عليها لعدم إكتمال بنائها[2]. ومن المرافق التي بناها الموحدون الأوائل، الدور والقصور بالطرق الرئيسية التي تمر منها حركاتهم، مثل الدور المبنية على الطريق الرئيسية بين دار الملك مراكش وقاعدة الأندلس إشبيلية مثلا، والتي يفصل بين كل منها حوالي 15 كلم، وقد ذكر ابن صاحب الصلاة اسم سبعة منازل من 16 منزلا موجدا بين الرباط ومراكش[3] . كما ذكر لنا ابن عذاري القصور بين إشبيلية وجزيرة طريف بالأندلس في عهد المنصور، سنة580 هـ/1185م[4].

كان يعقوب المنصور أكثر خلفاء الموحدين شغفا واهتماما بالبناء والتشييد[5]، ومن مظاهر اهتمامه أنه "في طول أيامه لم يخل من قصر يستجده أو مدينة يعمرها"، وأهم منجزاته المعمارية حصن الفرج بمدينة إشبيلية، وتوسعة مدينة مراكش، وإضافة قصور تمراكشت التي استغرق بناؤها، مدة حكمه، أي 15 سنة[6]. بالإضافة إلى بناء أو تجديد المساجد وصوامعها وغيرها من المرافق.

عموما تتميز حركة العمران، في عهد عبد المومن وابنه يوسف، بالاهتمام بالمنشآت العسكرية أكثر من غيرها. بينما تميز عهد المنصور، نظرا لسياسته الرامية لتوطيد سلطة الدولة وإصلاح المجتمع، بالاهتمام بالمنشآت المدنية والدينية، كتمراكشت التي أنفق فيها من خمس غنائم الروم في معركة الأرك[7] ، وببناء المارستانات وأجرى الإنفاق على أهلها وعلى الجدماء والعميان في جميع عمله، وبنى المساجد والصوامع، والقناطر وجباب الماء، والمنازل على الطريق[8]. وتميزت، في عهد الناصر، بالتقلص والاقتصار على بناء نوع من التحصينات وتشييد الأسوار، لأن سيوف الموحدين وعدلهم لم يعودا كافيين للدفاع عن المدن، بسبب تواكلهم وتزايد ظلمهم، كما سنبين فيما بعد .

---

(1) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة** ...م. س . ص.229 - 230.
(2) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب** ... م. س . ص230.، المراكشي، **المعجب** ...م.س .ص.384 .
(3) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة** ...م. س . ص.352 - 356 .
(4) - ابن عذاري، البيان...ق .**الموحدين** م. س . ص.172- 173 .
(5) - المراكشي، **المعجب**... م. س . ص.418.
(6) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م.س.ق الموحدين ص 174 الناصري، **الاستقصا** ...م.س .ج 2 ص188-191، ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**... م.س .ص 229-230 ، المنوني، **العلوم والآداب**... م.س. ص. 242-252.
(7) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**... ص229-230.
(8) - **نفسه**،.217-218.

وعلى العموم، كان الخلفاء الموحدون، مهما كانت الظرفية التي يجتازونها، يتوسعون في تشييد البناءات الجميلة والترفيهية من القصور والقصبات والمساجد المطبوعة بمظاهر الأبهة والفخفخة. ولم يتخل الملوك الأواخر منهم، حتى في مرحلة الضعف، عن تشييد القصور، كما فعل الرشيد الذي "اشتغل بمراكش في الرياضات بالنزهات "وبنى حول قصره سقائف للموحدين والمشتغلين من أصناف الخدم والمقربين[1]. وكما فعل المرتضى، سنة654 هـ/1257م، عندما "شرع في بناء الديار لأولاده الكبار، مثل دار العرائش ودار البلار، وما جاورها من القصور بأبي دانس، وبنى داخل القصبة ديارا كثيرة، وأنفق فيها أموالا خطيرة"[2].

إن اقتصار نفقات بيت المال على عصبية الدولة، حسب معايير التي صنفت بها طبقات الموحدين، سيخلق فرقا شاسعا بين مستوى عيش طبقات كتلة الحكام من جهة، وبين مستوى عيش الرعية من جهة ثانية، في المأكل والملبس والمركب والمسكن. وفرة حتى التخمة وبذخ لدى الكتلة الحاكمة، وندرة وفقر وبؤس لدى الرعية، مما سيخلق شرخا اجتماعيا متزايدا بين الحكام أنفسهم، وبين الكتلتين، مما يهدد بانفجار الوضع الاجتماعي، وبضعف تلاحم كتلة الحكام، لذا كانت تخصص من بيت المال نفقات للتخفيف من حدة البؤس والفقر المتزايد مع توطد سلطة الدولة، خاصة في صفوف كتلة الحكام.

3 - الصدقات وأعمال البر والإحسان:

كانت أهم النفقات الاجتماعية هي دفع أموال الزكاة للمعوزين من الفقراء والمساكين، كما هو محدد شرعا. فوزير يوسف كان يصرف الزكاة في مواضعها [3]. وتصدق يوسف بن عبد المومن، سنة565 هـ، إثر شفائه من مرض ألم به على الضعفاء والوافدين الغرباء وعلى كل من سجل نفسه في قائمة المساكين . وبلغ ما تصدق به على بعض المساكين 30 دينارا[4]. وكان المنصور كثير الصدقة، فأول عمل قام عند توليته، أنه أخرج 100.000 دينار ذهبا فرقها في الضعفاء من بيوتات المغرب[5] . وتصدق، قبيل خروجه لغزوة الأرك،

---

(1) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م. س . ص.359 .

(2) - **نفسه**، ص.409.

(3) - راجع هامش رقم من الزكاة .

(4) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة** ... م. س . ص.333 .

(5) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب** ...م. س . ص.217 .

ب 40.000 دينار، خرج منها نصفها للعامة والباقي في القرابة. وشاهد عبد الواحد المراكشي كيف قسمت مراكش إلى أقسام يفرق بها الأمناء هذه الصدقات على المحتاجين[1] . كما بعث برسالة رسمية إلى مختلف الولايات يوصي فيها بأن يفرق القضاة الزكاة على مستحقيها وإلى "الطلبة والموحدين والأشياخ والأعيان والكافة بإشبيلية" يأمرهم فيها "بدفع جميع ما تحصل في هذا العام من زكاة الفطر للشيخ الفقيه القاضي أبي المكارم - أكرمه الله بتقواه - يوزعه على الضعفاء والمساكين رفقا بهم وتوسعة عليهم"[2]. ويبدو، أن هناك مشروعا لدى يعقوب المنصور لتعزيز التآزر والتكافل الاجتماعي، فرضته ظرفية تاريخية محددة، كما سنرى، ويتجلى في:

محاولة التخفيف من ضائقة الفقر والعوز بتوزيع الصدقات بصورة دورية مع الحرص على تنظيمها ووضع قوائم مضبوطة بالمستحقين لها .

رعاية الأطفال، وتختين الأيتام بمدينة مراكش، لأول مرة في تاريخ الموحدين، مما يعني أن أغلبيتهم من أبناء جنود المصامدة. والاهتمام بالصحة العمومية للموحدين عن طريق تأسيس المارستانات، مثل مارستان مراكش الذي وصفه المراكشي[3] .

هل كانت الأموال الهامة التي تصرف فيهاالموحدين كافية لتغطية هذه النفقات؟

III - الموازنة بين الموارد والنفقات :

نستطيع أن نلمس تطور ميزانية الدولة الموحدية، منذ نشأتها إلى نهايتها، من خلال الروايات الواردة في المصادر. يذكر عبد الواحد المراكشي أن فترة أوج الفائض المالي لدى الموحدين، كان في عهد يوسف بن عبد المومن (558-580 هـ/1163-1185/م)، واستمر ذلك فترة من عهد المنصور ثم عرف تناقصا، خلال عهد محمد الناصر (595-610 هـ)، معتمدا على الوثائق الرسمية لخراج الدولة الموجودة بدار الإشراف بمراكش، سنة 611 هـ [4]. وتؤيد المصادر الأخرى هذا المنحى العام لمالية الموحدين، كما يظهر

---

(1) - المراكشي، **المعجب** ...م.س. ص.411.

(2) - كتاب الدولة المومنية، **رسائل موحدية**، مجموعة بروفنصال... م.س. ص.167 .

(3) - المراكشي، **المعجب**... م.س. ص411 . انظر زنيبر في قضية البر والإحسان، المغرب في العصر الوسيط.. م.س . ص -245-260.
عز الدين موسى، الموحدون في الغرب الإسلامي..م. س . ص.293.

(4) - المراكشي، **المعجب**... م. س. ص.370-371 .

من مبالغ عطاء الموحدين للجيوش وللقضاة وغيرهم، في عهد يوسف ويعقوب المنصورالسابقة الذكر[1]. وظهر التدهور المالي، منذ بداية القرن7 هـ/13م، في حركة الناصر لغزوة العقاب، من خلال فراغ مخازن الشمال المغربي بين رباط الفتح والقصر الكبير[2]. وتأكد عندما لم يستطع أن يدفع عطاءات الجيش في وقتها المعتاد، إذ تأخر الدفع في هذه الحركة، فنقم عليه الجند من الموحدين لذلك ونسبوا هذا التأخير للوزراء، كابن جامع ومساعديه[3]. ثم تأكد مرة أخرى، في عهد خلفه المستنصر، حين حاول ابن القطان أن يغرم أغنياء مدينة مراكش لتوفير ما يجهز به الجيش لإعادة الأمن لأحواز مدينة مراكش[4]. وزاد العجز المالي تفاقما، في الثلاثينيات من القرن7 هـ/13م، "فقد كانت الجباية، سنة 634 هـ/1237م، قليلة حتى بالنسبة للسنة التي قبلها"[5]. واستمر التدهور المالي بسرعة كبيرة حتى أصبح النقد، في عهد المرتضى، من الفضة فقط، واختفى النقد الذهبي[6] . وعندما دخل أبو دبوس مراكش، سنة 664 هـ/1266م، وجد بيت المال فارغا، وكتب رسالة، إلى المرتضى الهارب من مراكش، يسأله عن بيت المال وأين دفن أمواله، وأجابه بأن بيت المال فارغ، وأنه لم يدفن من المال شيئا[7].

---

(1) - راجع ص 188,140 من هذا العمل.

(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ...م. س . ص.259 .

(3) - المراكشي، **المعجب**...م. س . ص.457 .

(4) - ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**... م. س. س8 ، ص.177 .

(5) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ...م. س . ص.338 .

(6) - **نفسه**، ص407,400 -408.

(7) - **نفسه**، ص.442 -443 .

جدول مداخيل بيت مال بعض دول الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط

الدولة	السنة أو الفترة	مقدارها بالدينار أو غيره	تقديرها بالكلغ ذهب
الفاطمية(1)	جبايتها سنة 360 هـ	بين 700000 و 800000 دينار*4	بين2800 و 3200 كلغ
الأموية(2)	جباية الناصر سنة 325 هـ	6245000 دينار*4غ	24980 كلغ تقريبا
المرابطية(3)	ماخلف يوسف بن تاشفين سنة 500 هـ ببيت المال	13000 ربعا من الدراهم* 45000 ربعا من الدنانير*	163800 كلغ فضة 567000 كلغ ذهبا
الموحدية(4)	خراج 3 ولايات من 15 ولاية	350 حمل x (3x50,8)	53340 و 227556 كلغ
المرينية(5)	عهد أبي سعيد	861000 مثقال x4,56غ	39226,160 كلغ
الوطاسية(6)	بداية القرن 16م	300000 مثقالx3,850غ	1155 كلغ

هكذا نقف، على دورة اقتصادية، بدأت مع انطلاق الحركة الموحدية وانتهت بانتهاء الدولة، وهي نفس الدورة التي وصفها ابن خلدون لدى الدول الإسلامية الأخرى. كيف تلاشت أموال الموحدين ووصلت ماليتهم إلى هذا الحد من الإفلاس؟

يعلل ابن خلدون، هذه الدورة الاقتصادية لمالية الدولة، بما سماه باستفحال العمران الذي يؤدي إلى تضخم في قيمة العملة ينتج عنه ارتفاع متزايد في الأسعار، مما يؤدي بدوره إلى ارتفاع متزايد في العطاء، مما يخلق عجزا ماليا نظرا لثبات الموارد المالية[7]. وإذا صح هذا التعليل، فالمسؤول عنه ليس استفحال العمران، كما يرى ابن خلدون، بل تفضي إليه التجارة بما توفره من كتلة وسيولة نقدية. فإذا كانت التجارة تساهم، في قيام الدول، فإنها تساهم في إضعافها في نهاية المطاف بما تخلقه من تضخم مالي.

---

(1) - ابن حوقل، **صورة الأرض** م.س ص.97.94 ونصف هذه الجباية مصدرها مدينة سجلماسة وحدها.
(2) - ابن عذاري، **البيان** ... ج. 2، ص . 17 . بيدر شالميط، " الأندلس مجتمع فيودالي" ترجمة فتحة محمد، مجلة أمل عدد 17ص80.
(3) - ابن أبي زر، **روض القرطاس** .ص. 137. هذا الرقم ليس هو المدخول السنوي، بل المال المدخر إلى سنة 500هـ، وهو مايفسر الفرق الكبير بينه وبين الدخل السنوي للدول الأخرى.
(4) - عن عدد الولايات راجع محمد عبد الله عنان، **عصر المرابطين**...ج.2، ص 415، خراج مدينة الجمعة 100000مثقال حسب الوزان ص .97، والإحصاء الوارد في **روض القرطاس** لابن أبي زرع، ص . 47-48 هو للخراج الموحدي بفاس أيام الناصر.
(5) - المنوني : ورقات عن الحضارة المغربية في عهد بني مرين، م.س،ص.89-90، وانظر قيمة الدينار المريني في ص 97 و ما بعدها من نفس المرجع.
(6) - الوزان : **وصف إفريقيا** ج1ص 223 وعن قيمة المثقال نفس المرجع ص 22.
(7) - ابن خلدون، **المقدمة**... م.س . ص.493-495 .

قد يكون لهذا التفسير حظ من الصواب، ولكنه ليس المسؤول الوحيد عن الخلل المالي في العهد الموحدي، فهناك كذلك، التزايد الديموغرافي الكبير للأرستقراطية الموحدية، إن لم نقل أنها عرفت انفجارا ديموغرافيا حقيقيا. وبالطبع سيكون لذلك أثره في الضغط على الموارد المالية المحدودة التي لم تسطتع مسايرة وتيرة التزايد الديموغرافي لهذه الأرستقراطية، مما خلق تنافسا بينها على المناصب الهامة، وعلى باقي الامتيازات الأخرى[1].

وهناك سبب ثالث، يتجلى في غلبة النفقات العسكرية على غيرها وخاصة نفقات الحركات إلى إفريقية أكثر من نفقات الحركات الأندلسية، بسبب طول الطريق ومدة السفر، إذ استغرقت حركة عبد المومن إلى إفريقية، سنة553 هـ ستة أشهر[2]. بالإضافة إلى صعوبة توفير الماء والمؤن في صحاريها، مما كان يطلب تجنيد عدة آلاف من الرجال بلغ، في حركة عبد المومن المذكورة، 10.000 رجل لتوفير المؤن لجيش بلغ 200 ألف جندي[3]. كما أنه لا يشارك فيها المتطوعون الذين يتحملون الإنفاق على أنفسهم، مثل ما يفعلون في الحركات العسكرية الجهادية الموجهة للأندلس. ويقول محمد الناصر عن حركات أسلافه لإفريقية: "وما منهم إلا من انفق أموالا، وأفنى في الحركة إليها رجالا، والمشقة شديدة والشقة بعيدة"[4]. وبلغ ما أعطاه عبد المومن لبحارة الأسطول وحدهم في الغزوة المذكورة 12.000 دينار مومنية، على إثر انتصارهم سنة554 هـ/1160م[5] . وأنفق يوسف بن عبد المومن في حركته لإفريقية مبالغ هائلة، وكان يعطي في البركة وحدها دون المواساة والعلوفات لعساكره 1.000.000 دينار. ونعلم أن البركة كانت فصلية تعطى كل ثلاثة أشهر. وقد خرج يوم الخميس، 15 شوال سنة 575 هـ/1180م، ورجع عيد الأضحى من السنة الموالية. إذا استغرقت الحركة 13 شهرا، سيكون مجموع المصاريف النقدية (البركة وحدها) أكثر من 4 ملايين دينار. وبلغت نفقات الناصر، في حركته لإفريقية، فيما بين سنتي601 هـ /1205م و 604 هـ/1209م، 120 حملا ذهبا .وإذا كان حمل الجمل يترواح بين 125 و 150 كلغ، فسيكون مجموع المصاريف ما بين 15.000 و18.000 كلغ، أي ما يعادل مدخول خراج إفريقية، في سنة واحدة. ويتحصل من ذلك أننا أمام حركات ملحمية خلقت نزيفا ماليا في خزينة الدولة الموحدية[6].

---

(1) - الفصل6، ص 282-284.
(2) - مجهول، الحلل الموشية ...م. س . ص.152 .
(3) - التجاني، رحلة التجاني... م. س . ص. 346-347 .
(4) - نفسه، ص.361.
(5) - نفسه، ص.349.
(6) - زنيبر محمد. المغرب في العصر الوسيط... م. س . ص.275.

وهناك سبب رابع، يتمثل في سيادة قيم الكرم والجود في المجتمع، وهي قيم تدفع بالدولة ورجالاتها إلى صرف جزء هام، من الفائض الاقتصادي الذي يحتكرونه، لكسب المصطنعين والأولياء، إما في شكل الإطعام أو في هبات وعطايا متنوعة. لأن الرأسمال الرمزي والاجتماعي كان أهم من الرأسمال المادي، إذ كانت السمعة والذكر أهم ما كان الناس يتنافسون عليه. فالحكم، حسب القدماء مبني في جوهره، على الجود والكرم "من جاد ساد، ومن ساد قاد، ومن قاد ملك البلاد"[1]. نعم تشكل القوة المادية ورمزها السيف إحدى وسائل التحكم، ولكنها لا تضمن دائما خضوع الناس، لذا كان الكرم أحد الوسائل التي تستعملها الدولة للتحكم في رقاب الناس بجانب السيف .

تلك بعض العوامل الثانوية في تدهور المالية الموحدية، أما العلة الكبرى للخلل المالي الموحدي، فتتمثل في هيمنة ملكية الدولة على وسائل الإنتاج كما سبق. إذ كانت أموالها تتعرض للاختلاس، ولوحظت هذه الظاهرة مبكرا، في سنة 543 هـ/1149م، حيث كان بعض المسؤولين يعثيون في مخازن الدولة، وانتقلت تدريجيا إلى الخواص بالتواطؤ مع موظفي الدولة، كالمشرفين والعمال والقضاة وغيرهم. ثم إن طريقة استغلال تلك الأملاك، وهي الشركة، لن تعطي أكلها لأنها تمت بين طرفين غير متكافئين، أي بين الأفراد والدولة. وهكذا تكون ملكية الدولة لوسائل الإنتاج الأساسية من بين أسباب الخلل المالي للدولة الموحدية على الأقل، إن لم يكن لدى غيرها، خلال العصر الوسيط.

الخلاصات العامة :

يمكن أن يستنتج مما تقدم، خلاصات عديدة تهم الجانب الاقتصادي والاجتماعي، نقتصر على ذكر الأساسي منها:

فيما يخص الجانب الاقتصادي :

*يعتمد الاقتصاد الموحدي على النشاط الفلاحي ولا تلعب فيه العملة النقدية إلا دورا ثانويا بالرغم من دور التجارة البعيدة المدى آنذاك، بدليل أن أكثر المكافآت المدفوعة للجند المسجلين في الديوان وغيرهم، كانت عينية، كالسهمان من الخراج (الإقطاع) والكسوة والمواساة، ولا يشكل النقدي منها إلا نسبة ضئيلة. كما أن الرعية كانت تؤدي قسطا من الخراج عينا، وحتى ما دفع منه نقدا كان من الفضة، حسب الإجراءات التي

---

(1) - الناصري، **الاستقصا**...م.س، ج 2.، ص 34.

اتخذها عبد المومن، سنة555 هـ[1]. كما تتميز بنية العطاءات بمرونة كبيرة وتستطيع التكيف مع الأزمات الاقتصادية الناتجة عن الكوارث الطبيعية، كالقحط والجفاف وغيره. فلم تكن قيمة بعضها قارة، مثل الإحسان والمواساة التي يتحكم في تحديد مقدارها، مكانة الشخص وحضور المال لدى الخليفة، حسب الوضعية الفلاحية والمالية. ومن هنا يتبين أن القطاع الاقتصادي الأساسي كان هو الفلاحة، بينما كان دور التجارة ثانويا.

*إن ممارسات الدولة المالية للمصادرات والتغريم، لا تترك المجال ولا الوقت الكافي لبروز ونمو فئة اجتماعية دائمة، كالتجار أو الفلاحين يجعل الملكية غير مستقرة، وبالتالي لا يحدث تراكم للثروة، في بيوتات معينة لعدة أجيال. ولا يتوارث المال في نفس البيوتات لمدة طويلة، وخاصة في البوادي حيث تعود ملكية الأرض للدولة في حالة قوتها، وتحل القبائل القوية المتغلبة مكانها في حالة ضعفها، وهكذا دواليك. ويبدو أن ملكية الأرض في السهول الفلاحية وأحواض الأنهار تتغير، من يد لأخرى كل مائة سنة، منذ العهد المرابطي على الأقل. والبيوتات التي بدأت تعرف استقرارا اجتماعيا، لمدة أطول هي البيوتات الدينية، وأبرز مثال عليها هو بيت الأمغاريين بطيط، منذ القرن5 هـ/11م، وبعض البيوتات بالمدن التي جمعت بين الدين والجاه، كبيت عياض، وبيت بني الملجوم بفاس (ثلاث قرون)، وبني عشرة بسلا[2].

*إن احتكار الدولة لملكية أكثر من ثلثي وسائل الإنتاج خلق علاقات اقتصادية متميزة عكستها البنية القانونية. فعندما نتصفح كتب الفقه وكتب الوثائق والفتاوى الفقهية الخاصة بالأنشطة الاقتصادية، نجد أن موضوعات تكوين الشركات بين مالكي وسائل الإنتاج وبين من لا يملكها، هي الغالبة على غيرها من الموضوعات الفقهية وتعدد منها أشكالا متباينة من الشركات، كالشركة المسماة بالقراض في التجارة، وكالمغارسة والمزارعة والمساقاة أو المشاطرة في الفلاحة[3]. ويصدق نفس الشيء على موضوعات الرعي، بل يشمل مجال الشركة حتى مجال تسيير الشؤون العامة للدولة؛ فالولاة والعمال يمارسون مهامهم معتمدين على مدخولهم، من استغلال لجاههم، لا على أجور محددة من بيت المال، ومن تم تتم محاسبتهم من أجل مقاسمتهم في الأموال التي اكتسبوها خلال توليهم. ومعلوم أن جابي الزكاة، في الإسلام، كان يأخذ قسطا منها مقابل أتعابه. وحتى

---

(1) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب** ..م.س .ص.198-199.
(2) - بن شريفة، أسرة بن عشرة، مجلة البحث العلمي، عدد10، الرباط 1982.
(3) - للمزيد من التوسع في أنواع الشركات في الميادين الاقتصادية. انظر فتحة محمد. **النوازل الفقهية والمجتمع**..ص 280 -284 318 -225، 357-369، 374-396

التحالفات السياسية كانت بدورها تخضع لمنطق المقاسمة، كما هو الشأن في مساعدة أبي يوسف المريني، لأبي دبوس سنة663 هـ، الذي عاهده على "أن يكون في خدمته وأن **يقاسمه** ما يجده من الأموال والذخائر المثمنات"[1]. فنحن إذن، أمام مجتمع تهيمن فيه الشركة على العلاقات الاجتماعية والاقتصادية إلى درجة يمكن معها أن نطلق عليه "**مجتمع الشركة**"، وهي شركة قد يتبادر للذهن، للوهلة الأولى، أن التجاء الناس إليها، في مختلف المجالات الاقتصادية، أملته عليهم رغبتهم، في تقاسم احتمالات الربح والخسارة، كما هو الشأن في الاقتصاد المعاصر، بل إن الذي دفع بهم إلى هذه الشركات هو احتكار الدولة والحكام بالدرجة الأولى، والأعيان بصفة عامة، لوسائل الإنتاج من أرض ورأسمال وجاه والتي استمدوها من الدولة. فالأشخاص المعدمون من الرعية أو المقلون مجبرون على الدخول في تلك الشركات وقبول الشروط المجحفة التي يفرضها عليهم ذوو الجاه، لأنها تتم بين طرفين غير متكافئين اجتماعيا واقتصاديا. ومن هنا جاءت الوضعية الاقتصادية والاجتماعية المتدنية للخماس وما أثارته من خلافات نظرية فقهية، طيلة العصر الوسيط وما بعده[2]. أما المردودية الاقتصادية لهذا النوع اللامتكافئ من الشركة فهي ضعيفة، لغياب صاحب الملك الذي هو الدولة عن مجال الانتاج (حقل أو معمل).

فيما يخص الجانب الاجتماعي :

*تقدم لنا العطاءات التي توزعها الدولة صورة عن نوعية بعض العلاقات الاجتماعية السائدة في المجتمع، إذ نلاحظ فيها علاقات العبودية التي تتجلى في امتلاك المخزن للعبيد واستخدامهم في عدة مجالات. وتوجد، إلى جانبها، علاقات مبنية على العمل المأجور نقدا أوعينا، يصعب القول بأنها علاقات من النوع الرأسمالي لأنها ليست تعاقدية؛ بل هي أقرب إلى نوع من الهبة التي يتفضل الحاكم بإعطائها لمستخدميه تكرما منه، كما توحي بذلك أسماؤها : **البركة والمواساة والإحسان**. كما أن مقدارها غير قار بل خاضع لإرادة الحاكم، بالأساس، إن لم يكن لمزاجه أحيانا. ونصادف كذلك، ما يشبه العلاقات التسخيرية التي تميز النظام الفيودالي. زيادة على هيمنة العلاقات القبلية، مثل القرابة الدموية. فنحن أمام مجتمع تتعايش فيه علاقات اجتماعية متباينة، من الصعب الآن، المجازفة بتصنيفه ضمن نمط من أنماط الإنتاج، كما فعل بعض الباحثين[3].

---

(1) - ابن عذاري. **البيان المغرب**... م س. ص.434 .

(2) - هاشم العلوي القاسمي، **مجتمع المغرب الأقصى**...م. س . ص451 .. فتحة محمد، **النوازل الفقهية والمجتمع**..ص.380 - 385.

(3) - انظر بعضا من هذه التصنيفات للمجتمع المغربي، ضريف، المنوني خالد، محاولة تشخيص التشكيلة الاجتماعية المغاربية قبل الحماية، ترجمة محمد الأمين البزاز، وعبد العزيز التمسماني خلوق مجلة دار النيابة عدد 13 سنة.1987 بودريالة نجيب وبول باسكون، "القانون والمجتمع المتعدد الإنتاج"، ترجمة زهور العلوي في المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع عدد 4 سنة1978 م ص. 135-154 .

BEN YOUNES . Rosalie. **recherches sur le Mode de production au temps des Almohades**.Th.3e cycle_ HistParis I, 1986.

*إن الدولة التي تستحوذ على جل الإنتاج الاقتصادي، بحكم تملكها لوسائل الانتاج، توزعه فقط على العصبية الحاكمة من الموحدين، بالدرجة الأولى، والمتحالفين معهم، مما يقسم المجتمع إلى كتلتين كتلة السلطان أي الحكام التي تعيش من بيت المال، وكتلة المحكومين المضطرة لتمويله من الهامش الضيق الذي ترك لها ولا تستفيد من موارده، ولا توجد بين الكتلتين فئة اجتماعية وسيطة. وقد انعكس ذلك على مستوى عيش كل كتلة من سكن وملبس ومركب..ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل تختص كل كتلة بمؤسساتها المتميزة عن الأخرى في القضاء والشرطة والسجون كما سيأتي تفصيله لاحقا.

إذا كانت التنظيمات المالية لا تترجم مبادئ المذهب التومرتي، مثلها مثل التنظيمات السوسيو-سياسية، فهل أثرت تلك المبادئ على البنية الاجتماعية؟

الباب الثاني
تأثير الإصلاح الموحدي على البنيات الاجتماعية وحدوده

الفصل الخامس

تسريع وتيرة التحول من البيت ذي النسب الأمُومي إلى البيت الأبيسي خلال العصر الموحدي

لن تلتزم هذه الدراسة بالإطار الزمني المحدد لموضوعنا، بل ستتجاوزه إلى ما قبل القرن6 هـ/12م، بحثا عن الوضعية السابقة للأسرة بالمغرب؛ وتتجاوزه إلى ما بعد العهد الموحدي حتى نهاية العصر الوسيط .في محاولة لتلمس مصيرها بعد العصر الموحدي، وللوقوف على التغيير الذي طرأ عليها، خلال العصر المذكور .

سنبدأ بدراسة وضعية المرأة الصهاجية الصحراوية، في الفترة الممتدة بين القرنين5هـ/11م و9هـ /15م، لأسباب منهجية فرضتها كمية المادة المصدرية المتاحة، إذ إن المعلومات المتوفرة عن الأسرة، في المصادر الوسيطية المتأخرة، أغزر نسبيا، وكافية لرسم لوحة تقريبية لتنظيمها عند القبائل الصحراوية. وقد تتيح لنا الخصائص المستخلصة منها القيام بمقارنتها مع نظام وضعية البيت والأسرة، في شمال الصحراء، خلال العصر الوسيط، وتوضيح ما انغلق من الإشارات المقتضبة أو المبهمة، في المصادر الوسيطية الأولى أو المتأخرة، والتي تبدو مضللة أحيانا، فضلا عن تحاملها على أوضاع اجتماعية غير مألوفة لديها. مما قد يمكن بالتالي، من فك بعض الألغاز الغامضة، في التاريخ المغربي، على ضوء تلك المعلومات.

I- البيت والمرأة الصنهاجية في العصر الوسيط:

1- في بيئتها الصحراوية:

يبدو أن أفضل مدخل للإحاطة ببعض مميزات الأسرة ونظام القرابة لدى صنهاجة الصحراء، وللتعرف إلى المكانة الاجتماعية للمرأة عند تلك القبائل، هو الانطلاق من شهادة متأخرة من القرن 8 هـ، ولكنها ذات قيمة تاريخية كبرى على أكثر من مستوى؛ فهي شهادة رجل مطلع على أحوال مجتمعات عديدة في آسيا، وخبر كذلك المجتمع الصنهاجي؛ لأنه مكث، بين ظهرانيهم، المدة الكافية للإطلاع على أهم أحوالهم وأوضاعهم، بحكم علاقته الشخصية ببعض أفراد نخبة هذا المجتمع كالقضاة والتجار.

هذه الشهادة هي شهادة الرحالة المغربي ابن بطوطة[1] وسنعزز مضمونها بما ورد في المصادر السابقة لرحلته أو اللاحقة لها، ومقارنة كل ذلك بالدراسات الأنتروبولجية، التي أجريت حول قبائل الطوارق الحالية أحفاد الصنهاجيين، كما هو معلوم.

قام ابن بطوطة بزيارة لمضارب قبائل صنهاجة، سنة 753 هـ/1353م. منطلقا من سجلماسة إلى ولاتة، عبر منجم ملح تغازى. واستقر بمدينة ولاتة مدة غير قصيرة. وقد لاحظ أن أغلب سكانها ينتمون إلى قبيلة مسوفة إحدى أهم القبائل الصنهاجية الكبرى والمشهورة، في الصحراء قبل العصر المرابطي. ولمس عن قرب، عاداتهم الاجتماعية وتقاليدهم، خلال المدة التي قضاها بالمدينة. ومما أثار استغرابه منها واندهاشه، المكانة التي تتمتع بها المرأة هنا، إذ يقول" : وأكثر السكان بها من مسوفة، ولنسائها الجمال الفائق، **وهن أعظم شأنا من الرجال**، وشأن هؤلاء القوم عجيب وأمرهم غريب... [2]". وتتجلى بعض مظاهر هذه المكانة والحرية التي تتمتع بها المرأة المسوفية بالمدينة، في أربع عادات أساسية:

العادة الأولى، هي عادة سفور النساء المسوفيات وعدم الاحتجاب والاحتشام من الرجال مع مواظبتهن على الصلوات.

العادة الثانية، هي عادة الاختلاط بين الجنسين، إذ تربط النساء علاقات صداقة مع الرجال من خارج دائرة ذوي المحارم المحددة شرعا. ويفعل الرجال نفس الشيء مع نساء المدينة. وقدم لنا ابن بطوطة عن هذه الظاهرة نموذجين شاهدهما بنفسه لدى رجلين يعرفهما معرفة جيدة، لارتباطه معهما بعلاقة صداقة، ولهما حيثيات اجتماعية وثقافية مهمة، بمدينة ولاتة، وهما على علم بحكم الشرع، في قضية اختلاط الجنسين.

المثال الأول، شاهده عند رجل غير عادي ينتمي لأهل العلم والدين، ويتقلد منصب القضاء وهو أعلى منصب ديني بالمدينة الإسلامية، إذ وجد حين دخل دار هذا القاضي، امرأة صغيرة السن بديعة الحسن جالسة معه. فهم رحالتنا بالرجوع من حيث أتى، حسب التقاليد التي تربى عليها في مثل هذا الموقف. وعوض أن تستحيي المرأة المذكورة أوتخجل، كما هو مفترض، في نظر رحالتنا، ضحكت من تصرفه هو. وأعلمه القاضي أن

---

(1) - ابن بطوطة أبو عبد الله محمد الطنجي اللواتي، **تحفة النظار في عجائب الأمصار**، تحقيق علي المنتصب، ط 2. سنة، ج 2 ص.777. وكرر نفس الكلام عن قبيلة بردامة، ص. 798 .

(2) - نفسه، نفس الصفحة.

لا داعي لرجوعه معللا ذلك بأنها"صاحبته "، وأكثر من ذلك علم أن نفس القاضي طلب إذنا، سنة 753 هـ، من حاكم المدينة للذهاب إلى الحج برفقة صاحبة أخرى لم تكن من ذوات محارمه، كما يشترط الفقهاء.

المثال الثاني، شهده عند شخص من علية القوم، وهو على علم بدوره بالحكم الديني في المسألة، لكونه عاش شمال الصحراء بالمغرب وبالضبط في سجلماسة. إنه أبو محمد بن يندوكان مرشد القوافل بين سجلماسة وولاتة، ومنها القافلة التي سافر معها ابن بطوطة، إذ دخل عليه يوما داره، فوجد فيها امرأة جالسة على سرير مظلل ومستغرقة في الحديث مع رجل قاعد معها. واستغرب من هذا الوضع المشبوه في نظره، وحين استفسر عنهما، علم أن المرأة هي زوجة صاحبه مرشد القوافل، وأن الرجل القاعد معها صاحبها. وقد استنكر ابن بطوطة الوضع وعاتب صديقه على قبوله اختلاط زوجته بالرجال، مع علمه بحكم الشرع. وحاول المرشد إقناعه بأن تلك العلاقة بريئة لا شبهة ولا تهمة فيها، معللا ذلك باختلاف نساء هذه المدينة، عن نساء بلد ابن بطوطة، شمال المغرب. وقد تعجب هذا الأخير من هذا الرد الغير المقنع بالنسبة إليه، واتهم المرشد بالرعونة، واحتج على قبوله اختلاط زوجته، بغير ذوي محارمها من الرجال، بمقاطعة زيارته في منزله منذ ذلك اليوم؛ ورفض عدة مرات تلبية دعوة المرشد لضيافته. وإذا كان عامة الناس بالمدينة وخاصتهم، من فقهاء وتجار لا تثيرهم ظاهرة الاختلاط بين الجنسين، فان رحالتنا استفزت مشاعره الدينية والقيم الذكورية التي نشأ عليه، والتي تقضي بالفصل بين الرجال والنساء، فلم يكتف بالاحتجاج عليها بلسانه فقط، بل ذهب به الأمر إلى حد مقاطعة من يقبل هذه العادة، كما فعل مع المرشد. وأتهم المسوفيين عموما بأنهم لا غيرة لديهم على نسائهم، وهو اتهام لا أساس له من الصحة، كما سنرى فيما بعد.

العادة الثالثة، هي أن مكان إقامة الزوجين يكون عند أقارب الزوجة. وفي حالة ما إذا كان زوجها غريبا عن قبيلة الزوجة، فإنها لا تقبل أن ترحل معه خارج المدينة أو بعيدا عن مضارب القبيلة. وفي حالة اضطرار الزوج إلى الرحيل بعيدا عن مكان أهل الزوجة، لسبب من الأسباب، لا يتركها أهلها ترحل معه ويطلق الزوجان تلقائيا. وهي نفس العادة التي لاحظها كذلك، عند قبيلة بردامة الصنهاجية" ومن أراد التزوج منهن سكن بهن في أقرب البلاد إليهن، ولا يتجاوز بهن كوكو ولا إيولاتن [1]". وسنشرح، بعد قليل، معنى هذه العادة بالاستعانة بالأنتروبولجية.

---

(1) - نفسه، ص. 798.

العادة الرابعة، لدى مسوفة الصنهاجية تتعلق بالنسب والإرث، إذ لا ينتسب الأبناء لأبيهم ولا يرثونه، وإنما ينتسبون لخالهم ويرثونه. كما لا يرتبط النسب والإرث لديهم، بخط النسب العصبي من جهة الأب، بل بخط النسب الرحمي من جهة الأم. وأكد ابن بطوطة أنه لم يشاهد مثل هذه العادة، في أسفاره الطويلة والعديدة، إلا عند كفار قبائل المليبار بالهند.

واقترن حديث ابن بطوطة، عن هذه العادات الاجتماعية الأربعة للسكان المسوفيين بمدينة ولاتة، بملاحظتين:

الأولى، أن هذه العادات مخالفة لما هو سائد بالمغرب شمال الصحراء، كما يفهم ضمنيا من حواره مع مرشد القافلة السابق الذكر.

والثانية، أنها متناقضة - في نظره - مع الشرع الإسلامي وتعاليمه، ولا يوجد مثلها إلا لدى بعض الكفار بالهند، في حين أن هؤلاء مسلمون متمسكون بدينهم وإقامة شعائره. وكأنه يستغرب من تعايش الشرع والعرف المحلي، جنبا إلى جنب، في هذه المدينة التي يقطنها مسلمون محافظون على أداء الصلوات وفريضة الحج وتعلم الفقه وحفظ القرآن، وبينهم فقهاء وقضاة وحجاج.

قد يتساءل سائل عن مدى صحة هذه المعلومات. ومما قد يدفعه إلى التشكيك في جديتها ومصداقيتها، توفر عدد من المعطيات التاريخية التي لا تسمح نظريا، بتواجد مثل هذه العادات، في هذه المدينة الإسلامية، في منتصف القرن8 هـ /14م. وفي مقدمتها:

أن بلاد صنهاجة عرفت الإسلام، منذ أزيد من خمسة قرون على الأقل، أي منذ بداية القرن3 هـ/9م، حسب رواية ابن خلدون[1]، وهي مدة كافية لترسيخ الأحكام الفقهية في الإرث والنسب على الأقل، وللقضاء على الأعراف المحلية المتبعة في شأن القضيتين المذكورتين، والتي لا يتساهل فيها الفقهاء - كما نعلم - لتعلقها بما يسمونه" حقوق الله"، وليس بحقوق العباد فقط[2]. وحتى إذا سلمنا بصمود تلك الأعراف إلى القرن 5 هـ/11م، فإنه لا يوجد مبرر يسوغ بقاءها بعد ذلك، حين قامت، في منتصف القرن المذكور، الحركة الإصلاحية المرابطية بزعامة الفقيه عبد الله بن ياسين، وانطلقت بالذات من ربوع بلاد

(1) - ابن خلدون، **كتاب العبر**...م س.ج 6ص.182.
(2) - الونشريسي، **المعيار المعرب**...م.س. ج 11ص 293. وما بعدها.

صنهاجة الصحراء، وانتهت إلى قيام الدولة المرابطية المعروفة بتشددها الديني، وبسيطرة الفقهاء على مقاليد الأمور فيها. ولا يعقل، نظريا، أن يحارب المرابطون كتاب الإحياء للغزالي وإحراقه [1] ولا يحاربون مثل هذه الأعراف المنافية للشرع الإسلامي في عقر دارهم، ومهد حركتهم الإصلاحية.

وثالث تلك المعطيات، أن أغلب سكان مدينة ولاتة، كانوا ينتمون لقبيلة مسوفة. وهذه القبيلة تنتمي إلى إحدى القبائل الثلاثة الكبرى التي شكلت عصبية الدولة المرابطية، متزعمة الحركة الإصلاحية الدينية بالصحراء أولا، ثم ببقية بلاد المغرب بعد ذلك؛ وبالتالي من المستبعد منطقيا أن تتزعم قبيلة حركة إصلاحية وتحارب من أجل نشر مبادئها، وتبقى هي في منأى عن تأثير الإصلاح الذي دعت إليه أو ساهمت في فرضه على الآخرين، بقوة السلاح.

بالرغم من وجاهة هذه الاعتراضات التاريخية، فإن جل المعلومات الواردة في شهادة ابن بطوطة، عن العادات الاجتماعية لسكان مدينة ولاتة وغيرهم من الصنهاجيين، تؤكد المصادر التاريخية صحتها، كما تؤكد الدراسات الأنتروبولجية وجودها واستمرارها لدى قبائل التوارگ، إلى القرن العشرين[2]. فإذا أخذنا عادة الاختلاط بين الجنسين لدى قبائل صنهاجة، سنجد - حسب المصادر الوسيطية - أنها كانت مستمرة، منذ القرن الخامس إلى بداية العاشر الهجري، على الأقل. فالبكري يتحدث عنها، سنة 460 هـ 1068/م، بمركز تجاري صحراوي، هو مدينة تادمكا، حيث كانت النساء يقومن باستضافة التجار الواردين على المدينة في منازلهن، لعدم وجود فنادق خاصة لإيوائهم، كما هو الشأن في بعض مدن الشمال. ويقول: "وأهلها بربر مسلمون، وهم يتنقبون كما ينتقب بربر الصحراء...وهن (نساؤهم) يتلقين التجار إذا أقبلوا إلى بلدهم..وهن يبادرن التجار أيتهن تحمله إلى منزلها[3] ". وفي سنة 918 هـ، زار الحسن الوزان مضارب بعض قبائل صنهاجة، فأكد استمرار هذه العادة إلى التاريخ المذكور، إذ يقول: "ونساؤهم ممتلئات لحما وشحما..يتحدثن بظرف يمددن أيدهن عن طيب خاطر، وقد يسمحن للرجال بلثمهن، لكن تعدي ذلك يؤدي إلى قتال الرجال بضراوة متناهية، فهم في ذلك أعقل من بعضنا، لا

---

(1) - انظر عن الملابسات المحيطة بإحراق كتاب الإحياء الدراسة القيمة للأستاذ القبلي محمد، **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**...م س ص.21 - 51

(2) - السويدي محمد، **بدو الطوارق بين الثبات والتغيير**.المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1986 ، ص. 93- 94 .

(3) - مجهول، **الاستبصار**... م. س . ص . 223 .

يقبلون الخدعة في أعراضهم بأي ثمن[1]". فالوزان هنا، لا ينفي الغيرة لدى الصنهاجيين، كما ادعى ابن بطوطة من قبل، بل أكد أن الغيرة على نسائهم، تصل بهم إلى حد الاقتتال فيما بينهم.

أما عادة إرث الأبناء لخالهم بدل أبيهم، فقد أكدت المصادر انتشارها لدى قبائل صنهاجة ولدى بعض جيرانهم من السودان، بجنوب الصحراء، وذلك في الفترة الممتدة بين القرنيين الخامس والثامن الهجريين. فقد كانت هذه العادة سائدة ومتجذرة لدى ملوك غانا، حسب شهادة البكري، سنة 460 هـ، ويقول : "وسيرتهم ومذهبهم أن **الملك** لا يكون إلا في **ابن أخت الملك**، لأنه لا يشك فيه أنه ابن أخته، وهو يشك في ابنه ولا يقطع على صحة اتصاله به[2]" لن نقف الآن عند هذا التبرير الذكوري المغلوط لهذه العادة، ولكن نشير إلى وجودها في مركز تجاري آخر بالصحراء، وهو مدينة تاكدا، بجنوب جبال الهوكّار، وقد زارها ابن بطوطة، سنة 753 هـ/1353م، والتقى بأميرها الصنهاجي بلباس صنهاجة المتميز والذي ورثه عنهم الطوارق الحاليون، واسمه إزار، وقال عن استقباله، من طرف هذا الأمير : "وعليه ملحفة وسراويل وعمامة كلها زرق، **ومعه أولاد أخته وهم الذين يرثون ملكه**[3] ". وذكر كذلك، أن مكان نزوله كان بجوار أم الأمير وأخته، وقد جاءتا وسلمتا عليه، وأشرفتا على استضافته. وهذه عادة أخرى وهي أن من مهام النساء الإشراف على استقبال الضيوف. كيف يمكن تفسير هذه العادات الاجتماعية التي لا حظها ابن بطوطة، لدى قبيلة مسوفة؟

بالرجوع إلى الدراسات الأنثروبولوجية، سنلاحظ تطابقا تاما بين هذه العادات وبين خصائص الأسرة ذات النسب الأمومي، كما حددها الأنتروبولجيون، وأهمها أربعة مميزات أساسية:

أ - الإقامة الخؤولية أو الرحمية:

يكون مكان إقامة الزوجين عند أقارب المرأة من أب أو إخوان. وتستمد الزوجة قوتها من دعم أقاربها من الرجال، ويوفرون لها الحماية من زوجها ومن غيره، الشيء الذي يحد من كل محاولة لممارسة السلطة من طرف الزوج على زوجته، وبالتالي، يسهل عليها تطليق

---

(1) - الوزان الحسن، **وصف إفريقيا**... م. س. ج1.، ص.49.
(2)- البكري، **كتاب المغرب**... م. س. ص. 175 .
(3) - ابن بطوطة، **تحفة النظار** ... م. س. ص. 800.

الزوج. ويستمر الزواج مادام الرجل مقيما معها لديهم، وإذا اضطر - لسبب من الأسباب - لمغادرة مضارب أهل المرأة يعتبر الزوج طالقا بكيفية تلقائية. وبحكم مكان إقامة الزوجين، يعود حق الطلاق للمرأة. وقد لوحظ احتفاظ قبائل التوارگ، أحفاد صنهاجة، بهذه العادة، إذ تقيم الزوجة مع زوجها عند أهلها مدة تتراوح بين 3 و 7 سنوات، قبل أن يستقلا في بيت خاص بهما، ولكن في مكان غير بعيد عن عشيرة المرأة [1] . وهذه الإقامة هي التي تحدد بقية الخصائص الأخرى لأنها مترتبة عنها، وهي:

ب - نسب الأطفال:

يحدد مكان الإقامة الزوجين هوية الأبناء وبواسطتها يكتسبون عضويتهم الاجتماعية، من خلال انتسابهم لبيت الزوجة في حالة انتسابهم للبيت، وهذا ما أشار إليه ابن بطوطة وغيره. وعندما ينسبون لفرد بعينه فإنهم ينسبون لأمهم، وهذه الحالة أغفلها رحالتنا، لكن من حسن الحظ أن الجغرافي ابن حوقل ذكرها، أثناء حديثه عن بني تانماك ملوك مدينة تادمكه، سنة 340 هـ، وقال: "وهم لأمهاتهم من ولد حام" [2]. كما ذكرها النويري، قائلا" :وكذا جميع الملثمين ينقادون إلى نسائهم، ولا **يسمون الرجل إلا بأمه** فيقولون **ابن فلانة** ولا يقولون **ابن فلان**[3] ."وهكذا يدخل الأبناء في عصبية الأم وليس في عصبية الأب. وفي هذه الإقامة الخؤولية يتلقى الأبناء تربيتهم، وخاصة من طرف الجدة التي تلعب، باعتبارها المشرفة على البيت، دورا أساسيا في التأثير على مستقبل أحفادها. وسنتعرض لأمثلة على هذا التأثير طيلة العصر الوسيط شمال الصحراء، كما لدى الأدارسة وغيرهم.

ج -إرث الأبناء لخالهم :

يترتب كذلك على الإقامة الخؤولية أن الأبناء يرثون خالهم، وقد استمرت هذه العادة إلى القرن10هـ/16م، إذ لاحظ البرتغالي المجهول هذه العادة بمملكة التوارگ، وقال: " هذه المملكة لا يرث الحفيد، من الاب، لأن الناس لا يعتبرونه ابنا لهم، بل الحفيد من البنت هو الذي يرث، وهذه العادة هي السائدة عند كل أهالي المملكة[4]". وإذا كانت المصادر لا تذكر

---

(1) - السويدي محمد، **بدو الطوارق** ... مرجع سابق ص. 100 .

(2) - ابن حوقل، **صورة الأرض**... م.س .ص.105.

(3) - النويري، **نهاية الأرب**... م.س .ص.385.

(4) - مجهول برتغالي، **وصف المغرب أيام مولاي أحمد المنصور**...م. س. ص.95.

ما يؤول من الإرث إلى الإناث، وما يؤول منه إلى الذكور. فإن الرجوع، إلى الدراسات الأنتروبولجية عن التوارگ وإلى الإشارات الواردة في المصادر، يسمح باستخلاص بعض الأعراف المنظمة للإرث. أولها، أن الأبناء الذكور لا يرثون من خالهم إلا المسائل المعنوية، مثل السلطة والسيف وغمده ومزواد سفره[1]، أي يرثون الرئاسة أو الزعامة السياسية ورموزها، كالسيف وكل ما يتعلق باختصاص الرجال من سلطة وحرب، كما رأينا عند ملوك غانة، في القرن5 هـ/11م، أو عند أمير مدينة تكادا ازار السابق الذكر. أما الثروة المادية للأسرة، فهي من نصيب البنات وحدهن، تتم قسمتها بينهن حسب أعراف متوارثة لم تصلنا ولكنها ما تزال حية لدى التوارگ إلى وقت قريب[2].

د - مكانة المرأة في المجتمع الصنهاجي:

من الظواهر الناتجة عن الإقامة الخؤولية، ظاهرة تفوق مكانة المرأة الاجتماعية على مكانة الرجل، كما لاحظ ابن بطوطة عن نساء مسوفة: "وهن أعظم شأنا من الرجال" .... ويتجلى هذا التفوق في جل المجالات :

تتمتع المرأة بحرية واسعة في مجتمعها، وتشكل عادة السفور والاختلاط بين الجنسين أحد تجلياتها البارزة. هذا بالإضافة إلى مساهمتها في الأنشطة الاقتصادية العديدة. وقد تصل تلك الحرية إلى درجة تساهل المجتمع، في ظروف محددة، مع المرأة الغير المتزوجة بإقامة علاقات جنسية متحررة. لكن تلك الحرية لم تكن مطلقة، إذ قيدها المجتمع بشرطين: بلوغ المرأة سنا معينة وبالعزوبية، كما يفهم من كلام الإدريسي، عندما ذكر أن المرأة التي لا زوج لها من الرجال، في القرن 6 هـ/12م، بأزكي عاصمة قبيلة لمتونة،" إذا بلغت 40 سنة تصدقت بنفسها ولا تمنع من يريدها[3]». ولا ينبغي فهم ذلك على أنه نوع من الإباحية الجنسية التي تحاول بعض المصادر أن توهمنا بذيوعها، بمنطقة الشمال الإفريقي، بل إن المجتمع المعتمد على الأسرة ذات النسب الأُموميِّ تساهل مع المرأة العانس أو المطلقة وترك لها الحرية فقط حتى تتزوج، وعليها أن تقلع عن ممارساتها تلك، بمجرد زواجها. ولكنها لا تقصى من المجتمع بسبب ممارساتها السابقة

---

(1) - عن التنظيم الاجتماعي والاقتصادي للهوكار، ومسألة تنظيم الإرث المسمى تادبيت. **Encyclopédie Berbère**, T.VIIIp.1255

(2) - **Encyclopédie Berbère**, T.VIIIp.1259-1260

(3) - الإدريسي، نزهة المشتاق ف... م. س. ص. 225.

تلك، إذ تندمج فيه بسهولة كبرى، وتصبح امرأة عادية عندما تتزوج. وقد وجدت مثل هذه العادة، بجبال الأوراس، إلى أوائل القرن العشرين، وتسمى مثل تلك المرأة الحرة " العزرية"[1] . وفي مقابل هذه الحرية تشدد المجتمع الصنهاجي في مسألة الخيانة الزوجية، حسب شهادة الحسن الوزان وغيره[2].

وتتجلى حرية المرأة كذلك، في العادات المنظمة للأحوال الشخصية، مثل امتلاكها لحق الطلاق، وفرض الزواج الأحادي على الرجال، إذ لم تعرف الأسرة ذات النسب الأمومي تعدد الأزواج أو الزوجات. وانعدام التسري، أي اتخاذ الرجال للإماء والجواري. وما ورد، في بعض المصادر، من كون رجال قبائل صنهاجة يجمعون بين تسعة نساء حرائر، في مطلع القرن5 هـ/11م، ما هو إلا مبالغة للتعبير عن جهل هؤلاء الصحراويين بأحكام الشرع، حتى آتاهم عبد الله بن ياسين وبين لهم الحلال والحرام، حسب مبادئ الشريعة الإسلامية الخاصة بالأحوال الشخصية[3]. وهذا شبيه بما نسبه سالوست المؤرخ اللاتيني للموريين والنوميديين، إذ ذكر" أن لكل واحد؟ حسب موارده–عدة نساء، فلبعضهم عشرة منهن، وللآخرين أكثر وللملوك أكثر وأكثر"[4]، وشبيه كذلك بما نسب للأمير البرغواطي أبوعفير معاد بن يونس (175-230 هـ) أنه تزوج 44 امرأة[5]. وتكرر نفس الاتهام، في القرن18 م، إذ اتهم سكان وادي نفيس، بجبال دُرّنْ (الأطلس الكبير الغربي)، من طرف الحضريين ورجال المخزن بتزوج ستة نساء والجمع بينهن[6]، مما يدل على أن مثل هذه الاتهامات المتكررة، منذ القرن2 م إلى القرن18 م، كان المقصود منها النيل والحط من قيمة وسمعة المعنيين بالأمر. وإلا فإن المجتمع المبني على نظام الأسرة ذات النسب الأمومي لا يسمح بتعدد الزوجات، كما هو معروف عند الأنثروبولوجيين. ولكن في المقابل تكثر في هذا المجتمع ظاهرة الطلاق والمراجعة أكثر من ثلاث مرات المحددة، في الإسلام. وفي هذا السياق، يمكن فهم ما تنعت به المصادر عبد الله ابن ياسين، من أنه لا يسمع بامرأة جميلة إلا تزوجها ولا يتعدى في صداقهن أربعة مثاقيل، ومن كونه" **مزواجا مطلاقا** "يتزوج عددا من النساء في الشهر ثم يطلقهن، لأنه لا يستقر به مكان، فكلما تزوج وغادر منطقة

---

(1) - انظر عن مكانة هذه المرأة وأنشطتها، **Encyclopédie Berbère**, T.VIIIp.1223

(2) - الوزان الحسن. **وصف إفريقيا**..م.س.ج ١ص49 ، السويدي، **بدو الطوارق**..م.س ص 94 . وما بعدها.

(3) - ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب**... م.س ص.124.

(4) - سالوست، **حرب يوغرطا**، ترجمة محمد التازي سعود مطبعة محمد الخامس، فاس 1979 ص.163 .

(5) - البكري، **كتاب المغرب**... م. س. ص139 ،، مجهول، **الاستبصار**..م. س. ص.195 .

(6) - التاسافتي عبد الله بن إبراهيم، **رحلة الوافد**... م.س ص.76.

يطلق من طرف زوجته [1]. واستمرت هذه الظاهرة بالصحراء، إلى بداية القرن20 م، إذ أن الشيخ ماء العينين مثلا، تزوج 126 امرأة، وتزوج من قبيلة العروسيين وحدها 12 امرأة[2]. وقد علق المختار السوسي على هذه العادة بقوله : "**وكثرة الزواج والطلاق**، عند الصحراويين، غير مستهجن ولا قادح في المروءة، بل هو عندهم أمر عادي، فقد رأينا من أتباع الشيخ ومن آله، حين انتشارهم بسوس، **كثرة التزوج والطلاق**، فقلما ينزل أحدهم، في قبيلة بالشنَّص، إلا تزوج فيها "[3]. لهذا يكثر الحديث في هذا المجتمع عن الربيب حتى في أنساب القبائل، مثل ينزيماسن ربيب هركاكة[4]، وعن الإخوان من الأم، مثل وريك الذي تنحدر منه قبيلة وريكة، هو ابن توطس من امرأة أخرى[5].

وتتمتع المرأة، كأم أو زوجة أو جدة، بسلطة كبرى في الأسرة، فهي المسؤولة عن استقبال الضيوف طيلة مقامهم بمنزلها، كما رأينا عند الأمير الصنهاجي في تكادا. وتشارك في الشؤون العامة لجماعتها (العشيرة أو القبيلة)، وتقوم بالتدريس والتعليم كما هو الشأن في مدينة تيشيت[6]، وإليها يعود الحفاظ على حرف تفيناغ الأبجدية الأمازيغية لدى التوارگ.

اقتصاديا، سبق القول أن المرأة هي التي ترث الثروة المادية لعائلتها، وهي المسؤولة على الحفاظ عليها، والحريصة على تنميتها بالعمل في بعض المجلات الاقتصادية، كالتجارة أو الخدمات، كما سبق أن رأينا في مدينة تادمكا. ويخبرنا ابن حوقل، في منتصف القرن4 هـ/10م، أن أخت الملك الصنهاجي تينبروتان" كانت أيسر أهل قبيلتها وأكثرهم مالا"، وذكر أنها تملك من الإبل 15.000 يرعاها 100 راع، كل واحد يرعى 150 جملا[7] ولم يفطن هذا المشرقي إلى أن المال المذكور، هو مال الإمارة تتصرف فيه أخت الملك، باعتبارها المالكة له عن طريق الإرث، وتركت الملك والسلطة لأخيها.

---

(1) - البكري، كتاب **المغرب**... م. س . ص169. ابن عذاري، البيان المغرب...م. س . ج 4.، ص. 16 .
(2) - السوسي محمد المختار، **المعسول**...م.س. ج 4ص.92 .
(3) - **نفسه**، ج 4 ص.92.
(4) - ابن عبد الحليم، **الأنساب**... م.س. ص.60.
(5) - **نفسه**، ص.65.
(6) - الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**...م. س. ج2 ، ص. 116.
(7) - ابن حوقل، **صورة الأرض**... م. س. ص.100-101.

في زمن الحرب، تقوم المرأة بأدوار محددة، إذ تتكفل بالأسرى ورعايتهم حتى يتحدد مصيرهم بفدائهم أو إطلاق سراحهم وإيصالهم إلى ذويهم من طرف العجائز، وترافق هذه الرعاية طقوس خاصة لدى التوارگ، تشبه، إلى حد ما، طقوس الاحتفالات في الأعراس[1] ومنها حث الرجال على الاستماتة في القتال، وأحيانا تقود الحرب بنفسها[2]، كما تشرف على المفاوضات أثناء الحرب وبعد انتهاءها[3]، وغير ذلك.

تلك إذن، بعض خصائص الأسرة عند صنهاجة الصحراء. هذا النمط من الأسرة مرت منه جل شعوب العالم، واستمر تواجد بقايا منه إلى عصرنا هذا في بعض جهات العالم، مثل بعض مناطق بالهند والصين وإفريقيا. كيف صمد هذا الشكل من الأسرة لدى القبائل الصنهاجية، طيلة العصر الوسيط، خاصة لدى التوارگ إلى وقت قريب؟ كيف لم تنل منها التطورات التاريخية الهامة التي شهدها المجتمع الصنهاجي، طيلة هذا العصر، كوصول الإسلام، منذ القرن 3هـ/9م، على الأقل، لمنطقتهم، وقيام الحركة الإصلاحية الدينية المرابطية؟

يمكن إرجاع هذا الصمود إلى عوامل عديدة، منها قرب المنطقة من مصادر العبيد والخدم بجنوب الصحراء. وقد اشتهرت منها بلاد لملم طيلة العصر الوسيط، كمنطقة لجلب العبيد[4]. ولم يفت ابن بطوطة نفسه أن يقتني خادمة، خلال رحلته للمنطقة[5] وهذا ما حرر المرأة من الأشغال المنزلية. ومنها نمط العيش المعتمد على الرعي والترحال مما لا يتطلب، مقارنة بالنشاط الزراعي، تشغيل كل أفراد الأسرة رجالا ونساء وأطفالا. وتحررت المرأة لذلك من العمل داخل المنزل وخارجه. ومنها عامل جغرافي - تاريخي، وهو سيادة هذا النمط من الأسرة بالصحراء الكبرى وبشمالها، كمصر وشمال إفريقيا قبل الفتح الإسلامي، وبجنوبها لدى جل قبائل الزنوج إلى وقت غير بعيد من القرن العشرين[6] وأخيرا، انعدام تجمعات حضرية كبرى مكتظة بالسكان، يصعب فيها مراقبة تصرفات الأفراد وتحتم الفصل بين الجنسين.

---

(1) - 30**Encyclopédie Berbère**, T.V Ip.

(2) - بوتشيش القادري، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين**... م س ص.49.

(3) - ابن خلدون، **كتاب العبر** ...م س ج6.، ص.287.

(4) - البكري، **كتاب المغرب**... م س58 .، مجهول، **الاستبصار**..م س ص216 .، ابن حوقل، **صورة الأرض**..م س ص95.، الإدريسي، **نزهة المشتاق**... م س ص.22.

(5) - ابن بطوطة، **تحفة النظار**..م س ص.799.

(6)- مثل قبائل الأشانطي في الجزء الجنوبي من غانا .كريم زكي حسام الدين، **دراسة أنثروبولوجية في الثقافة العربية**، مكتبة الأنكلو مصرية ط الأولى1990 ، ص 105 وما بعدها وانظر مصادره.

كان لسيادة هذا النمط من الأسرة عدة نتائج على أكثر من مستوى، إذ جعلت عملية المثاقفة مع الشعوب الوافدة على الشمال الإفريقي ذات النمط الأبيسي عملية بطيئة، وذلك لتناقض مكانة الجنسين داخل النمطين، وهو ما سيحدث مع الحضارة الإسلامية، وإن كان بدرجة أقل.

أثر هذا النظام الأسري على بقية البنيات الهرم الاجتماعي والسياسي كالقبيلة، إذ جعل التنظيم القبلي الأمازيغي" تَقَبيلْت "يختلف عن القبيلة المشرقية في عدة أمور، كما سنرى.

كما أن صنهاجة سيحملون معهم، في هجراتهم المتكررة، عبر العصور، إلى شمال الصحراء، هذا النظام الأسري. ومما له مغزاه في هذا الشأن أن البكري خصص عدة صفحات من كتابه للحديث عن المرأة الصنهاجية، في الشمال بالمغرب الأوسط، على عهد بني حماد، أي قبل صعود المرابطين بدورهم إلى المغرب الأقصى. ورغم أنه نظر إليها من منظور أخلاقي ذكوري، فإنه يمكن أن يستخلص مما أورده أن المرأة الصنهاجية حافظت على مكانتها وحريتها في بيئتها الجديدة[1]. فهل فعلت المرأة الصحراوية القادمة مع المرابطين نفس الشيء، وحذت حذو نظيرتها بالمغرب الأوسط؟

2 ـ المرأة الصنهاجية في ظل الدولة المرابطية شمال الصحراء:

سبق لباحثين مغاربة وأجانب، أن تنبهوا للصورة المشرقة والمتميزة التي رسمتها المصادر عن المرأة ومكانتها في المجتمع المغربي، وخصوصا خلال العصر المرابطي .لكن اختلفت آراؤهم حول تعليلها وتفسيرها، بعضهم ردها إلى تأثير التنظيم القبلي القائم على مبدإ المساواة والتعادلية بين أفراد القبيلة، والبعض الأخر إلى البيئة الأمازيغية التي اعتادت فيها المرأة على الحرية والنفوذ. وبعضهم إلى المكانة الاقتصادية التي احتلتها المرأة، أو إلى اقتصار هذه المكانة على نساء وبنات الوجهاء وحدهن[2]. ولم يربطوا – في حدود علمي المتواضع – هذه المكانة المتميزة بالنظام الاجتماعي الصنهاجي المعتمد على الأسرة ذات النسب الأمومي. وحتى من لاحظ منهم ظاهرة متعلقة بهذه الأسرة، كانتساب الأبناء لأمهاتهم، مثل انتساب ابن تومرت لأمه أوجدته، اعتبروا ذلك من بقايا الماضي السحيق الذي لم يعد له وجود فعلي على أرض الواقع، خلال العصر الوسيط[3].

---

(1) - البكري. **كتاب المغرب**... م س. ص.184-188.

(2) - انظر ملخصا لهذه الآراء، بوتشيش. **المغرب والأندلس**... ص 47. والمراجع المعتمدة عنده.

(3) - الفرد بيل. **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي**..م. س. ص 50. وما بعدها، ليفي بروفنصال. **الإسلام في المغرب والأندلس**... م س. ص.267.

على الرغم من تأثير الإسلام، منذ زمن بعيد، على مجتمع القبائل الصنهاجية، ومن تأثير التجديد الديني المرابطي، في القرن5 /هـ11م، فقد ظل شكل الأسرة ذات النسب الأُمومِيّ صامدا لدى صنهاجة وتعايش مع الأسرة الأبيسية الوافدة مع الإسلام، إذ لم يتخلص الصنهاجيون كليا من تقاليد وأعراف الأسرة ذات النسب الأُمومِيّ التي رأيناها جزءا منها، عند ابن بطوطة وعند غيره من المؤرخين أو الجغرافيين، رغم انتقال المرأة الصنهاجية إلى بيئة اجتماعية جديدة بالأندلس والمغرب ومخالفة لما ألفته في بيئتها الصحراوية. بل على العكس من ذلك، استغلت الإمكانيات والفرص التي أتاحت لها بيئتها الجديدة لتعزيز مكانتها الاجتماعية السابقة أو الحفاظ عليها، في أسوء الحالات. فشاركت في جل مجالات الحياة العامة بالأندلس والمغرب، وبرزت مواهبها وكفاءتها في المجالات السياسية والإدارية والثقافية والاقتصادية. وفيما يلي بعض مظاهر تلك المكانة، مع ذكر العادات التي تشبثت بها في وسطها الجديد، وذلك، حسب ما تردد، في المصادر التاريخية.

أ. عادة السفور:

احتفظت نساء الملثمين بهذه العادة التي شببن عليها في مواطهن الأصلية بالصحراء، ولم يتخلين عنها في جل المدن الأندلسية والمغربية التي استقررن بها، على الرغم من الضغوطات الاجتماعية المتمثلة في توسع انتشار ظاهرة الحجاب بجل تلك المدن، خلال القرن5 هـ/11م، وعلى الرغم من إلحاح وتشدد أغلب الفقهاء في ذلك، إلى درجة أن الفتاوى الفقهية المغربية والأندلسية لهذا القرن، كانت لا تجيز إمامة الرجل الذي يترك امرأته سافرة غير متحجبة[1]. ولم يؤثر عليها، في هذا الشأن، سيطرة الفقهاء على مقاليد الأمور في الدولة المرابطية أو نفوذهم في المجتمع آنذاك. ومن الأمثلة المشهورة على تشبثهن بهذه العادة، ما وجده المهدي بن تومرت، حوالي سنة 514 هـ، بمراكش، بعد رجوعه من المشرق،" فبينما هو في بعض الأيام في طريقه، إذ رأى أخت أمير المؤمنين في موكبها، ومعها الجواري الحسان عدة كثيرة، وهن مسفرات، **وكانت عادة الملثمين يسفر نساؤهم وجوههن ويلثم الرجال**. فحين رأى النساء كذلك أنكر عليهن وأمرهن بستر وجوههن. وضرب هو وأصحابه دوابهن، فسقطت أخت الأمير عن دابتها، ورفع أمره إلى أمير المسلمين[2]."

---

(1) - الهلالي ياسر، «نظرة المجتمع للمرأة في القرن14/15 م»، في مجلة أمل عدد مزدوج 13/14، ص.76- 98.
(2) - النويري، **نهاية الأرب**... م س ص397-398.. الناصري، **الاستقصا**...ج2 .، ص.81.

ب. عادة انتساب الأبناء لأمهاتهم:

ظل كثير من وجهاء المرابطين، أمراء وزراء ولاة على الأقاليم وقادة عسكريون كبار، ينتسبون إلى أمهاتهم. ولهذا حملت كثير من البيوتات المرابطية الشهيرة اسم الجدة. وإذا كانت هذه العادة غير مستساغة، في المجتمع الذكوري، بمدن الأندلس خاصة، فإن الأرستقراطية المرابطية لم تكن تجد غضاضة في الانتساب للأم، حسب أعرافهم[1]. وقد ذكر لنا البيدق وحده، 13 علما من كبار الشخصيات المرابطية التي انتسبت للأم من قادة عسكريين وولاة على الأقاليم[2] وشخصيات كبيرة في تاريخ الدولة المرابطية. وهذه بعض النماذج من البيوتات المشهورة باسم الجدة:

بيت داوود بن عائشة، نسبة إلى قائد عسكري وسياسي محنك، اعتمدت عليه الدولة المرابطية كثيرا في المهام الكبرى. برز بشكل كبير، في معركة الزلاقة 489 هـ/1096م، ولعب دورا أساسيا في تحقيق الانتصار فيها. كما أسندت له مهمة استنزال ملوك الطوائف وعزلهم، سنة 485 هـ/1292م، وكلف بالدفاع عن الأندلس والإشراف على إدارة بعض الولايات الصعبة وذات المشاكل المعقدة. وقد ورث عنه أبناؤه وأحفاده الكثير من مهامه العسكرية والإدارية، كما ورثوا عنه اسم جدتهم كيوسف بن داوود بن عائشة مثلا[3].

بيت بني صارة، برز منها ثلاثة ولاة وقادة عسكريون أشرفوا على إدارة عدة ولايات بالسوس وتلمسان[4].

---

(1) - النويري، **نهاية الأرب**... م. س . ص. 385.
(2) - وانظر لائحة المنتسبين لأمهاتهم من المرابطين في الصفحة المقابلة.
(3) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**... ص142, 146, 147, 148, 155.156.
(4) - البيدق، **أخبار المهدي**... ص48,91, 93 .

جدول لبعض المنتسبين لأمهاتهم من المرابطين حسب بعض المصادر

اسم الشخص	مكانته أو وظيفته	المصدر
ابن تاسكورت	مسؤول بكرسيف	البيدق : أخبارالمهدي ... ص21.
ابن تاكرطاسين	وال على كرسيف	نفسه، ص.60 ,21
ابن تيزمت (اللبؤة)	وزير وقائد كبير	نفسه، ص 65،28،27، 66 73،67،73.
ابن حواء دفال	حصن تازغدرا	نفسه، ص93.
ابن حواء محمد	من سلاطينهم (أي قائد كبير)	نفسه، ص64 .
ابن صارة أبوبكر	وال على سجلماسة	نفسه، ص52 .
ابن صارة صالح	قائد حصن تيونوين بالسوس	نفسه، ص91،48.
ابن صارة ميمون	قائد حصن تسغمرت	نفسه، ص22 .
ابن عائشة	الأمير إبراهيم ابن يوسف بن تاشفين	نفسه، ص48 .
ابن عائشة الزبير	قائد حصن تازغدرا بلجاغة	نفسه، ص93 .
ابن عائشة داوود	قائد تاكرارت بفزاز	نفسه، ص50 .
ابن فانو محمد	وال تلمسان	نفسه، ص56 .
ابن فانو يحيى	وال بكرسيف	نفسه، ص22،21.
ابن تافلويت أبو بكر	وال وقائد على مرسية	ابن أبى زرع، القرطاس ..ص161.
ابن جنونة	مجهولة	ابن القطان: نظم ... ص190 197.
ابن تورزكين	قائد	نفسه، ص139.
يدر بن ورقاء	قائد ووال	نفسه ص220،109،181.

بيت عبد الله بن فاطمة، نسبة إلى أحد القادة البارزين في الأندلس، كان كذلك واليا على عدد من مدنها كإشبيلية وبلنسية. ومن أشهر أبنائه، محمد بن فاطمة[1].

بيت بني غانية، ينسب أبناؤه إلى أمهم غانية من قبيلة مسوفة. وقد برزوا كعمال على بعض المدن الأندلسية، كقرطبة وبلنسية، في عهد علي بن يوسف. وبعد القضاء على الدولة المرابطية، تزعموا مقاومة الملثمين للنظام الموحدي الجديد. وقد التجأوا، حينا من الدهر، إلى جزر البليار، ومنها انطلقوا فاحتلوا بجاية بالمغرب الأوسط، سنة 580هـ/1185م؛ ثم لجأوا، بعد طردهم من طرف الموحدين، إلى إفريقية، واستمرت ثوراتهم، إلى سنة 606 هـ، ولم يقض على تمردهم نهائيا، إلا بقيام الدولة الحفصية هناك. والطريف في الأمر، أن أخر ثوار بني غانية، كانت له بنتان أوصى بهما بعد انهزامه، أبا زكرياء الحفصي لكي يتكفل بهما، فبنى لهما قصرا عرف بقصر البنات، سمي كذلك لأنهما رفضتا الزواج، لوقوعهما في وصاية أجنبي. وكانتا مشهورتين بأخلاقهما العالية وسلوكهما، حسب شهادة والد ابن خلدون الذي أدركهما، وأثنى على أخلاقهما[2]. ويمكن أن يستخلص من هذه الواقعة أن المرأة الصنهاجية لم تتخل عن مكانتها ونفوذها الاجتماعي، بعد قرنيين من خروجها من موطنها الأصلي بالصحراء.

وإذا كان الأمر هكذا لدى النخبة السياسية والعسكرية المرابطية، فما لاشك فيه أن عادة الانتساب للأم، كانت منتشرة لدى بقية عامة المرابطين الصنهاجيين. وقد ساهمت المرأة المربطية في الحياة العامة.

3- إسهام المرأة المرابطية في الحياة العامة:

أما الميادين التي برزت فيها المرأة المرابطية، فهي كثيرة، نقتصر على ذكر ثلاث منها: المجال الأدبي والحربي والسياسي. ففي المجال الأول، برزت المرأة بشكل كبير، يمكن القول إنها فاقت نظراءها من رجال صنهاجة، وساوت فيه بعض فطاحل شمال الصحراء، إذ وجدت بالمغرب والأندلس مراكز علمية نشيطة، لا يتوفر مثيل لها، في مواطنها الأصلية بالصحراء، مثل فاس ومراكش وقرطبة. فأقبلت على العلم والتعلم، على عادتها في الصحراء، وسهر البعض منهن على نشر العلم والأدب ورعاية العلماء والأدباء ماديا

---

(1) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**... م. س. ص162،160.

ومعنويا. وقد احتفظت لنا المصادر بأسماء نساء شهيرات، تألقن في سماء الثقافة والأدب، ونلن من ذلك نصيبا وحظا وافرا لا يقل عن نصيب الرجال، ومنهن أربعة نساء خلدهن نظمهن للشعر أو بسبب مدح الشعراء لهن:

الأميرة تميمة بنت يوسف بن تاشفين اللمتونية، كانت كاملة الحسن، راجحة العقل، مشهورة بالأدب والكرم، سكنت مدينة فاس، ورآها يوما كاتبها فبهت، وعرفت ما دهاه، وفطنت لما عراه فأنشدته:

هي الشمس مسكنها في السما	فعز الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع إليها الصعود	ولن تستطيع إليك النزول[1]

حواء بنت تاشفين، وهي بنت أخ ليوسف بن تاشفين من أمه، وزوجة القائد المرابطي المشهور سير بن أبي بكر الذي ولي إشبيلية مدة 24 سنة. وكانت هذه السيدة" أديبة شاعرة جليلة ماهرة ذات نباهة وخطر وبديهة وبراعة[2]"، وكانت تعقد المجالس الأدبية ويحضرها كبار شعراء البلاط المرابطي وكتابه، وتستمع إلى أحاديثهم في الشعر وتنتقد عليهم وتحاضرهم، منهم الوزير والفيلسوف مالك بن وهيب الأندلسي والشاعر الكبير ابن القصيرة وغيرهما من كبار أدباء المغرب والأندلس في عصرها الذين كانت تزخر بهم مدينة مراكش. وقد مدحها شعراء كثيرون، منهم الزجال التطيلي الأعمى الذي خصها بقصيدة طويلة نقتبس منها هاذين البيتين لدلالتهما في موضوعنا :

أنثى سما باسمها النادي وكم ذكر	يدعي كأن اسمه من لؤمه لقب
وقلما قلص التأنيث صاحبه	إذا تذكرت الأفعال والنصب[3]

مريم بنت إبراهيم بن تفلويت، زوجة الأمير ابن الطاهر تميم. كانت كثيرة الصدقات والإحسان للمعوزين، وهي أديبة تحفظ جملة من الشعر. وقد خلدها الشاعر أبو إسحاق الخفاجي حين مدحها بقصيدة مطولة[4].

---

(1) - ابن القاضي. جذوة الاقتباس...م س.ص.173-174.
(2) - ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب... م س ج1، ص.56 -57.
(3) - بن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة... م س س 8. ص.494.
(4) - نفسه، س8، ص.498.

ورقاء بنت ينتان الطليطلية، سكنت مدينة فاس، واشتهرت بالأدب والشعر وحفظ القرآن وبراعة الخط. حجت وتوفيت بعد سنة 540 هـ /1146م[1] .

وقد تنافست النساء المرابطيات على الفوز بأمداح الشعراء، كما يبدو من قصة القاضي الأديب الذي مدح حواء زوجة سير السابقة الذكر، فغارت زينب النفزاوية من مدح القاضي لها، فما كان منها إلا أن عزلته عن القضاء لمبالغته في مدحها وتفضيلها على سائر النساء بالجمال والكمال، بدعوى أن ذلك المدح لا يليق بمنزلة القاضي، فاعتذر لها وارتجل:

أنت بالشمس لاحـقة   وهي بالأرض لاصـقة

فمتـى ما مدحـــتهـا   فهي من سير طالـقة[2]

ولم تكن المرأة المرابطية الوحيدة التي كان لها كاتب، فقد كان كذلك قبلها، لزينب النفزاوية وهو من الأدباء الكبار عبد الرحمان بن أسباط (ت 487هـ). عندما أجار البحر من الأندلس" تعلق بحاشية الحرة العليا زينب فاستكتبته "وأقره يوسف كاتبا له بعد وفاتها[3]. ولا تخفى دلالة اتخاذ نساء الأرستقراطية المرابطية للكتاب، من الناحية الاجتماعية والاقتصادية.

في المجال الحربي، كانت المرأة تقوم بأدوار عديدة، قد تخوض الحرب عند الضرورة للدفاع عن النفس. ومن ذلك قصة فانو بنت عمر بن ينتان التي قاومت الموحدين، سنة541هـ/1147م، أثناء احتلالهم لمدينة مراكش بعد حصار دام 9 أشهر، فكانت تحاربهم عند قصر الحجر، ولم يدخلوه حتى استشهدت تلك الفتاة،" وكانت في ذلك اليوم تقاتل الموحدين وهي في هيئة رجل، وكان الموحدون يتعجبون من قتالها، ومن شدة ما أعطاها الله من الشجاعة وهي بكر، فلما ماتت حينئذ دخل القصر، ولم يعرف الموحدون هل هي امرأة حتى ماتت[4]."

---

(1) - **نفسه**، ص.493.

(2) - النويري، **نهاية الأرب**... م. س. ص. 385 - 386.

(3) - ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**... م.س .السفر بـة ص.523.

(4) - البيدق، **أخبار المهدي**... م. س. ص64، ابن عذاري، **البيان المغرب**... ق الموحدين م. س . ص28 - 29 .. مثال آخر ذكره التاسافتي، **رحلة الوافد**... م. س . ص.64.

والمثال الثاني، هي تمكونت بنت سير التي وقعت في أسر الموحدين بصحبة 1500 امرأة مرابطية، سنة 535 هـ، وطالبت مقابلة الخليفة عبد المومن الكومي وذكرته بفضل أبيها سير حين شفع للمهدي بن تومرت لدى علي بن يوسف بمراكش، فراعى لها عبد المومن ذلك، وهم بإطلاق سراحها وحدها، لكنها لم تقبل أن تسرح وحدها وأصرت على أن يطلق معها باقي الأسيرات. وحصل لها ما أرادت فوصلت مراكش معززة مكرمة مع زميلاتها. ورد المرابطون هذا الجميل بإطلاق أسيرات موحديات حصلن في أيديهم، من تلقاء أنفسهم، لأن أعرافهم الأصلية تقضي بحرمة المرأة في الحرب حتى لو كانت من نساء الأعداء[1].

في المجال السياسي والإداري، يوضح مثال زينب النفزاوية المشهورة، في المصادر التاريخية، مشاركة المرأة في تسيير الشؤون السياسية والإدارية لمجتمعها. فقد لاحظ المؤرخون الأقدمون والمحدثون دور هذه السيدة النشيط، وتأثيرها على مسار الأحداث السياسية للدولة المرابطية، خصوصا بجانب قائد عسكري كبير وأمير قوي الشخصية، في حجم يوسف بن تاشفين. لكنهم اختلفوا حول تفسير دور هذه المرأة الذي يبدو، لأول وهلة، استثنائيا وفريدا في تاريخ المرأة بالمغرب الإسلامي. فالمؤرخون القدماء، وهم في الغالب حضريون متشبعون بالثقافة الذكورية، يعزون نجاحها الباهر لفعل قوى غيبية، مثل السحر أو خدمة الجن لها، أو بأنها كاهنة؛ وهو اتهام يتكرر بالنسبة للنساء البارزات في تاريخ المغرب، مثل داهيا الكاهنة، أو عمة حاميم المتنبئ وأخته. أما المستشرقون، مثل شارل أندري جوليان، فيبررون دورها، بما وهبت من قوة الشخصية وبخصالها الفردية من ذكاء وجمال، وبرفضها أن تظل قابعة في ظل الرجل[2]. وفي كلا التعليلين، تبدو زينب امرأة غير عادية وشاذة في مجتمعها. وغاب عن هؤلاء وأولئك، التفسير التاريخي المتمثل في طبيعة المجتمع اللمتوني والأغماتي الذي تسمح عاداته للمرأة، بالمشاركة بجانب الرجل في جل ميادين الحياة العامة. فاستفادت زينب من تلك الأعراف الاجتماعية وأثرت في أحداث زمانها، فهي لم تخرج عن المألوف الاجتماعي في شيء من كل ذلك .

وأول عادة استفادت منها، هي بقاء الزوجة مع أهلها في حالة اضطرار زوجها الغريب إلى الرحيل نهائيا عن المدينة، وتطليقها منه. فقد اضطر زوجها الثالث أبو بكر بن عمر

---

(1) - البيدق، أخبار المهدي... م س. ص.49.
(2) - زنيبر محمد، مذكرات من التراث المغربي، طبعة Nord organisation ، سنة 1984 المجلد2 ، ص.138 .

إلى تطليقها، بعد زواج لم يدم أكثر من 6 أشهر، على ما يبدو، حينما قرر الرجوع إلى الصحراء فجاءة، حوالي سنة 452 هـ، لإخماد فتنة بين لمتونة وكدالة هناك. فأبو بكر لم يعمل إلا على الامتثال للعرف الصنهاجي، في مثل هذه الحالة، وهو التطليق. وليس الأمر، كما تحاول المصادر أن توهمنا به، حين تبرر طلاقه لها بالإشفاق عليها من تحمل مناخ الصحراء القاسي وشظف العيش بها، وأنه أوصاها، رغم المثل المغربي القائل" للي طلقها ما كايورها دار باها"، بالزواج من يوسف بن تاشفين" لأنها امرأة مسعودة ."ولعل رواية ابن عذاري هي أقرب لما وقع،" قيل أنها هي التي **طلبت منه طلاقها** فأسعفها بذلك "[1]. وما يمكن استخلاصه من هذه الحادثة، هو أن قرار أبي بكر بن عمر، عند ما طلقته زينب أو طلقت منه، بالرجوع إلى الصحراء بصفة نهائية، وترك يوسف بن تاشفين نائبا عنه بالمنطقة، هو قرار اختياري، وليس في المسألة غموض، كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين[2] .

كما تنسب لها المصادر، أنها صاحبة فكرة الانقلاب الأبيض الذي أوصل يوسف بن تاشفين إلى قمة هرم السلطة، وذلك بعد أن دفعت بالأمير أبي بكر إلى التخلي عن الزعامة لابن عمه يوسف بالمغرب، بعد رجوعه من الصحراء، وإقناعه بتسليم الأمر له؛ فوضعت خطة مدروسة ومحكمة لهذا الغرض نفذتها بإحكام، معتمدة على معرفتها بنفسية أبي بكر وأخلاقه وميوله السلمية وتقواه وديانته، إذ أوصت يوسف أن يستعرض قوته العسكرية أمامه. وفي نفس الوقت، عرفت كذلك كيف تستميل أنصاره وجنوده بإغداق الهدايا عليهم[3]. وإذا كان يصعب تأكيد وقبول هذه الرواية التي تبدو، للوهلة الأولى، أنها مصطنعة وموضوعة، فهي تبين مشاركة زوجها الجديد في وضع وتنفيذ سياسة فتح المغرب، إذ" كانت القائمة بملكه المدبرة لأمره، الفاتحة بسياستها أكثر بلاد المغرب، وكانت عنوان سعده [4]" . لم يأت مثل هذا الدور السياسي لزينب النفزاوية من فراغ، بل قام على عادات الأسرة ذات النسب الأُمومِيّ التي كانت ما تزال راسخة لدى المرابطين، إلى عصر يوسف بن تاشفين. ولم تكن زينب المرأة المرابطية الوحيدة التي تدخلت، في الشؤون السياسية للدولة، فقد احتفظت النساء المرابطيات بنفوذ قوي في تسيير الأمور

---

(1) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... مصدر سابق ج1، ص.21.
(2) - العروي، **مجمل تاريخ المغرب**..مرجع سابق ص.116.
(3) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... ج1، ص.23-24.
(4) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**...ص. 4-135 ابن عذاري، البيان المغرب...ج4 .. ص.22 .

العامة. فرجوع أبي بكر للصحراء كان استجابة لامرأة عجوز لمتونية حين قالت" : ضيعنا أبو بكر بن عمر بدخوله إلى بلاد المغرب[1]". كما نقلت لنا المصادر تدخل بعض النساء في تعيين أو عزل الموظفين، بل بلغ الأمر ببعضهن، مثل زينب بنت إسحاق الحرة، إلى امتحان القاضي عبد العزيز بالأندلس، وما أدراك ما وظيفية القاضي، الذي كان له نفوذ قوي آنذاك[2]. وقد نقل لنا عبد الواحد المراكشي صدى هذا النفوذ الواسع للمرأة المرابطية، ولو بشكل قدحي ومبالغ فيه، متأثرا في ذلك بما ترسخ لديه من بقايا الدعاية الموحدية المناهضة للمرابطيين. وقال: "ظهر في زمانه (أي علي بن يوسف) مناكر كثيرة وفواحش شنيعة **من استيلاء النساء على الأحوال، واستبدادهن بالأمور**، وكان كل شرير من لص أوقاطع طريق ينتسب إلى امرأة قد جعلها ملجأ ووزرا على ما تقدم [3].
"ويضيف في مكان آخر" **واستولى النساء على الأحوال واستبدادهن بالأمور**، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور [4]. "فالمراكشي يحمل مسؤولية فساد الوضع آنذاك للمرأة المرابطية، وهو أمر يصعب التسليم به هكذا دون تمحيص ونقد تاريخي. إذ إن أسباب الفساد، في أواخر الدولة المرابطية، تكمن في طبيعة البنية الاجتماعية. ويظهر فقط أن المرأة استغلت نفوذها السياسي كما استغله ذوو النفوذ من فقهاء أو جنود، وذلك بحماية أشخاص جشعين.

وتجدر الإشارة إلى أن يوسف بن تاشفين لم يجمع قط، في وقت واحد، بين امرأتين تحت عصمته، على الرغم من أنه عاش مائة سنة. كما لم يتسر إلا بعد احتلال المغرب، وحتى عندما تسرى بأم ابنه على الرومية، فإنها كانت وحيدة، لديه تزوجها بعد وفاة زينب النفزاوية، وعاملها معاملة الزوجة الحرة[5]، إذ كانت له في كل مرحلة من حياته وتنقلاته بين المغرب والصحراء امرأة. ونتيجة لذلك لم يخلف إلا ثلاثة ذكور وبنتين من زوجاته الأربعة. وهذا شأن الأرستقراطية المرابطية على العموم أول الأمر[6].

---

(1) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ...م.س . ج 4 ص. 111-112 .
(2) - القاضي عياض، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، الأجزاء الثلاثة الأخيرة من تحقيق سعيد أعراب، ط وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المملكة المغربية، ج8، ص. 168 .
(3) - المراكشي، **المعجب**... م.س ص.263.
(4) - نفسه..206.
(5) - ابن الأحمر إسماعيل، **بيوتات فاس الكبرى**، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط 1972 ص.30 .
(6) - انظر مقالنا، «الأسرة والتزايد الديموغرافي لدى الأرستقراطيات الحاكمة في المغرب الوسيط»، مجلة كنانيش عدد1 (1999) ص.36-37 .

هكذا لم تغير الحركة الإصلاحية المرابطية، ولا البيئة الجديدة المغربية الأندلسية، تغييرا جذريا كثيرا من عادات المرابطين الاجتماعية، رغم أنها زعزعت أركان الأسرة ذات النسب الأمُومِي لديهم، إذ أصبح إرث الزعامة السياسية يتم لديهم بالمغرب، ابتداء من عهد يوسف بن تاشفين وما بعده، عن طريق الأب وليس عن طريق الأم، كما كان يحدث، في الماضي بمواطنهم الأولى بالصحراء. كما أنه لم يحدث صراع كبير بين الأمراء المرابطين على السلطة، كما هو معتاد في الكيانات السياسية الإسلامية عموما، نتيجة لهذا التحول من شكل للإرث إلى شكل آخر، ونتيجة لتزايد الأمراء بوتيرة معتدلة مقارنة بوتيرة التزايد الديموغرافي لدى لأمراء الموحدين بعدهم[1].

وإذا صمدت تلك الأعراف دهرا طويلا في الصحراء. فماذا عن شمالها؟ كيف كانت وضعية المرأة ونظام الأسرة، قبل القرن السادس، أي قبل التغيير الموحدي؟

II. الأسرة والمرأة شمال الصحراء من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن5 هـ/11م:

1. المرأة في العصور القديمة:

يبدو، من الإشارات التاريخية، أن النظام العائلي السائد لدى صنهاجة هو الذي ساد بشمال الصحراء، قبل القرن7م، وجده الفاتحون المسلمون الأوائل، عند دخولهم بلاد المغرب. ويبدو كذلك، أنه يمتد بجذوره إلى العصور القديمة، ولم تستطع أن تنال منه حضارات الشعوب الوافدة من الشرق أو الشمال أو أن تغيره، رغم اعتمادها كلها على الأسرة الأبيسية (الفينيقيون والقرطاجيون والرومان والوندال والبيزنطيون.)

ومن مؤشرات تواجده على المستوى الديني، أن إله الإنبات أو الإله الزراعي الذي يمثل الأرض وروحها في الشمال الإفريقي، هو من أصل محلي ومؤنث، ويختلف عن إله الإنبات لدى الشعوب الشرقية الذي كان إلها ذكرا. وكانت التضحية البشرية تتم بواسطة الأنثى على عكس التضحية بالذكر في الشرق[2]. وفي العهد الروماني لا زالت إلهة الإنبات محلية وتحمل اسم Tellus، وأكبر آلهة مدينة قرطاج هي الربة تانيت .

---

(1) - انظر مقالنا. «الأسرة والتزايد الديموغرافي لدى الأرستقراطيات الحاكمة في المغرب الوسيط». مجلة كنانيش عدد1 (1999) ص.36-37 .

(2) - بيل الفرد، **الفرق الإسلامية**... مرجع سابق ص.64- 65 .

ويظهر، من خلال دراسة الفسيفساء والابغرافيا في العهد الروماني، أن عدد الآلهة المؤنثة أكثر من عدد الآلهة المذكرة، فعدد الربات حسب الابغرافيا في شمال إفريقيا كلها يصل إلى 34 ربة مقابل 25 إلها ذكرا. وفي المغرب الأقصى بلغ 13 ربة مقابل 7 آلهة، أي أنها ضعف الآلهة المذكرة[1].

كما أن أساطير الإغريق تحدد منطقة تواجد الأمازونيات (أي العديمات الأثداء)، بالشمال الإفريقي، وهن النساء المحاربات، في مجتمع نسوي، يبدو فيه دور الرجل ثانويا جدا مقارنة بدور النساء[2].

كما تؤكد النصوص التاريخية القديمة والإسلامية تجذر الأسرة ذات النسب الأُمومِيّ بشمال إفريقيا، منها أن امرأة نصرانية قادت النصارى بدرعة، في حربهم ضد اليهود[3]. ويتحدث المؤرخ بركوب عن اختصاص النساء دون الرجال بالكهانة، وهي ظاهرة استمرت طيلة العصر الوسيط[4]. وليس من قبيل الصدفة أن ينعت الفاتحون المسلمون أول امرأة اصطدموا بها بالكاهنة، وهو لقب ليس قدحيا، بل يحيل على الحكمة ومعرفة خبايا الأمور، وهو اللقب الذي نعتت به النساء البارزات على مسرح الأحداث السياسية بالمغرب، كزينب النفزاوية السابقة الذكر، وأخت المتنبئ حاميم وأمه ببلاد غمارة.

2 ـ الكاهنة وبداية عملية المثاقفة:

إن الإشارات الواردة، في المصادر الإسلامية، عن المرأة والأسرة، بشمال إفريقيا، جد مقتضبة ومضطربة ومبعثرة في الزمان والمكان، ويزيد من غموضها أن أصحابها يتحاملون على وضع لم يألفوه ولم يفهموه أو أساءوا فهمه على حقيقته، كما سبق الذكر. إذ كانوا يرون، في حرية المرأة وعلو مكانتها، نوعا من الإباحية الجنسية. ويكفي للتأكد من ذلك تصفح كتاب الحسن الوزان مثلا[5]. لكن الدراسة النقدية لهذا النزر اليسير، على ضوء خصائص الأسرة الصنهاجية المشار إليها أعلاه، يسمح باستخلاص بعض المؤشرات على وضعية المرأة والأسرة، بشمال الصحراء، خلال القرون الخمسة الهجرية الأولى، وبفهم ما حدث في العهد الموحدي، في القرن12م وما بعده.

---

(1) - بلكامل البيضاوية، «المرأة من خلال فسيفساء شمال إفريقيا». في مجلة أمل، عدد مزدوج14/13 ، ص .8 - 18.
(2) - سراج أحمد، «المرأة في الأسطورة القديمة». مجلة أمل، عدد مزدوج 14/13 ، ص.19-45.
(3) - التوفيق أحمد، **المجتمع المغربي**... مرجع سابق ص.60.
(4) - E.B. P . 2355
(5) - الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**... ج.1، ص. 70- 71، البكري، **كتاب المغرب**...م س ص.102.

إن أهم ما يتعلق بأخبار المرأة، في القرن1 هـ/7م، حسب مصادرنا، يظهر في حادثين متقاربين.

الحادث الأول، ظهور امرأة على مسرح الأحداث تزعمت المقاومة ضد الفاتحين المسلمين حين اصطدمت الملكة التي نعتت بالكاهنة بالقائد حسان بن النعمان، منطلقة من جبال الأوراس. نحن أمام امرأة تولت الزعامة السياسية والحربية، وسمتها المصادر العربية ملكة، ونعلم أن الزعامة، في الأسرة ذات النسب الأُمومِي حتى في مصر الفرعونية، تكون للذكور، اللهم إذا كانت هناك ظروف خاصة نجهلها، أو أن مصادرنا لم تفهم وضعية هذه المرأة بدقة. وأشار القزويني، إلى ما يشبه هذا، حين ذكر امرأة صنهاجية قادت قبيلتها في حربها مع جيرانها[1]، كما أن التوارگ بجبال الهوكار يعتقدون أن جدتهم تاهيا كانت ملكة [2] ونعلم كذلك أن الحلفين الحربيين في بلاد السوس يحملان اسم امرأتين هما: تݣوزلت (جزولة) وتاحكّات (الصيغة الأمازيغية لحواء) ويعودان على الأقل، إلى ما قبل القرن5 هـ/11م، وليس إلى القرن8 هـ/ 14م، كما ذهب إليه العلامة المختار السوسي، واستمرا إلى بداية القرن20 م[3]. كل هذا يدل على المكانة السياسية وتأثيرها في القرارات السياسية، بشكل مباشر.

الحدث الثاني البارز، في القرن1 هـ/7م، قريب زمنيا من الحدث الأول، يتعلق بأقدم حلف بين العرب الفاتحين والأمازيغ من زناتة المنعقد، حوالي سنة 80 هـ، والذي تلاه وضع الأنساب القبلية الأمازيغية الأولى مدشنة بذلك المثاقفة الجنيالوجية، بين العرب الفاتحين والأهالي من الأمازيغ. وقد ورد ملخص هذا العقد، في أغلب المصادر التاريخية، لتبرر به الأصل العربي لبعض تقبلين الأمازيغية، إن لم يكن لأغلبها. وورد فيه أن بر جد الأمازيغ ينحدر من مضر وكان يقطن فلسطين، قبل رحليه إلى جوار أخواله من البربر. لن نتوقف عند مناقشة محتوى شجرة الأنساب هذه التي لا تحتاج للبرهنة على أنها موضوعة، لكن نسجل أن هذه الرواية تتضمن خصائص الأسرة ذات النسب الأُمومِي وتحمل بصماتها الواضحة، إذ لم يستطع الإخباريون أو النسابة إخفاءها، منها ذكرالنساء في هذه الشجرة، كزوجات أو بنات أو أمهات (خندف والبهاء وتماضرت ويرغ ومامة)، بجانب الرجال على

---

(1) - بوتشيش القادري، المغرب والأندلس... م. س. ص.49 .

(2) - هاشم العلوي القاسمي : مجتمع المغرب الأقصى .ص 220.

(3) - المختار السوسي، الإلغيات...م. س. ج 3 ص 166 وما بعدها. صدقي على ءازايكو: تاريخ المغرب..م. س. ص. 149-162.

غير عادة مثيلاتها من أشجار الأنساب العربية الإسلامية. كما تظهر فيها المرأة، كأم أو زوجة هي صاحبة المبادرة والفاعلة في الأحداث، فقرار زواج بر و"الهروب "به عند أخواله البربر، خوفا عليه من إخوانه، اتخذته أمه وبتواطؤ مع الزوجة، بينما غاب فيها دور الرجل وبدا باهتا وسلبيا. بل إن بعض الأبناء انتسبوا للأم في هذه الشجرة، مثل بنو مامة، وبنو خندف. وأهم من ذلك كله تتضح فيها كذلك الخاصية الأساسية، وهي إقامة الزوجين عند أهل المرأة، أي عند أخوال بر من البربر فانتسب لهم وصاروا عصبيته،" فلحقوا بلاد البربر، وهي فلسطين من أرض الشام، **فنزل بر بين أخواله من البربر في أحسن جوار، وأعز دار، فاعتز بأخواله، وقوي بهم عضده**[1]. "لا تخلو جل الأنساب القبلية المغربية من مثل هذه البصمات، إذ لم يستطع النسابة إخفاءها. فكثير من القبائل أو فروعها تحمل اسم امرأة، مثل تومرت اسم إحدى فروع بني عبد الواد الزناتيين[2]، بنو تليكتان فرع من مطماطة[3]، أو تذكر أن نوعية القرابة التي تربط القبائل بعضها ببعض هي الانحدار من أم واحدة مثل: جزولة، ولمطة، وهسكورة هم إخوة صنهاجة من أمهم المعروفة ببصكى المشهورة بالعرجاء[4]. وكذلك سدراتة هي أخت مغراوة لأمهم[5]، و"وريك (وريكة) هو ابن توطس من امرأة أخرى[6]. "ومن القبائل المشتهرة باسم الأم بنو واسين الذين كانت أمهم مملوكة لمغراو[7]، كما يعرف بنو وزير من المرينيين بأمهم تَرْبيعت[8] . أو نجد الربيب" كينزيماسن هو ربيب بيركاك (هركاكة المصمودية) وليس بولده[9]. "كما تستعمل المصادر جملة" **هربت به أمه عند أخواله أو إلى مكان أخر** " للتأكيد على نشأة الأبناء في رعاية وحماية أخوالهم، مثل بيركاك المذكور[10]، أو تتجاهل الأب نظرا لدوره الثانوي، وتقول بأن أب بعض القبائل غير معروف مثل "صنهاجة ولمطة لا يعرف لهما أب"[11].

---

(1) - ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية** ...م. س . ص. 14-16.
(2) - ابن خلدون يحيى. **بغية الرواد** ... ص. 186.
(3) - ابن خلدون عبد الرحمان، **كتاب العبر**... ج 6 ص.126.
(4) - **نفسه**، ج 6ص. 152.
(5) - **نفسه**، ج 6ص.91.92، 95، 123، 152 ، 203.
(6) - ابن عبد الحليم، **الأنساب**... م س. ص.56 .
(7) - ابن خلدون، **كتاب العبر**... م س. ج 7ص.5 .
(8) - **نفسه**، ج7 ص.176.
(9) - **نفسه**، ص.56 .
(10) - **نفسه**، ص.56.
(11) - **نفسه**، ج 6 ص.203 .

ويمكن ملاحظة بعض خصائص الأسرة ذات النسب الأمُومِي لدى الكيانات السياسية التي ظهرت بالمنطقة بعد القرن الأول الهجري .

3ـ الأسرة والمرأة في" دول ـ المدن "بالمغرب الأقصى (من 1 لقرن2 هـ/ 8م إلى5هـ/11م):

وإذا اقتصرنا على المغرب الأقصى وحده، في الفترة الممتدة بين القرن2 هـ/8م و5هـ/11م، سنجد إشارات متفرقة، في مصادرنا التاريخية، يمكن اتخاذها كمؤشر قوي على وجود الأسرة ذات النسب الأمُومِي أو بقاياها، في الكيانات السياسية التي ظهرت، خلال الحقبة المذكورة بالمغرب، والتي اصطلح بعض المؤرخين على نعتها بدول-المدن[1]. وهي موزعة إلى أربعة جهات:

أ. جهة بلاد القبلة:

حيث قامت إمارة بني مدرار، سنة 140 هـ، ذات التوجه الخارجي الصفري، واتخذت سجلماسة دار ملكها. ورد في المصادر ثلاث إشارات تؤكد وجود بعض عادات الأسرة ذات النسب الأمُومِي أو بعض بقاياها على الأقل، لدى هذه الإمارة. الأولى، إن اثنين من أمرائها عرفوا بأسماء أمهاتهم، أحدهما عرف بابن أروى بنت عبد الرحمان بن رستم والثاني عرف بابن بقية[2]. والثانية هي رعاية الأسرى والمسجونين من طرف النساء، خاصة نساء البيت الحاكم، كما حدث لعبيد الله الشيعي وابنه لما انتهى بهما المطاف، إلى سجلماسة، فسجن من طرف الأمير المدراري،" فإنهما كان محبوسين في غرفة عند مريم بنت مدرار[3]. "الثالثة عادة تدخل المرأة في الشؤون العامة وتأثير الجدة على أحفادها وتوجيههم، إذ إن أبا المنتصر سمغو بن محمد الذي تولى أمارة سجلماسة، سنة 331 هـ، وهو ابن ثلاثة عشرسنة، كانت" جدته تدبر أمره[4]"، فهي تسير الشؤون العامة من خلال وصايتها على حفيدها.

---

(1) - Brignon et autres, Histoire du Maroc; p81

(2) - ابن عذاري، البيان المغرب ... ج 1ص.157.
(3) - نفسه، 1 ص.153.
(4) - البكري، كتاب المغرب... م.س. ص.151.

ب. جهة الشمال:

وهو مجال إمارة الأدارسة . لم تخل هذه الإمارة بدورها من بصمات عادات الأسرة ذات النسب الأمُومِي، بل إن تلك العادات هي التي تفسر، جزئيا، بعض الوقائع من تاريخها، على الأقل في بداياتها الأولى. فالمولى إدريس الغريب القادم من الشرق البعيد والذي لا تربطه بعصبية أوربة أية صلة قرابة، اندمج في هذه القبيلة عندما تزوج امرأة من تالد الأمازيغ وأشرفهم[1]، واستقر بينهم كما كان يستقر الأزواج الغرباء عند أصهارهم من قبل عند الأمازيغ، مثلما فعل لمط قبله حين نزل عند كزول وتزوج ابنته[2]. واحترم إدريس هذه التقاليد كذلك، حين اكتفى بزوجة واحدة، فلم يتسر على ما يبدو، ولم تذكر المصادر شيئا عن ذلك، كما أنه لم يخلف إلا ولدا واحدا، وهذا شبيه بما رأيناه لدى يوسف ابن تاشفين. كما لم تؤثر وفاة إدريس المفاجئة على مصير الإمارة الناشئة ولم تتعرض لهزة سياسية، رغم أنه لم يمض على تأسيسها سوى 3 سنوات فقط، ودون خلف يرثه سوى جنين في بطن أمه. وبما أن المجتمع كانت تسود فيه الأسرة ذات النسب الأمُومِيّ قد انتظر التحالف القبلي المبايع لإدريس أن تضع كنزة مولدها، وانتظر كذلك مدة 16 سنة إلى أن بلغ المولود سن الرشد. وكانت كنزة تدبر الأمور بمساعدة أشياخ أوربة، خلال هذه المدة. ولا يمكن لكنزة وحدها مهما كانت خصالها الشخصية أن تتحكم في توجيه الأحداث لصالح مولودها إذا لم تكن تلك الخصال مسنودة بعادات وأعراف اجتماعية وأهداف سياسية دينية لقبيلة أوربة، ومنها عادة تربية الابن في حضن أخواله الذين يشكلون عصبيته وسنده لحماية الدولة الفتية والسهر على تسيير شؤونها، ومما سهل مأموريتهم الوضع الديني للمولود كحفيد للرسول (ص). وهكذا لا يمكن أن يفهم الطابع الاستثنائي لولادة إدريس وتوليته[3] إلا على ضوء تقاليد الأسرة ذات النسب الأمُومِي المذكورة، وعلى ضوء السياسة الدينية لقبيلة أوربة، إذ ورث إدريس الزعامة السياسية ووطدها بمكانته الدينية. لكن هذه السياسة الدينية بالذات، هي التي فرضت عليه أن يتخلى عن التقاليد المحلية المنظمة للأحوال الشخصية، وأن يتبنى الأسرة الأبيسية وأن يتزوج العديد من النساء وأن يتخذ الجواري، بدليل أنه خلف من الذكور وحدهم، دون الإناث، 12 ولدا[4]. ومن بقايا العادات

---

(1) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**... م.س. ص.24.

(2) - ابن خلدون، **كتاب العبر**... م.س. ج 6ص.93.

(3) - Brignon et autres : **Histoire du Maroc**. p. 62.

(4) - البكري، **كتاب المغرب**... م.س. ص 132.

الأسرة ذات النسب الأُمُومِيّ في تاريخ الإمارة تدخل المرأة في الشؤون العامة للإمارة، مثل دور الأم كنزة، خلال فترة الوصاية على ابنها القاصر، أو عندما أشارت على أحفادها بتقسيم الإمارة بينهم[1]، وظهر هذا الدور مرة أخرى عندما قامت عاتكة بنت علي، بدور كبير في انقاد زوجها من ثورة أهل فاس عليه، ولعبت دورا أساسيا في نقل السلطة بفاس من الفرع الفاسي إلى الفرع الريفي، وبالضبط إلى أبيها[2]. ونجد في الأدارسة من ينتسب لأمه كابن ميالة المعروف أيضا بأبي العيش[3]. أما في مدينة فاس، دار ملكهم، فان سكانها- من ذوي الأصول الأمازيغية والعربية والأندلسية - كانت ما تزال تهيمن لديهم بعض العادات الأسرة ذات النسب الأُمُومِيّ، مثل عادة إرث البنت للثروة المادية لعائلتها، خاصة إذا كات وحيدة فإنها تنفرد بالإرث كله، عوض إرث النصف كما هو معروف في الشرع الإسلامي، إذ أجاز الفقهاء الفاسيون إرث ذوي الأرحام، وصار ذلك من العمل الفقهي لفاس خلال القرن4 هـ/10م[4]. وتبنى الفاطميون بإفريقية نفس العادة، ربما تحت ضغط التقاليد المحلية[5]. ولوحظت كذلك بفاس، حتى القرن6 هـ/12م، عادة الانتساب إلى الأم، إذ اشتهرت عدة بيوت فاسية باسم الأم، كبيت بني زنوبة وبني لبابة في عهد مغرواة[6]، أو بني بيضاء فرع من بيت بين الملجوم الشهير بفاس[7].

أما المجال الخاضع للأدارسة خارج فاس، فالإشارات على هيمنة الأسرة ذات النسب الأُمومِي عديدة واضحة لا غبار عليها، خاصة بجبال الريف، وأهمها ما ذكره البكري، سنة 460 هـ/1068م، حول ثلاث عادات مشهورة عند أهل غمارة. الأولى، عادة الموارية التي تفتخر بها نساؤهم، وهي أن شباب ناحية المرأة الحديثة العهد بالزواج يأخذونها بعد دخول زوجها بها، ويمسكونها عنه لمدة شهر فأكثر، وربما كرروا حجز الزوجة مرارا، حسب جمالها ورغبتهم فيها[8]. وقد أكدها الإدريسي، في منتصف القرن12م[9]. فماذا تعني هذه العادة؟

---

(1) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**... م. س. ص.51.
(2) - نفسه، ص77-78 .. هاشم العلوي القاسمي، **مجتمع المغرب الأقصى**...م. س. 819 .
(3) - البكري، **كتاب المغرب**... م. س. ص. 132 .
(4) - العلوي القاسمي، **مجتمع المغرب الأقصى**... ص 853 . نقلا عن شرح العمل الفاسي للمهدي الوزاني ج 2 ص125.
(5) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... ج1 .. ص159 .. مجهول، **الاستبصار**... ص.205.
(6) - ابن الأحمر إسماعيل، **بيوتات فاس الكبرى**... م.س ص35، 46.
(7) - ابن القاضي، **جذوة الاقتباس**..م. س. ص56 - 59 ..،396 -511 .
(8) - البكري، **كتاب المغرب**... م.س .ص.102.
(9) - الإدريسي، **نزهة المشتاق**... م.س .ص.532 .

ليست زواجا بالهرب المعروف لدى بعض الشعوب، إذ يهرب الزوج بالزوجة[1]. لاشك أن هنالك مبالغة وتحامل من طرف الرواة الذين اعتمد عليهم البكري في وصف عادة اجتماعية غمارية، ويبدو أن التفسير الواقعي للمواربة، هو ما ورد عند فقيه متأخر، من أبناء المنطقة في القرن العاشر الهجري، وهو الفقيه عبد الله الهبطي الذي ألف ألفية للتنديد بالمناكر ولاستنكار البدع المنتشرة بين سكان الريف، ومنها مناكر الأعراس، إذ ذكر أن من عادتهم أن تتزين العروس في بيت أبيها ويحملها شاب (حلُّوف) على ظهره، إلى بيت زوجها وسط جموع من الشبان يغنون ويرقصون ويضربون بالأكف والمزاهر. فإذا دخلوا بها على العريس وقد أحاط به وصفانه(وزراؤه)، تسابق هؤلاء إليها يحلون ما عليها من الملابس والحلي، وهم يدغدغونها ويداعبون صدرها ويقبلونها أمام زوجها الذي خضب يده بالحناء ولبس الأساور وهو في غاية الانشراح؛ ثم تستمر زيارة (الوزراء) للعرسين بنفس طريقة الملاعبة والرقص والغناء سبعة أيام[2]. هكذا يتضح أن الأمر يتعلق بطقوس احتفالات العرس وتحت نظر العريس والمجتمع، وليس حجزا بالقوة للمتزوجة في مكان بعيد عن الأنظار، حسب جمالها ورغبتهم فيها.

العادة الثانية، هي إكرام الرجل منهم لضيفه بأن يؤنسه بنسائه الايامي، كالأخت الثيب أو البنت أو من لم تكن ذات زوج من بيته[3]. هنا كذلك، نقف على تعميم ظاهرة محدودة على كل بلاد غمارة، وهي ما سبق أن رأيناه عند صنهاجة، إذ كان يسمح في حدود معينة بعلاقات جنسية مفتوحة لمن تقدمن في السن، ولوحظت كذلك هذه الظاهرة في جهات أخرى، منها ما ذكره ابن عرفة في نوازله عن جهة القل بالمغرب الأوسط" وبلغني أن بعض البربر ببلاد المغرب الأوسط يبيحون نساءهم للأضياف لإكرامهم جهلا منهم بالتحريم، وهو عندي بمنزلة من مكن زوجته للغير يتمتع بها، ولا يكون طلاقا وتلزمه العقوبة الشديدة[4]. "هذه العادة لا تخلو كذلك من المبالغة والتحامل، إذ إن استقبال الضيوف، هو فعلا من اختصاص النساء، كما أسلفنا، ولكن ليس بهذه الميوعة والخلاعة. إن المجتمع

---

(1) - إبراهيم أبراش. **المؤسسات الوقائع الاجتماعية نظرة تاريخية عالمية**. ط . مؤسسة التغليف والطباعة والتوزيع للشمال الرباط 1994 ص. 110.

(2) - حجي محمد، **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، مطبعة فضالة 1977 ص 218 - 219 . نقلا عن الهبطي.

(3) - البكري، **كتاب المغرب**... م.س ص102 .

(4) - **مختصر أحكام البرزلي** ص557 .. فتحة محمد، **النوازل الفقهية والمجتمع**، النص المرقون ص.729 .

تساهل مع النساء الغير المتزوجات اللائي بلغن سنا متقدمة وحدهن، بربط علاقات جنسية متحررة، وليس الأمر عاما كما توهمنا هذه الروايات الذكورية المتحاملة للبكري وغيره، بل إن عاقبة الزنا عند هذه القبائل، هي القتل كما هو الشأن لدى قبيلة برغواطة. وليس الرجم أو الجلد كما هو معروف شرعا في الإسلام[1]. كما أن عددا من قبائل الريف، كانت في مطلع القرن16 م، تقبل لجوء المجرمين المنفيين إليها من فاس باستثناء الزناة واللصوص فإنها ترفض إعطاءهم حق الإقامة بينهم وإجارتهم، بسبب غيرتهم على أزواجهم[2].

العادة الثالثة، هي تنبؤ المرأة، كتانجيت عمة حاميم التي كانت هي وأخته دجو كاهنتين وساحرتين، إذ كانت قبيلة مجكسة تستغيث بهما في الحروب وعند كل ضائقة أو أزمة[3]. وأكد ابن خلدون هذه العادة في الريف، خلال القرن14 م[4]. وغالب النساء المشهورات، في شمال إفريقيا، خلال العصر الوسيط، ينعتن بالكاهنات، بدءا بالكاهنة أثناء الفتوحات الإسلامية وانتهاء بزينب النفزاوية، في القرن11 م. كما تتحدث المصادر عن عادة سفور النساء بالمدن الإدريسية، كالبصرة وفاس، إذ تذكر جمال نساء تلك المدن، كما فعل البكري مثلا[5].

ج - إمارة برغواطة:

رغم التحامل، على هذه الإمارة من طرف مصادرنا، باعتبارها منحرفة عن الدين الإسلامي، فقد وردت إشارات حول المرأة والأسرة والأعراف المنظمة للأحوال الشخصية لديهم، ورغم تحاملها ومبالغتها، فإنه تفوح منها رائحة الأسرة ذات النسب الأُمومِي، وتظهر في ثلاث عادات، منها: عادة انعدام التسري لديهم. والثانية، هي إباحة الطلاق والمراجعة دون حصر لعدد المرات، والثالثة، كان الزاني يقتل كعقاب له على جريمته. وتظهر مبالغة المصادر وتحاملها في اتهامهم بإباحتهم تعدد الزوجات دون حصر عددهن إلا باستطاعة الرجل المادية والجسمية. ولاشك أن القصد من هذا النوع من

---

(1) - البكري، كتاب المغرب... م.س. ص193 ،. مجهول، الاستبصار... م.س. ص199 .
(2) - مارمول، إفريقيا... م. س. ج ص285،253 ، 286.
(3) - البكري، كتاب المغرب... م. س. ص100 .
(4) - ابن خلدون، كتاب العبر... م. س. ج 6 ص216 .
(5) - البكري، كتاب المغرب... م.س. ص116،110.

الادعاء، هو الحط من قيمة البرغواطيين. والطريف أنهم لا يتزوجون من قريباتهم" إلا من كانت من الدرجة الثالثة "أي بنات العم أو العمة، حسب اصطلاح المسيحيين. فهل يمكن اعتبار هذه العادة من بقايا أثر المسيحية في مذهبهم؟ كما أنهم لا يتزوجون من المسلمين أو يزوجونهم[1].

د. بلاد المصامدة:

هنا حرص بعض مؤلفي كتب التراجم، على غير عادتهم، على ذكر أسماء بعض أمهات المترجم لهم من أعلام وفقهاء المصامدة كذكر تين إزيمر أم عبد الله بن ياسين[2]وتين لامان أم النحوي الجزولي[3]. وهذا يعني أن الرواة الذين أخبروا مؤلفي تلك التراجم ذكروا لهم أسماء أمهاتهم بجانب الآباء، لأن مكانة الأم لا تقل في نظرهم عن مكانة الأب وتستحق أن تذكر. كما نجد أعلاما كثيرين انتسبوا لأمهاتهم كابن تاعظيمت وهو سليمان أحضري كاتب المهدي بن تومرت ومن أهل العشرة في تنظيمات ابن تومرت[4]، وكابن تومرت نفسه، (تومرت تعني الفرحة). بررت بعض المصادر إطلاق التسمية علي المهدى بأنه لقب أطلقته أمه عليه لفرحتها به[5]، أو أطلقته عليه أخته، حسب رواية ابن القطان[6]، فهو تبرير مشكوك فيه، لأن هذا الاسم شائع، خلال العصر الوسيط كاسم للمرأة، حملته بعض بطون القبائل كبني تومرت بطن لقبيلة بني عبد الواد[7]، ومذكور في شجرة أنساب بطن من بطون قبيلة هسكورة[8]وفي ناحية ورزازات حاليا فخذة تعرف بتومرت في قبيلة إمغران. ويطول استعراض من نسبوا إلى أمهاتهم في المجال المصمودي، فقد ذكر التادلي وحده في تشوفه 13 علما منهم[9].

---

(1) - نفسه،139.
(2) - نفسه، ص 165 . تعني حرفيا عبدة أو مملوكة الكبش.
(3)- ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل والتكملة**... م.س. س 8ص.246 .
(4) - البيدق، **المقتبس**... م.س. ص30 .،41.
(5) - نفسه، ص.27 .
(6) - ابن القطان، **نظم الجمان**... م.س. ص.37.
(7) - ابن خلدون يحيى، **بغية الرواد**... م.س. ص.186 .
(8) - ابن عبد الحليم، **الأنساب**... م.س. ص.60.
(9) - ابن الزيات، **التشوف**...ص162، 207، 217، 234، 403، 408، 424، 427 .

انتشار عادة الطلاق والمراجعة بين المصامدة، كما يبدو من اتهام فقهاء المرابطين للمهدي ابن تومرت أنه يبيح رد المطلقة ثلاثا إلى زوجها[1]، ومثل هذا الاتهام لا يمكن أن يبنى على فراغ، ويستبعد أن يفتي المهدي بذلك، كما كان يفتي به بعض الفقهاء بجهات مختلفة بالغرب الإسلامي مقابل الحصول على شيء من المال[2]، منهم القاضي مكسور الجنب الذي اتهم، في عهد يوسف بن عبد المومن بإفريقية، برد المطلقة ثلاثا، مقابل عشر دنانير المال[3]، كما تساهل بعض الفقهاء، بنواحي فاس، خلال القرن7 هـ/13م، أيام راشد بن راشد الوليدي، وأجازوا رجعة المطلقة ثلاثا في لفظ واحد، قبل أن تنكح زوجا آخر، ربما تحت ضغط التقاليد المحلية، وليس فقط بسبب ثمن الفتوى. وسجلت حالات أخرى من التساهل في رجعة المطلقة ثلاثا بإفريقية، وكان البرزلي ينتقد السهولة التي يفتي بها الفقهاء الجهال بالبوادي بإرجاع الزوجة المطلقة ثلاثا مقابل قدر من المال على فتواهم[4]. بل هي عادة راسخة وهي نفس العادة التي ألمحنا لها آنفا عند البرغواطيين، وعند عبد الله بن ياسين الشهير بكثرة الزواج والطلاق.

ولاحظ الوزان، في بداية القرن10 هـ/16م، أن المرأة محترمة من طرف الخصوم المتحاربين بمنطقة في حاحة، ويمكن للأشخاص المنتمين لأحد الأطراف المتصارعة أو للغرباء أن ينتقلوا في أمن وأمان، بين الأطراف المتحاربة، برفقة امرأة أو رجل دين (فقيه أو متصوف)[5]، وهي عادة كانت معروفة لدى قبيلة كتامة، في أواخر القرن 4 هـ، إذ وجد الداعية عبد الله الشيعية، لأول قدومه من المشرق، بطنين من بطونها في حالة حرب فَصُرِفَ مع امرأة حتى اجتاز الفريقان المتحاربان في أمن، دون أن يتجرأ أحد للتعرض له بأذى[6]. وتردد ذكرى مشاركة المرأة المصمودية في الدفاع عن موطنها لدى صاحب رحلة الوافد، إذ نسب بناء سور تينمل إلى فتاة كانت خليفة لأبيها على المدينة، وعندما رجع قاتله حتى برهنت له عن كفاءتها الحربية[7].

---

(1) - ابن القطان، **نظم الجمان**... م.س. ص.10 .

(2) - فتحة محمد، **المجتمع والنوازل الفقهية**... م.س 716. من النص المرقون.

(3) - عزاوي، **رسائل موحدية**..م.س.ص.522.

(4) - **نفسه**، ص717 .. الونشريسي، **المعيار المعرب**... م.س 5 ص.120 .

(5)- الوزان، **وصف إفريقيا**... ج 1ص.77 .

(6) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م.س. ج 1ص.126 .

(7) - التاسافتي عبد الله بن إبراهيم، **رحلة الوافد**... م.س. ص.64 .

III - تسريع وتيرة التحول إلى الأسرة الأبيسية في العصر الموحدي:

تسارعت وتيرة التحول من الأسرة ذات النسب الأُمومِي إلى الأسرة الأبيسية، خلال القرن6 هـ/ 12 م، وهي عملية بدأت مع دخول الإسلام للمغرب، إذ تمكن من خلخلة أسس الأسرة ذات النسب الأُمُوميّ وبدأت تنهار تدريجيا لصالح الترسيخ التدريجي لنموذج الأسرة الأبيسية، ونجح الإسلام فيما فشلت الحضارات الأخرى في تحقيقه. وربما كانت للمبادئ الإسلامية الداعية للمساواة بين الفاتحين والأهالي فضل كبير في هذا التحول. وإذا كان من الصعب تتبع مراحل هذا التحول في نمط الأسرة بدقة كبيرة في الزمان والمكان، ومعرفة العادات التي سبقت في الاختفاء قبل غيرها، نظرا لقلة المادة المصدرية اللازمة لذلك، فإنه مع ذلك يمكن رسم خطوطه العامة، من خلال الإشارات التاريخية المتوفرة. وأهم مميزات مسلسل هذا التحول:

1 - خصائص تحول الأسرة قبل القرن 12 م:

إن التحول بدأ بالمسائل التي تبدو وكأنها بسيطة، ولكنها في الواقع كانت جوهرية، كمسألة تغيير مكان إقامة الزوجين، وانتهى بمسائل اعتبرت معقدة كقضية الإرث. وللتكيف مع الوضعية الجديدة المتمثلة في انتقال الزوجة للسكن مع زوجها عند أقارب الرجل، لجأ سكان بعض المدن، للتخفيف من حدة هذا التغيير المفاجئ على بناتهم، إلى عادة جديدة، وهي سماح الآباء لأزواج بناتهن بالإقامة في ملك أزواجهم والتصرف في مالهن، وبررت تلك العادة ب"الإرفاق"، كما حدث في إفريقيا بمدينة قفصة، أو" كالعادة الجارية بزويلة والمهدية أنهم يسوقون مع النساء في شوارهن دارا يسكن فيها الزوج مع زوجته[1]"، وظلت هذه العادة مستمرة ببعض الوحات إلى بداية القرن16 م ولاحظ الحسن الوزان عند أهل مدينة تقرت "الذين" يزوجون بناتهم للغرباء، ومن عاداتهم أن يمنحوهن مهرا مكونا من عقارات، كما هو الشأن في أروبا[2]. "حول تغيير مكان إقامة الزوجين الانتساب للأم إلى الانتساب للأب، ولكن هذا التحول التدريجي اصطدم بمسألة الإرث المعقدة وتعثر فيها زمنا طويلا، إذ كانت البنت هي وحدها التي ترث الثروة المادية في

(1) - الونشريسي. المعيار المعرب... م. س. ج 9 ص. 150 .
(2) - الوزان. وصف إفريقيا...م. س. ج 2ص.135 .

الشكل الأسري السابق [1]. وإذا كانت وحيدة وانفردت بالإرث وحدها، كما سبق أن رأينا بفاس، في القرن4 هـ/10م، ولدى الفاطميين [2]. ففرض عليها الوضع الجديد أن تتخلى عن الإرث لعائلتها و"**تتركه لها حياء**"[3]. لأنه كان من العادة أن لا يقسم الإرث بين الجنسين في النظام السابق، ويترك الإرث كله للجنس الذي يبقى مع الأهل، وهو في الحالة الجديدة الذكور، فحرمت منه الإناث، وورث الذكور الثروة وأضافوها للسلطة التي كانت لهم من قبل. وربما أصبح حرمان البنت من الإرث عادة مستقرة، ابتداء من القرن5 هـ/11م، إذ إنها ظهرت، لأول مرة، في أقدم المناطق احتكاكا بالإسلام، وأكثر المناطق التي استوطنها العرب الفاتحون بشمال إفريقيا، والتي لم تعرف إلا المذهب السني - باستثناء المذهب الشيعي خلال العهد الفاطمي - وهي إفريقية(تونس الحالية). فقد تواطأ أهل قفصة ببلاد القبلة، منذ القرن المذكور، على حرمان البنت من الإرث، وظلت مستمرة بها، خلال القرن8 هـ/14م[4] . هكذا يتضح أن عادة حرمان البنت من الإرث لم تكن عادة قديمة جدا، كما ذهب إليه جل الباحثين[5]، بل ادعت الباحثة Germaine Tillion أن البربر، بالأطلس الكبير، لم يستجيبوا للثورة القرآنية عندما تشبثوا بعادة حرمان البنت من الإرث إذا تعلق الأمر بالأرض، كما يحدث ببقية بلدان شمال إفرقيا[6]، ولم تعلم أن سبب هذه العادة كان نتيجة التغيير الذي أدخله الإسلام على نظام القرابة الأمازيغي. أما عادة إرث الخال القديمة فقد أجازها الفقهاء في حالة إذا لم يكن له وريث[7].

الميزة الثانية لمسلسل التحول هذا، هو أنه بدأ بالمدن أولا، ومن الشمال إلى الجنوب، ثم السهول، ثم الجبال، وصمد بالمناطق الصحراوية إلى القرن العشرين، بل إن القبائل العربية التي نزحت إلى الصحراء، خلال العصر الوسيط ، تأثرت بتقاليد الصنهاجيين في هذا المجال، حسب ما أكدته الدراسات الأنتربولوجية[8].

---

(1) - راجع ص 214. من هذا العمل.

(2) - نفسه، ص من هذا العمل.

(3) - الونشريسي، **المعيار المعرب**..م. س. ج 11ص293، وعن حرمان البنات من الإرث نفسه. 7/60, 70, 267, 444 . 8/44 9/153.

(4) - نفسه، ج 11 ص.293 .

(5) - محمد عبد الله عنان، **عصر المرابطين والموحدين**... مرجع سابق ج 1 ص.246 .

(6) - التوفيق أحمد، «الفتوى في مواجهة لتاريخ»، ضمن التاريخ وأدب النوازل، منشورات كلية الآداب بالرباط1995 ، ص.200.

(7) - الونشريسي، **المعيار المعرب** ... م.س. ج 9ص .227.

(8) - الحيان محمد، «قبائل التوارگ أمومية النسب»، مداخلة في إطار الأنشطة التي تنظمها شعبة العلوم الاجتماعية بالعهد الجامعي للبحث العلمي، نشر ملخص لها في جريدة العلم عدد 16426 السنة 49 بتاريخ.18-4-1995 .

الميزة الثالثة، أنه كان تحولا بطيئا وتعايش النظامان الأسريان معا طيلة العصر الوسيط، بهذه الدرجة أو تلك، وحسب المناطق. ويشكل شهد العصر الموحدي، في القرن12م، استثناء إذ شهد تسريعا نسبيا لوتيرة التحول بسبب إجراءات الموحدين الدينية.

2- إجراءات الموحدين الدينية تجاه المرأة:

يعود هذا لتسريع إلى الإجراءات التي اتخذها الموحدون تبعا لمقتضيات المذهب التومرتي وموقفه من المرأة. كان من بين ما يحرص ابن تومرت على تغييره من المنكرات والبدع، في طريق العودة من المشرق، في أوائل القرن 6 هـ/12م، عادة الاختلاط بين الجنسين، وتبرج المرأة، إذ فرق بالعصي بين النساء والرجال، يوم عيد الفطر بمصلى بجاية، وفعل نفس الشيء، في مدينة تلمسان، بمناسبة إحدى الأعراس. واستنكر تبرج بائعات اللبن وغيره، في قرية صاء (تاوريرت الحالية). وحاول أن ينهي نساء ورجال دشر قلال، الواقع في بلاد غياثة، عن الاختلاط فلم يستجيبوا له، بل هددوه بأن يمثلوا به وبأصحابه إذا لم يذهب لحال سبيله[1]. وبلغ به الأمر في مراكش، أن تجرأ على نهي الأميرة أخت علي بن يوسف عن السفور[2].

وحرص الموحدون، عند قيام دولتهم، على الفصل بين الرجال والنساء، على الأقل بين المصامدة المنظمين لهم، كما فعلوا ، سنة 528 هـ خلال الاجتماع الذي عقدوه لأخذ البيعة العامة لعبد المومن وحضرته النساء، وفصل بينهن وبين الرجال بالركائز [3]. وعندما توطدت سلطتهم حرصوا على تعليم المرأة لقواعد دينها، فلاشك أنهم حاربوا مثل ابن تومرت، في حدود إمكانهم، ظاهرة السفور والاختلاط، إذ كانوا متشددين في تطبيق الشرع على الأحوال الشخصية، مثلما يبدو من رسالة الفصول، التي نهى فيها عن المنكر بصفة عامة، وركز على بعض مظاهره، كبيع الإماء من غير استبراء من طرف بعض النخاسين[4].

---

(1) - البيدق، أخبار المهدي...م. س . ص13،20، 21، 22.
(2) - النويري، نهاية الأرب... م. س .ص397 - 398.. الناصري، الاستقصا... م.س . ج 2 ص.81.
(3) - البيدق، أخبار المهدي... م.س . ص.45.
(4) - عزاوي، رسائل موحدية... م. س . ص. 66.

ومن آثار الإجراءات التي اتخذوها، تقلص عادة السفور بالمدن. وبدأ الكلام عن المرأة يقل، في مصادرنا التاريخية، بشكل تصاعدي، إلى أن كادت تنعدم الإشارات إليها، في القرن التاسع عشر. ومنها تناقص عدد المنتسبين لأمهاتهم، بعد القرن السادس، كما يلاحظ لدى العصبية الموحدية مقارنة بالمرابطين، لأن العصبية الموحدية نجحت في تبني أعراف الأسرة الأبيسية، في صورتها العربية، من تعدد الزوجات، والتسري، وتطبيق الشرع الإسلامي على الأحوال الشخصية.

وإذا ساهم الموحدون في تغيير الشكل الأسري بالمغرب، فإنهم لم يحالفهم النجاح كثيرا إلا في المدن . أما البوادي فقد استمرت فيها بعض تقاليد الشكل القديم من الأسرة، مع اختلاف في ذلك بين الجهات والمناطق المغربية، فالقبائل الزناتية، كانت ما تزال تحتفظ ببعض منها، فقد تشفعت عجائز قبيلة كومية لدى عبد المومن في الشيخ بوكنون، الذي كان ضمن 10 أشياخ قرر عبد المومن قتلهم[1]. وكانت العجائز من نساء المرينيين، عندما دخلوا المغرب، تتكلفن برعاية أسرى الحرب حتى يتقرر مصيرهم، وإيصالهم إلى الخصم، وقد لوحظ تطبيق هذا العرف بمناسبة أول انتصار لهم على الموحدين، سنة 613 هـ/1217م[2]. ونلاحظ لدى المرينيين قلة تعدد الزوجات، في بداية دولتهم واتخاذ الجواري. كما انتسب البعض من أمرائهم لأمهاتهم، مثل يعقوب بن عبد الحق المشتهر بابن تبطويت، نسبة إلى قبيلة بطوية[3]. واحتفظوا للنساء بدورهن القديم في حركاتهم، والمتمثل في الغناء الحربي المسمى ب"تازوكايت"[4]، ويتلخص في إنشاد مجموعة من النساء، أثناء الحركة، أشعارا تذكر بالانتصارات وبالبطولات والأمجاد السابقة لقومهم، وحث الرجال على الاستماتة في الحرب، وبذل النفس دفاعا عن الحمى والحريم أو لطلب الثأر، سواء أثناء تنقل الحركة أو أثناء الحرب، كما حدث سنة666هـ/1268م، أثناء حرب المرينيين مع بني عبد الواد بوادي تلاغ، إذ" اصطفت عيالات الفريقين خلف الجيوش في الهوادج والمراكب والقباب المزينات باديات الوجوه

---

(1) - البيدق، **أخبار المهدي**... م.س. ص.56 .

(2)- ابن عذاري، **البيان المغرب**..قسم الموحدين ص 269. وقد فهم الأستاذ محمد القبلي هذه العادة بشكل مغاير حين أول كلمة العجائز على أنها تعني "les anciens" في العشيرة قبل أن يقتبس المرينيون كلمة الشيخ من الموحدين، راجع، Kably, **société,** ... op cité. p5,59,183

(3) - النويري، **نهاية الأرب**... م.س. ص.453.

(4) - ابن خلدون، **المقدمة**... م.س. ص.458 .

عليهن الحلل وثياب الوشي يحرضن الأبطال على الأبطال. وبرزت الغانيات من القباب[1]. "وكان الأمير يعقوب قد أمر جميع قبائل بني مرين أن يخرجوا إلى الحرب بجميع عيالاتهم، سنة670 هـ/1272م[2]، واستمرت هذه العادة لديهم إلى عهد أبي عنان، أثناء حركته سنة758 هـ/1357م، لإفريقية وبلاد الزاب[3]. ونجد سوط النساء أم يغمراسن أمير بنى عبد الواد، تتكلف بالمفاوضات مع الأمير أبي زكرياء الحفصي، سنة639 هـ/1242م، حول شروط الصلح وعودة ابنها لولاية مدينة تلمسان[4].

وقد بقيت المرأة تتمتع بالحرمة أثناء صراع القبائل فيما بينها، حتى بداية القرن العاشر الهجري. ففي نواحي دمنات المدينة حاضرة هسكورة لا يستطيع أحد - بسبب الحرب فيها- أن يسير في البادية إلى حقله، إلا النساء والعبيد الذين ينتقلون بحرية[5]. وفي إقليم حاحة" إذا أراد أحد الأهالي أن ينتقل من مكان لأخر، فعليه أن يصحب معه بعض رجال الدين أو النساء من فريق خصومه[6]. "وفي جبل سكيم، وقع أسرى الوطاسيين في يد الصنهاجيين فـ"مثلت بهم نساؤهم كعلامة على الإذلال، وذلك أن الرجال يترفعون عن قتل الأسرى ويضعونهم بيد النساء[7]. "هنا مرة أخرى لم يفهم الحسن الوزان عادة تكليف النساء بأسرى الحرب، واعتقد أن ذلك من أجل النكاية بهم وإهانتهم. وحسب مارمول كان السبب في ثورة كنفيسة على السعديين، فتاة شجعت شباب بلدها على ذلك[8].

هكذا يتضح أن بعض بقايا عادات الأسرة ذات النسب الأُمومِي ظلت مستمرة، طيلة العصر الوسيط إلى القرن العشرين، وتعايشت مع الشكل الجديد للأسرة الأبيسية، ومن بقاياها - حسب علمي - إطلاق كلمة الخال على كل شخص غريب في العامية المغربية وفي الأمازيغية على السواء، ومنها تسوق النساء وإقامة أسواق خاصة بهن بجبال الريف وببعض مناطق الأطلس الصغير[9]. ونجد في ببلاد سوس عرف" تمازالت "التي ترجمها فقهاء

---

(1) - ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**... م.س .ص.115 .
(2) - **نفسه**، ص.129 .
(3) - ابن الحاج النميري، **فيض العباب**... م.س .ص.68 -69 .
(4) - ابن خلدون، **كتاب العبر**..م.س 6 .ج ص.287.
(5) - الوزان الحسن، **وصف إفريقيا**... م.س .ج 1ص.130 .
(6) - **نفسه**، ص 77 و 146.
(7) - **نفسه**، ص.147 .
(8) - مارمول، **إفريقيا**... م.س .ج 2ص.63 -64 .
(9) - آفا عمر، **مسألة النقود في المغرب في القرن**... 19 م.س .ص.86 .

المنطقة ترجمة حرفية ب"السعاية أو الجراية"، أو ما سماه فقهاء الشمال" حق الشقا"، وتعني في عرفهم حق المرأة التي طلقها زوجها، أو توفي عنها، في الحصول على نصف الثروة التي اكتسبها الزوجان مدة زواجهما كمقابل لأتعابها[1] ..

3 - تعايش الشكلين خلال بقية العصر الوسيط :

وأحسن مثال لتعايش نمطي الأسرة، جنبا إلى جنب، تتجلى في نشأة وتربية الصوفي يعزّى ويهدَى، المزداد بآسا، سنة 646 هـ، إذ وقع الخلاف بين جدتيه، جدته لأبيه وجدته لأمه حول كثير من أمور كثيرة تهم تنشئة وتربية الطفل ومستقبله. فأصرت جدته من أبيه، هي وأهلها، وكانت عالمة، على تسميته بمحمد، وأصرت جدته من أمه هي وأهلها، على تسميته بيعزَى وغلب عليه هذا الاسم، وفي الأخير، رجحت كفة الجدة من الأم لأنها هي التي أشرفت على تربيته ودراسته وأحسنت إليه[2].

إذا كان قد حدث تغيير تدريجي، في الأسرة الخلية الاجتماعية الأولى، واستغرق ذلك التغيير العصر الوسيط بأكمله، في أغلبية البوادي المغربية، وإذا كان نصيب الإصلاح الموحدي في هذا التغيير محدودا. فما هو حجم التغيير الذي طال المؤسسات الاجتماعية الأخرى بعد الأسرة، من جراء الإصلاح الموحدي، وفي مقدمتها" تقبيلت"؟

---

(1) - الملكي الحسين. "تمازالت"، مقال في مجلة تيفاوت عدد 7يناير - فبرائر 1996 ص . 58.

(2) - المختار السوسي، سوس العالمة..م. س.ج 10 ص.167.

الفصل السادس
إسهام الإصلاح الموحدي في تحويل تَقْبِيلْتْ إلى القبيلة

كانت تقبيلت من البنيات الأساسية السائدة في المجتمع المغربي قبل قيام الحركة الإصلاحية الموحدية، في القرن12 م، نجد أن آثارها كانت ملموسة حتى في بعض المدن المغربية المهمة، في القرن4 هـ/10م، حسب شهادة ابن حوقل وغيره، كما سنبين. وقبل الشروع في تتبع ورصد تأثير ذلك الإصلاح على البنى القبلية، نتساءل عن ماهية القبلية، وهو تساؤل كان قد طرحه بعض الباحثين، من قبل، كالباحث جاك بيرك وغيره[1].

إننا بازاء ظاهرة اجتماعية متميزة، تثمل في استمرارية البنية القبيلة في صيرورة التاريخ المغربي، خلال العصر الوسيط وما بعده. أعطى الباحثون تفسيرات متعددة لهذه الظاهرة، واستعملوا مناهج علمية مختلفة لمقاربتها، منها المنهج الاستقرائي الذي استعمله ابن خلدون، في القرن8 هـ/14م، والمنهج البنيوي الوظيفي الذي استخدمه السوسيولوجيون، مثل روبير مونطاني أو الأنثروبولوجيون الذين يعتمدون النظرية الانقسامية لتفسير وفهم المجتمع المغربي، أمثال كلنير [2]. والمنهج الماركسي، مثل دراسة إيف لاكوست. وهناك من زاوج بين مناهج متعددة، كالباحث جاك بيرك[3] وبول باسكون[4]. أما الدراسات ذات المنهج التاريخي فلا زالت محتشمة وقليلة[5]. نعرف الآن أهمية تلك المناهج وكذلك حدودها وجوانب القصور فيها، ونعلم لماذا استعصى على بعضها فهم الظاهرة القبيلة. فبالنسبة للمنهج الماركسي ظل متشبثا بالأدبيات الماركسية،

---

(1) - جاك بيرك، «في مدلول القبيلة»، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، منشور ضمن الأنتروبولوجيا والتاريخ. ط.دار توبقال -الدار البيضاء1988 . ص113-125 .. التوفيق أحمد، **المجتمع المغربي**...ص .105-12 .

Berque, **Structure sociale du Haut Atlas** P.U.F, Paris, p. 20, 93,60.

(3) - كلينر ارنست، «السلطة السياسية والوظيفة الدينية في البوادي المغربية»، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، منشور ضمن الأنتروبولوجيا والتاريخ ط.دار توبقال- الدار البيضاء .1988

(3) - خاصة في مؤلفيه.

Maghreb histoire et sociétés, S.N.E.D.,Ducolot 1974. **Structures sociales du Haut-Atalas.**

(4)- بول باسكون وبودريالة نجيب، «القانون والمجتمع المتعدد الإنتاج»، ترجمة زهور العلوي في المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع عدد 4 سنة1978 م ص135 -154 .. وفي مؤلفاته الأخرى عن الحوز، ودار إيليغ.

(5) - العلوي القاسمي، **مجتمع المغرب الأقصى**...ص 217 -228 . وما بعدها، بوتشيش، **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**... ص.216 -274 .

حول أنماط الانتاج (المشاعة البدائية ونمط الانتاج العبودي والفيودالي والرأسمالي ونمط الانتاج الأسيوي)، وهي أنماط كانت تعتمد على الاستقرار البشري، باستثناء المشاعة البدائية، ولم يتنبه أصحاب هذا المنهج إلى أننا في مجتمع تغلب عليه النجعة والترحال. فجل هذه المناهج أغفلت الجانب الجغرافي، باستثناء دراسة جاك بيرك عن سكساوة[1]. أما عبد الله العروي فيرجع استمرار الظاهرة القبلية إلى كونها نظاما وقائيا لجأ إليه المغاربة لمواجهة ظروف قاهرة مرتبطة بالوجود الروماني بشمال إفريقيا الذي أقام حزاما أمنيا، فعاق ذلك تطور المجتمع المغربي، لأن البنية القبلية لم تكن أصيلة فيه إذ رجع المستقرون إلى حياة الترحال، ويحمل الرومان مسؤولية هذا التطور المعاق[2]. لوحظ وجود النظام القبلي في مناطق أخرى من العالم لم يصلها الرومان واستمر فيها لمدة طويلة لأسباب طبيعية وبشرية.

الظاهرة الأساسية التي تغلب على مجال الشمال الإفريقي هي ندرة الأراضي الصالحة للزراعة والاستقرار البشري (إذ تتراوح نسبتها في البلدان المغاربية بين 1 إلى % 30) ، وهذه المساحة الزراعية الضيقة تتعرض لتقلبات مناخية، من سنة لأخرى، وتهيمن عليه المجاعات، وتسود في أغلبها ظاهرة الانتجاعات أي مجال متميز "بتوالي المجاعات والانتجاعات"، حسب تعبير الناصري[3]. وبعبارة أخرى، إنه مجال متميز بغلبة حياة البداوة والنجعة على حياة الاستقرار والزراعة. ولكي تتضح الصورة أكثر ينبغي مقارنة هذا المجال بمصر حيث يوفر النيل مياها دائمة وشبه منتظمة، قامت عليها الحضارة الفرعونية. إغفال هذا المعطى الأيكولوجي في أي تحليل للظاهرة القبلية يجعل الحديث عن القبيلة غير ذي معنى أو مبتورا. فماذا عن القبيلة في الفترة الموحدية؟

I - تَقَبْيلْتْ قبل العهد الموحدي :

رغم أنه من الصعب إعطاء تعريف دقيق للقبيلة لتعقد الظاهرة القبلية، إذ يمكن أن تكون لها مضامين مختلفة حسب الزمان والمكان، وحسب أنماط العيش المتباينة من ترحال واستقرار، وحسب الأوضاع الاجتماعية والسياسية[4]. ولكنها تحتفظ ببعض

---

(1) - Berque, Structures sociales du Haut-Atalas, P.U.F. Paris, 1978

(2) - العروي، مجمل تاريخ المغرب ...ج 1 ص. 89-91.

(3) - الناصري، الاستقصا ...م.س.ج 4.ص.64 .

(4) - العروي، مجمل تاريخ المغرب... مرجع سابق ج 1 ص.89-91.

السمات المشتركة، كما سنبين بعد حين. فهل لتقبيلت الأمازيغية نفس الخصائص الاجتماعية التي نعرفها عن القبيلة المشرقية أم أن لها خصوصيات معينة؟

1- خصوصية تنظيمات تقبيلت الأمازيغية:

نسجل أولا، أن الألفاظ التي أطلقتها المصادر المكتوبة بالعربية على المجوعات التي كان ينتظم فيها المغاربة، بعد مجموعة البيت، خلال العصر الوسيط، هي ألفاظ عربية (البطن أو الفخذ والقبيلة). ولم تصلنا- حسب علمي -المصطلحات الأمازيغية المرادفة لها، وان كانت ما تزال بعضها معروفة اليوم[1]. واستعمال هذه الألفاظ العربية من طرف المصادر، قد يدفعنا إلى الاعتقاد بأنها تعني نفس المدلول السوسيولوجي الذي كانت تعنيه في شبه الجزيرة العربية، في الجاهلية وفي صدر الإسلام، أو تعنيه في بعض جهات المشرق إلى القرن السادس، خصوصا بعد أن استقر وترسخ هذا المفهوم المشرقي للقبيلة كنتيجة لعملية المثاقفة التي دشنها الفتح الإسلامي بين الحضارة الإسلامية والحضارة المغربية. وعند فحص المعلومات الواردة في المصادر عن القبيلة المغربية، ومقارنتها بما هو معروف من خصائص القبيلة العربية المفترض أنها وقعت معها عملية المثاقفة، نلاحظ تشابها في الجوهر بينهما، إلى حد ما، واختلافات شكلية، من اللازم الإشارة إليها. وتتجلى أهمها في أربعة أمور، على الأقل :

أ - ضعف أهمية الأنساب في تقبيلت:

لا يدعى أفراد تقبيلت الأمازيغية، كإطار كبير للتنظيم الاجتماعي والسياسي، وجود روابط دموية بينهم، أو الانتماء إلى جد مشترك حقيقي أو وهمي، وإن كان ذلك موجودا في بعض مستويات أقل، كالعشيرة أو إخس أو أفوس. ويرجع سبب غياب عنصر القرابة الدموية فيها إلى هيمنة الأسرة ذات النسب الأمُومِي[2]، إذ كان المجتمع الأمازيغي -في أغلبه -لا يعطي أهمية خاصة للأنساب طيلة العصر الوسيط. وحتى عندما بدأت المثاقفة الجنيالوجية، بين الفاتحين العرب والقبائل الأمازيغية المتحالفة معهم، اقتصر وضع الأنساب على شاكلة الأنساب المشرقية على قبائل البتر في البداية، كالقبائل

---

(1)- مثل آفوس إخس وغيرهما.

(2) - انظر الفصل الخامس من هذا العمل ص 209 ومابعدها .

الزناتية التي احتكت بالمسلمين في شرق الغرب الإسلامي، أول الأمر، فرضها عليهم تدوينهم في الجيش الإسلامي المشارك في فتح الأندلس، ولم يشمل كل قبائل البرانس كقبائل المصامدة في درن. وهذا ما يوحي به قراءة كتاب الأنساب لابن عبد الحليم مثلا[1]. كما أن جل النسابين الأوائل كانوا من البتر ومن الخوارج، وظلت معلوماتهم عن أبناء عمومتهم البرانس قليلة، مقارنة بما قدموه عن قبائل البتر التي كانت خارجية المذهب . ويتجلى تأثر هؤلاء بالعرب في تقسيم تقبيلن الأمازيغية إلى بتر وبرانس، على غرار تقسيم القبائل العربية إلى قيسية ويمنية. إذ كان العلم بالنسب في الثقافة العربية بمثابة السياج لأفراد القبيلة لأن الوطن لم يكن محدودا تحت أرجلهم بقدر ما كانت القبيلة محدودة في أنسابهم، بينما في تقبيلت الأمازيغية، إما أن ترتبط المستقرة منها بالأرض، فتسمى باسم المنطقة الجغرافية التي تهيمن عليها، كما يظهر من تحليل أسماء تقبيلن الأمازيغية في العصر الوسيط، مثل غمارة (المنكب)، وإما أن تحمل اسما من وصف مميز لها مثل (ورتيدي) (التي تعني حرفيا عديمي الطول أي القصار)، رڭراڭة (المباركون)، إماڭرن أو بني ماجر (الكبراء)، أو حرفة مثل زناتة (شاوية أي رعاة الغنم؟)، وڭزولة، ومصمودة(الزراع؟)، وحاحة والأمثلة كثيرة[2]. وقلما نجدها تحمل اسم شخص، قبل القرن6 هـ/12م، وحتى إذا حصل في الفروع الدنيا لتقبيلت، فإنه يكون اسم امرأة[3].

ب - التقسيمات الفرعية لتقبيلت عددية:

تختلف عنها أيضا في تفريعاتها، نظرا لاختلاف الأنساب في كل منهما. فإذا كانت تقسيمات القبيلة العربية تتراوح بين 7 و10 أقسام، وهي الشعب ثم القبيلة والصدر والعمارة والبطن والفخذ والفصيلة والعشيرة والرهط، فإن التقسيمات في تقبيلت الأمازيغية، هي الأخماس، والأخماس تتفرع إلى أرباع، أي إلى فرق وأجزاء هي إخس أو ما يسمى بالبطن أو الفخذ المقتبسين بدورهما من المعجم القبلي المشرقي. وقد وجد الموحدون هذه التقسيمات العددية بالمغرب، إذ ذكرت في جبال الريف مما يدل على أنها قديمة تعود إلى ما قبل عهدهم بكثير، وقد أدمجوها بدورهم في التنظيمات التي وضعها

---

(1) - صدقي علي ءازايكو، «النسب والتاريخ وابن خلدون»، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية عدد 11سنة 1985 ص.47 -67.

(2)- صدقي علي، «التأويل النسبي الجنيالوجي لتاريخ شمال إفريقية، هل يمكن تجاوزه؟»، في مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط.عدد 15 سنة- 1990، ص.9-34 .

(3) - ستكون دراسة أسماء تقبلين، خلال العصر الوسيط، مفيدة جدا.

المهدي بن تومرت. غير أن وجودها بالريف واستخدامها من طرف الموحدين المنحدرين من قبائل مستقرة، لا يعني أنها تنظيمات خاصة بتقبيلن المستقرة وحدها، بل نجدها لدى تقبيلن الرحل كذلك، وأسطع مثال على ذلك تقبيلت تربعين لدى بني مرين الزناتية [1]. ويظهر أن الأحلاف القبلية تنشأ ثلاثية وتكتمل خماسيا، كالحلف الخماسي المشهور، حوالي328 م، الذي قاد المقاومة ضد الرومان[2]. تدل هذه التقسيمات العددية، مرة أخرى، على ضعف وانعدام روابط القرابة الدموية في المستويات العليا لتقبيلت. ويجهل أصل هذه التقسيمات. فهل هي نتيجة لتصور معين للجماعة الإنسانية على شكل اليد، واليد لها خمسة أصابع أم مجرد تقسيمات إدارية؟

ج - خصوصية الأعراف الاجتماعية لتقبيلت:

توجد اختلافات بين القبيلتين، في بعض الأعراف والعادات الاجتماعية، منها عادة توزيع الإرث في تقبيلت الأمازيغية، قبل تبنيها لنظام توزيع الإرث الإسلامي. رغم أننا لا نتوفر على معطيات تفصيلية في هذا الشأن، باستثناء ما بقي، حتى القرن العشرين، من العرف المسمى تادبيت لدى التوارگ. وكانت الإناث، حسب هذا العرف، يرثن الثروة المادية للأسرة، وتوزع بينهن بناء على أعراف متوارثة في هذا الشأن. وتختلف عنها أيضا في نظام توزيع الغنائم إذ يعود نصف الغنائم إلى زعيم تقبيلت عوض الخمس، كما هو معروف في القبيلة العربية[3].

وتختلف عنها في طقوس وتقاليد الجوار، مثل مص المستجير العربي قطرات من دم المستجار به أو أن يقاسمه الطعام، مثل اقتسام شق التمرة الواحدة[4] . بينما يتم التعاهد، في الطقوس والتقاليد الأمازيغية، بالاشتراك في طعام أسماس، الذي يعتبر الملح فيه أساسيا، خاصة لدى المجموعة المصمودية، كما سبق الذكر، أو بواسطة أكلة البسيس لدى الرحل، كما هو الشأن في حالة الكاهنة، مع بداية الفتوحات الإسلامية[5]، أو بواسطة

---

(1) - ابن خلدون. **كتاب العبر** ...م.س. ج 7ص176 .. ابن آبي زرع. **الذخيرة السنية**... م.س. ص.22 .

(2) - هاشم العلوي، **مجتمع المغرب الأقصى**...مرجع سابق ص492.. وصفحات 490 -558. عن القبيلة.

(3) - عن العرف المنظم للإرث والمسمى تادبيت، وما يؤول للبنت والابن عند التوارگ. **Encyclopédie Berbère.** T. VIII.P.1225.

(4) - انظر عن التقاليد العربية، كريم زكي حسام الدين. **القرابة دراسة أنثروبولوجية وعلاقة القرابة في الثقافة العربية**. مكتبة الأنكلو - مصرية ط الأولى 1990 ص 143 وما بعدها.

(5) - هاشم العلوي، **مجتمع المغرب الأقصى**...م. س ص152 -153، 270 . الحميري، **الروض المعطار**...م.س. ص٦٥.. الإدريسي. نزهة المشتاق... م.س.ج 3 ص.223.

عادات أخرى لدى المجموعات غير المصمودية، كالتعاهد والتحالف بأمور (الحرية أو المزراق) كما لدى هسكورة؛ إذ يقولون بلسانهم "أمور ن حرمان "عند التعاهد[1]، أو خلق أخوة اصطناعية بالرضاع بين جماعيتين لا تربطهما روابط من قبل. وكيفما كان نوع الاستجارة فإن للمستجير بتقبيلت مكانة خاصة، كما في حالة قبيلة هسكورة سنة627هـ/1230م[2].

ومنها ترك المراعي والمياه شائعة بين مختلف تقبيلن، وعدم تكوين محميات للرعي لصالح تقبيلت أو لأية جهة معينة، إذ إن "جميعهم يبيحون البلاد للمراعي والزرع والمياه لورود الإبل والماشية[3]"، وهي الظاهرة التي استمرت إلى بداية القرن العشرين. وغير ذلك من الاختلافات الجزئية التي يطول تتبعها .

د - تقبيلت تسيرها دولة إمغارن مسنودة باللفوف:

إذا كانت المشيخة، في القبيلة العربية، تظهر تلقائيا في بيت من البيوتات النافذة، ويتوارث كبراؤها الزعامة مدة قد تستغرق بضعة أجيال. فإن تسيير الشؤون العامة، لتقبيلت الأمازيغية، يرجع إلى قيادة جماعية تتكون، في الغالب، من 40 أمغار يسمون أيْتْ الربعين أو إِنْفْلاسْ[4]. يختارون واحدا من بينهم، تسند له الرئاسة لمدة محددة لا تتجاوز، في الغالب سنة، ويستبدل على إثرها بأمغار آخر. وربما تكون أقدم إشارة لهذه الهيئة وانتخاب إمغارن لتسيير شؤون تقبيلت، في المصادر العربية، تعود إلى سنة 140 هـ، بمناسبة الحديث عن تأسيس مدينة سجلماسة؛ إذ لم يؤسس أبو القاسم سمجوا بن واسول المكناسي المدينة إلا عندما" اجتمع إليه قوم من الصفرية، فلما بلغوا **أربعين رجلا** قدموا على أنفسهم عيسى بن مزيد الأسود وولوه أمرهم فشرعوا في بنيان سجلماسة[5] "وقد لوحظ هذا النظام السياسي في بلاد المصامدة، خلال القرن5 هـ/11م، كما هو الشأن ببعض المدن، إذ" كانت آمرة أهل أغمات **دولا بينهم يتولى الرجل منهم سنة ثم**

---

(1) - ابن عبد الحليم، **الأنساب**...مرجع سابق ص57.. التوفيق، **المجتمع المغربي**... ص.59.
(2) - ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**... السفر 8 ص.193 .
(3) - ابن حوقل، **صورة الأرض**...م س .ص .103.

Magali Morsy, "Réflexion sur le système politique marocain dans la longue durée historique, in L'espace de L'Etat au Maroc et dans le tiers-monde, Rabat 1985, p 101

(4) - ابن خلدون، **كتاب العبر**... م.س .ج 6 ص183 .. ليليا بنسالم «التحليل الانقسامي لمجتمعات المغرب الكبير» نشر ضمن الأنتروبولوجيا والتاريخ م.س .ص.68 .
(5) - البكري، **كتاب المغرب**...م.س .ص.149.

يديلونه بآخر منهم عن تراض واتفاق[1]. "كما لوحظ هذا المجلس كذلك، عند قبيلة هنتاتة، سنة516 هـ/1123م، فعندما سمعوا بأخبار ابن تومرت في هرغة، اجتمعت القبيلة على أشياخها (نعرف أسماء 7 منهم)، في مجلس يعرف ب"أكراو[2]"في مقدمتهم أبي حفص الهنتاتي ثم" سائر أشياخ هنتاتة. فتذاكروا خبر الإمام المهدي. وما جاء به، وما هو عليه من الخير والوعظ، فأرادوا تحقيق ذلك، فوجهوا أبا يعقوب بن عمر ليسبر أمره [3]. وعندما تحقق من الأمر، رفع لهم تقريرا في الموضوع، فقرروا أن يصنعوا أسماسا للتعاهد على الانضمام لرباط هرغة. بل إن القائد الحربي ينتخب عند قيام الحرب، كما يتجلى في حادثة هجوم المرابطين على بلد تيفنوت، للانتقام من هنتاتة التي ساندت ابن تومرت، وفكت عنه حصار المرابطين. فقال لهم أبو مغاليف أحد أولئك الأشياخ": يا هنتاتة، أنا أرغب إليكم أن تقدموني للرأي في هذا النهار لا غير، ولا يشركني معي أحد، فقالوا له: نعم، لك ذلك، لأنك شيخ عارف بالأمور، فقدموه في ذلك اليوم[4]. "لم يختف هذا النوع من الحكم كليا بالمنطقة، رغم التطورات السياسية التي عرفتها بلاد المصامدة، من القرن 12هـ/6م إلى القرن 9 هـ/15م، إذ كان يعود للظهور كلما ضعف المخزن . ذكر الحسن الوزان أمثلة عديدة عنه، بعدد من مدن حاحة وسوس، في بداية القرن 16م، مثل مدينة تسكدلت الحاحية ومدينه تييوت التي كان لها ثلاث رؤساء يحكمون مدة ثلاث أشهر فقط. وفي مدينة تارودانت كان يتداول الحكم أربعة أعيان مجتمعين لمدة لا تزيد عن ثلاثة أشهر[5]. كما عادت من جديد، بعد وفاة المنصور الذهبي في بداية القرن17م[6]. بل اتفق أعيان إينولتان في آخر القرن19 م، على أن يحكمهم شيخ من كل ربع مدة سنة[7]، وقد وجد روبير مونطاني هذا النظام في الثلاثينات من القرن 20 بالأطلس الكبير ودرسه[8].

(1) - **نفسه**، ص.153 .
(2) - البيدق، **أخبار المهدي**... م. س، ص57.، والمقصود به مجمع للتشاور.
(3) - ابن القطان، **نظم الجمان**... م. س . ص.87 .
(4) - **نفسه**، ص.90 .
(5) - الحسن الوزان، **وصف إفريقيا** ص79 ،.83 ،92 ،93 ،95 .112 . حجي محمد، **الحركة الفكرية**...ج 1ص298 . وانظر:

Montagne R. **Les Berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc**. Paris 1930 .P. 221

(6) - صدقي على ءازايكو : **تاريخ المغرب**...م. س . ص.185- 238
(7) - التوفيق، **المجتمع المغربي**...م س ص.158.
(8) -Montagne(R). Les Berbères et le Maghzen dans le sud du Maroc. Paris 1930

الهدف من هذا النوع من الحكم الذي لا يتولى فيه الشخص الزعامة أكثر من سنة، منع ظهور حاكم مستبد بالسلطة من بين الأعيان، لأنه مجتمع يرفض ظاهرة السيطرة والتحكم كمبدأ اجتماعي، ويظهر ذلك في عدة مجالات اقتصادية واجتماعية وسياسية بل وحتى دينية(1).

وتجهل أصول هذا النظام، وإن كان ويوجد، إلى اليوم، ببعض جهات الصحراء الإفريقية الكبرى ما يشبه هذا النظام التتناوبي على السلطة بجبال تيسبى في التشاد، إذ يتناوب أفراد من ثلاث بيوتات على تولى السلطة مدى العمر، مما يوحي بأن له جذورا تاريخية في الصحراء الكبرى(2).

كيف يفسر وجود مثل هذا النظام السياسي في تقبيلت الأمازيغية؟ وماذا يعني اجتماعيا؟

يبدو أن مجتمعات شمال إفريقيا قد اختارت بعض المبادئ الاجتماعية الأساسية، في وقت قدرته الأستاذة مكالي مورسي بنهاية العهد الروماني، أهمها رفض احتكار السلطة من طرف شخص أو جماعة، وتوجته باختيار مؤسسة التحكيم على رأس تقبيلت. ولهذه المبادئ الاجتماعية نظيرها في مجتمعات أخرى، كبعض المجتمعات الهندية بالقارة الأمريكية(3). وقد ذكرت الأستاذة بعض العادات الاجتماعية التي تؤكد مبدأ رفض احتكار السلطة والتحكم، ونضيف لما أوردته بعض العادات التي صادفناها في المصادر، وبعض الأحداث التاريخية التي تؤكد هذا المبدأ الاجتماعي، ومنها عادة ترك المراعي والمياه مشاعة بدون حمى، كما ذكر ابن حوقل(4)، والتي ظلت سائدة بالمغرب إلى بداية القرن العشرين، وربما يعود عدم اتخاذ البرغواطيين للأعلام والبنود، أي لرموز الملك والسيادة، لهذه المسألة(5). ويمكن فهم تاريخ الكيانات السياسية الإسلامية الأولى بالمغرب، في القرن 2 هـ/8م للهجرة حتى منتصف القرن 5 هـ/11م، على ضوء هذين المبدأين، فحدث

---

(1) - Magali Morsy, "Réflexion sur le système politique marocain dans la longue durée historique", in L'espace de L'Etat au Maroc et dans le tiers-monde, Rabat 1985 p. 101-103

(2) – انظر أمثلة عنه جنوب الصحراء وشمالها لدى الإدريسي، **نزهة المشتاق**... م. س ج ص. 277,105.

(3) - Magali Morsy, "Réflexion sur le système politique marocain" ...op cité, p101

(4) - ابن حوقل، **صورة الأرض**...م. س . ص.103 .

(5) - البكري، **كتاب المغرب**...م. س .ص . 141.

اختيار الأمازيغ للمذهب الخارجي، في القرون الهجرية الأولى، بأغلب بلدان الشمال الإفريقي، لا يمكن إرجاعه إلى الصدفة المحضة، بل يعود -جزئيا- إلى كونه أقرب المذاهب الإسلامية إلى التنظيم السياسي الأمازيغي شبه" الديموقراطي "الذي لا يجعل الحكم حكرا على نسب معين، بل يتولاه أتقى الناس من المسلمين ولو كان عبدا حبشيا، وإلى تشابه مذهب الخوارج مع المبدأ السياسي والاجتماعي لتقبيلت الأمازيغية، كما يظهر من حالة خوارج سجلماسة المشار إليها. ومنها حدث استقبال البيت الإدريسي ليقوم بسلطة الحكم بين مختلف سكان شمال المغرب، وهذا ما يتجلى بوضوح كبير في رسالة بعثها بنو محمد من الأدراسة إلى عبد الرحمان الناصر يشرحون فيها دور الأسرة الإدريسية بقولهم" : فلما صار جدنا إدريس الأول إليهم، واستجار بهم أجاروه وأوجبوا حقه، ووضعوا له في بلدهم **فرضا توسط به ما بينهم من الأحكام**، من غير أن **يضبطهم ضبط السلطات**[1]. "لأن هولاء السكان ألفوا نوعا من من الحكم الديمقراطي أثار انتباه المشارقة، ويقول أحدهم عن بلد أوربة إن" وراء تاهرت مسيرة أربعة عشر يوما بلد المعتزلة وعليهم **رئيس عادل، وعدلهم فائض، وسيرتهم حميدة**، وداراهم طنجة ونواحيها [2]. "و وقد سبقت الإشارة إلى بعض مظاهر الفصل بين السلط الدينية والمدنية والحربية ورأينا كيف حافظ المرابطون على الفصل بين السلطتين الدينية والحربية[3].

وعلى المستوى الأكبر من القبيلة تنتظم تقبلين في تجمعات أكبر تسمى اللف، وهما في الغالب لفين يحفظان التوزان السياسي والأمن على مستوى جغرافي كبير، نعرف منهما لف البتر ولف البرانس في مرحلة الفتوحات الإسلامية، ولف تحڭات وتڭزولت بالجنوب المغربي الذي عمر فترة طويلة تمتد من بداية العصر الوسيط إلى القرن العشرين، وربما تكون أقدم إشارة لهذا النوع من الأحلاف في المصادر الإسلامية قبيلة أيت مغاليف الموحدية في القرن 12 م.

أما من حيث الجوهر، فالقاسم المشترك بين القبيلتين هو الحمية والعصبية، وعقد التحالفات في إطار مجموعات بشرية ثنائية متناظرة تتميز كل منها باستقلاليتها النسبية أي أنها لها شخصية معنوية كما يقال اليوم، لكنها ليست أبدية. فالقبيلة تشكل الإطار

---

(1) - ابن حيان. المقتبس، نشره ب.شالميتا، وف.كورنيطي. المعهد الإسباني العربي للثقافة، وكلية الآداب بالرباط، مدريد1979 ص.292.
(2) - قدامة بن جعفر البغدادي، الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق محمد حسن الزبيدي. دار الحرية للطباعة، بغداد 1981 ، ص.231.
(3) - انظر ص . من هذا العمل.

الدفاعي للأفراد والجماعة المنتظمة في قبيلة واحدة، وتشترك في أعراف وتقاليد اجتماعية واحدة، وإذا انسلخ الفرد عن جماعته، وهو أمر نادر، تكون وضعيته متدنية في الجماعة الجديدة التي تحتضنه، ويحدثنا البكري عن قتل الياس البرغواطي(181-231هـ) لمخاليفه في ديانته،" وقتل من صنهاجة خاصة في وقعة واحدة ألف وغد، والوغد عندهم المنفرد الوحيد الذي لا أخ له ولا ابن عم **وذلك في البربر قليل**[1]. "وقد سادت هذه النزعة القبلية، بعض المدن المغربية، في القرون الهجرية الأولى، كما لدى سكان سجلماسة سنة 340 هـ، التي يقول عنهم ابن حوقل، بعد ذكر كمال أخلاقهم" :وتقدم في أفعال الخير شهير وحنو بعضهم على بعض من جهة المرؤة والفتوة، وإن كانت بينهم **الحنات والتراث القديمة** تواضعوها عند الحاجة واطرحوها رياسة وسماحة . وسائر أرباب المدن دونهم في اليسار وسعة الحال **وتتقارب بالعصبية أوصافهم وتتشاكل...**[2] "ولا تخلو مدينة كفاس، المتكونة من مدينتين يفصلهما النهر، من هذه العصبية القبلية، إذ كان" بين أهل الجانبين الفتن الدائمة والقتل الذريع المتصل[3]. "وقد استمرت العصبية في بعض المدن رغم انتماء سكانها لجهات مختلفة، ونجد بينهم من العداوة والصداقة ما يكون بين القبائل والعشائر، وقع ذلك في أمصار الجريد، في آخر عهد صنهاجة حتى قضى عليهم عبد المومن، ووقع بسبتة في أواخر الدولة الموحدية[4]، ولاحظ الحسن الوزان استمرار ة سيادة ظاهرة اللفوف بالصحراء حتى مطلع القرن16م، منها "لأهل درعة عدة رؤساء يتحاربون باستمرار مستعينين بالأعراب المجاوين[5]"وذكر أن في كل قصر من هذه القصور أمير خاص هو رئيس فريقه[6] مثل قصر بني صبيح" مسورة ومقسمة إلى قسمين يحكمها رئيسان مختلفان يعيشان في نزاع وقتال دائمين وخاصة أثناء فترة السقي"[7].

---

(1) - البكري، **كتاب المغرب**...م.س .ص.136 .

(2) - ابن حوقل، **صورة الأرض**... م.س .ص.99.

(3) - **نفسه**، ص90.، **العلوي القاسمي، مجتمع المغرب الأقصى**... م.س .ص.823 .

(4) - ابن خلدون، **المقدمة**... م.س .ص. 673 - 674 .

(5) - الوزان، وصف إفريقيا..م.س.ج 2 ص. 120 .

(6) - **نفسه**، ج 2 ص.126 .

(7) - **نفسه**، ج .2ص.119 .

2- التراتبية الاجتماعية داخل تقبيلت :

تتميز تقبيلت، رغم اتجاهاها التعادلي والمساواتي، ببروز التراتبية الاجتماعية وعدم المساواة في الثروة والمكانة الاجتماعية لأفرادها، وبالخصوص لدى قبائل الرحل الزناتية والصنهاجية التي يصنف أعضاؤها إلى ثلاث شرائح اجتماعية، كما لاحظ بعض الجغرافيين:

الشريحة الأولى وهي أقلية تسمى الخلص أو من صلب القبيلة وتشكل النواة الصلبة للحلف القبلي، ثم الأتباع المتكونين من أخلاط، وأخيرا العبيد. بلغ مجموع التجمع الصنهاجي 58 قبيلة، حسب ابن حوقل في منتصف القرن4 هـ/10م، وبلغ عدد القبائل ذات النسب الصريح منها 19 قبيلة، وعدد الأتباع من الأخلاط، 28 قبلية، وعدد المتحالفين، 11 قبيلة، ولم يذكر العبيد. وبلغ مجموع قبائل زناتة 144 قبيلة، حسب ابن حوقل، منها 74 قبيلة من زناتة الخلص و 48 قبيلة من عصبة زناتة من لواتة ومزاتة المتحالفتين معها، و22 قبيلة متحالفة معها أو ملحقة بها[1]. ونجد نفس التراتبية لدى برغواطة، شمال المغرب الأقصى، كما يلاحظ من تعداد البكري للقوة العسكرية لكل شريحة اجتماعية فيها، إذ كان لبني صالح وهو البيت الحاكم، في سنة 352 هـ، 3.200 فارس، وبلغت قوة قبائل برغواطة التي تدين لهم أزيد من 10.000 فارس في حين وصلت قوة المسلمين الخاضعين لهم حوالي 12.000 فارس[2]. ونعثر على نفس التقسيم لدى قبائل التوارگ، حتى القرن العشرين، كما نصادف في أسماء القبائل ما يعزز هذا التراتبية، مثل مديونة التي اشتقت من أمديون وهو العبد[3]، أمكراز، وهو العبد في عرف القبائل المرينية (أي الحراث ومنه اشتقت ؟ على ما يبدو ؟ كلمة الحراطين المشهورة بالواحات الصحراوية)، إذ أطلق هذا الاسم على عامل السعيد على مكناس الذي قتلته عامة مكناسة حين بايعوا للحفصيين[4]، كما يقال للعبد أمكناس ومنه مكناسة[5]. ويقابلها أسماء من قبيل لواتة، اماكرن أي الكبراء والأشراف، ومن خلال ما تقدم وغيره يتبين أن القبيلة المغربية لم تكن بدائية كما توهم البعض.

ماذا غير الإصلاح الموحدي من بنيات تقبيلين السائدة قبل القرن12 م؟

---

(1) - ابن حوقل، **صورة الأرض** ... م.س. ص104- 107 .. هاشم العلوي، **مجتمع المغرب الأقصى**...ص501، 508 -511

(2) - البكري، **كتاب المغرب**...م. س . ص. 140-141.

(3) - انظر مادة عبد في **المعجم الأمازيغي العربي**.

(4) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م. س . ص. 373.

(5) - ابن خلدون، **كتاب العبر**..م.س. ج 7 ص.77.

II . إسهام الإصلاح الموحدي في تحويل تقبيلت إلى القبيلة:

1- محاولة الخروج من إطار تقبيلت إلى فضاء الأمة:

إن مرامي الإصلاح الديني الموحدي، هو تجاوز إطار تقبيلت الضيق إلى إطار أوسع هو الأمة الإسلامية. وقد قام المهدي ابن تومرت بعدة محاولات في هذا الصدد، منها مثلا منعه تقبلين المنضوية لحركته من الاقتتال فيما بينها[1]. ومعنى هذا نسيان النزاعات الإثنية والثأر القديم، وما يترتب عن ذلك من الحروب التي كان الفقهاء ينعتونها" بالحروب الجاهلية. "وعند قيام الدولة استمر نفس الهدف يوجه سياسة عبد المومن وسياسة خلفائه، إذ جاء في رسالة عبد المومن إلى أهل بجاية يأمر أشياخها بالكشف" عن القبائل الباقية على **سير الجاهلية من الهرج فيما بينهم**، والقتل والفساد، والخبل والانقياد إلى سلطان الجهل والخروج عن قانون الحق وضبط الأمر[2]. "خضعت أغلب القبائل للموحدين عنوة، أي بقوة السيف وستبقى تنالها الأحكام السلطانية مادمت الدولة تملك القوة لإكراهها على الاستمرار تحت سيطرتها. وكل من خرج عن طاعتها بعد ذلك يعتبر ارتدادا ومفارقة للجماعة، أي كفرا تجب محاربته. فهل نجحت الدولة الموحدية في تحقيق أهداف مؤسسها، وهو صهر القبيلة في إطار الأمة الأكبر أم أنها أخضعت القبيلة فقط واكتفت منها بالتبعية وبحد أدنى من الخضوع دون إحداث تغيير في هياكلها؟

بعد أن خضعت أغلب القبائل في الغرب الإسلامي لسلطة الدولة الموحدية وأحكمت سيطرتها عليها، حاولت أن لا تنفلت أية قبيلة من هيمنتها وكانت تجرد الحملات العسكرية "لتهدين وتسكين"[3] القبائل المتنطعة. إن عمل الدولة الموحدية توقف عند إخضاع جل القبائل، ولم تستطع أن تفكك تنظيماتها وبنياتها، ولا يمكنها ذلك ما دامت الدولة نفسها تتبنى الشكل القبيلي المشرقي، كما سبق أن رأينا في الفصل الثالث، بل يمكن القول أن الإصلاح الموحدي أثر على البنية القبيلة المغربية تأثيرا محدودا، وهو تأثير شكلي إذ ساهم في ترسيخ النموذج القبلي المشرقي المشار إليه أعلاه، وفي اتجاه تقوية النزعة القبلية لا في اتجاه إضعافها وتفكيك بنياتها. والموحدون في عملهم هذا إنما أضافوا لبنة

---

(1) - المراكشي، **المعجب**..م. س . ص274.. ابن القطان، نظم الجمان..م. س . ص.97 .
(2) - المنوني، **والعلوم والآداب**..ص.191 - 192 .
(3) - ترد هذه العبارة في الكثير من المصادر منها ابن عذاري، **البيان المغرب** ... ص465 .. البيدق، **أخبار المهدي**... ص. 72 .

أخرى للعمل الذي دشنته عملية المثاقفة مع حضارة الفاتحين العرب الذين لم يستطيعوا بدورهم التخلص كليا من البنى القبلية الموروثة عن الجاهلية، ومن تجليات هذه البنى القبلية الصراع بين القيسية واليمنية، في العصر الأموي، سواء في المشرق أو ببلاد الغرب الإسلامي، كما يظهر من خلال الرجوع للمصادر والمراجع التي أرخت للفترة المذكورة بالغرب الإسلامي[1]. أما مظاهر القبيلة في الدولة الموحدية فتتجلى في عدة مظاهر.

2 - بعض المظاهر القبلية في دولة الموحدين :

فرض الإصلاح الديني على مصامدة الموحدين أن يتخلوا عن التنظيمات الأمازيغية، مثل تناوب الأعيان، من إنفلاس أو أيت الربعين على الحكم، أو دولة إمغارن، لصالح دولة الخلافة الإسلامية، لأن الموحدين بنوا تنظيماتهم على غرار التنظيمات القبلية المشرقية واستخدموا معايير التراتبية السائدة فيها، كالقرابة والسن والسبق والغناء، وتبنوا كذلك طريقة توزيع الغنائم وغيرها، مما سبق أن رأيناه في فصل التنظيمات، الشيء الذي رسخ النزعة القبلية في دولتهم وطبعها بروحها. وتتجلى تلك النزعة في تنظيماتها المالية والإدارية وفي تعاملها مع السكان. فهي دولة قبلية قلبا وقالبا رغم مركزيتها الظاهرة، ورغبتها الأكيدة في الانتماء لإطار أوسع من الكيان القبلي الضيق، ألا وهو إطار الأمة الإسلامية الأوسع، غير أنها لم تسطع تحقيق ذلك، إذ لم يستفد من الحكم إلا العصبية الحاكمة وحدها أو المتحالفين معها، دون بقية سكان الغرب الإسلامي، أي ما يمكن اعتباره النواة الصلبة في القبيلة الموسعة أو صلب القبيلة السابق الذكر، ثم يليها الحشم من غير الموحدين، أي القبائل التي تحالفت معهم من غير المصامدة. أما الرعية فقد همشت على مستويات مختلفة واعتبرت عبيدا. فاتخذت دولة الموحدين بنية القبلية المشرقية، ولكنها مكبرة وممتدة على نطاق جغرافي أكثر من المعتاد، وليس هناك تناقض جوهري، كما قد يبدو للوهلة الأولى، بين بنية الدولة التي تبدو كأنها" دولة مركزية "وبين البنية القبلية.

وتظهر الوقائع وكثير من الأحداث أن ممارسة هذه الدولة المركزية، هي ممارسات تحكمها - في الغالب - أعراف قبلية. ونلاحظ في قول يعقوب المنصور الموحدي اعترافا

---

(1) - أبو ضيف مصطفى أحمد، أثر القبائل العربية في الحياة المغربية، طبعة دار النشر المغربية، الدار البيضاء.ج ١ص.88 - 136.

صريحا بوجود هذه الروح القبلية، لدى الجماعة الموحدية التي تكون سند وعصبية الدولة نفسها، فهم يحتمون بقبائلهم أكثر من احتمائهم بالدولة التي أنشأوها. فقد صرح بحضرة كافة الموحدين، وقد بلغه حسدهم للطلبة على المكانة التي كانت لهم عنده : "يا معشر الموحدين، **أنتم قبائل**، فمن نابه أمر منكم **فزع إلى قبيلته**، وهؤلاء - يعني الطلبة - لا قبيل لهم إلا أنا، فمهما نابهم أمر، فأنا ملجؤهم وإلي فزعهم وإلي ينتسبون[1]. "كما اضطر عبد المومن إلى استقدام قبيلته كومية،557 هـ، ليستند إليها. ولاحظ صاحب الاستبصار الذي عاش، في أوج قوة الدولة الموحدية، قوة النزعة القبيلة من خلال إقراره" **أن نفوس أهل المغرب مجبلولة على الاستنصار**، وقيل الحقد مغربي[2] "، واستمرت هذه الظاهرة إلى عهد الحسن الوزان، في بداية القرن10 هـ/ 16/م، إذ يقول عن أهل المغرب "لامثيل لحقدهم، فهم ينقشون على الرخام أقل إهانة (تلحقهم) ولا يسمحون لها بالخروج من قلوبهم أبدا[3]".

ويمكن ملاحظة هذا الطابع القبلي للدولة في كثير من المجالات، أهمها أربعة مجالات:

أ - بعض مظاهرها في المجال المالي والتسخيري:

يتجلى الطابع القبلي من خلال التعامل الإداري والجبائي والتسخيري للدولة مع القبائل. فالخراج الذي فرضه عبد المومن، سنة 555 هـ، فرضه على القبيلة كوحدة متضامنة، وقسط على كل قبيلة قسطا من الزرع وقدرا من النقود الفضية[4]. وعندما تمتنع قبيلة عن دفع مستحقاتها من الخراج يكفي حجز ممتلكات بعض أفرادها حتى تسارع للأداء الواجب المقسط عليها، كما حدث في تادلة، إذ "جاء أقوام من تاجنيت إلى محلة داود بن عائشة. فأخذ إسحاق بن يحيى دوابهم في وظيف وظفه عليهم من الجباية، مبلغه مائتا دينار"[5] . وقد أجاز الفقهاء بالغرب الإسلامي، مثل هذا التضامن الجبائي خلال العصر الوسيط[6].

---

(1) - المراكشي، **المعجب**...م.س. ص.402.
(2) - مجهول، **الاستبصار** ...م.س. ص.183 .
(3) - الوزان، **وصف إفريقيا** ...م.س. ج 1ص.70 .
(4) - ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب**...م.س. ص.198 - 199 .
(5) - ابن الزيات، **التشوف**... م.س. ص.442.
(6) - فتحة، **النوازل الفقهية والمجتمع**...مرجع سابق ص.408 .

ب - بعض مظاهرها في المجال العسكري:

يتم توزيع السلاح والمال والخيل، ليس على أفراد الجند المسجلين في الديوان، كل على حدة، بل يعطى للقبيلة وتتولى توزيعه على أفرادها[1]. ونفس الشيء بالنسبة للعطاء، كما أن تقسيمات الجند الكبرى تمت على أساس الانتماءات القبلية : المصامدة والعرب وزناتة وغيرها، ورتبت على أساسه حتى أقسامه الصغرى، ويظهر المنطق القبلي، بهذه الدرجة أو تلك من الوضوح، في سائر التفريعات التي أحدثوها في الجيش[2]. كما يظهر في مجال تجنيد القبائل من العصبية الحاكمة أو من الرعية. ولكي تضمن الدولة خضوع بعض القبائل القوية أو المتنطعة تلجأ إلى أخذ مراهن من أبناء شيوخها، والأمثلة على ذلك كثيرة منها قبض أولاد العرب، كرهائن ببجاية حتى أتوا برأس الأشل الثائر الذي أجاروه[3] كما أخذ الخليفة السعيد 40 شخصا، من أبناء جماعة من قبيلة بني عسكر المرينية، وجلعهم بدار الجوزة، بفاس سنة 546 هـ، لكي يضمن مشاركة قبائل بني مرين في الحركة التي نظمها لحرب بني عبد الواد[4]. عادة أخذ المراهن، في مثل هذه الخالات، كانت راسخة لدى أغلب دول الغرب الإسلامي، معروفة أثناء الفتوحات الإسلامية، بدءا بعهد الوالي موسى بن نصير[5]. وكان الهدف من هذه العملية هو الضغط على القبيلة المتنطعة لتنقاد لأحكام الدولة، ولتكف عن الشغب والاعتداء على رعية الدولة، ولضمان تهدينها وتسكينها، ودفع جبايتها وحصتها من الرجال. ولفهم دواعي أخذ المراهن من طرف الدولة، يمكن الاستئناس بالتبريرات التي يقدمها ابن الحاج النميري عن ذلك، خلال حملة أبي عنان إلى إفريقية سنة758 هـ /1163م[6].

ج - بعض مظاهرها في المجال الإداري:

كانت الدولة تترك القبيلة تسير كثيرا من شوؤنها الداخلية، في استقلالية كبيرة، ولا يتدخل الشيوخ الذين تنصبهم الدولة، إلا في أمور محددة وقليلة من شؤونها الخاصة.

---

(1) - ابن الزيات، **التشوف**... م. س .ص320.. ابن صاحب الصلاة، **المن بالامامة**..م. س . ص.348 -349.
(2) - فصل التنظيمات الموحدية .
(3) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ..م. س . ص.216 .
(4) - ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية**.... م. س . ص65 ...78.
(5) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ..م. س .ج 1ص38 .. هاشم العلوي، **مجتمع المغرب الأقصى**... م. س . ص .175 .
(6) - انظر التبريرات التي يقدمها ابن الحاج النميري لأخذ المراهن في تلك الحركة، **فيض العباب** ..ص194 ..164، 195، 255 إذ ذكر أنه« قصد تهدين تلك القبائل وتسكينها» ، و«التي يمتلك بها تصريف أمورهم، ويؤخذ بأكظامهم إن قدحوا شر شرورهم، ويقادون بأزمة الالتزام منها مصبحة مصاعبهم ...».

وكانت تكتفي في حالة حدوث نزاع وظهور خلافات بين القبائل بالقيام بدور التحكيم، كما حدث بالنسبة لقبائل صنهاجة تسغرت بأزمور، إذ أرسل لها محمد الناصر العالم أبو موسى الجزولي للتحكيم بينهم[1]. كما تكلف الدولة القبائل بالحفاظ على الأمن في الطرقات بمجال استقرارها، كما حدث في عهد الناصر، إذ ألزم القبائل الموجودة بتادلا وتامسنا، بضمان الأمن في طرق هذه الجهات[2]. وتكلفها بالقضاء على الثوار كما حدث بمناسبة ثورة عبد الرحمان الجزولي المدعو أبي قصبة، سنة 597هـ/1201م، ببلاد السوس، والذي قضت على ثورته القبائل المصمودية المجاورة له بأمر من الدولة[3].

د - بعض مظاهرها في مجال العقوبات :

لا تطبق الدولة الموحدية الشرع الإسلامي وحده على الجرائم السياسية والمالية وغيرهما، رغم حرصها الشديد والمبدئي على ذلك، بل كثيرا ما تطبق الأعراف القبلية في حالات كثيرة، منها على سبيل المثال لا الحصر، عادة أمر الدولة أقارب الجاني بتفنيذ قتله، لكي لا يطالب أقاربه وقبيلته بدمه والثأر له، إذا نفد فيه القتل غيرهم. وقد لوحظ تطبيق هذه العادة في عدة مناسبات، إذ طبق على أنصار أخوي المهدي في ثورتهم، سنة549 هـ/1155م، إذ " نفذ الأمر بعد إحضارهم بإقرارهم لإخوانهم من كل قبيل أن يتولوا **قتل إخوانهم بأيديهم** ويكونوا للأمر العالي ثأره[4]"، ومنها حادث التمييز، سنة 619 هـ/1223م، بل طبق، حسب النويري[5]، نفس المبدأ حتى على أفراد البيت المومني الحاكم، فعندما قرر المنصور إعدام أخيه أبي يحيى الذي حاول الثورة عليه بالأندلس، أسند المهمة لأخيه عبد الرحمان بن يوسف بمحضر من الناس[6]. ويعلل ابن الحاج النميري اللجوء إلى هذه العادة بقوله": وكان المتولي لقتلهم قرابتهم وإخوانهم، فشلت اليمين باليسار، وأسيلت العيون بالأشفار، وترجح حكم **الامتثال والإئتمار** على حكم **الإشفاق والإستنصار**[7]".

---

(1) - ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**... م. س . س 8 ص.253 .

(2) - عزاوي، **رسائل موحدية**... م. س . ص238.. الناصري، **الاستقصا**..م. س . ج 2 ص.164 .

(3) - المراكشي، **المعجب**..م. س . ص.449.

(4) - ابن عذاري، **البيان المغرب**..ق .الموحدين م س .ص51.، البيدق، **أخبار المهدي**... م س .ص79.. 69 عن الاعتراف وما بعدها.

(5) - النويري، **نهاية الأرب** ..م. س . ص .400–402.

(6) - المراكشي، **المعجب** ..م. س. ص.404 .

(7) - ابن الحاج النميري، **فيض العباب**..م. س . ص.294 .

وكثيرا ما تؤاخذ الدولة أقارب المتهمين بذنب قرابتهم، حسب الأعراف القبلية، رغم أنه لا يجوز شرعا أخذ الغير بغير ذنبه وتحمليه مسوؤليته، كما هو مشهور. وظهر ذلك في عدة مناسبات، كمناسبة مصادرة أموال وممتلكات المشرفين وغيرهم من المسؤولين، مثل ابن حيون مشرف تلمسان، إذ حوسب الأب والابن وعوقبا معا[1]. أو مؤاخذة الأخ بذنب أخيه، كما حدث في نكبة ابن عطية حين قتل معه أخوه[2]، أو في نكبة بني القائد ابن حلمة الذي اتهم بالتواطؤ مع بني غانية أثناء دخوله، بجاية سنة580 هـ/1185م، فقتل ابناؤه، وأجبر باقي الأبناء، ومعهم أصهارهم وذويهم، على بيع أملاكهم ونفيهم إلى سلا[3]. كما قبض على الثائر القطراني بسجلماسة وعلى والده وظل خائفا مرتقبا أن يقتل مع ابنه، سنة655هـ/1267م[4]. كما اعتقل أبو دبوس في ثورة ابن يدير بالسوس واعتقل معه أخته وربيبه وابن عمه حمدين[5]. وكانت الدولة تدفع الدية عن الأحرار المقتولين إلى قبائل الجند، كما حدث في مراكش، سنة 566 هـ/1171م. وكما وقع في نفس السنة على قنطرة أم الربيع، إذ" تزاحم العرب في الإجازة حتى تقاتلوا وقتل واحد منهم آخر، فعزموا على الفتنة، فارتفع الخبر إلى أمير المؤمنين **فوداه من ماله**[6].

وأهم الأعراف القبلية التي طبقها الموحدون في الجرائم السياسية هي النفي إلى مناطق نائية كثغور بلاد الأندلس، أو أقصى بلاد إفريقية، مثل نفي الشيخ يوسف ابن وانودين الذي تجاوز الخطوط الحمراء المحددة للأشياخ ونفي إلى حصن غافق، من ثغور الأندلس، سنة578 هـ/1183م، ثم إلى إفريقية بعد ذلك[7]. كما أمر الشيخ أبو عيسى الكزولي بأن" يسكن جبل كسر بنظر تونس وكان مهجورا إلى أن توفي به من مرضه[8]". وعندما نكب بنو جامع الذين تولوا الوزارة مدة 15 سنة، نفوا إلى ماردة بالأندلس، مدة ست سنوات، حتى عفا عنهم يوسف، سنة580 هـ/1185م[9]. ونسب لعبد المومن أنه كان قد

---

(1) - ابن عذاري، **البيان المغرب**..ق .الموحدين م س .ص.181 ،182.
(2) - **نفسه**، ص.58 .
(3) - **نفسه**. ص.181-182 .
(4) - **نفسه**، ص.414 .
(5) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ....ق .الموحدين م س .ص .458- 461 .
(6) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**..ص.354.345 . ونجد مثل هذه العادة لدى المرابطين. بوتشيش، **مباحث في التاريخ الاجتماعي**...ص242.
(7) - ابن عذاري، **البيان المغرب**..ق . الموحدين ص.149- 152 .
(8) - البيدق، **المقتبس** ..م. س . ص.41 .
(9) - ابن عذاري، **البيان المغرب**..ق .الموحدين م. س. ص.139.

أوصى ابنه يوسف بنفي الأشياخ من الموحدين للأندلس وكل من يكرهه من المصامدة ليستريح منهم[1]. ولا يتوقف الأمر عند نفي الشخص، بل كانت الدولة تطلب من عشيرته أن تتبرأ منه ومن أفعاله، كما حدث أثناء نفي الوزير ابن يوجان، إذ اجبر أبناؤه على كتابة براءة يتبرءون من فعل قريبهم هذا، وأرسلت نسخ منها إلى الأقاليم المختلفة من الإمبراطورية[2]، كما نفي بعده الوزير محمد التنملي حفيد الشيخ أبي عمران[3]. ومعلوم أن النفي يعتبر من أقسى العقوبات التي يمكن أن تنزل بالفرد في المجتمع الإثني، لأنه يجتث الفرد من بيئته الاجتماعية والثقافية ويحرمه من مكانته الاجتماعية السابقة التي كونها لنفسه ضمن عشيرته، بل ويمكن أن يصير غريبا وذليلا لدى المجموعة المستقبلة له ويصعب عليه الاندماج فيها بسهولة.

ومن مظاهر شيوع النزعة القبيلة، تردد كلمة إخوانهم بكثرة في مصادر العهد الموحدي[4]، ونعثر على ما يؤكدها من الوقائع والأحداث : اقترح الأمير المريني، في سنة 646 هـ/1249م، على الخليفة السعيد أن يحارب يغمراسن الزناتي، لكن حاشيته رفضت الاقتراح بدعوى أن" الزناتي أخو الزناتي لايخذله ولا يسلمه[5]". وتعلل المصادر فشل بعض الحركات الثورية بعدم توفر أصحابها على العصبية القبلية اللازمة للوصول إلى الحكم. فهذا صاحب المعجب يعلق على فشل ثورة الفاطمي العبيدي، بقوله : "لا يستقيم له أمر ولا تثبت عليه جماعة، أوجب ذلك كونه غريب البلد واللسان، **لا عشيرة** له، ولا أصل بالبلاد يرجع إليه[6]".

سبق أن رأينا أن الدولة الموحدية أو العصبية الحاكمة تتكون من ثلاث شرائح اجتماعية: الموحدون الخلص، والمصطنعون من زناتة وصنهاجة والعرب، أي ما يشبه الموالي في صدر الإسلام، ثم الرعية التي تكاد تكون بمثابة عبيد. وبالفعل، نسب الموحدون إطلاق ذلك الاسم على الرعية إلى إمامهم ابن تومرت الذي قال : "بأن أهل الجماعة وصبيانهم **عبيدهم** كل من في الدنيا"[7]. واستمر إطلاق العبيد على الرعية إلى

---

(1) - ابن خلدون. **كتاب العبر**... م.س. ج 6ص.276.
(2) - الحميري، **الروض المعطار**... م.س. ص.174.
(3) - ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**... م.س.سفر 8 ص .175.
(4) - انظر على سبيل المثال لا الحصر، ابن عذاري، **البيان المغرب**..ق .الموحدين. ص451 .452 .435.
(5) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب** ...م.س. ص.293 .
(6) - المراكشي، **المعجب**...م.س. ص.465 .
(7) - البيدق، **أخبار المهدي** ...م. س . ص.55.

ما بعد عهد المنصور. وسيتبين في الفصل الموالي أن تصرفات البيت الحاكم وسلوك العصبية الحاكمة لا يخرج عن تصرفات وقيم النظام القبلي المشرقي، ومع ذلك فقد أحدث قيام الدولة الموحدية تغييرات في النسيج القبلي المغربي.

3- التجديد المتواصل للنسيج القبلي :

لقد أحدث قيام الدولة الموحدية تغييرا في الخريطة الجغرافية القبيلة بالغرب الإسلامي، وأعاد تشكيل التحالفات القبيلة بإقامة توازنات جديدة بين القبائل، خلال مدة إخضاع المنطقة لسلطتها صلحا أو عنوة، وأعاد كذلك توزيعها على المجال الجغرافي بترحيل البعض منها من منطقة وتوطينها في أخرى، مثل ترحيل بعض القبائل العربية من إفريقية إلى المغرب والأندلس[1]، أو تغيير الوضعية السياسية لبعض القبائل، كالتي كانت طليقة قبل العهد الموحدي، وعند ما ضعفت الدولة، مع مطلع القرن13 م، اختل التوازن الذي أقاموه بين مختلف القبائل المكونة لإمبراطورية الموحدين، إذ تنافست قبائل الرحل القوية بعدد رجالها وما تملكه من القوة المادية ووسائل التفوق الأخرى من المال والسلاح والخيل، وبعدد سكانها وأهمية موقعها الجغرافي، تنافست على الهيمنة على من لا يتوفر منها على شيء من ذلك أوالتحالف معه، فتم بذلك إعادة لتشكيل الخريطة القبلية المغربية، وتغيير للوضع الاجتماعي لبعض القبائل إذ تحولت من وضعية الرعية والتبعية إلى وضعية الغالب والحاكم[2]. وهذا ما حث مع بعض القبائل الزناتية التي وصل بعضها، رغم قلة عددها إلى السلطة، في الجهات التي تمكنت من التغلب عليها،" ويقال إن عدد بني مرين لأول ملكهم كان ثلاثة آلف، وإن بني عبد الواد ألفا، إلا أن الدولة **بالرفه وكثرة التابع** كثرت **من أعدادهم**[3]". وازدادت قوة قبائل بني مرين بسرعة بما استولت عليه من الرعية التي تجندها للحرب لصالحها وبما تجبيه من الخراج من مجالها. وكانت هذه القبائل الثائرة تتنافس لا على السيطرة على الأرض فقط واستخلاص خراجها، بل تتنافس كذلك على امتلاك الرعية واكتساب الأتباع لتجنيدهم وتسخيرهم. كما هو شأن قبيلتي الخلط وسفيان، اللتان لم تكن لهما قوة كبرى تذكر، قبل القرن7 هـ/13م، لكن خلال

---

(1) - أما ما نسب للمنصور الموحدي من ندم على الإتيان بالعرب وإدخالهم للمغرب لأنهم آصل فساده. فهو مشكوك فيه لأنه كان في استطاعته أن يرحلهم، كما فعل عندما رحلهم من مواطنهم بإفريقية .ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**... م. س. ص.230.

(2) - ويشير ابن خلدون إلى هذه الوضعية الانتقالية بقوله.«قد يقع في الدول اضطراب في المراتب من أجل هذا الخلق، ويرتفع فيها كثير من السفلة وينزل كثير من العلية»، المقدمة... م. س . ص.599.

(3) - نفسه، ص. 288.

أقل من ربع قرن تزايدت قوتهما المادية والعسكرية وتكاثرت أعدادهم ليس بالتزايد الطبيعي لأفرادها فقط، بل لتمكنهما من كسب الأتباع بالتحالفات التي عقدوها مع القبائل الأمازيغية أو"الناطقة بالعربية[1] " المتواجدة معها في الحوز، أوبالسطيرة على الرعية التي كانت موجودة بدكالة وغيرها من السهول الأطلسية. فخلال محاصرة قبيلة الخلط للرشيد بمراكش سنة632 هـ/1235م، " أظهروا الخلاف والعناد واشتغلوا **بتحزيب القبائل** وفساد البلاد. وقد خلت أمامهم المداشر والقرى إلا ما كان لهم **عليه سلطان من الرعية** فإنه استقر بمكانه[2]". وكانت الخلط" أشد استيلاء على البلاد **والرعية** "أما شيخها": فإن **إخوانه** الخلط كانوا أزيد من *12.000* من الفرسان **ومعهم من الأتباع المنقادين والحشود مثلهم**، أما رجلهم فالجراد المنتشر[3]". ولكن قبيلة سفيان ستنتزع منها، سنة 633 هـ/1236م، ليس الأموال الهائلة التي استولت عليها فقط، ولكن الأتباع والحشود كذلك،" فكثرت جموعهم وانضاف إليهم كثير من الأصناف التي كانت مددا للخلط وامتلأت بهم الأرض[4]. وحاولت الدولة الموحدية، في عهد الرشيد، ابتداء من سنة632 هـ/1235م، استرجاع الرعية والأرض معا من قبضة وسيطرة القبائل القوية الثائرة، كقبيلة الخلط السابقة الذكر، لأنه لا معنى لاسترجاع الأرض دون الرعية التي تشتغل فيها وتستغلها عن طريق أنواع من الشركة مع الدولة مالكة الأرض (بالخمس، أوبالربع)، فضم الموحدون شركائهم، و"**عادت الرعية** إلى الطاعة والوصول إلى العمال . "وعملوا على" **رد الرعية** والوصول للعمال[5]."

المثال الرابع لإعادة التشكيل القبلي، في أوائل القرن13 م، تمثله قبيلة المعقل التي كانت بدورها عند دخولها للمغرب قليلة العدد لا يتجاوز عددها 200 نفر. كان الموحدون قد أنزلوها في الجنوب الشرقي بين هضاب ملوية ونجود تافيلالت، بجوار قبائل زناتة التي تعمر هذه الأصقاع، وما أن ضعفت الدولة الموحدية حتى شكلت اتحادية قبيلة بالتحالف مع قبائل زناتية، كهوارة مثلا، أو مع قبائل أخرى ناطقة بالعربية،" إنما كثروا بمن اجتمع

---

(1) - من الأفضل استعمال كلمة الناطقين بالعربية بدل مصطلح القبائل العربية ذي الدلالة العرقية، لأن قرنيين من الانصهار العرقي والتمازج الحضاري بين القبائل الهلالية الوافدة من الشرق مع القبائل الأمازيغية بإفريقية والمغرب الأوسط قد أفقدها خصائصها الأولى وتأقلمت مع حضارة البلد وأثرت فيها وانضمت إليها عناصر أمازيغية. وظاهرة الانصهار هذه لم تدرس بعد على مستوى الغرب الإسلامي .

(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م.س .ص.318.

(3) - نفسه، ص 310. وانظر ممتلكات هذه القبيلة من الخيل والسلاح وغيره في نفس الصفحة.

(4) - نفسه. ص.333.

(5) - نفسه، ص.334.

إليهم من القبائل من غير نسبهم [1] "وظلت هذه الاتحادية تلعب دورا أساسيا، في تاريخ الجنوب المغربي خلال فترة طويلة، منذ أواسط القرن 13 م إلى نهاية العصر الوسيط.

يتبين، من خلال ما تقدم، أن التشكيل القبلي كان يتجدد باستمرار، سواء في فترات الاستقرار السياسي أو في فترات الأزمات، وأن البنية القبلية كانت تعرف جدلية الانصهار والانشطار ولم تكن ساكنة كما يدعي أصحاب المنهج البنيوي.

تختلف درجة قوة النزعة القبلية في المجموعات البشرية المغربية، إذ تكون الروابط أقوى لدى القبائل الصحراوية أكثر من قبائل جهات أخرى، ثم تليها الجبال، ثم بعض القبائل القديمة الاستقرار بالسهول الشمالية الرطبة، وأخيرا تضعف في المدن. ويتحدد الدور العسكري للقبيلة حسب قوة تلك الروابط أو ضعفها ومقدار تحملها لشظف العيش[2] وهذا ما يفسر تهافت الدولة والثوار معا على الاستعانة بالقبائل الصحراوية. استخدمها الموحدون حين استجلبوا القبائل الناطقة بالعربية للجهاد في الأندلس. والتزم الوزير ابن وانودين للخليفة لرشيد بجلب العرب من إفريقية[3]. واستخدمها الثوار كابن يدر في سوس، والقطراني بسجلماسة[4]، كما أن الطفل المرواني الثائر بمراكش، في عهد المرتضى، اعترف أن أنصاره سيكونون من 11 قبيلة أكثرها صحراوية[5]. ويلخص العبدري حيوية القبائل الصحراوية مقارنة بقبائل الشمالية بقولة مشهورة : "الغرب بلاد بلا رجال والقبلة رجال بلا دنيا[6]" . وكان سكان نفيس، في القرن18 م، لا يتخوفون من هجوم قادم من بلاد الغرب، على عكس تخوفهم مما يأتي من الجنوب[7]. فالقبائل الصحراوية بالذات، هي التي تزعمت التحالفات القبيلة الجديدة، أوائل القرن13م، منها التحالفات الزناتية بالمغرب الأوسط وشمال المغرب على يد بني مرين، ومنها القبائل الناطقة بالعربية جنوب أم الربيع وجنوب جبال درن .

إذا كان الاصلاح الموحدي قد ساهم في ترسيخ الأسرة الأبيسية والنموذج القبلي المشرقي، فما هو تأثيره على التنظيم العمودي للمجتمع وعلى تراتبيته؟

---

(1) - الناصري، **الاستقصا**... م.س. ج 2 ص. 172 -175.
(2) - ابن خلدون، **المقدمة**..ص300 ...218.
(3) - ابن عذاري، **البيان المغرب**...م.س. ص. 353 .
(4) - نفسه، ص.411 - 412، 453.
(5) - ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**...م.س. س 8 ص.187 .
(6) - العبدري الحاحي، **رحلة العبدري**...م.س. ص9.. وتشبها قولة عن فاس، « فاس بلد بلا ناس». البكري، **كتاب المغرب**...م. س. ص. 115 .
(7) - التاسافتي، **رحلة الوفد**... م.س. ص.90.

الفصل السابع
الإصلاح الموحدي والتراتبية الاجتماعية

تجدر الإشارة إلى ملاحظة أساسية، قبل تناول التراتبية الاجتماعية في العهد الموحدي، وهي أن التراتبية في هذا المجتمع هي تراتبية جماعية وليست فردية، أي أن الفرد لا يظهر ولا يعترف به إلافي إطار جماعة قد تكبر أو تصغر، حسب الظروف. ويوجد بين أفراد هذه الجماعة تلاحم يشبه لحمة العصبية يبدأ في نطاق ضيق، كالبيت، ويمتد إلى إطار أكبر، كالقبيلة، واللف. وهذه الجماعات هي المكونة لسلم الهرم الاجتماعي بعضها يكون مسيطرا والبعض الأخر خاضعا، وأصغر جماعة هي البيت أو الدار المترجمة عن تِكّمّي[1]، فما هي مكونات البيت؟

مفهوم الدار أو البيت:

ويتكون البيت النموذجي، مثلما رأينا في تنظيمات الموحدين، من ثلاث مجموعات، حسب نوع الروابط التي تربطها برب البيت :

1- مجموعة القرابة، وهم الأفراد الذين ينحدرون من أصل مشترك : الأب والأم وأبنائهما وأسرهم، سواء كانت ذات النسب الأمومي أم أبيسية .وهو غالبا، بيت ممتد وكبير؛

2 - مجموعة الحشم أو الخول، يتكونون من الأتباع الذين يدورون في فلك البيت بولاء الرق أو الجوار أو الاصطناع، ويقدمون له خدمات مختلفة، يشتغلون وكلاء (أي شركاء) ويشرفون على الأنشطة الاقتصادية للبيت (تجارة، فلاحة، خدمات كالكتابة). وهم بمثابة الموالي؛

3 - من العبيد (من صفر إلى المئات، حسب مكانة البيت في سلم الهرم الاجتماعي)، إذ لا يكاد يخلو بيت من عبد أو خادمة حتى في بعض البيوتات الصغرى[2].

---

(1) - انظر، عن مفهوم البيت في عهد ابن تومرت، فصل التنظيمات، ابن خلدون، **المقدمة**..م س .ص.235 -239.
(2) - ابن الزيات التادلي، التشوف... م س .ص.260,257، 271، 369.

وهكذا يمكن أن يتكون البيت من خمسة أفراد، في المعدل فما فوق، حسب مكانة البيت على سلم التراتبية الاجتماعية، أو من مئات الأفراد، وأكبر البيوت عددا هو البيت المومني الحاكم. ومهما كان حجم البيت فإن أفراده يخضعون لسلطة شخص واحد هو في الغالب أكبرهم سنا من القرابة. ومهما اختلفت نوعية العلاقات التي تربط الفرد بهذا البيت (قرابة دموية، عبودية، تبعية)، فإن ذلك لا يؤثر على **عصبيتهم** للبيت الذي ينتمون إليه . فالعصبية تنشأ وتنمو في البيت أولا قبل أن تظهر على مستوى أكبر كالعشيرة أو القبيلة، وتربط بلحمتها بين أفراد تختلف وضعيتهم القانونية وعلاقاتهم القرابية، ويخضعون لأكبرهم سنا، خضوعا شبه مطلق. وهكذا نجد في البيت نفسه أهم معاير التراتبية الاجتماعية كالسن والقرابة الدموية أو الاصطناعية، وأخيرا العبودية، وهي عبودية يخفف من وطأتها، سهولة انضمام الفرد للبيت وانتماؤه لها وامكانية العتق. وليس البيت وحدة اجتماعية ينتظم فيها السكان فقط، بل يعتبر كذلك وحدة اقتصادية وإنتاجية، تضمن بدرجات متفاوتة، الأمن والغذاء لأفرادها. والبيت هو الذي يفسر كون الولاءات عمودية بيتية وقبلية إثنية[1]. لأن التعامل في الغالب يتم مع مزاور وكبار هذه البيوتات لا مع الأفراد كأشخاص مستقلين. ونجد، في هذا السياق، أن الولاء السياسي يكون للبيت الحاكم ككل لا لفرد بعينه، ولعل هذا ما يفسر تحول القرابة من أهل الدار من الرتبة السادسة، في عهد ابن تومرت، إلى الرتبة الأولى في عهد بيت بني عبد المومن [2].

I . انقسام المجتمع إلى كتلتين : كتلة الحكام وكتلة المحكومين:

1 . معايير التفاوت الاجتماعي ومصطلحات التراتب :

تحدثت المصادر، في العهد الموحدي، عن التفاوت والتراتبية الاجتماعية، وذكرت عرضا بعض معايير التنضيد الاجتماعي، ففي حديث ابن خلدون عن سيادة القاضي عياض بأنه" **رأس بدينه وأبوته وعلمه ومنصبه**[3]". كما ورد في التشوف بعض معايير التدني الاجتماعي، كاللون واللغة الأعجمية والأمية(العامية)[4]. أما الشرف فلم يأخذ بعد الحجم الذي أخذه في العهد المريني وإن كانت بعض مظاهره قد ظهرت في أواخر عهد

(1) - هاشم العلوي، **مجتمع المغرب الأقصى**... مرجع سابق.220.
(2) - عز الدين موسى. **الموحدون في الغرب الإسلامي**... ص.139، 146 . وقد ميز بين آهل الدار والقرابة.
(3) - ابن خلدون. **كتاب العبر** ... م. س . ج 6 ص222 .، الناصري. **الاستقصا**...م. س .ج 2 ص.101 .
(4) - ابن الزيات التادلي، **التشوف** ...م. س . ص.404 .

الدولة الموحدية[1]. ويلاحظ، من المثالين السابقين، أن المال لا يشكل معيارا مهما، في الترقية الاجتماعية، مثل الجاه السياسي أو المنصب الإداري أو النفوذ الديني الذي يمثله العلم والدين.

وإذا بحثنا في المصادر التاريخية عن المفاهيم والمصطلحات المستخدمة لتصنيف الشرائح الاجتماعية، نصادف عدة مصطلحات وأوصاف كثيرة، أكثرها شيوعا مصطلحات تقسم المجتمع إلى قسمين كبيرين يتفرع كل منهما إلى أقسام صغرى، أهمها مصطلح **السلطان**، أي الحكام ويقابله مصطلح **الرعية** أي المحكومين. ومن مرادفاتهما: **الملوك والسوقة**. ثم مصطلحي السواد والبياض، أو **العامة والخاصة** إذا استعملا من غير تقييد، غير أنهما ليسا دقيقين دقة المصطلحات الأربعة السابقة[2]، إذ يمكن أن يندرج، ضمن الخاصة، عدد من الأعيان من أصول اجتماعية متباينة، كالكحام والتجار والعلماء والمتصوفة والمرابطين والشرفاء. لذا سنحتفظ بالمصطلحيين السابقين لأن لهما مضمونا سياسيا واقتصاديا وقضائيا، يتجلى في اختلاف مستوى عيش الكتلتين وغير ذلك.

2 ـ الفوارق الاجتماعية بين الكتلتين:

أهم اختلاف بين السلطان والرعية، على المستوى السياسي، هو التفاوت في الجاه، وترتبط به بقية الاختلافات المذكورة أعلاه.

أ - تفاوت الكتلتين في الجاه السياسي:

كان الحكام، حسب تعبير ابن خلدون، هم أهل العز لأن أيديهم لا يد فوقها، أما الرعية فهم أهل الذل لأنهم منقادين لغيرهم وعبيد للجباية والتسخير والعسكرة لصالح من غلب عليهم[3]. هذا التفاوت ناتج عن هيمنة العلاقات القبلية على جل العلاقات الاجتماعية، خاصة معيار القرابة بنوعيها: الدموية أو الاصطناعية. فأهم ما يميز الكتلة الحاكمة التي تحتكر السلطة هو استغلالها للجاه، أي لنفوذها السياسي وحضوره القوي في العلاقات

---

(1) - من مظاهره احتفال المرتضى بعيد المولد النبوي، ابن عذاري، البيان المغرب... ق .الموحدين ص.446 .

(2) - انظر عن مصطلحات التراتب ومناقشة مظاهر التفاوت الاجتماعي في العصر الوسيط المغربي، بوتشيش، **مباحث في التاريخ** الاجتماعي... ص 120. وما بعدها، محمد ياسر الهلالي، مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنين8 - 9 هـ15/14 / م .

(3) - ابن خلدون، **كتاب العبر**... م.س ج 6 ص.31 ،204 . الناصري، **الاستقصا**... م.س ج 2ص.165 .

الاجتماعية بين الأفراد على المستويات المختلفة للكتلة الحاكمة، وبينهم وبين الرعية. وترتبط به ظواهر أخرى، كالهدية والرشوة أو المصانعة وتسخير الرعية على الخصوص، وما يصاحب ذلك، في الغالب، من التجاوزات ومن التعسف عليها. وقبل التعرف إلى دورالجاه في العلاقات الاجتماعية، نتعرف على الجاه أولا.

يعرف ابن خلدون الجاه بأنه "القدرة الحاملة للبشر على التصرف في من تحت أيدهم من الناس من أبناء جنسهم بالإذن والمنع **والتسلط بالقهروالغلبة**، على دفع مضارهم وجلب منافعهم"[1]. وربط ابن خلدون بين الجاه والثروة، وبين كيف أن من يملك الجاه يكتسب الثروة وينال دنيا عريضة، ومن لا يملكها يصير إلى الفقر في الغالب، ويرمق العيش ترميقا.

وكانت درجات الجاه تختلف، حسب التراتبية في سلم السلطة والنفوذ السياسي، من قمة هرم السلطة إلى أسفله، في قمته الملوك، وفي أسفله من لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا من الرعية[2].

وتعتبر الإمارة، بالنظر إلى ما تجلبه لصاحبها من منافع مادية ومعنوية، أحد أسباب المعاش المريحة. لذا كانت تسند لبعض الأشخاص وظائف مكافأة لهم وليس فقط تحملا للمسؤولية، كما يظهر من عدة وقائع منها : أن أبا الحجاج يوسف المراني، بمدينة إشبيلية، كانت له خزانة عظيمة من الكتب فأخذ منه يوسف بن عبد المومن دون سابق إعلان أو إذن فكافأه الخليفة بأن ولاه" ولاية ضخمة ما كان **يحدث بها نفسه**[3]". ومن مكافأة عبد المومن لفتيان بجاية بأن منحهم أموالا ضخمة وجعلهم حكاما على قومهم[4]. ومن مكافأة المنصور لأم أخيه أبي زيد الثائر عليه ليعوضها في فجيعتها في ابنها المقتول أبي زيد المذكور أن عين أخاها على عدة ولايات، منها ولاية فاس وأعمالها، ثم نقل منها "إلى ولاية مالقة، فبقي واليا على مالقة مدة، ثلاثين سنة لأن المنصور أوصى عليه ابنه الناصر وأمره أن يوصي عليه لبنيه، فما عزل عن ذلك، ولا انتقل من مالقة إلى أن توفي بها"[5].

---

(1) - ابن خلدون، **المقدمة**... م.س. ص696 .. ابن رشد، **الضروري في السياسة**، ترجمه من العبرية إلى العربية أحمد شحلان، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان 1998 ص 170 ، وما بعدها.

(2) - ابن خلدون، **المقدمة**... م.س. ص.695 .

(3) - المراكشي، **المعجب** ...م.س. ص. 348 -349.

(4) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م.س. ص80 .. ابن القطان، **نظم الجمان**... م. س. ص.127 .

(5) - نفسه، ص.233 .

وقد دخل بذل الجاه من طرف مالكيه في القيم الاجتماعية والأخلاقية المحمودة والمطلوبة والمطلوبة في المجتمع، وكثيرا ما يثني أصحاب التراجم على من اشتهر ببذل جاهه وماله في قضاء حوائج الناس. مثال على ذلك، في العهد الموحدي، قاضي الجماعة عيسى بن عمران التازي الذي يرجع جاه إلى الحظوة التي نالها لدى يعقوب المنصور لمكانته العلمية والخطط التي تولاها. فقد كان ذا تعصب شديد لمن يقصده من الناس، ويتوسط لهم في قضاء مآربهم، "وقد لامه بعض من كان يلوذ به من أتباعه، في التنويه بأقوام ليست لهم سوابق ولا أقدار، رفعهم من الحضيض جاهه، ونبههم بعد الخمول اعتناؤه" . وقال: "ليس العجب من يأتي إليه رجل نبيه القدر يرفعه، إنما العجب من يحيي الميت وينبه الخامل ويرفع الوضيع. فأما النبيه القدر فنباهته تكفيه"[1] . وكان يكرر أقوالا من هذا النوع : "ليس بحماية أن تحمي صاحبك وهو محق، فالحق أظهر وأقوى من أن يحمى، إنما الحماية أن تحميه وهو مبطل"[2]. وكثيرا ما تكرر المصادر في تحليتها لبعض العلماء عبارة "كان نفاعا بجاهه وماله"[3]. والغالب على ذوي الجاه أن يصرفوا جاههم في الاغتناء السريع وترسيخ جاههم وتوسيع دائرته، وذلك أن الناس كانوا يتقربون إليهم بشتى الوسائل، كالسخرة، إما اتقاء لشرهم، كما فعل الناس مع الأمير عبد الله أبي حافة أثناء دخول مراكش الذي ضبط البلد ليحي الناصر "واكتسح لنفسه كثيرا وأخذ من وجوه البلد وتجاره **ما أراد، واصطنعه** الناس **خوفا** على أنفسهم وأموالهم[4]"، أو تزلفا له ويهادونه بمختلف التحف والهدايا. وقد نجد استثناء بين ذوي الجاه لا يستخدم جاه في أغراضه الخاصة، بل يستخدمه لخدمه بلده، مثل الفقيه ابن رشد الذي "كان على تمكن حظوته لديهم (أي الموحدين) لم ينفق جاهه قط في شيء مما يخصه ولا في استجرار منفعة لنفسه، إنما كان يقصره على مصالح بلده خاصة، ومنافع سائر بلاد الأندلس عامة"[5].

لقد تردد المجتمع والدولة بين قبول شرعية الهدية وبين رفضها، لأن تقديمها لصاحب السلطة والنفوذ السياسي، هو رمز للخضوع، ورشوة من أجل الحصول على منفعة أو دفع مضرة. ويظهر هذا التردد في فتوى الفقهاء بالغرب الإسلامي في مسألة شراء الجاه

---

(1) - عبد الواحد المراكشي، **المعجب**..م س ص.357 .

(2) - نفسه، ص.358 .

(3) - ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**... م. س . سفر1 ص 171 . وسفر8 ، ص.160 .235 -237 ،381.

(4) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ... قسم الموحدين م. س . ص.327 .

(5) - **نفسه**، سفر 6 ص.24.

ومدى شرعيته الدينية أو اعتباره مجرد رشوة[1]. وكانت الدولة تحاول في بعض الأحيان أن تحاربها. فأول ما يتم التحقيق فيه، خلال محاكمة المسؤولين الكبار، هو البحث عما صانع به الناس المعني بالأمر، وما أعطوه إياه من هدايا، كما حدث في محاكمة الوزير ابن عطية، سنه 552 هـ/1158م[2]. وكما حدث أثناء فترة جلوس المنصور للنظر في المظالم بنفسه، سنة 580 هـ/1185م، إذ اضطر الأعيان، بما فيهم الرجل الثاني في السلطة الموحدية، الوزير أبو زيد وعم يعقوب المنصور أن يصالح الناس على ما أدعوه عليه من دعاوى. منهم من ادعى أنه أهدى له هدايا قيمة، كالجواري أو الخيول وردها لهم[3]. ورغم ذلك استمر العمل بشراء النفوذ حتى من الموظفين الآخرين، خاصة من رجالات البلاط. فهذا الشيخ أبي عثمان سعيد بن زكرياء الجدميوي الذي استجلب الموحدين للرشيد، سنة 631 هـ/1234م، ما شاع الخبر بأنه سيتولى الوزارة حتى "اشتغل بمهاداته جميع الخدام" ببلاط مراكش[4].

هكذا كانت الرشوة أو الهدية تمس مختلف مستويات هرم الإدارة الموحدية. ولكنها لم تكن ظاهرة خاصة بها وحدها، لوحظ انتشارها قبل العهد الموحدي وما بعده، إذ نجدها في المجتمع، خلال العهد المرابطي، لدى ثلاثة أصناف من المتنفذين وأصحاب الجاه وهم الجنود، والنساء، والفقهاء.

سجل لنا صاحب الحلل الموشية عن استغلال الجنود المرابطين لجاههم السياسي قصد الاغتناء، أن يوسف ابن تاشفين قدم عليه الصنهاجيون من الصحراء "ولاهم الأعمال، وصرف أعيانهم في مهمات الأشغال، **فاكتسبوا الأموال، وملكوا رقاب الرجال**، وكثروا بكل مكان"[5]. وبين الوزير ابن عبدون (ت 520هـ) كيف كان حتى العبيد والحشم التابعين للمرابطين بدورهم يستغلون الجاه بوضع اللثام فقط مثل أسيادهم؛ ويرى أنهم لا يستحقون ذلك نظرا لمكانتهم الاجتماعية المتدنية، في حين يعترف بشرعية استغلال الجاه لرجال السلطة المرابطية والجنود. واقترح أنه "يجب أن لا يلثم إلا صنهاجي أولمتوني أو لمطي، فإن الحشم والعبيد ومن لا يجب أن يلثم، يلثمون على الناس

---

(1) - غنحة محمد، **النوازل الفقيهية والمجتمع** ... مرجع سابق. ص. 406.
(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب**.... قسم الموحدين م.س. ص.58 .
(3) - نفسه، ص.173 -174 .
(4) - نفسه، ص.308 .
(5) - مجهول، **الحلل الموشية**... م.س. ص.33.

ويهيبونهم، ويأتون أبوابا من الفجور كثيرة بسبب اللثام، وهماً، ويكلم في ذلك مع السلطان فإنهم عتاة. ويمتاز بذلك من عسى أن **يكرمُ ويوقرُ**، أو **تقضى حاجته** من المرابطين، لأن العبيد أو الحشم إذا تلثم وغير شكله، حسبته رجلا مثيلا، **فتجري إلي بره وإكرامه**، وهو لا يتأهل لذلك[1]".

الفئة الثانية ذات النفوذ في السلطة المرابطية، هي الفقهاء الذين بلغ جاههم في أيام يوسف بن تاشفين" مبلغا عظيما، لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس. ولم يزل الفقهاء على ذلك، **وأمور المسلمين راجعة** إليهم، وأحكامهم صغيرها وكبيرها، موقفة عليهم، طول مدته... **وانصرف وجوه الناس إليهم لذلك فكثرت أموالهم واتسعت مكاسبهم**[2]". وقد تناول بعض الشعراء في أهاجيهم هذا الثراء الفاحش الذي أدركه الفقهاء بالعلم وبواسطة الجاه السياسي و الديني، منهم الشاعر أبو جعفر أحمد المشهور بابن البني من مدينة جيان

أهل الرياء لبستمـــوا ناموسـكم	كالذئب أولج في الظلام العاتـم
فملكتموا الدنيا بمـذهـب مــالك	وقسمتموا الأموال بابن القاسم
وركبتموا شهب الدواب بأشـهـب	وبأصبغ صبغت لكم في العالـم[3]

واستغلت النساء المرابطيات كذلك نفوذهن في هرم السلطة المرابطية نظرا لمكانتهن في المجتمع الصنهاجي، إذ كان في إمكان بعض قطاع الطرق وبائعي الخمور، وحماة الدعارة والفساد وغيرهم، أن يشتروا حماية النساء المرابطيات مقابل إرضاء جشعهن بالمال، ابتداء من عهد علي بن يوسف على وجه الخصوص[4]. لوحظت ظاهرة انتشار الرشوة والفساد في العهد المريني[5]، فالقاضي الحسن بن عثمان بن عطية الونشريسي (كان حيا سنة770 هـ) أراد الاستقالة من القضاء لكن زوجته التي ألفت حياة البذخ وخدمة النساء لها، بسبب منصب زوجها، وضعته أمام خيارين إما الرجوع للقضاء أو تطليقها، فما

---

(1) - ابن عبدون، رسالة في الحسبة، نشر ليفي بروفنصال ص28 .. عبد الله عنان، **عصر المرابطين والموحدين**... م س ق 1ص. 433-432 .

(2) - عبد الواحد المراكشي، **المعجب**... م. س. ص. 252-253 .

(3) - نفسه، ص.253 .

(4) - نفسه، ص.260 .

(5) - Mohamed Kably, Société....opt. Cit. p.267,.

كان منه إلا أن أذعن لرغبتها وعاد للقضاء[1]. وسيكون للتفاوت في الجاه السياسي عدة نتائج اجتماعية.

أولا، أدى استغلال الجاه هذا من طرف الكتلة الحاكمة على وجه الخصوص، إلى تكريس علاقات الزبونية والتبعية، واستغلال الجمهور الكبير من الناس. ذلك أن المغلوبين على أمرهم كانوا يضعون أنفسهم، أحيانا، وما يمتلكونه تحت حماية بعض المتنفذين الأقوياء، لتجنب آثار التعدي والغصب وتجاوزات عمال الجباية. وكثيرا ما تتحدث المصادر عن الحشم والخول، واللائذون بجناب الشخص، والوكلاء (وهم الشركاء)، أو امتلاك رقاب الرجال من طرف ذوي الجاه. فتكونت شريحة الأتباع والموالي، وهم اللائذون بجناب الشخص المتنفذ للاحتماء بجاهه ونفوذه، مثل حاشية الفقيه أبي الحسن علي الشاري الذي "لم يباشر قط دينارا ولا درهما، إنما كان يتصرف له **وكلاؤه واللائذون بجنابه**" رغم جدته المتمكنة ويساره الواسع[2]. وحاشية ابن زهر في العهد المرابطي التي انتقم منها الأمير أبو حفص المرابطي وشردهم، بمدينة إشبيلية، بسبب خلاف شخصي بينه وبين مجيرهم ابن رشد، فقتل البعض منهم وسجن البعض الآخر [3]. وقد اختلف الفقهاء بشأن شراء الجاه بين مبيح ومانع باعتباره نوعا من الرشوة[4].

ثانيا، تأخذ شبكة الزبناء والأتباع في التضخم حول بيت معين وتزداد، مع مرور الوقت، حتى تشكل خطرا على صاحب السلطة في البيت الحاكم، مما يستدعي منه أن ينكب البيت ويصادر أمواله. يقول المقري عن صاحب الأشغال الخراجية في الأندلس بأنه : "أعظم من الوزير، **وأكثر أتباعا وأصحابا، وأجدى منفعة**، فإليه تميل الأعناق، ونحوه تمد الأكف. ومع هذا إن تأثلت حالته واغتر بكثرة البناء والاكتساب نُكِبَ وصُودِر"[5]. ودفع عدم استقرار وضعية أصحاب الجاه، أغلب المتصوفة وبعض العلماء إلى الزهد عن الجاه السياسي، مثل يحي القيسي (ت 608هـ) على سبل المثال لا الحصر[6].

---

(1) - فتحة محمد، **النوازل الفقهية والمجتمع**.. مرجع سابق ص.40.
(2) - ابن الملك، **الذيل والتكملة**..م.س س 8 ص.201 .
(3) - ابن عذاري، **البيان المغرب**...م.س ج4ص.65 -66.
(4) - فتحة، **النوازل الفقهية والمجتمع**..م.س ص.406 .
(5) - ابن الخطيب، **نفح الطيب**...م.س مجلد 1 ص.205 .
(6) - المراكشي، **المعجب**...ص.358، 410.

ثالثا، ترتبت عدة نتائج عن استغلال ذوي الجاه لنفوذهم، بالنسبة للدولة وبالنسبة للرعية. فالمبالغة في ذلك يؤدي إلى ضرب مصالح الدولة الاقتصادية والأمنية نفسها، إذ تؤدي التدخلات والعلاقات الزبونية والمحسوبية إلى تقليص مداخلها المالية، كما يتجلى من خلال عدة وقائع، منها مثلا، كراء ملك مخزني بتلمسان فقط بعشر ثمنه بعد تدخلات ووساطة قام بها المكتري عوض كرائه ب 60 دينار[1]. وقد تؤدي هذه التدخلات إلى زيادة غير عادية في الراتب، كما هو الشأن بالنسبة لإمام وخطيب مسجد بلنسية الذي توسط له عالم لدى صاحب الأشغال بمراكش، فحصل على زيادة ستة دنانير، وزيادة مدين من القمح كل يوم[2]. كما يصانع ذوو الأملاك العمال وجباة المال، وهذا ما دفع بالمتصوف أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل الهواري (581 هـ) بمدينة أغمات، إلى أن لا يقتني أملاكا، من دور أو ضيعات فلاحية، حتى لا يضطر لمصانعة العمال للحفاظ عليها، كما جرت العادة بين أغلب الملاكين[3]. ويصل الأمر أحيانا، إلى حد حماية هؤلاء المتنفذين الكبار لقطاع الطرق وإلى العمل ضد مصلحة الدولة والرعية، من خلال حماية المستهترين وتشجيع عمليات السلب والنهب، كما فعلت النساء المرابطيات في عهد على بن يوسف . أما في العهد الموحدي فقد نسب للوزير أبي سعيد بن جامع، في عهد المستنصر، أن بعض الناس سلبت منهم أموالهم، وجاءوا متظلمين إلى هذا الوزير من أجل إنصافهم، وبينما هم على باب داره ينتظرون أن يسمح لهم بالدخول إليه، إذ فوجئوا بأحمال دوابهم المنهوبة نفسها، وكثير من أمتعتهم على دواب داخلة لدار الوزير[4]. ومنها إطلاق قاضي مالقة المعروف بالواني سراح الثائر الجزيري الذي أمرت الدولة بالبحث عنه في عهد المنصور، مقابل رشوة[5].

والأمر لا يتوقف عند هذا الحد، بل يصبح هؤلاء المتنفذين خارج دائرة نفوذ حكم القاضي العادي، ولا تنالهم أحكامه في الغالب، مما يقتضي قضاء خاصا بكبار ذوي الجاه ويخلق تمايزا في القضاء بين الكتلتين .

---

(1) - ابن الزيات التادلي، **التشوف**... م س ص.429 .

(2) - الغبريني، **عنوان الدراية**...م س ص.288 .

(3) - ابن الزيات التادلي، **التشوف**...م س ص.270 .

(4) - ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**...م س 8 ص.176 .

(5) - ابن عذاري، **البيان المغرب**...م س ص.208 .

ب - تمايز الكتلتين على المستوى القضائي:

لا تخضع كتلة الحكام لأحكام القضاء العادي، وإنما تخضع لقاضي الجماعة هو قاضي العصبية الحاكمة الذي يكون بالحضرة وينتقل بانتقال تلك العصبية، ولذا سمى بقاضي الجماعة أو بقاضي الحضرة، وكانت العصبية الحاكمة المصمودية لا تتحمل كثيرا صرامة قاضي الجماعة، وسعت مثلا، إلى التخلص من قاضي الجماعة حجاج بن إبراهيم التجيبي، في عهد يوسف، حسب المراكشي الذي جمع مع علمه "نزاهة نفس وطهارة عرض وتصميم في الحق، أفرط في ذلك حتى ثقلت على كثير من وجوه الدولة وطأته، ونالوا منه عند أبي يعقوب"[1]. أما القضاء الذي يفصل بين الحكام وبين الرعية، أو بين أفراد الحكام وهو القضاء المعروف بقضاء المظالم، الذي لا يستطيع القاضي العادي القيام به نظرا لنفوذهم السياسي، ومكانتهم الاجتماعية وجاههم. وهو حسب ابن خلدون "وظيفة ممتزجة من **سطوة السلطنة ونصفة القضاء**، وتحتاج إلى **علو يد وعظيم رهبة** تقمع الظالم من الخصمين وتجزر المعتدي وكأنه يمضي **ما عجز عنه القضاة** أو غيرهم عن إمضائه"[2]. ويعتمد الناظر في رد المظالم، في حكمه، على أدلة وسائل إثبات مخالفة للحجج التي يعتمدها القاضي العادي. وقد مارس الحكام الموحدون هذا النوع من القضاء منذ عهد المهدي، فقد وصف بأنه كان "على خمول زيه وبسط وجهه **مهيبا منيع الحجاب إلا عند مظلمة**، وله رجل مختص بخدمته والإذن عليه"[3]، ومارسه عبد المومن، كما حدث عندما زار جبل طارق، سنة555 هـ[4]، ومارسه ابنه يوسف في عدة مناسبات، وصاح الناس بظلاماتهم بحضوره في المسجد الجامع بمراكش[5]. وقد يمارسه الخليفة بنفسه أو يسنده لغيره من المسؤولين الكبار. لكن الذي أعطى لقضاء المظالم أهمية كبرى هو يعقوب المنصور، لأن وطأة وجور الحكام على الرعية ازدادت ثقلا في عهده، واستدعت منه أن يجلس للمظالم بمدينة مراكش، منذ الشهر الأول من توليته، ودام على ذلك مدة حتى حصل على النتائج الاجتماعية والسياسية التي توخها من جلوسه لها، فاقتصر على النظر في بعض القضايا الخاصة في أيام معلومة[6]، كما مارسه خلفاؤه بعده.

---

(1) - المراكسي. **المعجب** ...ص.358.
(2) - ابن خلدون. **المقدمة** ...م س ص.392 .
(3) - الناصري. **الاستقصا** ...م س ج 2 ص.93.
(4) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**...م س ص.111.
(5) - **نفسه**، ص.332.
(6) - انظر إصلاحات يعقوب المنصور الاجتماعية وجلوسه للنظر في لمظالم في الفصل الأخير من هذا العمل.

ج - تمايز الكتلتين على مستوى المؤسسات (الشرطة والسجن):

وكان لكتلة الحكام كذلك شرطتها المتميزة عن شرطة الرعية، وتسمى الشرطة العليا، بينما شرطة العامة تدعى الشرطة الصغرى. ويقول ابن خلدون عن الصغرى وعن متوليها "أنها لم تكن عامة التنفيذ في طبقات الناس، إنما كان حكمهم على الدهماء (عامة الناس وجماعتهم) وأهل الريب، والضرب على أيد الرعاع والفجرة"[1]. ونلاحظ بوضوح، في بعض الدول الإسلامية، تفرع الشرطة إلى شرطة كبرى وصغرى، إذ جعل حكم الصغرى على الرعية، بينما جعل حكم الكبرى على الخاصة، وجعل لصاحب "الكبرى الحكم على أهل **المراتب السلطانية** (أي المخزنية) والضرب على أيديهم، وعلى أيدي **أقاربهم** ومن إليهم من **أهل الجاه**"[2]. وقد أسندت مهمة الشرطة الكبرى، في تنظيمات ابن تومرت، لحفاظ إمن تكمي، ثم أسندت، سنة 557 هـ، إلى قبيلة كومية فرتبت، في الرتبة الثانية، ضمن قبائل العصبية الحاكمة[3]. ويقول ابن خلدون عن الشرطة العليا في عهد الموحدين "أنها كان لها حظ من التنويه، وإن لم تكن عامة، وكان لا يليها إلا رجالات الموحدين وكبراؤهم"[4]. وقد تتابع على تولي منصب الشرطة الكبرى في عهد الرشيد(529-540هـ) خمسة رجال من الموحدين[5].

والشرطة العليا هذه، هي التي تسمى عند المرينيين بالجنادرة ويسمى متوليها المزوار، ويعرف ابن خلدون الجنادرة بقوله: "المتصرفين بباب السلطان في تنفيد أوامره، وتصريف عقوباته، وإنزال سطواته، وحفظ المعتقلين في سجونه"[6] وتعرف بمغرب القرن19م بالمشارورية[7].

---

(1) - ابن خلدون، **المقدمة**... م.س .ص.445.
(2) - **نفسه**، ص.445-446 .
(3) - الناصري، **الاستقصا**... م. س. ج 2ص138 .، ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**... م. س . ص.201 .
(4) - ابن خلدون، **المقدمة**... م. س . ص. 446.
(5) - ابن عذاري، **البيان المغرب**..م.س .ص300..312 ، انظر عن الشرطة عموما، نفسه ص174 .. المراكشي، **المعجب**.... م. س. ص409 .. عز الدين موسى، **الموحدون في الغرب الإسلامي**..مرجع سابق ص209، العمري، **مسالك الأبصار**...القطعة المنشورة في ورقات للمنوني، م.س .ص 303. الذي يذكر أن لصاحب الشرطة سقائف مثل سقائف بقية طبقات الموحدين بتمراكشت.
(6) - **نفسه**، ص. 428 .
(7) - قارن هذه التعريفات مع تعريف ثريا برادة للمشاورية، **الجيش المغربي وتطوره في القرن19** م، م.س .ص.130 .

وكان لبعض الشرائح العليا من الكتلة الحاكمة أيضا سجنها الخاص، يشرف عليه من يقوم مقام صاحب الشرطة العليا، ويصاحب هؤلاء السجناء الخليفة في حله وترحاله، مثل مصاحبة عبد المومن لأبي جعفر بن عطية، في حركته لزياة تينمل فقتل في الطريق، سنة553 هـ[1]. ومثل ابن حيون الكومي الذي كان في محلة يوسف بتواقظين، سنة579هـ، فتمكن من الفرار منها. ومثل حمدين صهر ابن يدر المسجون في محلة أبي دبوس ببلاد السوس[2].

د - الفوارق بين الكتلتين على مستوى السكن :

يستنكف أغلب الحكام من السكن مع الرعية في أماكن سكناها، ويفضلون اتخاذ قصبات محصنة، داخل المدن، ينعزلون فيها عن الرعية، سواء في دار الملك، أو في قواعد البلدان والأقاليم الخاضعة لهم. وقد جرت العادة منذ الفتوحات الإسلامية أن ينزل الحكام بمكان بعيد عن الرعية، كالقيروان (الكلمة بالفارسية تعني المخيم) الذي اتخذه الفاتحون بإفريقية، في سنة50 هـ، والذي تحول تدريجيا بعد ذلك إلى مدينة[3]. فكانت تبنى مدينة سلطانية بجانب مدينة العامة، كما هو الشأن بالنسبة لمدينة الزهراء وقرطبة، ورقادة بالقرب من القيروان، وزويلة بجانب المهدية. وقد اتخذ المرابطون قيروانهم بمكان نزولهم بموضع مراكش، وتحول تدريجيا إلى قلعة لحفظ لأسلحتهم وأموالهم والتي سميت قصر الحجر، أول مابني بمراكش[4]. يقول ابن خلدون عن اختطاط المرابطين لمراكش بأنهم نزلوا بجوار مواطن المصامدة "**ليتميزوا عن سواهم**[5]. "كما أن تلمسان كانت تتكون من مدينتين" إحداهما قديمة، والحديثة اختطها الملثمون ملوك المغرب واسمها تجرارت فيها يسكن الجند وأصحاب السلطان وأصناف من الناس، واسم القديمة أكادير **يسكنها الرعية**"[6]. ولم يخالف الموحدون هذه العادة، فاتخذوا قصر الحجر المحصن، بمراكش، حتى ضاق بهم وبرجالهم، فاضطر يعقوب المنصور لبناء مدينة تمراكشت، وهي قلعة مستقلة بمدينة مراكش، تضم قصور بني عبد المومن وقصور الأشياخ من الموحدين

---

(1) - الناصري، **الاستقصا**... م.س. ج 2 ص.128 .

(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م.س. ص.175...461.

(3) - أبو ضيف، **أثر القبائل العربية في الحياة المغربية** ... مرجع سابق ص.47-52 .

(4) - ابن خلدون، **كتاب العبر**...م.س. ج 6 ص 184 . يقول لتميزهم، ويكرر دائما عند تأسيس بعض **ليتميزوا** فيها عن الرعية، الإدريسي، **نزهة المشتاق**...م.س. ص.233 .

(5) - ابن خلدون، **كتاب العبر**... ج 6 ص .225 .

(6) - ياقوت الحموي، **معجم البلدان**... م.س. ج 2 ص.44 .

وقبائلهم والتي وزع فيها السكن، حسب ترتيب طبقات التي وضعها المهدي، فكان لكل طبقة قصورها[1]. وحدث نفس الشيء في المدن الرئيسية التي استقروا بها، فلما نزل عبد المومن مدينة تونس "بنى بأعلاها قصبة أبراجها مثلثة الزوايا، أمامها **فيصل** من نوعه، **حال بين ساكنها وبين البلد**"[2]. وكقصبة إشبيلية التي عمل الموحدون على توسعتها وتوسعة مسجدها، في عهد يوسف، لأنها لم تعد، حسب شهادة معاصرة، تسع النازلين بها من الموحدين، نظرا لتزايدهم النتاج عن تزايدهم الديموغرافي الطبيعي أو عن ترادف ووفود أعداد من العساكر منهم إليها[3]. وقد اتخذوا كذلك، قصبة بفاس لها مسجد بالخطبة، لأنها مفصولة ومنحازة بسور عن البلد[4]. بل نجد في بعض المدن مصليات خاصة بكتلة الحكام، مثل "المصلى الملوكي المتسع المستوى المشرف على البحر هنالك المختص بسكان أفراك من الأمراء والأجناد وغيرهم" بمدينة سبتة[5]. ويلاحظ أن أماكن نزول أغلب العصبيات الحاكمة تحولت إلى مدن كما حدث في القيروان ومراكش أو غيرهما لأسباب عديدة.

يدل اتخاذ السكن من طرف الكتلة الحاكمة في قصبات محصنة داخل المدن، من الناحية الاجتماعية، على حذر الحكام من الرعية، وعلى التوتر الاجتماعي السائد بين الكتلتين، كما يظهر من كلام أبي عبيد الله الشيعي وقد بلغته معاناة وشكوى سكان زويلة، وهم تجار في أغلبهم، من هذا الفصل بين متاجرهم وأموالهم بالمهدية، وبين سكناهم بزويلة، ومن التنقل اليومي بينهما، إذ قال : "**لكن أنا في راحة**، لأنني بالليل أفرق بينهم وبين أموالهم، وفي النهار أفرق بينهم وبين أهاليهم، **فأمن غائلتهم**"[6]. وقد ظهر هذا الحذر كذلك، في العهد المريني، إذ اضطر أبو يوسف يعقوب لبناء قصبة منعزلة بفاس، هي المدينة البيضاء التي "اتخذها مسكنه ومسكن جيشه **ليتميز** بينهم وبين الحضر من أهل مدينة فاس"[7] وذلك في اليوم الموالي مباشرة لقيام أهل فاس على اليهود، 2 شوال سنة674 هـ.

---

(1) - العمري، **مسالك الأبصار**...المنشورة في ورقات عن الحضارة المغربية للمنوني... م.س .ص.303 -304 .
(2) - مجهول، الحلل الموشية ...م.س .ص.153 .
(3) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة** ...م.س .ص.384 .
(4) - مجهول، **الاستبصار**... م.س .ص.181.
(5) - الأنصاري السبتي، **اختصار الأخبار**...م.س .ص.47.
(6) - مادة زويلة عند ياقوت الحموي في معجمه، حركات إبراهيم. **المجتمع الإسلامي**... ص.170 .
(7) - ابن مرزوق، **المسند الصحيح**... م.س .ص116 .. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**... م.س، ص. 322.

ويتميز سكن الحكام، في كيثر من الوجوه، عن سكن الرعية، من حيث الفخامة والتأنق وفي مقدار تكاليف البناء، والمواد المستعملة كالرخام. كان مثلا، بالمنزل الأول المعد للخليفة بعد الخروج من مراكش، بمكان يسمى المخالص، حمام مبلط بالرخام فأمر المرتضى بإزالته لأجل الزلق[1]. وغالبا ما يتخذ الأعيان حمامات خاصة في دورهم، ويبلغ عددها بقصبة سبتة 10 حمامات، أي تقريبا ثلث حمامات المدينة، إذ إن عدد المبرزة بها للناس كان22 حماما[2]، بل وصل الأمر، بأحد أفراد الكتلة الحاكمة بمدينة أزمور، أن حجر الحمام العام لاستعماله وحده، ولم يسمح لأحد بالدخول إليه، ولو كان عالما كبيرا[3]. ويكفي العودة، إلى المصادر، لأخذ صورة عن البذخ والترف والتأنق في بناء السكن الأساسي للكتلة الحاكمة؛

وصف العمري لضخامة واتساع قصور مراكش، واستقلال الكثير من دورها بذاتها، بما تتوفر عليه من عبيد وخدم، بل وحتى من المعلمين للصبيان[4].

أدى ارتفاع مستوى عيش الكتلة الحاكمة الموحدية إلى المساهمة في ارتفاع تزايدها الديموغرافي، بشكل غير عادي يفوق بكثير تزايد الرعية.

هـ - تفاوت الكتلتين في نسبة التزايد الديموغرافي:

عرفت الكتلة الحاكمة تزايدا كبيرا مقارنة بالتزايد الديموغرافي العام للسكان[5] لسببين أساسيين: احتكارها لفائض الانتاج الاقتصادي ومستواها المعيشي المرتفع كما سبق الذكر، ولتعدد الزوجات والتسري بالجواري. فقد بلغ عدد الجواري بقصر ابن جامع، في عهد الناصر،500 جارية[6]. وكان لأحد قادة يعقوب المنصور 300جارية[7]. وهي أرقام ضعيفة إذا ما قورنت بما كان لدى الوزراء المشارقة في العهد العباسي. وكانت أكبر نسبة ديموغرافية سجلت في البيت الحاكم، بيت بني عبد المومن. فقد خلف عبد المومن من

---

(1) - ابن عذاري. **البيان المغرب**... م. س. ص.408 .
(2) - الأنصاري السبتي. **اختصار الأخبار**... م. س. ص.34- 35.
(3) - الحميري. **الروض المعطار**.... م. س. ص.5.
(4) - أمظر فقرة البناء في فصل المالية الموحدية من هذا العمل. ص : 196 .
(5) - انظر مقالنا:التزايد الديموغرافي لدى الأسر الأرستقرطيات الحاكمة في العصر الوسيط. نموذج الأرستوقراطية المرابطية والموحدية» في مجلة. كنانيش عدد 1سنة 1999 منشورات كلية الآداب وجدة ص.29-39 .
(6) - العمري. **مسالك الأبصار** ... القطعة التي نشرها محمد المنوني. م.س .ص 304.
(7) - مارمول. **إفريقيا**... م. س ج 2 ص47.

الذكور الأحياء دون المتوفين في حياته ودون الإناث، 16 أو 18 ولدا، وخلف يوسف 18 ابنا، وخلف المنصور 16 ولدا. وكان محمد الناصر أقلهم ولدا، إذ لم يخلف سوى 3 أولاد، لأنه توفي في الثلاثينات من عمره. ويكون معدل الذكور لكل خليفة (16+18+16+3)= 54 ÷4=13 ولدا حيا، أي أن البيت يتزايد ذكوره 13 مرة كل 25 سنة أو في كل جيل. وعلى الرغم من بعض الوفيات الطبيعية وغيرها، في صفوف هؤلاء الأمراء- المعروفين بالسادات- سيكون عدد أفراد البيت بعد قرن من انطلاق الحركة الموحدية، سنة515 هـ إلى سنة610 هـ، أكثر من الألف ذكر، على أقل تقدير. وأما إذا قمنا بضرب الأرقام بعضها في بعض (3x16x18x16=13.824ولد) سنصل نظريا إلى أكثر من عشرة الآلاف من الأمراء. في كلا الحالتين، نحن أمام انفجار ديموغرافي حقيقي داخل البيت الحاكم، مادام عدد الأمراء يتجاوز الألف بسهولة في أقل من قرن[1]. والدليل الإضافي على كثرتهم، هو أنه أصبح لهم ابتداء من عهد الخليفة يوسف بن عبد المومن مزوارهم كأي طائفة كثيرة العدد تحتاج الدولة إلى من يسير شوؤنها، مثل مزوارات القبائل التي تكون واسطة بين الدولة والقبيلة أو بينها وبين مختلف الطوائف. وكان أقدم مزوار لهم هو أبو حفص بن عبد المومن الذي لقب بسبب ذلك **بالسيد الأعلى**، وقد لعب دورا أساسيا في نقل الخلافة من الابن البكر محمد إلى شقيقه يوسف، سنة558 هـ/ 1163م، وأقنع المترددين في بيعته من الاخوة الآخرين[2]. ثم تلاه ابنه السيد أبو زيد بن عمر بن عبد المومن، في عهد المنصور، وهو الذي حمل بقية القرابة على بيعة المنصور[3]. ثم تولى السيدان أبو زكرياء يحي بن عمر وأخوه أبي الحسن بن عمر منصب المزوار، في آخر أيام يعقوب المنصور. وقال عنهما "إن هذين الرجلين لخير هذه البيتة كنا قد **قدمناهما على إخواننا وعلى بلادنا**"[4]. وتولاه أيضا أبو زكرياء يحي بن عمر مع أبي موسى عيسى بن عبد المومن، وهو آخر من بقي من ولد عبد المومن لصلبه. وهما اللذان أخذا البيعة يوسف المستنصر[5]. وتولاه، في عهد الرشيد، عمه وصهره أبو محمد سعد، سنة642 هـ[6]. هكذا ضعف المنصور حتى من نقباء السادات، تبعا لإصلاحاته، وكان منصب نقيب السادات يتوارثه أبناء وأحفاد السيد أبو حفص الأعلى.

---

(1) - قارن هذا التزايد مع نظرية مالتوس التي تقول بتضاعف السكان بمتوالية هندسية والغذاء بمتوالية حسابية كل 25 سنة مع وجود فارق الزمن والمكان والمجتمع بين عهد مالتوس والعهد الموحدي.

(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م س ص93.,305, 452, 186, 187, 231.,

(3) - **نفسه**، ص.171 .

(4) - **نفسه**، ص.231.

(5) - المراكشي، **المعجب**...م س ص.462.

(6) - ابن عذاري، **البيان المغرب**...م س ص.299.

وكان التزايد، في صفوف الأشياخ بدورهم، كبيرا، لكن أقل من مستوى البيت الحاكم أعلاه. يقول عبد الواحد المراكشي عن كبيرهم، أبي حفص الهنتاتي بأنه "**خرج من صلبه خلق كثير**"[1]، وذكر له أحد عشر ولدا بأسمائهم. كما لاحظ أن الأشياخ، سواء من أهل الجماعة أو من أهل الخمسين، أصبحوا، في بداية القرن7 هـ/13م، "**خلقا كثيرا**[2]"، معللا كثرتهم بانضمام أناس آخرين إليهم من قبائلهم فعدوا منهم: فتكاثر عددهم بالتزايد الطبيعي وبالمنضوين إليهم من الأتباع .

ومما يؤكد تزايد الأشياخ، خلال قرن من الزمن، أن المأمون قتل منهم في مراكش وحدها، أثناء انقلابه المذهبي والسياسي سنة627 هـ، أكثر من 100 شيخ من صناديدهم، أغلبهم من قبيلتي هنتاتة وتينمل[3]. هذا مع العلم أن الأشياخ الموجودين بالولايات الأخرى، أكثر بكثير من الموجودين بمراكش، زيادة على أن أشياخا آخرين كانوا قد فروا مع يحي بن الناصر إلى الجبل، بل تذهب بعض الروايات إلى أن المأمون قتل، من الناكثين لبيعته بمراكش، 14.000 شيخا، وعلق رؤوسهم على سور مراكش[4]. إذا كان من الصعب تأكيد هذا الرقم أو نفيه، فإن ما لا شك فيه، هو أن الأشياخ الذين كان مجموعهم لا يتعدى 80 شيخا (20 من أهل الدار+ أهل العشرة + أهل الخمسين)، في أوائل القرن12م، قد اقتربوا بدورهم من عشرات المئات، إذ تضاعف عددهم عدة مرات، حتى أوائل القرن13م. ويؤكد ذلك أن الرئيس منهم، بقصور تمراكشت الفسيحة جدا، كان يغلق عليه باب داره، لا يحتاج إلى الخروج لشيء خارج المنزل، حتى الأطفال كان لهم معلمهم داخل القصر مما يدل على كثرة أبنائهم[5].

هكذا يبدو أن الإصلاح الديني الموحدي لم يغير شيئا من التراتبية الاجتماعية السائدة، قبل القرن12م، بل إن التنظيمات الموحدية أعادت إنتاج نفس الشرائح الاجتماعية السائدة قبلها في صفوف كتلتي الحكام والرعية، في المناطق التي تنالها الاحكام المخزنية.

---

(1) - المراكشي، **المعجب**...م.س .ص.480 -481.
(2) - **نفسه**، ص.480 - 481.
(3) - ابن خلدون، **كتاب العبر**... م.س .ج 6 ص.353 .
(4) - مجهول، **الحلل الموشية**... م.س .ص.165 .
(5) - العمري، **مسالك الأبصار** ...من نشر محمد المنوني في ورقات عن الحضارة المغربية م.س .ص.300 .

غير أن كتلة الحكام لم تكن هيئة واحدة منسجمة، بل كانت بدورها مرتبة بشكل هرمي، حسب المعايير المذكورة في فصل التنظيمات الموحدية. ويمكن التمييز، في صفوف هذه الكتلة، بين أربعة شرائح أساسية: البيت الحاكم أو أهل الدار، في قمة هذا الهرم الاجتماعي، تليه بيوتات الأشياخ، ثم عامة الموحدين، والحشم أو المصطنعين.

II. التنضيد الاجتماعي في كتلة السلطان:

1. البيت الحاكم :

يأتي بيت بني عبد المومن في صدارة الهرم الاجتماعي للكتلة الحاكمة، كما كان الأمر في بيت الأمغاريين، في فترة518-524 هـ/1125-1130م . لم يكن لهذا البيت، كبيت حاكم لقب تشريفي، كما كان الشأن بالنسبة لبيت ابن تومرت، لكن كان لاسمه صدى خاص، وحرص بنو عبد المومن أن لا يتخذ غيرهم لقبهم العائلي هذا، أو تخوف الناس من ذلك. فقد اضطر كثير من الناس، ممن كان لهم لقب مثلهم، إلى تغييره، كما فعل أحمد بن عبد المومن الشريسي شارح المقامات المعروف، في بلده، بابن مومن "لمكان التقية من غيرة آل عبد المومن من مشاركتهم في الشهرة بالانتساب إلى جدهم، فكثيرا ما كانوا يفعلون ذلك، ويغيرون الأسماء والكنى والأنساب والشهر على الجملة بسببه"[1]. ومن مظاهر تميزه أن أفراده كانوا يسمون بالسادات في وقت ما -يصعب تحديده - من عهد عبد المومن، إذ كانت "لفظة السيد في المغرب، في ذلك العصر، لا تطلق إلا على بني عبد المومن بن علي"[2].

لقد كان البيت المومني، رغم وضعه الاستثنائي، كبيت حاكم مالك لجل السلط ولأكبر قسط من الجاه، يخضع لنفس العلاقات الاجتماعية والتراتبية التي لاحظناها، سالفا، في البيت القبلي، ولا تخرج التصرفات الاجتماعية لأفراده عن تصرفات باقي البيوتات الأخرى في المجتمع، أو السلوكات التي تسعى المؤسسات التربوية (المساجد والرباطات) لترسيخها، وأهمها:

---

(1) - عبد الملك المراكشي، **الذيل والتكملة** ...م . س. سفر 1ص268، سفر 8ص.28 .
(2) - المقري، **نفح الطيب**...م س .المجلد 4 ص108 .، الناصري، **الاستقصا**... ج 2 ص. 118 .

أولا، الخضوع لسلطة شخص منهم، من المفترض أن يكون أقواهم وأكبرهم سنا وأرجحهم عقلا وأشجعهم، أي أكثرهم غناء، وهو المعين كخليفة، ويخضعون له خضوعا شبه مطلق. لهذا اختار الموحدون إسناد ولاية العهد للابن البكر، منذ عهد عبد المومن إلى سنة610 هـ/1211م، على عكس المرينيين الذين كانوا يختارون أمرائهم أفقيا من الأعمام في بداية حركتهم[1]. ويعامل الخليفة أفراد البيت كأب يريهم سطوته ومهابته وعطفه وإحسانه، أي يعاملهم تارة بالعنف والشدة وتارة بوسائل الإغراء العديدة ومنها المال، ويسعى جل الأمراء -في الغالب -لكسب رضاه وتجنب سخطه.

ثانيا، تعتبر الإمبراطورية ملكا مشتركا بين القرابة، من بني عبد المومن. ولهم حشمهم ومواليهم و**أنصارهم وأعوانهم**، وفي مقدمتهم الموحدون، حسب تعبير المراكشي[2]، ثم عبيدهم، وهم عبيد المخزن، إضافة إلى العبيد الشخصي لأفراد البيت. وكما يعمل البيت العادي في البادية على توسيع المدار الفلاحي إلى أقصى مداه، يعمل هذا البيت بدوره على توسيع ممتلكاته إلى أقصى مداها، وآخر محاولة في هذا الشأن، هي ضم جزر منورقة وميورقة التي كانت بيد بني غانية، سنة599 هـ/1203م.[3]

ثالثا، يمتلك هذا البيت، خلافا للمرابطين، سلطات شبه مطلقة سياسية قضائية وعسكرية لا يحد منها أحيانا إلا الشريعة الإسلامية وبعض الاكراهات السياسية. ولا فرق بين الأمراء وبين الخليفة، حتى بداية عهد المنصور، إلا في نفوذ العلامة فقط كما سنبين بعد قليل[4].

كان الأمراء هم أول المستفيدين من خيرات هذه الملكية ومن منافعها، فأكبر الإقطاعات أو الأسهم من الجباية تؤول لهم، حسب مراتبهم وأقدارهم التي تحددها درجة القرابة من الخليفة وسنهم. فلم يبايع يعقوب المنصور مثلا، من طرف أعمامه بالرباط، سنة 580 هـ/1185م، إلا "بعدما ملأ أيديهم أموالا وأقطعهم الإقطاع الواسعة[5]"، وكانت هذه الإقطاعات كبيرة تذر عليهم مدا خيل مهمة، تقارب 10.000 دينار سنويا، فضلا عن العطاءات الأخرى. وهو مبلغ لا يحصل غيرهم على نظيره إلا في حالات نادرة

---

(1) -Kably Mohamed, **Société**, ...opt. cité, p. 185,

(2) - المراكشي، **المعجب**...م.س. ص481.. انظر عن هذا الامتلاك ابن خلدون، **المقدمة** ...م.س. ص261، 405.

(3) - المراكشي، **المعجب**...م.س. ص451 .. ابن عذاري، **البيان المغرب**... م.س. ص239 .

(4) - المراكشي، **المعجب**...م.س. ص404.

(5) - نفسه، ص384 .. وبلغ ما أعطاه المنصور لعمه أبي زيد 10,000 دينار حسب ابن عذاري، البيان المغرب...ق .الموحدين، ص171.

واستثنائية[1]. وينالون كذلك حصة الأسد من الصدقات التي تخرج من بيت المال، فحين تصدق يعقوب المنصور قبيل خروجه لغزوة الأرك، سنة 591 هـ، "بأربعين ألف دينار، خرج منها للعامة نحو من نصفها، والباقي في القرابة"[2].

رابعا، لا يتولى الخليفة وحده الحفاظ على هذه الملكية العائلية وتسييرها، بل يشاركه، في تحمل أعباءها، الذكور القادرون على ذلك من قرابته، لا فرق بينهم في ذلك. وتسند لهم مهام كثيرة منها تعيين السادات على الولايات لتسيرها، وقد جاء في وصية المنصور أن تعيين السادات مفيد لأمراء وللموحدين على السواء. إذ قال: "وهؤلاء الطلبة يعني السادات إن أمكنكم ألا تتصرفوا أحدا منهم **فهو الأحق لهم ولكم**"[3]. وحظرهم من "الانشغال بالطبل لأنه مما يخفف العقول" ومِمّا سيصرفهم إلى الانغماس في اللهو بدون شك. ومن تم كانت تسند لهم إدارة الولايات وقيادة الحملات العسكرية لتهدئة الرعية وتسكينها في حالة تمردها، أو الدفاع عن حوزتها. والولاية في حد ذاتها، آنذاك، هي مكافأة وتشريف وتنويه لامسؤولية فقط، بالنظر إلى ما تخوله للوالي من جاه ونفوذ، وما تذره عليه من أموال هامة زيادة على المكانة المعنوية المترتبة على تعيينه. وكان الأشياخ والأعيان ببعض المدن يرغبون في وجود شخص من السادات يستندون إليه في الحكم ويحترمون به، حسب تبرير وفد من أعيان إشبيلية، سنة551 هـ/1157م، حينما طلبوا تعيين أمير على بلدهم[4].

كان من ضمن الأهداف الأساسية لتعيين السادات على الولايات كذلك، أن يتلقى أبناء البيت المومني التدريب الإداري والعسكري في الميدان وعلى أرض الواقع، واكتساب الخبرة الساسية والعسكرية للإعدادهم لتولى الخلافة إذا اقتضى الأمر، أو لتحمل مسوؤلية التسيير كالوزارة. ومن ضمن الأمراء المستفيدين من ذلك، على سبيل المثال، يعقوب المنصور، إذ كانت الوزارة التي تولاها لأبيه مدرسة اطلع فيها على شؤون الدولة إطلاعا جيدا، وتعرف على تصرفات المستخدمين بالخصوص، إذ فيها " بحث عن الأمور بحثا شافيا، وطالع أحوال العمال والولاة والقضاة وسائر من ترجع إليه الأمور، مطالعة أفادته **معرفة جزئيات الأمور**"[5].

---

(1) - المراكشي، **المعجب**...م.س .ص414 -415 .. ابن عذاري، **البيان المغرب**...م.س .ص.171 .
(2) - المراكشي، **المعجب**...م.س .ص.411 .
(3) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م.س .ص.231 .
(4) - **نفسه**، ص.56 .
(5) - عبد الواحد المراكشي، **المعجب**...م.س .ص.379 .

وكان البيت الحاكم يحرص على تكوين السادات تكوينا علميا وسياسيا؛ و ترجع الثقافة العالية للخليفة يوسف بن عبد المومن مثلا، إلى" أن أباه هذبه وقرن به وباخوته أكمل رجال الحرب والمعارف، فنشأ في ظهور الخيل بين أبطال الفرسان، وفي قراءة العلم بين أفاضل العلماء"[1]. لهذا يعينون منذ نعومة أظفارهم حتى قبل وصولهم، أحيانا، سن الرشد. ففي سنة 548 هـ/1154م، ظهر لعبد المومن 13 ولدا فعينهم على الولايات، ومنهم من كان صغيرا، "وسمى السوس لابنه أبي زيد بن اللمطية لم يسر إليه، لأنه كان **صبيا صغيرا**"[2]. وقد سار الخلفاء الموحدون على نفس السياسة، في تعيين أبنائهم وقرابتهم على رأس الولايات. لكن المبالغة في تعيين القاصرين منهم، قد يشكل مخاطرة كبرى على إدارة تلك الولايات، لما قد ينتج عنها من اضطرابات، بسبب سوء التسيير. ولذلك انتقد البعض من المسؤولين في الدولة وبعض من العلماء، سياسة تعينات القاصرين من القرابة، في عهد يعقوب المنصور الذي أقدم، حسب العادة، على تعيين "بنيه وصغار اخوته وبني أعمامه وذوي قرابته ولاة على البلاد ترشيحا لهم، **وإشادة بمكانتهم لديه، وتنبيها لقدرهم**"[3]. وقد بلغ أبو العباس أحمد بن يحي العبدري القرطبي، أحد العلماء المعروفين بكثرة اجترائهم، على الأمراء من بني عبد المومن، استياءه وتذمره، ليعقوب المنصور، إذ حضر في المجلس العلمي للمنصور زمن الصيف بحرارته المفرطة التي تعرفها مراكش عادة، في هذا الفصل، مرتديا اللباس المعتاد للأثرياء في شدة برد فصل الشتاء، كالفراء وثياب الملف والقباطي والبرانس واستكثر من لباسها. وعندما سأله المنصور عن السر في ذلك، أجابه أنه يعتقد أن الفصل فصل برد، ولأنه رأيت **المدائن** فرقت على **الصبيان والأطفال** يعبثون فيها ثم يأكلونها"[4]. ويقصد بالمدائن حلوى كانت تصنع بالمغرب والأندلس، وكانت تأخذ أشكالا مختلفة وتعطى، للأطفال، تبشيرا بخصب العام الجديد وتفاؤلا ببسط الرزق فيه عليهم. وقد اضطر يعقوب المنصور، حسب هذه الرواية، إلى فسخ تعيينات الأطفال الأصاغر على الولايات بعد هذا المجلس. ولم يخرج عن عادة تعيين الأبناء سوى الناصر، ربما بسبب قلة أولاده الذكور وصغر سنهم، دون شك، والذين لم يبلغوا بعد عشرة أعوام على الأكثر، إذ تولى هو نفسه الخلافة في سن السادسة عشر، وتوفي في الثلاثينات من عمره. وكيفما كان الأمر، فقد أخذ عليه عبد

---

(1) - الناصري، **الاستقصا**...م.س .ج 2 ص.151 .
(2) - البيدق، **أخبار المهدي** ...م.س .ص.76 -77.
(3) - ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل والتكملة**...سفر 1 ص.565 -566 .
(4) - نفسه، ونفس الصفحات.

الواحد المراكشي المطلع على أمور البلاط الموحدي" أنه **كان يبخل أولاده**"[1] ، أي أنه لم يعينهم على رأس الولايات، كالمعتاد أو يقلدهم مهمات أخرى، ربما بسبب ماسبق.

وكانت تعيينات الأمراء تتم حسب روابط الأمراء بالجهة التي يعينون بها، فقد عين عبد المومن أبناءه على أقاليم أخوالهم، فعين ابن اللمطية عند أخواله بإقليم سوس، وعين ابنه عليا بفاس لأن أمه فاسية[2].

لكن البيت الحاكم لا يخاطر بسمعة أفراده من السادات، ويحرص على أن لا تسند لهم إلا الولايات التي لا تعرف مشاكل كبرى ولا تتطلب كفاءة عالية عسكرية وسياسية. بينما كانت الولايات الخطيرة، شأن الولايات المهددة بالغزو المسيحي، كالثغور على الحدود الأندلسية أو الولايات المضطربة في إفريقية، تسند للأشياخ المقتدرين من الموحدين ولذوي النجدة والكفاءة منهم. لأن القرابة من أهل الدار لا يودون أن يغامروا بسمعة بيتهم في مثل تلك الولايات، أويعرضوا حياتهم للخطر، إلا إذا كانت لأحدهم الكفاءة اللازمة، مثل كفاءة يوسف بن عبد المومن التي مكنته من تحقيق بعض الانتصارات على المسيحيين بالأندلس، وكانت تلك الانتصارات سببا لنيله الخلافة بعد خلع أخيه محمد المتهاون والمستهتر والمتهم بتناول الخمر[3].

ويحرص البيت المومني كذلك، أشد الحرص على أن لا تغطى بطولات وأمجاد الأشياخ على بطولة وسمعة أفراد البيت، ويظهر ذلك في تعامل يوسف بن عبد المومن مع الشيخ يوسف بن وانودين الهنتاتي، سنة 578 هـ، الذي حقق نصرا هاما على اذفونش بحصن الغلال. رغم فرح الخليفة بهذا الانتصار، لكن، في نفس الوقت، أبى أن ينسب فضله للشيخ المذكور. وقال له : "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى"، بل ونفاه إلى حصن غافق من ثغور الأندلس ثم إلى تونس وعاتب السيد أبي إسحاق والي إشبيلية على عدم مشاركته، في تلك المعركة، التي نسبت للشيخ ابن وانودين، وهو من جملة قواده، كما عاقب كل من لم يحضرها، من الأجناد، بحرمانهم من عطائهم المعتاد، مدة من الزمن[4].

---

(1) - البيدق، **أخبار المهدي**... م س ص.77.
(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب**..ص78 ,.83 . ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**... م س ص.154 .
(3) - **نفسه**، ص.149-1452.
(4) - المراكشي، **المعجب**..م س ص.468 - 469.

كان أفراد هذا البيت، في البداية، منسجما ومتضامنا إلى حد ما، يظهر ذلك في عهد يوسف، إذ تمكن البيت من التغلب على العراقيل السياسية الناجمة عن وفاة عبد المومن مؤسس الإمبراطورية، لكن التناقضات الداخلية بدأت تنخره من الداخل كأي بيت يتوسع بسرعة كبيرة نظرا للتزايد الديموغرافي السريع لأفراده الذكور، مقارنة بتزايد الأرستقراطية المرابطية، كما سبق الذكر. وهو سيدفع في اتجاه تفكيك البيت واضعاف وشائج القربى والالتحام بين الأمراء بهذا العدد الضخم، خصوصا وأنهم من أمهات متباينة الأصول الاجتماعية والجغرافية، وتحكمه القيم القبيلة، خاصة وأنه لم يعد له بيت منافس خارجي يجعله متحدا لمواجهته. وظهر ذلك التفكك في المنافسة بين الأمراء في عدة مناسبات، بل إن بعضهم لم يجد ولاية يتولاها، كعبد الواحد المخلوع في عهد أخيه يوسف أو ابن أخيه المنصور، ولم يول إلا في عهد الناصر، سنة598 هـ[1]. وسوف لن تنفع روابط المصاهرة الداخلية التي كانت تربط بين بعضهم، ذكرت المصادر عدة حالات منها[2]، في رأب الصدع بين الأمراء الذين يعج بهم البلاط والولايات، إذ سرعان ما طفت الخلافات على السطح، بين أفراد البيت المومني، وذلك بمناسبة خلع محمد الابن البكر غير الكفء عن الخلافة التي عهد بها إليه عبد المومن. تم خلعه في ظروف غير واضحة في المصادر، وإسنادها إلى يوسف من طرف فريق من الإخوان الأشقاء من بنت الشيخ أبي عمران الضرير، بزعامة السيد الأعلى ابوحفص[3]. ولم يسو الخلاف بين الاخوة إلا بعد أربع سنوات، وانتهى باتخاذ يوسف للقب أمير المؤمنين، سنة 563 هـ/1168م. وقد ساهم تماسك الأسياخ الذين ما زال لهم ثقل كبير، بزعامة الشيخ أبي حفص عمر الهنتاتي، في تخطي الخلاف، كما أن الخليفة يوسف تريث ولم يتسرع، في اتخاذ لقب الخلافة، الابعد أربع سنوات حين سوي الخلاف[4]. وتوفي، أثناء تلك المدة، بعض الأمراء المنافسين، ربما تم التخلص منهم، لأن طريقة وفاتهم كما ذكرتها المصادر غير مقنعة[5]. وظهر الخلاف، مرة أخرى، بعد 17 سنة، أي بعد وفاة يوسف بن عبد المومن، حين رفض بعض السادات أن يبايعوا يعقوب بن يوسف، رغم الاغراءات والأموال التي قدمها لهم. ولم يتخذ لقب أمير

---

(1) - المراكشي، **المعجب** ... م.س.ص. ص 468-469.

(2) - انظر على سبيل المثال لا الحصر ابن عذاري، **البيان المغرب**... م.س .ص93،305، 352، 452 .

(3) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة** ...م.س .ص.154 .

(4) - نفسه، ص 258-259 .. ابن عذاري، **البيان المغرب**... م.س .ص.98 .

(5) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ... ق .الموحدين م.س .ص.84 .

المؤمنيين، إلا حين سوى الخلاف، في مدينة الرباط. ورغم ذلك، كان يكفي سماع هزيمة جيش المنصور، بإفريقية أمام ابن غانية، سنة583 هـ/1188م، لكي تشرئب نفوس بعض الأمراء، مثا أخوي المنصور وعمه، إلى طلب الخلافة لأنفسهم ومحاولة الثورة عليه. وعجلت هذه الأنباء برجوع المنصور من إفريقية والسير بجيشه، بسرعة قياسية غير معتادة للحركة، وهي سرعة 50 كلم يوميا عوض 15 كلم المعتادة للحركة، قصد تدارك الأمر قبل اتساع الخرق(1). وهنا لجأ المنصور إلى حل عنيف وهو القتل، لأن الخلاف بينه وبين بعض قرابة يعود إلى ما قبل ولايته، إذ" كان له من اخوته وعمومته منافسون لا يرونه أهلا للإمارة، لما كانوا يعرفونه من سوء صباه، **فلقي منهم شدة**"(2). تعليل المراكشي هذا، لا يفسر، لوحده، حدة الصراع بين الطرفين، بل كانت سياسة المنصور سببا أساسيا في ذلك، إذ كان فريق من القرابة يعارضها، لأنه كانوا في طليعة من استهدفتهم الإصلاحات التي دشن بها المنصور عهده ومن المتضررين منها، إذ اضطروا للتصالح مع الناس، فيما ادعوه عليهم، من رشاوى وهدايا خوفا من عقابه. بل قلص يعقوب المنصور من مكانة وصلاحيات القرابة من الاخوة والعمومة، فقد لاحظ، سنة 582 هـ/1187م، بمدينة تازة، أن أكثر السادات يرتدون اللباس الخاص بالخليفة، وهي الغفارة الزيبيبة والبرنس المسكي، وأنكر عليهم ذلك. ثم جمعهم السيد الأعلى أبو زيد نقيب القرابة ونبههم إلى ضرورة احترام العوائد والمحافظة على الآداب مع الخليفة، وتجنب كل ما يختص به من الزي الرسمي(3). وربما، منذ هذا التاريخ، اتخذ الأمراء لباسا من لون آخر، كما يبدو من وصف هيئة وزي أبي العباس اليانشتي حاكم سبتة، سنة630 هـ/1233م، محاكيا فيها أمراء بني عبد المومن، إذ كان راكبا "على فرس عتيق، وعليه ثياب ملوكية، وغفارة كحلاء، وبين يده العبيد بالرماح، وبجانبه الحجاب"(4). ثم تميز عنهم، مرة أخرى، باتخاذ لقب تشريفي، وهو لقب المنصور بالله. ومنذ عهد يعقوب المنصور أصبح الخلفاء الموحدون يتخذون ألقابا تشريفية، مثل الناصر بالله والمستنصر، والعادل، والمأمون، المرتضى.الخ.

ولم يقف المنصور عند هذه الحدود الشكلية، بل حدد اختصاصات الأمراء التي كانت من قبل، لا تختلف عن اختصاصات الخليفة، وقلصها وميزها عن سلطات الخليفة، وقلم

---

(1) - نفسه، ص197 .. المراكشي، **المعجب** ...م.س .ص. 399 .

(2) - المراكشي. **المعجب**...م.س .ص.383.

(3) - ابن عذاري، **البيان المغرب**...م.س .ص 187 . وانظر لون هذا اللباس منذ عهد عبد المومن **نفس المصدر** ص.44 .

(4) - الحميري، **الروض المعطار**... م.س .ص622 .. 303 محمد بن تاويت، «سبتة المسلمة»، منشور في مجلة المناهل عدد 22 ص118.، ابن عذاري، **البيان المغرب**... ص294 .، ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**... م.س. السفر 8 ص.366.

من أظافرهم بعد قتل أخويه وعمه، "ولم يزل أمر القرابة من يومئذ في **خمول وهلم**، وقد كانوا قبل ذلك **لا فرق بين أحدهم وبين الخليفة سوى نفوذ العلامة**"[1]. وبعد قتله لأخويه ولعمه، سنة 583 هـ، "**هابته بقية القرابة، واشرأبت قلوبهم خوفه**، بعد أن كانوا متهاونين بأمره محتقرين له، لأشياء كانت تظهر منه في صباه توجب ذلك"[2]. ويؤكد هذا ما لاحظه ابن خلدون من أن"طبيعة الملك الانفراد بالمجد"[3]. ومع ذلك ترك لهم بعض الامتيازات البروتوكولية التي تميزهم عن سواهم من رجال الدولة، إذ كان في إمكانهم مثلا، أن لا يزيلوا نعالهم أثناء مرورهم على مجلس الأشياخ والوزراء، باستثناء من قصدت إهانته منهم واهتضام جانبه، لسبب ما، كما حدث مع الأمير أبي دبوس في عهد المرتضى[4].

بعد هذا الإجراء الجذري والعنيف الذي اتخذه المنصور، اختفت الخلافات بين السادات مؤقتا، تحت السطح لمدة 40 سنة ، ولم تصل إلى حد إعلان الثورة. لكنها تجددت في سنوات 620-626 هـ، وأضحى من الصعب التغلب عليها بعد هذا التاريخ. فقد أصبح البيت الموحدي بيوتات متنافسة، وحرص بيت المنصور منهم، سنة 620 هـ/1224م، على أن لا يخرج منصب الخلافة من أيديهم فتعاونوا على ذلك في الأندلس[5]. بينما توارث أفراد بيت أبي حفص السيد الأعلى منصب مزوار الأسياد. ومن جهة أخرى، فإن بيوتات الأشياخ نفسها، حدثت فيها تغيرات هامة، وكان أغلبها قد سئم من استبداد خلفاء بني عبد المومن، ومن إجبارهم على أداء المهام الإدارية والحربية على الخصوص، نظرا لميلهم إلى الإخلاد للراحة والتمتع بالثروات التي يتصرفون فيها. لذا اختار الأشياخ للخلافة شخصا صغير السن، لا ليتحكموا فيه، إذ لا سبيل لهم لذلك، ولكن ليكون مشغولا عنهم باهتمامات الطفولة والمراهقة، ليتمكنوا من الانصراف إلى راحتهم وبطالتهم، وليتمتعوا بما راكموه من الثروات ومن تنميتها بالجاه والنفوذ. وهذا ما يفسر- جزئيا - عدم القيام بأي حركة مهمة، في عهد المستنصر (610 -620 هـ). ويقول ابن خلدون عن ذلك: "أقام الموحدون بعده ابنه يوسف المستنصر نصبه الموحدون غلاما لم يبلغ الحلم، وشغلته

---

(1) - المراكشي، **المعجب** ...م.س. ص.404 .
(2) - **نفسه**، ص.399-400.
(3) - خصص ابن خلدون فصلا لهذه الظاهرة، **المقدمة**.م.س. ص.295 .
(4) - ابن عذاري، **البيان المغرب**...ق .الموحدين م.س. ص.434 .
(5) - الحميري، **الروض المعطار** ...م.س. ص.175 .

أحوال الصبا وجنونه عن القيام بالساسية وتدبير الملك، **أضاع الحزم وأغفل الأمور وتواكل الموحدون** بما أرخى لهم من حبل الدالة عليه، **ونفس عن مخنقهم من قبضة الاستبداد والقهر**، فضاعت الثغور وضعفت الحامية، **وتهاونوا** بأمرهم وفشلت ريحهم"[1]. وتؤيد المصادر والأحداث التاريخية ميل الأشياخ إلى تعيين خلفاء طيعين في أيدهم وأقل تسلطا[2]. وما أن كبر الطفل وأراد أن يأخذ بزمام الأمور بالحزم اللازم والصرامة الضرورية، حتى نظم الخائفون من بطشه مؤامرة لقتله، فدسوا عليه الطبيب أبي إسحاق بن الحجر الذي سمه[3]. ويؤكد المراكشي الذي جالس هذا الخليفة الصغير السن تخوف أشياخ الموحدين منه، بقوله : "إني رأيت كل من يعرفه من خواص الدولة قد **مليء قلبه منه رعبا**، لما يعلمون من **شهامته وشدة تيقظه**، لقيته وجلست بين يديه خاليا به وذلك، في غرة سنة611 ، فرأيت - من حدة نفسه وتيقظ قلبه وسؤاله عن جزئيات لا يعرفها أكثر السوق، فكيف الملوك - ما قضيت منه العجب، وإلى وقتنا هذا لم يظهر منه شيء مما يتوقع"[4]. وبعد اغتياله اختار فريق من الموحدين الراغبين في الإصلاح، عبد الواحد أخ المنصور المتدين والصارم والحازم، بدل العادل الذي كان يرمى بالميل إلى البطالة وإيثار الشهوات والإخلاد إلى الرحات واللهو[5]. لكن فريقا آخر ندم على اختياره فعزله ثم اغتاله، قبل أن يتمكن من الإمساك بزمام السلطة، بعد شهرين من بيعته، مثلما عزل محمد بن عبد المومن، سنة558 هـ، بعد 45 يوما من حكمه. واستمرت خلافات الأشياخ بعد ذلك، فبايعوا المأمون ونكثوا بيعته، "لما يعلموه من شهامته وصرامته وتخلقه بأخلاق الحجاج بن يوسف"[6]. إذ كان شبيها بأبيه يعقوب المنصور في تعامله الصارم والحازم مع العصبية الحاكمة. فلولا الظروف غير المواتية في تلك الفترة " لولا ما ذكر لكان المأمون **موافقا لأبيه في كثير من الخلل ومتتبعا سننه في الأحوال**" [7]. وبايعوا ابن أخيه يحي بن محمد الناصر القاصر الذي لم يتجاوز 16 سنة من عمره. وعندما توفي الرشيد سنة640هـ/1243م رشح فريق من الأشياخ ابنه القاصر وعارضهم فريق آخر قائلا :

---

(1) - ابن خلدون، **كتاب العبر**... م.س. ج 6 ص 169 . وانظر نفس المعنى، ابن عبد الملك، الذيل والتكملة..م.س.س 8ص.176 .
(2) - ابن آبي زرع، **الأنيس المطرب** ...م.س. ص. 281 ،284 .
(3) - ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**..م.س. سفر 8 ص179 .. ويبدو أن هذه الرواية تستقيم مع تطور الأحداث عكس الروايات الأخرى المتداولة عن مقتله كرواية ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**.... م.س. ص243.. الذي ذكر أنه نطحته بقرة.
(4) - المراكشي، **المعجب**..م.س. ص.466.
(5) - ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**..م.س. س 8 ص.173-174 .
(6) - الناصري، **الاستقصا**..م.س. ج 2 ص.225 .
(7) - **نفسه**، ص.223 .

"**قد أعيينا من تقدم الصبيان علينا** يعنون يوسف المستنصر ويحي أخيه والرشيد"[1]، وعين في نهاية المطاف السعيد الأسود الذي كان بدوره ذا سطوة ومهابة، مثل يعقوب المنصور والمأمون. وبعد تعيينه مباشرة "قبض على جملة من الموحدين أهل **ربطها وحلها**، الكارهين لخلافته، **الخائف من من سطوته ومهابته**، فسجنهم وأغرمهم مالا"[2].

يظهر، مما تقدم، أن الخلل الذي طرق الدولة الموحدية جاء من أفراد البيت الحاكم نفسه، إذ لم يتمكنوا من التخلص بصفة نهائية من قيم البيت القبلي وظل سلوكهم وتصرفاتهم خاضعة لمكانيزماته، فانهار البيت تلقائيا بفعل ذلك، وساهم التزايد الديموغرافي والمنافسة الشديدة بين أفراده على جميع الأصعدة، في انقسام البيت المومني، على نفسه، إلى بيوتات متفاوتة الجاه والنفوذ وفي اضعاف وشائج القربى بينها واحتداد الصراع على الحكم، وعمل كل بيت منهم لحسابه الخاص ليبرهن على أحقيته في الخلافة. كما تعذرعلى البيت المومني أن يحافظ على تماسكه ووحدته في غياب بيت آخر منافس، وهو أحد الشروط الأساسية لتماسك البيت داخل القبيلة والحفاظ على وحدته. ويتضح، من هذا، بطلان الأطروحة التي تحمل الأشياخ مسؤولية تدهور وانهيار الدولة الموحدية، بالقيام بثورات ببعض الأقاليم، خلال النصف الأول من القرن7 هـ/13م، كانتقام منهم على تحويل عبد المومن الخلافة إلى حكم وراثي[3]. بل يظهر، من خلال مقارنة ثورات السادات بمحاولات الأشياخ، العكس من ذلك تماما. فعدد ثورات السادات البارزة تفوق 16 محاولة[4]، في حين أن ثورات الأشياخ لم تتعد ثورتين محليتين، في آخر عهد الدولة وضعفها، منها: استقلال ذرية أبي حفص بإفريقية[5]. ويتبين من خلال تحليل ظروف استقلالهم بإفريقية، أنهم أكرهوا على ذلك، إذ أجبر عبد الواحد بن أبي حفص على ذلك التولي، سنة603 هـ/1207م، واشترط، على الناصر، بعض الشروط التي تضمن نجاحه في مهمته، وأن تدوم ولايته مدة ثلاث سنوات فقط، ريثما ينهي مشكل ثورة بني غانية[6]. كما أن هذا البيت لم يعلن استقلاله بإفريقية، حتى سنة627 هـ/1230م، أثناء

---

(1) - ابن عذاري، **البيان المغرب**...م س. ص.359 .
(2) - نفسه، ص.360 .
(3)- **Histoire du Maroc**, opt.cité p.134 Brignon et autres
(4) - راجع عن تفاصيل هذه الثورات، ابن عذاري، **البيان المغرب**... ص84، 156، 198 ، 269-273، 294، 451 - 453.
(5) - نفسه، ص. 290-293، 363 - 365
(6) - راجع بيت بني حفص في ص.297 من هذا العمل.

انقلاب المأمون المذهبي والسياسي، ولم يكن أفراد هذا البيت متفقين على الثورة. أما الثورة الثانية، فهي ثورة الشيخ عبد الله بن زكرياء الهزرجي، سنة640/ هـ1243م، الذي كان واليا على مدينة سجلماسة ودخل في طاعة الحفصيين[1]. أما ثورة علي ابن يدر الثائر بالسوس، ابتداء من651 هـ/1254م حتى نهاية الدولة الموحدية، فمتزعمها ليس سوى واحد من أتباع وزير المرتضى الشيخ ابن يونس[2]. هكذا لم يقم بالثورة من شيوخ الموحدين إلا شيخين بإفريقية وبسجلماسة، وفي ظرفية ظهرت فيها رغبة البيت الحاكم في تصفية الأشياخ والعصبية المصمودية. هذا يدفع للتساؤل عن الدور الحقيقي للأشياخ داخل الدولة الموحدية. لفهم هذا الدور يتعين استعراض أهم بيوتات الأشياخ.

2. بيوتات الأشياخ:

سبق أن تعرفنا على أصول أشياخ الموحدين، وأدوارهم العديدة في الجهاز المخزني الحاكم وعلى امتيازاتهم المتنوعة، منذ عهد المهدي بن تومرت. ولرصد تطور علاقة الأشياخ بالبيت الحاكم، بقية العصر الموحدي، يتعين دراسة بيتين بارزين لكنهما مختلفان، في نفس الوقت، من حيث أصولهما الاجتماعية ومن حيث السياسة الداخلية والخارجية التي يسعى كل منهما لتطبيقها.

أ. بيت بني جامع رمز استفراد البيت الحاكم بالسلطة:

من أهم البيوتات التي كانت لها مكانة، بين أشياخ الموحدين وفي الدولة، ولو أنها من أصول متواضعة في طبقات الموحدين، هو بيت بني جامع الذي ينتسب لشخص اسمه إبراهيم بن جامع، أصله من مدينة طليطلة التي هاجر منها أهله، بعد سقوطها في يد المسحيين، واستقروا في بوادي ساحل سريش جنوب إشبيلية، بضيعة روطة الشهيرة بأحد مزاراتها بالأندلس. انتقل إبراهيم بن جامع، في أوائل القرن السادس، إلى المغرب الأقصى وكان يحترف صناعة النحاس. ولما مر ابن تومرت، بمراكش سنة 514 هـ، انضم إليه، وصار من أصحابه أو مريديه. ولما وضع ابن تومرت تنظيمات دولته، صنف ابن جامع ضمن أهل الدار الذين يحتلون الرتبة السادسة، في طبقات الموحدين، فكان من خواص خدم ابن تومرت بداره وآخى بينه وبين قبيلة هرغة، كما فعل مع بقية الغرباء الذين لا

---

(1) - ابن عذاري، البيان المغرب...ق. م ص363، 402، 365، 366-366.
(2) - نفسه، ص428 - 429، 454- 460.

ينتمون للعصبية المصمودية[1]. ولا يعطيه هذا التصنيف مكانة مهمة ضمن طبقات الموحدين، لهذا : "لم يكن **شريف النسب** فيهم"[2]. كما لم يكن من المحظوظين وينتقل إلى أهل الجماعة بعد وفاة المهدي، كبعض أفراد أهل الدار. ولكنه استمر، على ما يبدو، في نفس وظيفته الأولى عندما انتقل الحكم من دار بني أمغار إلى دار بني عبد المومن، إذ يعرف ابن عذاري ابنه إدريس بقوله : "وهو نشأة دار أمير المؤمنين"[3]. ولذلك نجده يقوم ببعض المهام الثانوية التي تلائم وظيفته، منها تكليف عبد المومن إياه لينوب عنه في الاعتذار لوفد إشبيلية وطمأنته، سنة 543 هـ، على إثر الحصار الذي تعرض له أعضاء الوفد غلطا بمراكش نتيجة تردد الشائعات عن خروج مدينة إشبيلية عن طاعة الموحدين[4]. وكان من المساهمين في حصار تلمسان، حسب الناصري.

وقد ترك ابن اجامع عددا من الأولاد الذكور، كغيره من الأرستقراطية الموحدية، اشتهر منهم ثلاثة: عبد الحق وإدريس وعبد الله. فالأول كلفه عبد المومن بإتمام أشغال ساقية غبولة، بعد توجه عبد المومن، سنة 546 هـ، إلى فتح بجاية. ولكن الخطوة الحاسمة، في تألق هذا البيت، جاءت حين تقلد أبو العلي إدريس منصب مساعد الوزير السيد أبي زيد، سنة 558 هـ، فكان إدريس ابن جامع "يتصرف في رفع الرفوعات والمسائل وتوصيل رغبة السائل" بين يدي الوزير والخليفة. وسيستقل، سنة 561 هـ، بالوزارة ويختص بها وحده، فقام بأعبائها قياما حسنا أول الأمر، وحمدت فيها سيرته وسياسته، من طرف الأندلسيين على الأقل[5]. ورغم أن المنصب يسند إلى فرد بذاته، فإنه يستعين بأقاربه لأداء المهمة المسندة إليه، لذا نجد أخاه يعينه في مهامه. واستمر في الوزارة مدة 15 سنة. وكان من المحتوم، نظرا لطبيعة السلطة والعلاقات الاجتماعية، أن يتقوى نفوذه وأتباعه، وأن يتعرض للنكبة، سنة 575 هـ، فاستصفيت أمواله ونفي مع بعض الأشياخ المغضوب عليهم، إلى ماردة لمدة 6 سنوات[6]. وكان أخوه عبد الله يقوم بالسفارة سنة 570 هـ، وببعض المهام بإفريقية سنة 579 هـ، ويتولى قيادة الأسطول بسبتة. وفي سنة 581 هـ يتولى

---

(1) - البيدق، **الأنساب**... م س .ص25 .، ابن القطان، **نظم الجمان**...م س .ص.32 .
(2) - ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب**... م. س . ص.236 .
(3) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م. س. ق. الموحدين ص.84 .
(4) - **نفسه**، ص.34 .
(5) - **نفسه**، ص.84 .91.
(6) - **نفسه**، ص.160 .

الأسطول الذي استرجع مدينة بجاية من بني غانية. وسيعود هذا البيت للوزارة، سنة 605هـ، مع تولى أبي سعيد عثمان بن عبد الله بن إبراهيم الوزارة للناصر، مدة 12 سنة، إلى سنة 617 هـ . ويعتبر قصر عثمان بن جامع من أفخم قصور مراكش، إذ صرفت عليه أموال طائلة، وكان فيه أكثر 500 جارية[1]. وخلال الاضطرابات التي رافقت خلع عبد الواحد المخلوع، عزل الوزير ابن جامع من الوزارة، ونفي إلى هسكورة حيث قتل 621 هـ [2].

هذا البيت هو رمز تمكن وتوطيد سلطة البيت الحاكم، سواء في ولايته الأولى، في عهد يوسف، أو في ولايته الأخيرة على عهد الناصر. يدل اختيار هذا البيت للوزارة بدل بيت أحد الأشياخ النافذين، مثل بيت بني حفص، على رغبة الخلفاء في استخدام من ينفذ أوامرهم .

ب. بيت الحفصيين رمز التيار الديني في الدولة:

يعتبر هذا البيت، بعد البيت الحاكم، من أهم البيوتات الموحدية على الإطلاق. كان جد هذا البيت أبو حفص الهنتاتي مرشحا لتولي الخلافة بعد عبد المومن، حسب بعض المصادر المشرقية. وقد لعب أفراده دورا كبيرا في الدولة الموحدية، في أصعب اللحظات حرجا، وحققوا، بالأخص، أهم الانتصارات العسكرية الكبرى، آخرها القضاء على ثورة بني غانية المزمنة. وترجع المصادر الموحدية هذه الخبرة العسكرية، لأفراد هذا البيت الذي انتفعت به الدولة، إلى أن المهدي بن تومرت اختص جد الحفصيين أبو حفص عمر بالدرقة ودعا له بالبركة. ونسب إلى المهدي أنه كان يقول عن أهميته للموحدين: "لا يزالون بخير ما بقي فيهم هذا الرجل أو أحد من ولده ! فكان الأمر، كما قال، وانتفعوا به وبأولاده وأولاد أولاده" [3]. قد يكون هذا القول مختلقا، يدل اختلاقه على أهمية هذا البيت للموحدين. فأبوحفص عمر أو فصكة بن ومزال قبل أن يستبدل ابن تومرت اسمه الأمازيغي باسم عربي، كما فعل مع غيره من أتباعه، كان يسميه المهدي كذلك بالمبارك، كان قد اتصل بابن تومرت في جولته بجبال درن، سنة 514 هـ، قبل استقراره بمسقط رأسه في هرغة، ونزل بداره مدة[4]. ثم صار من أهم قادته العسكريين بتينمل، إذ عينه على رأس

---

(1) - العمري، **مسالك الأبصار** ..من نشر محمد المنوني في ورقات عن الحضارة المغربية... م.س. ص.304.
(2) - ابن خلدون، **كتاب العبر**..م.س. ج 6 ص.351 -352 .
(3) - البيدق، **المقتبس** ... م.س. ص.32، المراكشي، **المعجب**..م.س. ص.478 -479.
(4) - البيدق، **آخبار المهدي**... م.س. ص.31 .

قيادة قبيلته هنتاتة وأعطاه علما في معركة تزي نتماست، حوالي 519 هـ[1]. وقاد، خلال فتح المغرب، عدة حملات كان النصر حليفه فيها غالبا. فهو الذي تولي حصار تاشفين بن علي، في حصن تلمسان، على سبيل المثال[2]. وعندما قامت ثورات عارمة بالمغرب والأندلس، بين سنوات541- 550 هـ، كان له دور كبير في إخمادها، وخاصة أخطرها وهي ثورة ابن هود الماسي[3]. وكان يوسف قد كلفه، رغم تقدم سنه، عام 564هـ، بقيادة حملة جهادية بالأندلس على أمل أن يتبعه الموحدون والجواز معه. فكان الأمر كذلك، إذ حققت الحملة هدفها بفضل هيبته الشخصية ومكانته، إذ تمكن من تحرير بطليوس، ومحاربة ابن همشك[4]. وقد لقبه الموحدون، نظرا لدوره العسكري، بسيف الله تشبيها له بخالد بن الوليد[5]. ويعود الانتصار في معركة الأرك سنة 591 هـ، في جزء كبير منه، إلى خصال أحد أبنائه الذي أبلى بلاء كبيرا في تلك المعركة، وهو الوزير أبو يحي بن أبي حفص الموصوف بالشجاعة والدين والإخلاص والنصيحة، إذ كان يعقوب المنصور عينه قائدا عاما للعساكر التي اصطدمت بالمسحيين، وأبلى بلاء حسننا وصمد أمام زحف الجيش المسيحي الذي تمكن من من كسب الجولة الأولى من المعركة[6]. واشتهر، من أبنائه، ابنه عبد الواحد في عهد محمد الناصر، وهو الذي اقترح على الناصر فكرة محاربة ابن غانية الثائر بإفريقية وشجعه عليها، في حين كان أغلب الأشياخ، من الموحدين، ميالين لمسالمته. وهو الذي حقق الانتصار على ابن غانية، في سنة602 هـ/1206م . وأسندت له، نظرا لكفاءته العسكرية هذه وخصاله الشخصية، ولاية إفريقية ومهمة استئصال فتنة وثورة بني غانية ونجح، بالفعل، في ذلك[7].

أما الدور الإداري والسياسي لهذا البيت، فقد كان أبو حفص وزيرا لعبد المومن حتى أسندت الوزارة لجعفر ابن عطية، سنة 543 هـ. ورغم أن المصادر المشرقية زعمت أنه وقعت تسوية مشكل خلافة ابن تومرت بين عبد المومن والشيخ أبو حفص، بالاتفاق على أن يتولى عبدالمومن الخلافة أولا، على أن تؤول بعد إلى أبي حفص عمر. غير أن الأحداث

---

(1) - **نفسه**، ص.37 .
(2) - **نفسه**، ص.50 .60 .59.
(3) - **نفسه**، ص.67, 68 84 ,85 ، ابن خلدون، **كتاب العبر**... م.س ج 6 ص.275 - 276 .
(4) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة** ...م.س ص.291،295.
(5) - الناصري، **الاستقصا**...م.س.ج 2 ص.108.
(6) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**...224 - 227، ابن عذارى، البيان المغرب...م.س ص.245، المراكشي، **المعجب**...ص .405 - 406
(7) - الناصري، **الاستقصا**...م.س ج 2 ص.208-210 .

الموالية لا تؤيد هذا الطرح إطلاقا. فقد أبان أبو حفص عمر عن إخلاص كبير في خدمة الدولة والبيت المومني، ولعب دورا أساسيا في بيعة يوسف بن عبد المومن وفي تهدئة الموحدين ولم شملهم بعد وفاة عبد المومن. وتدخل لإطلاق سراح محمد بن عبد المومن المخلوع، سنة 558 هـ [1]. وتولى أبناؤه وظائف ومسؤوليات كبرى في الإدارة المركزية أو في الأقاليم، فقد تولى الوزارة عدد من أفراد البيت الحفصي، في عهد يعقوب المنصور، واستعان بهم لتطبيق سياسته الإصلاحية، وضمنهم ابن عمهم ابن يوجان وزير يعقوب المنصور. وكانت تسند لهم مهمة إدارة الأقاليم الصعبة والمضطربة آخرها ولاية إفريقية، في عهد الناصر، سنة 603 هـ/1207م. فكيف يمكن تفسير هذا الدور العسكري والسياسي لهذا البيت؟

لايمكن بالطبع، إرجاعه لتنبئ المهدي أو لدعائه السابق الذكر، وإنما يمكن تفسيره بعاملين على الأقل: عامل تاريخي، وعامل ديني. فقبيلة هنتاتة قبيلة ضخمة جدا، حسب بعض المصادر[2]، غير أن عدد أفخاذ هذه القبيلة يبين أنها قبيلة متوسطة العدد بين بقية القبائل الموحدية[3]، لكن كان لبعض بطونها رياسة وشرف قبل قيام الدولة الموحدية[4]. وقد استمر نفوذها السياسي بقية العصر الوسيط حتى بعد العهد الموحدي، وتمكن الهنتاتيون من الاحتفاظ باستقلال ذاتي بالجنوب المغربي في ظل الحكم المريني[5]. ومما يثير الانتباه، أن مجموعة من الأشياخ البارزين، من أهل الخمسين، كانوا ينتمون لهذه القبيلة. استفاد البيت الحفصي من رصيد التقاليد السياسية والعسكرية لهذه القبيلة العريقة.

ثانيا، كان هذا البيت من البيوت الموحدية المتدينة، وكانت له، بسبب ذلك، مهابة وتقدير في نفوس بقية الموحدين. وهذا ما يفسر اختيار يعقوب المنصور لوزرائه من هذا البيت دون غيره، منهم الوزير المستشهد في معركة الأرك، سنة591 هـ/1195م، والوزير المعروف بالفيل الذي ترك الوزارة وتزهد بالأندلس[6]، وعبد الواحد الذي عين واليا على إفريقية للقضاء على ثورة بني غانية.

---

(1) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**... م.س. ص164 .. ابن خلدون، **كتاب العبر**...ج 6 ص.238.

(2) - المراكشي، **المعجب**... م. س. ص.482، ابن خلدون، **كتاب العبر**... ج 6 ص.267.

(3) - انظر جدول القبائل الموحدية ص .

(4) - المراكشي، **المعجب**... م. س . ص. 482 .

(5) - P. Decenival," Les émirs des Hintata", Hespéris, XXIII, 1937, p 245 -257

(6) - المراكشي، المراكشي، **المعجب**...م. س. ص379 - 380 .. ابن خلدون، **كتاب العبر**... ج 6 ص.246 .

ويمكن أن نستخلص، مما تقدم وغيره، أن هذا البيت كان من أنصار تطبيق السياسة الإسلامية وليس القبلية التي تسعى لتسخير خيرات الإمبراطورية لصالح العصبية المصمودية والمتحالفين معها.

يعكس تاريخ هذين البيتين تطور علاقة البيت الحاكم مع بيوتات أشياخ الموحدين. لقد سبق توضيح كيف تحول الأشياخ من الأصحاب، في رباط هرغة، إلى الأشياخ أصحاب الشورى والتصرف بتينمل، باعتبارهم من أهل الحل والعقد. فشكل بقية أهل العشرة، بعد وفاة ابن تومرت، قيادة جماعية، لمدة ثلاث سنوات حتى بايعوا عبد المومن، سنة527هـ[1]، وكان من بين مهامهم الشورية الأساسية، بعد هذا التاريخ، الموافقة بما يشبه الإجماع على عقد ولاية العهد للأمراء من بني عبد المومن كما حدث، سنة548 هـ، وتجديد البيعة للخليفة. ويلاحظ، خلال هذه المدة، أنه كلما توطدت سلطات الخليفة عبد المومن، إلا وتضاءل نفوذ الأشياخ، وأصبح، بمقدور الخليفة، أن يعاقب من لا يطيعه منهم، إما بالقتل، كما حدث مع يصلاسن قريب المهدي أو نفيهم، أو الحكم على البعض منهم بالإقامة الجبرية، كما سبق الذكر[2]. ورغم أن نفوذهم أي قدرتهم على الحل والعقد قد تقلصت، مع مرور الوقت، بسبب ميل أغلبهم للدعة والراحة ابتداء منذ عهد يعقوب المنصور كما سنبين[3]، وبسبب ميل البيت الحاكم إلى الاستعانة بالمصطنعين، إلا أن الأشياخ لم يفقدوا دورهم، في الموافقة، على ترشيح الأمراء للخلافة وبيعتهم، وسيعملون من خلال هذه الصلاحية على فرض وجودهم على البيت الحاكم والخلفاء، ابتداء من سنة620 هـ. وبما أنهم تفرقوا، قبل هذا التاريخ، إلى جماعات صغيرة متنافسة ومتصارعة على احتكار مناصب الجاه والنفوذ[4]، لا يوحدها إلا الدفاع عن امتيازاتها المادية والمعنوية في بعض الأحيان النادرة؛ لذا حاول المأمون أن يتحرر من سلطتهم، وذلك بالتخلي عن ما كان يعطيهم الشرعية، في الحكم، وهو الشق السياسي من المذهب التومرتي[5].

---

(1) - البيدق، **أخبار المهدي**...م.س .ص.42 .

(2) - انظر أعلاه ص .195 في هذا العمل ص 326 وما بعدها.

(3) - راجع تواكل العصبية المصمودية في

(4) - انظر كراهية الموحدين لبني جامع لأنهم «اتخذوا الوزارة وراثة، وجعلوا يقصون من الحضرة كل من هو مؤهل لوزارة واستشارة» الحميري، **الروض المعطار**...م.س .ص175 .. وجاء في نفس الصفحة أيضا أن سبب عزل العادل لوزيره ابن يوجان هو، «تفرغ أتباعه إلى تدبير الآراء والاستبداد بحضرته، فإنه غمم الجميع، وكان ابن يوجان إذا احتوى على آمر ضم أطرافه ولم يترك منه شيئا لذلك رماه أهل الدولة عن قوس واحدة»

(5) - انظر ص من هذا العمل، انظر تفاصيل ذلك عند القبلي، « **société** » م.س . ص15-20. وقد لاحظ محمد القبلي لامبالاة الجماهير أثناء تبرؤ المأمون .

3 -عامة الموحدين والمصطنعين :

المعلومات، عن عامة الموحدين، قليلة في المصادر، لكن نشير إلى أن أغلبهم يكون الجيش بأنواعه التي سبق شرحها من العموم والمرتزقة وأغلب الحامية العسكرية، وتتولى نخبتهم وظائف عديدة ويتمتعون بامتيازات كثيرة سبقت الإشارة لبعضها[1].

أما المصطنعون من قبائل زناتة وصنهاجة وقبائل العرب، والأندلسيين، والأغزاز وغيرهم من عناصر الجند من غير الموحدين، فقد كانت لهم بدورهم بعض الامتيازات، لكنها لا تصل إلى مستوى امتيازات الموحدين المادية والمعنوية، كانوا يأخذون العطاء المسمى بالبركة، أثناء تجنيدهم في حملة عسكرية، وتعطى لرؤسائهم إقطاعات، كما هو الشأن بالنسبة لقادة الأغزاز[2] ولبعض شيوخ العرب[3]. وكانت أهميتهم تزداد كلما ازداد ضعفت الروح القتالية للعصبية الموحدية، حتى أصبح المصطنعون من المرتزقة المسيحيين أو قبيلة الخلط وحليفتها هسكورة، سنة627 هـ/1230م، القوة الأساسية التي اعتمد عليها المأمون بعد انقلابه المذهبي والسياسي فحصلوا على الامتيازات التي كانت من قبل للموحدين. لكن تزايد اعتماد الدولة، على هؤلاء المصطنعين، لن يحل بدوره مشكل الضعف العسكري الذي عانت منه الدولة، منذ فتور وتهاون العصبية المصمودية، خلال النصف الأول من القرن13 م، إذ لم يستطيع المصطنعون، رغم تنامي قوتهم وتزايد جاههم ومكانتهم، انقاذ الدولة من الانهيار والتفكك. لأنهم كانوا مجرد مرتزقة ولم يكونوا جندا احترافيا، كما لدي الجيران المسيحيين. والمرتزق قلما يستأجر نفسه على الموت، كما أكد ابن خلدون[4]، ولا تربطهم بالدولة الموحدية روابط العصبية، كما أن قوة العصبية المصمودية التي كانت تجبرهم، من قبل، على الحرب لصالحها، ضعفت الآن. ويمكن أن نلاحظ ذلك، في موقف القبائل الناطقة بالعربية، أيام السعيد والمرتضى، التي كانت تتخاذل، أثناء المعارك، إن لم تتآمر مع خصوم الموحدين وتبيع لهم المحلة[5].

هذا عن الكتلة الحاكمة وشرائحها الأساسية الأربعة. فما عن كتلة الرعية؟

---

(1) - انظر فصل التنظيمات ص 91- 144.

(2) - عبد الواحد **المراكشي**، المعجب...م س .ص.414.

(3) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ..ق .الموحدين م س .ص.405.

(4) - ابن خلدون، **المقدمة**... م س .ص297.

(5) - كان المرتضى «غير مبخوت في حركاته يخرج للحركة، من الحضرة بالعساكر الضخمة والأعداد الجمة، فما يسلم فيها من بوس ولا من يوم عبوس، ولا تحدث عليه فيها حوادث وخطوب وكوارث حتى يجفل عسكره بالهروب من غير قتال ولا حروب» نفسه، ص446 .. ويمكن الرجوع إلى الصفحات التالية في **نفس المصدر**355 ,372 ,386 ,401 ,408 , 427 -428 حول غدر بعض القبائل للجيش الموحدي وهزائمه بدون حرب.

III . التنضديد الاجتماعي في كتلة الرعية:

المعلومات عن الرعية، الكتلة الثانية في الهرم الاجتماعي[1]، قليلة في المصادر، مقارنة بالفئات الأخرى خلال العصر الوسيط. وكانت تسمى كذلك بالسوقة أو العامة، وتنعت بأوصاف قدحية وتحقيرية عديدة كالدهماء، والغوغاء، والأوباش، والأوغاد، والمستضعفون في مقابل الجبابرة للحكام، والأغمار(أي قليلي الفطنة والتجربة) في مقابل أولي الفطنة، والسفلة في مقابل العلية[2]. وتتكون الرعية من جل المحكومين من سكان المدن عموما، سواء خضعت تلك المدن صلحا أو عنوة، كما تتكون من القبائل الخاضعة عنوة، بما في ذلك بعض بطون القبائل المصمودية، كبطون قبيلة جدميوة التي بقيت رعية، شأنها في ذلك شأن بعض الفروع من قبائل صنهاجة وقبائل هسكورة[3]، أو تتكون من قبائل خارج هذه العصبية من بدو الإمبراطورية، أو تتكون من أناس مهاجرين، من جهات أخرى، ليست لهم ارتباطات قبلية. وكثيرا ما تكرر الحديث في عدة مناسبات، عن الغرباء في بعض الثورات، وعن أخلاط أو أشتات من الناس، أو عن المؤتلفين في ثورة الماسي وثورة الأشل أو في ثورة بني غانية، في مقابل القبائل التي توحدها العصبية[4]. أما السكان غير الخاضعين للدولة بالجبال والصحاري فليسوا ضمن الرعية. وأهم مايميز الرعية أنها لا تملك الجاه وتعاني من أنواع من التهميش كالتهميش السياسي، وتنعت، لأجل ذلك، بأهل الذل.

1-التهميش السياسي للرعية وإذلالها:

الميزة الأولى للرعية أنها مهمشة سياسيا. وتهميشها السياسي له تأثير بالغ على وضعيتها الاقتصادية والاجتماعية، إذ إن المحكومين لا يمكنهم أن يشكلوا وحدات ذات سيادة إلا خارج سلطة الدولة (أي فيما يسمى بالسيبة) أو عند استيلائها على الحكم. لذلك تتحدث المصادر عن حالتين: حالة العز وحالة الذل. فقد وضع المهدي بن تومرت الموحدين في إحدى خطبه بين خيارين : "وكونوا يدا واحدة على عدوكم؛ فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا إلى طاعتكم وكثر اتباعكم. وإلا تفعلوا شملكم **الذل وعمكم**

---

(1) - لن نطيل الكلام عن تقسيمات الرعية وشرائحها. يمكن الرجوع في هذا الشأن إلى ما كتبه كل من بوتشيش عن الرعية في العهد المرابطي بوتشيش، **مباحث في التاريخ الاجتماعي**... م. س. ص.169 - 199 .

(2) - ابن خلدون، **المقدمة**... م.س. ص407 ..583 . ابن عذاري، **البيان المغرب**...م. س. ص215 .. وكذلك ثورة الجزيري، ص.174 .

(3) - المراكشي، **المعجب**...م. س. ص. 482 .

(4) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ... ق. الموحدين م.س . ص177،31 , 216.

الصغار واحتقرتكم العامة فتخطفتكم الخاصة[1]. "وتحدث المراكشي عن تبدل وضعية عبد المومن من الذل إلى العز[2]، وعلق عن تبدل وضعية قبيلة كومية، بانتقالها من الذل إلى العز على عهد الموحدين بقوله: "فتبارك الله المعز المذل المعطي المانع ! فأصبح القوم اليوم وليس فوق أيديهم أحد ببلاد المغرب، **ولا تطاول أيديهم يد**"[3]. ويصف ابن خلدون وضعية كومية بعد زوال الدولة الموحدية بقوله : "انقلب زمانهم فأمهلهم فحملوا المغرم وألقوا نهوضهم بالتكاليف ونظموا، مع جيرانهم ولهاصة، في **سوم الخسف والذل** واقتضاء الخراج **بالنكال والعذاب**"[4]. كما تحدثت المصادر، عن كيفية إذلال عبد المومن، لقبائل العرب "فلم يبق منهم إلا من صار له **كالعبد الطائع**، وهو يخفض لهم الجناح، ويبذل فيهم الإحسان"[5].

مبدئيا، تحاول الدولة أن ترفق بالرعية وتأنيسها لكي لا تشرد وتذهب لجهة أخرى أو تميل إلى مساندة الثوار، بل تعمل الدولة على توفير الرعية ببعض المناطق، كالأندلس وكما يظهر من وصية يعقوب المنصور للموحدين، وتعمير بعض المدن والحصون بها[6] . وكانت الرعية بدورها، لا تطلب سوى تركها تعمل، في ظروف مواتية، ببسط آمالها واقتضاء حقوقها، وعدم تكليفها مالا تطيق من الوظائف والكلف. لكنها كانت تتعرض أحيانا لأنواع من التسلط والقهر من طرف الحكام، رغم الحرص الدؤوب للمخزن المركزي، على تحقيق العدل. ويكفي لأخذ صورة عن التعسفات وأنواع الظلم الذي كانت ترزح تحته الرعية، منذ بداية الدولة الموحدية، الرجوع إلى رسالة عبد المومن المعروفة برسالة الفصول، إذ ندد فيها عبد المومن، سنة543هـ، بالاعتداء على أموال الرعية وعلى أعراضها ودمائها وضربها بالسياط. ويتجلى الظلم في فرض ضرائب غير شرعية، كالمكوس والمغارم والقبلات، وتحجير السلع في المراسي، وفي التعرض للمسافرين الذين يودون الرجوع إلى أوطانهم لعمارتها، وفي تجريد التجار من سلعهم وأموالهم، باسم حقوق المخزن، كما أن الرقاصين (سعاة البريد)، كانوا "يأخذون الناس بالنظر في **كلفهم**، ويلزمونهم في **زادهم** من كل موضع و**علفهم**، وهذا فعل كل فرقة منهم في سيرها . وأنهم يتألفون في الطرق

---

(1) - المراكشي، **المعجب**...م. س. ص.286 -287.
(2) - نفسه، ص.338 -339 .
(3) - نفسه، ص.481 .
(4) - ابن خلدون، **كتاب العبر**... ج 6 ص.128 .
(5) - النويري، **نهاية الأرب**... م. س . ص.427.
(6) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... ق .الموحدين م.س .ص232 .. وانظر مثلا إعادة تعمير مدينة باجة في عهد يوسف سنة570 هـ، نفسه، ص.132- 134.

جموعا، ويحلون بأفنية الناس حلولا شنيعا، يكلفونهم مؤوناتهم تكليف المجرم، ويتحكمون عليهم بحكم المغرم، حتى أنهم لا يرضون في ضيافتهم إلا بأسمن الجزر (الذبائح)[1]. ومن الأمثلة عن تعسفات المسؤولين، تعسفات حاشية أخوي المهدي عبد العزيز وعيسى بإشبيلية إذ "استطالت أيدي أتباعهم على الأندلسيين المجاورين لهم، ففروا أمامهم، وساءت أحوال أهل إشبيلية بهم"[2]، واستباحوا الدماء والأموال. وتعسفات الحافظ عمر بن سحنون وأعوانه على أهل مدينة باجة الذي كان جريئا "**على سفك الدماء**، وأخذ أموال الناس بالباطل، وضربهم **بالسياط** على أقل الأشياء"[3]. وظلم السيد الرشيد والي مدينة مرسية، الذي" استولى على الناس بضروب العدوان وتسبب في إلى أخذ أموال التجار، وإذاية الجيران، وغالب العمال على بيوت الأموال، وكلفهم المؤنن الثقال[4]. وتعسف والي سبتة السيد أبي إدريس، على سكان سبتة، إثر غضبه عليهم، لسبب مجهول، فجمع الناس، رفيعهم ووضيعهم، في صعيد خارج المدينة، لمدة طويلة وتحت شمس حارة[5]. تزايدت مثل هذه المظالم، مع مرور الوقت، ولا تملك الرعية وسائل مهمة للدفاع عن نفسها، من عصبية متماسكة أوالعدة والمال. وهنا يبطل زعم من يري، في المجتمع المغربي، نوعا من الديموقراطية العسكرية[6].

2 - استعباد الرعية:

تعتبر الكتلة الحاكمة الرعية بمثابة عبيد لها، وقد سبق أن رأينا كيف أن الموحدين كانوا يسمون الرعية ومن لم ينظم إلى حركتهم عبيدا، ونسبوا ذلك إلى المهدي بن تومرت[7]. وعندما استرجع يعقوب المنصور مدينة قفصة وجد بها جماعة من الأغزاز "فرغبوا في عتق رقابهم، على أن يكونوا **عبيدا للأمر العزيز مماليكا للخليفة**"[8]. وكان خدام الدولة حتى الأشياخ، يسمون أنفسهم عبيدا، في مراسلاتهم الرسمية مع الخليفة[9]. وقد

---

(1) - عزاوي. **رسائل موحدية**.. م. س. ص.63-67 .
(2) - ابن عذاري، **رسائل موحدية** ... م. س. ص36 .. ابن خلدون، كتاب العبر...م س .ج 6 ص.234 .
(3) - ابن عذاري، **رسائل موحدية** ... م. س. ص. 128 - 129 .
(4) - نفسه، ص199 ، وانظر أمثلة أخرى عن أنواع المظلام خلال العهد الموحدي، التادلي، **التشوف**..ص151,270, 354, 367, 396, 421, 434.
(5) - ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**.. م س سفر 8 ص.415 .
(6) - إيف لاكوست، **العلامة ابن خلدون**، مرجع سابق، ص. 137 .
(7) - البيدق، **أخبار المهدي**... م. س. ص .55.
(8) - مجهول، **الاستبصار**... م. س. ص.151.
(9) - عزاوي، **رسائل موحدية**... م. س. ص198, 209، 522, 524، 526، 527.

أثارت تسمية الرعية بالعبيد سخط البعض من العلماء وانتقاداتهم، مثل أحمد العبدري القرطبي (599 هـ)، أحد طلبة المجلس العلمي للموحدين، منذ فتح مراكش 541هـ/1147م، إلى عهد المنصور. فقد أمر يعقوب المنصور أن يقام عليه الحد ويجلد بين يديه حين اشمت منه رائحة الخمر، وحينما بلغ الجلاد 40 جلدة، قال العالم المذكور للمنصور : «هذا منتهى حد العبد"، فقبل منه المنصور ذلك على علمه بما في طيه من التنكيت عليه . وإنما أشار بذلك أبو العباس إلى **معتقد** آل عبد المومن وطائفتهم **قديما وحديثا** أن كل من خرج عن قبائلهم المعتقدة هداية مهديهم وعصمته **فهو عبيد لهم أرقاء**"[1]. وهجر وفرضت عليه الإقامة الإجبارية بمراكش وبقي خاملا حتى توفي. ولم يكن الموحدون الحكام الوحيدين، في الغرب الإسلامي، الذين اعتبروا الرعية عبيدا وعاملوها على هذا الأساس، بل إن جل المتغلبين فعلوا ذلك. ففي الأندلس، خلال عهد ملوك الطوائف في القرن5 هـ/11م، نجد مثلا، بني برزال الزناتيين الذين تغلبوا على مدينة قرمونة ونواحيها "وملكوا من حولهم من الرعية، **وصيروهم عبيد العصا**، كما فعل غيرهم بمن **يواليهم ويجاورهم**"[2]. كما أطلق المرينيون، في بداية القرن السابع، لفظا أمازيغيا على الرعية التي استولوا عليها شمال المغرب، هو لفظ أمكراز، أي العبد بلغتهم (يعني حرفيا الحراث) ونعتوا به عامل الموحدين على مكناس[3] .

ومن مظاهر عبودية الرعية أنها كانت تسخر في أمور عديدة منها: التجنيد في الحروب لصالح الدولة مجانا. وقد كان أحد أسباب نجاح عبد المومن، في حربه مع تاشفين، خلال سنوات 534 - 539 هـ، هو وجود الرعية لدى الأول بالجبال يستعين بها وخلو السهول منها : "فكان الموحدون يسيرون في الجبال المنيعة، حيث الأرزاق الواسعة، وكان تاشفين ينزل البسائط بعساكره، فلا يجد من البرابرة من **يواصله، ولا من يستعين به ويداخله**"[4]. وقد كانت قبيلة هيلانة الرعية الأولى التي استنفرها الموحدون وقتل منها 12.000 فرد في معركة البحيرة [5]. كانت الرعية تشكل الحطب الأساسي للحروب بين المتصارعين على السلطة، إذ تضطر للحرب لصالح من تغلب عليها، سواء كان ذلك المتغلب هو الدولة أو الثائرون عليها، وتؤدي الثمن في كلتا الحالتين. كما وقع لرعية بجاية،

---

(1) - ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل والتكملة**...م.س. سفر 1 ص.566 .
(2) - مجهول، كتاب **مفاخر البربر**... م. س. ص. 182 .
(3) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م. س. ص.373.
(4) - مجهول، **الحلل الموشية** ... م. س. ص. 130 .
(5) - ابن القطان، **نظم الجمان** ... م. س. ص.121- 122.

581 هـ، رغم أنها هي التي فتحت أبواب المدينة لبني غانية[1]، لكن "لما وقعت الفتنة ببجاية وأنظارها وخف **قطينها وعمارها**، . **وألم بالرعية الحيف**، وتقسمهم الجلاء والسيف اعتصم من نجا منهم بقنن الجبال والأوعار، واحتمى من ركن منهم إلى أحياء العرب بالجوار، فأقفرت من بجاية بسائطها وقلت مادتها وغلت أسعارها وتعذرت الجباية... والمجاعة تشتد والوباء يزيد حتى عم الموتان، وانحشرت الرعية في المدينة"[2]. كما تسخر الرعية في الأعمال الكبرى لصالح الكتلة الحاكمة في عدد من دول الغرب الإسلامي، مثل تسخير الدولة الأموية للرعية في جمع الجراد في الأندلس[3].

3-الإقلال الإقتصادي في صفوف الرعية:

تتعلق الميزة الثالثة بالوضعية الاقتصادية المتردية للرعية. فالقاسم المشترك بين الرعية، بغض النظر عن الاختلافات الإقليمية والجهوية التي فرضتها الظروف الجغرافية أو الظروف التاريخية، هو أنها لا تستفيد من بيت المال، كما أنها لا تملك، في الغالب، الأرض الوسيلة الأساسية للإنتاج الفلاحي، نظرا لهيمنة ملكية الدولة لجل وسائل الانتاج. ففي منطقة متحضرة، كمملكة غرناطة، في منتصف القرن 8 هـ، كانت نسبة "الملكية الخاصة "لا تتعدى ثلث الأراضي الزراعية، وحتى هذه الملكية الخاصة كان يشترك فيها أكثر من اثنين فما فوق إلى الألف من الشركاء[4]. وقد تبين في فصل المالية، كيف أن ثلثي الأراضي الفلاحية كان في ملك الدولة الموحدية. وقلما تظهر الملكية العائلية الصغيرة إلا في المناطق الجبلية الوعرة، حسب عدة مؤشرات، منها: استثناء الجبال في تكسير عبد المومن، ومنها انتشار بيع الثنيا السابق الذكر في الفصل الأول[5]. وتلجأ الرعية داخل المدن إلى الشركة في الصناعة أو التجارة مع رجال المخزن، وتلجأ في البوادي إلى الاشتراك مع مالك الأرض وهو الدولة أو مع رجالها، كما سبق توضيحه، ولكنها لا تحصل من شركتها تلك، إلا على ما يسد رمقها بالكاد، فهي ترمق العيش ترميقا، لأن مستوى عيشها ضعيف جدا، كما يظهر من مؤشرات كالملبس والمأكل والمسكن والمركوب .

---

(1) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ... ق الموحدين م. س. ص 178.

(2) - نفسه، ص 180-181.

(3) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب** ... م.س.ص 115.

(4) - ابن الخطيب **الإحاطة في أخبار غرناطة**، م. س 1ص. 126 وما بعدها.

(5)- في الريف كان للمتصوف أبي داوود مزاحم قدر الكف من تراب نصفه حجر " البادسي، **المقصد الشريف** ..م.س. ص 54.

وعموما تكاد الأوصاف المادية والدينية التي نعت بها ابن تومرت المرابطين، تنطبق على أغلب الرعية، والتي سماها علامات المبطلين، ومنها خمس علامات قبل توليهم الحكم: "إحداهن أنهم الحفاة، والثانية أنهم العراة، والثالثة أنهم العالة(أي الفقراء)، والرابعة أنهم رعاء الشاء والبهم، والخامسة أنهم جاهلون بأمر الله"[1].

هذا الفقر جعل الكثير من الرعية لقمة سائغة للأوبة والمجاعات التي تحدث بصفة دورية وعند أي اضطراب ناتج عن كوارث طبيعية أو سياسية، مثلما حدث للرعية بمدينة بجاية وناحيتها بعد ثورة ابن غانية بها، سنة580 هـ/1185م، "فقد ألم بالرعية الحيف، وتقسمهم الجلاء والسيف، اعتصم من نجا منهم بقنن الجبال والأوعار واحتمى من ركن منهم إلى أحياء العرب بالجوار، **فأقفرت** من بجاية **بسائطها** وقلت مادتها وغلت أسعارها . والمجاعة تشتد والوباء يزيد حتى عم الموتان، وبطرت معيشتها الرخم والعقبان وانحصر المسلوبون والمغنومون إلى البلد في أمم لا يحصى عديدهم ولا ينادي من الإقتار وليدهم، وعجز أهل البلد عن تكفين الموتى وعن مواساة الأحياء، فكانوا يصبحون في الخرب وفي سكك المدينة زمرا أمواتا"[2]. وهكذا كانت الرعية تنحشر بالمدن، أثناء مدة المجاعات[3]، بل يصل الأمر، بالبعض منها، إلى تسليم أنفسهم للمسيحيين مقابل الطعام، كما حدث ببلاد الريف، في مجاعة سنة635 هـ/1238م[4]. وقد تقدم لنا هروب الرعية من الاستغلاليات الزراعية، مع بداية الدولة الموحدية وبعد ضعف الدولة الموحدية، وما ترتب عن ذلك من مجاعات وأوبئة .

لم تشكل الرعية كتلة منسجمة، بل عرفت بدورها تراتبية اجتماعية، حسب حرفها أو موقعها الجغرافي، وقد فصل الباحثون، في التاريخ الوسيط، الكلام عن ذلك، مما يغنينا عن العودة له[5].

---

(1) - ابن تومرت، أعز ما يطلب... ص 258 - 259 . من ط الجزائر1903 ، ص 384-395 . من ط.الرباط1997

(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م. س. ص.181 .

(3) - التادلي، **التشوف**...م.س. ص 429. ذكر أن أحد المتصوفة اكترى فندقا من العامل ببجاية لسكن فيه المساكين في أحد أعوام المجاعة. أو ما ذكره أبو بكر ابن عربي عن مجاعة536 هـ بأغمات، وما قاسته العامة من محن وأهوال بوتشيش. **مباحث في التاريخ الاجتماعي**... م. س. ص.201.

(4) - البادسي، **المقصد الشريف**... م. س. ص.61 .

(5) - راجع ما كتبه بوتشيش، **مباحث في التاريخ الاجتماعي**... م. س. ص.169 - 199 .

لكن القاسم المشترك بين شرائح الرعية، هو إنتاجها للخيرات المادية بكدها وعرقها، وتمويل خزائن المخزن لكنها لا تستفيد من بيت المال، والدفاع بسيوفها وأرواح أبنائها، عن دولة العصبية الحاكمة. لكنها، في مقابل ذلك، مهمشة في القرارات السياسية ومحتقرة في الغالب[1]، تتعرض لأنواع التعسفات. ولا تصدر ظهائر التوقير والاحترام، إلا لبعض البيوتات منها، لأسباب دينية أو سياسية أو غيرهما. هذا الشرخ العميق بين الرعية والسلطان هو ما دفع بالعروي إلى القول بانفصال الدولة عن المجتمع، في العصر الوسيط وما بعده[2].

ستخلق هذه الفجوة الاجتماعية الهائلة بين الرعية والحكام والفوارق المتزايدة باستمرار بين الحكام أنفسهم، توترات اجتماعية. ماهي طبيعة هذه التوترات الاجتماعية؟ وكيف ستعالج الدولة الموحدية هذا الخلل الاجتماعي المتفاقم؟

---

(1) - التوفيق أحمد. **المجتمع المغربي**..مرجع سابق ص.51 .

(2) - العروي، **مجمل تاريخ**... مرجع سابق ج 2 ص.227 ,229.

الفصل الثامن

تفاقم الأزمة الاجتماعية ومحاولة إصلاح الدولة

نموذج إصلاح يعقوب المنصور

كان المجتمع، رغم التفاوت في الجاه وما يترتب عنه تفاوت اقتصادي واجتماعي ومن علاقات استغلالية لا يستهان بها، مجتمعا ذا ميول تعادلية تهيمن، على مكوناته المختلفة، أشكال عديدة من التضامن والتكافل: تآزر بين الأغنياء والفقراء، وبين البوادي والمدن، وبين الحكام والمحكومين، قصد التخفيف من الفوارق الاجتماعية الصارخة والتلطيف من حدة التناقضات المترتبة عنها، ويتضح ذلك في انتشارظاهرة العمل الجماعي المسمى تويزي[1]، وفي انتشار أشكال عديدة من التضامن، كالتضامن الجبائي أو القيام بالكلف المخزنية، وكان أغلب المتصوفة يحثون على التصدق على المعوزين. وليس من قبيل الصدفة المحضة أن يظهر أبو العباس السبتي الذي يتلخص مذهبه الصوفي، في أن "الوجود ينفعل بالجود" بمراكش بالذات، حيث زادت حدة التفاوت الاجتماعي، وخاصة خلال النصف الثاني من القرن12 م[2]. وترد، في الفتاوي الفقهية الوسيطية، أمثلة عديدة عن مظاهر التضامن بين الفئات الاجتماعية[3]. وكانت الدولة الموحدية تسعى بدورها، إلى التخفيف من حدة الفقر خاصة لدى عصبيتها المصمودية، من خلال توزيع الصدقات أو من خلال أعمالها الإحسانية الأخرى، لتحقيق التكافل الاجتماعي، كما حدث في عهد المنصور[4] وأثناء فترات الكوارث والمجاعات، إذ فتح المستنصر مثلا، المخازن المعدة لاختزان الطعام للعامة، في مجاعة 614 هـ، وفرقت عليهم وذكر أنها كانت للأقوياء بثمن وبغير ثمن للضعفاء وتصدق بالكثير منها[5]. لكن أشكال التضامن الاجتماعي هذه لم تسطع أن تخفي أو تستأصل أشكال التعارض في المجتمع والتي كانت تتخذ، في بعض

---

(1) - التادلي، **التشوف**113، 134.

(2) - التادلي، التشوف... م. س. ص451 -477 . وانظر،
Faure, Adolphe , Abû-L'-Abbâs As-Sabtî, 524-601 - 1130-1204: la justice et la charité In Hespéris . T. 43 (1956). p. 448- 456.

(3) - فتحة محمد، **النوازل الفقهية والمجتمع**... م. س. ص.407 -408:

(4) - انظر فقرة النفقات الاجتماعية في الفصل الرابع ، و إصلاحات يعقوب المنصور في الفصل الثامن من هذا العمل .

(5) - ابن عذاري، **البيان المغرب**...ق .الموحدين م. س. ص.267 .

الأحيان، شكل ثورات، لأسباب عديدة سنفصل البعض منها. غير أن أشكال التعارض هذه لم تكن تعني صراعات اجتماعية بالمعنى الطبقي، إذ لا تعبر عن مصالح فئات اجتماعية معينة، بل كانت صراعات بين كتل تضم شرائح اجتماعية مختلفة، على سلم الهرم الاجتماعي. وكانت أهم الصراعات البارزة، هي تلك التي تحدث بين كتلتي الحكام والرعية، أو بين الحكام أنفسهم، في صراعهم وتنافسهم على السلطة والتي تتخذ شكل ثورات أو انتفاضات، لازمت الدولة الموحدية، منذ بدايتها حتى أتت عليها. وسنركز على دراسة أهم الثورات قصد التعرف إلى خصائصها ونوعيتها وأسباب قيامها.

I - خصائص الثورات في العصر الموحدي :

تتميز الثورات التي شهدها العصر الموحدي، بكونها مزمنة وبتفاوت حجمها وحدتها في الزمان والمكان، وبتنوع قياداتها، وباختلاف الدوافع التي كانت وراء اندلاعها.

1- ثورات مزمنة:

أول خاصية هي أنها تكاد تكون مزمنة، إذ بلغ عدد الثورات التي أحصاها البيدق، في مدة 47 سنة، منذ تأسيس الدولة الموحدية 518 هـ، بتنمل إلى وفاة يوسف 580 هـ، حوالي 45 ثورة. وقد أغفل إحصاء عدد من الثورات الأخرى، حتى الواردة في ثنايا كتابه كثورتي أخوي المهدي أو ثورة أبو بكر الصحراوي وغيرها، مما يجعل عددها أكثر من 50 ثورة، أي بمعدل يفوق ثورة في كل سنة تقريبا[1]. أما بعد سنة 580 هـ، فإن الثورات لم تنقطع، بدءا بثورة بني غانية بإفريقية التي دامت قرابة نصف قرن، وانتهاء بثورة قبائل بني مرين التي أنهت الوجود الموحدي، بين سوات610-668 هـ/1211-1270م .

2 – الامتداد الجغرافي والزمني للثورات ضد الدولة :

الملاحظة الأولى، إن أغلب الثورات الأولى التي أحصاها البيدق وقعت في فترة عشر سنوات (540-550 هـ)، أي أثناء فترة إخضاع المغرب الأقصى والأندلس، ثم تقلصت حدتها مدة قصيرة (حوالي 30سنة) دامت إلى بداية القرن7 هـ/13م، حيث تزايدت حدتها، خاصة بعد 620 هـ، واستمرت إلى نهاية الدولة. وكانت حدتها تزداد، بالخصوص عند وفاة

(1) - البيدق، أخبار المهدي... م. س. ص. 82 - 89.

أحد الخلفاء، إذ كان الناس يتوقعون حدوث خلاف بين أفراد البيت الحاكم أو انشقاقاً في صفوف العصبية الحاكمة.

الملاحظة الثانية، إن حوالي ثلث الثورات المذكورة، عند البيدق، قامت بالمغرب الأقصى، إذ بلغت به أكثر من 37 ثورة، بينما بلغت بالأندلس 12 ثورة، وثورتان فقط بإفريقية. وكادت ثورات المغرب الأقصى تقضي على الوجود الموحدي الذي انحصر في مراكش وفاس وحدهما. وقال عبد المومن عن خطرها لأبي حفص: " قامت الناقة بحملها يا أبا حفص، فقال له: نرقدها إن شاء الله"[1]. ويتضح من خلال التوزيع الجغرافي للثورات، أن بؤرها الأساسية هي المناطق المستعصية على تحكم الدولة، كالجبال لما توفره من تحصينات طبيعية منيعة، مثل جبال الريف[2] وجبال غمارة التي لها تاريخ طويل مع الثورات على السلطة القائمة، طيلة العصر الوسيط، ولم يشكل العهد الموحدي، في ذلك، استثناء[3]، ومثل جبال جزولة وحصنها المنيع تيونوين، ومثل الأطراف الشمالية للصحراء.

أما إفريقية، فإنها لم تشهد ثورات تذكر، إلا بعد 20 سنة، من الوجود الموحدي. ويعود قيام الثورات في الأندلس، إلى عدم توفر الموحدين على الوقت الكافي لترسيخ أقدامهم بها، إذ داهمتهم الثورة العارمة بالمغرب الأقصى، قبل تحقيق ذلك. لكن بعد ذلك ظلت الأندلس هادئة، بعد ذلك حتى سنة627 هـ، نظرا لوضعيتها الخاصة كثغر دفاعي.

لماذا كثافة الثورات بالمغرب الأقصى، مقارنة بالأقطار الأخرى من الغرب الإسلامي؟ هل يرجع ذلك لمقاومة المرابطين في مناطق نفوذهم الأساسية؟ أم إلى كون المغرب الأقصى بلد عصبيات أكثر من أقطار الغرب الإسلامي الأخرى؟ أم يمكن اعتبار تلك الثورات نوعا من مقاومة سكان السهول لسكان الجبل، كما ظن لوتورنو[4]؟ أم يعود ذلك لامتلاك الموحدين للأرض، كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين[5]؟ أم لأن المناطق التي قامت فيها بعض من تلك الثورات مناطق محصنة طبيعيا، كما لاحظ ابن خلدون؟ أم قامت لأسباب مذهبية؟

قد نجد الجواب، من خلال التعرف إلى متزعمي الثورات[6]

---

(1) - البيدق، **أخبار المهدي** ... م.س. ص.77 .

(2) - العمراني محمد، « ثورات بلاد غمارة في الفترة المرابطية والموحدية ». المنشور بمجلة آمل عدد 17 السنة ص.107 .

(3) - مجهول، **الاستبصار**... م.س. ص121.، ابن خلدون، **كتاب العبر**... ج 6 ص.223.

(4) - لوتورنو روجي، **حركات الموحدين في المغرب**... ص.56 .

(5) - التريكي وفرحات في « ...Faux» مرجع سابق ص.15-16 .

(6) - انظر بعض التفسيرات والتساؤلات عن أسباب ثورات الريف طيلة العصر الوسيط عند محمد حجي، **الحركة الفكرية بالمغرب** ص 218- 220 .. ومحمد فتحة، **النوازل الفقهية والمجتمع**... ص.145.

3- زعماء الثورات :

كان يحرك أغلب الثورات، في العصر الموحدي، ثلاثة أصناف من الزعماء: أعيان البيوتات الحاكمة وأعيان القبائل والعلماء والمتصوفة. ويدخل في الصنف الأول البيوتات الحاكمة القديمة والتي قادت أعنف وأخطر الثورات، كثورة أبي بكر الصحراوي، بين سنوات 543/1149 إلى سنوات 550 هـ/1156م، وثورة بني الرند بقفصة[1]، وبني حمدون في بجاية المتعاطفين مع بني الرند، وثورة بني غانية لمدة تقارب نصف قرن، وبني هود بالأندلس. كما يدخل ضمنهم أعيان من العصبية الحاكمة وقبائلها، كهرغة وتينمل في ثورتي أخوي المهدي وقريبهما يصلاسن[2] أو السادات من البيت الحاكم الذين بلغت ثوراتهم أكثر من 16 ثورة، كما سبق الذكر .

و يوجد ضمن الصنف الثاني، زعماء القبائل، كثورة سبع بن منغ فاد الذي نجد ابنه يتولى قيادة غمارة في معركة الأرك، وزعماء القبائل العربية بإفريقية، مثل مسعود بن سلطان بن زمام الذاودي شيخ قبيلة رياح الثائر، بإفرقية حوالي590 هـ/1194م[3].

أما الصنف الثالث من قادة الثوارات، فيتكون من ذوي الجاه الديني من فقهاء وعلماء ومتصوفة، مثل الفقيه القاضي عياض بسبتة، والمتصوف ابن هود الماسي[4]، والعالم محمد بن رزين الجريري[5]، وأبو القاسم العزفي[6]. هكذا يلاحظ أن الثورات يتزعمها، غالبا، الأعيان وذوو الجاه السياسي أو الديني. ولم تسجل المصادر ثورة تزعمها عامي، إلا ثورة الهادي الماسي، إذا صح، بالفعل، ما نعتته به المصادرمن أنه عامي. وتدخل ثورات الأعيان في إطار الصراع على السلطة والنفوذ، مستغلين المناخ الاجتماعي المتوتر، إذ إن هناك تربة خصبة متمثلة أولا، في تزايد ثقل وطأة الحكام على الرعية وتسخيرها، واستغلال الدولة لما تعتبره القبائل ملكا لها. فسبب إقدام عبد المومن على عملية الاعتراف الشهيرة، هو قتل قبيلة مكناسة للفحامين في جبلها، وحصارها لفاس، سنة

---

(1) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م.س. ص140 ،، ابن خلدون، كتاب العبر... ج 6 ص.240.

(2) - Letourneau. "Mouvement almohade et la dynastic mumnide-révolution dc frères d'Ibn Tumart 1153-1156",in Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'occident msulman,T2p_ 111-161

(3) - الناصري، **الاستقصا** ... م.س.ج 2 ص 164، النويري، نهاية الأرب... م.س . 433.

(4) - بنسباع مصطفى، **السلطة بين التسنن والتشيع والتصوف** ... م.س.ص 129-141

(5) - محمد عبد الله عنان، **عصر المرابطين والموحدين**...م.س.ج 2 ص.179-181 .

(6) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م.س. ص.397 .

544هـ. وقال عبد المومن للموحدين "الشارب إذا منع الماء واللبن ما جزاؤه؟"(1)، وهذا الاعتراف هو الذي وضع حدا نسبيا، لفتن المغرب الأقصى. وثانيا، في وجود تربة فكرية وذهنية متمثلة في انتظار التغيير السياسي باستمرار، كما سيأتي ذكره.

II - دوافع تزايد التوتر الاجتماعي في العصر الموحدي:

لا نتوفر على معلومات كافية، في المصادر، عن كل الثورات خلال العصر الموحدي، لكن يمكن أن تستخلص مما هو متوفر، أن عوامل قيام الثورات تتعدد في كل ثورة ثورة، ويمكن أن نلخص بعضا منها، فيما يلي:

1- دور السيف والمال في العلاقات السياسية والاجتماعية :

بالإضافة إلى دور عامل القرابة في تنظيم العلاقات الاجتماعية عموما، وعلاقة الدولة بالرعية، هناك عاملان أساسيان هما السيف والمال. السيف كرمز للقوة والإكراه القسري، والمال بما يمثله من قوة الإغراء المادي والذي تكرسه قيم الجود والكرم في الثقافة المجتمعية(2)، كما أن القوة التي يشكل السيف رمزا لها تكرست ضمن القيم الاجتماعية المحمودة والمقبولة، فقد تغنى الشعراء بالسيف واعتبر أصدق أنباءا من الكتب. ومن المظاهر الأولى لأهمية السيف في هذه الثقافة، وضع سيف الإمام إدريس بن إدريس، على مسجد على أعلى صومعة مسجد القرويين، سنة345 هـ، وقيلت في ذلك أشعار كثيرة بعضها يمجد فضائله، وبعضها يهجو سكان فاس بأنهم خضعوا بقوة هذا السيف(3). ولم يخرج الموحدون عن هذه الثقافة، فلم يكن عبد المومن من الحكام الذين تستهويهم الحدائق والبساتين أكثر مما تستهويهم قوة الجيش وتسليحه(4). كما أمر يوسف بن عبد المومن، سنة563هـ/1168م، أثناء تجديد بيعته، بصنع سيف رمحه من سنانين(5) . وعندما بنى يعقوب المنصور صومعة حسان رسم على أحد نوافذها المواجهة للبحر سيفان عظيمان(6). وقد تقدم ذكر ضرب رجال الدولة المرابطية والموحدية وأعوانهم للرعية

---

(1) - البيدق، **أخبار المهدي** ..ص.69 - 70.
(2) - دور العطاء والكرم قد سبق ذكر ص 185أعلاه.
(3) - الجزناني، **جنى زهرة الآس**... م.س. ص .47 - 50
(4) - **نفسه**. ص294 -295 .. ونجد صدى لهذه الثقافة في العامية، «كُنْ سبع وكُلْنِي»، «لِيدْ اللِّي مَا تَقْطَعْهَا بُوسْهَا».
(5) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**... م.س. ص269- 270 وانظر مع الأشعار التي قيلت بالمناسبة.
(6) - المنوني محمد، **العلوم والآداب**... م.س. ص.13.

بالسياط، واستعمال العنف في تربية الأتباع والمريدين، سواء في رباط عبد الله بن ياسين أو في رباط ابن تومرت بهرغة. كما أن أغلب الرعايا، خضعوا بالقوة، كما تقدم. ومن خضع بالقوة يلزم دائما إظهار القوة للمحافظة على خضوعه وضمان استمراره، مما جعل الدولة تقوم بعملية "**التهدين والتسكين**" في أغلب الأحيان[1]، أو "**بإخافة من تجب إخافته**"[2]. في حين أن وسائل استعراض القوة أو استخدامها، إذ اقتضى الحال ذلك، لم تكن دائما في ملك الدولة، وخاصة في المناطق المستعصية التي لا تتوفر الدولة على وسائل اقتحامها أو لا تتلاءم مع ما تمتلكه من القوة العسكرية (الخيل، والإبل، والسلاح الثقيل، كالمنجنيقات في المناطق الجبلية، أو بسب صعوبة توفير المؤن والمياه في الصحاري لأعداد كبرى من الجيش).

كما أن الرعية لا تستفيد كثيرا من وجود دولة مركزية، لأن طبيعتها الأساسية هي دولة قبلية على النموذج المشرقي، وليس هناك مبرر يسوغ خضوع قبيلة لأخرى. فكما كانت القبائل تقاتل لحسابها الخاص ضد القبائل الأخرى، قبل خضوعها للدولة، أصبحت تقاتل لحساب العصبية الحاكمة، وملزمة في نفس الوقت بدفع وتمويل حاجات الدولة من الهامش الضيق الذي تركته لها من استغلال الأرض. لكن ليس معنى هذا أن القبائل ميالة إلى الفوضى أو ترغب في العيش طليقة، بل تسعى إلى الدخول في الجماعة تحت ظل سلطان عادل، وهو ما لاتوفره التنظيمات الساسية والمالية للموحدين .

ومن محركات الثورات هذه، بروز مغامرين سياسيين يجربون حظهم، ما دام المجتمع لا يعترف بالشرعية للهيئة الحاكمة ومادام حكمها غير قائم على تعاقد اجتماعي وما دامت إغراءات السلطة ومستوى عيش أصحابها يسيل اللعاب.

2- الحَدَثَان و ثقافة توقع التغيير السياسي:

ارتبط قيام الثورات، في تاريخ الغرب الإسلامي الوسيط، ببعض الظواهر الثقافية، كذيوع ثقافة مرتبطة بهذا النوع من المجتمعات القبلية التي تتسم بالاضطراب النسبي، نتيجة التقلبات الفجائية المختلفة المناخية والسياسية وغيرها. فكان الناس، بحكم التجربة المتراكمة، يتطلعون لمعرفة مصائرهم وما يخبئه المستقبل المجهول، خاصة

---

(1) - نفسه، ص70 .. ابن عذاري، **البيان المغرب**... ق. الموحدين م. س. ص.465 .
(2) - المراكشي، **المعجب**...م.س .ص.332 .

خلال بعض الأزمات والفترات الحرجة، وما يحمله من أحداث جسام تنعكس، سلبا أوإيجابا، على مصائرهم. ويدخل، في ذلك، توقع التغيير السياسي. ويتخذ هذا التطلع، لمعرفة الغيب، أشكالا مختلفة اشتهر منها، خلال العصر الوسيط، التشوف إلى معرفة مصير الأمة الإسلامية عموما، والدول الإقليمية خصوصا، لمعرفة عدد ملوكها وحروبها الأساسية وعمرها وما سيحدث في عهدها من أحداث[1]. ويطلق على هذا النوع، من التكهن بمستقبل الدول، **الحدثان** نسبة إلى حدثان الدهر أي تقلباته وحوادثه [2]. ويستند لمعرفة الحدثان على مصدرين، إما على كتاب يسمى الجفر، كالجفر الصغير الذي يرجح ابن خلدون أنه وضع لبني عبد المومن[3]، وإما على النجوم والقرانات بين الكوكبين العلويين[4]. ويكتب الحدثان نثرا أو نظما ويسمى الملاحم، ومنها ما هو موضوع بالأمازيغية[5] وما هو موضوع بالعامية. واشتهر من هذه الملاحم: قصيدة ابن مرانة عن الدولة المرابطية، وقصيدة التبعية التي وضعت عن الدولة الموحدية وتضم ما بين 500 و1000 بيت، تناولت كثير من أحداث الموحدين، وملعبة من الشعر الزجلي ليهودي من العهد الموحدي يسميه ابن عذاري ابن نغزالة[6]. ومما يدل على شيوع مثل هذه الثقافة، ذكر المصادر الموحدية، في ثناياها، لعدد من الأحداث، كالقول بأنه كان عند المهدي جفر اطلع فيه على صفات صاحبه عبد المومن، وعلى المكان الذي تنطلق منه حركته وهو تنيمل[7]، وتصف المهدي نفسه بأنه كان أوحد عصره في خط الرمل. وأن الحَزَّائِن، كمالك بن وهيب، كان ينبئون المرابطين، بأن القضاء على دولتهم سيكون على يد صاحب الدرهم المركن (ربما بسبب هذا المعتقد الشعبي جعل الموحدون دراهمهم مربعة). ومن بين الثوار الذين استغلوا هذا الاعتقاد في الحدثان، ابن هود الماسي، سنة541 هـ/1147م[8]، والأشل الذي قام ببلاد الزاب، سنة589 هـ، والذي" كان يلقي لأصحابه بالغايات لزعمه من **الحدثان** وضروب غير معقولة من الهذيان بأنه موعود بأمره، وأن **الأراجيز** نصت على

---

(1) - ابن خلدون. **المقدمة**....م.س. ص 578 وما بعدها. انظر عن مخاوف الناس في العصر الوسيط. فتحة، **النوازل الفقهية والمجتمع**... م. س. ص. 402.
(2) - ابن خلدون، **المقدمة**.... م. س. ص.588 .
(3) - **نفسه**، ص. 600 - 605 .
(4) - انظر عن كيفية استخراجه **نفسه**. ص. 595-602.
(5) - **نفسه**. ص588.. ومعظمه موضوع عن زناتة ومنسوب لكاهن أو لوالي أو لنبي عاش قبل الإسلام وهو موسى بن صالح من بني يفرن.
(6) - ابن عذاري، **البيان المغرب**..م. س. ص.208 .
(7) - المراكشي، **المعجب**... م. س. ص. 266 .
(8) - عزاوي أحمد، **رسائل موحدية**... ص.60-75 .

خبره"[1]. واستغله الطفل العثماني الثائر بمراكش في عهد المرتضى[2]. ومن هذه التغييرات السياسية استنتج الناس، آنذاك، أن عمر الدولة لايتجاوز مائة عام[3].

3 – دور المذهب في الثورات ضد الموحدين :

يفسر عدد من الباحثين عادة، قيام أغلب الثورات بالصراع المذهبي بين الموحدين ومناهضيهم، كالقول بأن" ثورة غمارة تعبير عن غضبها عن زحزحة المذهب المالكي عن مكانته[4]"، أو القول بأن ثورة محمد ابن هود الماسي، هي رد فعل لبعض سكان السواحل الأطلسية الذين قبلوا المذهب المالكي، منذ زمن طويل، فهبوا لمناهضة المذهب الموحدي[5]. أو الادعاء بأن أحد أسباب مساندة أهل إفريقية لثورة بني غانية هو تشبثهم بالمذهب المالكي[6].

مثل هذا الطرح لا تؤيده المصادر، إذ لا نعثر فيها على إفادات صريحة أو ضمنية في هذا الاتجاه. وغالبا ما يستدل أصحاب هذا الطرح على ما ورد، في المصادر عن حرق الموحدين لكتب الفروع، في عهد عبد المومن وفي عهد المنصور بفاس وغيرها من البلدان[7]، ويستنتجون من ذلك أن هناك صراعا مذهبيا، بين الدولة الموحدية وبين فقهاء، حول المذهب المالكي. وينسون أن هذا الصراع كان بين منهجين مختلفين في طريقة الوصول إلى الأحكام: منهج التقليد ومنهج الاجتهاد، وليس ضد المذهب المالكي، في حد ذاته، أو أي مذهب فقهي آخر. وهو صراع كان قائما، بالغرب الإسلامي قبل العهد الموحدي، وله مبرراته الاجتماعية سبقنا بسطها[8]. فقضية إحراق كتب الفروع لم يتجاوز ما وقع عندما أمر المنصور، للأول دولته، بقراءة البسملة، في أول الفاتحة، أثناء الصلاة، فأجاب "قوم وامتنع آخرون"[9]، والدليل على ذلك أن الخلفاء الموحدين كيعقوب كان يعينون علماء مالكيين أو حتى بعض الشافعية في القضاء[10] .

---

(1) - ابن عذاري، **البيان المغرب**...م. س. ص.215 .
(2) - ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**...م. س. سفر 8 ص.179-191.
(3) - ابن خلدون، **المقدمة**... م. س. ص.303.
(4) - حركات إبراهيم، **المغرب عبر التاريخ**... ج ص.1 .269، 291.
(5) - محمد زنيبر، **المغرب في العصر الوسيط**... م. س. ص.106.
(6) - Brignon et Autre, **Histoire du Maroc**...op cité :p 114
(7) - الناصري، **الاستقصا**...م س. ج 2ص121 . المراكشي، **المعجب**... م. س. 400 -402 .
(8) - عملنا، تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط .انظر عن أنصار المذهب المالكي في العهد الموحدي علي بن خيار الفاسي541-601 هـ، ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**...م. س. سفر 8 ص .164 .
(9) - الناصري، **الاستقصا**... م. س .ج 2ص.192 .
(10) - النويري، **نهاية الأرب**... م. س. ص.442 .

وكان العنصر الديني المستخدم في هذه الصراعات السياسية والاجتماعية، هو مبدأ ضرورة التمسك بالجماعة، وهو المبدأ الأكثر ترددا في المصادر التاريخية، بكيفية صريحة أو ضمنية. استخدمه المرابطون ضد ملوك الطوائف مما اضطر هؤلاء إلى الاعتراف بالدولة العباسية واتخذوا السواد شعارا لهم لإضفاء الشرعية على حكمهم، واستخدموه ضد الموحدين أنفسهم فسموهم خوارج ومبتدعة في بداية أمرهم[1]. كما استخدمه الموحدون ضد مناهضيهم ودعوهم إلى ضرورة التزام الجماعة وعدم مفارقتها. وكان الهدف من لجوء بني غانية، منذ سنة580 هـ/1185م، وبني هود، سنة627 هـ، وبني الأحمر بالأندلس الثائرين على الموحدين، إلى الاعتراف بالدولة العباسية واتخاذ السواد شعارا ورمزا لهم، هو دحض دعوى من يتهمهم بمفارقة الجماعة، والرجوع إلى ما كان عليه المرابطون من التزام الجماعة والسنة ووحدة الأمة الإسلامية؛ هذا مع العلم أن مذهب الدولة العباسية ليس هو المذهب المالكي[2]. بل استخدم هذا المبدأ كذريعة لضم أملاك الأمراء المستقلين، مثل بنو غانية في الجرائر الشرقية[3]، واستخدم بين الموحدين أنفسهم، في عهد الرشيد، حين مال كثير من الأشياخ، سنة632 هـ/1235م،" إلى الدخول في الطاعة و**الاتصاف باتباع الجماعة**"[4].

فعندما تنعت المصادر الموحدية ثائرا بالارتداد ومفارقة الجماعة، لا يعني أكثر من خلع طاعة الدولة والخروج عن سلطتها وليس بالضرورة تبنيا لمذهب آخر غير المذهب الموحدي. ومن الدلائل القوية على أن الثورات ليست دائما صراعا مذهبيا أن برغواطة واجهت الدولة الموحدية، بالتحالف مع أصحاب مبادئ مختلفة، مثل مساندتها للهادي الماسي ذي النزعة الشيعية أو التصوفية المشابهة لمذهب الموحدين، وليحي الصحراوي ممثل المذهب المرابطي السني، ولأبي مزكيدة الذي لا يعرف مذهبه، وإن كان لقبه(صاحب المسجد) يوحي بأنه كان له مذهب معين لم يصلنا عنه شيء[5] .

---

(1) - البيدق، **أخبار المهدي**.... م. س. ص38.. ابن القطان، **نظم الجمان**...م. س. ص.11.

(2) - عن اتخاذ هذه الحركات لون السواد والتبعية لبني العباس. ابن عذاري، **البيان المغرب**...م.س. ص177.,277, 296 . وعن الدوافع الاجتماعية لثورة ابن هود، ابن خلدون، **المقدمة**... م. س. ص.272 .

(3) - ابن عذاري، **البيان المغرب**...م. س. ص.175 .

(4) - **نفسه**، ص.309.

(5) - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب **بالأنيس المطرب**... م. س. ص.191 .

كما أن ثورة مرزدغ الغماري الثائر ببلاد غمارة، سنة 559 هـ/1164م، لم تتخذ مبررا دينيا واضحا لثورتها ضد السلطة الموحدية، بل إن لقبه بالأمازيغية مرزدغ (أي متمني السكن) والذي يؤكده نعت المصادر له باللفظ العربي" الغريب "يوحي بأن سبب ثورته يعود إلى حرمان هذه القبائل من ملكية الأرض من طرف الموحدين، في مضيق تازة والمناطق المجاورة لها، فكانت ثورته محاولة لاستعادتها[1]. ويلاحظ، من خلال توزيع مناطق الثورات، أن مناطق الثورات بمذهب أو دونه، طيلة العصر الوسيط، هو المناطق المستعصية على الدولة، مثل جبال الريف[2]، مما يدل على أن المطروح في الصراع بين سكان المنطقة والدول المتعاقبة ليس هو المذهب، بل تناقض المصالح الاقتصادية والاجتماعية بين الحكام والمحكومين.

و كان من بين أسباب ثورة سبع منغفاد، سنة 562 هـ/1167م، الذي اتهم **بمفارقة الجماعة** وبالارتداد بمعنى الخروج عن سلطة الموحدين، حسب الرسائل الرسمية، التجنيد المفرط لسكان منطقة قريبة من الأندلس في حروب الجهاد ضد المسيحيين بالأندلس[3]. وحتى الثوار على الدولة الموحدية، مثل المرينيين الذين يقال عادة أنهم رجعوا للمذهب المالكي، كانوا قد تمسكوا، أول أمرهم ولمدة طويلة، بالمذهب الموحدي من خلال الاعتراف بالتبعية للحفصيين بإفريقية. ويلاحظ أن الثوار الذين حاولوا التمسك بالسنة والجماعة، بعد627 هـ، كانوا مترددين بين التبعية للعباسيين أو للحفصيين بإفريقية أو للموحدين بمراكش، مثل ابن الأحمر الذي دعا لبني العباس، سنة629 هـ/1232م، ثم للموحدين بمراكش636 هـ/1239م، وأخيرا للحفصيين سنة640 هـ/1146م[4]. ولوحظ نفس الشي في ثورات بعض المدن، مثل سبتة التي دعت للعباسيين على يد اليانشتي، سنة630هـ/1233م، لتعود للدعوة الموحدية635هـ/1238م، ثم تستبدلها بدعوة الحفصيين، سنة643 هـ، وتثور عليهم بدورهم على يد أبي القاسم العزفي سنة647 هـ/1250م[5]؛ مما يدل على أن الصراع كان سياسيا أكثر مما كان صراعا مذهبيا.

---

(1) - **نفسه**...م س ص.209 .

(2) - العمراني محمد. ثورات بلاد غمارة خلال الفترتين المرابطية والموحدية، مجلة أمل 17 ص. 107- 120 .

(3) - ابن صاحب الصلاة. **المن بالإمامة**... م. س. ص. 235-238 .

(4) - ابن عذاري. **البيان المغرب**... ق .الموحدين ص296,347 ,356 ، 357.

(5) - **نفسه**. ص.347,356 ,360 ,378 . وكذلك فعل سكان إشبيلية في نفس الفترة، قارن هذه المواقف مع موقف سبتة بزعامة القاضي عياض المتردد وثوراتها على المرابطين ثم الموحدين. الناصري، الاستقصا... ج 2 ص. 110 - 112 .

والعنصر الذي شذ فيه المذهب الموحدي عن المذهب السني واعتبر بدعة هو قضية المهدوية وبعض المراسم البرتوكلية الأخرى، كبعض الجمل الأمازيغية التي أضيفت لآذان الصلاة[1]، أي كل ما يمثل شعار الموحدين السياسي من المذهب. وقد جاء ضرب هذا العنصر، في المذهب الموحدي، من طرف البيت الحاكم نفسه، ودون مبالاة من الرعية[2]، أثناء صراعه مع العصبية المصمودية المتخاذلة، ولسحب شرعيتها في الحكم[3]، ولم تأت المبادرة من الثوار أو الرعية، إذ لا نجد في المصادر، ذكر لمعارضة عنصر المهدوية، إلا في أخر الدولة على عهد المرتضى، حين كذب ولد ابن الصقر الخطيب حين فاه بعصمة المهدي في خطبته، وأعدم بسبب ذلك، بضغط من الأشياخ الموحدين ليكون عبرة لغيره[4] وقد تم إلغاء المهدوية، بدون مبالاة من طرف جماهير الرعية بالمغرب، لكنه ظل مستمرا، قرابة قرن بإفريقية، حتى ألغي كذلك بنفس الطريقة، من طرف البيت الحاكم أثناء صراعه مع العصبية الحاكمة على يد لأمير أبي يحي زكرياء اللحياني، سنة711 هـ/1311م[5] . وهذا شبيه بما حصل للفاطميين قبلهم اللذين تخلوا عن مبادئ دعوتهم ليس عن إقتناع أنها لن تجمع المسلمين على رأي واحد، كما قيل[6]، بل لنفس لأسباب السياسية والاجتماعية المذكورة أعلاه عند الموحدين والحفصيين .

ويلاحظ أيضا، أن أغلب الثورات الدينية كانت تستمد مرجعيتها من نفس المرجعية التي اعتمدها ابن تومرت، إذ تبنى أكثر من 9 ثوار، خاصة العلماء، نفس المرجعية المهدوية التي استمد منها المذهب الموحدي نفسه. وقد سبقت الإشارة إلى تجذر الفكرة بالمنطقة، قبل قيام الموحدين، وكيف أن حركة ابن تومرت نفسها تأثرت بها، وكان نجاحه من الأسباب التي دفعت بغيره من المغامرين السياسيين إلى تجريب نفس الوصفة، في ثوراتهم، وتتبع خطواته وتقليده في ادعاء المهدوية والإمامة. ولعل أول من تنبه لذلك ابن هود الماسي أيام عبد المومن، سنة 541 هـ/1147م، واسمه محمد واتخذ لقب الهادي

---

(1) - نفسه، ص286.، 317 وهي، «تازليت ن لسلام» أي صلاة الإسلام، وكذلك «سؤدود وناردي وآصبح ولله الحمد» وربما تعني هات إلى هنا. وقد اعتبرت هذه الجمل الأمازيغية بدعة. الونشريسي، المعيار المغرب...م.س. ج اص.278 .

(2) - القبلي محمد. **الدولة والولاية في المغرب الوسيط**، دار توبقال للنشر -الدار البيضاء،1997 ، ص. 112.

(3) - انظر إصلاحات يعقوب المنصور في الفصل الأخير من هذا العمل.

(4) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... ق. الموحدين ص446.. وعن ابن الصقر وذريته انظر ابن عبد الملك. **الذيل والتكملة**... م.س. سفر8 ص.262-263.

(5) - Letourneau , «Sur la disparition de la doctrine Almohade », op. cité p198 ومقدمة **رحلة التجاني**.

(6) - العروي، **مجمل تاريخ المغرب**...م.س. ج 2 ص.169.

وجمع حوله، برياط ماسة، جمهورا من عدة مناطق كسوس وسجلماسة درعة ودكالة وتامسنا. ولا يعود إنطلاقه من هذا الرباط لمحض الصدفة، بل يعود لشهرة هذا المكان بأن المهدي المنتظر الذي يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا سيخرج منه[1]. واستغل المتصوف ابن قسي الفكرة بغرب الأندلس وادعى الهداية[2]، كما استغلها ثائر ثالث هو رجل ينتسب إلى الفاطميين يدعى محمد بن عبد الله بن العضد، أخر خلفاء الشيعة بمصر العبيدية، وظهر، سنة 600هـ، بجبال ورغة من أحواز فاس[3]، وبعد عشر سنوات قام ابنه في نفس المنطقة[4]. كما استغلها عبد الرحمن بن الفرس، في نفس الفترة تقريبا، فأدعى المهدوية وانه القحطاني الذي أشار إليه الرسول بقوله : "لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يقود الناس بعصاه"[5]. واستغلها كذلك أبو قصبة، بعد وفاة المنصور، ببلاد جزولة[6]. كما ظهر داع أخر، سنة612هـ/1213م، ببلاد جزولة وكان يزعم أنه من ذرية عبد الله الشيعي وقد تمكن منه الموحدون وعلقوا رأسه على باب فاس بمراكش[7]. ومن الثورات التي تسترت وراء مذهب يثير الجماهير كالمذهب التومرتي ثورة الجريري[8]، وثورة الطفل العثماني الذي أخذ، في عهد المرتضى بمراكش، بالدعوة المروانية، وهي دعوة كان لها نظرية موازية للنظرية الشيعية في الإمامة والإمام المنتظر، ويتوارثون كذلك ما يشبه الجفر المعروف عند الشيعة[9].

أما ثورة أبي الطواجن الكتامي سنة 625 هـ/1228م فقد نسب إليه أنه ادعى النبوة صراحة وشرع الشرائع [10]لكن المصادر لا تسمح بمعرفية نوعية مذهبه.

أما الرعية، فيبدو أنها كانت بعيدة كل البعد عن الصراعات المذهبية، وإنما كان يحشروها الأعيان في ذلك، لأن ظروفها المعيشية لا تسمح لها بالتدقيق في الفوارق الدقيقة التي تميز هذا المذهب عن ذاك، بقدر ما يهمها من يساعدها على رفع الظلم والحيف الاجتماعي الذي كانت تتعرض له، تحت أية راية كانت.

---

(1) - ابن خلدون، **كتاب العبر** ...ج 6ص232 .. .274 ابن عذاري، **البيان المغرب**... م. س . ص30 -31 .. التريكي وفرحات في "...Faux
(2) - بوتشيش إبراهيم، **المغرب والأندلس**... م. س. ص 163 . وما بعدها.
(3) - ابن أبي زرع، الذخيرة السنية ... م. س. ص38 ،، **الأنيس المطرب**...م. س. ص 271 . الجزنائي، **جنى زهرة الآس**... م. س. ص43، العمراني محمد. «ثورات بلاد غمارة خلال الفترتين المرابطية والموحدية»، مجلة أمل 17 ص.119 -120 .
(4) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**...م.س .ص.272 .
(5) - ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة**... م.س .س 8 ص.179-191 .
(6) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م.س .ص239 ،. المراكشي، المعجب...م.س .ص. 449-450.
(7) - المراكشي، **المعجب**...م.س .ص.466.
(8) - فتحة محمد. **النوازل الفقهية والمجتمع**...مرجع سابق ص .146 .
(9) - ابن عبد الملك، **الذيل والتكملة** ... م. س . س 8 ص.179-191 .
(10) - الناصري، **الاستقصا**... م. س.ج 2 ص.234، 263.

لم يتمكن أصحاب هذه الثورات، رغم طابعها المزمن، من الإطاحة بالدولة الموحدية. بالتأكيد، لقد أنهك بعضها قواها، مثل الثورات الإفريقية، وساهمت في تزايد نزيف بيت مالها. غير أن الأسباب الأساسية لسقوط الدولة الموحدية تعود لتناقضاتها الداخلية التي عجلت بتفسخها تلقائيا وباحتضارها، مدة 58 سنة (610-668هـ)، ولعب فيه أفراد البيت الحاكم دورا أساسيا، فما كان من المرينيين وغيرهم من الثوار إلا أن أجهزوا عليها، واقتسموا تركتها.

إذا كان الثوار لم يهتدوا إلى إقتراح حلول جديدة للمشاكل الاجتماعية القائمة، فما هو موقف الخلفاء الموحدين من ذلك؟ هل كان لهم تصور مخالف للإصلاح المعتمد على التصور الديني؟

لعل أبرز من يمثل سياسة الدولة لإصلاح الوضع الاجتماعي المتفاقم هو يعقوب المنصور الذي كان عهده استثنائيا في هذا المجال.

III - إصلاح الدولة : نموذج إصلاحات يعقوب المنصور :

1- إشادة المصادر التاريخية بعهد يعقوب المنصور :

أبرز محاولة لإصلاح الوضع الاجتماعي المتفاقم من طرف الدولة هي تلك قام بها يعقوب المنصور، مما جعل عهده عهدا متميزا، إذ أجمعت المصادر الوسيطية التي أرخت للموحدين، كيفما كان موقفها من حكمهم، سواء كانت متحيزة أو مناهضة لهم، على الإشادة بشخصية يعقوب المنصور وخصالها، وبالثناء على عهده وإنجازاته ومآثره العديدة. فقد وصفه ابن أبي زرع والناصري بأنه كان واسطة عقد ملوك الموحدين[1]. وكانت له شعبية كبيرة حتى لدى المتصوفة الذين امتدحوه بدورهم، وهي شريحة ذات مواقف سياسية ذات النزعة الاعتراضية المعروفة، والتي تكاد تكون ثابتة من السلطة الزمنية مهما كان نوعها، واعتبروه الوحيد الصالح من بني عبد المومن. بل اعتبر البعض منهم أن الشهرة التي حظي بها يعقوب المنصور، عدة قرون بعد وفاته، يرجع الفضل فيها، إلى دعاء أحد أقطاب التصوف وهو أبو يعزى، ذلك أن عبد المومن قد استدعى أبا يعزى،

---

(1) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**... م.س .ص230..,218 ، الناصري، **الاستقصا** ..م.س .ج 2 ص 192 .والمراكشي، **المعجب**... م. س، ص.407-412.

إلى مراكش، وسجنه مدة ثم أطلقه وطلب منه الدعاء، فدعا له بأن" **يخرج من صلبه من يذكر به على مر الدهور**"[1]. وبلغت شعبيته، لدى أغلب مختلف الشرائح الاجتماعية، وحب الناس له، إلى درجة أن العامة رفضت تصديق خبر وفاته ولعوا وتمسكا به، وظلت مدة تهتف بحياته. وتجعله تارة، مرابطا بالأندلس، وتارة أخرى، حاجا إلى بيت الله الحرام، ومرة تجعل له قبرا ببلاد الشام[2]. وخلقت حوله العديد من الأساطير، في كل بلاد الغرب الإسلامي، منها مثلا، اعتقادهم أن سبب حرارة مياه حامة مولاي يعقوب، يرجع الفضل فيه للمنصور الذي ارصد لها عفريتين يوقدان عليها إلى الأبد، وأن الشفاء الذي يحصل منها إنما هو ببركته[3].

يبرهن كل ما تقدم وغيره، على أن عصر المنصور يعتبر استثنائيا، في فترة حكم الموحدين. ويذكرنا هذا الثناء بثناء المصادرالعباسية على عمر بن عبد العزيز الأموي والذي اعتبرته الخليفة الخامس، في سلسلة الخلفاء الراشدين، في حين تناست بقية الخلفاء الأمويين الآخرين السابقين له واللاحقين، والذين لا يختلف معهم عمر بن عبد العزيز إلا في بعض المسائل السياسية. ونكاد نجد، في أغلب الدول الإسلامية الوسيطية، حاكما مصلحا من هذا النوع، منهم أبو الحسن المريني مثلا[4]. فما الذي يا ترى جعل عصر المنصور يعتبر استثنائيا؟

2 - ظرفية إصلاحات يعقوب المنصور ومراميها الاجتماعية والسياسية:

كتب المرحوم محمد زنبير مقالا قيما عن يعقوب المنصور، حلل فيه شخصيته وتناقضاتها النفسية وتدينه، واستعرض الخطوط العامة لسياسته الدينية التي سار فيها على نهج الخلفاء المسلمين الأوائل، في عدة مجالات[5]. لكنه لم يضع تلك السياسة، في سياقها التاريخي العام، ضمن التطور العام للدولة الموحدية، وبدت بالتالي، كأن لا علاقة لها بما سبقها ولا بما جاء بعدها، ولا علاقة لها بوضعية المجتمع المغربي، ولم تكن تعبيرا

---

(1) - الصومعي أحمد التادلي، **كتاب المعزي في مناقب الشيخ أبي يعزى**، تحقيق علي الجاوي، منشورات كلية الآداب بأكادير 1996 ص126 .. محمد عبد الله عنان، **عصر المرابطين والموحدين**... م. س.ج 2 ص.238 .

(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م.س .ص233،.235 -234 . ابن خلكان، **وفيات**... ج 7ص 109 .النجار، **المهدي بن تومرت**... م.س .ص390 .. الناصري، **الاستقصا**...م.س.ج 2 ص197 .. المقري، **نفح الطيب**... م. س مجلد 4 ص.103 .

(3) - الناصري، **الاستقصا**...م. س.ج 2 ص .198 .

(4) - قارن الإجراءات التي اتخذها أبو الحسن مع ما قام به يعقوب المنصور.

Kabli: **Société**...opt. Cité p 192-199 .

(5) - زنبير محمد، **المغرب في العصر الوسيط**... م.س .ص 215. وما بعدها .

عن تيار سياسي له مساندين من الهيئة أو العصبية الحاكمة، أو تتطلبها الظرفية التاريخية في عهده. ووتبدو وكأنها سلوك شخصي فقط، نابع من تدين المنصور ورغبته في أن يجري في حكمه على سنن الخلفاء الراشدين لا غير. فما هي طبيعة إصلاحاته وسياقها التاريخي؟

يلاحظ، بالرجوع إلى المصادر التاريخية، أن سياسة يعقوب المنصور أملتها ظروف الدولة الموحدية في أوائل حكمه. إذ اطلع المنصور، بحكم تجربته كولي للعهد وتجربته كوزير لأبيه، على الخلل المتزايد الذي تعرفه الإمبراطورية، كنتيجة طبيعية وحتمية للسياسات السابقة التي اتبعت، منذ عهد جده عبد المومن إلى وفاة أبيه سنة 580هـ/1185م. وكانت الكتلة الحاكمة، من أمراء وأشياخ الموحدين ومن بقية العصبية الموحدية التي هي معتمد الدولة وركيزتها الأساسية، هي المتسببة في الخلل المشار إليه، لأنها أضحت، نظرا لامتيازاتها العديدة وثرائها الزائد، متواكلة ومهملة لواجباتها، كمسؤولة على الحفاظ على وحدة الإمبراطورية والدفاع عنها، وانصرفت عن تسيير شؤونها إلى الانغماس في الدعة والانهماك في ضروب من اللهو والملاذ، إذ عرف سوق الخمور والقيان والغانيات رواجا كبيرا، كما لوحظ تزايد التنافس بين أعضاء هذه الكتلة في المسكن والملبس والمأكل والتأنق في مظاهر البذخ والترف[1]. وقد سبقت الإشارة إلى قصورها الفخمة في مراكش وغيرها من الحواضر. ومن شأن هذا التهاون أن يهدد وحدة الدولة ووجودها ككل، وبالإضافة إلى ذلك تزايد ثقل وطأتها على الرعية، مما يشكل خطرا وتهديدا للأمن الداخلي. فكان أول شيء لاحظه المنصور اثر بيعته ووصوله لمراكش لدى العصبية الموحدية، سنة 580 هـ، هو: أن جل أفراد هذه العصبية قد" أقبلوا على التودع من نصبهم، **والانغماس في راحتهم**، وتبسطوا بالادلال، واتصل **الاغباب عن ملازمة الأشغال**. رأى التساوي في الانهماك والاغترار، وسمع **المجاهرة بالاستهتار**، والتنافس في الشهوات ونفاق سوق الغانيات الملهيات"[2]. فحاول المنصور إصلاح هذا الوضع من خلال اتخاذ مجموعة من الإجراءات، أهمها خمس :

---

(1) - عن الإخلاد للراحات راجع ابن عذاري، **البيان المغرب**..م س .ص246 ., .296 وخصص ابن خلدون، فصلا في آن طبيعة الملك الدعة والسكن .المقدمة..م س .ص .296 .

(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ..قسم الموحدين ص.172 -173 .

أولا، الأمر بإراقة الخمور في مختلف أنحاء الإمبراطورية، وتوعد المخالفين بأقصى العقوبات وبالقتل. وأصدر رسائل في هذا الشأن، منها الرسالة التي بعث بها بهذه المناسبة إلى المسؤولين الموحدين بالعاصمة الإقليمية للأندلس إشبيلية، أواخر شهر رمضان سنة 580 هـ/1185م، أمر فيها بمطاردة متعاطي الخمر وشراب الرب، وهو المسكر الأكثر استعمالا بين المصامدة، قبل قيام دولتهم وبعد ذلك دهرا من الزمن[1]، وقطعه نهائيا، بإراقة ما يوجد منه ومعاقبة المقتنين له عقابا صارما، وبمنع بيعه وإغلاق حوانيت الخمارين . وأمر أن يعمم مضمون الرسالة على كافة جهات الأندلس والعمل بمقتضاها[2].

ثانيا، محاربة المستهترين ومجالس الغناء ومطاردة المغنيين المعروفين بالقوالين وإلقاء القبض على من وجد منهم، فاختفى العديد منهم وكسدت سوقهم نسبيا، في عهده.

ثالثا، منع ارتداء الملابس الحريرية الغالية والاكتفاء بشيء بسيط منها. ومنع النساء من لبس الملابس الكثيرة الطرز، والاقتصار على الساذج منها والقليل الطرز. ولم يقف عند هذا الحد، بل أخرج، من مخازن الدولة، ما كان أختزن فيها من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهب، والتي كانت الدولة تفرقها في بعض المناسبات أو سنويا على أعيان رجال الدولة، من الأرستقراطية الموحدية وغيرها، وبيع شيء كثير منها فتحصل من ذلك أموال جليلة. هكذا حاول يعقوب المنصور إعادة التقشف والزهد الذي اتسم به الموحدون في بداية أمرهم، تمشيا مع مقتضيات زهد وتقشف الرباطات، والتزم هو نفسه بهذا التزهد في ملبسه إذ لبس الصوف عوض الحرير.

رابعا، حرص المنصور، بموازاة مع الإجراءات السابقة، على إقامة العدل وبسطه لرفع حيف العصبية الحاكمة عن الرعية، وذلك من خلال التأكيد على ولاته وعماله **بتأنيس الرعية** وتوخي رضاها واقتضاء حقوقها وكف أيدي الظالمين منهم، عن إرهاقها، ومطاردة العمال الظلمة منهم أو قتلهم، والسماح للمتظلمين بالعبور من الأندلس والقدوم من جهات الإمبراطورية إلى مراكش لعرض شكاياتهم. كما ألزم الإدارة بالتخلي، عن أعرافها واستبدادها، وبتطبيق الشرع الإسلامي في تعاملهم مع الرعية. فقد" أوصى ولاته وعماله بالرجوع إلى أحكام القضاة[3]"، كما حرص على اختيار قضاة متصفين بروح

---

(1) - عمراني محمد، «مسألة الخمور في تاريخ المغرب الوسيط»، في مجلة أمل عدد16سنة1999 . ص. 59-71.
(2) - كتاب الدولة المومنية. رسائل موحدية، مجموعة بروفنصال...، الرسالة 28 ص. 164-167 .
(3) - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بالأنيس المطرب... م‌س ص.217 .

الجدية والنزاهة[1]، وتوج هذه الإجراءات بجلوسه بنفسه للمظالم بجامع الكتبيين[2]. وقد خلق جلوسه بنفسه للمظالم ارتباكا وبلبلة، في صفوف أعيان الموحدين، واشتد خوفهم من جلوسه للمظالم" **وارتاع الأعيان** من حضور ذلك المقام، لما فيه من هجوم **خجل وضيق مجال المقال**"، واضطر أغلبهم مرغمين لأداء أموال كثيرة "للسوقة السفال" لمصالحتهم على الهدايا أو الرشاوى التي أخذوها منهم من قبل. وفي مقدمة الذين أغرموهم، من الهيئة الحاكمة الشخصية الثانية في هرم السلطة الموحدية، الوزير ونقيب السادات السيد أبو زيد الذي اتهمه التجار والسوقة بأنهم أهدوا له الجواري والخيل وغيرها من الهدايا القيمة[3]. ويقول ابن خلكان عن عدل المنصور أنه "نصب ميزان العدل، وبسط أحكام الناس على **حقيقة الشرع**، ونظر في أمور الدين والورع، وأقام الحدود حتى **في أهله وعشيرته الأقربين**، كما أقامها في سائر الناس أجمعين"[4].

خامسا، واهتم، بموازاة مع هذا الاصلاح الاجتماعي، بالجهاد في الأندلس وقد أشادت المصادر بولع المنصور بالجهاد وإعلاء رايته، إذ شحن الثغور بالمجاهدين وجاهد بنفسه، وحقق انتصار الأرك، سنة591 هـ/1195م، وبعض الانتصارات الأخرى حتى سنة594 هـ. وقبل وفاته أوصى الموحدين باليتيمة والأيتام وهي الأندلس وأهلها والعمل على حمايتها[5]، ويمكن فهم توسيع المنصور للطبقات الموحدية والتقرب من الصوفية في سياق سياسته الجهادية هذه.

هكذا يتضح أن هذه السياسة كانت ضد العصبية المصمودية الحاكمة المتواكلة والمستهترة ولصالح الرعية المتذمرة من الظلم، ولصالح توطيد سلطة البيت المومني والمحافظة على وحدة الإمبراطورية والدفاع عن حدودها .

فهل يمكن اعتبار هذه السياسة التي نهجها المنصور استثنائية في تاريخ الدولة الموحدية؟

---

(1) - راجع زنيبر محمد. **المغرب في العصر الوسيط**... مرجع سابق ص 215 . وما بعدها والمصادر التي اعتمدها .

(2) - عبد الله عنان، **عصر المرابطين والموحدين**.. مرجع سابق ج 2 ص.143.

(3) - ابن عذاري، **البيان المغرب**...م. س. ص.173-174 .

(4) - الناصري، **الاستقصا**... م. س ج 2ص192 .. وتذكر المصادر مثالا بارزا على تطبيق المنصور للعدل وخضوعه لحكم الشرع حتى في قرابته. وانقياده لأوامر القاضي أبي عبد الله بن مروان حين طالبه برد أخته لزوجها الشيخ عبد الواحد الحفصي. نفسه. ونفس الصفحة.

(5) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م. س. ص.232 .

لقد كانت تتوزع سياسة الدولة الموحدية، منذ انطلاق حركتهم، سياستان مختلفان متوازيتان : سياسة دينية فرضها الإصلاح الديني الذي تزعمته الدولة متمثلا في المذهب التومرتي الذي تبنته، كمذهب رسمي، وسياسة قبلية، بحكم تبني الدولة للبنية القبلية المشرقية التي تعرضنا لخصائصها والمعايير والقيم قامت عليها في فصلي التنظيمات الموحدية وماليتها. والسياسة القبلية هي التي تغلبت، بحكم قوة الأشياء وأدت، مع مرور الوقت، إلى تراكم سلبيات عديدة، برزت مع نهاية عهد يوسف وبداية عهد المنصور، ويمكن تلخيصها في أمرين:

الأول، هو الاستغلال الفاحش للرعية من طرف الموحدين، وتزايد حدة الظلم ومظاهره .

الثاني، هو تهاون وتواكل الموحدين وإهمالهم لشؤون دولتهم. وكان للأمرين نتائج خطيرة على الوضعية الأمنية للإمبراطورية، ففي عهد المنصور، لم تعد **سيوف** الموحدين **وعدلهم** كافيا لحماية الإمبراطورية، كما كان يظن عبد المومن ويعول عليه، بعد احتلال فاس، عندما برر هدم جزء من سورها بقوله: "أنا لا نحتاج إلى سور، وإنما الأسوار **سيوفنا وعدلنا**"[1]، وحين هدمت أسوار بعض المدن الأخرى كسور سلا، وسبتة[2]وبجاية وتلمسان. ومما له مغزى كبير بهذا الصدد، أن إعادة بناء سور فاس كان قد شرع فيه في عهد يعقوب المنصور، وأكمله ابنه الناصر، سنة600 هـ/1204م، وبنى معه أسوار مجموعة من المدن الأخرى، كسور" مدينة باديس، وسور المزمة، وسور مليلية **حياطة** على ذلك من **فجأة العدو**[3]". مما يدل على أن عدل الموحدين قد تقلص ظله، رغم مجهود يعقوب المنصور، كما أن سيوف جيشهم لم يعد يعول عليها للدفاع، عن تلك المدن، من الأخطار المحدقة بها داخليا وخارجيا. لأن الموحدن لم يعدوا متحمسين للقتال والتنافس عليه، كما كان الأمر، سنة550 هـ، حين انتصر الشيخ أبو زيد عبد الرحمان والي قرطبة على القمط صاحب حصن البطروج، ولما بلغ خبر هذا النصر لأبي محمد عبد الله بن أبي حفص والي إشبيلية، احتفل بذلك بضرب الطبول، على العادة في احتفالات الموحدين، وقال له أحد الأشياخ : "لم تجر العادة بضرب الطبول بإشبيلية على فتوح أهل قرطبة"، فتغير لون الشيخ

---

(1) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بالأنيس المطرب**... م.س. ص.189 .

(2) - نفسه، ص189.، الناصري، **الاستقصا**... ج 2ص111، 105، 189 .

(3) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بالأنيس المطرب**... م.س. ص.271 ..

وفهم المقصود من كلامه فجهز بدوره حملة عسكرية للجهاد[1]. وأسندت لأبي حفص عمر، في سنة 564 هـ/1169م رغم كبر سنه في هذه الفترة، قيادة حملة عسكرية في الأندلس على أمل أن يتبعه الموحدون[2].

ومن مظاهر تواكل الموحدين تذمرهم من التجنيد المستمر، إذ سئموا من الحملات الطويلة والشاقة، خاصة الحملات الموجهة لإفريقيا التي كانت تستغرق أكثر من سنة لبعد المسافة(أكثر من 2000 كلم)، وحيث لا تتوفر المؤن والمرافق في مناطقها الجنوبية الصحراوية، مما اضطر يعقوب المنصور، سنة581 هـ، أن لا يصطحب معه، لمحاربة بني غانية، إلا 20.000 من فرسان الموحدين[3]. كما كانوا يتذمرون من تجمير بعوثهم، مدة أطول أكثر من المعتاد، خاصة الحاميات العسكرية التي تعمل بالتناوب، فكان مما يكرره الكاتب أبو عبد الله بن عياش على الموحدين، في بيعة المستنصر، سنة610 هـ/1117م: "ولكم عليه (أي الخليفة) : أن لا **يجمر بعوثكم**، وأن لا يدخر عنكم شيئا تعمكم مصلحته، وأن **يعجل لكم عطاءكم**، وأن لا **يحتجب** دونكم"[4]. وكانت بعض يدائل القبائل، مثل كومية وقبائل عربية إذا طال أمد مناوبتها، على حراسة الثغور الأندلسية، تلجأ إلى التخريب والعيث لإسماع صوتها وإعادتها إلى أوطانها وأهاليها، مثلما حدث في عهد المستنصر، سنة 616 هـ.[5]

وقد ظهرت بوادر هذا التذمر، سنة 555 هـ، إثر الحملة على إفريقية التي طال فيها غياب الموحدين مدة 3 سنوات، وطلب من بعضهم الإقامة بإفريقيا والتغرب عن أوطانهم، فدبر البعض منهم مؤامرة لاغتيال عبد المومن في خبائه، ذهب ضحيتها الشيخ إسماعيل بن يحيى الهزرجي والمدفون في البطحاء[6]. وعبر الموحدون، أكثر من مرة، عن رغبتهم في العودة إلى أوطانهم في عدة مناسبات، كما حدث في مرسية بسبب ضيقها وغلاء السعر بها[7]، أو حين طلبوا من المنصور أن يؤجل الحركة لإفريقية، سنة594 هـ/1198م، إلى السنة الموالية ليستريح الناس من عناء الحرب بالأندلس النى طال مقامهم بها، وأن

---

(1) - **نفسه**، ص.53-54 .

(2) - **نفسه**، ص.105.

(3) - النويري، **نهاية الأرب**... م.س ص436 .، وانظر عن صعوبة ومشقة الذهاب إلى إفريقيا، التجاني، **رحلة التجاني**... ص.361.

(4) - المراكشي، **المعجب**...م.س. ص.263.

(5) - عزاوي أحمد، **رسائل موحدية جديدة**... م.س. ص 316 وما بعدها.

(6) - المراكشي، **المعجب**...م.س. ص340 -343.. الناصري، **الاستقصا**...م.س. ج 2ص135.. ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب**...م.س. ص. 201.

(7) - ابن عذاري، **البيان المغرب**...م.س. ص. 124 .

منهم من طالت غيبته بها خمس سنوات وأكثر [1]. ولهذا كان الجيش الموحدي، إذا خير بين الذهاب لإفريقية أو الأندلس كان يفضل الذهاب إلى الأندلس على الذهاب إلى إفريقيا، لسببين: "**لقربها** ولتأتي المؤن بها[2]".

ومن مؤشرات هذا الفتور أن الجيش الموحدي الذي أبان عن انضباط كبير، وخطط عسكرية عديدة ومبتكرة في بداية فتوحاته، وتزويد محكم للحركات الضخمة بحاجاتها من بالمؤن والعتاد، وتوفير المياه لها حتى في مناطق لا يتأتى فيها ذلك بيسر وسهولة، كالطريق من المغرب لإفريقية التي قطعها الجيش، سنة 553 هـ/1159م، في 6 أشهر[3]. هذا الجيش الذي لم ينهزم هزيمة كبرى، منذ معركة البحيرة، سنة 524 هـ/1130م، بدأ يتكبد الهزائم المتوالية، ابتداء من567 هـ/1172م، منها هزيمتان بدون حرب أمام المسيحيين.

الهزيمة الأولى تتمثل في الإخفاق الذي مني به جيش جرار في حصار مدينة صغيرة لا تدافع عنه إلا حامية محدودة، كمدينة وبدة الحديثة التعمير من طرف المسيحيين، سنة 567 هـ[4]. فقد لاحظ ابن صاحب الصلاة، وهو شاهد عيان، تراخي هذا الجيش، أثناء حصار المدينة المذكورة، وقال: "ودام القتال على **انحلال وضعف وملال** إلى بعد أدان الظهر وارتفع، وما **نفع الجيش الكثير عديده** ولا الجمع، إذ كان في نحو مائة ألف، بين فارس وراجل"[5]. وقد دفع هذا التراخي بالشيخ أبي محمد عبد الواحد ابن عمر، من أهل الدار، أن يخاطب هذا الجيش تارة بالعربية، وأخرى بالأمازيغية، يعظ قادته ويستنهض هممهم للجهاد. ومن جملة ما قال لهم في وعظه لهم: "قد كنتم بمراكش تقولون لو كنا غزونا النصارى لجاهدنا لله **واجتهدنا، فلما حضرتم معهم، قصرتم وجبنتم وحنثتم الله عز وجل، ونكلتم وما نصحتم**، ما أنتم **بمؤمنين ولا موحدين**. إن أمير المؤمنين ليس يقدر أن يراكم **لتفريطكم** في حق الله تعالى من الجهاد على **كثرتكم من الأعداء**" [6]. وتبين هذا التواكل والتراخي، مرة أخرى، في كارثة شنترين

(1) - الناصري، **الاستقصا**..م س .ج 2ص.196.
(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... ق .الموحدين م س .ص.157 .
(3) - التجاني، **رحلة التجاني**..ص.346 -347 .
(4) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**..م س .ص398-413.، عبد الله عنان، **عصر المرابطين والموحدين**... م س ج 2ص.74 .
(5) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**... م س .ص411.، ابن عذاري، **البيان المغرب**..م س .ص.123 .
(6) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**... م س .ص411 .. ابن عذاري، **البيان المغرب**.... م س .ص.123 .

580هـ/1185م، إذ اضطر الجيش الموحدي أن ينسحب، دون نظام، من حصار هذه المدينة، وكان من نتائج ذلك جرح الخليفة وموته[1]. فهذه هزائم بدون قتال يذكر، مما يدل على أن الجيش الموحدي فقد تماسكه وقيادته الحازمة بوفاة قادته الكبار، كأبي حفص الهنتاتي، وفقد قوته القتالية وحماسه الديني. فلا ينبغي أن ينظر لانكسارات الجيش الموحدي هذه على أنها مجرد أخطاء عسكرية ظرفية ومؤقتة، أو أنها ناتجة عن ضعف كفاءة أبي يعقوب يوسف العسكرية، كما اعتقد الباحث الاسبابي هويثي ميراند[2]، بل هي هزائم ناتجة عن فتور العصبية الحاكمة الذي سبق توضيح بعض أسبابه الاقتصادية والاجتماعية .وهو فتور له نظيره، لدى الدول الأخرى، فقد لاحظه المراكشي، عند المرابطين، منذ بداية القرن5 هـ/11م، وعلل انتفاض سكان الأندلس عليهم ب"**تخاذل** المرابطين و**تواكلهم**، وميلهم إلى الدعة، وإيثارهم الراحة[3]"، وهي الظاهرة التي تؤكدها رسالة رسمية كتبها أبو عبد الله محمد بن أبي الخصال وأخوه، وحفظها عن ظهر قلب غالبية الأندلسيين لأنها تقدح بشكل كبير، من وجهة نظر الأندلسيين، في جند المرابطين المنهزم ببلنسية[4] .

وما أن شعرت القوى الداخلية بهذا الفتور المزمن حتى استغلته على الفور، وقامت بثورات ببعض جهات الإمبراطورية، خاصة الجهات التي ضعفت فيها الحماية العسكرية، كابن الرند الطويل الذي لاحظ خلو قفصة من الحامية، نظرا لبعدها عن دار الملك . كما أن طرابلس كانت "بلادا لم تتوقع ثائرا ولا مخالفا فهي خالية من الأجناد ومن العدد والأقوات[5]"، لهذا سهل على قراقوش الاستيلاء عليها . واستغل بنو غانية المرابطين كارثة شنترين، فبادروا إلى الاستيلاء على مدينة بجاية، لأن من كان بها من المسؤولين "غير **مستعدين، وعلى بعد الفتنة من سنين**. فتدلى لهم قوم من السوقة والفساق واسروا لهم بعورات البلد و**غفلة أهله وقلة المقاتلة من أهل النجدة**"[6]، واختاروا يوم الجمعة الذي يكون الناس فيه مشغولين بصلاة الجمعة[7]، ومما سهل الأمر عليهم أنها كانت غير مسورة بدورها من إحدى جهاتها، وهي جهة باب اللوز[8].

---

(1) - ابن عذاري، **البيان المغرب**...م س ص.161 ، ناقش محمد عبد الله عنان الروايات التاريخية المختلفة عن هذه المعركة، **عصر المرابطين والموحدين**... مرجع سابق ق 2 ص.120 -130 .
(2) - لوتورنو، **حركة الموحدين في المغرب**... مرجع سابق ص.71 -72.
(3) - المراكشي، **المعجب**...م س ص.304 .
(4) - **نفسه** ص259 .، محمد عبد الله عنان، **عصر المرابطين والموحدين**... مرجع سابق ج 1 ص.545.
(5) - التجاني محمد، **رحلة التجاني**..مصدر سابق ص.113.
(6) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ...م. س. ص.176.
(7) - الناصري، **الاستقصا**..م س ج 2ص.155 .
(8) - الغبريني، **عنوان الدراية**... م س ص.46 .

يبدو أن هذا التيار السياسي ذا النزعة القبلية، من العصبية الموحدية الحاكمة، الذي كان يريد استغلال خيرات الإمبراطورية لصالحه فقط، دون القيام بمجهود للدفاع عنها، قد تقوى، ابتداء من عهد يوسف(558-580هـ/1185م) الذي اغتنى فيه الموحدون، كما سبق الذكر. وحاول الخلفاء الموحدون، قدر الإمكان، الوقوف تجاه هذا التيار، بالعمل على تحقيق المساواة التي يدعو لها الإسلام بين الرعية والحكام، وتحقيق حد أدنى من العدالة الاجتماعية، سواء بنهيهم للمنكر أو بحرصهم على نشر العدل، من خلال رسائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي مقدمتها الفصول لعبد المومن سنة 543 هـ/ 1149م[1]، أو من خلال جلوسهم للمظالم، كما تقدم .

والشيء الجديد، في عهد المنصور، أن هذه السياسة أصبحت أولى الأوليات لحماية الإمبراطورية والحفاظ على وحدتها المهددة داخليا وخارجيا، وهي سياسة لها مساندون من بين العصبية الحاكمة نفسها. ويكفي، للتأكد من ذلك، أن نلقي نظرة على الوزراء الأساسيين ليعقوب المنصور لنلاحظ أنهم أولا، اختيروا من البيت الهنتاتي بالذات، وليس هذا الاختيار من قبيل الصدفة، إذ يمكن اعتبار هذا البيت ممثلا للتيار الديني الإصلاحي والمتحمس للدفاع عن الإمبراطورية والجهاد، ويصفهم روض القرطاس ويقول عنهم : "وكان بنو حفص في الموحدين **أهل الفضل والتقى والدين**[2]"، وقد تم اختيار أحدهم، كقائد عام للجيش في معركة الأرك 591 هـ/1195م، لاعتباره "شيخا من أشياخ الموحدين الموصوفين **بالشجاعة والدين والإخلاص والنصيحة** " للخليفة وللمسلمين[3]. وكان أغلب أفراد هذا البيت يتميزون، إلى جانب صفاتهم الدينية، بقلة طمعهم، فأحدهم وهو المعروف بالفيل، بلغ به الأمر إلى درجة أنه ترك الوزارة وهرب للأندلس والتزم التزهد بها، والثاني استشهد في معركة الأرك، وساهم صموده خلال المعركة في تحقق النصر[4] كما كان يعقوب المنصور يختار من العصبية المصمودية رجالا قليلي الجشع والطمع، وعلل اختياره لوزيره ابن يوجان الهنتاتي، وهو أيضا من قرابة أبي حفص، بقوله : "كنا قد شغلناه بأشغالنا وصرفناه في أعمالنا، فوالله ما رأينا في شغله وخدمته، ما يغير نفوسنا عليه **ولا**

---

(1) - انظر ملخصا لمحتويات هذه الرسالة في الفصل الثاني ص 83 .
(2) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بالأنيس المطرب**...م.س. ص.225 .
(3) - **نفسه**، ص.224 .
(4) - انظر لائحة الوزراء المرفقة بآخر هذا العمل. والمراكشي، **المعجب**...م.س. ص.379- 380.

ظهر لنا منه طمع ولم تكن هذه عادة غيره"[1]. وبرر تعيينه للقاضي ابن بقي : ب"كنا قدمنه على القضاء **لعلمنا بعفافه وطهارته** ولضعف مؤنته **وقلة طمعه** "بالرغم من فقره[2]. وتم اختيار عبد الواحد بن أبي حفص لقيادة الجيش الذي حقق النصر في معركة عمرة، لأنه كان من مؤيدي القضاء على ثورة بني غانية، حين" شاور الناصر الموحدين في أمر إفريقية، فأشاروا عليه **بمسالمة ابن غانية**، وأشار عبد الواحد بن أبي حفص **بالنهوض إليها والمدافعة عنها**[3]"، وأسندت له مهمة القضاء على بني غانية وشرط الشروط التي تسمح له بأداء مهمته.

كان هذا الجناح، من الكتلة الحاكمة بقيادة بيت بني حفص، يدرك أن اتباع سياسة إسلامية غير قبلية لا تتناقض بالضرورة مع مصالح العصبية الموحدية الحاكمة، وأنه يمكن إشراك الرعية وتعبئتها للدفاع عن إمبراطوريتها ضد الأخطار الخارجية والداخلية المحدقة بها، لكن يتطلب منها ذلك إعطاء المزيد من الحقوق للرعية وإنصافها، أي الحكم بطريقة الإقناع لا بالطرق القسرية المعتادة من ذي قبل، وبعبارة أخرى تطبيق نوع من العدالة الاجتماعية. كما يتطلب أيضا تضحية من العصبية الحاكمة بالكثير من امتيازاتها وكبح شهواتها، وهو ما لم يكن يروق لأغلب الموحدين، لذلك قام المنصور باتخاذ الإجراءات السابقة لكبح جماح جشعهم واستنزافهم للرعية وللحد من استهتارهم وتهاونهم.

وربما قرر أن يذهب أبعد من ذلك في إصلاحاته والإجراءات التي اتخذها ضد العصبية الموحدية، حين فكر في التخلي عن العنصر المذهبي الذي يعطيها المشروعية في الحكم وهو المهدوية، أي الشق السياسي من المذهب التومرتي، كما تقدم. فقد كتب عنه عبد الواحد المراكشي بالمشرق، سنة621 هـ/1225م، أن يعقوب المنصور شكك في عصمة المهدي ولم يكن مقتنعا بها[4]، وهو شيء أكدته الرسالة الرسمية للمأمون، سنة 627 هـ/1230م، والتي نسب فيها إدريس المامون لجده أنه كان يعتزم إلغاء المهدوية لكن أجله لم يسعفه[5]. قد يظن أن هذا الأمر لا يعدو أن يكون اعتقادا وقناعة شخصية ليعقوب

---

(1) - ابن عذاري، **البيان المغرب**...م.س .ص232 .. وعن دور ابن يوجان كوزير انظر نفس المصدر ص.225 .
(2) - **نفسه**، ونفس الصفحة.
(3) - الناصري، **الاستقصا**...م.س .ج 2ص.208 ، ابن خلدون، **كتاب العبر**... م. س. ص.248.
(4) - المراكشي عبد الواحد، المراكشي، **المعجب**...م. س . ص. 416 -418 وقدم ثلاث وقائع لإثبات ذلك.
(5) - مجهول، **الحلل الموشية** ...م. س . ص.164 -165 .

المنصور، في مسألة المهدوية وعصمة ابن تومرت، وأنه شيء ينسجم مع سياسته الدينية نظرا لتدينه الشديد، لكن السياق التاريخي السابق، لعهد المنصور وما بعده، يؤكد أن الأمر له علاقة أكثر برغبة المنصور، في تصفية هذه الأرستقراطية القبلية التي تتشبث، في كل مرة، بالمذهب التومرتي وصاحبه المهدي للدفاع عن مصالحها وامتيازاتها العديدة وعن مواقفها المتخاذلة وتقاعسها . لوحظ ذلك مرات عديدة، وظهر جليا، حوالي534هـ/1140م، بمناسبة قتل إبراهيم أخ عبد المومن الذي أنزله مكان الشيخ أبي بكر بن ييكَيت من أهل الخمسين وأعطاه الخيل والعبيد والخباء، كغيره من الموحدين الآخرين، فغضب عبد المومن لقتل أخيه وأراد أن يقتل الشيخ الذي قتله فقام له أبو حفص، وأبو الحسن يكَوت بن وجاج، وقالا له : ألم **يقل المهدي** بأن أهل الجماعة وصبيانهم عبيدهم كل من في الدنيا"[1]، فتراجع عبد المومن عن قراره. وظهر مرة أخرى، بمناسبة القبض على الشيخ عبد الله بن زكرياء الهزرجي الثائر بسجلماسة، سنة640هـ/1243م، من طرف السعيد، و"تكلم فيه أشياخ الموحدين إلى أميرهم وذكروه ما كان من **وصية المهدي** إمامهم على سلفه لعبد المومن وبنيه، وأن **دماءهم حرام عليهم، ولو وصلوا بالضرر** إليهم"[2]، فلم يسمع الرشيد مقالاتهم، كما فعل جده عبد المومن، وقتله وعلق رأسه على باب الكحل من مراكش. لأن قوة مكانة الأشياخ في عهد السعيد لم تعد إلى ما كانت عليه، قبل تصفية أغلبهم من قبل المامون، سنة627 هـ/1230م. يظهر، من هذين المثالين وغيرهما، أن الأرستقراطية الموحدية التي أصبحت شبه طفيلية على الدولة والميالة للراحة والمعرقلة لسير شؤون الإمبراطورية، كانت تذكر، في كل مناسبة، الخلفاء بدالتهم عليهم، وهذا ما جعل الخلفاء يميلون لتعيين من لم يكن شريفا من الموحدين في بعض المناصب الهامة، كتعيين الناصرلابن جامع وابن مثنى وهو رجل خامل. وقد لاحظ ابن أبي زرع أن الناصر "كان غليظ الحجاب، لا تكاد تصله الأمور إلا بعد الجهد، مصيب برأيه، مستبد في أموره وتدبير مملكته بنفسه"، أي أنه لم يعد في حاجة إلى استشارة هؤلاء الأشياخ الذين لم تعد لهم رغبة لا في حل ولا في عقد، كما لاحظ أن الذي قهر أعيان شيوخ الموحدين المتهاونين ويهين أهل الشرف منهم، هو وزيره عثمان ابن جامع حتى" فر من **بساط** محمد الناصر أكثر الأشياخ الذين **قام بهم الأمر**". واستغنى الناصر عن مشورة الأشياخ بمشورة ابن

---

(1) - البيدق، **أخبار المهدي** ... م. س. ص.55 .

(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م . س. ص.365 - 366 .

جامع وابن مثنى" لا يقطع أمرا إلا بمشورتهما"[1]. وتجلى تزايد ميلهم للخمول وتهاونهم أكثر من أي وقت مضى، في بداية حكم الناصر، حين انهزم الجيش الموجهه لمحاربة بني غانية، رغم كثرة أعداده وحسن تجهيزه ورغم إسناد قيادته للسيد أبي الحسن علي بن عمر بن عبد المومن، أحد الأمراء المرموقين ومزوار السادات آنذاك، ووجود أهم الأشياخ به. ويصفه شاهد عيان: "لم أر لهم جيشا أضخم منه ولا اكثر سلاحا ولا عدة، وكان فيه من أعيان الموحدين وأشياخهم جملة وافرة". وقد تعجب عبد الواحد المراكشي الذي شاهد هذا الجيش من الهزيمة النكراء التي مني بها[2]. ويمكن اعتبار هذه الهزيمة إرهاصا للهزيمة الكبرى التي سيتكبدها الجيش الموحدي، بعد 15 سنة من تاريخ هذا الانهزام، في معركة العقاب.

أصبحت مردودية الجيش الموحدي، رغم التجهيز الذي يمتلكه من خيول وأسلحة وتوفر المؤن في الغالب، ضعيفة، إذ فقد روحه القتالية وحماسه الديني، وأصبح يفر من ساحة القتال، كما حدث للجيش الذي أرسل لحماية بجاية[3]، كما أن الإجراءات التأديبية لم تعد كافية لمنع فرار الموحدين من ميادين المعارك، كإهانة الفارين بحلق اللحى، كما كان يحدث في العهد المرابطي[4]. أو حرمانهم من العطاء[5]، أو ضربهم بالسياط، كما حدث لقبيلة هسكورة التي فرت عن مكان حراستها أثناء حصار وبدة، سنة 567هـ/1172م[6]. أو اعتقالهم ومصادرة أموالهم، كما حدث ل ابن سنان أحد الشيوخ البارزين من أهل الخمسين، سنة586 هـ/1191م، الذي كان أول من فر من معركة المنار بالأندلس[7]. لقد أصبحت الدولة عاجزة عن محاربة ظاهرة الفرار المتفاقمة باستمراروالتي يمكن فهما، على ضوء سأم وملل الموحدين بعد جيلين من التعبئة لخوض الحروب التي تكاد تكون شبه دائمة، وتغيير وضعيتهم الاقتصادية والاجتماعية المشار لها آنفا.

---

(1) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بالأنيس المطرب**... م.س. ص.236- 237.

(2) - المراكشي، **المعجب**...م.س. ص446- 447.. انظر كذلك وصفا مهما للحالة التي آلت إليها وضعية الجيش الموحدي من فوضى في أواخر الدولة الموحدية، للفشتالي ضمن مجموع يضم 250 ورقة، ميكروفليم بالخزانة العامة بالرباط، رقم977، اللوحة 6 وما بعدها.

(3) - ابن عذاري، الابن عذاري، **البيان المغرب**... ص.181.

(4) - ابن القطان، **نظم الجمان**... م.س. ص.125.

(5) - ابن عذاري، **البيان المغرب**...م.س. ص.151.

(6) - ابن صاحب الصلاة، **المن بالإمامة**...م.س. ص.411.

(7) - ابن عذاري، **البيان المغرب**...م.س. ص.207.

لا يعني هذا أن السياسة الدينية التي نهجها يعقوب المنصور تمثل تغييرا، في طريقة تسيير الإمبراطورية، تفرض عليه التخلي عن مركزية الدولة أو تقليصا معينا لسلطات الخليفة، أو تغييرا ما في طريقة الحكم الاستبدادية، بل على العكس من ذلك، كان المنصور مشرفا، على شؤون الإمبراطورية، بشكل لم يعهد من قبل، كما يتبين من نوعية الإجراءات التي اتخذها هذا الخليفة في عدة ميادين. فقد ساعده على هذا الإشراف الدقيق إطلاعه على جزئيات الأمور، أثناء ولايته للعهد، واستعلامه وتحريه بدقة عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بعد توليته، منها على سبيل المثال، استدعاء أمناء الأسواق وأشياخ المدن، كل 15 يوما، يستفسرهم عن وضعية أسواقهم وأسعارها وعن حكامهم. وكان إذا وفد عليه أهل ناحية معينة فأول ما يسألهم عن عمالهم وقضاتهم وولاتهم ويلزم الجميع بأن يكونوا صرحاء صادقين في أقوالهم، وأن يتحملوا مسؤولية شهادتهم أمامه وأمام الله[1]. ومكنته هذه الاستعلامات والتحريات من أن يكون "**مشرفا على أجزاء مملكته في القرب والبعد** .لا تغيب عنده فضيلة أحد من **رجاله**، ولا يغيب عنه شيء من **أحوال رعيته، ولا يجترئ أحد على مخادعته**"[2]. هذا الاهتمام بالاطلاع على شؤون الرعية في علاقتها بالجهاز الحاكم في الأقاليم[3]، جعله يتدخل بنفسه، للفصل في قضايا تبدو بسيطة جدا، مثل قضية إطلال دار الفقيه أبي القاسم بن الملجوم، الذي ينتمي لبيت ذي جاه وثروة وعلم بفاس، على ديار بعض جيرانه بحومة في حارة لواتة وعلى مسلخ حمام مجاور لها، ينظر منها إلى النسوة إذا تجردن في مسلخ الحمام المذكور، فنفذ أمره" إلى القاضي أبي محمد التادلي بهدم العلية (أي الدار) وتعفية أثرها، يوم الأربعاء 3 رجب 588 هـ" [4]. ومثل الأمر بصنع كساء للمسجد العتيق من القيروان بإفريقية، أو الأمر، سنة 586 هـ/1191م، بإزالة صورة كانت على الزهراء بقرطبة[5]، هذا بالإضافة إلى استماعه لتظلمات الأفراد في أمور وقضايا بسيطة جدا.

و لم يتخل المنصور، رغم هذه السياسة الدينية والاجتماعية، عن أبهة الدولة وإبراز هيبتها، بل عمل على تفخيمها فهو "واسطة عقد ملوك الموحدين الذي ضخم المملكة

---

(1) - المراكشي، **المعجب**..م. س . ص .409 -410 .
(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م. س. ص.170 .
(3) - زنيبر محمد، **المغرب في العصر الوسيط**... مرجع سابق ص.247.
(4) - ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بالأنيس المطرب**... م. س. ص .67 -68 .
(5) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م. س . ص190,205.

وشرفها"[1]، تجلى ذلك في إقدامه على تضعيف العملة لكي تكون في مستوى ما وصلت إليه الدولة من العظمة، وفي حرصه على اتخاذ كل مظاهر الفخامة والأبهة، مثل اختراع أفراك جديد للحركة، سنة 582 هـ/1187م[2]، وفي بناء تمراكشت[3]، كدار ملك تليق بمستوى الدولة،" ولم تزل همة المنصور تتبع جزئيات المملكة **بالتفخيم**، ويجيل النظر فيما بقي منها **للتكميل والتتميم**، فرأى أن الدينار القديم **يصغر** عن مرأى ما ظهر بالمملكة من **المنازع العالية**، وأن جرمه يقل عما عارضه من **المناظر الفخمة الجارية، فعظم جرمه** ورفع بالتضعيف وسومه، فجاء من النتائج الملوكية والاختراعات السرية، جامعا بين الفخامة والنماء والطيب"[4]، كما اتخذ لقبا تشريفيا هو المنصور بالله، واختص الخلفاء بمداد أحمر لكتابة مراسلاتهم ويمسكون قضيبا[5]. تدل هذه الإجراءات على أن المنصور لم يطبق سياسة التقشف والزهد على الدولة، كما ألزم بها العصبية المصمودية .

هل نجح يعقوب المنصور في سياسته؟

3 - محدودية إصلاحات يعقوب المنصور:

لا يمكن لمثل هذه السياسة إلا أن تحقق، على المدى القريب، بعض النجاح المؤقت، والحصول على نتائج آنية مهمة في بعض المجالات، مثل انشار الأمن النسبي بالإمبراطورية "فكانت الظعينة (المرأة) تخرج من بلاد نول فتنتهي إلى بلاد برقة وحدها لا ترى من يعرض لها ولا من يمسها بسوء"[6]، "فكانت أيامه زينة للدهر وشرفا للإسلام وأهله"، وتمكن بفضلها من تحقيق انتصار مهم، في معركة الأرك591 هـ. تحقق هذا الانتصار الهام بفضل التعبئة الدينية لمختلف طاقات المجتمع الحية، وعلى رأسهم العلماء ورجال التصوف، "إذ كتب قبل خروجه إلى جميع البلاد بالبحث عن الصالحين والمنتمين إلى الخير وحملهم إليه، فاجتمعت له منهم جماعة كبيرة كان يجعلهم كلما سار بين يديه"،

---

(1) - الناصري، **الاستقصا**..م س. ج 2ص.192 .
(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م س. ص 185 .والناصري، الاستقصا ..ج 2 ص.188- 190 .
(3) - نفسه، ص174 .. محمد عبد الله عنان، **عصر المرابطين والموحدين**... القسم 2 ص.143 .
(4) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... م س. ص.182 .
(5) - **نفسه**، ص.329.
(6) - الناصري، **الاستقصا**..م س. ج 2 ص.192 .

فإذا "نظر إليهم قال : **هؤلاء الجنود لا هؤلاء !** ويشير إلى العسكر"، فكان، في ذلك، شبيها، حسب المراكشي، بقولة قتيبة بن مسلم والي خرسان في حق المتصوف أبي عبدالله بن واسع الذي كان في جيشه ينضنض إصبعه بالذكر "**لإصبعه** تلك أحب إلي من عشرة الآف سيف"(1). لهذا "كان يحب الصالحين ويدني مجالسهم ويستدنيهم من أقاصي طاعته"(2). يظهر من هذا أن للمتصوفة، في نظر يعقوب المنصور، فعالية تفوق فعالية الجيش الموحدي المتواكل، فتعامله مع الأولياء والعلماء لم يكن بدافع تقدير الصلاح والعلم فقط، وإنما أيضا لعلمه بما لتلك الشريحة من سلطة دينية قادرة على تحريك الجماعات وتعبئتها. فقد ضمن بواسطة سياسته الدينية والاجتماعية، وبواسطة تقريب هؤلاء المتصوفة والعلماء الذين استمالهم بتلك السياسة، تعبئة مختلف الطاقات البشرية التي تزخر بها الإمبراطورية لمواجهة الضغط الصليبي بالأندلس، فحق انتصارك الأرك الذي كان له وقع كبير في أوساط المجتمع، إذ "جاءت هذه الوقعة هنيئة الموقع، عامة المسرة، كأكلة جائع وشربة عاطش، فأنست كل فتح بالأندلس تقدمها، **وبقي بأفواه المسلمين إلى الممات ذكرها**"(3). كما ترددت، في المصادر، أصداء تعاطف الأولياء واهتمامهم بمآل هذه الوقعة. فهذه صالحة" كبيرة الشأن من الأفراد "تشاهد، من بعيد بقرية من بلاد دكالة، مختلف مراحل غزوة الأرك وتتنبأ للمسلمين بالانتصار. أما في تارودانت فقد علم الولي أبو محمد صالح بن واندلس بالانتصار، في نفس اليوم، كما تنبأ وال آخر بفاس بهذا الانتصار وأخبر محي الدين بن العربي، وكان نفس الصدى في تادلا لدى محمد بن تميم الزياني(4).

وعلى المدى البعيد، كان مآل هذه السياسة الفشل، لأنها كانت مجرد عملية تطهيرية مؤقتة محدودة، في الزمان والمكان، أو إصلاح فوقي في أحسن الحالات، فهي غير مرتبطة بنصوص قانونية وتنظيمية ولا بإقامة مؤسسات وبنيات يستمر مفعولها بعد وفاة المنصور، إنما ارتبطت إصلاحاته بسلوكه الشخصي وسهره الدائم على محاربة ظلم العصبية الموحدية الحاكمة، بتتبع سلوك وأخلاق القضاة والولاة، مما يعرض هذه

---

(1) - المراكشي، **المعجب**..م.س. ص.410 .

(2) - ابن عذاري، **البيان المغرب**... ق .الموحدين م.س. ص.170 .

(3) - **نفسه**، ص.221.

(4) - حليمة فرحات وحامد التريكي، «كتب المناقب كمادة تاريخية»، ضمن التاريخ وأدب المناقب، عكاظ، الرباط 1989 ص.56.

السياسة للتوقف حتى في حياته، بفعل طوارئ مستجدة، كالحروب أو المرض الذي تعرض له مرارا، خاصة حين مرض 7 أشهر، سنة588 هـ/1193م، والتي سميت سنة أكرواو (المحفة) . كما تقتضي هذه السياسة، أن يكون الخليفة حاضرا بذاته، في عين المكان الذي تحدث فيه المظالم، في حين اقتصر مفعولها أكثر على مراكش والمناطق التي يمر بها، أثناء حركاته، كفاس أو الأندلس، لذا قطع المنصور جلوسه للمظالم، بمراكش، بعد مدة قصيرة لسببين:

أولها أن الحملة أتت أكلها في تطهير مراكش من المظالم، لهذا أصبحت مردوديتها ضعيفة بعد مدة، وأصبحت تبتعد عن هدفها المرسوم لها، إذ سرعان ما استغلتها العامة لأهداف أخرى "فلما كثر تزاحم الغوغاء، وقلت فوائد الخصماء . وكانوا يقصدون إلى مجلسه في أدنى المطالب، وربما كانوا يقصدون رؤية السلطان لا للوصول لحق واجب . فقطع للعامة ذلك الجلوس".

و السبب الثاني لقطعها، هو أنها أتت أكلها في ردع الجبابرة من الحكام الموحدين، أي "بعدما توطأت به **شِمَاسها النفوس**[1]"، واسند متابعة هذه المهمة لقاضي الجماعة أبي القاسم بن بقي الذي كان يراقبه، من وراء ستار، رغم تدينه ونزاهته وصرامته، واكتفى هو فقط "بالقعود في أيام مخصوصة لمسائل مخصوصة لا ينفذها غيره"[2].

هذا يبين أن مفعول هذه الإصلاحات لا يمكن أن يستمر لأنها لم تمس المرتكزات البنيوية للدولة التي سبق شرحها في فصل الطبقات الموحدية والتنظيمات المالية، إذ كانت منطلقاتها دينية من أجل كبح جماح العصبية الحاكمة، وليس في مقدور الدين وحده أن يكبحها، يزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. وبما أنها لم تمس الجوهر كان محكوما عليها بالفشل، إذ لم يتمكن المنصور أن يحارب الظلم في ظل دولته، حين اشتكى له سكان الأندلس من ظلم الولاة والعمال، سنة 591 هـ/1195م، وأجل النظر في شكواهم إلى ما بعد عملية الجهاد، واكتفي بتهديد المشتكي بهم[3]. كما أن مفعول سياسته توقف بعد مماته، لأنه ترك وليا للعهد صغير السن عمره 16 سنة، ورغم أنه سبق وأن أخذ له البيعة بنفسه،

---

(1) - ابن عذاري، **البيان المغرب** ...م س، ص.174.

(2) - المراكشي، **المعجب**...م س، ص.409 .

(3) - ابن عذاري، **البيان المغرب**...م س.ق .الموحين، ص.204 .

فإنه تخوف من عواقب صغر سنه في مرضه الأخير الذي توفي منه، سنة595 هـ/1199م، لذا اقترح على الموحدين أن ينظروا شخصا آخر يسندون له الخلافة[1]، لأن الحكم الاستبدادي يتطلب شخصية قوية وخلقا خاصا، كشخصية يعقوب المنصور يأخذ الأشياخ، وبقية العصبية الحاكمة بدورهم بالغلبة والقهر .

كان مجهود المنصور هذا أهم وآخر مجهود لإيقاف تفاقم الشرخ الاجتماعي المتزايد بين الرعية والحكام. أما أشياخ الموحدين فقد قاموا برد فعل تجاه البيت الحاكم الذي يعاملهم غالبا بالقسوة والعنف كلما ارتكبوا خطأ ماليا أو إداريا، كما حدث لعمال وولاة فاس وبلاد الغرب في عهد الناصر، ويجبرهم على القيام بمهام الدفاع عن الإمبراطورية، ويتمثل رد فعلهم في استعمال الورقة المتبقية في أيدهم، وهي ورقة الشورى أثناء بيعة الخلفاء التي تسمح لهم بالتدخل في اختيار الخليفة، باختيار مرشح ضعيف الشخصية مسالم وطيع في أيدهم، وأن لا يكون ذا سطوة ومهابة تجاههم . وقد أتيحت لهم الفرصة لتحقيق هدفهم هذا بعد اغتيال المستنصر، فأصبحوا يعينون الخلفاء ويخلعونهم و"**رجع الأشياخ كالأتراك من بني العباس**"حسب تعبير ابن أبي زرع[2]، فاتجهت الدولة الموحدية نحو نهايتها، بعد احتضار طويل، استغرق حوالي نصف قرن.

(1) - نفسه، ص231،، انظر ابن خلدون، **المقدمة**... م.س 329 .عن الاستبداد على السلطان .
(2) - ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب**... م.س .ص .245.

الخاتمة:

رغم أن الدولة الموحدية حاولت إصلاح الشرخ الاجتماعي بين الحكام والمحكومين الذي لوحظ في عصرالمرابطين. وتتلخص مظاهر هذا الشرخ الاجتماعي فيما وآخذهم به ابن تومرت، والتي سماه علامات المبطلين من المرابطين، وهي 20 علامة. منها خمس علامات قبل تولي المرابطين للحكم، وتهم وضعيتهم الاجتماعية ومستواهم المعيشي المتدني والمتلخصة في أنهم كانوا: رعاة الشاء والبهم، حفاة، عراة، عالة (أي فقراء)، جاهلين بالدين. ومنها سبع علامات بعد سيطرتهم على الحكم، منها أنهم ملوك، أي مستبدون بالحكم لأغراض دنيوية، والتطاول في البنيان وتشييد القصور، والتكاثر مع الإماء والاستكثار من الجواري، والصم عن الحق لا يستمعون إليه، والبكم عنه لا يقولون به، وعديمي الأمانة للقيام بأمر الله.

أما أفعالهم، فهي ثمانية: يحملون في أيديهم سياط، كأذناب البقر، لضرب الناس وتعذيبهم. وثلاثة تخص استهتار نسائهم وتبرجهن. والسابعة أنهم، يغدون في سخط، ويروحون في لعنة، كناية عن أكلهم السحت والمال الحرام[1]. قام الموحدون لمحو هذه الظواهر الاجتماعية والدينية، لكنهم فشلوا في ذلك، فعادت من جديد في ظل دولتهم، خاصة مع مطلع القرن7 هـ/13م، باستثناء أربع علامات وهي المتعلقة بملابس وزي النساء وتبرجهن، وباستثناء تغيير السياط بالدبوس، ولو عاش ابن تومرت حتى ذلك الوقت، أو قام من قبره لكان عليه أن يعاود القيام بثورة أخرى أعنف على الدولة التي أقامها. تفاقم هذا الشرخ وما نتج عنه من توتر اجتماعي هو الذي أضعف سلطة الموحدين وأتى على حكمهم. لا يمكن إرجاع هذا الفشل إلى مبادئ المذهب التومرتي في حد ذاته (الزهد، التقشف، مبدأ الجهاد، استبدال القبيلة بالأمة وتحقيق قدر من العدل والمساواة والتضامن بين المسلمين في مستوى ما هو موجود بالقبيلة...) أو إلى عدم صدق النوايا الاصلاحية الموحدية بل تعود إلى تغلب التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية المشرقية على تلك المبادئ الدينية والنوايا الساسية فعرقلت تترجمها إلى تنظيمات سوسيو-سياسية وإلى إجراءات مالية واقتصادية، وهو مما خلق هوة شاسعة، منذ بداية الدولة، بين الحكام

---

(1) - ابن تومرت، **أعز ما يطلب**...ص 255-266 من طبعة الجزائر، ص. 384 – 394 من طبعة المغرب، محمد عبدالله عنان، **عصر المرابطين والموحدين**...ج 1 ص. 210-211 .

والرعية، كما أحدثت فوارق كبرى بين الحكام أنفسهم تفاقمت مع مرور الوقت. الإصلاح الديني الموحدي اعتمد الوازع الديني والتربوي وحده لتحقيق الانصهارَ والعدل والمساواة في الحقوق والواجبات بين مكونات المجتمع، وعجر الموحدن عن ترجمة مبادئ الدينية إلى ضوابط قانونية ومؤسسات اجتماعية تحقق المساواة، لأن التنظيمات السوسيو-سياسة والاقتصادية المقتبسة من نظم القبلية المشرقية التي قامت عليها الدول السابقة واحتفظ بها الموحدون، لايمكن إلا أن تعيد انتاج نفس البنية الاجتماعية المتوترة، فعوض أن تحقق الدولة الموحدية بواسطة مذهبها أمة منصهرة تصرفت كقبيلة كبيرة وتحكمت في سياستها القيم والنظم القبيلية المشرقية المعتمدة في المجال المالي والسياسي. وبعبارة أخرى، لم يستطع الإصلاح الموحدي أن يفصل بين معطيات البنى القبلية. المشرقية وبين المبادئ الأخلاقية العامة للمذهب التومرتي[1]. فكانت علاقة الموحدين مع الرعية هي علاقة غالب بمغلوب وما استتبع ذلك من تهميش واستعباد للرعية وتوتر العلاقات الاجتماعية. ولم يستطع أحد من الأطراف الاجتماعية، سواء من الثوار أومن العلماء والصوفية أومن الدولة، أن يجد لهذا الشرخ الاجتماعي الذي يفرزه النظام الاجتماعي والسياسي القبلي المشرقي، أو يجد حلا آخر غير الحل الذي يعتمد الوازع الديني وحده .يبقى التساؤل لماذا؟

الخلاصات العامة :

تطلبت منا دراسة دور الإصلاح الديني الموحدي ومدى تأثيره على البنيات الاجتماعية المغربية، تحليل بعض الأسس الأساسية التي انبنى عليها المجتمع المغربي ودولته، في العصر الموحدي: بدءا بدراسة الأساس البشري للدولة، من خلال دراسة تاريخ المجموعة المصمودية قبل القرن12 م، متبوعا بتحليل الأساس السوسو - سياسي، من خلال معالجة الطبقات الموحدية، ثم الأساس الاقتصادي للدولة من خلال دراسة مالية الموحدين، وأخيرا، التطرق للأساس الديني، من خلال وضع المذهب التومرتي في سياقه التاريخي وإبراز طبيعته.

(1) - يرى عبد الله العروي أن عقيدة الموحدين التي كانت تهدف إلى توحيد المجتمع، «فإذا بها تتحول إلى سبب تشتت وافتراق. وهذا الإخفاق هو أصل الإخفاقات الأخرى التي عرفتها الدولة الموحدية، لم يتقبل الجمهور عقيدة الموحدين»، **مجمل تاريخ المغرب**...م.س.ج 2 ص188، وهو رأي لا تؤيده النصوص ولا الأحداث التاريخية.

ويبدو، من خلال من وضع المذهب التومرتي الذي قامت عليه الدولة الموحدية، في سياقه التاريخي المحلي والإقليمي، أن هذا المذهب لم يكن مذهبا شخصيا وانتقائيا أو تلفيقيا، كما اعتقد أغلب الباحثين[1]، بل هو تتويج لتطور بطيء للحركة الدينية، أطرتها الرباطات ببلاد المصامدة، على مدى ثلاث قرون، من القرن9 م إلى القرن12 م، فهي تشكل استمرارا لحركة الصلاح والتصوف الذي تولد في الرباطات السوسية، والتي ترتكز على عدة قيم ومبادئ أهمها : مبدأ وحدة الأمة الإسلامية في إطار السنة، ومبدأ الجهاد ضد أعداء الإسلام الداخليين والخارجيين على السواء[2]. وقد طبعت تلك المبادئ الدولة الموحدية بطابعها، فتبنت أيديولوجيتها، وأثرت على بعض من تنظيماتها وسياستها الداخلية والخارخية، كما يتجلى في قيام الدولة ببعض مهام الرباطات، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد، وتعليم الرعية... إلى غير ذلك من الوظائف التي تقوم به الرباطات آنذاك، لأن أيديولوجيتها مستمدة من أيديولوجية الرباط، وبالتالي، لا وجود لتعارض بين المخزن والرباط (الذي سيتحول بعد الموحدين إلى زاوية)[3]، على المستوى الأيدولوجي، على الأقل .

ويعتبر المذهب الموحدي كذلك، تتويجا لعملية المثاقفة التي دُشّنت مع الفتوحات الإسلامية، ابتداء من القرن السابع الميلادي. وقد ساهم في تسريع مسلسل تحويل بنية الأسرة المغربية من الأسرة ذات النسب الأمُومِّيmatrilinéaireإلى الشكل الأبيسي الوافد مع الإسلام. وساهم أيضا في تبني جزء كبير من التقاليد والقيم القبلية المشرقية، كبداية تبني الشكل القبلي العربي في الأنساب القبلية ونظامها في توزيع الغنائم، إذ أصبح المقاتلون يحصلون على أربعة أخماس الغنائم و يعود الخمس الباقي لبيت المال (عوض حصول المقاتلين على ثلاثة أرباع الغنائم في القبيلة العربية، خلال العصر الجاهلي، ونصف الغنائم في تقبيلت كما عند التوارگ)، وبذلك تعزز دور القرابة الدموية في العلاقات الاجتماعية والسياسية. والجديد في العصر الموحدي، هو أن هذه التحولات تسارعت أكثر من ذي قبل، وشملت اقتباس نظم وبنيات إضافية أكثر من التي اقتبسها

(1) - منهم على سبيل المثال لا الحصر القبلي محمد. **الدولة والولاية في المغرب الوسيط**، دار توبقال للنشر -الدار البيضاء.1997 ، ص107.

(2) - نفسه. ص110. لاحظ ذ محمد القبلي، تفرد المرابطين والموحدين بإعطاء الأهمية للبعد المحلي في العملية الجهادية.

(3) - انظر كيفية تحول الرباط إلى زواية بالمغرب وفترة تحوله، عملنا. التعليم بالمغرب الوسيط..م س ص.86.

سابقوهم، وهي بنيات ونظم كان يصعب فصلها، آنذاك، عن المبادئ العامة للدين الإسلامي. وقد حلت تلك البنيات المشرقية التي عمل الموحدون على ترسيخها محل البنيات الاجتماعية والسياسية الأمازيغية القديمة في بعض المناطق الخاضعة للدولة، وخاصة على صعيد التنظيمات السوسيو-ساسية، والنظم الاقتصادية، كما سبق توضيحه في فصلي طبقات الموحدين والمالية، وبهذا الاقتباس اتخذ المخزن المغربي شكله الأساسي منذ ذلك الحين إلى الحماية .

اقتباس واعتماد التنظيمات المشرقية جعل المسار السياسي والعسكري للدولة الموحدية لا يختلف كثيرا عن الخطاطة العامة للمسار السياسي لجل الدول المغربية السابقة واللاحقة للموحدين، خلال العصر الوسيط. وتنطبق عليه نظرية ابن خلدون، مما يعني صلاحية التحليل الخلدوني لفهم هذه المرحلة [1]. وهكذا بعد أن أوصلت الثورة الموحدية بعضا من العصبية المصمودية الى الحكم، ومكنتها من التحكم في رقاب سكان الغرب الإسلامي، ومن الاغتناء باحتكار فائض الإنتاج الاقتصادي من خلال الغنائم والفيء، انصرف جزء كبير منها، ابتداء من عهد يوسف، إلى البذخ (تشييد القصور والرياضات، لباس الحرير، اتخاذ العبيد والاستكثار من الجواري وغير ذلك مما سبق توضيحه)، كما انصرف إلى اللهو (الغناء، الخمر) مما جعل العصبية المصمودية، كنتيجة لذلك، متواكلة ولم تعد قادرة على الدفاع عن أمبراطوريتها، ضد الأخطار المحدقة بها داخليا وخارجيا. فبعد الانتصارات الباهرة الأولى التي حققتها العصبية المصمودية، أثناء إخضاع بلاد الغرب الإسلامي، ظهر عجزها العسكري وفشلها في مواجهة القوات الداخلية والخارجية؛ هذا العجز الملاحظ، ابتداء من أواخر عهد يوسف، والمتزايد حتى أسفر عن الكارثة العسكرية في معركة العقاب، سنة 609 هـ/1210م، فلم يعد في مقدور عصبية المصامدة أو أي نوع آخر من جنود دولتهم أن يفرض بالقوة هيبة الدولة مدة طويلة، الشيء الذي أثر على الوضعية الأمنية الداخلية والخارجية الإمبراطورية. وتَجَلَّى ذلك في الهزائم التي مني بها الموحدون بالأندلس، آواخر عهد يوسف. وحاول يعقوب المنصور أن يصلح هذا الخلل، بالاعتماد على المبادئ والقيم الدينية التي يتضمنها المذهب التومرتي،

---

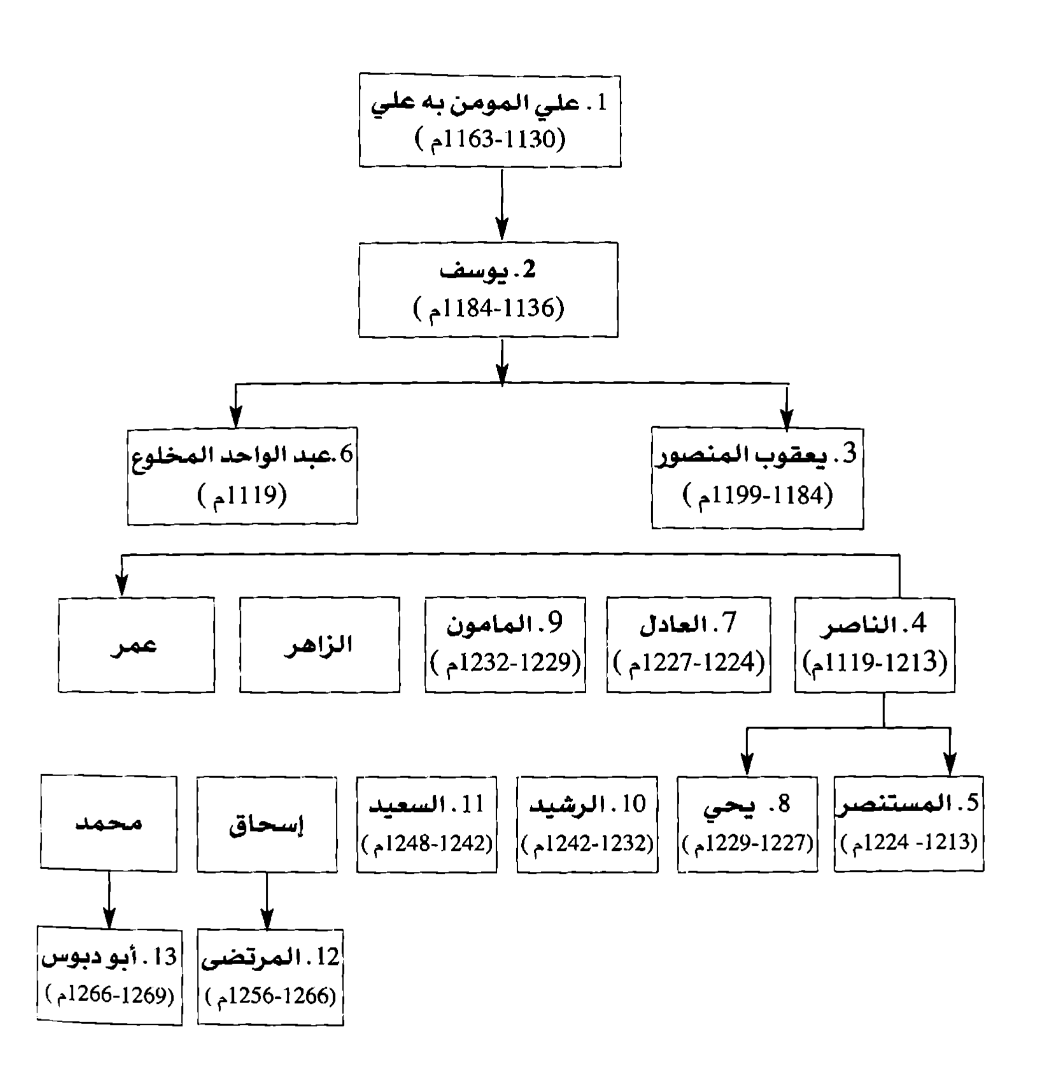
(1) - غير أن ذلك لا يعني أن نظريته كافية وحدها لفهم تطور الدولة والمجتمع المغربي آنذاك، لأن الأمر في حاجة إلى مزيد من الدراسة لأحداث تاريخية ملموسة. خاصة بعض الأحداث والوقائع التي لم يلتفت إليها ابن خلدون. في مقدمته. أو لم يفصل الكلام عنها بما فيه الكفاية كالأسس الاجتماعية والاقتصادي التي تؤدي إلى مثل هذا التطور.

مما سمح له بتحقيق انتصار الأرك591 هـ/1195م، لكن إصلاحاته ظلت محدودة ولم تستطع الحد من تفاقم حدة الأزمة الاجتماعية، لأنها لم تتجه إلى أسبابها الكامنة في الأسس السوسيو -سياسية والاقتصادية التي بنيت عليها الدولة، فبدأت الدولة تتفكك داخليا وتنتظر فقط حدثا، مثل معركة العقاب، سنة 609 هـ/1210م، ليفضح مدى تآكلها الداخلي وتنهار .

هكذا فشلت الحركة الاصلاحية الدينية الموحدية في تحقيق هدفها الأساسي المتمثل في القضاء على التفاوت الاجتماعي الناتج عن النظم السوسيو-سياسية والاقتصادية للقبيلة المشرقية وبالتالي ظلت نفس المشاكل والقلاقل الاجتماعية المزمنة التي كانت قائمة في ظل الدولة المرابطية، نظرا لقيامها على نفس الأسس الاجتماعية والسياسية. ولعل هذا ما يفسر عدم إقدام أي حركة سياسية من الحركات التي حلت محل الموحدين في الغرب الإسلامي على أساس إصلاح ديني جديد .

ولعل هذا الفشل، في حل المعضلة الاجتماعية المترتبة عن هذا النظام الاجتماعي والسياسي المقتبس من المشرق، هو ما جعل المغاربة، ببعض المناطق التي يصعب التحكم فيها، مثل الجبال والصحاري، يتشبثون بأنظمتهم السياسية والاجتماعية الأمازيغية التي تعود إلى ما قبل الإسلام، بل كانت تلك الأنظمة المحلية تعاود الظهور، خاصة في حالة ضعف المخزن، ببعض المناطق الخاضعة له، مثلما فعل جل المصامدة الذين ساندوا الإصلاح الموحدي. ولعل هذا المد والجزر هو ما يفسر، جزئيا، تعايش ثقافتين وتداخلهما بالمغرب، إلى هذا الحد أو ذاك: ثقافة أمازيغية محلية وثقافة مقتبسة من المشرق، وظل الأمر كذلك إلى ما بعد العصر الموحدي حتى مجئ الحماية الفرنسية التي حملت معها ثقافة ثالثة مغايرة ذات أسس مختلفة عن الثقافتين السابقتين.

شجرة خلفاء الدولة الموحدية



البيبليوغرافيا

1- المصادر المخطوطة والمطبوعة :

ابن الأبار، أبو عبد الله محمد القضاعي البلنسي(ت658 هـ/1260م)

1. **الحلة السيراء**، تحقيق حسين مؤنس. الشركة العربية للطباعة والنشر - القاهرة1963 م.

ابن إبراهيم العباس بن محمد السملالي المراكشي

2. **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط1974-1983 م، 10 أجزاء.

ابن أبي دينار أبو عبد الله محمد الرعيني القيرواني

3. **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، نشر محمد الشمام . المكتبة العتيقة - تونس1967 م.

ابن أبي زرع الفاسي علي بن عبد الله

4. **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، نشر عبد الوهاب بن منصور. دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط سنة 1973.

5. **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط1972.

ابن الأثير عز الدين علي بن محمد

6. **الكامل في التاريخ**. منشورات دار صادر، بيروت -لبنان1997.

ابن الأحمر إسماعيل بن يوسف الأنصاري

7. **بيوتات فاس الكبرى**، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط1972.

ابن بطوطة محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي

8. **تحفة النظار في غرائب الأقطار وعجائب الأمصار**، تحقيق علي المنتصر الكتاني، بيروت - لبنان، ط4.، سنة1985.

ابن تومرت، محمد(المهدي)

9. **أعز ما يطلب**، تحقيق وتقديم عبد الغني أبو العزم، مؤسسة الغنى للنشر الرباط1997 ، وطبعة الجزائر 1903 من نشر لوسياني.

ابن جبير الكناني محمد ابن أحمد

10. **رحلة ابن جبير**، تحقيق حسين نصار، دار مصر للطباعة -مصر1992.

ابن الحاج النميري

11. **فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب**، تحقيق ونشر محمد ابن شقرون، الرباط 1984.

ابن حوقل أبو القاسم

12. **صورة الأرض**، منشورات دار الحياة - بيروت1979 ، منشورات ليدن،1967.

ابن حيان أبو مروان

13. **المقتبس من أنباء أهل الأندلس**، نشره بيدرو شاليمطا، ف. كورنيطي، المعهد العربي الإسباني، مدريد1979

ابن خردادبة أبو القاسم عبيد الله

14. **المسالك والممالك**، تحقيق دي گويه، منشورات ليدن1967.

ابن الخطيب لسان الدين

15. **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**، تحقيق مختار العبادي، الدار البيضاء1985.

16. **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، تحقيق محمد كمال شبانة، مطبعة فضالة - المحمدية 1976.

17. **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة 1973.

18. **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام**، تحقيق مختار العبادي وإبراهيم الكتاني، الدار البيضاء 1964.

ابن خلدون عبد الرحمان

19. **العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، منشورات دار الكتاب اللبناني، بيروت1979، أما الأجزاء 6 و7 من منشورات مؤسسة للطباعة والنشر، بيروت -لبنان1979

ابن خلدون يحي

20. **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تحقيق عبد الحميد حاجيات، الكتبة الوطنية بالجزائر سنة 1980.

ابن خلكان أحمد بن محمد

21. **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مما ثبت بالنقل أو السماع أوأثبته العيان**، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة - بيروت 1968

ابن رسته أحمد بن عمر

22. **الأعلاق النفيسة**، ليدن - بريل1927.

ابن رشد أبو الوليد محمد

23 . **فتاوي ابن رشد**، تحقيق المختار التليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان1980.

ابن رضوان، أبو القاسم المالقي

24. **الشهب اللامعة في السياسة النافعة**، تحقيق سامي النشار، دار الثقافة، الدار البيضاء1980.

ابن زيدان عبد الرحمان

25. **إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس** .ط 2. إديال. سنة 1990

ابن سعيد المغربي

26. **كتاب الجغرافيا**، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت1970.

27. **نزهة الأنظار**، مقتبس من كتاب حلى المغرب ج1، منشورات دار المعارف القاهرة - مصر1964

ابن سودة عبد السلام بن عبد القادر

28. **دليل مؤرخ المغرب الأقصى** ، الدار البيضاء، الطبعة الثانية1965.

ابن صاحب الصلاة عبد الملك

29. **تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين**، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان 1987

ابن عبد الحكم عبد الرحمان بن عبد الله القرشي المصري

30. **فتوح إفريقيا والأندلس**، تحقيق عبد الله أنيس الطباع. دار الكتاب اللبناني - بيروت 1964

ابن عبد العظيم، أبو عبد الله الأزموري

31. **بهجة الناظرين وأنس العارفين**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم د. 1343والنسخة المرقونة بكلية الآداب بالرباط من تحقيق علي الجاوي سنة 1986.

ابن عبد الملك محمد الأنصاري الأوسي المراكشي

32. **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، أسفار، 1 - 2 من تحقيق محمد بن شريفة دار الثقافة - بيروت الأسفار4، 5،6، تحقيق إحسان عباس - بيروت .السفر الثامن، حققه وعلق عليه محمد بن شريفة، من منشورات أكاديمية المملكة المغربية1984

ابن عبدون، محمد بن أحمد التجيبي

33. **رسالة في القضاء والحسبة**، نشر بروفنصال، القاهرة - مصر،1955.

ابن عذاري المراكشي

34. **البيان المغرب في أخبار الأندلس وإفريقيا والمغرب** ج 1-3، تحقيق ج.س كولان وليفي بروفنصال، بيروت لبنان 1967. الجزء الرابع من تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت - لبنان، ط3 ، سنة 1983 القسم الثالث الخاص بالدولة الموحدية، من تحقيق إبراهيم الكتاني وأخرون، دار الثقافة، الدار البيضاء1985

ابن العربي أبو بكر

35. **كتاب شواهد الجلة**، تحقيق محمد يعلى ضمن ثلاثة نصوص عربية عن البربر، نشر المجلس الأعلى للأبحاث العلمية الوكالة الأسبانية للتعاون الدولي -مدريد 1996

ابن العماد الحنبلي أبي الفلاح عبد الحي

36. **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**. منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، دون تاريخ.

ابن غازي محمد بن أحمد العثماني

37. **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون**، المطبعة الملكية بالرباط، 1964

ابن فرحون إبراهيم بن علي المدني

38. **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان. د.ت .

ابن الفقيه، أبو بكر الهمداني

39. **كتاب مختصر البلدان**، مطبعة ليدن1967

ابن القاضي أحمد بن محمد المكناسي

40. **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور -الرباط1973

ابن القطان المراكشي حسن بن علي الكتامي

41. **نظم الجمان في أخبار الزمان**، تحقيق محمود علي مكي، منشورات كلية الآداب بالرباط،1964

ابن قنفد أحمد بن الخطيب القسنطيني

42. **أنس الفقير وعز الحقير**، تحقيق أدولف فور و محمد الفاسي، المركز الجامعي للبحث العلمي -الرباط1965

ابن مرزوق التلمساني محمد بن أحمد

43. **المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن**، تحقيق د. ماريا خيسوس بيغيرا، الجزائر1981

44. ابن منظور، أبو الفضل الإفريقي

لسان العرب، طبعة دار صادر - بيروت 14 جزءا

ابن مريم،

45. **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان**، الجزائر1984

ابن ناجي أبو القاسم

46. **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**، تحقيق محمد ماضور، تونس1978

أبوحيان

47. **كتاب الأنساب**، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم ك1275

أبو زيان حمو

48. **واسطة السلوك في سياسة الملوك**، تونس،1227 هـ

أبو العرب محمد ابن تميم القيرواني

49. **طبقات علماء إفريقيا**. تحقيق علي الشابي و نعيم حسن اليافي، الدار التونسية للنشر،1968

أبو الفداء عماد الدين إسماعيل

50. **تقويم البلدان**، دار صادر، بيروت- لبنان، دون تاريخ.

أحمد بابا السوداني

51. **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، دون تاريخ.

الإدريسي الشريف محمد بن عبد الله

52. **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، طبعة عالم الكتب - بيروت،1989

الإصطخري الكرخي، أبو الحسن إبراهيم

53. **المسالك والممالك**، مطبعة بريل - ليدن،1967.

البادسي عبد الحق بن إسماعيل

54. **المقصدالشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**، تحقيق سعيد أعراب، الرباط 1982.

الباروني النفوسي عبد الله

55. **الأزهار الرياضية في أئمة الملوك الاباضية**، دار بوسلامة للطباعة والنشر - تونس،1986

البرزلي أبو القاسم أحمد بن محمد

65. **نوازل البرزلي**، مخطوط القرويين رقم 384

57. **جامع مسائل الأحكام**، ميكروفيلم، خ.ع الرباط رقم 782

البكري أبو عبيد الله

58. **المسالك و الممالك**،" كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقيا و المغرب "نشرة و ترجمة دوسلان باريس 1965

البلاذري

59. **فتوح البلدان**، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية -بيروت،1983 .

بن زنجويه حميد

60. **كتاب الأموال**، تحقيق شاكر ذيب فياض، مركز فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية -الرياض، 1986

بن عيشون الشراط أبي عبد الله

61. **الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس**، تحقيق زهراء النظام، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط،1997

البيدق أبو بكر الصنهاجي

62. **كتاب أخبار المهدي بن تومرت و ابتداء دولة الموحدين**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، مطبعة دار المنصور للطباعة و النشر -الرباط، 1971

63. **المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، مطبعة دار المنصور للطباعة و النشر، الرباط،1971

التجاني، أبو عبد الله محمد

64. **رحلة التجاني**، قدم لها حسن حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب، ليبيا -تونس،1981

التنسي محمد بن عبد الله

65. **دولة الأدارسة**، تحقيق محمد بن عباد، الجزائر، 1984.

66. **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان**. تحقيق محمد بن عياد -الجزائر،1985

الجزنائي علي

67. **جنى زهرة الآس في تاريخ بناء مدينة فاس** . المطبعة الملكية -الرباط،1972

الحساني إبراهيم ابن علي

68. **ديوان قبائل سوس**، تحقيق عمر آفا ،مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء،1989.

الحضرمي، أبو بكر محمد

69. **السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة**، تحقيق سامي النشار الطبعة الأولى .الدارالبيضاء،1981

الحميري محمد بن عبد المنعم

70. **الروض المعطار في خبرة الأقطار**، تحقيق إحسان عباس ، طبعة – بيروت – لبنان،1984

الخشني محمد بن الحارث

71. **كتاب طبقات علماء إفريقية**. ط دار الكتاب اللبناني د . ت.

الداعي إدريس عماد الدين

72. **عيون الأخبار** (تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب)، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1985 .

الداودي أحمد بن ناصر

73. **كتاب الأموال**، تحقيق رضا محمد سالم شحادة، مركز إحياء التراث -الرباط،1988

الدباغ عبد الرحمان محمد الأنصاري

74. **معالم الأيمان في معرفة أهل القيروان**، تحقيق إبراهيم شبوح، مكتبة الخانجي -مصر،1968

الدرجيني أبو العباس أحمد بن سعيد

75. **كتاب طبقات المشايخ بالمغرب**. تحقيق إبراهيم طلاي .مطبعة البحث - قسطنطينة،1394هـ

الدكالي محمد بن علي السلاوي

76. **الإتحاف الوجيز بأخبار العدوتين**، تحقيق مصطفى بو شعراء، نشر الخزانة الصبيحة بسلا،1986.

الزركشي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي

77. **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، مطبعة الدولة التونسية المحروسة،1966.

الزهري أبي عبيد الله محمد

78. **كتاب الجعرافية**، حققه حاج صادق مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، د.ت .

الزياني أبو القاسم

97. **الترجمانة الكبرى**، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، طبعة وزارة الأنباء، الرباط، 1967

سالوست (المؤرخ اللاتيني).

80. **حرب يوغرطة**، ترجمة محمد التازي سعود، مطبعة محمد الخامس، فاس، 1979

السبتي عبد الله محمد بن القاسم

81. **اختصار الأخبار عما كان بسبتة من سني الآثار**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط،1983

السوسي محمد المختار

82. **خلال جزولة**، المطبعة المهدية، تطوان بدون تاريخ

83. **المعسول**، 20 جزءا، مطبعة النجاح و مطبعة الجامعة - الدار البيضاء 1960- 1963

84. **سوس العالمة**، مطبعة فضالة 1960

85. **الإلغيات**، مطبعة النجاح، الدار البيضاء،1962

الشاطبي أبو إسحاق اللخمي

86. **الاعتصام**، تحقيق محمد رشيد رضا، المكتبة التجارية الكبرى-مصر د.ت

صاعد الأندلس

87. **طبقات الأمم**. تحقيق حياة علوان. دار الطليعة ، بيروت، لبنان،1985

الصومعي أحمد التادلي

88. **كتاب المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى**، تحقيق علي الجاوي، منشورات كلية الآداب بأكادير،1996

العبدري محمد بن محمد الحيحى

89. **رحلة العبدري**، تحقيق محمد الفاسي، الرباط،1968

العزفي، أبو العباس أحمد

90. **دعامة اليقين في زعامة المتقين : مناقب الشيخ أبي يعزى**، تحقيق أحمد التوفيق، مكتبة خدمة الكتاب - الرباط،1989

العمري أحمد بن يحي ابن فضل الله

91. **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق أحمد مصطفى أبو ضيف ، مطبعة النجاح الجديدة – الدر البيضاء،1988

عياض القاضي السبتي

92. **ترتيب المدارك و تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، تحقيق مجموعة من الباحثين، منشورات وزارة الأوقاف المغربية، 8أجزاء، الرباط، 1983

93. **مذاهب الحكام في نوازل الأحكام** تحقيق محمد بن شريفة، ط دار الغرب الإسلامي - بيروت،1990

94. **الغنية فهرسة شيوخ القاضي عياض**، تحقيق ماهر زهير جرار، ط دار الغرب الإسلامي بيروت، 1982

الغبريني، أبو العباس أحمد

95. **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق عادل نويهض، دار الأفاق الجديدة، بيروت،1979

قدامة بن جعفر

96. **الخراج و صنعة الكتابة**، تحقيق الدكتور حسين الزبيدي، بغداد- العراق،1981

القلقشندي

97. **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، نشره نبيل خالد الطيب. دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان1987

الكانوني محمد بن أحمد العبدي

98.**آسفي و ما إليه قديما و حديثا**، دون تاريخ ومكان الطبع

الماجري أبو العباس أحمد بن إبراهيم المغربي

99. **المنهج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح**، الطبعة المصرية،1933

مارمول كربخال

100. **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي و آخرون مكتبة المعارف للنشر و التوزيع، الرباط،1984

المالكي أبو بكر عبد الله

101. **رياض النفوس**، تحقيق البشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، 1981

الماوردي أبو الحسن

102. **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، دار الكتب العلمية، بيروت197

مجموعة من كتاب الدولة المومنية

103 . **رسائل موحدية**، جامعها مجهول، تحقيق ليفي بروفانصال، الرباط،1941

104 . **رسائل موحدية جديدة**، تحقيق أحمد عزاوي، منشورات كلية الآداب بالقنيطرة،1995

مجهول

105 . **بيوتات فاس الكبرى**، منشورات دار المنصور للطباعة و الوراقة، الرباط،1971

106 . **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، حققه سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة - الدار البيضاء،1979

107 . **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية، 1958

108 . **كتاب مفاخر البربر**، دراسة و تحقيق محمد يعلى، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، مدريد، 1996

109 . مجهول برتغالي

110 . **وصف المغرب أيام أحمد المنصور**، ترجمة محمد مزين وعبد الرحيم بنحادة، ط دار تنمل للطباعة والنشر، مراكش،1995

محمد داوود

111 . **مختصر تاريخ تطوان**، المطبعة المهدية - تطوان، المغرب د . ت

محمد الأندلسي الوزير

112 . **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر،1970

المراكشي عبد الواحد

113 . **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، نشره محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، منشورات دار الكتاب،1978

المقري أحمد بن محمد

114 . **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**، منشورات وزارة الأوقاف، الرباط، 1978

115 . **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر -بيروت، 1986

الناصري أبو العباس أحمد السلاوي

116 . **الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى**، حققه وعلق عليه جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء،1955

النعمان القاضي النعمان بن محمد

117 . **رسالة افتتاح الدعوة**، تحقيق وداد القاضي، دار الثقافة - بيروت، لبنان، 1970

118 . **المجالس و المسايرات**، تحقيق إبراهيم الفقي و آخرون، منشورات الجامعة التونسية،1978

119 . **دعائم الإيمان**، منشورات دار المعارف – القاهرة،1972

النقشندي أحمد الخالدي

120 . **الطرق الصوفية**، تحقيق أديب نصر الله، مؤسسة الانتشار العربي -بيروت،1977

النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب

121 . **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق أبو ضيف مصطفى، منشور تحت عنوان، **تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط**، ط دار النشر المغربية، د.ت . و نشر القسم الخاص منه بالدولة الفاطمية ببلاد المغرب مستقلا، مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء،1988

الهبطي عبد الله بن محمد

122 . **الألفية السنية في تنبيه الخاصة والعامة على ما أوقعوا من التغيير في الملة الإسلامية**، إعداد وتقديم محمد ستيتو، منشورات كلية الآداب بوجدة،1996

الوزان الحسن بن محمد

123 . **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط، 80-1982

الونشريسي أبو العباس أحمد

124 . **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، منشورات دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان،1981 ، 13 جزءا .

ياقوت الحموي شهاب الدين

125 . **معجم البلدان**، نشر محمد أمين، طبعة دار صادر للطباعة والنشر، ودار بيروت للطباعة والنشر لبنان بدون تاريخ، 5 أجزاء.

اليعقوبي أحمد بن وضاح

126 . **كتاب البلدان**، دار إحياء التراث العربي، بيروت،1980 .

2- المراجع العربية:

أ - الكتب

ابتسام مرعي خلف الله

127. **العلاقات بين الخلافة الموحدية والشرق الإسلامي**،(639 - 524 هـ)، دار المعارف القاهرة،1984

إبراهيم على طرخان

128. **النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى**، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة،1968

ابن حمدة عبد المجيد

129. **المدارس الكلامية بإفريقية إلى ظهور الأشعرية**، تونس،1986

ابن عميرة محمد

130. **دور زناتة في الحركة المذهبية بالغرب الإسلامي**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر1984

ابن قرية صالح

131. **المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1986

أبو ضيف مصطفى أحمد

132. **أثر القبائل العربية في الحياة المغربية**، دار النشر المغربية، الدار البيضاء،1986

133. **أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصر الموحدين وبني مرين**، الدار البيضاء،1982

أحمد بن عبد الحليم يونس

134. **تطور أنظمة الاستثمار الزراعي في العصر العباسي**، دار الطليعة بيروت، لبنان،1986

أسكان الحسين

135. **تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، الرباط2004

أشباخ يوسف

136. **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين**، ترجمة محمد عبد الله عنان، القاهرة،1958

أ .أشتور

137. **التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطي**، ترجمة عبد الهادي علبة، دار قتيبة دمشق سوريا،1985

أوعشي مصطفى

138. **نماذج من الفن المعماري الموحدي بالمغرب**، ط. وزارة الدولة المكلفة بالشؤون، د.ت .

أومليل علي

139. **الخطاب التاريخي**، منشورات معهد الإنماء القومي -بيروت،1987

برادة ثريا

140. **الجيش المغربي وتطوره**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط،1997

برانشفيك روبير

141. **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي**، ترجمة حماد الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،1988

بروديل فرناد

142. **البحر المتوسط**، ترجمة عمر سالم، تونس،1990

بروفنصال ليفي

143. **الإسلام في المغرب والأندلس**، ترجمة محمود عبد العزيز سالم، ومحمد صلاح الدين حلمي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، بدون تاريخ

بنسباع مصطفى

144. **السلطة بين التسنن والتشيع والتصوف ما بين عصر المرابطين والموحدين**، مطابع الشويخ، تطوان،1999

بوتشيش إبراهيم القادري

145. **المغرب والأندلس في عصر المرابطين، المجتمع، الذهنيات والأولياء** . دار الطليعة، بيروت1993

146. **تاريخ الغرب الإسلامي، قراءة في بعض قضايا المجتمع والحضارة**، دار الطليعة بيروت،1994

147. **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصري المرابطين والموحدين**، دار الطليعة بيروت1998

بوزياني الدراجي

148. **القبائل الأمازيغية، أدوارها، مواطنها، أعيانها**، الجزائر، دار الكتاب العربي،1999-2000

بوشارب أحمد.

149. **دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء أسفي وأزمور قبل غشت1481 هـ/1541م**، دار الثقافة، الدار البيضاء،1984

التوفيق أحمد

150. **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر(اينولتان 1950-1912)** ، منشورات كلية الآداب بالرباط 1983

الجابري محمد عابد

151. **العصبية والدولة، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي**، دار الثقافة -الدار البيضاء،1982

جغلول عبد القادر

152. **مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط**، ترجمة فضيلة الحكيم، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، 1982

جلاب حسن

153. **الدولة الموحدية، أثر العقيدة في الأدب**، منشورات الجامعة، الدار البيضاء،1983

154. **الحركة الصوفية بمراكش، ظاهرة سبعة رجال**، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 1984

155. **الآثار الأدبية لصوفية مراكش**، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش،1984

156. **مظاهر تأثير صوفية مراكش في التصوف المغربي**، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش،1984

الجنحاني الحبيب

157. **المغرب الإسلامي، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في القرن**3 و4هـ، دار النشر التونسية

158. **التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي**، دار الغرب الإسلامي -بيروت1980

جوايتن س.د

159. **دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية**، ترجمة عطية التوصي، الناشر وكالة المطبوعات، الكويت،1980

جودت عبد الكريم

160. **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنيين3 و4 هـ** (9-10 م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1992

جولد تسهير

161. **العقيدة والشريعة في الإسلام**، ترجمة محمد يوسف موسى، القاهرة،1946

جوليان شارل أ .

162. **تاريخ إفريقيا الشمالية**، ترجمة محمد مزالي والبشير سلامة، الدار التونسية للنشر1978

حافظي علوي حسن

163. **سجلماسة وإقليمها في القرن 8 هـ/ 14م**، نشر وزارة الأوقاف - المغرب،1997

حجي محمد

164. **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، مطبعة فضالة المحمدية،1977 ، 1987 في جزأين.

حركات إبراهيم

165. **المغرب عبر التاريخ** ، دار الرشاد الحديثة - الدار البيضاء،1978

الحسيسن عبد الهادي أحمد

166. **مظاهر النهضة الحديثية في عهد يعقوب المنصور الموحدي**، ط دار إحياء التراث الإسلامي، تطوان المغرب،1982

دندش عصمت عبد الطيف

167. **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين**، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1988

روبين دانيال

168. **التراث المسيحي في شمال إفريقيا**، ترجمة سمير مالك، دار منهل الحياة، بيروت-لبنان،1999

زرهوني محمد

169. **العلاقات بين السلطة والسكان بمنطقتي الأطلس الكبير الغربي في أعوام الستين من القرن التاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق -الدار البيضاء،1998

الزعفراني حاييم

170. **ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب**، ترجمة أحمد شحلان وعبد الغني أبو العزم، مطبعة دار قرطبة،1987

زنيبر محمد

171. **المغرب في العصر الوسيط**، الدولة - المدينة - الاقتصاد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط،1999

السبتي عبد الأحد وعبد اللطيف الفلق

172. **الأنتروبولوجيا والتاريخ**، طبعة دار توبقال للنشر -الدار البيضاء،1988

سعد زغلول

173. **تاريخ المغرب العربي**، القاهرة،1965

174. **سقوط دولة الموحدين**، مطابع الثورة للطباعة والنشر، بنغازي -ليبيا،1981

السويدي محمد

175. **بدو الطوارق بين الثبات والتغيير**، طبعة المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1986

الشابي مصطفى

176. **النخبة المخزنية في مغرب القرن19** ، منشورات كلية الآداب بالرباط،1995

الشاذلي عبد اللطيف

177. **التصوف والمجتمع، نماذج من القرن10 هـ**، منشورات جامعة الحسن الثاني،1989

الشريف محمد

178. **سبتة الإسلامية، دراسات في التاريخ الاجتماعي**، نشر جمعية تطوان - أسمير،1995

شعبان عبد الرحيم

179. **المسكوكات الموحدية في تاريخ المغرب الوسيط** (524-668هـ/1129-1269م) م. د. دع الرباط،1990 (مرقونة)

شفيق محمد

180 . **لمحة عن ثلاثة وثلاثين قرنا من تاريخ الأمازيغ**، دار الكلام للنشر والتوزيع،1989

181 . **المعجم الأمازيغي العربي**، طبعة أكاديمية المملكة المغربية، الرباط،1990

شنيتي محمد االبشير

182 . **التغييرات الاقتصادية في المغرب أثناء العهد الروماني**، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر،1984

ضريف محمد

183 . **تاريخ الفكر السياسي بالمغرب**، إفريقيا الشرق،1989

الطالبي محمد

184 . **دراسات في تاريخ إفريقيا وفي الحضارة العربية الإسلامية في العصر الوسيط**، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، 1982

الطاهري أحمد

185 . **عامة قرطبة في عصر الخلافة**، منشورات عكاظ، الرباط،1989

عاطف عطية

186 . **المجتمع الدين التقاليد، بحث في إشكالية العلاقة بين الثقافة والدين والسياسة**، منشورات جرس برس، طرابلس -لبنان،1992

عبد الوهاب بن منصور

187 . **قبائل المغرب**، المطبعة الملكية -الرباط،1970

188 . **أعلام المغرب العربي**، المطبعة الملكية، الرباط،1979

العثماني محمد السوسي

189 . **ألواح جزولة والتشريع الإسلامي**، رسالة دبلوم الدراسات العليا بدار الحديث الحسنية، سنة 1970

العربي محمد

190 . **دور الأشياخ في تدهور الدولة الموحدية**(515-674هـ). رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط،1987 (مرقونة)

العروي عبد الله

191 . **مجمل تاريخ المغرب** الجزء الأول، مطبعة دار المعارف الجديدة -الرباط 1984م والجزء الثاني، المركز الثقافي العربي - بيروت لبنان،1994

192 . **مفهوم الدولة**، المركز الثقافي العربي،1998

عز الدين أحمد موسى

193 . **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**، دار الشروق لبنان،1983

194. **الموحدون في الغرب الإسلامي، تنظيماتهم ونظمهم**، دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ لبنان،1991

علاش محمادي

195. **نظام الحكم عند الموحدين، المذهب والمؤسسات**، دبلوم الدراسات العليا كلية الحقوق بالرباط، 1984 (مرقونة)

علام عبد الله

196. **الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المومن بن علي**، القاهرة،1971

197. **الدعوة الموحدية بالمغرب**، القاهرة،1964

العلوي القاسمي مولاي هاشم

198. **مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري /منتصف العاشر الميلادي**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة – المحمدية1995

العمراني محمد

199. **الفتن والتمردات بالمغرب الأقصى والأندلس خلال القرن السادس الهجري /الثاني عشر الميلادي**، رسالة د.د.ع، مرقونة الرباط،1996

الغناي مراجع عقيلة

200. **قيام دولة الموحدين**، منشورات جامعة قاريونس، طرابلس –ليبيا،1988

201. **سقوط دولة الموحدين**، مطابع الثورة للطباعة والنشر، بنغازي، ط3-1981

القبلي محمد

202 . **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، دار توبقال للنشر –الدار البيضاء،1987

203. **الدولة والولاية في المغرب الوسيط**، دار توبقال للنشر –الدار البيضاء،1997

لاكوست إيف

204. **العلامة ابن خلدون**، ترجمة مشيل سليمان، بيروت،1973

لقبال موسى

205. **دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع –الجزائر،1979

لوتورنو روجي

206. **فاس قبل الحماية**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي –بيروت،1986

لوسي مير

207. **مقدمة في الأنتروبولوجيا الاجتماعية**، ترجمة شاكر مصطفى، نشر وزارة الثقافة والإعلام، بغداد العراق دون تاريخ

لومبار موريس

208. **الإسلام في عظمته الأولى** من القرن 2 إلى5 هـ(8 /11 م)، ترجمة إسماعيل العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب،1990

المجذوب عبد العزيز

209 . **الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية**، الدار التونسية للنشر، تونس،1985

محمد أحمد عبد المولى

210. **القوى السنية في المغرب**، دار المعارف الجامعية الإسكندرية - مصر، 1985

محمد عنان عبد الله

211- **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس**، لجنة التأليف والنشر، القاهرة،1962

محمدود إسماعيل

212. **الخوارج ببلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري**، الدار البيضاء، 1976

المريني عبد الحق

213. **الجيش المغربي عبر التاريخ**، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط،1997

المصطفى مولاي رشيد

214. **المغرب الأقصى عند الإغريق واللاتين**، شركة النشر والتوزيع المدارس، الدار البيضاء،1993

مغراوي محمد

215. **مساهمة في دراسة النظم بالغرب الإسلامي، خطة القضاء في الدولة الموحدية**، رسالة دبلوم الدراسات العليا، مرقونة بكلية الآداب،1986-1987

ملين محمد الرشيد

216.**عصر المنصور الموحدي، أو الحياة السياسية والفكرية والدينية في المغرب(580-595هـ)** مطبعة شمال إفريقيا، بدون تاريخ

المنوني محمد

217. **العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين**، تطوان1950 ، وقد أعيد نشره تحت عنوان حضارة الموحدين، دار توبقال، الدار البيضاء،1989

218. **ورقات عن الحضارة المغربية في عهد بني مرين**، الرباط،1979

المصادر العربية لتاريخ المغرب، الجزء الأول من منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط 1983

ميتز آدم

219. **الحضارة العربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الكتاب اللبناني بيروت، بدون تاريخ

ناصح محمد

220. **جوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية في العصر الوسيط**، رسالة دبلوم الدراسات العليا، مرقونة بكلية الآداب بالرباط،1987-1988

ناعمي مصطفى

221. **الصحراء من خلال بلاد تاكنة**، منشورات عكاظ - الرباط،1988

النبراوي فتحية

222. **تاريخ النظم والحضارة الإسلامية**، الدار السعودية للنشر والتوزيع، السعودية،1985

النجار عبد المجيد

223. **المهدي بن تومرت**، ط دار الغرب الإسلامي - بيروت لبنان،1983

224. **نصوص جديدة ودراسات في تاريخ الغرب الإسلامي**، مطبعة الحداد يوسف إخوان (الهداية) تطوان 1996

الهادي روجي إدريس

225- **الدولة الصنهاجية، تاريخ إفريقيا في العهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن12 م**، ترجمة حمادي الساحلي، طبعة دار الغرب الإسلامي بيروت - لبنان،1992

الهراس المختار

226. **تطور البنيات الاجتماعية في شمال المغرب**، المركز الوطني لتنسيق البحث العلمي والتقني، مطبعة الرسالة - الرباط،1988

الهلالي محمد ياسر

227. **مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنين8-9 هـ/14-15 م**، مساهمة في دراسة بعض مصطلحات التراتب الاجتماعي،" العامة والخاصة" - "الطبقة و المرتبة" ، أطروحة الدكتواره مرقونة بكلية الآداب بالرباط،2000

ولد داده محمد

228. **مفهوم الملك في المغرب من انتصاف القرن الأول إلى انتصاف القرن السابع الهجري**، دار الكتاب اللبناني- بيروت1977

اليونسكو

229. **تاريخ إفريقيا العام**، تأليف جماعي، الترجمة العربية، ج 1سنة1980 ، ج2، سنة1985

230. **موسوعة أعلام المغرب** (1-1400هـ)، تنسيق وتحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان

231- **معلمة المغرب**، الجمعية المغربية للتأليف والنشر مطابع سلا، ج 1سنة 1989 إلى الجزء 12 سنة

ب - المقالات

ابن تاويت محمد

232. "سبتة المسلمة" في **مجلة المناهل** عدد 22 سنة9 يناير1982 ، ص 106

أعراب سعيد

233. "موقف الموحدين من كتب الفروع وحمل الناس على المذهب الحزمي"،149 ، سنة ،1985 ص 26- 30.

أفا عمر

234. "قراءة تاريخية في ألواح قبائل سوس والأطلس الصغير"، **مجلة آفاق**، اتحاد كتاب المغرب، عدد 69 سنة 1982ص39 -49

235 - "نوازل الكرسيفي مصدرا للكتابة التاريخية"، ضمن التاريخ وأدب النوازل، دارسات مهداة للفقيد محمد زنيبر، نشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط سلسلة ندوات ومناظرات، رقم46

أمين توفيق الطيبي

236. جوانب من النشاط الاقتصادي في المغرب في القرن6 هـ/12م من خلال رسائل "جنيزة القاهرة" مجلة البحوث التاريخية ع 2 يونيو 1984 ص443-488.

أومليل على

237. "السلطة السياسية والسلطة العلمية"، الغزالي، ابن تومرت، ابن رشد، "ضمن أعمال **ندوة أبو حامد الغزالي**، دراسات في فكره وعصره وتأثيره، منشورات كلية الآداب الرباط،1988

البزاز الأمين

238. "حول المجاعات والأوبئة بالمغرب خلال العصر الوسيط"، **مجلة كلية الآداب** عدد 18 سنة1993

بودربالة نجيب وبول باسكون

239."القانون والمجتمع المتعدد الإنتاج"، ترجمة زهور العلوي **في المجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع**، عدد4 ، سنة1978 ، ص 134- 153.

بن شريفة محمد

240. "أسرة بن عشرة"، **مجلة البحث العلمي**، عدد10 ، الرباط،1982

241. "حول التسامح الديني، ابن ميمون والموحدين"، **ضمن أشغال أكاديمية المملكة المغربية** المنعقدة بأكادير أيام 27-29 نوفمبر1985

بنسباع مصطفى

242. "السلطة السياسية العليا بين المرابطين والموحدين " **البحث العلمي** ع. 41 سنة 1993 ص41-55

243. ثورة ابن هود على الموحدين"، **مجلة كلية الآداب بتطوان** ع 6 سنة 1993 ص154-160

بوتشيش القادري إبراهيم

244 . "وثائق حول التاريخ السياسي والاجتماعي لمدينة مكناس في العصرالوسيط"، **مجلة كلية الآداب**، مكناس عدد2، سنة1987 ، ص 83 - 92

245."ظاهرة التسول في المغرب والأندلس خلال عصر المرابطين والموحدين "**مجلة كلية الآداب**، مكناس عدد،6 ، سنة1992 ، ص 114-115

البوزيدي أحمد

246. "البنيات العقارية وتأثيرها السلبي على النشاط الزراعي بدرعة"، **مجلة أمل**، عدد9 ، سنة1997

التازي محمد

247. "سكان أراضي المغرب في عصور التاريخ القديم"، **مجلة كلية الآداب بفاس** العدد2 و3.

التقي العلوي

248. "أصول المغاربة، القسم البربري"، **مجلة البحث العلمي** الأعداد،20,19, 23, 24, 25, 28

التوفيق أحمد

249. "التاريخ وأدب المناقب من خلال مناقب أبي يعزى"، ضمن **التاريخ وأدب المناقب**، منشورات جمعية المغربية للبحث التاريخي،1988

250. من رباط شاكر إلى رباط أسفي"، **ضمن أعمال أبي محمد صالح، المناقب والتاريخ**، منشورات كلية الآداب بالرباط،1990

251. "الفتوى في مواجهة التاريخ"، ضمن **التاريخ وأدب النوازل**، منشورات كلية الآداب بالرباط،1995

الجراري عباس

252. "الموحدون، ثورة سياسية ومذهبية"، **المناهل** ع - 1، سنة 1974 ، ص84-121

الجمل إبراهيم محمد

253-"الإمام عبد الله بن ياسين في رباط السينغال"، **مجلة البحث العلمي**، عدد 30 ص 247-252

الجنحاني الحبيب

254. "نظام ملكية الأرض في المغرب الإسلامي (من القرن1-6 هـ)"، **مجلة الدراسات التاريخية** عدد يوليو1981 ، ص30-40

الحسيسن عبد الهادي

255 . "موقف الموحدين من المذهب المالكي "في **مجلة القرويين** ع.4، سنة 1992 ، ص269-286

حسين مؤنس

256. "نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين"، **مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد**، مجلد1 عدد1955.3

الخديمي علال

257. "المجتمع الشاوي بين تأثيرات السلطة وتحولات المجال خلال القرن التاسع عشر"، منشور في **دفاترالشاوية** دار النشر المغربية - الدار البيضاء،1997

258. "عرف الرفود وحماية الأمن بنواحي الرباط وسلا خلال القرن التاسع عشر" في **التاريخ وأدب النوازل** دراسات تاريخية مهداة للفقيد محمد زنيبر الرباط، جامعة محمد الخامس،ص1995، ص241-259.

259. "أصول الرماية والرمي في التراث الشعبي **في المناهل**، ع 64-65. ص(2001)، ص470-480.

دندش عصمت

260. "حول رباط عبد الله بن ياسين"، **مجلة المناهل** عدد 11 السنة الخامسة مارس1978 ، ص 354-365

الذهبي نفسية

261. "التنظيم الصوفي الجماعي وتجربة الشيخ أبي محمد صالح"، ضمن **تاريخ إقليم أسفي**، منشورات مؤسسة دكالة - عبدة للثقافة والتنمية،2000, 195 -196

رابطة الدين محمد

262. "الأسس الجغرافية للحركة التومرتية"، **مجلة تاريخ المغرب**، ع 2 الرباط،1982

رضوان مبارك

263. حول القضايا المذهبية والعقيدية في العصر المرابطي من خلال فتاوي ابن رشد"، **من التاريخ وأدب النوازل**، دراسات مهداة للفقيد محمد زنيبر، منشورات كلية الآداب الرباط 1995

زنيبر محمد

264. "أزمة الحكم الموحدي في النصف الأول من القرن7 هـ/13م "**ضمن أعمال ندوة الأسطغرافية والأزمة**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط 1994

265. "حفريات في شخصية يعقوب المنصور الموحدي "في **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط** ع 9 سنة 1982، ص23-52 ، ع10 سنة 1984 م ص.25-44

266. "الخلفية الاجتماعية والثقافية لحركة المهدي ابن تومرت"، **مجلة المناهل** ع 24 ، سنة 1982

267. كيف نشأت التقاليد العلمية بسوس "**مجلة البحث العلمي**، عدد3، السنة الأولى1964

شبانة محمد كمال

268. "الدولة الموحدية تأملات في تاريخها"، **البحث العلمي**، عدد20-21، يوليوز1973ص144-161.

شيخة جمعة

269. "ثورة الميورقيين بإفريقيا وأثرها في توازن القوى بين الإسلام والنصرانية في المغرب والأندلس" les cahiers tunisie, revue des sciences humaines, n° 117 - 118 année 1981/p 91

الشريف محمد

270 . "تيارات التصوف في العصر الموحدي من خلال قطعة من كتاب المستفاد في مناقب العباد لأبي عبد الله محمد التميمي (ت 603 أو 604 هـ)، "ضمن ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية، **تيارات الفكر بين المغرب والأندلس**، منشورات كلية الآداب - تطوان1995 ، ص431 - 451

شعبان عبد الرحيم

271. "الإصلاح النقدي الموحدي"، **مجلة كلية الآداب الرباط**، ع 23 سنة 1999 ص139-177

شنيتي محمد البشير

272. "وضعية الأرض وطرق استغلالها في بلاد المغرب"، حوليات **جامعة الجزائر**، عدد 5 سنة 1990-1991، ص.103-115.

صدقي علي ءأزايكو

273. "حول النظرية التجزئية مطبقة على المغرب"، **مجلة كلية الآداب بالرباط**، عدد14 سنة 1988ص9 -33،

274. النسب والتاريخ وابن خلدون" **مجلة كلية الآداب بالرباط**، عدد 9 سنة، 1982 ص47-67.

275 ."التأويل النسبي (الجنيالوجي) لتاريخ شمال إفريقيا هل يمكن تجاوزه"، **مجلة كلية الآداب بالرباط**، عدد 15 سنة1989- 1990 ، ص.9-34

الصغير عبد المجيد

276. "التصوف المغربي والتصوف الأندلسي في القرنيين7 هـ، اتصال أم انفصال"؟ ضمن، **أبو محمد صالح التاريخ والمناقب**، منشورات كلية الآداب بالرباط،1990 ، ص15-29.

العلوي القاسمي هاشم

277. "حركة المهدوية في الغرب الإسلامي"، فيما بين260-865 هـ/1050-1640 م، **مجلة كلية الآداب بفاس**، العدد10، سنة1989 ، ص177 -188.

العمراني محمد

278. "مسألة الخمور في تاريخ المغرب الوسيط" مجلة أمل عدد16، سنة1999 ، ص59-75

279. "ثورات بلاد غمارة في الفترة المرابطية والموحدية"، مجلة أمل عدد 17(1999) ص102-135 .

العمراني محمد وحواش بن عبد الرزاق

280. "التجربة الموحدية في المغرب الكبير على عهد عبد المومن" **مجلة أبحاث** مجلة العلوم الاجتماعية، عدد2 ، سنة1991 ، ص61 - 81

عياش جرمان

281 . "حول تكوين وحدة الشعب المغربي"، **مجلة المغربية للاقتصاد والاجتماع**، عدد 4 سنة 1978 م ص239.258.

الفاسي، علال

282. "التصوف الإسلامي في المغرب، **الثقافة المغربية**"، عدد1، يناير - فبراير،1970

الفاسي، محمد

283. "سوس عند الجغرافيين والمؤرخين قديما وحديثا"، **المناهل** عدد23 ، ماي1982

فتحة محمد

284. "ملاحظات حول علاقة المدينة بالبادية خلال نهاية العصر الوسيط"، ضمن أعمال ندوة المدينة في تاريخ المغرب العربي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بنمسيك-الدار البيضاء سنة1988، ص.348-388.

الفحصي أحمد

285. "أبو العباس السبتي المثال الذي حارب ظاهرة الفقر في المجتمع الإسلامي"، **المجلة الإسلامية** عدد 17

فرحات حليمة وحامد التريكي .

286 . "كتب المناقب كمادة تاريخية"، ضمن **التاريخ وأدب المناقب**، مطبعة عكاظ، الرباط،1988

القبلي محمد

287. "حول التحركات البشرية بمجال المغرب الأقصى فيما بين منتصف القرن 12 ونهاية القرن13 م"، ضمن **جوانب من تاريخ المجال والسكان بالغرب**، منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء،1998 ، ص 75 - 91.

288. ملاحظات حول التجارب الوحدوية الوسيطية"، **مجلة كلية الآداب بالرباط**، عدد 9 سنة 1982 ص. 22-7.

3- المراجع باللغات الأجنبية

BASSET (H.) et TERASSE	**Sanctuaires et forteresses Almohade Hespéris**, T.IV, année 1924,Ier trimestre, pp , 9-91
BEN YOUNES, Rosalie	**Recherches sur le Mode de production au temps des Almohades**.Th.3e cycle , Hist. Paris I , 1986
Berchem (M.V)	**Titres califiens d'occident**, a propos de quelques monnaies Mérinides et zayyanides. Journal asiatique, 10, 1907, pp,245-235.
Berhtier(P),	**Les anciennes sucreries du Maroc, et leurs réseaux hydrauliques, études archéologique et dhistoire économique**, Rabat, 1966
BERQUE (J.),	**Maghreb histoire et sociétés**, S.N.E.D., Ducolot 1974. Maghreb Structures sociales du Haut-Atlas, P.UF. 2éd. Paris, 1978.
Braudel (F),	**La Méditerranée et le monde méditerranéen à lépoque de Philippe** II, Paris, Armand Colin, 3è éd.1976
BRIGNION et autres,(H),	Histoire du Maroc, Hatier, Paris1967
Brunschvig	La doctrine du Mahdi Ibn Tumart, Arabica, 1955-2. Encore sur La doctrine du Mahdi Ibn Tumart, Folia Oriontalia,T.II,1970. paru de nouveau In Etudes dIslamologie , Paris, T.I,1976 .p,281-293 et 295-303
Caille(J)	**La ville de Rabat jusqu'au protectorat français**, Paris 1949
Camps(G)	**Berbères, au marge de l'histoire**, éd. Des Hespérides, 1980.
Cattenoz (H. G),	**Tables de concordance des ères chrétiennes et Hégiriennes,** Rabat, 1961
Célérier (J),	L'Atlas et la circulation au Maroc, Hesperis.4é triméstre, 1928
cenival (Pierre de), Tom.XXIV, 1937	Les émirs des Hintata, rois de Marrakech. Hespéris,
Chabel Malek,	**Dictionnaire des symboles Musulmans**, Albin Michel, 1995
Chevalier, Jean	**Dictionnaire des symboles**, Paris, 1982.
CHARLES DE FCAULD,	**Dictionnaire Touareg-Français**, 4 tomes, Imprimeries Nationale de France 1951.
Collectif,	**L'espace de L'Etat au Maroc et dans le tiers-monde, Rabat 1985**
	Mahdisme; crise et changement dans l'histoire du Maroc. Acte de la table rond organisée à Marrakech.
	Publication de la Faculté des lettres et des Sciences Humaines - Rabat 1994, série , colloques et séminaires N 35

Desanges (J), **Catalogue des tribus africaines** de l'Antiquité classique à l'Ouest du Nil-Dakar, 1962

Dresch. (J) **Recherches sur l'évolution du relief dans le Massif central du Grand-Atlas, le Houz et le Sous**. Paris1941

Deverdun (G) **Marrakech des origines à 1912**, Rabat 1959

DOZY (R), **Supplément aux dictionnaires arabes**, 2e éd.Lied, Paris, 1927et Bayrouth, 1968.

Drague(G), **Esquisse de l'histoire religieuse du Maroc**, Paris (sans date)

Dufourcq (ch.E) **La coexistence des Chrétiens et des Musulmans dans l'Andalous et dans le Maghreb au Xè siècle**, Paris1979

Fagnan(E) Extrait inédit d'histoire almohade, Paris 1928

Farhat(halima), **le Maghreb au XIIIè siècle/les siècles de la fois**, Casablanca, Wallada, 1993

Goldziher (I), Mohamed Ibn Tumart et la théologie de l'Islam dans le Nord de l'Afrique au XIe siècle, Préface à l'éd. Luciani, Alger 1903

Guichard(P), **Structures sociales orientales et occidentale en Espagne musulmane**, Molitor, Paris1977

Heers (Jaques), **Le clan familial au Moyen-âge**, Presse universitaire de France, Collection Hier, Paris1974

Huici Miranda, **Historia politica del Imperio almohad**, 2vol. Tetouan, 1956-57

Julien(Ch), **Histoire de l'Afrique du nord**, Paris, Payot, 1978

Troin, jean François et autres **Le Maghreb, hommes et espaces**, Armond Colin- collection U, Paris1985

Kably (Mohamed), **Société, pouvoir et religion au Maroc** à la fin du Moyen-Age. Maisonneuve et Larosse.Paris1986

Urvoy(d), **Le monde des Ulémas andalous**, XI- XIIs.Geneve, 1978.

Lévis-Provençal (E) **Documents inédits d'histoire almohade**, Paris 1928

Marçais (G), **La Berbérie musulmane et l'Orient au moyen-âge**, Paris, éd. Montaigne, 1940

Massignon(L), **Le Maroc dans les premières années du 16é siècle**. Tableau géographique d'après Léon l'Africain, Alger, 1906

Meunie (J), **Le Maroc saharien des origines à 1670**, Paris, éd. Klinksieck, 1982

Meznine, Larbi, **Contribution à l'histoire du Tafilalet**. Aspect d'histoire économique et social à travers l'analyse de quatre documents inédits, éd. Faculté des lettre de Rabat, 1987

Montagne(R), **Les Berbères et le Maghzen dans le sud du Maroc**, Paris 1930

Roger (R) **Le Maroc chez les auteurs anciens**, Paris 1924,

Pascon(P.) **Le Haouz de Marrakech**, Rabat 1977

Marcy (G), **Le droit coutumier Zemmour**, Paris, éd.P.I.H.E.M, 1949

Surdon (G), **Esquisses de Droit coutumier berbère marocain**, Paris 1928

Terrasse (H) Histoire du Maroc, Paris, 1952

Tozy Mohamed , **Monarchie et Islam politique au Maroc**, Presse de science po.2e, éd.1999

3 -Articles

Alain. (Ch) et Deverdun(G) Les portes anciennes de Marrakech, Hespéris, t. XLIV, 1er 2ème trimistre1957

Basset(H)

Terrasse(H) , Sanctuaires et forteresses almohade in Hespéris, 1924. Un aqueduc almohade à Rabat in Revue africaine1923

Bel(A) , Contribution à l'étude des dirhams de l'époque almohade, Hespéris, t XVI, fasc. I-II, 1er-3ème tri, 1933

Les banou Ghania, Paris 1903.

Ben Salim (Lilia) , Intérêt des analyses en termes de segmentarité pour l'étude des sociétés du Maghreb, in Revue de l'occident musulman et de la Méditerranée N°33,1982

BERQUE (J.) , Notes sur l'histoire des échanges dans le Haut -Atlas occidental, in Annales, Juillet-septembre 1953.pp , 289-314 Du nouveau sur les bani- Hillal, in Studia islamica, t.XXXVI, 1972

Antiquité Sksawa, in Hespéris. 1953, 4trimestre p.383

BERQUE (J.) , Qu'est-ce qu'une «tribu»nord-africaine ? in Maghreb structures sociales du Haut-Atlas, P.U.F. 2éd. Paris 1978

BOUROUBIA (Rachid) , IBN TUMART.S.N.E.D.Alger1974. à propos de la date de la naissance d'Ibn Tumart, revue d'histoire et de civilisation du Maghreb. No 1,1966.No 2,1967

Colin(G) , L'exploitation de la mine d'argent de Zgounder (Siroua) au XIIIéme siècle, Hespéris, t.XLI, 1er et 2éme trim.1954

De La Chappele (F) , Les tribus du Haut- Atlas occidental, in revue des Etudes Islamique, Année1928, cahier III. p,350-351

Decenval(P) , l'église chrétienne de Marrakech au XIIIéme siècle, Hespéris, t.VII, 1927

Deverdun(G) et Ghiat (A) Deus Tahbis almohade, Hespéris, t.XLI, 1954

Dufourcq (ch.E) La coexistence des Chrétiens et des Musulmans dans l'Andalou et dans le Maghreb au Xè siècle, Paris1979

essai d'une théorie générale de la morphologie berbère in Hespéris, 1931, T. XII, Fas.I. p , 50-90.Fasc. II. p,177-203

Idris (Reger-Hady) Sur la diffusion de l'assarisme en Ifriqiya, in Cahiers de Tunisie, 2, 1952

Laoust (Emile) , Contribution à une étude de la toponymie du Haut-Atlas, extrais de la revue des Etudes Islamiques. Année 1939, Cahiers III-IV 1940,cahiers I-II, Paris1942.

Mots et choses Berbères, Casablanca, 1983-Mots et choses Berbères, Société marocaine d'édition, Rabat, 1983

Laoust(H) , Une Fatwa sur Ibn Tumart, in Bulletin de l'istu.d'arch.oriontale, T59, 1960

Laroui (A) , Sur le Mahdisme d'Ibn Tumart, in Mahdisme , crise et changement dans l'histoire du Maroc, publication de la faculté des lettres, Rabat 1994

Le tourneau (R) Sur la disparition de la doctrine Almohade, Studia Islamica, XXXII, p , 193-201.

L 'occident Musulman du VII à la Xves AIEO t I 1958p172.

Magali Morsy , Réflexion sur le système politique marocain dans la longue durée historique, in L'espace de L'Etat au Maroc et dans le tiers-monde, Rabat 1985.

Marçais(G) , Les phrases berbères des «documents inédits d'histoire almohade » in Hespéris, T.XIV .fasI. anneé1932

Essai d'une théorie générale de la morphologie berbère in , Hespéris, 1931, T. XII, Fas.I. p , 50-90.Fasc. II. p,177-203

Mauny (R) Tableau géographique de l'ouest africain au moyen-âge, Dakar, 1966

Rosenberger. (B) , Autour d'une grande mine d'argent de Mi-Atlas marocain, Le djbel Aouam, Hes-Tamuda1964

Notes sur Kouz, in Hespéris Tamuda, 1962

Talbi. Mohamed. ,Quelques données sur la vie sociale en occident musulman, Arabica1954

Hérésie, acculturation et nationalisme des Berbères Bargawata, in actes du premier congés d'études des cultures Méditerranéennes d'influence Arabe-Berbère. Mata, 1972, Alger 1

Thouveot (5) , Une forteresse almohade , Dchira, Hespéris, t.XVII, 1933

Urvoy(d) , La pensée d'Ibn Tumart, in Bulletin d'études orientales, t. XXVII, Damas1975

Les divergences théologiques entre Ibn Tumart et Gazali, in Mélanges offerts à Mohamed Talbi à l'occasion de son 70° anniversaire ; publication de la faculté des lettres de Mamouba, 1993 ; p ,11-23

Vanacker (C) , Géographie économique de l'Afrique du nord selon les auteurs arabes du IXè au milieu du XIIè. Annales ; Mai-Juin 1973,p , 659-80

Zaafarani. (H) , Judaïsme d'occident musulman. S.Isalamica, LXIV, 1986, pp , 125-14

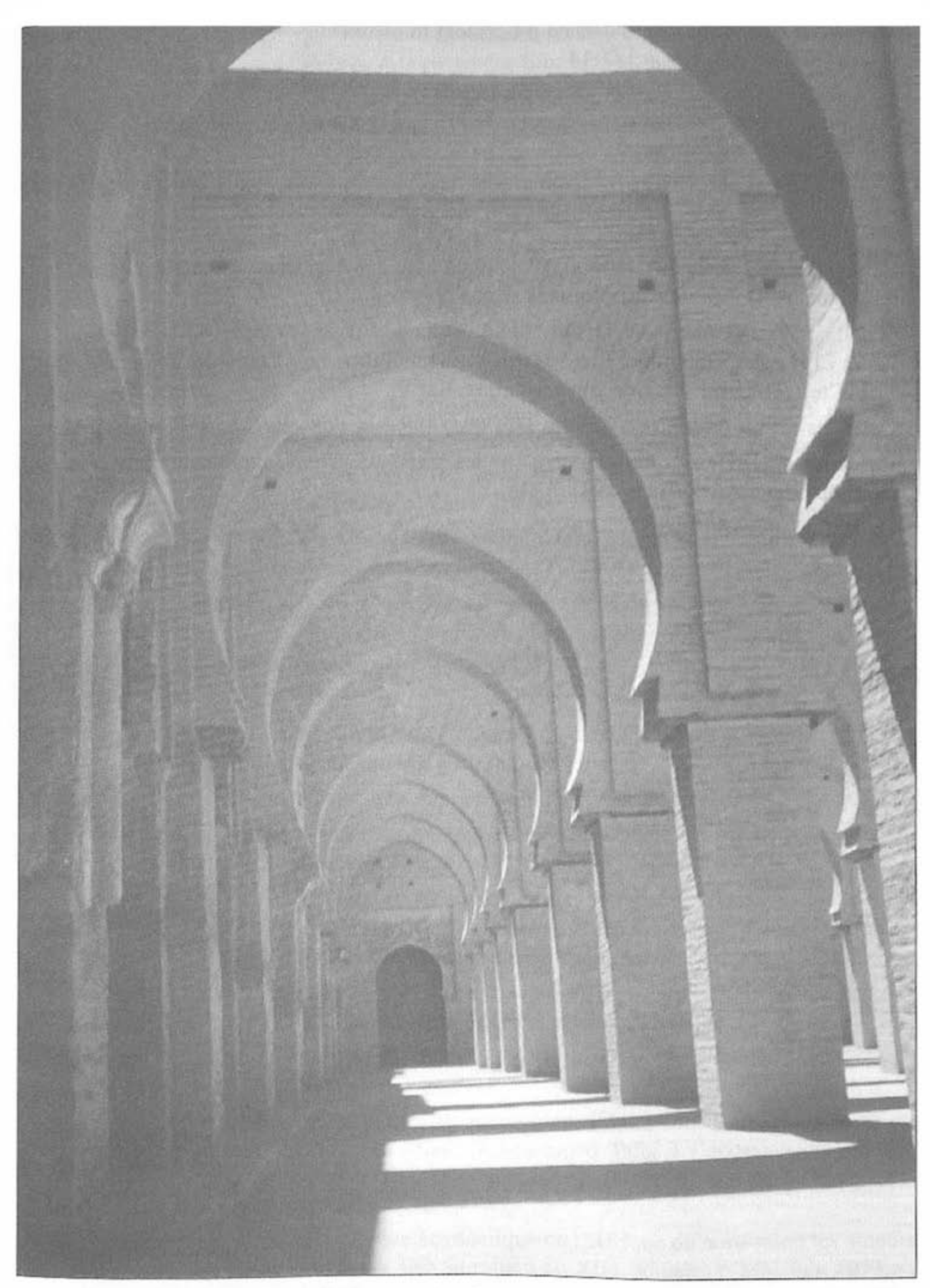
1. Encyclopédie Berbère.

2. Encyclopédie de L'Islam, Leiden, nouvelle édition.

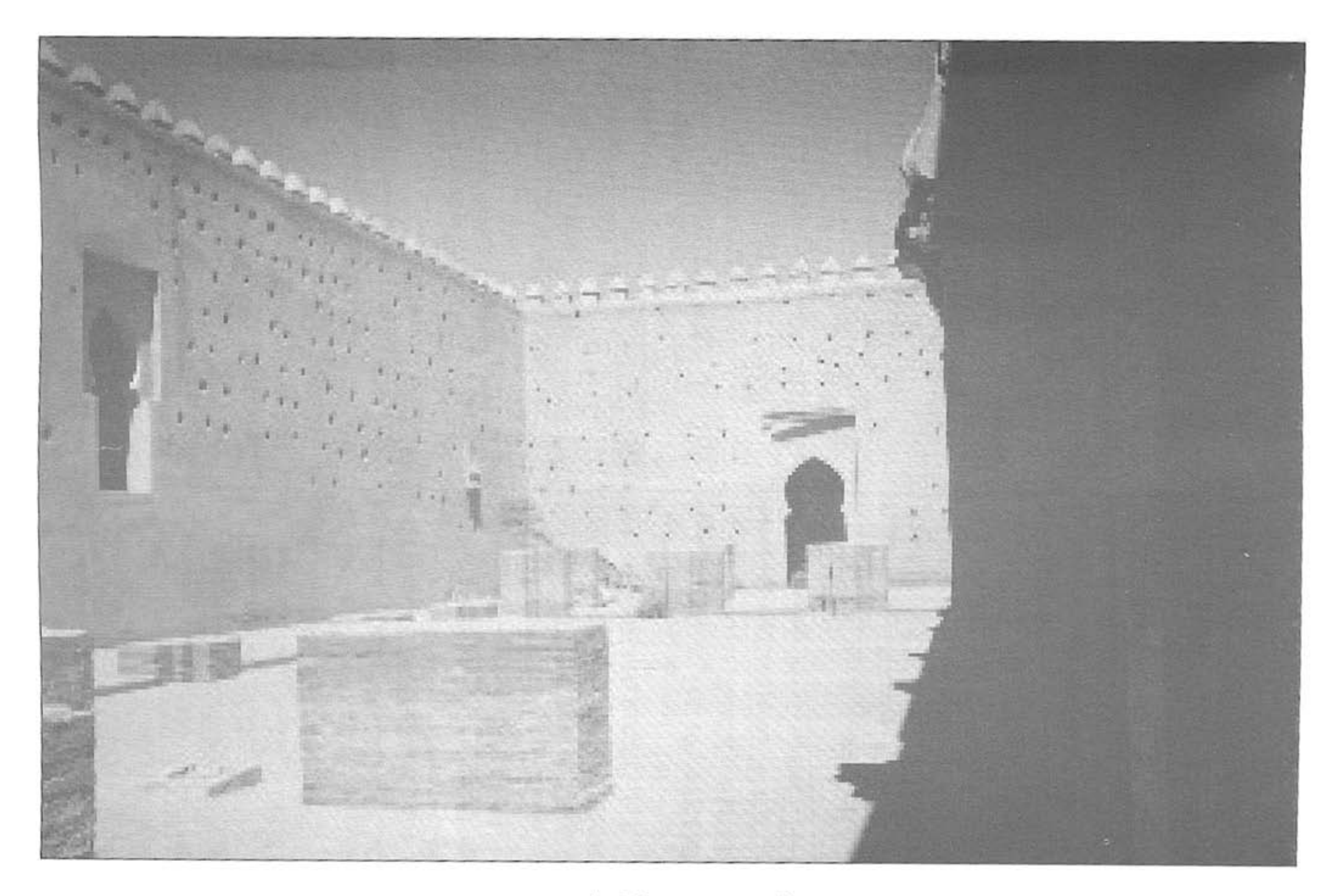
4 - الخرائط

- Carte ethnique. Echelle ,1/1.500.000, Bureau de la Résidence générale à l'aide des renseignements fournis par le commandent Robert Aspiron.
- Echelle 1/200.000 , Agadir Tissint, Akka, Alougo , Argana, Coude de Darà, essaouira, Foum El Hassan, Goulmine, Jbel Sarhro, Tafraout, Taliouine, Tamanar, Taroudant, Tata, Tizi N'test, et Tiznit. Service topographique, Rabat.
- Carte des tribus du Maroc , Echelle 1/1.000.000 Résidence générale de France au Maroc

Les cartes de J. Dresch In document sur les genres de vie de montagne dans le massif central du Grand Atlas. Tours 1941.



صورة لمسجد تينمل من الداخل



جانب من مسجد تينمل

فهرس الأعلام

ا

ن

القبائل والجماعات البشرية

ا

ب

ت

خ

ط

و

فهرس الأماكن

ا

ب

ت

ج

ح

د

ر

ز

س

ش

ص

ع

غ

ف

ق

م

ن

ط

ل

فهرس الموضوعات

المؤلف

ازداد سنة 1953 بدوار أمكّون، جماعة اثنين أضار، إقليم تارودانت؛

أستاذ سابق بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية، وبنمسيك، بين سنتي 1985 و2002؛

مدير أبحاث سابق بمركز الدراسات التاريخية والبيئية بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية بالرباط، بين سنتي 2003 و2005.

حاصل على :

دبلوم الدراسات العليا من كلية الآداب بالرباط، سنة 1988، في موضوع : جوانب من تاريخ التعليم بالمغرب الوسيط (منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، 2004)؛

دكتوراه الدولة من كلية الآداب ظهر المهراز-فاس، سنة 2001، في موضوع : الدولة والمجتمع في العصر الموحدي (هذا الكتاب)؛

للمؤلف دراسات ومقالات عديدة في التاريخ المغربي، بعضها منشور في المجلات المتخصصة في التاريخ.

هذا الكتاب

يعدّ فهم ودراسة المجتمع المغربي وخصوصياته في العصر الموحدي أمرا مستحيلا، بمعزل عن دراسة المجتمع في الغرب الإسلامي ككل، ذلك لأن الدراسة الاجتماعية لا تتطلب تبني "الحقبة الطويلة" فقط، بل تتطلب أيضا رقعة جغرافية شاسعة في حجم الغرب الإسلامي، كما لا يمكن فهم طبيعة الدولة الموحدية، إلا في مجال نفوذها الواسع.

حُدّد الإطار الزمني لموضوع هذا الكتاب في قرن ونصف، أي بين سنتي 518هـ/1125م (أي سنة انطلاق الإصلاح الموحدي وقيام دولة العصبية المصمودية)، وسنة 668هـ/1270م، التي استولى فيها المرينيون على مراكش عاصمة الموحدين. والقصد من اختيار هذا الإطار الزمني هو دراسة كيفية حلول عصبية قبلية، مثل العصبية المصمودية، محل العصبيات الحاكمة قبلها بالغرب الإسلامي، وتتبع أثر الإصلاح الديني الموحدي على المجتمع وتبيان حدوده خلال تلك الفترة.

تكمن الإشكالية المركزية للموضوع في تأثير الإصلاح الديني الموحدي على البنيات الاجتماعية السائدة، وعلى علاقات الحكام بالمحكومين. ولقد اعتمدت معالجة هذه الإشكالية على دراسة الإصلاح الديني الموحدي كبنية ثقافية، ودراسة البُنى الاقتصادية ثم التشكيلات السياسية-الاجتماعية، وكذا رصد طبيعة العلاقات بين الحكام والمحكومين، باعتبارها ثمرة لتفاعل تلك البنيات. حيث تطرقت الدراسة للتحولات الثقافية الكبرى التي شهدها المغرب خلال العصر الوسيط في شتى المجالات.